

الأبناء

بيرو باك

- Author : Pearl S. Buck
 - Title: Sons
 - Translated by: Saad Al Gabalawy
 - Afaq's first edition: 2018
 - Cover Design by: Amr El Kafrawy
 - Publishing Consultant: Sawsan Bashier
 - General Manager: Mostafa Alsheikh
- ♦ المؤلف: بيرل باك
 - ♦ العنوان: الأبناء
 - ♦ ترجمة: سعد الجبالوي-
 - ♦ عابدة أبادير
 - ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
 - ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
 - ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
 - ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ٢٥٠٠٥

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 148 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

بيرل باك

الأبناء

رواية

ترجمة

سعد الجبلأوي - عايدة أبادير

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

باك، بيرل.

الأبناء - ترجمة: سعد الجبلاوي

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

656 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25005 / 2017

الترقيم الدولي 6 - 148 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - باك، بيرل

رقد وانج لانج يعاني سكرات الموت في بيته المظلم العتيق المشيد من الطين وسط مزارعه، في الغرفة التي كان ينام فيها أيام شبابه، على نفس الفراش الذي قضى فيه ليلة زفافه. كانت الغرفة حقيرة، أحقر حتى من مطهى في ذلك البيت الكبير الذي يمتلكه أيضاً في المدينة، والذي يقطنه الآن ابنه وأبناؤهما. بيد أنه، إذا لم يكن من الموت بد، فقد قنع بأن يودع الحياة هنا، وسط أرضه، في بيت آبائه هذا العتيق، وفي هذه الغرفة ذات النضد والمقاعد البسيطة العارية من الطلاء، وتحت ستائر فراشه القطنية الزرقاء.

أدرك وانج لانج أنه قد آن له أن يذوق الموت، وتطلع إلى ولديه الجالسين بجواره، فعرف أنهما في انتظار وفاته، وأن ساعته قد حانت. لقد اكتريا له الأطباء المهرة من المدينة، فقدم هؤلاء يحملون إبرهم وأعشابهم، ثم جسوا نبضه طويلاً، وألقوا نظرة على لسانه، لكنهم في نهاية الأمر جمعوا عقاقيرهم تأهباً للرحيل، قائلين:

«لقد هزمته الشيخوخة، وليس في وسع المرء أن يتجنب منيته المحتمومة.»

عندئذ سمع وانج لانج همس ولديه اللذين قدما للبقاء معه في هذا البيت المشيد من الطين، ريشما توافيه المنية. ورغم اعتقادهما أنه سادر في النوم، فقد سمع حديثهما حين قال أحدهما للآخر، وكلاهما يحدق في وجه صاحبه بجد ووقار:

«يجب أن نبعث برسول إلى الجنوب في طلب ابنه الآخر.. شقيقنا»
فأجاب الابن الثاني: «أجل، يجب أن نرسل في طلبه على الفور، فمن يدري أين يجوب الآن مع ذلك الجنرال الذي يعمل تحت إمرته؟»
وإذ استمع وانج لانج إلى هذا القول، أدرك أنهما يعدان العدة لتشيع جثمانه إلى مثواه الأخير.

وبجوار مضجعه، استوى نعشه الذي ابتاعه ولداه من أجله، ووضعاه هناك ليبعث في قلبه الراحة. كان نعشاً كبيراً، نحت من إحدى الأشجار الضخمة الصلبة، فضاقت به الغرفة الصغيرة، حتى صار لزماً على الرائحين والغادين فيها أن يدوروا من حوله، بل ويحتكوا به. ورغم أن ثمن هذا النعش بلغ ما يقرب من ستمائة قطعة من الفضة، فإن وانج الثاني لم تثر حفيظته من جراء هذا الإسراف، في حين أن المال يمر عادة من بين أصابعه في بطاء بالغ إلى حد أنه قلما يخرج من يده بنفس القدر الذي يدخل به إليها. كلا، إن ولدي وانج لانج لم يحسَّ بالحق من أجل الفضة، لأن أباهما وجد في نعشه هذا الرائع راحة شاملة، حتى إنه أخذ، بين الفينة والفينة، يبسط يده الشاحبة الواهنة - كلما وافته القدرة على ذلك - كي يتحسس بها الخشب الأسود المصقول. وفي داخل النعش، كان ثمة نعش داخلي أيضاً، صقل سطحه حتى صار أملس كالحرير الأطلس الأصفر،

والنعشان يتواءمان أحدهما في الآخر، كروح الإنسان في جسده. كان النعش خليقاً بأن يبعث الراحة في قلب أي إنسان.

ورغم كل هذا، فإن وانج لانج لم يتسلل إلى عالم الموت في سهولة ويسر كما فعل أبوه الهرم من قبل. حقاً كانت روحه تتأهب للرحيل على الطريق عدة مرات، بيد أن جسده القوي العجوز تمرد عليها في كل مرة، مُصِراً على التخلف عنها حتى تأفل شمس اليوم. وحين بدأ الصراع بين الروح والجسد، ذعر وانج لانج للمعركة التي شعر بها تدور في أعماقه، فقد كان دائماً جسداً أكثر منه روحاً. كان رجلاً بديناً، يفيض حيوية وقوة يوم كان في أوج شبابه، فلم يكن في مقدوره أن يسمح لجسده بالرحيل في تهاون واستخفاف. وإذا شعر بروحه تتسلل بعيداً، استبد به الخوف، فراح يصرخ كالأطفال في صوت لاهث أجش، دون أن ينبس ببنت شفة.

وكلما صرخ على هذا النحو، كانت محظيته الشابة، بيربلوسوم، التي تجلس بجواره ليل نهار، تمد ذراعها، وتربت بيدها الشابة ملاطفة يده العجوز، في حين يسرع ولداه إليه ليبتا السكينة في قلبه، بسرد الروايات التي تدور حول حفل الجناز الذي سيقامانه من أجله، ويرددان على سمعه المرة تلو المرة كل ما يزمعان القيام به، فينحني الابن الأكبر، بجسمه الضخم المكسو بالأطلس، على الشيخ الهزيل الذابل المحتضر، صائحاً في أذنه: «سنعد موكباً يمتد لمسافة تربو على الميل. وسنكون جميعاً هناك لنرتيك، زوجاتك باكيات نائحات كما ينبغي أن يفعلن، وأبناؤك وأبناء أبنائك في أردية الحزن البيضاء المصنوعة من القنب، وكذا القرويون والمستأجرون لأرضك جميعاً. سيكون هودج روحك في

مقدمة الموكب، وبداخله الصورة التي كلفنا أحد الفنانين برسمها لك. وفي أعقاب الهودج، يقبل نعشك الفخم الضخم الذي سترقد فيه وكأنك أحد الأباطرة متشجًا بالأردية الجديدة التي أعدناها لك. كما أننا اشترينا بعض الأقمشة المطرزة ذات الألوان القرمزية والذهبية، لتبسط على نعشك، وهو محمول في شوارع المدينة، ليكون قبلة للناظرين جميعاً!»

ويظل يصبح هكذا، حتى يصبح وجهه قائماً، فقد كان في غاية البدانة. وحينما ينتصب واقفاً مرة أخرى ليلهث بطريقة أكثر يسراً، يأخذ الابن الثاني على عاتقه أمر الرواية. وهو رجل ضئيل الجسم، أصفر الوجه، واسع الحيلة، ينبعث صوته من أنفه رفيعاً خفيفاً. فيقول له:

«سيأتي أيضاً الكهنة الذين سيشيعون روحك بالترانيم إلى جنات النعيم، وستقبل كذلك النادبات الأجيريات والحمّالون في أرديتهم الحمراء والصفراء، لحمل الأشياء التي قمنا بإعدادها لك لتستعملها عندما تنتقل إلى عالم الأرواح. فلدينا بيتان صنعنا من الورق والبوص، أعدا في البهو الكبير، أحدهما على نمط بيتك هذا، والآخر يشبه بيتك في المدينة، وهما مزدحمان بالأثاث والخدم والعبيد، فضلاً عن هودج وجواد، وكل ما تحتاج إليه. والبيتان قد صنعنا صناعة متقنة من الورق على شتى ألوانه وأطيافه، حتى إننا حينما نقوم بإحراقهما أمام قبرك، ونبعث بهما في أعقابك، أقسم لك عن يقين إنه لن يكون ثمة شبح آخر يباري شبحك في روعته. وستحمل كل هذه الأشياء في الموكب ليراها الجميع. ونحن نتضرع إلى الآلهة أن تمنحنا يوماً معتدلاً لتشييع الجنازة!»

عندئذ أحس الشيخ بغبطة غامرة، وشهق قائلاً:

«أعتقد أن المدينة -بأسرها- ستكون هناك!»

فصاح ابنه الأكبر في صوت جهير، وهو يلوح بيده المكتنزة الشاحبة الناعمة في إيماءة عريضة: «حقاً ستكون المدينة بأسرها! سيصطف جميع الناس الذين سيقبلون لمشاهدة الموكب، على جوانب الشوارع، إذ لم يبق مثل هذا الجناز من قبل. كلا، لم يبق مثله منذ كان بيت هوانج الكبير في أوج عظمتة!».

فقال وانج لانج: «آه» وشعر بالراحة تغمر قلبه، حتى إنه أغفل فكرة الموت مرة أخرى، وراح في إحدى إغفائه الخفيفة المفاجئة.

لكن هذه الراحة لم يكن من الممكن أن تدوم إلى الأبد، فقد وصلت إلى مداها، حينما أقبلت ساعة معينة، في مطلع فجر اليوم السادس من احتضار الشيخ. كان الابنان قد أنهكت قواهما في انتظار هذه الساعة، إذ لم يألفا هذه المشاق في مثل هذا البيت الضيق الخائق الذي لم يقطناه منذ أيام الصبا. وتحت وطأة الإرهاق من جراء احتضار أبيهما الذي طال مداه، ركنا إلى الفراش في الرواق الداخلي الصغير الذي كان وانج لانج قد شيده منذ أمد بعيد، في تلك الأيام التي اتخذ فيها من «لوتس» محظيته الأولى، أيام كان في عنفوانه. وقبل أن يذهب إلى هناك، والليل بعد في بدايته، طلبا إلى بيربلوسوم أن تدعوهما إذا شرع أبوهما في الاحتضار مرة أخرى بصورة مفاجئة. ثم مضيا ينشدان الراحة.

وهناك على الفراش الذي كان وانج لانج يعتبره فراشاً وثيراً للغاية -نفس الفراش الذي طالما مارس فيه الهوى في شهوة عارمة- اضطجع ابنه الأكبر متذمراً لأن الفراش صلب كسيح من شدة القدم. وراح يشكو

من الغرفة المظلمة الخائقة للأنفاس، في حين أنهما الآن في فصل الربيع. لكنه ما إن ألقى بجسمه حتى استغرق في نوم عميق، وأخذ يغط عاليًا، وتتحسّر أنفاسه القصيرة في حلقه الغليظ. أما وانج الثاني، فقد اضطجع على متكأ صغير من الخيزران يستند إلى الحائط، ثم نام نومًا خفيفًا وادعًا كما تنام الهرة.

على أن بيربلوسوم لم تذق طعم النوم على الإطلاق، بل جلست طوال الليل بطريقتها الهادئة، لا تحرك ساكنًا، على مقعد صغير من الخيزران، منخفض إلى حد أن وجهها كان قريبًا من وجه الشيخ، وهي جالسة بجوار الفراش، تضم كفه العجوز الجافة بين كفيها الناعمتين. ومع أنها كانت شابة صغيرة في مستقبل العمر إلى درجة تؤهلها لأن تكون ابنة وانج لانج، إلا أنه لم تكن تبدو عليها أمارات الشباب، لأن وجهها يحمل أعجب سمات الصبر، فهي تقوم بكل شؤونها في صبر تدربت عليه حتى بلغ حد الكمال، الأمر الذي يتنافى مع طبيعة الشباب. هكذا جلست بجوار الشيخ الذي كان يعاملها في عطف بالغ جعله أشبه بأبيها من أي إنسان آخر عرفته طوال حياتها. ولم تذرف الدموع، بل مكثت الساعة تلو الساعة تتطلع بنظرة ثابتة إلى وجهه المحتضر، وهو نائم نومًا ساكنًا عميقًا كأنه الموت.

وعلى حين غرة، في ذلك الهزيع الأخير الذي تشتد فيه ظلمات الليل، قبل بزوغ الفجر مباشرة، فتح وانج لانج عينيه، وأحس بالوهن، حتى لقد بدا له وكأن روحه فارقت جسمه فعلًا. وأدار حذقتي عينيه قليلًا، فرأى محظيته بيربلوسوم جالسة هناك. كان قد بلغ منه الضعف مبلغًا جعل

الخوف يسري إلى قلبه، فقال هامسًا، وأنفاسه تتحسّج في حلقة، وتurf بين أسنانه: «أهو الموت يا بُنية؟».

وإذ رآته على هذه الحال من الرعب، قالت بهدوء، في صوت مسموع، تبدو نبراته طبيعية:

«كلا، كلا، يا مولاي. أنت أحسن حالًا. إنك لا تعاني سكرات الموت».

فهمس قائلاً مرة أخرى: «هل أنت على يقين؟» وأحس بالراحة لسماع صوتها المألوف، وثبت عينيه المتحجرتين على وجهها.

حينئذ، أدركت بيربلوسوم ما سيحدث حتمًا، وأخذ قلبها يخفق سريعًا عنيفًا، فنهضت، وانحنت عليه، قائلة بنفس صوتها الناعم المألوف: «هل خدعتك يومًا يا مولاي؟ انظر، لكم أحس بيدك التي أمسكها دافئة قوية في يدي. إني أعتقد أنك تتحسن في كل لحظة. أنت على خير حال يا مولاي. ليس ثمة ما يدعو للخوف. كلا، لا تخش شيئًا. إنك أحسن حالًا. إنك أحسن حالًا».

هكذا تابرت في ثبات على تهدئة روعه، مرددة على سمعه مرارًا أنه على خير حال، وهي تشد قبضتها على يده في حرارة. في حين رقد هو يتطلع إليها باسمًا، وعيناه تزدادان قتامةً وتحجّرًا، بينما تتصلب شفاته، وهو يرهف السمع كي يلتقط نبرات صوتها الثابتة الرتيبة. وحين تبينت أنه حقيقةً يلفظ آخر أنفاسه، انحنت عليه حتى كادت تلامسه، ورفعت صوتها فانطلق جليًا عاليًا، وهي تهتف قائلة:

«أنت أحسن حالًا. أنت أحسن حالًا. لآلن تموت يا مولاي. إنه ليس الموت».

على هذا النحو بثت السكينة في قلبه، وبينما هو يحشد نبضات قلبه الأخيرة على رنين صوتها، انطفأ سراج حياته. بيد أنه لم يستطع أن يودع الحياة في دعة وسلام. كلا، بالرغم من أنه مات مرتاح القلب، فإنه عندما انتزعت روحه نفسها منه، إذا بجسده المختنق ينتفض انتفاضة هائلة وكأن الغضب يعصف به، فاندفعت ذراعه وقدماه في قوة عارمة، حتى إن يده الهرمة البادية العظام اختلجت إلى أعلى، فاصطدمت بـ«بيرلوسوم»، وهي منحنية عليه.. ارتطمت يده بوجهها مباشرة في لطمة بلغ من حدتها أنها وضعت يدها على خدها، وتمتت قائلة:

«هذه هي أول لطمة تكيّلها لي يا مولاي».

بيد أنه لم يحر جوابًا. حيثنّد، أطلت عليه، فرأته مضطجعًا في وضع مائل تمامًا. وبينما هي تتطلع إليه، زفر آخر أنفاسه في لفحة، ثم خمدت حركته. فبسّطت له أطرافه الهرمة، وهي تلمسه لمسًا رقيقًا هينًا، ثم سوت الملاحف عليه في الوضع اللائق، وأسبلت بأصابعها الحانية عينيه الجاحظتين اللتين انطفأتا إلى الأبد، وأنعمت النظر برهة في البسمة التي ما زالت ترسم على وجهه، والتي كانت قد أشرقت حين ذكرت له أنه لا يعاني سكرات الموت.

وعندما فرغت من كل هذا، أدركت أنها يجب أن تمضي لدعوة ولديه، لكنها جلست على المقعد المنخفض ثانية. كانت تدرك جيدًا أن عليها أن تنادي ولديه، ولكنها أخذت اليد التي لطمتها، واحتضنتها في

يدها، حانية رأسها عليها، وتحدرت من مآقيها بضع عبرات صامتة، وهي بعد وحيدة. غير أنها كانت تحمل قلباً غريباً في ثنايا صدرها، ينطوي على الحزن في صميم كيانه، فلم يكن في وسعها قط أن تذرف الدمع لتفرج به عن نفسها، شأن غيرها من النساء؛ لأن دموعها لم تكن تمنحها السلوى على الإطلاق. ومن ثم، لم تجلس طويلاً، بل نهضت، ومضت تنادي الأخوين، قائلة:

«ليس ثمة ما يدعوكمما للعجلة، فقد وافته المنية فعلاً».

لكنهما استجابا لندائهما، وتعجلا خطاهما، ثم خرجا إليها، يرتدي الأكبر ثيابه الداخلية المصنوعة من الأطلس، وقد تثنت تمامًا في أثناء نومه، وبدا شعره أشعث، ثم قصدا أباهما على الفور، حيث كان راقداً كما بسطته بيربلوسوم. أخذ هذان الابنان يحملقان فيه، وكأنهما لم يرياه مطلقاً من قبل، بل وكأنهما شبه خائفين منه الآن. عندئذ قال الابن الأكبر هامساً، كما لو كان بالغرفة أحد الغرباء:

«هل كانت وفاته يسيرة أم عسيرة؟».

فأجابت بيربلوسوم بطريقتها الهادئة:

«لقد مات دون أن يعي من أمره شيئاً».

ثم قال الابن الثاني:

«إنه يرقد كالنائم، وكأنه لم يمت على الإطلاق».

وبعد أن تفرس الابنان برهة في أبيهما الميت، لاحا وكأنهما قد امتلا بخوف غامض مبهم لرؤيته راقداً هناك، لا حول له ولا قوة، وهما يحملقان

فيه . وتكهنت بيريلوسوم بما اكتنفهما من رهبة، فقالت في لهجة رقيقة:

«لم يزل بعد الكثير مما ينبغي القيام به من أجله».

وهنا أجفل الرجلان، وقد أحسا بالغبطة لأنها عادت بهما إلى عالم الأحياء مرة أخرى، فنسق الأكبر رداءه عليه في عجلة، ثم أخذ يمسح يده على وجهه قائلاً في صوت أجش:

«حقاً.. حقاً.. يجب علينا أن نشرع في إعداد جنازه» وسارعا بالخروج، مسرورين بمغادرة ذلك البيت الذي يرقد فيه أبوهما جثة هامدة.



كان وانج لانج، قبل وفاته بيوم واحد، قد أمر ولديه بأن يُترك جثمانه داخل نعشه في البيت المشيد من الطين، ريثما يُوارى التراب في أرضه. على أنه عندما حان وقت الإعداد لحفل الجناز، وجد ابناه أن الذهاب إلى بيتهما في المدينة والعودة إلى هذا المكان النائي سيحشمانهما مشقة شديدة. وحين فكرا في التسعة والأربعين يومًا التي يجب أن تنصرم قبل دفن الجثمان، تراءى لهما أنه من المتعذر إطاعة أوامر أبيهما، وقد فارق الحياة الآن. وفي الحقيقة أن الأمر كان يبعث على الضيق من نواح عدة، فقد تضرر الكهنة القادمون من المدينة، إذ تحتم عليهم المجيء إلى مثل هذا المكان النائي لأداء الترانيم. بل إن الرجال الذين قدموا لغسل جثمان وانج لانج وتكفينه وإلباسه أردية الكفن الحريرية، ورفعوه إلى داخل نعشه، وإحكام الأختام عليه، طالبوا بضعف الأجر؛ طلبوا مبلغًا كبيرًا من المال إلى حد أن وانج الثاني أصيب بالهلع.

حينئذ، تطلع الشقيقان أحدهما إلى الآخر، عبر نعش الشيخ، وراودت كليهما نفس الفكرة: إن الرجل الميت لم يعد صاحب الكلمة. ومن ثم، دعوا إليهما مستأجري الأرض، وأمرهم بأن يحملوا وانج لانج إلى

الأروقة التي كان يقطنها في بيته بالمدينة. ورغم أن بيربلوسوم اعترضت على ذلك، فإنها فشلت في إقناعهما. وحينما تبينت أن كلامها لن يجدي نفعًا، قالت بهدوء:

«كنت أظن أنني والبلهاء المسكينة لن نعود مرة أخرى على الإطلاق إلى ذلك البيت في المدينة. لكنه، إذا ذهب إلى هناك، فلا بد أن نرافقه». ثم اصطحبت هذه البلهاء -ابنة وانج لانج الكبرى- وهي امرأة تقدمت بها السنون، بيد أنها ظلت طوال حياتها نفس الطفلة البلهاء. ومضت المرأتان وراء نعش وانج لانج، وهو يتقدم على طوال الطريق الريفي، وراحت البلهاء تضحك في أثناء مسيرها، لأنه كان يومًا لطيفًا دافئًا من أيام الربيع، تتألق شمسها لامعة وضياء.

هكذا عادت بيربلوسوم ثانية إلى الرواق الذي عاشت فيه يومًا مع وانج لانج وهو على قيد الحياة، فقد أخذها إلى هذا الرواق ذات يوم، حينما كانت الدماء تجري منطلقة فياضة في عروقه، رغم كهولته، وكان وقتئذ يعيش وحيدًا في بيته الكبير. أما الآن، فالصمت يخيم على الرواق، وقد مزقت الشارات الورقية الحمراء من على أبواب البيت الكبير جميعًا، دلالة على أن الموت جاثم هنا، وقد ألصقت على البوابات الضخمة المؤدية إلى الشارع، وريقات بيضاء، رمزًا للموت. هناك ظلت بيربلوسوم تعيش وتنام بجوار الرجل الميت.

وذات يوم، بينما هي تنتظر على هذا النحو، ووانج لانج في نعشه، أقبلت إحدى الوصيفات على باب الرواق، تحمل رسالة من لوتس محظيته الأولى، بأنها آتية لتقديم فروض الاحترام إلى مولاها الراحل.

كان الواجب يقتضى من بيرلوسوم أن ترد بكلمة مهذبة، وهكذا فعلت. رغم كراهيتها للوتس التي كانت سيدتها في الماضي. ثم نهضت واقفة، وظلت تنتظرها واقفة، وظلت تنتظرها، وهي تحرك هنا وهناك شمعة تحترق بجوار النعش.

تلك كانت أول مرة يقع فيها بصر بيرلوسوم على لوتس منذ ذلك اليوم الذي علمت فيه الأخيرة بما أقدم عليه وانج لانج، فبعثت إليه برسالة تنبئه فيها بأنها لا ترغب مطلقاً في رؤية بيرلوسوم مرة أخرى، إذ إنها غضبت غضباً شديداً لأنه أخذ في رواقه الخاص فتاة كانت من إمائها منذ الطفولة. واستبد بها الغضب والغيرة إلى حد الادعاء بأنها تجهل هل بيرلوسوم حية أم ميتة. لكنها كانت شديدة الفضول في الحقيقة، حتى إنها الآن، وقد مات وانج لانج قالت لوصيفتها كوكو:

«حسناً، ما دام ذلك الرجل العجوز قد فارق الحياة، فليس لدينا -هي وأنا- ما نتشاجر عليه، لذا سأذهب لأرى كيف تبدو الآن».

هكذا كانت لوتس مليئة بالفضول، حين خرجت تتهادى من رواقها، متكئة على إمائها، واختارت ساعة مبكرة للغاية، حتى لا يكون الكهنة هناك يترنمون حول النعش.

ودلفت إلى الغرفة، حيث كانت بيرلوسوم واقفة في انتظارها. وقد جاءت لوتس معها بالشموع والبخور، بدافع الأدب واللياقة، فأمرت إحدى إمائها بإشعالها أمام النعش. وفي أثناء قيام الأمة بهذه المهمة، لم تقو لوتس على تحويل ناظرها عن بيرلوسوم، فراحت تنفرس فيها بشغف لترى كيف تغيرت هيئتها عن ذي قبل، وكيف بدت عليها آثار

السنين. أجل، ورغم أن لوتس كان ترتدي أحذية الحداد البيضاء في قدميها، وتلبس أردية الحداد، فإن وجهها لم يكن يحمل طابع الحزن. وصاحت في بيربلوسوم:

«حسنًا، ما زلت نفس المخلوق الهزيل الشاحب كما كنت طوال حياتك، دون أن يتغير فيك شيء. لست أدري ما الذي راقه فيك». وأحست بالراحة، حين وجدت أن بيربلوسوم على هذا القدر من ضالة الجسم وشحوب الوجه، وأنها عاطل من كل جمال عارم.

كانت بيربلوسوم واقفة حينذاك بجوار النعش، وقد نكست رأسها، وظلت صامتة، بيد أن قلبها فاض بالاشمئزاز، حتى لقد تملكها الذعر، وأحست بالضعة؛ لإدراكها أن من الممكن أن تكون شريرة إلى حد أن تضمّر كل هذه الكراهية لولية نعمتها في سالف الأيام. على أن لوتس لم تكن بالمرأة التي يمكنها تركيز ذهنها العجوز الشارد حتى على مشاعر الحقد. لذا، فبعد أن أشبعت رغبتها في تأمل بيربلوسوم، ألقت نظرة على النعش، وتمتعت قائلة:

«أقسم إن أبناءه قد دفعوا القدر الوفير من الفضة ثمنًا له». ثم نهضت في تناقل ومضت تتحسس الخشب لتقدير ثمنه.

لكن بيربلوسوم لم تستطع أن تتحمل هذه اللمسة الخشنة على الشيء الذي سهرت عليه بكل ما في قلبها من حنان، فصاحت فجأة في حدة:

«لا تلمسيه». وضمت يديها الصغيرتين فوق صدرها، وهي تضغط بأسنانها على شفتها السفلى.

حينئذ، ضحكت لوتس، وصاحت قائلة: «عجباً! أما زلت تحمليين له كل هذا الشعور!» وراحت تضحك في ازدراء هين، ثم جلست برهة ترقب الشموع وهي تحترق وتثّر، وإذ سئمت هذا سريعاً، نهضت واقفة، وخرجت إلى الفناء لمغادرة المكان. ولكن، بينما هي تتلفت حولها هنا وهناك، بدافع من فضولها، وقع بصرها على البلهاء التعسة، قابعة في بقعة يغمرها ضوء الشمس، فهتفت قائلة:

«عجباً! أما زال هذا الشيء على قيد الحياة؟».

عندئذ، قدمت بيربلوسوم، ووقفت بجوار البلهاء، والتقرّز ما زال يفيض بقلبها، حتى لم تعد تطيقه إلا بشق النفس. وبعد أن انصرفت لوتس، ذهبت بيربلوسوم وأحضرت قطعة من القماش، ظلت تمسح بها مراراً على تلك البقعة من نعش وانج لانج التي لمستها لوتس بيدها، ثم أعطت البلهاء كعكة صغيرة من الحلوى، أخذتها فرحة مرحة، إذ لم تكن تتوقع الحصول عليها، والتهمتها وهي تطلق صيحات تنم عن الجذل. وظلت بيربلوسوم ترقبها في أسى برهة من الزمن، ثم قالت في النهاية وهي تتنهد:

«أنت كل ما تبقى لي من الإنسان الوحيد الذي منحني العطف دائماً، وتوسم فيّ شيئاً يفوق الأمة». على أن البلهاء ظلت تأكل كعكتها وحسب، إذا كانت عاجزة عن الكلام، بل وعاجزة عن فهم من يتحدث إليها.

وهكذا ظلت بيربلوسوم تنتظر يوماً بعد يوم موعد تشييع الجنازة. وفي تلك الأيام، خيم الصمت المطبق على الأروقة، فيما عدا الساعات التي يرتل فيها الكهنة أدعيتهم. حتى ابنا وانج لانج ما كانا ليقرباه، لو لم يتحتم

عليهما ذلك لأداء واجب ما. وكان الجميع في شتى أرجاء ذلك البيت يحسون بشيء من الخوف والقلق، تبعته في نفوسهم الأرواح الأرضية للرجل الميت. ولما كان وانج لانج رجلاً قوياً يفيض بالحيوية في حياته، لم يكن من المتوقع أن تفارقه أرواحه السبع هذه في سهولة ويسر. ولم تكن الأرواح قد رحلت بعد؛ إذ لاح البيت وكأنه يزخر بأصوات جديدة غريبة، فكانت الخادومات يصرخن قائلات بأنهن يشعرن برياح قارسة البرودة تقبض عليهن في مضاجعهن في أثناء الليل، وتهوش شعورهن، أو أنهن يسمعن صوت قعقة شريرة تنبعث من شبائك النوافذ، وقد تطاح آنية من يد الطاهية، أو يسقط وعاء من يد إحدى الإماء وهي واقفة لتقديم الطعام.

وحين استمع ابنا وانج لانج وزوجتهما إلى مثل هذا الحديث من الخدم، تظاهروا بالابتسام هازئين من هذه الغفلة النابعة من الجهل، بيد أنهم أحسوا أيضاً بالقلق على حد سواء. وعندما ترامت هذه الروايات إلى سمع لوتس، صاحت قائلة:

«لقد كان رجلاً عجوزاً؛ يركب رأسه طوال حياته».

لكن كوكو قالت لها: «دعي الرجل الميت يمضي في سبيله يا سيدتي، وتحديثي عنه حديثاً طيباً حتى يُوارى التراب».

كانت بيربلوسوم هي الوحيدة التي لم يراودها الخوف، فظلت تعيش الآن بمفردها مع وانج لانج، مثلما كانت تفعل في حياته. ولم تكن تنهض من مكانها إلا عند رؤية الكهنة في أرديتهم الصفراء، فتتوجه إلى غرفتها حيث تجلس لتستمع إلى ترانيمهم النادبة الحزينة، وإلى ضرباتهم الوئيدة

على الطبول.

ورويدًا رويدًا، انطلقت أرواح الرجل الميت السبع الأرضية من
إسارها. واعتاد كبير الكهنة أن يقصد ابني وانج لانج، كل سبعة أيام، قائلاً:
«لقد انطلقت روح أخرى من جسده». فكان الابنان ينفحانه بالفضة
مكافأة له، كلما أتى وردد هذا القول.

هكذا مضت الأيام، سبع سبعات، حتى اقترب يوم تشييع الجنازة.
وعرفت المدينة بأسرها اليوم الذي حدده العرّاف لتشييع جنازة
رجل عظيم كوانج لانج. في ذلك اليوم، وربيع العام في أوجه، والصيف
وشيك، استحثت الأمهات أطفالهن للفراغ سريعاً من وجبة الصباح،
حتى لا يتلكأوا، فتفوتهم رؤية كل ما هو جدير بالمشاهدة. وأقلع الرجال
في حقولهم عن فلاحه الأرض طوال اليوم، وراح الكتبة في الحوانيت
والصبية في شتى الحرف يدبرون كيف يتسنى لهم الوقوف لمشاهدة
موكب الجنازة في أثناء مروره. ذلك أن الناس جميعاً في ذلك الإقليم
بأسره كانوا يعرفون وانج لانج، ويعرفون كيف كان يوماً يعاني من الفقر
ويفلح الأرض شأنه في ذلك شأن الآخرين، وكيف أصاب ثراء، وأسس
بيتاً، وخلف أبناءه في عداد الأغنياء. لذا تطلع كل فقير إلى رؤية الجنازة،
لأنه أمر يدعو إلى التأمل أن رجلاً كان معوزاً مثله قد مات على ثراء، ما
يبعث أملاً غامضاً في قلوب الفقراء جميعاً. كما أن الأغنياء رغبوا في
رؤية المشهد، لعلمهم بأن أبناء وانج لانج قد ورثوا الثراء عن أبيهم، لذا
يجمل بكل ثري أن يقدم فروض الإجلال إلى هذا الشيخ العظيم الراحل.

على أن بيت وانج لانج نفسه كان في ذلك اليوم مرتعاً للفوضى والضوضاء؛ إذ لم يكن بالأمر الهين أن ينطلق مثل هذا الموكب الضخم في نظام. وكان وانج الأكبر مشتبته الذهن بكل الأعباء الملقاة على عاتقه، فما دام هو رب البيت، وجب عليه أن يشرف على كل كبيرة وصغيرة؛ عليه أن يشرف على مئات الناس حتى يرتدي كُلُّ شارة الحداد التي تتلاءم مع منزلته، وأن يشرف على اكتراء الهوداج للسيدات والأطفال. وبرغم شروء ذهنه، فقد تملكه الزهو لأهمية شأنه، ولأن الجميع يهرعون إليه صائحين متسائلين عما يجدر القيام به في هذا الأمر أو ذاك. وبينما هو في شدة الانفعال -حتى تصبب وجهه عرقاً وكأنه في منتصف الصيف- وقع بصره على شقيقه الثاني، يقف هادئاً هناك، فأثار هذا البرود ثأثرته، وهو في حمى انفعاله، وصاح قائلاً:

«إنك تلقي كل شيء على كاهلي، فلا يمكنك حتى أن تشرف على لباس زوجتك وأطفالك».

فأجابه وانج الثاني، في سخرية خفية، ونعومة فائقة، قائلاً:

«لِمَ يفعل المرء شيئاً؟ ما دمت لا تحس بالرضا إلا عما تفعله بنفسك؟
إني وزوجتي ندرك جيداً أنه ما من شيء آخر يرضيك أنت وزوجتك.
ونحن نرغب في إرضائك أولاً وقبل كل شيء».

هكذا تشاحن ابنا وانج لانج معاً في يوم تشييع جنازته، على أن هذا يرجع من ناحية إلى أن كليهما كان شارد الفكر في أعماقه؛ لأن أخاهما الثالث لم يعد بعد إلى البيت. وراح كُلُّ يحمل الآخر مغبة هذا التأخير، فالابن الأكبر يعنف شقيقه الثاني لأنه لم يمنح الرسول كفايته من المال،

ما دام عليه أن يرتحل بعيداً للعثور على رجله المنشود. في حين أن الثاني يلقي اللوم على عاتق شقيقه الأكبر لأنه توانى في إطلاق الرسول يومًا أو يومين.

في ذلك اليوم، كان ثمة إنسان واحد يغمره الهدوء والسلام في كل أرجاء ذلك البيت الكبير، ألا وهو بيربلوسوم التي جلست في ثياب الحداد المصنوعة من قماش القنب الأبيض؛ ثياب لا تفوقها في درجة تعبيرها عن الحزن إلا تلك الأردية التي اتشحت بها لوتس. جلست هادئة تنتظر بجوار وانج لانج، فقد ارتدت ثيابها منذ الصباح الباكر، وألبست البلهاء أيضًا رداء الحداد، رغم أن هذه المخلوقة التعسة لم تكن لديها فكرة على الإطلاق عن كل هذا الذي يدور من حولها، فراحت تضحك بلا انقطاع، وأزعجت الثياب الغريبة التي ترتديها، فحاولت أن تنضوها عنها، لكن بيربلوسوم أعطتها كعكة تأكلها، وعملت على أن يكون مع البلهاء شريط من القماش الأحمر كي تلهو به، وهكذا هدأت من روعها.

أما لوتس، فلم تكن قط في مثل الهرولة والاضطراب كما كانت في هذا اليوم، لأنها لم تتمكن من الجلوس في الهودج المألوف، وهي على هذا القدر من الضخامة الهائلة. فأخذت تجرب هذا الهودج وذاك كلما أتوا لها به، وهي تصيح بأن ليس ثمة واحد منها يفي بالغرض المنشود، وأنها لا تدري لِمَ يصنعون الهودج صغيرة ضيقة إلى هذا الحد في تلك الأيام. ثم أجهشت بالبكاء، وطاش صوابها؛ خيفة ألا تتمكن من الاشتراك في موكب راحل عظيم كزوجها. وحينما وقع بصرها على البلهاء، وهي ترتدي ملابس الحداد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، صبت جام

غضبها عليها، وصاحت متذمرة في وانج الأكبر:

«عجبًا! هل ستذهب هذه المخلوقة أيضًا؟» وأخذت تجأر بأن البلهاء ينبغي أن تتخلف بالبيت في مثل هذه المناسبة العامة.

لكن بيرلوسوم قالت برقة، في لهجة قاطعة:

«كلا، لقد طلب إليّ مولاي ألا أفارق طفلة المسكينة هذه. ذلك هو الأمر الذي حملني إياه. كما أن بوسعي تهدئتها، لأنها تطيعني وتألفني. فلن تثير المتاعب لأحد».

حينئذ، ترك وانج الأكبر الأمر يمر بسلام، لأنه كان مشتب الذهن بين شتى المهام التي يتعين عليه القيام بها، فضلًا عن إدراكه أن مئات الناس يترقبون بدء الموكب. وعندما رأى حملة الهوادج ما يعتره من قلق، اغتتموا فرصة الحاجة الملحة، وراحوا يطالبون بمزيد من المال عما هم جديرون به، في حين أخذ حملة النعش يتذمرون من شدة ثقله، ومن بُعد الشقة إلى مدافن الأسرة. في حين تدفق المستأجرون والمتسكعون من المدينة إلى داخل الأروقة، ووقفوا في كل مكان، لا يفعلون شيئًا، سوى أنهم يحملقون لرؤية كل ما يمكن رؤيته. أضف إلى كل هذا شيئًا آخر، وهو أن زوجة وانج الأكبر لم تكف عن تعنيفه، شاكية من أن الأمور لا تسير سيرًا حسنًا، فظل وانج الأكبر، وسط كل هذا العجيج، يركض هنا وهناك، والعرق يتصبب منه كما لم يتصبب في مناسبات عديدة. ورغم أنه راح يصيح حتى بح صوته، فإن أحدًا لم يعره اهتمامًا كبيرًا.

ولم يكن أحد يدري أسيفرغون من الجناز في يومهم ذلك أم لا؟ بيد

أن شيئاً وقع في حينه تماماً، ذلك أن وانج الثالث قدم فجأة من الجنوب. دلف إلى البيت في اللحظة الأخيرة بالضبط، فأخذ الجميع يتفرسون فيه ليروا ما صار إليه شأنه، بعد أن عاش عشر سنوات بعيداً عن البيت، فلم يره أحد منذ ذلك اليوم الذي اتخذ فيه وانج لانج من بيربلوسوم محظية له. كلا، بل إنه قد هجر البيت في ذلك اليوم، تستبد به أغرب حالات الثورة، ولم يعد إليه ثانية على الإطلاق. كان عند رحيله غلاماً غاضباً ضارباً، طويل القامة، يعقد حاجبيه السوداوين فوق عينيه، وقد رحل كارهاً لأبيه. وها هو ذا يعود الآن، رجلاً فارهاً، يفوق أخويه طولاً، وقد تغيرت هيئته إلى حد أنهما ما كانا ليعرفاه لولا حاجباه السوداوان المعقودان كعهدهما دائماً، وفمه الذي ما زال يحمل طابع الجفاء.

أقبل يخترق البوابة في خطى فسيحة، وهو يرتدي ثياب الجنود، على أنها لم تكن ثياب جندي من العامة. كانت السترة والسرراويل من القماش القاتم الفاخر، وعلى السترة أزرار مذهبة، وقد تمنطق بحزام جلدي يتدلى منه السيف. وتقدم في إثره أربعة من الجنود، يحملون البنادق على أكتافهم، كلهم حسنو السميت، فيما عدا أحدهم، فقد كان أشرم الشفة، ومع ذلك، فهو أيضاً ضخم الجسم، قوي البنية، شأنه شأن الآخرين.

ما إن أقبل هؤلاء في خطى عسكرية، يعبرون البوابة الكبيرة، حتى أطبق الصمت على الضجيج والفوضى، وحوّل كل فرد نظريه لمشاهدة وانج الثالث هذا. لاذ الجميع بالصمت لأنه بدا في غاية الضراوة، معتاداً السيطرة. ثم تقدم في خطى واسعة راسخة، يخترق حشد المستأجرين والكهنة والمتسكعين الذين كانوا يتزاحمون من كل جانب لمشاهدة كل

ما وسعهم رؤيته. وقال في صوت جهير:

«أين شقيقاي؟».

في تلك اللحظة، كان أحد الناس قد هرع فعلاً لينبئ الشقيقين أن أخاهما الثالث هنا في البيت. فجاء، لا يدرى كيف يستقبلانه، أيقابلانه باحترام، أم يعاملانه على اعتباره الأخ الأصغر الشارد. لكنهما، حين وقع بصرهما على هذا الشقيق الثالث في ثيابه التي يرتديها، والجنود الأربعة الضواري من خلفه، يقفون تحت إمرته، لا يحركون ساكناً، حينئذ سارعا إلى معاملته في أسلوب مهذب لبق مثلما يعاملان أحد الغرباء. فانحنيا له، وندت عنهما تنهدات من الأعماق، تعبر عما يحمله اليوم من أسى. ثم انحنى وانج الثالث أيضاً انحناء عميقة لأخويه الكبيرين، كما تحتم اللياقة، وتلفت يمنة ويسرة، ثم قال:

«أين أبي؟».

فاتجه به الشقيقان إلى الرواق الداخلي، حيث كان وانج لاند راقداً في نعشه تحت الأغشية القرمزية الموشاة بالذهب. وأمر وانج الثالث جنوده بالبقاء في الفناء، ثم تقدم بمفرده إلى داخل الغرفة. وحينما سمعت بيربلوسوم قعقة الحذاء الجلدي على الأحجار، ألقت نظرة خاطفة لترى من القادم، فلمحته، واستدارت سريعاً، متجهة بوجهها ناحية الحائط، ووقفت هكذا، توليه ظهرها.

بيد أن وانج الثالث الذي لم يبدر منه ما ينم أنه رآها أو تبين شخصيتها، انحنى أمام النعش، ونادى في طلب الأردنية من القنب التي أعدت من

أجله، لكنه عندما ارتداها، وجد أنها قصيرة غاية القصر بالنسبة إليه، إذا لم يكن أخواه يعتقدان أنه فاره القامة إلى هذا الحد. ومهما يكن من أمر، فقد ارتدى الثياب، ثم أشعل شمعتين جديدتين كان قد ابتاعهما، وطلب إحضار ذبائح جديدة ليقدمها قرباناً أمام نعش أبيه.

حين أعدت كل هذه الأشياء، انحنى أمام الأرض ثلاث مرات أمام أبيه، وصاح كما يقتضي العرف: «آه يا أبتاه». على أن بيرلوسوم ظلت ثابتة في مكانها، تتجه بوجهها نحو الحائط، فلم تتحول قط عن موقفها، لترى ما يدور في الغرفة.

وعندما فرغ وانج الثالث من أداء واجبه، نهض قائلاً بطريقته السريعة المقتضية: «فلنتقدم إذا كان كل شيء على أهبة الاستعداد».

وكان شيئاً بالغ الغرابة أن الصمت والامثال حلاً الآن محل كل هذه الضوضاء والفوضى وضجيج الرجال الذين يتصايحون هنا وهناك، فبدا وكأن مجرد وجود وانج الثالث مع جنوده الأربعة، إنما هو القوة والسلطة. فحينما عاود حملة الهوادج شكواهم التي كانوا يتقدمون بها إلى وانج الأكبر في لهجة فظة جافية، أصبحت أصواتهم رقيقة ضارعة، واتسم حديثهم بالاعتدال. ورغم ذلك، فقد قطب وانج الثالث حاجبيه، ونظر إلى الرجال شزراً حتى خفتت أصواتهم ثم تلاشت تماماً. وحين قال لهم: «أدوا عملكم، وثقوا إنكم ستلقون معاملة عادلة في هذا البيت»، لاذوا بالصمت ثم اتجهوا إلى الهوادج، وكأن سحراً ما يكمن في الجنود والبنادق.

وهكذا مضى كل رجل إلى مكانه، وأخيراً خرج النعش محمولاً على

الأعناق في الأروقة، وقد لفت حوله ومن تحته حبال من القنب، دست بينها وبين النعش أعمدة كالشجيرات، رفعها الحمالون على أكتافهم. كما كان هناك أيضًا الهودج الخاص بروح وانج لانج، وقد وضعوا في داخله بعض متعلقاته الخاصة كالغليون الذي كان يدخن فيه سنين عديدة، وقطعة من ثيابه كان يرتديها، والصورة التي كانوا قد اکتروا أحد الفنانين كي يرسمها لوانج لانج بعد أن أصابته العلة؛ إذ لم ترسم له صورة في قبل. وفي الحقيقة أن الصورة لم تكن تشبه ملامح وانج لانج، بل كانت مجرد تصوير لشيخ من الحكماء كائنًا من كان. ومع ذلك، فقد بذل الفنان قصارى جهده، فخط بفرشاته سالفين مهيين، وحاجبين، وكثيرًا من الغضون كالتي ترسم أحيانًا على وجوه الشيوخ.

وإذ بدأ الموكب في المسير، رفعت النسوة عقائرهن بالبكاء والعيول. كانت لوتس أعلاهن صوتًا، وقد شعّث شعرها، وحملت في يدها منديلًا أبيض جديدًا، راحت تمسح به عينيها، واحدة واحدة، وهي تصرخ في نشيج هائل:

«أواه! لقد راح من كان سندي في الحياة راح».

وعلى امتداد الشوارع، احتشد الناس، يتزاحمون لرؤية وانج لانج في أثناء مروره هذه المرة الأخيرة. وحينما وقعت أبصارهم على لوتس، تمتموا معبرين عن استحسانهم للمشهد، قائلين:

«إنها امرأة تدرك الواجب تمامًا، إذ تندب الرجل الطيب الذي رحل».

وعجب البعض لرؤية سيدة على هذا القدر من الضخامة والبدانة، تبكي بهذه الحرارة، مثيرة كل هذا الصخب، فقالوا: «لكم كان ثريًا حتى أتاح لها

الفرصة لأن تملأ بطنها إلى مثل هذا الحجم الهائل». وغبطوا وانج لانج على ممتلكاته.

أما زوجات ابني وانج لانج، فقد بكت كل منهن حسب طبيعتها. كانت زوجة وانج الأكبر تذرف دموعها بالقدر الذي ينبغي، وهي تلمس عينيها بمنديلها بين الفينة والأخرى؛ إذ لم يكن من الملائم لها أن تباري لوتس في بكائها. أما المحظية التي يقتنيها زوجها -وهي فتاة بضمة مليحة تزوجها حديثاً قبل عام أو نحو ذلك- فقد تعلقت أنظارها بهذه السيدة، وراحت تبكي كلما بكت. في حين أن زوجة وانج الثاني القروية غاب عن بالها أن تسكب الدمع؛ إذ كانت هذه هي أول مرة تحمل فيها هكذا على مناكب الرجال عبر شوارع المدينة، فلم يكن في وسعها البكاء وهي تحمق حولها في كل هذه المئات من وجوه الرجال والنساء والأطفال المزدحمين أمام الجدران، والمحتشدين في مداخل المنازل. وإذا واتها فكرة البكاء، كانت تضع يدها على عينيها، وتختلس النظر من بين أصابعها، فترى الحشد، ويغيب البكاء عن ذهنها مرة أخرى.

وقد قيل منذ قديم الزمان إن من الممكن تقسيم جميع النسوة الباكيات إلى صنف ثلاثة: فهناك النسوة اللواتي يرفعن عقائرهن وتسيل من مآقيهن العبرات، وهذا يمكن أن نسميه النواح. وهناك اللواتي يطلقن أصواتاً عالية نادية، دون أن يذرفن الدموع، وهذا يمكن أن نسميه النباح. وهناك اللواتي تسيل دموعهن في صمت، وهذا يمكن أن نسميه البكاء. ومن بين جميع النساء اللائي سرن وراء وانج لانج في نعشه -زوجاته وزوجات أبنائه وخادmates وإماءه ونادباته الأجيرات- لم تكن هناك

سوى امرأة واحدة تبكي، ألا وهي بيربلوسوم التي جلست في هودجها، وأسدلت الستر حتى لا تراها عين، وأخذت الدموع تنحدر من مآقيها في هدوء، دون ما صوت. وحتى بعد أن انتهى موكب الجناز الهائل، ودفن وانج لانج في أرضه وغطاه ترابها، بعد أن أحرقت البيوت والخدم والحيوانات المصنوعة من الورق والبوص، فاستحالت إلى رماد، بعد أن أشعل البخور وخبا دخانه، بعد أن قدم أبنائه آيات الخضوع والاحترام، وولولت النادبات لفترة ملائمة ثم دفعت لهن أجورهن، بعد أن انتهى كل شيء وأهيل التراب عاليًا فوق القبر الجديد، بعد أن كف الجميع عن البكاء، فقد قُضي الأمر، ولم يعد ثمة جدوى في مزيد من الدموع؛ ظلت بيربلوسوم تبكي بطريقتها الهادئة الصامتة.

بل إنها أبت العودة إلى بيت المدينة، وتوجهت إلى البيت المشيد من الطين. وحينما حثها وانج الأكبر على العودة معهم إلى بيت المدينة، لتعيش مع العائلة حتى تتم قسمة الإرث على أقل تقدير، هزت رأسها وقالت:

«كلا، فقد عشت معه هنا معظم أيامي، وكنت في قمة السعادة هنا. ثم إنه ترك لي هذه الطفلة المسكينة كي أشملها برعايتي. ولئن عدنا إلى هناك، فستكون مبعثًا لضجر الزوجة الأولى، التي لا تكن لي الحب أنا أيضًا. لذا، سيظل كلانا هنا في بيت مولاي العتيق. ولا تحمل لنا همًا. فحينما يعوزني شيء، سأطلبه منك، لكنني لن أحتاج إلا أقل القليل. وسنكون آمنين هنا بصحبة المستأجر العجوز وزوجته. هكذا يمكنني رعاية أختك، والوفاء بالعهد الذي حملني إياه مولاي».

فقال وانج الأكبر وكأنه غير راض عن هذا الوضع: «حسنًا، ما دمت
ترغبين في ذلك».

بيد أنه كان مغتبطًا به؛ لأن زوجته قد اعترضت على وجود البلهاء،
قائلة إن مثل هذه المخلوقة لا ينبغي أن تتسكع هنا وهناك في الأروقة،
خاصة حيث تلد النساء، فضلًا عن أنه يحتمل الآن، وقد رحل وانج لانج،
أن تكون لوتس حقيقة أشد جرأة في قسوتها مما كانت عليه إبان حياته،
ومن ثم تنشأ المتاعب. لذا ترك بيربلوسوم تفعل ما يروق لها، فأخذت
البلهاء من يدها، وقادتها إلى ذلك البيت المشيد من الطين حيث كانت
ترعى وانج لانج في خريف عمره. وعاشت هناك تهتم بأمر البلهاء، ولا
تمضي إلى أبعد من قبر وانج لانج.

أجل، فمنذ ذلك الحين، كانت هي الإنسان الوحيد الذي كثيرًا ما
يذهب إلى وانج لانج. ذلك أن لوتس، لو أنها جاءت إلى القبر، لم يكن
مجيئها إلا في تلك المناسبات النادرة التي يتحتم فيها على الأرملة أن
تزور مرقدها زوجها الراحل بدافع المجاملة. وكانت تحرص على الذهاب
في تلك الأوقات التي يوجد فيها الناس حول المكان، ليروا مدى حرصها
على أداء الواجب. أما بيربلوسوم، فقد كانت تذهب خفية، مرارًا وتكرارًا،
كلما فاض بقلبها الشعور بالوحدة، وتحرص على الذهاب حين لا يوجد
أحد على مقربة من القبر، حين يكون الناس آمنين في عقر ديارهم، في
سبات عميق في أثناء الليل، أو حينما يكونون مشغولين بعملهم بعيدًا في
الحقول. في تلك الساعات الموحشة، كانت تصحب البلهاء، قاصدة قبر
وانج لانج.

ولم تكن تنشج بالبكاء هناك. كلا، بل كانت تميل برأسها على قبره،
ولئن ذرفت القليل من الدموع في بعض الأحيان، لم يكن يندّ عنها صوت
سوى همسها مرة أو مرتين:
«أواه، يا مولاي وأبي، الأب الوحيد الذي عرفته في حياتي».



بالرغم من أن هذا الشيخ العتي النابع من الأرض كان جثة هامدة في قبره، فإنه لم يكن في وسعهم نسيانه بعد، إذ كانت له في أعناقهم سنوات الحداد الثلاث التي يجب أن يوفيهها الأبناء لأبيهم. وكان أكبر أبناء وانج لانج الذي أصبح الآن رب الأسرة، يحرص أشد الحرص على أداء كل شيء كما ينبغي، في نطاق الواجب واللائق. وحيث تساوره الشكوك بشأن كيفية أداء الواجب، يقصد زوجته ليسألها المشورة. ذلك أن وانج الأكبر كان غلامًا ريفيًا في طفولته، درج في مدارج النمو بين الحقول والقرى، قبل أن يقيض لأبيه -عن طريق الحظ السعيد إلى جانب مهارته الخاصة- أن يصيب من الثراء ما يتيح له اقتناء هذا البيت المنيف في المدينة من أجلهم جميعًا. وكان عندما يذهب سرًا إلى زوجته في طلب المشورة، تجيبه في فتور، وكأنما تزدرية بعض الشيء لجهله. لكن -لأنها تحرص حرصًا بالغًا على ألا تشينها شائنة في هذا البيت- كانت تجيبه إجابة دقيقة، قائلة:

«لو أن اللوحة التي تسكنها روحه حاليًا أقيمت في البهو الكبير، فعليك إذن أن تعد القربان في الآنية أمامها، وليكن كل حدادنا على هذا النمط».

كانت تفضي إليه كيف ينبغي أن يكون كل شيء، فيصنعى إليها، ثم يتركها ويمضى خارجاً، ويصدر الأوامر على أنها أوامره الخاصة. وبهذا الأسلوب، أعدت لهم جميعاً ثياب الفترة الثانية من الحداد، فاشتروا القماش، واكثروا الحائكين. وكان لزاماً على الأبناء الثلاثة أن يرتدوا أحذية بيضاء مائة يوم، وبعدئذ يمكنهم ارتداء أحذية ذات لون رمادي باهت، أو ما يشبه هذا اللون الكئيب. وما كان لأبناء وانج لانج أو زوجاته أن يرتدوا ثياباً من الحرير، قبل أن تنقضي الأعوام الثلاثة كاملة، ويتم صنع اللوحة الأخيرة ونقشها لتكون مستقرّاً للروح وانج لانج، ثم تقام في مكانها اللائق بين لوحتي أبيه وجده.

هكذا أصدر وانج الأكبر أوامره، فأعدت ثياب الحداد لكل واحد من الرجال والنساء والأحفاد حسب تعليماته. وحيث إنه رب هذا البيت، فقد أصبح الآن، كلما تفوه بالحديث، يضخم من صوته حتى يدوي عاليًا ويبدو مهيبًا للغاية. كما اعتبر أن من حقه أن يتخذ لنفسه مقعد الصدارة، حينما يجلس إلى أخويه في إحدى الحجرات. وكان شقيقاه يصغيان إليه، فيبدو الثاني بفمه الصغير الضيق وقد مال شدقه، وكأنه يتسم هازئاً في قرارة نفسه، فهو يشعر دائماً بينه وبين نفسه أنه أكثر حكمة من شقيقه الأكبر هذا. ذلك أن وانج لانج كان إبان حياته يعهد إلى الابن الثاني بإدارة أرضه، لذا فهو الوحيد الذي يعرف عدد المستأجرين، وكمية المال التي ينتظر أن تدرها الحقول في كل فصل من فصول السنة، وقد منحته هذه المعرفة قوة السيطرة على أخويه، في اعتقاده الخاص على أقل تقدير. أما وانج الثالث، فكان يصغي إلى

أوامر أخيه الأكبر، كمن تعود الإصغاء إلى الأوامر كلما دعت الحاجة إلى ذلك، رغم أنه بدا كمن لا يقبل بكل جوارحه على ما يفعله، وكأنما هو يتلهف إلى الانطلاق بعيداً.

والحقيقة أن كل واحد من هؤلاء الإخوة الثلاثة كان يتطلع إلى الساعة التي تتم فيها قسمة الإرث، فقد أجمعوا على ضرورة تقسيمه، ما دام كُُلُّ منهم يحمل في أعماق نفسه هدفاً يرغب في تحقيقه، بالحصول على حقه في الإرث. وما كان وانج الثاني أو الثالث ليقبلاً أن تكون الأرض في قبضة أخيهما الأكبر كلية، ومن ثم يتحتم عليهما الاعتماد عليه. وراح كل منهم يتطلع إلى الإرث بطريقته الخاصة. فالأكبر يريد أن يعرف ما سيحصل عليه، وما إذا كان كافياً لإعالة أهل بيته وزوجتيه وأطفاله العديدين، وللإنفاق على ملذاته الخفية التي لم يكن في وسعه أن يحرم نفسه منها. أما الشقيق الثاني، فقد تطلع إلى الإرث، لأنه كان يملك أسواقاً هائلة لتجارة الغلال، ولديه مال أقرضه إلى الآخرين، لذا أراد الحصول على إرثه مجرداً من كل قيد، حتى يتسنى له أن يوسع مجال نشاطه في جمع المال. أما الأخ الثالث، فقد كان غريب الأطوار، يجنح إلى الصمت، حتى إن أحداً لم يكن يدري بغيته، ولم يكن وجهه الداكن ذاك ينم عن شيء على الإطلاق. على أنه كان قلقاً، يلوح عليه -في القليل- أنه تَوَّاق إلى الماضي بعيداً، رغم أن أحداً لم يكن يعرف ما سيفعله بإرثه، بل ولم يجرؤ أحد على سؤاله. ومع أنه كان أصغر الثلاثة سنّاً، إلا أن الجميع كانوا يهابونه، حتى إن الخدم -رجالاً ونساء- كانوا يهرعون لتلبية نداءه مضاعفين السرعة التي يلبون بها دعوة أي واحد من الآخرين، في حين أنهم كانوا أبطأ ما

يكونون بالنسبة إلى وانج الأكبر، رغم صوته الجهير المهيّب.

والآن، كان وانج لانج آخر من مات من بني جيله، فقد تعلق بالحياة في قوة وحيوية طوال هذا العمر المديد. لم يبق من أهل زمانه سوى أحد أبناء عمومته، وهو جندي أفاق متجول، لم يكن الإخوة يعرفون له مكاناً، إذ إنه مجرد ضابط صغير الشأن في عصابة متجولة، لها شيء من طابع الجنود والكثير من سمات اللصوص، تتجه إلى أي قائد يجزل لها العطاء، أو لا تتجه إلى قائد على الإطلاق، إذا وجدت أن من الأنسب لها ممارسة اللصوصية لحسابها الخاص.

وكان جهل الإخوة الثلاثة بمقر ابن عم أبيهم هذا، خليقاً بأن يبعث سعادة وافرة في قلوبهم، ما لم يترام إلى علمهم أنه في عداد الأموات. وحيث إنه لم يكن لهم من ذوي القربى رجل آخر يكبره سنّاً، فقد صار لزماً عليهم -حسب العرف السائد- أن يطلبوا إلى أحد الثقات من أهل الجيرة أن يأتي لتقسيم الإرث، أمام هيئة من المواطنين الصالحين الأمناء. وذات مساء، بينما هم يتجاذبون أطراف الحديث عمن يصلح لهذه المهمة، قال وانج الثاني:

«يا أخي الأكبر، ليس هناك من هو أقرب إلينا، وأجدر بثقتنا من ليو تاجر الغلال، الذي قضيت فترة تمرني على كتابة الحسابات تحت إشرافه. كما أنه حموك أيضاً، فلنطلب إليه تقسيم الإرث، لأنه رجل يشهد له الجميع بالعدالة، فضلاً عن أنه من الثراء بحيث لن يحسدنا على مالنا». حينما سمع وانج الأكبر هذا القول، أحس بالضيق في قرارة نفسه،

لأنه لم يكن أول من تدور الفكرة بخلده، فأجاب في لهجة رزينة:

«كم أود ألا تسارع بالكلام على هذا النحو، يا أخي، لأنني كنت على وشك القول بأن ندعو والد أم أبنائي كي يقوم لنا بهذه المهمة. ولكن، ما دمت أنت قد تفوهت بها، فليكن الأمر كذلك، وسنطلب إليه أداءها. ومع ذلك، فقد كنت على وشك أن أقول هذا بنفسي، لكنك دائمًا عجول أكثر من اللازم، حتى إنك تتجاوز في حديثك حدود مركزك في الأسرة».

بعد هذا التعنيف، نظر الأخ الأكبر شزرًا إلى وانج الثاني، وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة، وقد زم شفتيه الغليظتين. في حين أرخى وانج الثاني فمه، وكأنه يرغب في الضحك، لكنه لم يفعل. حينئذ، حوّل وانج الأكبر بصره مسرعًا، وقال لأخيه الأصغر:

«كيف يبدو لك الأمر يا أخي الأصغر؟».

فرفع وانج الثالث عينيه بطريقته المتشامخة، شبه الحالمة، وقال:

«لا يهمني الأمر في شيء سوى أن كل ما تفعلونه، يجب أن تفعلوه سريعًا».

عندئذ، نهض وانج الأكبر، وكأنه سيمتطي جناح السرعة. رغم أنه -بعد أن ناهز منتصف العمر- لم يكن في وسعه أن يعجل خطاه دون ما هرولة. وحتى إذا أسرع في سيره، كانت يداه وقدماه تبدو وكأنها تغلبه على أمره.

وأخيرًا دبرت المسألة، وأبدى «ليو» التاجر موافقته، لأنه كان يُجل وانج لانج على أنه رجل ثاقب الفكر أريب. ومن أهل الجيرة، دعا الإخوة

أيضاً من يضارعونهم في رفعة الشأن، فضلاً عن بعض عليّة القوم في المدينة، ممن يتمتعون بالثراء ورسوخ المكانة. وفي اليوم المحدد اجتمع هؤلاء الرجال في البهو الكبير من بيت وانج لانج، واتخذ كل مقعده حسب منزلته.

وحين طلب ليو التاجر من وانج الثاني أن يقدم بياناً عن كل الأراضي والأموال التي ينبغي تقسيمها، نهض الثاني، وأودع بين يدي وانج الأكبر الورقة التي خط عليها كل شيء، ناولها وانج الأكبر إلى ليو التاجر، وتسلمها ليو التاجر منه. فضّها أولاً، ثم ثبت منظاره النحاسي الضخم فوق طرف أنفه، وأخذ يتمم مردداً البيان لنفسه، وقد انتظر الجميع في صمت حتى فرغ من ذلك. عندئذ تلا الورقة ثانية بصوت عال، فعلم كل الرجال الجالسين هناك في ذلك البهو الكبير، أن وانج لانج كان عند مماته مالكاً لعدد هائل من الأفدنة، يبلغ في مجموعه ما يربو على ثمانمائة فدان. لم يحدث إلا في القليل النادر أن سمع أحد في تلك الأنحاء عن كل هذا الثراء يحمل اسم رجل واحد، أو حتى أسرة واحدة. وبقيناً أن هذا لم يسبق له نظير في أي أسرة منذ كانت عائلة هوانج العظيمة في أوج مجدها. وكان وانج الثاني يعلم كل شيء عن هذه الثروة، فلم تبد عليه أمارات الدهشة، أما الآخرون، فلم يسعهم إلا أن يعبروا عن ذهولهم، مهما حاولوا أن يحتفظوا بوجوههم ثابتة هادئة بدافع الأدب. وكان وانج الثالث هو الوحيد الذي بدا غير مكترث بالأمر، فقد جلس كعهده دائماً، كأنما ذهنه شارد في مكان آخر، بل وكأنه ينتظر في صبر نافذ أن يفرغوا من هذه المهمة، حتى يمضي بعيداً إلى موطن قلبه.

وبالإضافة إلى كل هذه الأرض، كان ثمة بيتان بين ممتلكات وانج لانج: البيت الريفي وسط الحقول، وهذا البيت المنيف العتيد في المدينة، وقد ابتاعه من رب عائلة هوانج حين كان مشرفاً على الموت، بعد أن تداعى صرح تلك العائلة، وتبعثر أبنائها. وفضلاً عن الأرض والبيتين، توجد أيضاً مبالغ من المال في ذمة المدينين هنا وهناك، ومبالغ أخرى تستثمر في تجارة الغلال، إلى جانب حقائب مكدسة بالمال تقبع خبيئة معطلة، حتى إن المال وحده بلغ نصف قيمة الأرض.

بيد أنه كانت هناك مطالب معينة يجب البت فيها، قبل توزيع كل هذا الإرث بين الإخوة. فإلى جانب بعض الحقوق الصغيرة، لبضعة أفراد قلائل من المستأجرين وبعض التجار، كانت أهم المطالب تتعلق بالمحظيتين اللتين اقتناهما وانج لانج في حياته: لوتس التي التقطها من أحد مشارب الشاي، لجمالها، ولإشباع شهوته في طور الرجولة الناضجة، حينما عاف جسده زوجته الريفية، بعد أن فقدت مذاقها الشهوي؛ ويربلوسوم التي كانت إحدى الإماء في بيته الخاص، حينما اتخذها محظية له، كي تكون أنيسة شيخوخته. كانت هناك هاتان المرأتان، ولم تكن أي منهما زوجة شرعية، بل إنهما مجرد محظيتين. ولا يمكن المغالاة في لوم المحظية، إذا راق لها أن تبحث عن رجل آخر بعد موت سيدها، إن لم تكن قد بلغت من العمر أرذله. ومع ذلك، فقد أدرك الإخوة أن من الضروري منح المحظيتين الطعام والكساء، إذا لم ترغبا في الخروج من البيت، كما أن لهما حق البقاء في بيت الأسرة طوال حياتهما. والواقع أن لوتس لم يكن في وسعها أن تمضي إلى رجل آخر، نظراً لتقدمها في السن وبدانتها

المفرطة، لذا ستكون قريرة العين بالبقاء مصونة في رواقها. وحينما نادى ليو التاجر عليها، نهضت من على مقعدها بالقرب من الباب، متكئة على اثنتين من الإماء، وهي تمسح عينيها بكميها، ثم قالت في صوت نادب يعبر عن الحزن العميق:

«أواه! لقد راح من كان يطعمني، كيف يمكنني التفكير في رجل غيره؟ وأين أذهب؟ إني الآن متقدمة في السن، ولا يلزمني إلا القدر اليسير لطعامي وكسائي. أعطوني أيضًا القليل من الخمر والطباق، للترويح عن فؤادي الحزين، فأبناء مولاي كرماء».

فنظر إليها ليو التاجر في عطف، لأنه كان رجلًا خَيْرًا يتوسم الخير في الناس جميعًا، فلم يتبادر إلى ذهنه مطلقًا من تكون لوتس، بل ولم ينظر إليها قط إلا باعتبارها زوجة رجل فاضل، فقال لها باحترام:

«كلامك طيب ولائق، فقد كان الفقيد الراحل سيّدًا عطوفًا، كما سمعت من الجميع. حسنًا، سأقضي بالآتي إذن: أن تمنحي عشرين قطعة من الفضة شهريًا، ويمكنك مواصلة العيش في رواقك، على أن يكون لك فضلًا عن ذلك، خدمك وإماؤك وطعامك، وبعض قطع من القماش كل عام».

على أن لوتس، حينما سمعت هذا القول، وقد أرهفت السمع كي تلتقط كل كلمة، راحت تجيل حدقتي عينيها، من أحد الأبناء إلى الآخر، ثم ضمت يديها بطريقة تدعو إلى الرثاء، وألقت عويلاً حادًا، وقالت:

«عشرون فقط؟ عجبًا! عشرون فقط؟ إنها لا تكاد تكفي لشراء

الفاكهة المسكرة التي أحتاجها، لأن شهيتي للطعام ضعيفة للغاية، ولم يسبق لي أن تذوقت الخشن الشائع من ألوان الطعام!».

لدى هذا القول، خلع التاجر العجوز نظاره، وحملق فيها مذهولاً، ثم قال في حدة وصرامة:

«إن عشرين قطعة في الشهر تزيد عما تملكه عائلات عديدة بأسرها، بل إن نصفها يعتبر قدرًا سخياً كافياً في غالبية البيوت، حينما يموت رب العائلة، وهي ليست مع ذلك بيوتاً فقيرة».

حينئذ، أخذت لوتس تبكي بكاء حاراً، فلم يكن ثمة ادعاء في سلوكها الآن. راحت تبكي وانج لانج كما لم تبكه قط من قبل، وصرخت قائلة:

«يا ليتك لم تتركني حقاً يا مولاي! إني الآن منبوذة. لقد رحلت عني إلى مكان بعيد، وليس في وسعك إنقاذي!».

إذ ذاك كانت زوجة وانج الأكبر تقف مخبئة وراء ستار على مقربة، فتحت الستار جانباً، وأخذت تشير إلى زوجها أن هذا السلوك يتجاوز حدود اللياقة أمام كل هؤلاء العظماء. كانت في كرب شديد إلى حد أن وانج الأكبر أخذ يتململ في مقعده، وهو يحاول ألا تقع عينه عليها، لكن كان من المحتم عليه أن يراها. وأخيراً نهض قائلاً في صوت جهير، يعلو ما كانت لوتس تحدثه من ضجيج:

«يا سيدي، فلنزدها قليلاً، حتى يمكننا أن نمضي في عملنا».

لكن وانج الثاني ما كان ليطلق هذا، فانتفض واقفاً في مكانه، وصاح قائلاً:

«إذا كان لها أن تحصل على المزيد، فليمنحه لها شقيقي الأكبر من نصيبه. ففي الحقيقة أن عشرين قطعة فيها الكفاية، وأكثر من الكفاية، رغم كل ما تنفقه في لعب الميسر».

قال هذا؛ لأن لوتس كانت كلما تقدمت بها السن، تغرم بالميسر إلى حد الولع، حتى إن الوقت الذي لم تكن تقضيه في الأكل أو النوم، كانت تقضيه في المقامرة. على أن زوجة وانج الأكبر ازداد بها الحنق، فأخذت تشير إشارات عنيفة إلى زوجها، بأنه يجب أن يرفض الإقدام على هذا العمل، وهمست في صوت مسموع:

«كلا، يجب إعطاء الأرملة نصيبهما قبل قسمة الإرث. فمن تكون لوتس بالنسبة إلينا أكثر منهما؟».

وهنا ساد الهرج والمرج، وأخذ التاجر العجوز المسالم ينظر قانطاً من واحدة إلى الأخرى، في حين أن لوتس لم تكف لحظة عن الضجيج، حتى تشتت فكر الرجال جميعاً، من جراء هذه الفوضى. وكان من الممكن أن يستمر الحال على هذا المنوال لفترة أطول، لولا أن وانج الثالث ثارت ثائرتة، فنهض فجأة، وضرب بحذائه الجلدي الصلب بلاط القاعة، صائحاً:

«سأعطيها أنا، فما قيمة حفنة من الفضة؟ لقد ضقت ذرعاً بكل هذا».

بدت هذه وسيلة طيبة للخروج من المأزق، وقالت زوجة وانج الأكبر:

«في وسعه أن يفعل هذا، فهو رجل عزب، ليس له أبناء يحمل همهم مثلنا».

أما وانج الثاني، فقد ابتسم، وهز كتفيه قليلاً. ابتسم ابتسامته الخفية، شأن من يقول لنفسه: «حسنًا، ليس من شأني أن يكون الرجل من الحماقة بحيث لا يذود عن ماله».

لكن التاجر العجوز اغتبط غاية الغبطة، وتنهد في ارتياح، ثم أخرج منديله ومسح وجهه، فقد كان الرجل يعيش في بيت هادئ وادع، لم يألف صنف لوتس من النساء. أما عن لوتس، فقد كان من الممكن أن تتماذى في لجاجتها أكثر من ذلك، لولا أن هذا الابن الثالث من أبناء وانج لانج كان يحمل من سمات الشراسة ما جعلها تفكر في الأمر مليًا. ومن ثم، توقفت عن الضجيج فجأة، وجلست راضية عن نفسها. ورغم أنها حاولت أن تحتفظ بقمها مرتخيًا، يحمل طابع الحزن، فإن الأمر سرعان ما غاب عن بالها، وانطلقت تنفرس دون حرج في الرجال جميعًا، بينما كانت تلتقط بعض بذور البطيخ من صحيفة تحملها لها إحدى الإماء، وتقرقعها بين أسنانها التي كانت لم تزل بعد قوية سليمة بيضاء، رغم تقدمها في السن. هكذا جلست مسترخية على راحتها.

وبهذه الطريقة استقر الرأي بالنسبة إلى لوتس، ثم تلفت التاجر العجوز من حوله قائلاً:

«أين المحظية الثانية؟ إنني أرى اسمها مدونًا هنا».

كانت هذه هي بيربلوسوم، ولم يكن أحد منهم قد أجال النظر من قبل؛ ليرى ما إذا كانت موجودة هناك أم لا. أما الآن، فقد أخذوا يتلفتون في شتى أرجاء البهو الكبير، وبعثوا بالإماء إلى أروقة الحريم، لكن لم يكن لها من أثر في أي مكان من ذلك البيت. حيث ذكر وانج الأكبر أنه

قد غاب عن ذهنه أن يدعوها على الإطلاق، فأرسل في طلبها على جناح السرعة، وظلوا ينتظرون زهاء الساعة ريثما يتسنى لها المجيء. واحتسوا الشاي في انتظار قدومها، ثم راحوا يتجولون هنا وهناك. وأخيرًا أقبلت على باب البهو، تصحبها إحدى الوصيفات، إلا أنها، حينما ألفت بنظرها إلى الداخل، ورأت كل هذا الحشد من الرجال، أبت أن تدلف إلى القاعة. وما إن وقع بصرها على ذلك الجندي -وانج الثالث- حتى عادت أدراجها إلى الفناء. وفي النهاية خرج إليها التاجر العجوز هناك، ونظر إليها نظرة حانية، دون أن يواجهها مباشرة، كيلا يبعث الذعر في قلبها، فرأى أنها ما زالت في ريعان الشباب، امرأة لم تزل بعد صغيرة السن، مليحة الوجه، شديدة الشحوب، ثم قال لها:

«يا سيدتي، إنك ما زلت في أوج شبابك، حتى إن أحدًا لن يستطيع لومك لو أنك لم تكفي بعد بحظك من الحياة. ويوجد من الفضة قدر وفير، يكفي لمنحك مبلغًا طيبًا، ثم يمكنك بعد ذلك أن تعودى ثانية إلى موطنك، وتتزوجي من رجل فاضل، أو أن تفعلني ما يروق لك».

لكن بيربلوسوم، لأنها لم تكن مهياة الذهن على الإطلاق لمثل هذا القول، ظنت أنهم يبنذونها إلى مكان ما، ولم تدرك كنه الأمر، فصاحت في صوت واهن متهدج من شدة الرعب:

«أواه يا سيدي! ليس لي من موطن. وليس لي أحد مطلقًا في الحياة، سوى ابنة مولاي الراحل البلهاء، فقد تركها في رعايتي. وليس ثمة مكان ناوي إليه. أواه يا سيدي! لقد كنت أعتقد أن في وسعنا مواصلة العيش في البيت المشيد من الطين. إننا لا نأكل إلا أقل القليل، ولا نحتاج إلا

الملابس القطنية، لأنني لن أرتدي الحرير ثانية ما حييت، بعد أن مات مولاي. كما أننا لن نسبب ضيقاً لأحد في البيت الكبير».

عندئذ، عاد التاجر العجوز أدراجه إلى البهو، وسأل الأخ الأكبر في عجب:

«من تكون هذه البلهاء التي تتحدث عنها؟»

فأجاب وانج الأكبر قائلاً في تردد: «إنها أخت لنا، مجرد مخلوقة تعسة، لم يستقم أمرها مطلقاً منذ طفولتها. ولم يتركها أبي وأمي تتضور جوعاً، أو تقاسي الأمرين، كما يفعل البعض مع مثل هذه المخلوقات ليعجلوا بموتها. وهكذا ظلت على قيد الحياة حتى يومنا هذا. وقد أمر أبي امرأته هذه أن تتولاها برعايتها، وإذا لم ترغب هذه المرأة في الزواج ثانية، فلتمنح بعض الفضة، ولتفعل ما يروق لها، فهي في غاية الرقة، ولن تضايق أحداً في الحقيقة».

حينئذ صاحت لوتس على حين غرة: «أجل، لكنها لا ينبغي أن تحصل على الكثير، فقد كانت دائماً مجرد أمة في هذا البيت، لم تعتد سوى أخشن صنوف الطعام والثياب القطنية، حتى ركب مولاي مركب الحماسة في شيخوخته، فجن بوجهها الأبيض. وقد راودته هي على ذلك عن طريق الإغراء والملق بلا ريب، أما عن تلك البلهاء، فكلما سارعت بالموت، كان ذلك خيراً لها!».

صاحت لوتس بهذا القول، وحينما سمعه وانج الثالث، نظر إليها شزراً بطريقة مخيفة، حتى إنها تلعثمت، وحولت وجهها بعيداً عن عينيه

السوداوين. ثم هتف قائلاً:

«فلتمنح هذه المرأة نفس القدر كأولى. وسوف أدفعه أنا».

لكن لوتس اعترضت على ذلك. ومع أنها لم تجسر على المجاهرة بمعارضتها، إلا أنها غمغت قائلة:

«ليس من اللائق أن تعامل الكبرى والصغرى معاملة واحدة على قدم المساواة، وهي مجرد أمتي الخاصة!». .

هكذا أخذت تغمغم، فبدت وكأنها قد تعود إلى سابق ضجيجها مرة أخرى. وإذا لمح التاجر العجوز هذا الاتجاه منها، قال على جناح السرعة: «حقاً.. حقاً، لذا، فإني أقضي بأن تمنح السيدة الأكبر سنًا خمسًا وعشرين قطعة من الفضة، وعشرين للصغرى» ثم انطلق خارجًا، وقال ليربلوسوم:

«عودي إلى عقر دارك، وانعمي ثانية بالهدوء والطمأنينة يا سيدتي. فلك أن تفعلي ما يروق لك، وستحصلين على عشرين قطعة من الفضة شهريًا، خاصة بك».

فشكرته ليربلوسوم في كياسة، بكل جوارحها، وثغرها الشاحب الصغير يرتعش، وجسدها يرتعد، لأنها لم تكن تدري ماذا سيلحق بها؛ لذا فرّج من كربها حين علمت أن في وسعها مواصلة الحياة، كسابق عهدها، في دعة وطمأنينة.

عندما فرغوا من هذه المطالب، واستقر الرأي بشأنها، لم يكن الباقي عسيرًا. فمضى التاجر العجوز في عمله. وحينما أوشك على تقسيم

الضياع والبيتين إلى أربعة أنصبه متساوية، كي يعطي وانج الأكبر نصيبين على اعتباره رب البيت، ثم يعطي كلا من وانج الثاني والثالث نصيباً واحداً، انطلق هذا الابن الثالث قائلاً على حين غرة:

«لا تعطني بيوتاً أو أرضاً! حسبي ما عانيته من الأرض عندما كنت صبيّاً صغيراً وأراد أبي أن يجعل مني مزارعاً. كما أنني لست متزوجاً، فما حاجتي إلى البيت؟ يا أخويّ، أعطاني نصيبي من الإرث فضة، أما إذا كان من الضروري أن آخذ بيتاً وأرضاً، فاشترياهما مني إذن، وأعطيني فضة بدلاً منهما!». »

ما إن سمع الشقيقان الكبيران هذا القول حتى اعتراهما الذهول، فمن ذا الذي سمع عن رجل يرغب في الحصول على نصيبه من الإرث فضة، يمكن أن تفلت من يد المرء بكل سهولة ويسر، فلا تخلف وراءها أثراً، بينما يأبى الحصول على البيت والأرض التي يمكن أن تبقى ملكاً له؟ فقال له الأخ الأكبر في وقار:

لكن، يا أخي، ما من رجل فاضل في هذا العالم بأسره يعيش طوال حياته دون زواج. فسوف نعثر لك على امرأة عاجلاً أم آجلاً، ما دام أبونا قد رحل، وهو الذي كان من واجبه أن يقوم بهذه المهمة. وستكون في حاجة إلى البيت والأرض وقتئذ». »

ثم قال الأخ الثاني في صراحة بالغة: «مهما يكن ما تفعله بنصيبك من الأرض، فإننا لن نشتره منك، فقد ثارت المتاعب في كثير من الأسر، لأن أحد أفرادها أخذ إرثه فضة، ثم أنفقها عن آخرها، وعاد أدراجها نابحاً صارخاً أنه قد غبن حقه في الضياع والإرث. حينئذ، تكون الفضة

قد ضاعت، وما من دليل على أنها وجدت في يوم من الأيام، أكثر من قصاصة ورق، في وسع أي إنسان أن يخطها، أو مجرد حديث الناس، وهو ليس بالدليل القاطع. كلا؛ بل لو أن الوريث نفسه لم يفعل هذا، فسيفعله أبناؤه وأبناء أبنائهم، ما يعني احتدام الصراع على الأجيال. في رأيي أنه لا بد من توزيع الأرض. كما أنني مستعد للإشراف على أرضك نيابة عنك، إذا رغبت في ذلك، على أن أبعث إليك بالفضة التي تدرها لك كل عام، لكنك لن تحصل على إرثك فضة».

فبهت الجميع لما في هذا القول من حكمة، حتى إن الجندي، حينما قال ثانية، وهو يمتتم: «لن آخذ بيتًا أو أرضًا» لم يأبه به أحد هذه المرة، سوى أن التاجر العجوز سأله في فضول:

«ماذا ستفعل بكل هذا القدر من الفضة؟».

فأجاب الجندي عن هذا قائلًا في صوته الجاف الخشن: «لديّ دافع لذلك».

بيد أن أحدًا منهم لم يدرك ما يعنيه. وبعد برهة من الزمن، قضى التاجر العجوز بأنه ينبغي توزيع الفضة والضياع، وبأنه إذا كان وانج الثالث غير راغب حقًا في الحصول على نصيب من هذا البيت الفخم في المدينة، ففي وسعه الاستيلاء على البيت العتيق المشيد من الطين في الريف، وهو صغير القيمة في الواقع، نظرًا لأنه شيد من تراب الحقول، بجهد بسيط وتكاليف زهيدة. وقضى التاجر، فضلًا عن ذلك، بأن على الشقيقين الكبيرين أيضًا أن يحتفظا بقدر من المال مُعدًّا لزواج وانج الثالث، فهذا هو واجب الإخوة الأكبر سنًا نحو شقيقهم الأصغر، في حالة موت الأب.

ظل وانج الثالث يستمع إلى كل هذا، وقد خيم عليه الصمت. وبعد أن أبرم الأمر في النهاية، وتم تقسيم كل شيء قسمة عادلة طبقاً للقانون، أقام أبناء وانج لانج وليمة تكريمًا لأولئك الذين جلسوا لحضور القسمة. لكنهم، رغم ذلك، لم يجنحوا إلى المرح، أو يرتدوا ثيابًا من الحرير، لأن فترة الحداد لم تكن قد انقضت بعد.

هكذا تم توزيع المزارع التي قضى فيها وانج لانج طوال حياته، وأصبحت الأرض الآن ملكًا لأبنائه، فلم يعد في حوزته منها سوى تلك البقعة الصغيرة التي يرقد فيها، هي كل ما يملكه. ومع ذلك، فقد تحلل جسده من دماؤه وعظامه، وتدفق من هذا المكان الصغير الخبيء، ممتزجًا بكل أعماق الأرض. كان أبنائه يفعلون ما يروق لهم بسطح الأرض، أما هو فقد رقد في أعماقها، وهكذا ظل له نصيبه أيضًا، الذي لا يستطيع كائن من كان أن يسلبه منه.



استطاع وانج الثالث بشق النفس أن ينتظر حتى تتم قسمة الإرث. وما إن فرغوا منها، حتى أعد العدة من رجاله الأربعة، متأهبين للانطلاق ثانية إلى تلك البقاع التي قدموا منها. وحين رأى وانج الأكبر هذه العجلة، تملكته الدهشة، وقال له:

«عجباً! ألن تنتظر حتى تنقضي سنوات الحداد الثلاث على موت أبنينا، قبل أن تشد الرحال إلى عملك مرة أخرى؟».

فأجابه الجندي في انفعال: «كيف يمكنني الانتظار ثلاث سنوات أخرى؟» وأدار عينيه الضاريتين الجائعتين نحو أخيه، وهو يستطرد قائلاً: «ما دمت بعيداً عنكم وعن هذا البيت، لن يعلم الناس بما أفعله. بل ولن يهتم أحد بأمرى، لو أنه علم به فعلاً».

عندئذ تطلع وانج الأكبر إلى شقيقه في فضول، ثم قال في شيء من الدهشة المفاجئة:

«ما هو الشيء الذي يلهيك إلى هذا الحد؟».

فتوقف وانج الثالث، بينما كان يشد سيفه إلى حزامه الجلدي، ونظر

إلى شقيقه الأكبر، فرآه... رآه رجلاً ضخماً رخوًا، وجهه ممتلئ يتهدل شحمًا، وشفاته غليظتان ممطوطتان، وكل جسمه مكسو بطبقات من اللحم الشاحب المسترخي. وكان يبسط أصابعه منفرجة، فبدت يده، بما يكسوهما من شحم، ناعمتين كأيدي النساء، وأظافره طويلة بيضاء، وراحته ورديتين طريتين غليظتين. عندما رأى وانج الثالث هذا كله، أشاح بعينه عنه ثانية، وقال له في ازدراء:

«لو أنني أفضيت إليك بالأمر، لما فهمته. ويكفي أن أقول لك إنه يجب أن أعود سريعًا، فهناك من يترقبون عودتي كي أتولى قيادتهم. ويكفي أن أقول لك إن لديّ رجالًا يعملون تحت إمرتي، على استعداد لتنفيذ ما أمرهم به».

فتساءل وانج الأكبر متعجبًا: «وهل يجزل لك الأجر في هذا العمل؟» دون أن يلحظ ازدراء أخيه له، فقد كان يعتبر نفسه رجلاً عظيمًا مهيبًا. فأجابه الجندي: «يجزل لي أحيانًا، وأحيانًا لا».

لكن وانج الأكبر ما كان ليتخيل أن يقوم أحد بعمل ما، دون أن يتقاضى عنه أجرًا، ومن ثم استطرد قائلاً:

«إنه عمل عجيب ذاك الذي لا يتقاضى القائمون به أجرًا. فلو أنني كنت في سلك الجندية مثلك، وضابطًا يعمل الرجال تحت إمرتي، ثم أصدر إليّ الجنرال أمرًا، دون أن يدفع لي شيئًا، لتحولت عنه إلى جنرال آخر».

بيد أن الجندي لم يحر جوابًا، إذ كان مشغول البال بشيء يريد أن

يفعله قبل رحيله. فمضى يبحث عن شقيقه الثاني حتى لقيه، ثم قال له على انفراد:

«لا تنس أن تدفع لامرأة أبي الصغرى نصيبها كاملاً. وقبل أن تبعث إلي بفضتي، عليك أن تأخذ لها خمس قطع من الفضة فوق نصيبها شهرياً».

ما إن سمع الشقيق الثاني هذا القول، حتى فتح عينيه الضيقتين على سعتهما. ولما كان رجلاً لا يسهل عليه فهم معنى عطاء كل هذا المبلغ من المال، فقد سأله:

«لم تمنحها كل هذا القدر؟»

فأجاب الجندي في شيء من العجلة الغريبة: «إنها تُعنى أيضاً بتلك البلهاء».

وبدا أن لديه المزيد من القول، لكنه لم يكن راغباً في الإفصاح عنه. وبينما كان جنوده الأربعة يحزمون متاعه، استبد به شعور بالقلق لدرجة أنه انطلق خارجاً إلى بوابة المدينة، وأخذ يلقي ببصره صوب تلك المنطقة التي تقع فيها ضياع أبيه، حيث يوجد البيت المشيد من الطين الذي أصبح الآن ملكاً له، رغم كل عزوفه عنه. ثم تمتم قائلاً:

«يمكنني الذهاب لمشاهدته مرة واحدة، ما دام ملكي».

على أنه جذب أنفاساً عميقة، وهز رأسه، ثم قفل راجعاً إلى بيت المدينة، وتقدم رجاله خارجاً، ومضى مسرعاً. كان سعيداً بالرحيل، وكأن قوة ما نابعة من أبيه تسيطر عليه هناك، ولم يكن بالرجل الذي يرضى أن

تستبد به قوة أيًا كان نوعها.

وكذلك كان الابنان الآخران أيضًا يتوقان إلى التحرر من إيسار أبيهما. كان الأكبر يتطلع إلى انقضاء سنوات الحداد الثلاث، ويتوق إلى وضع لوحة الشيخ بعيدًا في المخزن الصغير أعلى البهو الكبير، حيث تحفظ بقية اللوحات. فما بقيت تلك اللوحة قائمة في مكانها المعهود من البهو، كان وانج لانج يبدو وكأنه يرقب أبناءه هؤلاء. أجل. كانت روحه هناك، مستقرة في اللوحة، ترقب أبناءه. في حين أن الابن الأكبر يتوق إلى أن يتحرر من كل قيد، ليعيش من أجل ملذاته، وينفق مال أبيه على هواه. لكن، ما دامت تلك اللوحة باقية هناك، لم يكن بوسعه أن يدفع يده طليقة في جيب منطقتة، وأن يحظى بمتعته حيثما شاء. لا مناص من أن تنقضي سنوات الحداد أولًا، إذ ليس من اللائق بالابن أن يمرح فيها أكثر مما ينبغي. هكذا ظل الشيخ يفرض سلطته المقيدة على هذا الرجل الخامل الذي كانت ملذاته الخفية تملك عليه تفكيره دائمًا.

أما الابن الثاني، فقد كانت له مشروعاته أيضًا، فهو يتطلع إلى تحويل مزارع معينة إلى مال سائل، لأن لديه خطة للتوسع في تجارة الغلال، وشراء بعض الأسواق من «ليو» التاجر الذي تقدم في العمر، والذي كان ابنه المثقف لا يهوى العمل في متاجر أبيه. ويستطيع وانج الثاني، بهذه التجارة الواسعة النطاق، أن يشحن الغلال على ظهور السفن إلى خارج الإقليم، بل وإلى الأقطار الأجنبية المجاورة. إلا أنه، لم يكن من اللائق أن يقدم على هذه الأمور الجسام، بينما الحداد لا يزال بعد ساريًا، فلم يسعه إلا أن يتجمل بالصبر، وأن ينتظر، ولا يتحدث إلا قليلًا، سوى أن يسأل

أخاه، وكأن سؤاله من لغو الحديث:

«ماذا ستفعل بأرضك عندما تنتقضي أيام الحداد هذه؟ أستييعها أم ماذا ستفعل بشأنها؟».

فيجيبه الأخ الأكبر، متظاهراً بعدم الاكتراث:

«حسنًا، لست أدري بعد. أكاد لا أفكر في الأمر، لكنني أظن أنه يجب أن أحفظ بما يكفي لطعامنا، نظرًا لأنني لا أملك تجارة مثلك، ولا يمكنني، وقد بلغت هذه السن، أن أشرع في عمل جديد».

فيقول أخوه: «لكن الأرض ستكون مصدرًا للمتاعب بالنسبة إليك. إذا كنت مالك الأرض، فلا بد أن تشرف على المستأجرين، ولا بد أن تمضي بنفسك لكيل الغلال، كما أن هناك مهام عديدة مماثلة، مضنية للغاية، يجب أن يقوم بها المالك، إذا أراد أن يكسب رزقه على الإطلاق. وفيما يتعلق بي، فقد كنت أؤدي هذه المهام نيابة عن أبي، لكن لا يمكنني القيام بها لك؛ لأن لدي الآن شؤوني الخاصة. سوف أبيع كل شيء فيما عدا أجود الأرض، ثم استثمر الفضة بأرباح مرتفعة، وسوف نرى من منا سيصيب الثراء قبل الآخر؛ أنت أم أنا».

ويستمع وانج الأكبر إلى هذا الحديث، والحسد يأكل قلبه، لإدراكه أنه في حاجة إلى مبلغ جسيم من المال، أكثر مما يمتلك. ثم يقول في وهن: «حسنًا، سأفكر في الأمر.. ومن المحتمل أن أبيع من الأرض أكثر مما كنت أظن أنني بائعه، وأقرض المال بالربا مع مالك. لكننا، سنبحث الأمر».

بيد أنهما، في أثناء حديثهما عن بيع الأرض، كانا يخفضان من صوتهما، دون شعور منهما، كما لو كانا خائفين أن يكون الشيخ الراقد في الأرض ما زال يسمعهما حتى هذه اللحظة.

هكذا انتظر هذان الاثنان، في صبر نافذ، انقضاء الأعوام الثلاثة. وانتظرت لوتس أيضًا، وهي تزجر في أثناء انتظارها، لأنه لم يكن من اللائق بها أن تلبس الحرير طوال هذه السنوات الثلاث، بل وتحتم عليها أن ترتدي ثياب الحديد دائمًا. كانت تتأوه لأنها قد ضاقت ذرعًا بالملابس القطنية التي ترتديها، ولأنها لم تكن تستطيع الخروج إلا خفية، لحضور الولائم واللهو مع صاحباتها. ذلك أن لوتس بدأت في شيخوختها تلهو مع خمس أو ست من السيدات العجائز، في بعض البيوتات الثرية الأخرى. وكانت هؤلاء العجائز يتجولن في هواجهن من هذا البيت إلى ذاك، للعب الميسر، وحضور المآدب، والثرثرة، ولم تكن أي منهن تحمل الآن همًا، بعد أن فقدن القدرة على إنجاب المزيد من الأطفال. أما أزواجهن -إذا كانوا على قيد الحياة- فقد تحولوا عنهن إلى نسوة أنضر شبابًا.

وكثيرًا ما كانت لوتس -كلما جلست بين هؤلاء النسوة- تجأر بالشكوى من ونج لانج، قائلة:

«لقد وهبت ذلك الرجل زهرة شبابي. وتستطيع كوكو أن تروي لكم كم كنت آية في الجمال، كي تتأكدوا من صدق قلبي. وهبته كل هذا الجمال، وعشت معه في بيته العتيق المشيد من الطين، فلم تقع عيني قط على المدينة، حتى أصاب من الثراء ما يكفي للمجيء هنا، وشراء هذا البيت. ولم أذمر، كلا، بل كنت أعد نفسي دائمًا كي أمنحه المتعة في

أي لحظة. ورغم ذلك، ما كان كل هذا ليكفيه. فما إن بدت عليّ بوادر الشيخوخة، حتى اتخذت من إحدى إمائي محظية له... مجرد مخلوقة تعسة شاحبة، كنت أحتفظ بها بدافع الشفقة، لأنها كانت من الهزال بحيث لم تكن تجديني إلا نفعا قليلاً. والآن، وقد مات، لم أحصل إلا على بضع قطع تافهة من الفضة، ثمناً لكدي وعنائتي».

حينئذ ترثي لها هذه العجوز أو تلك، وتظاهر كل منهن بأنها تجهل أن لوتس لم تكن سوى مغنية في أحد المشارب، ثم تصيح إحداهن قائلة: «آه، هذا هو حال الرجال جميعاً. فما إن يذهب عنا الجمال، حتى يتلفتوا حولهم بحثاً عن امرأة أخرى، رغم أنهم قد نهلوا من جمالنا، دون حساب، حتى ذوى. هذا هو حالنا جميعاً!».

كن يُجمعن الرأي على هذين الأمرين: إن كل صنف الرجال يتسم بالأنانية والشر، وإنهن بالذات من دون النساء جميعاً أجدر بالثناء، لأنهن قد بذلن كل كيانهن على مذبح التضحية. وبعد أن يُجمعن على هذين الأمرين، وتبين كل واحدة كيف أن زوجها هو أسوأ الرجال جميعاً، يقبلن على الطعام في تلذذ، ثم على الميسر في حماسة دافقة. هكذا كانت لوتس تقضي حياتها. كما أن كوكو كانت متحمسة في حثها على أن تحيا هذه الحياة، حيث إن من حق الخادمة أن تحصل على أرباح سيدتها من القمار، أو على نصيب منها في القليل.

على أن لوتس ظلت تتطلع إلى انقضاء أيام حداثها، حتى يمكنها أن تخلع عنها ثيابها القطنية، وتعود إلى لبس الحرير، وتنسى أن وانج لانج كان يوماً على قيد الحياة. أجل، فالرجل لم يكن يخطر على بالها، إلا في

تلك المناسبات التي يتحتم عليها فيها أن تمضي إلى قبره، وتذرف الدموع بدافع الأدب، عندما تذهب الأسرة لإحراق الورق والبخور على روحه... لم يكن يطوف بخاطرها إلا عندما يتعين عليها أن ترتدي ثياب الحداد في الصباح، ثم تنزعها عنها في الليل. وكانت تنوق إلى الخلاص من هذا العبء حتى لا يكون ثمة ما يدعوها إلى التفكير فيه على الإطلاق.

كانت بيربلوسوم هي الوحيدة التي لم تكن في عجلة من أمرها، بل ظلت تمضي إليه كعهدها دائماً، وتنوح عليه بجوار ذلك القبر الجاثم في الأرض. كانت تذهب وترثيه هناك، حين لا يوجد أحد عن كثب، كيلا تقع عليها عين.

وبينما الأخوان ينتظران انقضاء سنوات الحداد، كان يتحتم عليهما مواصلة الحياة معاً في هذا البيت الكبير، هما وزوجاتهما وأطفالهما. ولم تكن حياة سهلة وادعة، بسبب العداء المستحكم بين زوجتيهما. ذلك أن زوجتي وانج الأكبر ووانج الثاني كانتا تكتنان البغضاء إحداهما للأخرى، من أعماق قلوبهما، حتى لقد تشتت فكر الرجلين من جرائهما، لأن المرأتين لم يكن في طوقهما أن تطويا صدريهما على الغضب، بل لا بد وأن تفيض به كل منهما على زوجها، حينما تنفرد به.

كانت زوجة وانج الأكبر تقول له بطريقتها المتعاطمة التي تلتزم حدود الأدب واللياقة:

«إنه لأمر عجيب أنني لا أستطيع مطلقاً أن أحصل على الاحترام المهذب الذي هو من حقي في هذا البيت الذي جئت بي إليه. لقد كنت أعتقد، والشيخ على قيد الحياة، أنه يجب أن أتحمل هذا الوضع، لأنه

كان شخصًا بلغ من الخشونة والجهل مبلغًا كنت أحس معه بالخزي أمام أبنائي حين يرون من كان لهم جدًّا. ومع ذلك، تحملت هذا كله؛ لأنه كان من اللائق بي أن يكون هذا مسلكي. أما الآن، فقد مات، وأصبحت أنت رب العائلة. فلئن كان هو، من شدة جهله وضعف ثقافته، لم يلمس طبيعة زوجة أخيه وأسلوبها في معاملتي، فأنت الآن سيد البيت، وترى بعينيك، ومع ذلك فأنت لا تحرك ساكنًا لتضع هذه المرأة في مكانها. إنها تستخف بي كل يوم، هذه القروية الفظة، الكافرة أيضًا».

حينئذ يتأوه وانج الأكبر من أعماقه، ثم يقول بكل ما يمكنه استجماعه من صبر:

«ماذا تقول لك؟».

فتجيبه السيدة بطريقتها المثلجة، في صوت رتيب، لا تتغير نبراته، وهي لا تكاد تحرك شفيتها في أثناء الحديث:

«ليست المشكلة فيما تقوله وحسب، بل إنها تكمن في كل تصرفاتها، وفي طبيعة تكوينها. فحينما أدخل حجرة تجلس فيها، تتظاهر بأنها منهمكة في عمل ما، بحيث لا يمكنها أن تنهض، وتفسح لي مكانًا. فضلًا عن أنها قانية اللون وعالية الصوت لدرجة أنني لا أطيق منها مجرد الكلام. كلا، بل ولا أطيق أن أراها تمر من أمامي».

فيجيبها وانج الأكبر، وهو يهز رأسه، وينقب عن غليون التبغ في جيب المنطقة تحت رداءه، قائلاً: «حسنًا، وأنا لا أكاد أستطيع أن أذهب إلى أخي، لأقول له: إن زوجتك قانية اللون وعالية الصوت أكثر من

اللازم، وأم أبنائي لا تحبها أن تكون على هذا النحو». ثم يخيل إليه أنه قد تفوه بشيء رائع، ويتجاسر على الابتسام قليلاً.

ولم تكن السيدة ذات بديهة يواتيها الرد سريعاً، والواقع أنها في مرات عديدة كانت تعجز عن الرد بالسرعة التي تتوق إليها. بل إن من عوامل كراهيتها لسلفتها أن الزوجة القروية كانت سريعة الخاطر؛ تملك لساناً حاداً سليطاً. فقبل أن تفرغ سيدة الحضر من حديث تكون قد شرعت فيه بتؤدة وكبرياء. تكون الزوجة القروية -بحركة دائرية من حدقتي عينيها وكلمة خاطفة تلقيها هنا وهناك- قد حقرت من شأنها، وجعلتها مثاراً للضحك، حتى إن الخدم والإماء الواقفين عن كذب، كانوا عندما يسمعون الحديث، يسارعون إلى تحويل وجوههم جانباً، لإخفاء ابتساماتهم. ومع ذلك، يحدث أحياناً أن تتأخر وصيفة شابة في تحويل وجهها، وينفجر منها الضحك حاداً مدوياً، قبل أن تتمكن من كبح جماح نفسها. حينئذ لا بد أن يضحك نفر من الآخرين، وكأنهم يسخرون من الضحكة التي أثارتها الوصيفة، فتبلغ سيدة الحضر من الغضب أن تحقد على الزوجة القروية بكل جوارحها. لذلك، فعندما قال لها وانج الأكبر ما قاله، نظرت إليه في حدة، كي تبين ما إذا كان هو أيضاً يسخر منها. وهناك رأيته جالساً على مقعد من البوص؛ ينعم فيه بالراحة، ترسم على وجهه ابتسامته الحانية. فشدت قامتها في صلابة بالغة، وجلست منتصبية باردة على ذلك المقعد الخشبي الجامد الذي كانت تؤثره دائماً، ثم أسبلت جفניה، وزمت فمها حتى صار ضيقاً غاية الضيق، وقالت:

«إنني أدرك تماماً أنك تزدريني أنت أيضاً يا سيدي. فمنذ أن جئت

إلى البيت بتلك المخلوقة المبتدلة، بدأت تحس بالنفور مني. يا ليتني لم أبرح قط بيت أبي! أجل، بل إنني أتمنى الآن لو أنني استطعت أن أهب نفسي للآلهة، وألتحق راهبة بأحد الأديرة في أي مكان. هذا ما أرغب فيه، لو لم يكن من أجل أبنائي. لقد وهبت نفسي لإقامة صرح هذا البيت، حتى أجعل منه شيئاً أكبر من مجرد بيت فلاح من العامة، لكنك تجحدني».

كانت تقول هذا وهي تمسح عينيها بكميها في عناية، ثم قامت ودخلت إلى حجرتها، ولم يلبث وانج الأكبر أن سمعها تردد عاليًا بعض الصلوات البوذية. ذلك أن هذه السيدة اعتادت في الأعوام الأخيرة أن تركن إلى الراهبات والكهنة، وأصبحت تدقق كل التدقيق في أداء واجباتها إزاء الآلهة، وتقضي الساعات الطوال في ترديد الصلوات والترانيم، وكثيرًا ما كانت الراهبات يأتين لتلقينها تعاليم الدين. وفضلاً عن ذلك، أخذت تتظاهر بأنها لا تستطيع أن تأكل سوى النزر اليسير من اللحم، رغم أنها لم تنخرط في سلك الراهبات. كانت تفعل كل هذا، وهي تعيش في بيت رجل من الأثرياء، حيث لا تدعو الحاجة إلى مثل هذه العبادة التي يتحتم على الفقراء أن يتقدموا بها إلى الآلهة ابتغاء الأمن والطمأنينة.

هكذا شرعت السيدة في الصلاة بصوت عال. شأنها دائماً عندما تنثور نائرتها، وما كاد وانج الأكبر يسمع صوتها، حتى حك يده على رأسه في حسرة، وندت عنه تنهدة، لأن زوجته في الحقيقة لم تغفر له مطلقاً أنه قد بلغ به الأمر أن يتخذ له امرأة ثانية في داخل بيته. تلك كانت صبية غريبة مليحة رآها في الشارع ذات يوم أمام باب أحد الفقراء، وكانت تجلس على كرسي صغير منخفض بلا ظهر، تغسل بعض الثياب في دلو متسع.

كانت صبية مليحة لدرجة أنه راح يتطلع إليها مثني وثلاث في أثناء مروره بها، ثم عاد يمر بها المرة تلو المرة. وقد اغتبط أبوها بأن يتركها تمضي إلى مثل هذا الثري العظيم، فضلاً عن أن وانج الأكبر أجزل له العطاء. على أنها كانت غريبة إلى درجة بعيدة، حتى إنه الآن -وقد عرف كل أمرها- كان يعجب حقاً في بعض الأحيان كيف حدث أنه تشوّف إلى وصالها يوماً. فقد كانت من السذاجة بحيث تخاف زوجته أشد الخوف، ولم يكن لها من مزاج خاص بها على الإطلاق، فحينما كان وانج الأكبر يدعوها أحياناً للقدوم إلى غرفته بالليل، كانت تنكس رأسها، وتقول في تلعثم:

«لكن هل ستسمح لي سيدتي بهذه الليلة؟».

وفي بعض الأحيان، كان وانج الأكبر، عندما يرى ما هي عليه من خوف وحياء، ثور ثائرتة ويقسم أن يتخذ لنفسه في المرة التالية امرأة خليعة حادة المزاج تفيض بالحيوية، كي لا تخشى زوجته شأن الأخريات جميعاً. ومع ذلك، فقد كان في أحيان أخرى، يتأوه ويقول بينه وبين نفسه إن من الأفضل، رغم كل شيء، أن يستمر الحال على هذا المنوال، فهو على أقل تقدير ينعم بالهدوء بين امرأته، نظراً لأن صغراهما تخضع لأوامر سيدتها في خنوع، حتى إنها لم تكن تجرؤ على التطلع إلى وجهه، إذا كانت السيدة على مقربة منها.

وبالرغم من أن هذا المسلك كان يبعث في نفس السيدة شيئاً من الرضا، فإنها لم تكف قط عن تعنيف وانج الأكبر، لأنه أولاً قد اقتنى امرأة أخرى، ثم لأنه -إذا لم يكن من الأمر بد- قد اقتنى مثل هذه المخلوقة الفقيرة. أما وانج الأكبر، فقد تحمل زوجته في صبر، وظل يحب الصبية

أحياناً، من أجل وجهها المليح الذي يحمل طابع الطفولة. والظاهر أنه كان يتدله في جيبها، كلما نددت بها زوجته في مرارة شديدة، لدرجة أنه كان يدبر الخطط حتى يتوصل خلصة إلى لقاء الفتاة التي يمتلكها. وحين كانت تعبر له عن خوفها من المجيء إليه، يجيبها قائلاً:

«يمكنك أن تأتي بحرية، لأنها منهكة إلى حد أنها لن تطيق مني إزعاجاً هذه الليلة».

والواقع أن زوجته كانت امرأة بلغ من برود مشاعرها أنها سعدت عندما انقضت أيام خصوبتها. وفي تلك الآونة دأب وانج الأكبر على أن يمنحها الاحترام اللائق بها، ويدعن لها في شتى الأمور في أثناء النهار، وكذا كانت تفعل الفتاة، أما بالليل، فتأتي الفتاة إلى مضجعه. وهكذا كان ينعم بالهدوء والسلام مع زوجته في بيته.

على أن الشجار بين زوجتي الشقيقتين لم يكن يحسم بهذه السهولة، فكانت زوجة وانج الثاني تنقض عليه أيضاً، قائلة:

«إنني أكاد أموت سأمًا من تلك المخلوقة ذات الوجه الأبيض التي هي زوجة أخيك. وإن لم تفعل شيئاً للفصل بين أروقتنا وأروقتهم، فإني سأأثر لنفسي ذات يوم، وأشهر بها بأعلى صوتي في الطرقات، ما سيجعلها تموت خزيًا، فهي تنشج بالبكاء ويشند بها الذعر، خيفة ألا ينحني لها أحد انحناءة عميقة، كلما دخلت مكانًا. إنني أضارعها وأفوقها، بل إنني سعيدة بأنني لا أشبهها، وبأنك لا تشبه ذلك الأحق الضخم البدين، رغم كونه شقيقك الأكبر!».

كان وانج الثاني وزوجته على وئام تام. كان رجلاً هادئاً ضئيل الجسم شاحب اللون، يحبها لأنها ضخمة متوردة ذات قلب يفيض بالحيوية، ويحبها أيضاً لأنها ذكية أربية، وزوجة ماهرة في البيت، تنفق المال عسيراً. فمع أن أباهما كان فلاحاً، ولم تعد قط الحياة المترفة، إلا أنها الآن، وقد أصبح الترف في متناول يدها، لم تكن متلهفة عليه، كما قد تفعل بعض النسوة. كانت تأكل الطعام الخشن بمحض إرادتها، وتؤثر ارتداء الثياب القطنية على لبس الحرير، وكان عيبيها الوحيد أن لها لساناً مولعاً بالثرثرة، وأنها مغرمة باللغو مع الخدم.

وفي الحقيقة أنه لم يكن من الممكن مطلقاً أن يطلق عليها اسم السيدة، ما دامت تحب أن تغسل وتمسح وتعمل بيديها. لكنها، وهذه حالها، لم تكن في حاجة إلى كل هذا العدد من الخدم، فلم تحتفظ إلا بخادمة أو خادمتين من الريف تعاملهما معاملة الأصدقاء. وهذه سقطة أخرى تسجلها عليها سلفتها، وهي أن القروية لم تكن تعرف الأسلوب اللائق في معاملة الخدم، بل تصر على اعتبارهم جميعاً أنداداً لها، ما يجلب العار على العائلة. ذلك أن الخدم يتنادمون مع الخدم، وقد سمعت الزوجة الكبرى الخادمتين في بيت سلفتها تتباهيان بسيدتهما، وكيف أنها أسخى بكثير من الأخرى، وكيف أنها تمنحهما بعض القطع الصغيرة المتخلفة من أطايب الطعام، وبعض قصاصات من القماش لصنع النعال، إذا ما راقها ذلك.

والواقع أن السيدة -زوجة وانج الأكبر- كانت شديدة الوطأة على خَدَمِهَا، لكن كان هذا هو حالها مع الجميع، بل إنها كانت تقسو على

نفسها كذلك، فلم تكن قط لتنطلق كما تفعل الأخرى التي اعتادت أن تهرع إلى أي مكان، في ثيابها الكالحة البالية، وشعرها مشعث، وحذاؤها متسخ، مثني تحت عقبيها، مع أن قدميها لم تكونا صغيرتين بأي حال من الأحوال. بل ولم يحدث قط أن جلست السيدة، وقد كشفت عن كل صدرها، كما تفعل الزوجة القروية التي اعتادت أن ترضع طفلها، حينما كانت جالسة أو واقفة.

وفي الواقع أن المعركة الكبرى بين هاتين المرأتين قد اندلعت من جرّاء عملية الرضاعة هذه، ما حدا بالأخوين في النهاية إلى البحث عن وسيلة لإقرار الهدوء والسلام. فقد حدث ذات يوم أن ذهبت السيدة إلى البوابة لتستقل هودجها؛ إذ كان يوم ذكرى ميلاد أحد الآلهة الذي كانت تقصد معبده في المدينة لتقدم له قرباناً. وإذ هي تعبر البوابة إلى الشارع، كانت الزوجة القروية هناك، وقد تعرى صدرها تماماً وكأنها إحدى الإماء، بينما كانت ترضع أصغر أطفالها، وتتحدث إلى بائع متجول، اشترت منه سمكة لوجبة الظهيرة في ذاك اليوم.

كان منظرًا سوقياً بشعاً لم تطقه السيدة، فشرعت في تعنيف سلفتها بمرارة. بدأت بقولها:

«حقاً إنه لمنظر مخجل للغاية أن أرى واحدة يجدر بها أن تكون سيدة محترمة في أحد البيوتات الكبيرة، تقدم على مثل هذا العمل الذي لا أكاد أسمح به لواحدة من إمائي».

لكن لسانها الممتد الرصين ما كان ليباري لسان الزوجة القروية التي صاحت قائلة:

«من ذا الذي لا يعلم أن الأطفال لا بد من إرضاعهم؟ إني لا أخجل من أن لي أبناء أرضعهم، وثديين أرضعهم منهما».

وبدلاً من أن تعقد أزرار سترتها بطريقة مهذبة، نقلت طفلها إلى ثديها الآخر، وأخذت ترضعه منه في زهو الظافرين. إذ ذاك لدى سماع صوتها الجهير، بدأ حشد من الناس يتجمع لمشاهدة العراك، وهرعت النسوة من مطابخهن، ومن أفنية بيوتهن، وهن يحففن أيديهن في أثناء عدوهن، في حين وضع المارة من الفلاحين سلالهم على الأرض برهة من الزمن؛ لكي يتمتعوا برؤية المشاجرة.

على أن السيدة، حينما رأت هذه الوجوه السوقية السمراء، لم تعد تطيق الأمر، فصرفت الهودج هذا اليوم، ودلفت مترنحة إلى أروقتها الخاصة، وقد ضاعت كل متعتها. أما الزوجة القروية فلم تكن قد خبرت قط مثل هذه الأنفة، إذ كانت دائماً ترى الأطفال يرضعون حيشما وجدت أمهاتهن. فمن ذا الذي يدري متى يصرخ الطفل طالباً هذا أو ذاك؟ والثدي هو السبيل الوحيد لتهديته. ومن ثم، ظلت واقفة تسب سلفتها بأسلوب هزلي حتى لقد ضج الحشد بالضحك، وأصبح الناس في قمة السرور لمشاهدة هذه المسرحية.

عندئذ مضت أمة من إماء السيدة كانت تقف عن كذب بدافع الفضول، ونقلت إلى سيدتها بكل أمانة كل ما تفوهت به الزوجة القروية. همست قائلة:

«يا سيدتي، إنها تقول إنك متعالية إلى حد يدفع مولاي إلى الهرب فرعاً للنجاة بحياته. بل إنه لا يجرؤ على ممارسة الحب مع محظيته

الصغيرة، ما لم تسمح له بذلك، على ألا يتجاوز الفترة التي تحدديها له. فأغرق المحتشدون جميعاً في الضحك!». .

عندما سمعت السيدة هذا، علا وجهها الشحوب، وجلست فجأة على مقعد بجوار النضد في الحجرة الرئيسة، وظلت تنتظر، في حين هرعت الأئمة إلى الخارج، ولم تلبث أن عادت أدراجها، وقالت في صوت مبهور:

«إنها تقول الآن إنك تهتمين بالراهبات والكهنة أكثر من اهتمامك بأطفالك، وأن الكل يعرفون جيداً ما يقترفه أمثالهم من آثام في الخفاء».

فانتفضت السيدة واقفة من هول هذه الدناءة، ولم تعد تطيق احتمالها، فطلبت إلى الأئمة أن تأمر حارس البوابة بالقدوم على الفور. وهرعت الأئمة إلى الخارج مرة أخرى، يتولاها شعور بالنشوة والانفعال، فمثل هذه الضجة لم تكن تحدث كل يوم. ثم عادت ومعها حارس البوابة إلى داخل الحجرة، وهو عامل هرم متجهم الوجه، كان يعمل يوماً في أرض وانج لانج، ولأنه كان طاعناً في السن وجديراً بالثقة، ولم يكن له من ولد يعوله، بعد أن تقدم به العمر، فقد سمح له بالإشراف على بوابات البيت. قدم الرجل، يداخله الخوف من هذه السيدة، شأن الجميع معها، ووقف أمامها منحنيًا، منكس الرأس، فقالت له بطريقتها المهيبة:

«ما دام سيدي في مشرب الشاي الآن، ولا يدري شيئاً عن كل هذا الشغب الشائن، وما دام أخوه أيضاً ليس هنا، حتى يسيطر على أهل بيته، يجب عليّ إذن أن أؤدي واجبي، فلن أدع دهماء الشوارع يحملقون مشدوهين في بيتنا على هذا النحو. عليك أن توصل البوابات. وإذا بقيت

سلفتي خارج البيت، دعها خارجًا. ولئن سألتك عمن أمرك بإغلاق البوابات، قل لها إني فعلت، وأنت يجب أن تصدع لأمرى».

فانحنى الرجل العجوز ثانية، وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، ثم قام بتنفيذ ما أمر به. كانت الزوجة القروية لا تزال واقفة هناك، يستبد بها الطرب كلما ضحك الحشد من حديثها، فلم تر البوابات وهي توصل وتباعد، وتباعد وتوصل، حتى كادت تغلق تمامًا، فلم تبق منها إلا فرجة صغيرة. حينئذ ألقى حارس البوابة العجوز شفتيه بالفرجة، هامسًا في صوت أجش:

«هس.. يا سيدتي!».

إذ ذاك استدارت، ورأت ما يجري واءها، فاندفعت تقتحم البوابة، وعبرتها راكضة، وطفلها ما يزال يرضع من ثديها، ثم صرخت في الرجل العجوز:

«من الذي أمرك بأن توصل الباب في وجهي أيها الكلب الهرم؟».

فأجاب العجوز في ذلة ومسكنة: «لقد أمرتني السيدة، وقالت إنني يجب أن أوصل الباب في وجهك، لأنها لا تقبل أن تحدث مثل هذه الضوضاء هنا أمام بوابات بيتها. لكنني ناديت عليك، حتى تعلمي بالأمر». صاحت: «إنها بوابات بيتها، أليس كذلك؟ ويجب أن يوصل باب بيتي في وجهي، أليس كذلك؟» وبينما هي تصرخ على هذا النحو، اندفعت كالعاصفة إلى داخل أروقة سلفتها.

لكن السيدة كانت تكهنت بذلك، ومن ثم دخلت إلى حجراتها

الخاصة، وأحكمت رتاج الباب، ثم انكبت على صلواتها. وبرغم أن الزوجة القروية ظلت تقرر الباب، وتضرب عليه بعنف، فإنها لم تشف غليلها، وكان كل ما ترمى إلى سمعها هو نغم الصلوات المطرد الممل الرتيب.

ومهما يكن من أمر، ثق أن الشقيقين قد علما بالأمر في تلك الليلة، كُلُّ من زوجته. وفي صباح اليوم التالي، عندما تقابلا في طريقهما إلى مشرب الشاي، تطلع كل منهما إلى الآخر بنظرة فاترة، ثم قال الأخ الثاني، وعلى وجهه ابتسامة ملتوية:

«إن زوجتي ستدفعان بنا إلى العداء، وليس في وسعنا أن نصبح خصمين، لذا، فمن الخير لنا أن نفصل بينهما. تأخذ أنت الأروقة التي تعيش فيها، وتكون بوابتك هي المؤدية إلى الشارع الرئيسي. وسأملك أنا في رواقى الخاص، وأفتح بوابة على الشارع الجانبى، فتكون تلك هي بوابتي. وهكذا يمكننا متابعة حياتنا في هدوء وسلام. ولئن عاد شقيقنا الثالث يومًا إلى البيت ليعيش فيه، يمكنه أن يأخذ الأروقة التي كان أبونا يقطنها. وإذا كانت المحظية الأولى قد ماتت حينئذ، يستطيع الاستيلاء على رواقها المجاور الذي تشغله الآن».

كانت زوجة وانج الأكبر قد رددت على سمعه مرارًا في أثناء الليل كل كلمة مما حدث، وشدت عليه الوطأة حتى إنه أقسم لها هذه المرة إنه لن يكون رقيقًا خانعًا؛ كلا، بل سيفعل هذه المرة ما يجدر برب البيت أن يفعله، عندما تنتهك حرمة سيدة البيت إلى هذا الحد، على يد واحدة تصغرها منزلة، وينبغي أن تدين لها بالطاعة. لذلك، فإنه الآن، حينما سمع

حديث أخيه الأصغر، تذكر ما عاناه من ضغط عنيف في أثناء الليل، فقال
لائمًا في لهجة واهنة:

«لكن زوجتك أخطأت خطأ جسيمًا بأن تتحدث عن زوجتي كما
فعلت أمام جمهرة العوام. لا يكفي أن تدع الأمر يمر عابرًا بهذه البساطة،
بل يجدر بك أن تضربها مرة أو مرتين. يجب أن أصر على أن تضربها مرة
أو مرتين».

فرمش وانج الثاني بعينه الضيقتين الحادثتين، ولاطف أخاه قائلاً:
«نحن رجال -أنت وأنا- يا أخي. ونحن نعرف طبيعة النساء،
ومدى ما تتسم به خيرهن من جهل وحماقة. وليس في طاقة الرجال أن
يشغلوا أنفسهم بشؤون النسوة. إننا نفهم أحدا الآخر، يا أخي الأكبر،
نحن الرجال. حقًا إن زوجتي قد ركبت مركب الحماقة، فهي امرأة قروية
لا أكثر. أبلغ زوجتك أنني قد قلت هذا، وأني أبعث إليها باعتذاري نيابة
عن زوجتي، فالاعتذار لا يكلف شيئًا. ثم دعنا نفصل بين نساءنا وأطفالنا،
حتى تنعم بالهدوء يا أخي. ويمكننا أن نلتقي في مشرب الشاي؛ لنناقش
شؤوننا المشتركة، أما في البيت، فسنعيش كل على حدة».

فقال وانج الأكبر متلعثمًا: «لكن.. لكن..» إذ لم يكن في مقدوره أن
يفكر بهذه السرعة والسلاسة.

وكان وانج الثاني لَمَّا حَا، فأدرك لتوه أن أخاه لا يدري كيف يرضي
زوجته، فسارع بالقول:

«انظر يا أخي، صغ المسألة لزوجتك على النحو التالي: لقد فصلت

بيت أخي الأصغر عن بيتنا، ولن يكدر صفوك مرة أخرى على الإطلاق.
هكذا أنزلت بهم العقاب».

عندئذ انشرح صدر الشقيق الأكبر، وأخذ يضحك وهو يفرك يديه
المكتنزتين الشاحبتين، ثم قال له:
«تول الأمر.. تول الأمر!».

فقال وانج الثاني: «سأدعو البنائين هذا اليوم بالذات».

هكذا أرضى كل رجل امرأته، فقال الأصغر لزوجته:

«لن تضايقك بعد اليوم تلك المرأة المتكبرة المتحذقة التي تتكلف
الحياء. لقد أبلغت أخي الأكبر أنني لن أعيش معها تحت سقف واحد.
كلا، بل سأكون سيداً في بيتي الخاص. وسنفصل بيننا، فلن أكون بعد
الآن خاضعاً تحت قدميه، ولن تكوني أنت رهن إشارتها».

ومضى الأكبر إلى زوجته قائلاً في صوت عال:

«لقد دبرت الأمر برمته، وأنزلت بهم أشد العقاب. ليطمئن قلبك.
قلت لأخي... قلت له: «سوف تبتر من بيتي، أنت وزوجتك وأطفالك.
سنأخذ نحن الأروقة التي نقطنها بجوار البوابة الكبرى. أما أنت، فيجب
عليك أن تفتح لنفسك بوابة صغيرة جانبية، تؤدي إلى الزقاق من الناحية
الشرقية. فليس لامرأتك أن تزعج زوجتي بعد الآن. وإذا كانت تلك
الواحدة التي في حوزتك، ترغب في التسكع أمام بابها، وهي ترضع
أطفالها في الطريق، كما تفعل الخنازير مع صغارها، فإن هذا لن يجلب
علينا العار حينئذ، على أقل تقدير!» هكذا فعلت يا أم أبنائي. فلتقري عيناً،

إذ ليس ثمة ما يدعوكم لرؤيتها بعد اليوم».

بهذا الأسلوب أرضى كل رجل زوجته، حتى إن كلاً من المرأتين اعتقدت أنها الظافرة، وأن الأخرى قد هزمت شر هزيمة. ثم توطدت أواصر الصداقة بين الشقيقتين عنها في أي يوم مضى، وتوسم كل منهما في نفسه أنه رجل في غاية الحذق، خبير بطبيعة النساء. كانا في قمة السرور في قرارة نفسيهما، ومع أحدهما الآخر، وراحا يتطلعان إلى انقضاء أيام الحداد سريعاً، كي يحددا يوماً للقاء في مشرب الشاي لتدبير خطة بيع تلك الأرض التي يرغبان في بيعها.

هكذا مضت الأعوام الثلاثة في الانتظار على مختلف صوره، حتى أقبل الوقت الذي يمكن فيه إنهاء فترة الحداد على وانج لانج. لهذا، وقع الاختيار على يوم معين من التقويم يتضمن اسمه الحرف الملائم لمثل هذه المناسبة، وقام وانج الأكبر بإعداد كل شيء لأداء الشعائر اللازمة للتحرر من إसार الحداد، وبحث الأمر مع زوجته، فكانت هذه المرة أيضاً ملمة بكل ما هو لائق، وكانت تفضي به إليه، فيفعله.

لبسوا جميعاً الثياب الحريرية البهيجة: الابنان وزوجتهما وكل قريب لوانج لانج كان قد اتشح بملابس الحداد هذه السنوات الثلاث، وارتدت النساء ثياباً ذات أطيايف من اللون الأحمر. وفوق هذه الثياب، لبسوا جميعاً الأردية المصنوعة من القنب التي كانوا يرتدونها من قبل، ثم مضوا إلى خارج البوابة الكبرى، حسب العرف السائد في تلك الأنحاء. وهناك كانت كومة من النقود المذهبة والمفضضة قد كدست لإحراقها على روح الميت، ووقف الكهنة على أهبة الاستعداد، ثم أشعلوا النار في

الورق. وعلى ضوء الذهب، خلع من كانوا يرتدون ثياب الحداد على وانج لانج تلك الثياب، ووقفوا كاشفين عن ثيابهم البهيجة التي يرتدونها من تحتها.

بعد أن اكتملت الشعائر، دلفوا إلى البيت، وراحوا يتبادلون التهاني بانقضاء أيام الأسى، وانحنوا أمام اللوحة الجديدة التي أقيمت لوانج لانج بعد أن أحرقت القديمة، كما وضعوا خمراً وقرباناً من اللحوم المطهية أمام اللوحة. كانت هذه اللوحة الجديدة هي اللوحة الدائمة، صنعت كمثيلاتها من خشب رائع غاية في الصلابة، وأقيمت في علبة خشبية صغيرة تحملها. وبعد أن تم صنعها وطلاؤها بأثمن أنواع الطلاء الأسود، بحث ابنا وانج لانج عن أعظم علماء المدينة كي يخط عليها اسم وانج لانج وروحه.

ولم يكن ثمة من هو أعلم من ابن العالم الكونفوشي الهرم الذي كان يوماً معلماً لهما، وهو رجل كان قد تقدم في أيام شبابه إلى الامتحانات الإمبراطورية؛ حقيقة أنه قد رسب فيها، لكنه على أي حال كان أكثر علماً من الذين لم يتقدموا إليها على الإطلاق. وقد منح الرجل ابنه كل ما في جعبته من علم، فصار الابن أيضاً من العلماء. لذا، فإنه عندما دُعي لأداء مهمة رفيعة كهذه، أقبل يخب في عباءته، ويباعد بين قدميه شأن العلماء، وهو يرتدي منظاراً متدلياً فوق أرنبة أنفه.

ولما وصل إلى البيت، جلس إلى النضد أمام اللوحة، بعد أن انحنى لها أولاً عدة مرات، كما ينبغي أن يفعل، ثم شمر كميته المتهدلين، وسن فرشاته المصنوعة من وبر الجمل حتى صارت مديبة ودقيقة للغاية، ولم

يلبث أن شرع في الكتابة. كانت الفرشاة واللوحة والمداد وكل شيء جديدًا، لأنها يجب أن تكون كذلك لأداء مثل هذه المهمة. ومضى في الكتابة حتى وصل إلى الحرف الأخير من التدوين، ثم تريت هنيهة قبل أن يخط كلمة النهاية. تريت مسبل العينين وهو يمعن في التأمل؛ لكي يتمثل روح وانج لانج بكل دقائقها في اللمسة الأخيرة من الكلمة الأخيرة.

وبعد أن استغرق في التأمل برهة، وافته العبارة على النحو التالي: «وانج لانج الذي كان ثراؤه الجسدي والروحي نابغًا من الأرض». وعندما خطرت بذهنه هذه الفكرة، تراءى له وكأنه قد أمسك بجوهر كيان وانج لانج، حتى يحكم القبض على روحه ذاتها، فغمس الفرشاة في المداد الأحمر، وخط اللمسة الأخيرة على اللوحة.

ولما فرغ من المهمة، أخذ وانج الأكبر لوحة أبيه، وحملها بكلتا يديه في عناية، واتجهوا معًا ووضعوا اللوحة في تلك الحجرة العلوية الصغيرة التي توجد فيها اللوحتان الأخريان، لوحتا الفلاحين، أبي وانج لانج وجده. هنا كانت لوحتهما في هذا البيت الفاخر. وما كان الرجلان في حياتهما ليحلما يومًا أن تكون لهما لوحات كتلك التي لا يملكها إلا الأثرياء. ولئن فكرا على الإطلاق فيما سيكون عليه حالهما بعد الموت، لما قدرا شيئًا أكثر من أن يكتب اسماهما على قصاصة من الورق، يخطها شخص على قدر يسير من العلم، ثم تلصق على جدار البيت المشيد من الطين بين الحقول، وتبقى هكذا حتى تُبلى بعد فترة من الزمن. لكن وانج لانج عندما انتقل إلى هذه البيت في المدينة، أمر بصنع لوحتين لسلفيه، وكأنهما هما أيضًا قد عاشا هنا، رغم أن أحدا لا يدري هل روحاهما

تحلقان هنا في المدينة أم لا؟

هنا، إذن، استقرت لوحة وانج لانج أيضًا. وبعد أن قام ابنه بكل ما يقتضيه الواجب، أغلقا الباب، وانطلقا خارجين، وهما يحسان بالغبطة في قرارة نفسيهما.

حان الوقت للملائم لدعوة الضيفين، وإقامة الوليمة، والقصف والمرح. فارتدت لوتس ثيابًا من الحرير الأزرق اللامع الموشى بالأزهار، تبدو زاهية اللون أكثر من اللازم بالنسبة إلى مثل هذه المخلوقة الهرمة الجسيمة، لكن أحدًا لم يراجعها في ذلك، بحكم إدراكهم لطبيعتها. واشتركوا جميعًا في الوليمة، وهم يتضحكون معًا ويحتسون الخمر في أثناء الحفل. ولما كان وانج الأكبر مولعًا بالمحافل الضخمة المرحّة، فقد أخذ يصيح المرة تلو المرة:

«اشربوا حتى الثمالة.. اشربوا حتى يبدو قاع الكأس».

وأسرف في الشراب، حتى تصاعد إلى وجهه اللون الأحمر القاني من الخمر التي في جوفه، فتوجهت وجنتاه وعيناه. وحين علمت زوجته -التي كانت تجلس مع النساء على حدة في رواق آخر- أنه على وشك أن يفقد وعيه، بعثت إليه بوصيفتها، قائلة: «ليس من اللائق بك أن تشمل في وليمة كهذه». فتاب إلى رشده.

بل إن وانج الثاني كان أيضًا منشرحًا في هذا اليوم، فلم يوغر صدره شيء. واغتنم الفرصة كي يتحدث على انفراد إلى بعض الضيوف؛ ليرى ما إذا كان أحدهم يرغب في شراء مزيد من الأرض عما يمتلكه. وأذاع

سرًا، هنا وهناك، أن لديه أرضًا جيدة، يرغب في بيعها. هكذا تقضى اليوم، وأحس كل من الأخوين بالرضا؛ لأنه حطم القيد الذي يربطه بالشيخ الراقد في باطن الأرض.

ثمة واحدة لم تشترك معهم في الوليمة، فقد بعثت بيربلوسوم تعتذر قائلة:

«إن الإنسانية التي أعنى بأمرها متوقعة بعض الشيء، وأرجو قبول عذري».

ولما كان أحد لن يفتقدها، فقد بعث إليها وانج الأكبر برسالة أن في وسعها التخلف عن الوليمة، إذا راق لها ذلك، وكانت هي الوحيدة التي لم تخلع عنها ثياب الحداد في ذاك اليوم، بل ولم تخلع الحذاء الأبيض الذي ترتديه، ولا الشريط الأبيض الذي تشد به شعرها حيث تعقسه. كما إنها لم تخلع شارات الحزن هذه عن البلهاء أيضًا. وبينما كان الآخرون يلهون في الوليمة، فعلت هي ما يحبه قلبها؛ أخذت البلهاء من يدها، واتجهت بها إلى قبر وانج لانج، حيث جلست بجواره. وبينما كانت البلهاء تلهو قرية العين بقربها من المرأة التي تشملها برعايتها، جلست بيربلوسوم تجوس بعينها أنحاء الأرض. هناك كانت الأرض تترامى أمامها، بحقولها الصغيرة الخضراء، المنتشرة طولًا وعرضًا، يتناسق بعضها مع بعض لأميال عديدة، تمتد إلى مرمى بصرها. ولاحت لها هنا وهناك بقع زرقاء اللون واقفة أو متحركة، حيث يكون بعض الفلاحين منحنين على قمح الربيع. هكذا كان وانج لانج أيضًا ينحني على ثمار أرضه، عندما حان دوره لأن يمتلكها. وذكرت بيربلوسوم كيف كان في

شيخوخته يسهب في الحديث عن تلك السنين التي عاشها قبل أن تولد، كيف كان يحب أن يحدثها عنها، وكيف اعتاد أن يحرق هذا الحقل أو يزرع ذاك.

هكذا مضت هذه الحقبة، وهكذا مضى ذلك اليوم على أسرة وانج لانج. بيد أن الابن الثالث لم يعد إلى البيت، حتى من أجل مناسبة كهذه. كلا، بل مكث حيثما كان، وانهمك في حياة خاصة به، منفصلة عن حياتهن جميعاً.



كما تنبت أغصان شجرة شامخة معمرة من الجذع القوي الراسخ، وتمتد في جهد مبتعدة عن ذلك الجذع، وعن بعضها البعض، ثم تنتشر الأغصان كُلُّ في اتجاهه الخاص، رغم أن جذرها واحد، كان أبناء وانج لانج الثلاثة، وكان أقواهم شكيمة، وأصلبهن رأياً هو وانج الثالث أصغر أبنائه، الذي كان جندياً في أحد أقاليم الجنوب.

ويوم تَلَقَّى وانج الثالث نبأ احتضار أبيه، كان واقفاً أمام أحد المعابد خارج المدينة التي يعيش فيها قائده، حيث توجد أرض فضاء، كان يسير فيها بجنوده جيئةً وذهاباً في خطى عسكرية، ويلقنهم خدع الحرب ومواقفها. هذا ما كان يفعله حين قدم رسول أخويه، لاهثاً مبهور الأنفاس لخطورة الرسالة التي يحملها، ثم قال وهو يلهث:

«يا سيدي، ومولانا الثالث الشاب.. إن أباك -السيد الهرم- يرقد على فراش الموت».

لم يكن وانج الثالث قد تعامل مع أبيه على الإطلاق منذ ذلك اليوم الذي انطلق فيه هارباً من البيت في ثورة غضب عاتية، لأن أباه بعد أن بلغ من العمر أزدله، قد اصطفى في رواقه الخاص شابة معينة من الوصيفات

نشأت في البيت، هي بيربلوسوم. ولم يكن وانج الثالث يدري أنه يحبها حتى سمع بما أقدم عليه أبوه. وفي تلك الليلة ذاتها، هرع داخلاً إلى رواق أبيه، بعد أن استغرق في التأمل طوال اليوم، منذ علم بالأمر. فقد فاضت به تأملاته لدرجة أنه اندفع إلى داخل الحجرة، حيث كان أبوه جالساً مع الوصيفة. أجل، لقد اقتحم تلك الحجرة في ظلمة ليلة حارة من ليالي الصيف، وهناك كانت الفتاة تجلس ساكنة، يعلو وجهها الشحوب، فعرف عن يقين أنه كان من الممكن أن يهيم بها حباً. حينئذ ثار في أعماقه بحر من الغضب نحو أبيه، فلم يستطع كبح جماحه، إذ كان غضوباً بطبيعته. وأدرك أنه لو بقي ليدع الغضب يتلاطم ويتشامخ، فلا بد أن ينفجر به قلبه، ومن ثم ألقي بنفسه خارج بيت أبيه في تلك الليلة ذاتها. ولأنه كان دائماً يتوق إلى المغامرة، ويتطلع إلى أن يكون بطلاً تحت أحد بنود الحرب، فقد أنفق الفضة التي يحملها، وانطلق جنوباً إلى أبعد منطقة أمكنه الوصول إليها، ثم التحق بالخدمة تحت لواء جنرال ذائع الصيت كان يقود حركة تمرد في ذلك الحين.

كان وانج الثالث شاباً فارح القامة، شديد المراس، شرس الطبع، ذا وجه قاتم غضوب، وشفتين صلبتين تضغطان على أسنانه الكبيرة البيضاء، حتى لقد لفت أنظار الجنرال لأول وهلة، فأراد أن يقربه إليه، وأخذ يرقى به في سرعة بالغة، تفوق المؤلف إلى حد بعيد. كان هذا يرجع من ناحية إلى أنه شاب صموت وفي غاية الثبات بحيث أصبح موضع ثقة الجنرال، ومن ناحية أخرى إلى أنه كان شرساً غضوباً إلى حد أنه إذا استثير لم يكن يهاب أن يقتل عدوه، بل ولا يهاب أن يخاطر بحياته، وليس ثمة كثير من

الرجال على هذا القدر من الشجاعة يمكن اكترأؤهم للحرب. وفضلاً عن ذلك، فقد اندلعت حرب أو حربان وقتئذ، وزمن الحرب هو الفترة التي يتسنى فيها للجنود أن يرتقوا سريعاً. وهذا ما حدث مع وانج الثالث، فكلما قُتِل أو عُزِل من يفوقه مرتبة من الرجال، كان الجنرال يعهد إليه بمناصب أعلى وأعلى، حتى ارتفع من مجرد جندي عادي إلى أن يكون ضابطاً يعمل كثير من الرجال تحت إمرته. كان هذا هو حاله، حينما شد الرحال متجهاً إلى بيت أبيه.

ما إن استمع وانج الثالث إلى ما أدلى به الرسول حتى صرف رجاله، وسار وحيداً عبر الحقول، يتبعه الرسول على مبعده. وكان يوماً في مطلع الربيع، مثل تلك الأيام التي اعتاد فيها أبوه وانج لانج أن يتحرك وينطلق خارجاً ليتفقد أرضه. في مثل هذا اليوم كان الرجل يحمل فأسه، ويقلب باطن الأرض بين سفوف سنابل قمحه، وهناك، رغم أنه لم تكن ثمة بوادر للحياة الجديدة تلوح لأي عين أخرى سواه، فإن عينه هو كانت تلمح نماء وتغييراً، هما بشائر حصاد جديد ينبثق من الأرض. وها هو ذا الآن جثة هامدة، فلم يستطع وانج الثالث أن يتخيل فكرة الموت في مثل هذا اليوم.

ذلك أن وانج الثالث كان أيضاً يفعل بالربيع بطريقته الخاصة، وحين كان أبوه يسعى قلقاً إلى أرضه، كان هو أيضاً يعتريه القلق. فكلما أقبل الربيع يتجه بذهنه إلى خطة تراوده، هي أن يتخلى عن الجنرال الهرم، ويشرع في شن حرب لحسابه الخاص، مستمياً إلى جانبه من يرغب الرجال في الانضواء تحت لوائه. في كل ربيع كان يخيل إليه أنه شيء يمكن تحقيقه، ثم أضحى في النهاية شيئاً لا بد من تحقيقه. ولأنه ظل

يتدبر عامًا بعد عام كيف يتسنى تنفيذ خطته، فقد نمت في أعماقه حتى أصبحت حلمه وطموحه.. نمت نموًا هائلًا إلى درجة أنه في هذا الربيع بالذات قال لنفسه إنه يجب أن يشرع فيها، إذ لم يعد يطيق مزيدًا من الحياة التي يحياها تحت لواء الجنرال الهرم.

والحق أنه أصبح يحس بمرارة بالغة نحو هذا الجنرال. فحينما قدم في بادئ الأمر للعمل تحت لوائه، كان الجنرال واحدًا ممن يتزعمون الثورة لمناهضة حاكم شرير، وكان حينذاك لم يزل بعد في طور الشباب، وفي وسعه أن يتحدث عن الثورة، وكيف أنها شيء رائع، وكيف أن جميع الرجال البواسل يجب أن يقاتلوا في سبيل هدف سليم عادل. وكان له صوت مدو هادر، والكلمات تنزلق من لسانه في سهولة ويسر. كما كانت له طريقة بارعة يهز بها مشاعر الرجال إلى حد يتجاوز ما يختلج في نفسه هو من مشاعر، ومع ذلك لم يكن الذين يستمعون إليه يدركون هذا الأسلوب.

وعندما استمع وانج الثالث إلى هذه الكلمات الجميلة المنمقة في أول الأمر، تأثر بها تأثرًا عميقًا، لأنه كان يحمل قلبًا غرييرًا، فقطع على نفسه عهدًا أن يقف إلى جانب جنرال كهذا في مثل هذه القضية العادل، وامتلأ قلبه العميق بالهدف.

لذلك عندما نجحت الثورة، وعاد الجنرال من حروبه، واتخذ من وادي النهر الخصب موطنًا يعيش فيه، ذهل وانج الثالث حين رأى هذا الرجل، الذي كان بطلاً في الحروب، يستقر مقبلًا في حماسة على تلك الأشياء التي يمارسها الآن. ولم يستطع وانج الثالث أن يغتفر له أنه قد

تناسى ماضيه على هذا النحو، فاستولى عليه شعور في غاية الغرابة أن شيئاً ما قد سرق أو سلب منه غدرًا بصورة ما، رغم أنه لم يعرف كنه هذا الشيء. وبدافع من هذه المرارة جاءته الفكرة في بادئ الأمر، أن يتخلى عن هذا الجنرال، الذي تفانى يومًا في خدمته بكل جوارحه في ميدان الوغى، وأن يسلك بمفرده سبيله الخاص.

ذلك أن القوة تسربت من الجنرال الهرم في تلك الأعوام، وركن إلى الخمول، وعاش بعيدًا عن الأرض، ولم يعد ينطلق إلى أي حروب. كما ترك جسمه يترهل، ودأب على أن يأكل أدمس اللحوم كل يوم، ويشرب الخمور المستوردة من الخارج التي تفني معدة المرء بنارها المتقدمة. ولم يعد الجنرال يتحدث عن الحرب، بل أصبح كل حديثه يدور حول كيف قام هذا الطاهي بصنع مرق لا نظير له على سمكة صيدت من البحر، أو كيف أن ذاك الطاهي يتقن إضافة التوابل إلى ألوان الطعام، حتى إنها تليق بمائدة أحد الملوك. وبعد أن يفرغ من التهام ما وسعه من الطعام، حيثئذ كانت اللعبة الوحيدة الأخرى التي يتقنها هي النساء، فاقتنى ما يزيد على خمسين زوجة. كانت متعته في أن يمتلك النساء من كل نوع وصنف، حتى لقد بلغ به الأمر أنه اقتنى امرأة غريبة، لها بشرة ناصعة البياض، وعينان في لون أوراق الأشجار، وشعر شبيه بالقنب الهندي، كان قد اشتراها بالثمن من مكان ما، ولكنه كان يخشاها لأنها تفيض بالضجر في أعماقها، إلى حد أنها تتقد بالمرارة، فتمتم بينها وبين نفسها بلغتها الخاصة الغريبة، كما لو كانت تمارس سحرًا. على أن الأمر، رغم ذلك، كان مبعثًا لتسلية الجنرال الهرم، بل لقد كان شيئًا يزهو به أنه استطاع اقتناء مثل هذه المرأة بين نسائه.

تحت قيادة جنرال كهذا، تسرب الضعف والتهاون إلى الضباط أيضاً، فعاشوا بين الكأس والطاس، لا يختلطون بعامة الشعب، حتى كره الناس جميعاً الجنرال ورجاله، من أعماق قلوبهم. بيد أن الشباب وذوي البسالة من الجنود انتابهم القلق، واختنقوا من الجمود والبطالة. وعندما ترفع وانج الثالث بنفسه عنهم جميعاً، وراح يعيش بطريقته البسيطة، وأبى حتى أن يتطلع إلى النساء، تحول إليه هؤلاء الشباب، واحداً بعد الآخر، هذه الحفنة وتلك، هذه الصحبة وتلك، قائلين فيها بينهم.

«أهو الرجل الذي يستطيع قيادتنا إلى الخارج؟».

واتجهت إليه أنظارهم في أمل ورجاء.

لم يعد هناك الآن ما يحول بين وانج الثالث وبين حلمه سوى شيء واحد هو المال، لأنه بعد أن هجر بيت أبيه، لم يكن يملك أكثر من ذلك المبلغ التافه الذي يتقاضاه من الجنرال الهرم في نهاية كل شهر، بل ولم يكن يحصل حتى على هذا في كثير من الأحيان، لأن الجنرال لم يكن لديه أحياناً ما يكفي لدفع رواتب رجاله، ما دام في حاجة إلى مبالغ طائلة لنفقاته الخاصة. ذلك أن خمسين امرأة، إذا اجتمعن في بيت رجل واحد، يعملن السلب والنهب، ويتبارين مع بعضهن البعض في اقتناء المجوهرات والثياب، وفيما يمكنهن الحصول عليه من سيدهن الهرم عن طريق الدموع والدلال.

لذا خيل لوانج الثالث أنه لن يستطيع مطلقاً تحقيق آماله، ما لم يصبح من قطاع الطرق لفترة من الزمن، ويصبح رجاله عصابة من اللصوص،

كما فعل كثيرون مثله من ذي قبل. وبعد أن يمارس اللصوصية حيناً من الوقت، حتى يحصل على كفايته من المال، يمكنه أن ينتظر قيام حرب يحملها إليه الحظ، ثم يعقد اتفاقاً مع جيش أو آخر من جيوش الدولة، طالباً منحه العفو وقبوله مواطناً في الدولة مرة أخرى.

لكن لم يكن أيضاً من طبيعته أن يكون لصاً، فقد كان أبوه رجلاً شريفاً، وليس من الرجال الذين يسهل عليهم أن ينحدروا إلى السرقة في حالة المجاعة أو زمن الحرب. وكان من المحتمل أن يستمر وانج الثالث في كفاحه سنين أخرى وهو يتحين الفرصة، لأنه الآن وقد عاش في أحلامه طويلاً أصبح يعتقد اعتقاداً راسخاً في أعماقه أن السماء نفسها قد رسمت له مصيره حسبما يحلم به، وما عليه سوى الانتظار ريثما تحين الساعة المقدرة له، ثم يمكنه حينذاك أن يغتنمها.

كان الشيء الوحيد الذي جعل الانتظار يكاد يكون ضرباً من المحال بالنسبة إليه - إذ لم يكن الصبر من شيمته - هو أن روحه قد عافت هذا القطر الجنوبي الذي يعيش فيه، وهفت إلى الخروج منه والانطلاق بعيداً إلى موطنه في الشمال. كان رجلاً من الشمال، حتى إنه في بعض الأيام لم يعد يستسيغ ذلك الطعام اللانهائي من الأرز الأبيض الذي يولع به هؤلاء الجنوبيون، ويتوق إلى أن يعمل أسنانه الصلبة البيضاء الضخمة في طريحة جافة من خبز الحنطة الذي لم يختمر، ملفوفة على عود من عيدان الثوم. أجل، بل لقد كان يرفع صوته ويزيد من خشونته عن طبيعته، لأنه كره من أعماقه مجاملات هؤلاء الجنوبيين الناعمة المعسولة، فهم مدهنون للغاية، حتى إنهم لا بد وأن يكونوا من

ذوي المكر والخديعة؛ إذ ليس من طبيعة الإنسان أن يكون رقيقاً على الدوام. لذا اعتقد أن جميع الرجال الأذكياء الحاذقين لا بد وأن تكون قلوبهم ضحلة. أجل، طالما تجهم في وجوههم، وطالما ثارت ثائرتهم، لأنه كان يهفو إلى أن يعيش مرة أخرى في موطنه، حيث ينمو الرجال فارهي القامة كما يجدر بالرجال، لا أن يكونوا مجرد قردة قميئة شأن هؤلاء الجنوبيين، كان يهفو إلى أن يعيش في موطنه حيث حديث الرجال مقتضب صريح، وقلوبهم صادقة لا تعرف الالتواء. ولما كان وانج الثالث يتسم بشراسة الطبع، فقد كان الناس يهابونه، ويخافون جهامة حاجبيه السوداوين، وفمه الذي يحمل طابع الجفاء. وقد أوحى لهم هذه السمات، إلى جانب أسنانه الطويلة البيضاء، أن يطلقوا عليه كنية، فأسموه «وانج النمر».

وكثيراً ما كان وانج النمر في أثناء الليل، يتقلب على فراشه الضيق الصلب في الحجرة الصغيرة الخاصة به، وهو يقدر زناد الفكر باحثاً عن خطة ووسيلة لتحقيق أحلامه. كان يدرك جيداً أنه سيحصل على إرثه، في حالة موت أبيه الشيخ، لكن أباه لم يكن راغباً في الموت، وطالما غمغم وانج النمر في أعماق الليل قائلاً، وهو يصبر على أسنانه:

«ستمند الحياة بالشيخ حتى تنقضي زهرة عمري. فلو أنه لم يمت سريعاً، سيفوتني الأوان لأن أصبح من العظماء. يا له من شيخ عنيد متمرد، حتى إنه يأبى الموت!».

وأخيراً بلغ به الأمر في هذا الربيع أنه عقد العزم على أن يصبح من قطاع الطرق، بدلاً من مواصلة الانتظار، مهما كان كارهاً لهذا المسلك.

ولم يكد يستقر على هذا الرأي، حتى وافته الأنباء بأن أباه يعاني سكرات الموت.

بعد أن تلقى الأنباء سار عائداً عبر الحقول وقلبه يتضخم ويثب في جنبات صدره، إذ رأى الطريق الذي امتد أمامه واضحاً كي يسلكه، وشمله راحة عميقة لأنه لم يعد بحاجة لأن يسلك سبيل اللصوص، حتى لقد كان بوسعه أن يصيح جذلاً، لو أنه لم يكن رجلاً صموتاً بطبيعته. أجل، وفوق كل أفكاره الأخرى كان يتشامخ هذا الخاطر: إنه لم يكن مخطئاً في تقدير مصيره، وإنه بإرثه سيحصل على كل ما يحتاج إليه، وأن السماء تتولاه برعايتها. أجل، وفوق كل أفكاره الأخرى كان يتشامخ هذا الخاطر: إن بوسعه الآن أن يخطو الخطوة الأولى على ذلك الطريق الصاعد اللانهائي الذي رسمه له القدر، إذ عرف أن من المقيض له أن يحلق في سماء العظمة.

بيد أن أحداً لم ير أمارات الجذل على وجهه، ولم يحدث قط أن رأى أحد شيئاً على وجهه الشرس الجامد ذاك، فقد أورثته أمه عينها الثابتة وفمها الصارم، ونظرتها التي توحى بشيء ما شبيه بالصخر الذي قد جسده من نفس معدنه. ومن ثم لم ينبس ببنت شفة، بل مضى إلى حجرته وأعد نفسه للقيام بالرحلة الطويلة إلى الشمال، وطلب إلى أربعة من الأتباع الأمناء الذين يأترون بأمره أن يصحبوه. ولما أن فرغ من استعداداته البسيطة، اتجه في خُطى عسكرية إلى البيت الضخم العتيق، الذي كان الجنرال قد استولى عليه، لاستعماله الخاص في تلك المدينة. ثم بعث «وانج النمر» بأحد الحراس إلى الداخل ليعلن مقدمه، ولم يلبث الحارس

أن عاد أدراجه هاتفاً بأنه قد سمح له بالدخول. حينئذ تقدم «وانج النمر» إلى داخل البيت، أمراً رجاله بالانتظار عند الباب، ودلف إلى الحجرة التي كان الجنرال الهرم جالساً فيها ينهي وجبة الظهيرة.

كان الجنرال منكباً على طعامه، في حين وقفت اثنتان من زوجاته لخدمته. لم يكن مغتسلاً أو حليقاً، وكانت سترته متهدلة عليه محلولة الأزرار، لأنه كان يحب بعد أن تقدمت به السن، أن يمضي هنا وهناك من غير أن يغتسل أو يحلق لحيته، غير مكترث بهيئته، تماماً كما كان يفعل أيام شبابه. فقد كان في شبابه عاملاً سوقياً غاية في الوضاعة، إلا أنه لم يكن يرغب في العمل، فأقبل على السرقة، ثم ارتقى من حرفة اللصوصية، عندما تحول به الحظ في إحدى الحروب. على أنه كان أيضاً شيخاً يجنح إلى الهذر والمرح، شديد الاستهتار في كل ما يتفوه به. وكان يرحب دائماً بوانج النمر وييدي له الاحترام، لأنه يقوم بتلك المهام التي عجز هو الآن عن القيام بها بنفسه، من جراء تراخيه الشديد في شيخوخته المترهلة.

دخل وانج النمر إلى الحجرة، وانحنى انحناء الطاعة، ثم قال:

«قدم اليوم رجل كي ينبئني أن أبي يحتضر، وأن أخويّ ينتظران مقدمي لنواريه التراب»، فانحنى الجنرال إلى الخلف في استرخاء، وقال: «اذهب يا بني، وقم بواجبك نحو أبيك، ثم عد إليّ». وأخذ يتحسس بيده جيب منطقتة، ويديرها هنا وهناك، وما لبث أن أخرج حفنة من النقود، قائلاً:

«ها هي ذي منحة لك، فلا تقتري على نفسك تفتيراً شديداً في أسفارك».

وازداد ميلاً إلى الوراء في مقعده، ثم صاح فجأة أنه يحس بشيء ما في إحدى أسنانه الجوفاء، فجذبت إحدى زوجاته من شعرها دبوساً طويلاً دقيقاً من الفضة، وأعطته له، فشغل به، وغاب «وانج النمر» عن باله.

عاد «وانج النمر» إلى بيت أبيه. ثم انتظر والضجر يغلي في أعماقه حتى تمت قسمة الإرث، وأمكنه أن يعجل بالرحيل ثانية. لكنه أبى أن يشرع في خطته، قبل أن تنقضي سنوات الحداد. كلا؛ فقد كان رجلاً مدققاً للغاية، يؤثر أداء الواجب بقدر ما يستطيع، لذلك راح ينتظر نهاية الحداد. لكن الانتظار كان الآن هيناً عليه لأن حلمه أصبح محققاً في آخر الأمر، وأمضى السنوات الثلاث في الوصول بوسائله إلى مرتبة الكمال، وفي ادخار فضته، وفي انتقاء ومراقبة الرجال الذين يأمل أن يتبعوه.

وما دام قد حصل على حاجته، فإنه لم يعد يفكر في أبيه، اللهم إلا كما يفكر الغصن في الجذع الذي انبثق منه. لم يعد أبوه يحول بخاطره إلى أبعد من هذا الحد، لأنه كان رجلاً تتدفق أفكاره عادة في نهيرات ضيقة عميقة، ولم تكن نفسه تتسع لأكثر من شيء واحد في وقت واحد، ولم يكن قلبه يتسع لأكثر من إنسان واحد، وكان هو نفسه الآن ذاك الإنسان، لا تراوده أحلام سوى حلمه الوحيد.

بيد أن ذلك الحلم قد اتسع نطاقه على هذا النحو: في تلك الأيام التي قضها خاملاً في أروقة أخويه، رأى شيئاً يمتلكه أخواه، في حين أنه محروم منه، فغبطهم امتلاك هذا الشيء وحده. لم يغبطهم نساءهم أو بيوتهم أو بضائعهم، ولا كل مظاهر اليسار التي تحيط بهم، ولا تلك الانحناءات التي يغدقها عليهم الناس في كل مكان. كلا، لقد غبطهم هذا

الشيء فحسب: وهو ما لهم من أبناء. كان ينعم النظر في أولئك الصبية، أبناء أخويه، ويرقبهم وهم يلعبون ويتشاجرون ويتصايحون، فخطر له فجأة أنه يرغب في أن يكون له ابن من صلبه أيضًا. أجل، إنه لشيء رائع بالنسبة إلى أحد ملوك الحرب أن يكون له ابن من دمه، فما من دم يحمل الولاء الخالص للرجل سوى دم من صلبه. هكذا تمنى لو أن له ولدًا.

ولكنه بعد أن فكر في الأمر مليًا، عاد فنحى الرغبة جانبًا، في الحاضر على أقل تقدير، إذ لم تكن هذه هي الساعة الملائمة لأن يتوقف بحثًا عن امرأة. كان ينفر من النساء، حتى لقد خيل إليه أنه ما من امرأة يمكن أن تكون شيئًا بالنسبة إليه سوى عقبة في طريقه وهو في بداية مغامرته. كما أنه لم يكن يرغب في أن يتخذ له امرأة من السوق، يمكنه أن يهجرها، دون أن يعتبرها زوجه له. فلئن اتخذ لنفسه امرأة آملًا أن تنجب له ابنًا، فقد كان يريده ابنًا شرعيًا من زوجة شرعية. ومن ثم، نحى أمنيته جانبًا لفترة من الزمن، وتركها كامنة في قلبه، عميقة في غياهب المستقبل.



وبينما كان «وانج النمر» يعد العدة كي ينطلق من الجنوب، لحسابه الخاص في آخر الأمر، حدث ذات يوم أن قال وانج الثاني لأخيه الأكبر: «إن لديك فسحة من الوقت في صباح الغد، تعال معي إلى مشرب الشاي الذي يقع في شارع الأحجار الأرجوانية؛ لتحدث معًا في موضوعين».

عندما سمع وانج الأكبر قول أخيه هذا، عجب في قرارة نفسه، فهو يعلم أنه لا بد لهما من التحدث بشأن الأرض، لكنه كان يجهل فيم سيتحدثان أيضًا، لذا قال له:

«سأحضر بالتأكيد. ما هو الأمر الآخر الذي سنتحدث فيه؟».

أجاب وانج الثاني قائلاً: «لقد تلقيت خطابًا غريبًا من شقيقنا الثالث. إنه يتقدم إلينا بعرض لأكبر عدد يمكننا الاستغناء عنه من أبنائنا، لأنه سيشرع في محاولة ضخمة، ويحتاج إلى رجال من ذوي قرباه، يلتفون من حوله، إذ ليس له أبناء من صلبه».

«أبناؤنا!» ردها وانج الأكبر مأخوذاً، وقد فغر فاه الضخم من شدة
ذهوله، على حين كانت عيناه تحمقان في أخيه.

فأوماً وانج الثاني برأسه قائلاً: «لست أدري ماذا سيفعل بهم. على
أي حال، تعال غداً، وستحدث في الأمر». ثم تحرك وكأنه سيمضي في
سبيله، لأنه كان قد استوقف أخاه على قارعة الطريق، في أثناء عودته من
سوق الغلال.

لكن وانج الأكبر ما كان ليفرغ من أي أمر بهذه السرعة الخاطفة، فقد
كان لديه دائماً متسع من الوقت للحديث في أي شيء يظهر في الأفق.
ولما كان مزاجه يجنح إلى المرح في هذه الأيام، بعد أن استولى على
ممتلكاته، فقد قال:

«إن من السهل جداً على الرجل أن يكون له أبناء من صلبه. يجب أن
نعثر له على زوجة يا أخي».

ثم ضيق من عينيه، ورسم على وجهه أمارات الخبث والدهاء،
وكأنما هو موشك على إلقاء ملحّة طيبة. إلا أن وانج الثاني إذ لمح هذا
منه ابتسم ابتسامة باهتة، وقال بطريقته المثلجة:

«لسنا جميعاً نضارعك في سهولة تعاملك مع النساء يا أخي الأكبر».

ثم واصل المسير في أثناء حديثه، لأنه لم يكن راغباً في أن يدع
وانج الأكبر يشرع في حديثه المرسل الفضفاض، وهما واقفان الآن على
قارعة الطريق، بينما الناس يمرون جيئة وذهاباً، وعلى استعداد للتوقف
والإصغاء إلى أي حكاية من الحكايات.

تقابل الشقيقان صباح اليوم التالي في مشرب الشاي. وعثرا على منضدة في أحد الأركان، حيث يمكنهما التطلع إلى الخارج، ورؤية كل ما هو جدير بالمشاهدة، دون أن يتسنى للناس أن يسمعوا بسهولة ما يريد أن يقوله أحدهما للآخر. هناك اتخذا مكانيهما، وجلس وانج الأكبر في المقعد الداخلي، فهو الأكثر ارتفاعاً، ومن حقه الجلوس فيه. ثم صاح منادياً النادل في ذلك المشرب، وعندما قدم إليهما، أمره بإحضار هذا وذاك من صنوف الطعام، بعض الفطائر الحلوة الساخنة، وبعض الألوان الخفيفة من اللحم المملح الذي يأكله الناس في الصباح لفتح شهيتهم، وقارورة من الخمر الساخنة، فضلاً عن بعض اللحوم الأخرى التي يتناولها الناس ليدفعوا بها أثر الخمر، كيلا تتصاعد سورتها، فتدور رؤوسهم في مطلع اليوم. مضى يطلب ما يعن له من مثل هذه الأشياء، لأنه كان كلفاً بالطعام الجيد، في حين جلس وانج الثاني يستمع إليه، وأخيراً أخذ يتململ في مقعده، وقد انتابه كرب شديد، لأنه لم يكن يدري ما إذا كان عليه أن يدفع نصيبه من كل هذا أم لا. وفي النهاية صاح قائلاً في حدة: «إذا كانت كل هذه اللحوم والأطعمة من أجلي، يا أخي، فإني لن أتناولها، لأنني رجل زاهد في الطعام، وقابليتي له ضعيفة، لا سيما في الصباح».

لكن وانج الأكبر قال في سخاء:

«أنت ضيفي اليوم، فلا تحمل همّاً، لأنني سوف أدفع الثمن».

هكذا بعث الراحة في نفس أخيه، وعندما جيء باللحوم، بذل وانج الثاني قصارى جهده في أن يلتهم ما وسعه منها، بعد أن تبين أنه ضيف

أخيه، فقد كان من أساليبه التي لم يستطع الإقلاع عنها أنه -برغم امتلاكه الأموال الطائلة- لم يكف عن توفير كل ما يمكن توفيره، وبخاصة إذا كان شيء لم ينفق فيه مألًا. وحيث كان غيره من الناس يدفع إلى الخدم بالثياب القديمة أو بأي شيء من سقط المتاع، كان هو لا يطيق أن يفعل هذا، بل لا بد وأن يحملها خفية إلى أحد أصحاب المراهن ليحصل على شيء من المال في مقابلها. لذا، فإنه حين يكون ضيقًا على أحد، لا بد أن يحشو بطنه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، مع أنه رجل ضئيل الجسم ذو معدة هزيلة. لكنه كان يتحامل على نفسه، ويأكل قدر طاقته من الطعام، حتى إنه لم يكن يحس بالجوع لمدة يوم أو يومين بعد ذلك. كان أمره يدعو إلى العجب، إذ لم يكن في حاجة إلى أن يسلك هذا المسلك.

هكذا فعل هذا الصباح. وبينما كان الشقيقان يتناولان الطعام. لم يتحدثا على الإطلاق، بل طفقا يأكلان. وحين كانا ينتظران الخادم حتى يأتي لهما بصحفة جديدة. كانا يجلسان في صمت، ويتلفتان حولهما في أرجاء الحجرة التي يجلسان فيها، إذ إن من الأشياء التي تلحق أبلغ الضرر بشهية المرء أن يبدأ في مناقشة بعض شؤون العمل في أثناء الأكل؛ لأن هذا يجعل معدته تصدف عن الطعام.

ورغم أنهما كانا يجهلان الأمر، فقد كان هذا هو نفس المشرب الذي ارتاده أبوهما وانج لانج ذات مرة، حيث عثر على لوتس المغنية التي اتخذها محظية له. لقد لاح المكان في عيني وانج لانج وكأنه أرض العجائب... لاح مشربًا جميلًا سحرًا بما يحويه من رسوم النساء الفاتنات على اللوائف الحريية المدلاة فوق الجدران. أما بالنسبة إلى

هذين الاثنين من أبنائه، فقد كان المشرب مألوفاً تماماً، وما كانا ليتخيلا قط كيف بدا لأبيهما، أو كيف دلف إليه متهيأ نصف خجل، شأن الفلاح بين أهل الحضر. كلا، لقد جلس ابنه هناك في أرديتهما الحربية، يتلفتان حولهما دون ما حرج، يعرف الناس من هما، ويسارعون بالنهوض والانحناء لهما، إذا اتجهت أنظار الأخوين نحوهم، بينما يهرع النادل لتلبية طلباتهما، وفي صحبة النادل الذي يحمل قوارير الخمر الساخنة يأتي صاحب المشرب بنفسه، قائلاً:

«هذه الخمر من دنان فُتحت حديثاً، وقد فضضت أختامها الفخارية بيدي هذه، من أجلكما أيها السيدان». ويظل يستفسر منهما، المرة تلو المرة، عما إذا كان كل شيء كما يرغبان؟

أجل، كانت هذه هي الحال مع هذين الابنين من أبناء وانج لانج، رغم أنه في ركن قصي هناك ما زالت تتدلى تلك الليفة الحربية التي رسمت عليها صورة لوتس، تبدو فيها مجرد فتاة ضئيلة الجسم، تحمل إحدى براعم زهرة اللوتس في يدها الصغيرة. لقد تطلع وانج لانج إليها ذات يوم، وقلبه يخفق خفقاً عنيفاً في جنبات صدره، وذهنه يعصف به الارتباك. أما الآن، فقد رحل الرجل، وأصبحت لوتس على ما هي عليه، وما زالت الليفة مدلاة هناك، وقد اتسخت من الدخان، وتلطخت بالأدران المتخلفة عن الذباب، ولم يعد أحد يتطلع إليها قط، أو يخطر بذهنه أن يسأل: «من تكون تلك الحسناء التي تتدلى صورتها متوارية في ركن الحجرة؟» كلا، وما كان هذان الرجلان، ابنا وانج لانج، يتخيلان مطلقاً أنها لوتس، أو أن من الممكن أن تكون تلك صورتها في يوم من الأيام.

هناك جلسا يحيط بهما احترام الجميع، ومضيا في تناول الطعام. ومع أن وانج الثاني بذل قصارى جهده، إلا أنه عجز عن المضي في الأكل دهرًا كما فعل أخوه الأكبر. ذلك أنه بعد أن أكل وانج الثاني من كل شيء، بل وأكثر من طاقته، استمر وانج الأكبر في التهام الطعام بهمة ونشاط، وراح يشرب خمرة، ويتلمظ بشفتيه المكتنزتين متذوقًا نكهتها، ثم يعود إلى الأكل ثانية، حتى تفصّد منه العرق، وبدا وجهه وكأنه قد طلي بطبقة من الزيت. وبعد أن قام بالمهمة إلى أقصى حدود طاقته، اتكأ إلى الوراء في مقعده، وجاء النادل بالمناشف التي غمست في الماء المغلي ثم عصرت، فمسح الرجلان رأسيهما وعنقيهما وأيديهما وأذرعهما، ثم رفع النادل قطع اللحم المتخلفة وثمانلات الخمر، وأزال العظام وفتات الطعام من على النضد، وأحضر الشاي الأخضر الطازج. وهكذا أصبح الرجلان متأهبين للحديث.

كان الوقت قد بلغ الآن منتصف الصباح، وقد غض المشرب برجال مثلهما، قدموا من بيوتهم ليأكلوا في هدوء وسلام بعيدًا عن زوجاتهم وأطفالهم، ويتجاذبوا أطراف الحديث مع أصدقائهم بعد تناول الطعام، ويحتسوا الشاي معًا، ويسمعوا آخر الأنباء. إذ كان من المحال أن ينعم أي رجل بالهدوء في بيته حيث النساء والأطفال، ما دام النساء يصرخن وينادين، والأطفال يتصايحون ويرفعون عقائرهم بالبكاء، لأن هذا من طبيعتهم. أما هنا في هذا المشرب، فالمكان هادئ وادع بما يدوي فيه من الطنين الدائب لأصوات الرجال التي تتعالى بالحديث الممتع في شتى أرجاء المشرب. وسط كل هذا الهدوء الشامل، أخرج وانج الثاني خطابًا

من صدر ردائه الضيق، وجذب الورقة من الغلاف، ثم وضعها على النضد أمام أخيه.

تناول وانج الأكبر الخطاب، وتنحنح، وسعل بصوت عال، ثم أخذ يتلوه متممًا بالحروف لنفسه في أثناء القراءة. بعد دياجة مقتضبة من عبارات التحية المألوفة، مضى وانج النمر في الكتابة، وبدأت الحروف التي كتبها شبيهة به، فهي مستقيمة سوداء، خطها بجرأة على الورق، قائلاً:

«ابعثا إليّ بكل أوقية من الفضة يمكنكما أن تبعثا بها؛ لأنني في حاجة إليها كلها. إذا أقرضتماني الفضة، سوف أردّها إليكما بأرباح مرتفعة، عندما أحقق ما شرعت في القيام به. وإن كان لديكما أبناء تجاوزوا سن السابعة عشرة، ابعثا بهم إليّ أيضًا، سوف أرفع من شأنهم، وأرقى بهم عاليًا إلى آفاق أبعد مما تحلمان به، لأنني في حاجة إلى أن يلتف من حولي رجال من لحمي ودمي، يمكنني أن أوليهم ثقتي في مغامرتي الهائلة. ابعثا إليّ بالفضة، وأرسلوا لي أبناء كما، إذ ليس لي أبناء من صلي».

قرأ وانج الأكبر هذه الكلمات، وأخذ يتبادل النظرات مع أخيه، ثم قال في عجب:

«هل سبق له أن ذكر لك شيئًا قط عن عمله أكثر من أنه يعمل في أحد الجيوش تحت قيادة جنرال من الجنوب؟ من عجب أنه لم ينبئنا عما سيفعله بأبنائنا. إن الرجال لا ينجبون الأبناء ليلقوا بهم على هذا النحو إلى مصير مجهول».

وجلسا برهة يحتسيان الشاي، وقد خيم عليهما الصمت، وراح كل

منهما يفكر وملؤه الشك، في أنه عمل طائش وحشي أن يبعث الأبناء بعيداً، دون أن يعرف مصيرهم. ومع ذلك، أخذ كل منهما يتأمل هذه الكلمات في غير «سوف أرفع أبناءكما عالياً»، وتحدث كلُّ إلى نفسه بأنه ما دام لديه ابن أو اثنان في السن الملائمة، فمن الممكن -رغم كل شيء- أن يستغني عن أحد الأبناء ليحرب حظه. ثم قال وانج الثاني في حذر:

«إن لك أبناء فوق السابعة عشرة».

فأجابه وانج الأكبر: «أجل، لدي اثنان فوق السابعة عشر، ويمكنني أن أبعث بالابن الثاني. لم يدر بخلدي من قبل ما سأفعله مع أي منهما. إنهما يكبران بسرعة فائقة في بيت كبتي. غير أن الأكبر لا ينبغي أن يخرج من البيت، فهو الذي يليني في العائلة، لكن في وسعي أن أرسل الابن الثاني».

فقال وانج الثاني: «إن كبرى ذريتي فتاة، والذي يليها ولد. أظن أن هذا الذي يمكنه أن يذهب، ما دام ابنك الأكبر سيقى في البيت ليخلد اسم العائلة».

وجعل كل منهما عند ذلك ينعم التفكير في أبنائه، ويتأمل ما لديه منهم، وما يمكن أن يكون لحياتهم من قيمة بالنسبة إليه. لقد أنجب وانج الأكبر ستة أطفال من زوجته، مات منهم اثنان في طور الطفولة، فضلاً عن أن له ابناً من محظيته، وكانت أيضاً موشكة على الوضع مرة أخرى بعد زهاء شهر أو شهرين. وكان كل واحد من أبنائه هؤلاء سليم البنية، فيما عدا الابن الثالث، فقد أسقطته إحدى الإماء وهو لم يبلغ من العمر سوى

أشهر معدودات، فتقوس ظهره في شكل كتلة كما يغور رأس السلحفاة في داخل صدفتها. وقتئذٍ، دعا وانج الأكبر واحدًا أو اثنين من الأطباء لفحص علته، بل إنه نذر رداء لآلهة معينة في المعبد، لو أنها منت على الطفل بالشفاء، مع أنه في الظروف العادية لم يكن يؤمن بمثل هذه الأشياء. على أن هذا كله لم يجد نفعًا، وسيظل الطفل يرزح بعبئه على كاهله حتى الموت، في حين أن أباه لم يحظ من هذا الأمر إلا بمتعة وحيدة، هي أنه ترك الآلهة دون رداء ما دامت قد أبت أن تفعل شيئًا من أجله.

أما وانج الثاني، فله خمسة من الأبناء في جملتهم، ثلاثة من الذكور، والكبرى والصغرى من الإناث. غير أن زوجته كانت بعد في عنفوانها، وما من شك أن صف «طابور» أطفاله لم يصل إلى نهايته، لأن المرأة كانت تفيض بالحيوية لدرجة أنها ستظل ولودًا حتى تتقدم بها السنون في منتصف العمر.

لذلك رأى كل من الرجلين، بعد أن تأمل الأمر برهة، أن من الممكن حقًا الاستغناء عن ابن أو ابنتين من بين كل هذا الحشد الغفير من الأبناء. وأخيرًا رفع وانج الثاني رأسه، قائلاً:

«ماذا سيكون ردي على خطاب أخينا؟».

إذ ذاك، ساور الأخ الأكبر التردد، إذ لم يكن بالرجل الذي يحزم أمره بنفسه سريعًا، فقد اعتاد لسنين عديدة أن يعتمد على القرارات التي تصدرها زوجته، وأن يردد ما تأمره بقوله. ولما كان وانج الثاني يعرف هذا عنه، فقد قال في دهاء:

«هل أقول له إن كلاً منا سيبعث إليه بأحد أبنائه، وإني سأرسل إليه قدر طاقتي من الفضة؟».

فاغبط وانج الأكبر بأن الأمر قد صيغ له على هذا النحو، وأجاب قائلاً: «أجل، افعل هذا يا أخي، ولنحزم أمرنا. مهما يكن من أمر، سأبعث إليه بأحد أبنائي عن طيب خاطر، لأن بيتي يبدو في بعض الأحيان غاصاً بأطفال يصرخون، والكبار منهم يتشاجرون، حتى لأقسم لك إنني لا أنعم بلحظة من الهدوء. سوف أرسل ابني الثاني، وترسل أنت أكبر أبنائك، حتى إذا حدث شيء مؤسف، يبقى ابني الأكبر ليخلد اسمنا في المستقبل».

هكذا استقر الرأي، وراح الاثنان يشربان الشاي برهة من الزمن، وبعد أن أحسا بالراحة، شرعا في الحديث عن الأرض وما يرغبان في بيعه منها. وبينما كان هذان الرجلان جالسين يتبادلان الهمسات، وثبت إلى مخيلتهما ذكرى قوية ماثلة ليوم معين، كانا يتحادثان فيه للمرة الأولى عن بيع الأرض، وكان أبوهما وانج لانج في شيخوخته حينذاك، فلم يتبادر إلى ذهنهما أن لديه من القوة ما يتيح له أن يأتي متسللاً في إثرهما؛ كي يستمع إلى حديثهما، وهما واقفان في أحد الحقول، على مقربة من البيت المشيد من الطين. لكنه أتى بالفعل، وحينما سمعهما يقولان: «نبيع الأرض»، صاح في ثورة عاتية:

«والآن أيها الابنان الشريران الخاملان.. أتبيعان الأرض؟».

وعصف به الغضب حتى إنه كاد يتهاوى على الأرض، لولا أنهما سانداه من كلا الجانبين. وظل يتمتم المرة تلو المرة: «كلا.. كلا.. لن نبيع الأرض أبداً». ولكي يهدئا من روعه، لأنه كان طاعناً في السن بحيث

لا يحتمل كل هذا الغضب، فقد قطعاً له عهداً بأنهما لن يبيعا الأرض مطلقاً. ومع ذلك، فحتى وهما يبذلان له الوعد، كانا يتسلمان أحدهما للآخر، فوق رأسه العجوز المهتز، وكأنهما يشقان حجب المستقبل، فيريان هذا اليوم بالذات، حينما يأتيان معاً لهذا الغرض بالذات.

لذا فإنه في هذا اليوم -رغم كل ما يستبد بهما من لهفة على تكديس المال- كانت ذكرى الشيخ الراقد في الأرض ما تزال ماثلة في مخيلتهما، بحيث لم يتمكنوا من الحديث عن بيع الأرض بسهولة كما كانا يتوهمان. كان كل منهما متردداً في أعماقه تحت تأثير نوع من الحذر، فربما كان الشيخ محقاً في قوله رغم كل شيء. وعزم كل منهما في قرارة نفسه على ألا يبيع الأرض كلها دفعة واحدة. كلا، فلا بد وأن تقبل عليهما أزمناً قاسية، ولئن ساء حال التجارة، فسيظل في حوزتهما ما يكفي من الأرض لإقامة أودهما. ذلك أنه في أيام كهذه، لم يكن في استطاعة أحد أن يعرف عن يقين متى يقترب شبح الحرب أو حتى يستولي أحد زعماء اللصوص على الريف لفترة من الزمن، أو متى تهبط لعنة أو أخرى على رؤوس الناس، لذا فمن الخير لهما أن يمتلكا شيئاً لا يمكن أن يفقدها. هذا، رغم أن كلاهما كان يتلمظ جشعاً للحصول على أرباح مرتفعة من الفضة التي تعمل في نفسيهما. ومن ثم، حينما قال وانج الثاني: «أي ضياعك ستبيعها؟» أجابه وانج الأكبر في حذر هبط عليه بصورة غريبة:

«مهما يكن من أمر، فإنني لا أملك عملاً تجارياً كالذي تملكه. وليس ثمة ما يمكنني أن أفعله سوى أن أكون مالكا للأرض، لذا لا يحسن أن أبيع أكثر مما يلزمي للحصول على نقد جاهز أستخدامه في شؤون حياتي.

لا ينبغي أن أبيع كل شيء».

حينئذ قال وانج الثاني:

«فلنمض إلى أرضنا، ونلق نظرة على كل ما نملكه، أين يقع، وكيف يقع، ونرى أيضًا القطع النائية المبعثرة هنا وهناك. فإن أبانا الشيخ، كان شرهًا للغاية في امتلاك الأرض، حتى إنه في منتصف عمره، أقبل على شرائها في أي مكان، كلما وجدها زهيدة الثمن في أعوام القحط. إننا نملك أرضًا في شتى أنحاء الريف، بل إن بعض الحقول لا تتجاوز مساحتها خطوات معدودات. فإن كنت ترغب في امتلاك الأرض، سيكون من الأسر لك أن تلم شمل ضياعك، حتى يسهل عليك إدارتها».

ورأى كلاهما أن هذه الفكرة معقولة وسديدة، فنهضا واقفين، بعد أن دفع وانج الأكبر ثمن الطعام والخمور بالإضافة إلى نفحة للنادل، ثم خرجا والأخ الأكبر يسير في المقدمة. وبينما كانا يمضيان إلى الخارج، نهض الرجال هنا وهناك في أرجاء الحجرة، كي ينحنا لهما، ويظهروا للجميع أنهم من معارف هذين الرجلين العظيمين من رجالات المدينة. أما عن الشقيقتين، فقد كان الأكبر يومئ برأسه ويتسم للجميع في انطلاق وبساطة، لأنه كلف بمظاهر الخضوع والإكبار. في حين أن الأصغر مضى مسبل الجفنين، وهو يومئ إيماءة خاطفة، دون أن ينظر إلى أحد، كأنما يخشى لو أن تبسط أكثر من اللازم، أن يوقفه أحد الناس ويتحى به جانبًا ليطلب منه قرصًا.

ومن ثم انطلق الشقيقان إلى أرضهما، وأبطأ الأصغر خطاه، كي

تتلاءم مع خطى شقيقه الأكبر الذي كان ثقيلاً بدينًا؛ لم يألف المشي على قدميه. وعند بوابة المدينة، كان قد نال منه الإرهاق، فصاحا يناديان رجلين كانا واقفين هناك، بجوار حمير مسرجة ومعدة للاكتراء، وامتطى الشقيقان اثنين من هذه الدواب، ثم خرجا من البوابة.

أمضى الشقيقان ذلك اليوم بأكمله في أرضهما، وتوقفا عند نزل «خان» على جانب الطريق لتناول الطعام وقت الظهر. ذرعا المنطقة طولاً وعرضاً، وذهبا إلى كل حقل من الحقول المبعثرة، وتفحصا الأرض بعين ثاقبة، وشاهدا ما يفعله المستأجرون الذين وقفوا أمامهما في ذلة وخضوع، وقد انتابهم القلق لأن هذين هما المالكان الجديدان. ومضى وانج الثاني يعلم كل قطعة من الأرض يستحسن بيعها، كما علما للبيع كل الأراضي التي يمتلكها شقيقهما الثالث، فيما عدا القطعة الصغيرة التي تحيط بالبيت المشيد من الطين. لكن الشقيقين -بالاتفاق المشترك- لم يقربا ذلك البيت، كلا، بل ولم يقربا تلك الراية العالية التي تقع تحت إحدى أشجار النخيل السامقة، حيث يرقد أبوهما.

وفي نهاية اليوم شارفا المدينة ثانية، وهما يمتطيان دابتيهما المنهكتين، ثم ترجلا عند البوابة، ودفعا للرجلين الأجر المتفق عليه. كان الرجلان أيضًا قد نال منهما الإعياء، بعد أن ركضا وراء الدابتين طوال اليوم، فتوسلا إليهما أن يزيدا الأجر قليلاً، لأنهما ركضا كل هذا الوقت وإلى هذه الأماكن النائية، حتى بليت نعالهما، وساء حالها بعض الشيء عن ذي قبل. وكان وانج الأكبر على استعداد لأن يمنحهما المزيد، ولكن وانج الثاني أبى قائلاً:

«كلا، لقد أعطيتكما حقكما العادل، وليس من شأني ما يحدث
لنعالكما».

قال هذا وهو يسير مبتعداً، دون أن يأبه باللعنات التي غمغم بها
الرجلان. ثم عاد الشقيقان إلى بيتهما الخاص، وإذ هما يفترقان تبادلا
النظرات شأن الرجال الذين يجمعهم هدف مشترك، وقال وانج الثاني:
«فلنبعث بابنينا بعد سبعة أيام، إذا رغبت في ذلك. وسوف أصحبهما
إلى هناك بنفسني».

فأوماً وانج الأكبر برأسه، وسار منهكاً إلى بوابته الخاصة، إذ لم
يحدث قط من قبل أن تجشم كل هذا العناء في يوم واحد طوال حياته.
وفكر بينه وبين نفسه أن حياة مالك الأرض شاقة للغاية.



وفي اليوم المحدد، بناء على ذلك، قال وانج الثاني لأخيه الأكبر:
«إذا كان ابنك الثاني على أهبة الاستعداد، فابني مستعد أيضًا. سوف
أصحبهما فجر الغد، ونمضي إلى تلك المدينة في الجنوب، حيث يعيش
شقيقنا، وأقدمهما إليه، ليفعل بهما ما يروق له».

وفي نفس الوقت، حينما كان وانج الأكبر يجلس خاملًا، دعا إليه
ابنه الثاني، وشمله بنظرة متفحصة، ليرى معدنه، وكيف سيفي بالغرض
الذي قُيِّضَ له. وعندما دعا الغلام، أقبل ووقف ينتظر أمام أبيه. كان غلامًا
قصير القامة، هش البنيان، رقيق النظرات، بعيدًا عن الوسامة، شديد
الحياء، سريع الخوف، راعش اليدين، منددى الراحة دائمة. وقف أمام
أبيه، ودون أن يعي راح يثني يديه الراعشتين معًا، وقد نكس رأسه، لكنه
كان من آن إلى آخر يرفع عينيه في لمحة خاطفة، ويختلس نظرة من أبيه،
ثم يخفض رأسه ثانية.

أخذ وانج الأكبر يتفرس فيه برهة؛ إذ كانت هذه أول مرة يراه فيها
بمفرده، خارج نطاقه المألوف بين بقية الأبناء. ثم قال على حين فجأة،
وهو في شبه تأمل:

«كان من الأفضل لو أنك كنت أكبر أبنائي، والأكبر في مكانك، فهو أصلح منك بنياناً، لأن يكون جنراًلاً. فأنت تبدو شديد الوهن، حتى إني لست أدري هل في وسعك أن تستقر على صهوة الجواد أم لا».

عندئذ، جثا الصبي فجأة على ركبتيه، وشبك أصابعه الراعشة معاً، ثم قال ضارعاً لأبيه:

«آه يا أبتاه، إني لأمقت مجرد التفكير في أن أكون جندياً. كنت أظن أنني سأصبح من المثقفين، لأنني مولع بكتبي أشد الولع. آه يا أبتاه! دعني أمكث في البيت، معك أنت وأمي، ولن أطلب مجرد الذهاب إلى المدرسة. كلا، بل سوف أقرأ وأدرس بمفردي قدر طاقتي. ولن أضايقك مطلقاً في أي شيء، إذا لم ترسلني بعيداً كي أصبح جندياً».

ورغم أن وانج الأكبر كان في إمكانه أن يقسم إنه لم يتفوه بشيء على الإطلاق بشأن هذه المسألة، فإن الأمر تسرب إلى الأذان بصورة ما، لأن وانج الأكبر لم يكن بوسعه في الواقع أن يحتفظ بشيء في سريره. ذلك أن هذا الرجل كان كلما خطرت له فكرة ما أو دبر خطة في الخفاء، تفضحه -دون أن يعي- لفحات أنفاسه وتنهداته وجملته المبتورة، ونظراته المعبرة. كان في إمكانه أن يقسم إنه لم يفض بالأمر إلى أحد، ومع ذلك، فقد أفضى به إلى ابنه الأكبر، وأفضى به إلى محظيته في أثناء الليل، ثم أفضى به إلى زوجته في النهاية، حين جاء إليها -مكرهاً في الواقع- للحصول على موافقتها. وقد عرض عليها الأمر بصورة رائعة، بحيث اعتقدت السيدة أن ابنها سيخطو فوراً إلى منصب الجنرال، فأبدت رضاها، ولو أنها شعرت أن المنصب -على رفعة- لم يكن أسمى مما

هو جدير به كابن لها. على حين أن الابن الأكبر -وهو غلام حاذق يعرف من الأمور أكثر مما يتخيل أحد، لأن هيئته لا توحى إلا بالتأنق المفرد وفطور الهمة، حتى ليبدو وكأنه لا يدرك شيئاً- كان قد سام أخاه الأصغر العذاب، وسخر منه قائلاً:

«سيجعلونك جندياً عادياً من العامة، تتبع عمنا هذا المتوحش!».

وكان هذا الأصغر من أبناء وانج الأكبر، غلاماً لا يتحمل مطلقاً في الواقع مجرد أن يرى دجاجة تذبح أمام عينيه، دون أن يهرع إلى مكان ما ليلفظ ما في جوفه، بل إنه لا يكاد يتحمل أن يأكل اللحم على الإطلاق، لأن معدته هزيلة للغاية. وحين سمع أخاه يردد هذا القول، طاش صوابه فرقاً، ولم يعد يدري ماذا يفعل، لم يمكنه أن يصدق الأمر، وجفاه النوم طوال الليل، وعجز عن أن يفعل شيئاً، سوى أن ينتظر حتى يُنادى. هكذا ألقى بنفسه أمام أبيه، ضارعاً في طلب الرحمة.

لكن وانج الأكبر، حينما رأى ابنه جاثياً يتوسل على هذا النحو ثارت ثائرتة، إذ كان رجلاً يمكنه أن يصبح حروناً كالدابة وفي غاية الحدة، عندما يدرك أنه يملك السلطة بين يديه، فصاح قائلاً، وهو يضرب بقدمه أرض الحجرة المغطاة بالقرميد:

«لا بد أن تذهب، فهذه فرصة لا يمكننا أن نرفضها، وابن عمك ذاهب أيضاً. وجدير بك أن تسعد بالذهاب! في صباي، كان من الممكن أن أتهلل طرباً إذا واتتني مثل هذه الفرصة، لكنها لم توافني! كلا، بل إنهم أرسلوني إلى الجنوب دون ما هدف على الإطلاق، وحتى هناك لم ألبث سوى فترة وجيزة، إذ ماتت أمي، فأمرني أبي بالعودة إلى البيت. ولم أكن

أتخيل قط أن أعصي له أمراً، لم يكن من الممكن أن أتخيل هذا! كلا، لم تواني مثل هذه الفرصة، كي أصبح من العظماء، عن طريق عم رفيع المنصب».

وتنهذ وانج الأكبر على حين فجأة، إذ خطرت له هذه الفكرة: لو أنه كان مُنح فرصة كهذه التي أتيحت لابنه، فكم كان سيغدو عظيم الشأن الآن، وكم كان سيبدو رائعاً مهيباً في البزة العسكرية المذهبة، وهو يمتطي جواداً ضخماً شامخاً من جياذ الحرب، فهذه هي الصورة التي كان يتخيلها عن هيئة الجنرالات. وتخيل نفسه رجلاً ضخماً مهولاً كما يجدر بالجنرال أن يكون. ثم تنهد ثانية، ونظر إلى ابنه هذا الضئيل التعس، قائلاً:

«في الحقيقة إنني كنت أحب أن أرسل ابناً أفضل منك، لكن ليس لدي سواك في السن الملائمة، فابني الأكبر لا يمكنه مبارحة البيت، لأنه ورثي الأول الذي يليني في الأسرة، وشقيقك الأصغر أحذب الظهر، والذي يليه ليس إلا طفلاً. إذن لا بد أن تذهب أنت، وكل هذا البكاء لن يجديك نفعاً، لأنك يجب أن تذهب». ثم نهض واقفاً، وخرج من الحجرة مسرعاً، حتى لا يتحمل مزيداً من الكدر على يد هذا الابن.

أما ابن وانج الثاني، فلم يكن كهذا الغلام، بل كان صبيّاً يجنح إلى المرح والصخب، أصيب بمرض الجدري عندما كان في الثالثة من عمره، من أثر بثرة عنيفة دفعتها أمه بإبهامها في داخل أنفه لتقيه شر المرض، وظل وجهه محتفظاً بالبشرات طول سني عمره، إلى أن أصبح الجميع -حتى أبواه- يسمونه الآن بـ«المجدور» بدلاً من اسمه الحقيقي. وحينما نادى عليه وانج الثاني، وقال له: «احزم ثيابك؛ كي تذهب معي غداً إلى

الجنوب؛ لأنني سأقدمك إلى عمك الجندي»، أخذ الصبي يقفز ويجري جذلاً هنا وهناك، لأنه كان يتحفز دائماً لرؤية كل ما هو جديد، ويحب أن يتخذ من مشاهداته مادة للزهو.

أما أمه، فقد رفعت عينيها من على وعاء كانت تحركه على بعض قطع الفحم المتقدمة في فرن صغير مصنوع من الطين، بجوار باب المطبخ. وحيث إن الأمر لم يكن قد ترامى إلى سمعها من قبل، فقد صاحت بصوتها العالي:

«علام تنفق فضة غالية في الذهاب إلى الجنوب؟».

حينئذ أفضى وانج الثاني إليها بالأمر، فأصغت إليه وهي تتحرك في المطبخ، لكن عينيها كانتا في نفس الوقت مشدودتين في حدة إلى خادمة تنظف دجاجة، وهي تراقبها خشية أن تأخذ خلصة كبـد الدجاجة أو عنقود البيض. لذلك لم تسمع سوى الجانب الأخير من حديث زوجها حين قال:

«ستكون مخاطرة، فلست أدري ماذا يعني بأنه سيرقى بالصبي عاليًا. وعلى أي حال، فلدينا أبناء آخرون يمكننا أن ندفع بهم إلى العمل في التجارة. ليس لدينا من بلغ السن الملائمة سوى هذا الصبي. فضلًا عن أن أخي سيرسل واحدًا من أبنائه».

حينما بلغت هذه الكلمات الأخيرة مسامع زوجته، ركزت تفكيرها في الموضوع، وقالت على الفور:

«حسنًا، إذا كان أبنائهما سيرتقون إلى المناصب الرفيعة، فلا بد أن

نرسل أبناءنا أيضًا، وإلا فإنني سأظل إلى الأبد أستمع إلى سلفتي وهي تتحدث عن ابنها بطل الحرب. وفي الحقيقة أن ابنا هذا ينبغي أن يفعل شيئًا الآن، فهو على هذا القدر من الضخامة، ولا يفرغ من أعباء البهلوانية. وعلى حد قولك، لدينا الآخرون للعمل في المتجر».

وفي اليوم التالي مباشرة، اصطحب وانج الثاني هذين الصبيين، ومع كل منهما ثيابه. لكن ابن وانج الأكبر كان يضع ملابسه في صندوق فاخر من جلد الخنزير، وكان متحذلقًا للغاية في شتى أموره، برغم أن عينيه ما زالتا حمراوين من أثر البكاء. وقد تباطأ في المجيء، كي يتأكد أن الخادم يحمل الصندوق في الوضع السليم، متجهًا بغطائه إلى أعلى؛ لئلا تتبعثر كتبه جميعًا في داخله. أما ابن وانج الثاني، فلم يكن يملك كتبًا، وقد حزم قطع ثيابه المعدادات في منديل كبير من القطن أزرق اللون حملة بنفسه، وانطلق راكضًا، وراح يصيح في صوت عال، كلما وقع بصره على شيء في الطريق. كان يومًا صحوًا مشرقًا من أيام الربيع، وشوارع المدينة مليئة ببواكير نتاج الحقول، والناس جميعًا منهمكون في البيع والشراء. بدت السنة رخية واليوم وضيئًا في عين هذا الغلام، وهو ينطلق في رحلة لم يسبق له مطلقًا أن قام بها، وقد طهت له أمه لونا يحبه من الطعام كي يأكله في ذلك الصباح، لذا كان في أوج المرح. في حين تقدم الغلام الآخر في خطى متئدة، بطريقة محتشمة، يخيم عليه الصمت، وقد نكس رأسه، لا يكاد ينظر إلى ابن عمه، ومن آن إلى آخر يبلل شفثيه الشاحبتين وكأنهما غاية في الجفاف.

هكذا سار وانج الثاني مع الغلامين، مستغرقًا في تأمل شؤونه

الخاصة، إذ لم يكن قط ممن يبالون بالصغار، حتى وصلوا إلى شمال المدينة، حيث المكان الذي تركب منه عربة المسافرين، فدفع وانج الثاني بعض النقود، وركبوا. في هذه اللحظة، تملك ابن وانج الأكبر إحساس حاد بالخجل، لأن عمه قد انتقى من الأماكن أزهدها ثمنًا، اعتقادًا منه أنها ملائمة تمامًا لاثنتين من الصبية. ومن ثم وجد هذا الفتى لزامًا عليه أن يدخل عربة يجلس فيها جمع من الدهماء، تفوح منهم رائحة الثوم، وملابسهم التي لم يمسهها الماء تنبعث منها رائحة الفقر. وها هو ذا هنا في رداءه الحريري الأزرق الفاخر، ولا بد أن يجلس بينهم. غير أنه لم يجروء على التذمر خوفًا من أن يزدريه عمه في قرارة نفسه، فلم يسعه إلا أن يتخذ له مكانًا، وأن يضع صندوقه فاصلًا بينه وبين الفلاح السوقي الذي جلس بجواره. ثم تطلع بنظرة تدعو إلى الرثاء نحو خادمه الذي اضطر أن يفارقه الآن، ولكنه مع ذلك لم يجسر على أن ينبس ببنت شفة.

لكن هيئة وانج الثاني وابنه لم تكن تفوق كثيرًا هيئة أي واحد من الدهماء، فقد اتشح الرجل برداء من القطن عندما نهض في ذلك الصباح، إذ بدا له أن من الأفضل ألا يكون مظهره مترفًا أكثر من اللازم أمام أخيه الثالث، لئلا يبدو أكثر ثراء منه. أما فيما يتعلق بابنه، فلم يكن قد امتلك بعد رداء من الحريري، وكانت ثيابه القطنية الغليظة قد خاطتها له أمه، طويلة متهدلة فضفاضة، حتى تتلاءم معه عندما ينمو جسمه. ولم يلبث وانج الثاني أن تتطلع إلى ابن أخيه، قائلاً بطريقته الملتوية:

«من الخطأ أن تسافر طوال اليوم في مثل هذه الثياب الفاخرة التي ترتديها. من الأفضل أن تخلع عنك رداءك هذا الحريري، وتطويه، ثم تضعه

في صندوقك، وتجلس في ملابسك الداخلية، فتُبقي على خير ثيابك». إذ ذاك غمغم الصبي قائلاً: «لكن لديّ ما هو خير من هذا الرداء، فهو الذي أرتديه في البيت كل يوم». إلا أنه لم يتجاسر على العصيان، فنهض واقفاً، وامثل لأمر عمه.

على هذا النمط سافروا طوال اليوم بطريق البر، فمضى وانج الثاني ينعم النظر في الحقول والمدن التي مروا عبرها، وهو يثمن كل ما يقع عليه بصره، في حين راح ابنه يصيح، كلما شاهد شيئاً جديداً. وكلما توقفوا كان الغلام يتلهف على تذوق الفطائر الطازجة التي يحملها الباعة، إلا أن أباه كان يرفض شراءها. أما الغلام الآخر، فقد جلس شاحباً مذعوراً، وأحس بالدوار لأن العربة كانت تنطلق في سرعة فائقة، فاتكأ برأسه على صندوقه المصنوع من جلد الخنزير، ولم يتفوه بكلمة واحدة طوال اليوم، وأعرض حتى عن الطعام.

ثم سافروا بطريق البحر لمدة يومين في سفينة صغيرة غاصّة بالناس، حتى انتهى بهم المطاف إلى المدينة التي لا بد أن يعثروا فيها على الرجل الذي ينشدونه. وعندما غادروا السفينة، وأصبحوا على البر، اكترى وانج الثاني عربتين من عربات الريكشا، وضع الغلامين في إحداهما، وأخذ الأخرى لنفسه. على أن الرجل الذي كان يجر عربة الغلامين جعل يشكو بمرارة من حملة المزدوج، ولكن وانج الثاني أوضح له أنهما مجرد غلامين صغيرين لم يبلغا بعد مبلغ الرجال، وأن أحدهما نحيل شاحب، ويزن أقل من المعتاد، من جراء إصابته بدوار البحر. وأخيراً أفلحت المساومة وزيادة الأجر قليلاً في إرضاء سائق الريكشا

بعض الشيء، رغم أنه لم يبلغ أجر أي عربة أخرى. وتوصل السائقان إلى عنوان البيت والشارع الذي أعطاه لهما وانج الثاني. وعندما توقفت العربتان، سحب -وانج الثاني- الخطاب من صدر رداؤه، وقارن بين الحروف المكتوبة على البوابة والحروف التي يتضمنها الخطاب، فوجدها مطابقة لها.

وعندئذ نزل من مركبته، وأمر الغلامين بالنزول من مركبتهما. وبعد أن ساوم السائقين برهة، لأن المكان لم يكن نائياً كما زعما، دفع لهما أجراً يقل بعض الشيء عن الأجر المتفق عليه في البداية. ثم حمل الصندوق من طرف، ورفع الغلامان من الطرف الآخر، وشرعوا في المسير يجتازون البوابة الضخمة التي يربض أسدان من الحجر على جانبيها.

وكان هناك جندي واقف بجوار أحد الأسدين، صاح فيهم قائلاً:

«ما هذا؟ أتظنون أنكم تستطيعون عبور هذه البوابة كما يروق لكم؟» ورفع البندقية من فوق كتفه، ودق مؤخرتها على الأحجار. وكانت نظراته من الشراسة والقحة بحيث تسمر ثلاثتهم في أماكنهم ذاهلين. وبدأ ابن وانج الأكبر يرتعد، بل إن الغلام المجدور بدت عليه سيماء الجذو والرزانة لحظة من الزمن، إذ لم يسبق له قط أن اقترب من بندقية إلى هذا الحد.

حينئذ، سارع وانج الثاني إلى إخراج خطاب أخيه من صدر الرداء، وقدمه إلى الجندي ليلقي عليه نظرة قائلاً:

«إننا نحن الثلاثة الذين جاء ذكرهم في الخطاب، وها هو ذا دليلنا».

على أن الجندي لم يكن يعرف القراءة، فصاح ينادي جندياً آخر لم

يلبث أن أقبل عليهم، وبعد أن تفرس فيهم برهة، واستمع إلى قصتهم كاملة، أخذ الخطاب. إلا أنه أيضًا كان يجهل القراءة، فبعد أن تطلع إليه، حمله إلى مكان ما في الداخل. وبعد فترة طال مداها عاد أدراجه، وأشار بإبهامه إلى الداخل قائلاً:

«إن الأمر صحيح. فهم أقرباء الضابط، ويسمح لهم بالدخول».

فرفعوا الصندوق ثانية، ودخلوا، مارين بالأسدين الحجريين، بيد أن الرجل حامل البندقية ظل يتتبعهم بنظراته، وكأنه ما زال يعترض على دخولهم، ويستبد به الشك. لكنهم مضوا في إثر الجندي الآخر، فقادهم عبر عشرة أروقة أو نحو ذلك، غاصّة بجنود يتسكعون في خمول، بعضهم يأكل والبعض يشرب، بعضهم يجلس عاريًا تحت أشعة الشمس ليلتقط الحشرات من ثيابه، وبعضهم الآخر مضطجع يغط في سبات عميق، وانتهى بهم المطاف إلى رواق داخلي، حيث كان «وانج النمر» جالسًا إلى نضد في الحجرة الوسطى، ينتظرهم هناك، وهو يرتدي ثيابًا حسنة المظهر قاتمة اللون، مصنوعة من قماش خشن مستورد من الخارج، عقدت بأزرار من النحاس عليها علامة معينة.

وعندما رأى أقرباءه يذفون إلى الحجرة، نهض مسرعًا، وصاح في الجنود الذين يضطلعون بخدمته أمرًا بإحضار الخمر واللحوم. ثم انحنى لأخيه، وانحنى له وانج الثاني بدوره، وأمر الغلامين بالانحناء، واتخذوا جميعًا أماكنهم كل حسب منزلته، فجلس وانج الثاني في أعلى المقاعد، يليه وانج، ثم الغلامان في مقعدين دونهما ارتفاعًا، ينتحيان جانبًا. وجاء الخادم بالخمر، وصبها لهم، وعندما فرغ من هذا، ألقى «وانج النمر»

ببصره إلى الغلامين، قائلاً بطريقته الخشنة المباغثة:

«إن هذا الصبي المتورد يبدو على قدر وافر من قوة الشكيمة، لكنني لست واثقاً من لون الحكمة التي تكمن وراء هذا الوجه المجذور. إنه يبدو كالمهرج. أرجو ألا يكون مهرجاً يا أخي الأكبر، لأنني لا أحب المغالاة في الضحك. إنه ابنك؟ إنني ألمح فيه بعض سمات أمه. أما عن الآخر، فهل هذا هو خير ما يستطيع أخي الأكبر أن ينجبه».

عندما قال هذا خفض الغلام الشاحب رأسه أكثر من ذي قبل، ولاحت طبقة رقيقة من العرق البارد على شفته العليا، أخذ يرفع يده ويمسحها خلسة، وهو يغض من بصره طوال الوقت. ولكن «وانج النمر» ظل يحدج الغلامين في ثبات بنظرته القاسية السوداء، حتى إن الغلام المجذور الذي كان دائماً متوثباً للغاية، لم يعد يدري أين يتجه بنظرته، فراح يحول ببصره إلى هذا الاتجاه أو ذاك، ويحرك قدميه، ويقضم أظفاره. عند ذلك قال وانج الثاني معتذراً:

«حقيقة يا أخي إنهما مجرد مخلوقين هزيلين، ونحن في غاية الأسى، إذ ليس لدينا من هم أجدر منهما بعطفك. لكن أكبر أبناء أخي الأكبر هو وريثه الأول، والذي يلي هذا الصبي، أحذب الظهر. وهذا الغلام المجذور هو أكبر أبنائي، والابن الذي بعده ليس إلا طفلاً، فهذان الاثنان هما خير ما عندنا من أبناء في الوقت الحالي».

وبعد أن تفحص وانج النمر معدن الغلامين، أمر أحد الجنود بأن يقودهما إلى حجرة جانبية، وأن يدعهما يتناولان طعامهما من اللحم هناك، على ألا يعودا ثانية إلى حجرته، ما لم يناد عليهما. إذ ذاك اتجه

بهما الجندي خارجًا، لكن ابن وانج الأكبر راح يتطلع خلفه إلى عمه،
بنظرات تبعث على الرثاء. وحين رآه وانج النمر يتردد متعثرًا على هذا
النحو، صاح فيه:

«لم تتلكأ؟».

فتوقف الغلام، وقال بطريقته الواهنة: «لكن، أليس لي أن آخذ
صندوقتي؟».

حينذاك، ألقى وانج النمر ببصره، فرأى بجوار الباب، الصندوق
الفاخر المصنوع من جلد الخنزير. فقال في شيء من الازدراء:

«خذه، لكنه لن يجديك نفعًا، لأنك سوف تنضو عنك هذه الأردية،
وتدخل في الثياب المتينة الغليظة التي يرتديها الجنود. إن الرجال لا
يمكنهم أن يقاتلوا في أردية من الحرير».

لدى هذا القول، استحال وجه الصبي إلى لون الطين، ومضى دون أن
ينبس بكلمة، وبقي الشقيقان على انفراد.

جلس «وانج النمر» صامتًا فترة طويلة من الزمن، إذ لم يكن قط
بالرجل الذي يخلق الحديث على سبيل المجاملة. وأخيرًا سأل وانج
الثاني:

«ما الذي تفكر فيه هذا التفكير العميق؟ أهو شيء يتعلق بابنينا؟».

فقال «وانج النمر» في تودة: «كلا، سوى أنني كنت أتأمل كيف أن
غالبية الرجال الذين بلغوا مبلغًا من العمر لهم أبناء من صلبهم يدرجون
في مدارج النمو. لا بد وأن رؤية الأبناء راحة غامرة في قلوب الرجال».

قال وانج الثاني، وهو يتسم ابتسامة صغيرة: «عجباً، لقد كان من الممكن أن يكونوا لك لو أنك بادرت بالزواج في سن مبكرة. لكننا لم نكن نعرف لك مقرّاً طوال هذه السنين، ولم يكن أبي يعرف أيضاً، فلم يستطع أن يزوجك كما كان ينبغي. على أنني وأخي سوف نقوم بهذه المهمة عن طيب خاطر. ويوجد هناك المال اللازم لها، عندما تحتاج إليه لمثل هذا الأمر».

بيد أن وانج النمر نبذ الفكرة من ذهنه بحزم، وقال:

«كلا، إني لا أستسيغ النساء، رغم أن هذا قد يبدو عجيباً في نظرك. إنه شيء يدعو إلى العجب أنني لم أقرب امرأة قط» وقطع حديثه عند هذا الحد؛ لأن الخادم دخل يحمل الطعام، فتوقف الشقيقان عن الكلام.

بعد أن فرغا من تناول الطعام، ورفعت الصحاف، وجيء بالشاي، تأهب وانج الثاني للسؤال عن كنه ذلك الشيء الذي يتبغي وانج النمر أن يفعله بكل فضته، مستعيناً بهذين الغلامين، لكنه لم يكن يدري كيف يشرع في توجيه سؤاله. وقبل أن يستقر به الرأي على طريقة بارعة لبقة، قال وانج النمر على حين فجأة:

«إننا شقيقان، يفهم أحدهما الآخر. إني أعتمد عليك!».

فاحتسى وانج الثاني بعض الشاي، ثم قال في رقة يكتنفها الحذر:

«يمكنك أن تعتمد عليّ، ما دمنا شقيقين، لكنني أود أن أعرف ما هي خطتك، حتى أدرك ما ينبغي لي القيام به من أجلك».

حينئذ، انحنى وانج النمر إلى الأمام، وقال في همس هائل، والكلمات

تنطلق من فمه في سرعة خاطفة، بينما كانت أنفاسه تلفح أذن وانج الثاني، وكأنها ريح ساخنة:

«لديّ رجال مخلصون يلتفون حولي، لا يقل عددهم عن مائة وأكثر، وجميعهم قد ضاقوا ذرعًا بهذا الجنرال الهرم! كما ضقت به أنا أيضًا، وأصبحت أثوق إلى موطني، ولا أريد أبدًا أن تقع عيني ثانية على واحد من هؤلاء الرجال الجنوبيين الصغار الصفر. أجل، إن معي رجالًا مخلصين. وهم رهن إشارة مني، سيزحفون معي خارجًا، في هدأة ليلة معينة. سوف نتجه إلى الشمال حيث تقع الجبال، ثم نزحف إلى الشمال القصي، قبل أن نحصن أنفسنا، لشن الحرب، حاملين لواء الثورة، إذا طاردنا هذا الجنرال الهرم. لكنه قد لا يحرك ساكنًا، لأنه طاعن في السن غارق في طعامه وشرابه ونسائه، لولا أن من بين المائة الموالين لي خيرة رجاله وأقواهم شكيمة. إنهم رجال لا ينحدرون من الجنوب، بل من سلاله قبائل أكثر بسالة وضراوة!».»

كان وانج الثاني طيلة حياته، رجلًا مسالمًا من صغار الناس، يعمل بالتجارة. وفي حين أنه كان يعلم أن الحرب مستعرة الأوار دائمًا في مكان ما، إلا أنه لم يكن له من شأن بالحروب، اللهم إلا مرة واحدة عندما عسكر بعض الجنود في بيت أبيه في أثناء إحدى الثورات. وما كان يعرف شيئًا عن كيفية اندلاع الحرب أو شنها، سوى أنها إذا اندلعت عن كذب ترتفع أسعار الغلال، أما إذا كانت الحرب نائية، فإن الأسعار تعود إلى الهبوط. لم يحدث قط أن اقترب من حرب إلى هذا الحد، ولو كانت هذه الحرب في داخل أسرته تمامًا! ومن ثم، فغر فمه الضيق، وفتح عينيه الصغيرتين

على سعتهما، ورد هامسًا: «لكن ما الذي يمكنني أن أفعله لمساعدتك في هذا، وأنا، كما هو شأني، رجل مسالم تمامًا؟».

فقال وانج النمر في همس أشبه بصليل الحديد على الحديد: «هذا! يجب أن أحصل على قدر وفير من الفضة، كل ما أمتلكه، فضلًا عن أنني لا بد أن اقترض منك، بأقل نسبة من الأرباح، ترضى أن تمنحني إياها، إلى أن أتمكن من توطيد أقدامي!».

فقال وانج الثاني لاهثًا: «ولكن ما هو الضمان؟».

«هذا!» قالها وانج النمر مرة أخرى. ثم استطرد قائلاً: «عليك أن تقرضني ما أحتاج إليه، إلى جانب ما ستجلبه الأرض من فضة، حتى أتمكن من حشد جيش هائل. وسوف أوطد أقدامي في منطقة ما شمالي الإقليم الذي ننتمي إليه، وأقيم نفسي حاكمًا على تلك الأراضي بأسرها! إذ ذاك، عندما أصبح حاكمًا لها، سوف أتوسع وأبسط نفوذي، وأرقى مدارج العظمة، من مجد إلى مجد، في كل حرب أشنها حتى...» ثم توقف عن الكلام، وبدا كأنه يتطلع بعيدًا بعين الخيال إلى عصر من العصور الغابرة في إحدى البلاد النائية، كما لو كان يتمثله واضحًا جليًا أمام عينيه. وانتظر وانج الثاني، ثم لم يعد يطيق الانتظار.

فقال: «حتى ماذا؟».

فانتفض وانج النمر واقفًا على قدميه، على حين غرة، وقال:

«حتى لا يكون ثمة من يفوقني عظمة في هذه الأمة بأسرها!».

وكان همسه في هذه المرة أشبه بالصيحة.

فسأله وانج الثاني في ذهول: «وماذا ستكون عندئذ؟».

صاح وانج النمر: «سأكون ما أريد أن أكونه». وفجأة قفز حاجباه الأسودان فوق عينيه في حدة، وضرب براحته على النضد، حتى إن وانج الثاني وثب من مكانه مذعورًا من شدة صوت الضربة، وجعل الرجلان يحملق أحدهما في الآخر.

كان هذا الحديث أغرب ما سمعه وانج الثاني طوال حياته، فلم يكن بالرجل الذي تراوده أحلام العظمة، بل إن أعظم أحلامه هي أن يجلس بالليل إلى سجلات حساباته، ليفحص ما قد قام ببيعه في تلك السنة، ويدبر الوسائل المأمونة الأكيدة التي يمكنه بها أن يوسع نطاق أسواقه في السنة التالية. لذا جلس الآن يحملق في أخيه هذا، فرآه فاره القامة، قاتم اللون، غريب الأطوار، تبرق عيناه كعيني النمر، ويلوح هذان الحاجبان الأسودان المستقيمان، وكأنهما ألوية تنتشر فوق عينيه. وبينما كان وانج الثاني يحملق هكذا في أخيه، استولى عليه شعور بالخوف منه، فلم يجرؤ على التفوه بشيء لإحباط رغبته. إذ بدت في عيني الرجل نظرة تحمل أطياف الجنون، كانت نظرة عاتية لدرجة أن وانج الثاني نفسه لم يملك إلا أن يحس في أعماق قلبه المعتصر بقوة هذا الرجل، أخيه. ومع ذلك، ظل يلزم جانب الحذر، لم يستطع أن يتناسى ما اعتاده من حذر. ومن ثم سعل سعالًا جافًا، وقال في صوته الرفيع الجاف:

«لكن، ماذا سيعود عليّ من كل هذا، ماذا سيعود علينا جميعًا، وما هو الضمان إذا أقرضتك فضتي؟».

فأجاب وانج النمر في جلال مهيب، وقد عاد يثبت ناظره على أخيه:

«هل تعتقد أنني سوف أنسى أهلي عندما أرقى بنفسى إلى العلياء؟
ألستما شقيقيّ وأبناؤكما أبناء شقيقيّ؟ هل سبق أن سمعت قط عن ملك
جبار من ملوك الحرب لم يرفع من شأن آل بيته جميعاً، وهو يتسّم العلى؟
ألا يعني شيئاً في نظرك أن تكون أخاً لـ.. ملك؟».

ونظر إلى أسفل محملاً في عيني أخيه. وفجأة كاد وانج الثاني يصدق
أخاه هذا، على كره منه رغم ذلك، فقد كان كل هذا الحديث أغرب قصة
طرقت مسامعه طوال حياته. ثم قال بطريقته المتزنة:

«سوف أعطيك مالك على أقل تقدير، وأقرضك ما يزيد عن حاجتي،
إذا كان في وسعك حقاً أن ترقى إلى هذا الحد، فما من شك أن هناك
كثيرين لا يرتقون إلى الآفاق الرفيعة التي يظنون أنها في متناولهم. سوف
تحصل على مالك في القريب».

فتطاير الشرر فجأة من عيني وانج النمر، وجلس على مقعده، وهو
يضغط على شفتيه ضغطاً عنيفاً. وقال:
«أرى أنك تلزم جانب الحذر!».

وكانت نبرات صوته قاسية باردة، حتى إن وانج الثاني أحس بشيء
من الرهبة، فقال لينتحل لنفسه عذراً:

«إنني أعول أسرة وعدداً من الأطفال الصغار، كما أن أم أبنائي لم
تتقدم بعد في العمر، وهي امرأة ولود إلى أبعد حد. لديّ هؤلاء جميعاً،
أدبر حياتهم وأعنى بأمرهم. إنك لم تتزوج بعد، ولا تدرك معنى أن يكون
في كنفك كل هذا الحشد، معتمداً عليك في كل شيء، في حين أن

تكاليف الغذاء والكساء تتزايد عامًا بعد عام».

فهز وانج النمر كتفيه، وأشاح بوجهه، ثم قال متظاهراً بعدم الاكتراث:
«الواقع أنني لا أدرك هذا. على أي حال أصغ إليّ: سوف أرسل إليك
تابعي الأمين كل شهر، وستعرفه من شفته الشراء، عليك أن تعطيه من
المال كل ما يمكنه حمله. بع أرضي بأقصى سرعة ممكنة، وبأعلى ثمن
تستطيع الحصول عليه؛ لأنني سأحتاج ألف قطعة من الفضة شهرياً».

فصاح وانج الثاني، وقد تشقق صوته، وبدت البلاهة في عينيه من
شدة دهشته:

«ألف! لكن كيف يمكنك أن تنفقها؟».

قال وانج النمر، وهو يتحدث في سرعة خاطفة: «ثمة مائة من الرجال
لا بد من إطعامهم، ولا بد من شراء الثياب والأسلحة. فإذا لم أتمكن من
اغتنام البنادق بالسرعة الملائمة، لا بد أن أبتاعها، حتى أستطيع زيادة
عدد جيشي». وركبه الغضب فجأة، فضرب على النضد مرة أخرى، وهو
يزأر قائلاً: «ليس من حقك أن تسألني عن هذا وذاك! إنني أدرك ما يجب
أن أفعله. لا بد أن أحصل على الفضة، حتى أتمكن من توطيد أقدامي،
وأصبح حاكمًا على أحد الأقاليم! عندئذ يمكنني أن أفرض الضرائب
على الناس كما يروق لي. أما الآن، فيجب أن أحصل على الفضة. قف
بجانبي، تكن لك الجعالة. اخذلني، يكن في مقدوري، وقتئذ، أن أنسى
أنك من لحمي ودمي!».

وعندما قال هذه الكلمات الأخيرة، اندفع بوجهه حتى كاد يلمس

وجه أخيه. وحينما تطلع وانج الثاني إلى هاتين العينين الضاريتين، يظللها خباء من حاجبيه الكثيفين الأسودين، تراجع مسرعاً وسعل، ثم قال: «حسنًا، سوف أفعل ما تتغيه، بلا ريب. إني أخوك. لكن متى ستشرع في الأمر؟».

فسأله وانج النمر: «متى يمكنك بيع نصيبي من الأرض؟».

«سيقبل موسم حصاد القمح خلال شهور قلائل». قالها وانج الثاني في لهجة متتدة، وهو يمعن في التأمل في أثناء حديثه، يساوره التردد، إذ تملكه الذهول من كل ما سمعه.

فأجاب وانج النمر: «عندئذ ستكون جيوب الرجال عامرة بالمال، ويمكنك بلا ريب أن تباع جزءًا من الأرض قبل موسم زراعة الأرز».

كان هذا القول على جانب كبير من الحقيقة، فلم يجروا وانج الثاني مطلقًا على أن يعارض أخاه الغريب هذا، فقد أخذته رهبة منه، وأدرك أنه لا مناص من تدبير الأمر بصورة أو بأخرى. ومن ثم نهض قائلاً:

«إن كانت المسألة عاجلة إلى هذا الحد، يجب عليّ أن أعود أدراجي على الفور، لأرى ما يمكنني القيام به، لأن إيراد الحصاد لا يلبث أن ينفق سريعًا، ثم يعتقد الرجال أن الفقر قد عاودهم ثانية، وأنهم منهكون بالعمل في الأرض التي يتعين عليهم زراعتها، فيخيل إليهم أنهم لن يحتملوا مزيدًا من الأرض».

لم يكن راغبًا في البقاء على الإطلاق، كان يريد أن ينطلق بعيدًا عن هذا المكان، الذي يوجد في شتى أرجائه مثل هؤلاء الرجال الضواري

والبنادق وأسلحة الحرب. تريت فقط ليدخل إلى الحجرة المجاورة التي ذهب إليها الغلامان، فوجدهما جالسين هناك على أريكة خشبية، أمام مائدة صغيرة عارية من الطلاء، وضع عليها طعام يتكون من بقايا اللحوم المتخلفة مما قدمه وانج النمر إليه، ومع ذلك فقد كان طعامًا طيبًا بالنسبة إلى هذين الغلامين، وقد راح ابنه يحشو منه ملء فمه -راضيًا كل الرضا- وقد رفع وعاءه إلى شفتيه. أما الغلام الآخر، فقد كان أنفًا ميالًا إلى الترف، معتادًا أن يتناول من الطعام ما هو خير من فتات موائد الآخرين، فجلس يلتقط قليلًا من الأرز بالعصي الخشبية، دون أن يقرب اللحم. في هذه اللحظة، ساور وانج الثاني شعور عجيب بعدم الرضا عن ترك هذين الغلامين لا سيما فلذة كبده، ومرت به لحظة من الشك ما إذا كانت هذه مخاطرة لم يكن يجمل به أن يغامر بابنه فيها. لكنه الآن، بعد أن خطا الخطوة الأولى، لم يعد في وسعه أن ينقض ما شرع فيه، لذا اكتفى بأن يقول لهما:

«إنني عائد. والأمر الوحيد الذي أوصي به كليكما هو أن تطيعا عمكما في كل كبيرة وصغيرة. فأنتما الآن تابعان له، وهو رجل شرس الطبع نافذ الصبر، لن يحتمل منكما شيئًا. أما إذا لذتما بالطاعة، وامثلتما لأوامره، فربما ترتقيان إلى آفاق لا تحلمان بها. إن هناك مصيرًا معينًا كتب لعمكما في لوح القدر».

ثم دار على عقبه مسرعًا ومضى خارجًا، إذ لم يمكنه مغالبة الشعور بأن قلبه مثقل بشيء من الأسى لأنه سيفارق ابنه، كان قلبه مثقلًا أكثر مما كان يتوقع، ولكي يهون الأمر على نفسه تمتم قائلاً:

«حسنًا، إن مثل هذه الفرصة لا تتاح لكل غلام. ولئن كانت المسألة في كف القدر، فاحتمالاتها تبشر بالخير. ومهما يكن من أمر، فإنه لن يكون جنديًا عاديًا من العامة، بل سيصبح ضابطًا من نوع أو آخر، إذا نجحت الخطة».

ووطد العزم على أن يحسن عمله وي بذل جهده ليكفل لها النجاح، سي بذل قصارى جهده من أجل ابنه على أقل تقدير:

على أن الصبي الشاحب ابن وانج الأكبر شرع في البكاء عندما رأى عمه يمضي، وأخذ يتحب بصوت عال، فسارع وانج الثاني بالانصراف. إلا أن صوت النحيب ظل يلاحقه، فراح يغذ السير حثيثًا، كي يبلغ البوابة، حيث يقبع الأسدان، فلا يترامى الصوت إلى سمعه بعد ذلك.



هكذا بدأ هذا المشروع الجريء الغريب الذي كان من الممكن أن يجعل جسد وانج لانج ينهض منطلقاً من أرضه التي يرقد فيها، لولا أن روحه كانت تحلق في عالم بعيد. فالرجل لم يكن يكره شيئاً إبان حياته كراهته للحرب والجنود، وها هي ذي أرضه الطيبة تباع الآن في هذا السبيل، سبيل الحرب والجنود. لكنه كان يرقد في قبره هناك، وظل سادراً في رقاد، فلم يكن ثمة من يكبح جماح أبنائه هؤلاء فيما يقدمون عليه. كلا، لم يكن ثمة من يكبح جماحهم سوى بيرلوسوم التي ظلت أمداً طويلاً تجهل ما يفعلونه، فقد أخفى عنها الابنان الكبيران ما يدبرانه من خطط، لأنهما كانا يخشيانها، لما تكنه من ولاء ووفاء لأبيهما.

بعد أن عاد وانج الثاني إلى بيته، طلب إلى وانج الأكبر أن يأتي إلى مشرب الشاي، حيث يمكن أن يفرغا للحديث في هدوء. وهناك راحا يتحدثان وهما يحسبان أوعية من الشاي. على أن وانج الثاني انتبذ هذه المرة ركناً خبيثاً مستتراً، يلتقي عنده جداران ليس في أحدهما نافذة أو باب. وجلس الشقيقان في وضع يتيح لهما رؤية من يقترب منهما، ومالا

برأسيهما على النضد، ودار حديثهما همسًا في تلميحات وكلمات مبتورة. فأفضى وانج الثاني إلى أخيه بما يدبره وانج النمر، بيد أن وانج الثاني، وقد عاد الآن ثانية إلى داره، وإلى مجريات حياته العادية، بدت له خطة أخيه الجندي، أكثر فأكثر، على أنها حلم من الأحلام، حلم من المحال تحقيقه. في حين أن أخاه الأكبر، وهو يصغى إليه، تشبث بالخطة على أنها شيء رائع، بل وسهل المنال أيضًا. والحق أن هذا الرجل الضخم الشبيه بالأطفال، طغى عليه الانفعال عندما تكشفت الخطة أمام عينيه، إذ تخيل نفسه يسمو إلى آفاق لم يكن يحلم بها مهما جمع به الخيال.. أحمًا لملك! كان رجلًا على حظ قليل من العلم، وحظ أقل من الحكمة، فضلًا عن أنه كان مولعًا بمشاهدة الروايات المسرحية، وقد شهد الكثير من المسرحيات القديمة التي تروي أمجاد أبطال الأساطير في الأزمنة الغابرة الذين كانوا مجرد رجال من العامة في مطلع حياتهم، ثم تسنموا مدارج العلى، حتى أمكنهم أن يؤسسوا العائلات الملكية، بمهارة سواعدهم وفطنتهم ودهائهم. وتمثل نفسه الآن أحمًا لبطل من هؤلاء الأبطال، بل وأكثر من ذلك، الأخ الأكبر لهذا البطل، فتألفت عيناه بالبريق، وهمس في صوت أجش:

«لقد كنت أردد دائمًا أن أخانا ليس كأى غلام آخر! وأنا الذي رجوت أبانا أن ينتشله من العمل في الحقول، ويكتري له مثقفًا يلقيه ما ينبغي أن يلم به كابن أحد مملّك الأرض. إن أخي لن ينسى بلا ريب ما فعله أخوه الأكبر في سبيله، لن ينسى أنه لولاي لما أصبح سوى «خولي» في أرض أبي».

ثم غض من بصره، وهو يحس بالرضا عن نفسه، ومضى يسوي على

بطنه الهائل ذلك الرداء الأرجواني الفاخر الذي يرتديه، في حين تدور أفكاره حول ابنه الثاني، وكيف أن جميع أفراد الأسرة سيقرون عاليًا، ومن المحتمل أن يصبح هو نفسه من طبقة النبلاء. ما من شك أنهم سيجعلونه من النبلاء عندما يتولى أخوه زمام الملك. أما وانج الثاني، فقد تزايدت شكوكه كلما تاب إلى طبيعته. والواقع أن هذا المشروع الذي يتسم بالضرارة، بدا لعينيه أبعد ما يكون عن هذه المدينة الهادئة الوداعة. على أنه، حينما رأى أخاه يطير على أجنحة الخيال إلى غياهب المستقبل، تملكته الغيرة، بل إن طبيعة الحذر ذاتها أيقظت الجشع في قلبه، وتحدث إلى نفسه قائلاً:

«يجب أن ألزم جانب الحرص، فمن الجائز أن يتمخض شيء عما يحلم به أخي الأصغر، بل من المحتمل أن ينجح بالفعل في تحقيق القدر القليل مما يحلم به. فيجب عليّ أن أكون مستعدًا لأن أشاركه ما يحزره من نجاح، ولا ينبغي أن أنأى بنفسى بعيدًا». ثم قال بصوت مسموع: «حسنًا، لكن يجب أن أمدّه بالفضة، فمن دوني لن يستطيع أن يحقق شيئًا. يجب أن يحصل على ما يحتاج إليه، ريثما يتمكن من توطيد أقدامه. ولست أدري كيف يتسنى لي الحصول على كل هذا القدر من المال. فمهما يكن من أمر، لست إلا من صغار الأغنياء، ولا أكاد أعد ثريًا في نظر أرباب الثراء. يمكنني في الشهور الأولى أن أحصل له على المال عن طريق بيع أرضه، ثم نستطيع -أنا وأنت- بعد ذلك أن نبيع جانبًا من أرضنا. لكن ماذا سنفعل إذا لم يكن قد وُطد أقدامه حتى ذلك الحين؟».

قال الأخ الأكبر في عجلة: «سوف أساعده.. سوف أساعده» إذ لم

يكن يطبق في هذه اللحظة مجرد التفكير في أن يقدم أحد إلى هذا الشقيق الأصغر شيئاً أكثر منه.

عندئذ نهض الرجلان مسرعين، يلهمهما جشعهما المشترك، وقال وانج الثاني:

«فلننطلق إلى ضياعنا ثانية، وسوف نبيع هذه المرة».

في هذه المرة أيضاً عندما ذهب الشقيقان إلى الأرض، خطرت بيرلوسوم ببالهما، ولم يقتربا من ذلك البيت المشيد من الطين. كلا، فقد امتطيا حمارين من بين الحمير العديدة التي تقف عند بوابة المدينة ليقوم أصحابها بتأجيرها، وانطلقا في الدروب الضيقة الممتدة بين الحقول، يركض في إثرهما الحماران، وهما غلامان صغيران راحا يضربان الحمارين على أفخاذهما، ويصيحان فيهما لحثهما على غز السير، واتجه الرجلان شمالاً، مبتعدين عن ذلك البيت، وعن تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي تحيط به.

كانت الدابة التي يمتطيها وانج الثاني تتقدم عن طيب خاطر، في حين أن الأخرى أخذت تترنح على أقدامها الدقيقة، تحت وطأة ثقل وانج الأكبر الهائل الذي كان يزداد بدانة شهراً بعد شهر، حتى صار من الجلي أنه في زهاء عشر سنوات أو نحو ذلك، سيصبح أعجوبة العجائب في الريف والحضر، بالنظر إلى أنه الآن -وهو لم يبلغ سوى الخامسة والأربعين- كان ممثلاً متفخاً حول خصره، وقد تهدلت وجنتاه المكتنزتان وكأنهما ردفان. لذا كان لزاماً عليهما أن يترثا قليلاً من أجل الدابة التي تروح بحملها، لكنهما رغم ذلك تقدما بسرعة لا بأس بها، فزارا في ذلك اليوم

الواحد جميع المستأجرين في الضياع التي كانت قد حددت للبيع من قبل. واستفسر وانج الثاني من كل واحد من الرجال عما إذا كان راغبًا في شراء الأرض التي يفلحها، وإذا رغب في ذلك، فمتى يشتريها، ومتى يمكنه أن يدفع ثمنها.

واستقر رأي الشقيقتين على أن يمنحا «وانج النمر» أكبر قطعة واحدة من الأرض، ما دام يرغب في الحصول على الفضة. تلك كانت أبعد قطعة عن المدينة، يتولى مزارع واحد أمر فلاحتها، وهو رجل طيب ميسور الحال بدأ حياته متواضعًا للغاية كعامل أجير في نفس أرض وانج لانج، ثم تزوج إحدى الإماء من بيت المدينة، وهي امرأة قوية مخلصه كثيرة الجلبة، أخذت تعمل معه بجد وهي تحمل أطفالها، كما دفعت زوجها أيضًا إلى أن يبذل جهدًا شاقًا ما كان ليبذله من تلقاء نفسه. وقد أفلحا في عملهما، وأخذ كل عام يستأجران مزيدًا من أرض وانج لانج، حتى أصبح لديهما عدد من الأفدنة تحت إشرافهما، فتحتم عليهما اكتراء بعض الرجال للمساهمة في فلاحتها، على أنهما ظلا رغم ذلك يكدحان بأيديهما، لأنهما كانا زوجين مديرين مقتصدين.

ذهب الشقيقتان إلى هذا الرجل في ذاك اليوم، وسأله وانج الأكبر قائلاً:

«لدينا فائض من الأرض يزيد عما نرغب فيه، ونحن في حاجة إلى فضة كي نغامر بها في مشروعات أخرى. فإن كنت تريد شراء هذه القطع التي تقوم بفلاحتها، خيرًا وبركة، فسوف نبيعها لك».

عندئذ، حملق المزارع بعينه المستديرتين الشبيهتين بعيني الثور،

وفغر فاه، فبرز صف أسنانه الناتئة كالرف، ثم قال في صوت كالفحيح، والرداذ يتطاير من بين أسنانه في أثناء حديثه، فهذه كانت طبيعته، ولم يكن له من حيلة فيها:

«لم أكن أتخيل أن يكون بيتكم مستعدًا لبيع أرضه بهذه السرعة، بالنظر إلى مدى تعلق أبيكم الشيخ بالأرض».

عندئذ أرخى وانج الأكبر فمه الغليظ، وبدأ عليه الوقار الشديد، وقال:

«على كل حبه للأرض، فقد خلف لنا عبئًا ثقیلاً نحمله على كاهلنا. لدينا محظيتاه، يجب أن نعنى بأمرهما، في حين أن أيًا منهما ليست أمنا، فضلًا عن أن كبراهما تولع بالخمير الجيدة والطعام الفاخر، وتصر على لعب الميسر كل يوم، بل إنها ليست من البراعة في اللعب بحيث تربح منه يوميًا. والمال الذي تدره الضياع يأتي إلينا بطيئًا، ويعتمد على أهواء السماء، وبيت كبيتنا يجب أن ينفق المال عن سعة، إذ ليس مما يليق بنا، أو يجدر بنا كأبناء لأبينا، أن ندع العائلة تبدو في مظهر الفقر والضعف، أو تبدو أقل ثراء مما كانت عليه وهو على قيد الحياة. لذلك يجب أن نبيع جانبًا من الأرض لشؤون معاشنا».

على أن وانج الثاني أخذ يتململ ويسعل ويقطب وجهه، حين كان أخوه يلقي هذا الخطاب الخطير، وتراءى له أن شقيقه لا يُفَضَّل عن أي أبله إلا قليلًا، لأن المرء إذا أبدى لهفة على بيع سلعته، فلا بد وأن يهبط الثمن. فسارع بدوره إلى القول:

«بيد أن هناك كثيرين يستفسرون عن أرضنا لشرائها، لأن من

المعروف للجميع في هذه الأنحاء أن الضياع التي اشتراها أبونا ضياع خصبة، وأنها أجود الأرض في هذه المنطقة من الريف. فإن لم تكن راغبًا في شراء الأرض التي تستأجرها، أحطنا بذلك علمًا على جناح السرعة، لأن هناك آخرين يترقبونها».

كان هذا المزارع ذو الأسنان النائثة كالرف، كلفًا بالأرض التي يفلحها، يعرف كل شبر منها وموقع كل ذرة فيها، يعرف كيف أن هذا الحقل منحدر، وكيف أن ذاك يتعين عليه تخديده كي يكفل لنفسه الحصاد. وكم ألقى بالكثير من السماد الجيد في الأرض، لا من روث بهائم وفضلات أهل بيته فحسب، بل إنه طالما تكبد العناء وذهب إلى المدينة ليحمل منها، هذه المسافة البعيدة، دلاء مليئة بنفاية أهل المدينة... كثيرًا ما استيقظ في البكور لأداء هذه المهمة. فراح الرجل يفكر في كل تلك الأحمال الكريهة التنتة التي رفعها على منكبيه، وفي كل هذا العرق الذي روى به هذه الحقول، وتراءى له أنه سيكون شيئًا أليماً حقًا لو أن هذا كله انتقل إلى حوزة رجل آخر. فقال في تردد:

«حسنًا، لم أفكر من قبل في أن أمتلك الأرض بنفسي. كنت أظن أنها قد تعرض للبيع في جيل ابني. إنما إذا كانت ستباع الآن، فإنني سأفكر فيما يمكنني أن أفعله، وأنبئكما بالرأي غدًا بعد أن أتدبر الأمر. ولكن ما هو الثمن الذي ترغبان فيه؟».

عندئذ تبادل الشقيقان النظرات، وقال وانج الثاني بسرعة، قبل أن يتمكن أخوه الأكبر من الكلام، خمسون قطعة من الفضة لكل حقل مساحته سدس الفدان».

كان هذا السعر مرتفعاً خيالياً لأرض نائية عن المدينة كهذه الأرض، بل إنه يتجاوز ما يمكن أن يدفع ثمناً لها. وكانوا جميعاً يدركون هذه الحقيقة، ولكنها كانت على أي حال بداية للمساومة مع المزارع الذي قال:

«لا يمكنني دفع هذا الثمن، وأنا على هذه الحال من الفقر. ولكنني سوف أنقل إليكم الرأي غداً، بعد أن أتدبر الأمر».

فاستبدت بوانج الأكبر اللهفة على المال، وقال:

«إن مبلغاً زهيداً يزيد أو ينقص عن الثمن لن يفسد الصفقة!».

لكن وانج الثاني ابتدره بنظرة غاضبة، وجذبه من كم رداءه لثلاث ينفوه بمزيد من الحماسة، ثم قاده كي يمضيا في طريقهما. على أن المزارع صاح يناديهما قائلاً:

«سوف أحضر غداً بعد أن أتدبر الأمر».

قال هذا، في حين أن ما يعنيه هو أنه يجب أن يتشاور مع زوجته، إلا أن الرجل كان يبدو بالغ الصغار إذا صرح للناس أنه يقيم أي وزن لرأي زوجته، لذا صاغها المزارع بهذا الأسلوب، محافظة على ماء وجهه.

عندما أقبل الغد، بعد أن تبادل المشورة مع زوجته في أثناء الليل، قصد المدينة حيث يعيش الشقيقان، وهناك احتدم بينه وبينهما الجدل والمساومة. كان يساوم مثلما فعل وانج لانج يوماً ما في هذا البيت ذاته، كي يحصل على الأرض التي يمتلكها ذلك البيت الذي تبعر الآن وتشت شمله، فلم تبق منه سوى هذه الأحجار والطوب. وعلى أي

حال، تم الاتفاق في آخر الأمر على ثمن يقل بمقدار الثلث عن الثمن الذي حدده وانج الثاني. وكان هذا حقاً وعدلاً، فأعرب المزارع عن رضاه لأن هذا هو الثمن الذي ذكرت له زوجته أنه يستطيع قبوله، إذا تعذر عليه الحصول على الأرض بأقل منه. ولما أن تم بيع الأرض على هذا النحو، قال المزارع:

«كيف ستأخذون ثمن الشراء، أفضة أم غلاًلاً؟».

فقال وانج الثاني مسرعاً: «النصف فضة والباقي غلاًلاً».

قال هذا، إذ جال بخاطره أنه لو أخذ الغلال لاستطاع أن يتجر فيه مرة أو مرتين، فيربح قليلاً من الفضة زيادة عن الثمن، ولن يكون هذا سلباً لمال لأخيه، ما دام ليس من شأن أحد سواه إذا اتجر في الغلال مرة أو مرتين، فالربح من حقه مقابل كل هذا الجهد الذي يبذله. لكن المزارع قال لهما:

«لا يمكنني أن أجمع كل هذا القدر من الفضة. سوف أعطيكما الآن ثلث الثمن فضة والثلث غلاًلاً، أما الثلث الأخير، فإني أعد بدفعه من محصول العام القادم».

عندئذ أدار وانج الأكبر حدقتي عينيه بطريقته المتعاضمة المتشامخة، وضرب بقدمه الأرض، وحرك مقعده من مكانه، حيث كان يجلس معهما في البهو الكبير، ثم قال:

«كيف يمكنك أن تتكهن بما سيكون عليه حال السماء في العام القادم، ومقدار ما سيهطل من أمطار، وكيف يتسنى لنا أن نعرف ما

سنحصل عليه؟».

على أن المزارع ظل واقفًا هناك في غاية الذلة أمام مالكي أرضه، هذين الثريين من أهل الحضر. وأخذ يمصمص بأسنانه قبل أن يتكلم قائلاً وهو يتذرع بالصبر:

«نحن الكادحين في الأرض تحت رحمة السماء دائماً. فإن لم يكن في وسعكما مشاركتي في هذه المخاطرة، فلكما أن تستردا الأرض كنوع من الضمان».

هكذا استقر الرأي في النهاية، وفي اليوم الثالث جاء المزارع بالفضة. لم يأت بها كلها دفعة واحدة، بل أحضرها على ثلاث دفعات، فكان في كل مرة يحمل صرة مليئة بالفضة، يحزمها في قطعة من النسيج الأزرق، يخفيها في ثنايا صدر رداءه. وفي كل مرة كان يخرج الفضة متمهلاً، ووجهه يتقلص كأنه يعاني بعض الألم، ثم يضعها على النضد في مشقة، كأنما يأسى عليها. كان هذا مسلك الرجل، فقد استنفد في الحصول على هذه الفضة كل هذه السنين الطويلة من حياته، وكل هذه الأروال العديدة من لحمه ودمه، وكل هذه الطاقة من قوة عضلاته. ولقد جمع هذا المال من كل مكان خبيء كان يخفي فيه مدخراته الهزيلة من أرباحه، كما اقترض كل ما أمكنه اقتراضه، بل إنه لم يستطع أن يحصل على هذا المبلغ إلا بشظف العيش المرير.

لكن الشقيقين لم يريا شيئاً سوى الفضة. وبعد أن ختما إيصال تسلمها، تنهد المزارع، ومضى خارجاً. إذ ذاك صاح وانج الأكبر في ازدراء:

«حسنًا، هؤلاء الفلاحون بصرخون دائمًا، ويسيرون الدنيا ويقعدونها، على زعم أنهم يحيون حياة مضيئة، ولا يكسبون إلا النزر اليسير. ومع ذلك، فأني واحد منا يتمنى أن يكسب فضة كهذه التي استطاع هذا الرجل أن يجمعها، وأغلب الظن أنها لم تكن مهمة شاقة بالنسبة إليه! فلئن كانوا يتمكنون من أن يكسبوا الفضة هكذا من نتاج الأرض، فإني أقسم أن أشدد الوطء على مستأجري أرضي من الآن فصاعدًا!».

وشمر كمي ردائه الحريريّين المتهلّلين، وفرك يديه الشاحبتين الطريتين، ثم اغترف من الفضة، وتركها تنساب من بين أصابعه المكتنزة «النفزة عند العقل» كأصابع النساء. ولكن وانج الثاني أخذ يرفع النقود وأخوه الأكبر يرقبه على مضض، وعاد يحصيها بسرعة ومهارة، في عشرات من القطع، رغم أنها قد أُحصيت بدقة من قبل. أحصاها كلها في عشرات، ثم حزمها بعناية وإتقان - كما يفعل كتبة الحسابات - في داخل قراطيس من الورق كان يحملها معه. في حين ثبت وانج الأكبر ناظره على الفضة، يساوره شعور بعدم الرضا عن رؤيتها تذهب عنه، وأخيرًا قال متشوقًا:

«أضروني أن نرسلها كلها إليه!».

فقال وانج الثاني في لهجة باردة، وقد لمح جشع أخيه: «يجب أن نرسلها كلها إليه، يتحتم أن نرسلها الآن، وإلا باءت مغامرته بالفشل. ويجب أيضًا أن آخذ الغلال وأبيعها، كي أكون متاهبًا لليوم الذي يقبل فيه تابعه الأمين».

إلا أنه لم يخبر أخاه بأنه سيتجر في الغلال مرة أو مرتين. ولم تكن

لوانج الأكبر دراية بهذه الألاعيب التي يتقنها التجار، فلم يسعه إلا أن يجلس ويتنهد حين رأى الفضة تمضي بعيداً عنه. وبعد أن انصرف أخوه، ظل جالساً هنيهة، يغمره شعور بالكآبة، وإحساس بالفقر، كأنما قد سلب منه ماله.

وكان من المحتمل ألا تعلم بيربلوسوم مطلقاً بكل هذا الذي يجري، لأن وانج الثاني كان يفوق الجميع دهاءً، فلم يكن يلمح لها قط عن شيء يقوم به. كلا، لم يذكر لها شيئاً حتى حينما كان يقصدها في الوقت الملائم، حاملاً إليها راتبها من الفضة. كان يحمل إليها خمساً وعشرين قطعة شهرياً، كما أمره «وانج النمر»، وفي أول مرة قام فيها بهذه المهمة قالت له بصوتها الناعم الرقيق:

«ولكن من أين تأتي هذه الخمس؟ لأنني أعلم أنني قد مُنحت عشرين قطعة فقط، بل إنني لا أحتاج لكل هذا القدر، إلا من أجل هذه الطفلة التبعة، ابنة مولاي، لكنني لم أسمع من قبل بهذه القطع الخمس».

فأجاب وانج الثاني قائلاً:

«خذيها، فقد قال أخي الأصغر إنك يجب أن تحصلي عليها، وهي تدفع من حصته».

بيد أن بيربلوسوم، حينما بلغت هذه الكلمات مسامعها، عدت خمس قطع على جناح السرعة، ويداها الصغيرتان ترتعشان، ثم دفعت بالنقود جانباً، كأنما تخشى أن تحرقها هذه الفضة، ثم قالت:

«لن آخذها.. كلا، لن آخذ شيئاً سوى ما أستحقه!».

وفي بادئ الأمر خطر لوانج الثاني أن يضغط عليها، لكنه تذكر حينذاك مدى المخاطرة التي يخوض غمارها عندما ينفق ماله في سبيل مغامرة أخيه، وتذكر أيضًا كل العناء الذي يتجشمه دون أن يتقاضى عنه أجرًا، كما تذكر كل ما يحف بالمغامرة من احتمالات الفشل. عندما جال كل هذا بخاطرته، جمع الفضة التي نحتها بيربلوسوم جانبًا، ودسها بعناية في صدر رداءه، قائلاً بصوته الهادئ الرفيع:

«حسنًا، قد يكون هذا من الأفضل، ما دامت الأخرى، الأكبر سنًا، تحصل على نفس المبلغ. والحق أنه يحسن أن تأخذي أقل منها بعض الشيء. وسوف أنبئ أخي بالأمر».

لكنه، إذ تبين ميولها، أمسك عن القول لها بأن نفس البيت الذي تعيش فيه يمتلكه ذلك الابن الثالث، إذ كان من الملائم لهم جميعًا أن تعيش هناك مع البلهاء. فانصرف عندئذ دون أن يذكر لها شيئًا قط أكثر من هذا. ولم تكن بيربلوسوم تقابل أحدًا من أفراد الأسرة المقيمة في بيت المدينة الكبير، اللهم إلا تلك المقابلات التي تحدث عرضًا لغرض أو لآخر. حقيقة أنها كانت أحيانًا ترى وانج الأكبر يمر بها عابرًا عند تحول فصول السنة. كانت تراه في الربيع عندما يقبل كي يكيل البذور لمستأجريه، كما يجب أن يفعل ملاك الأرض، ولو أنه لم يكن يفعل شيئًا سوى أن يقف جانبًا في تعال وكبرياء، يتملكه شعور بالغ بخطورة شأنه، في حين يقوم وكيله بكيل البذور. أو كان يأتي أحيانًا قبل موسم الحصاد ليثمن نتاج الحقول، حتى يمكنه أن يتبين أيكذب عليه مستأجروه أم يصدقونه القول، عندما يصرخون كعهدهم دائمًا، متدمرين من هذا وذاك، كيف كانت سنة

مجدبة عليهم، وكيف هطلت الأمطار مدرارًا أو قترت تقتيرًا.

هكذا كان يأتي ويمضي مرات معدودات في كل عام. وما من مرة إلا كان يتصبب عرقًا، ويبدو غاضبًا حاد المزاج، لما يتجشمه من عناء. وكان يزمجر بالتحية إلى بيربلوسوم، إذا وقع بصره عليها. وعلى الرغم من أنها كنت تنحني له بطريقة مهذبة إذا رآته، فإنها كانت تتحاشى التحدث إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، لأن هذا الرجل قد أصبح على قدر عظيم من ضخامة الجسم وخشونة المظهر، كما كانت له طريقة معينة في التطلع بطرف خفي إلى النساء.

على أن بيربلوسوم كانت إذ تراه يأتي ويمضي، تظن أن الأرض ما زالت على سابق عهدا، وأن وانج الثاني يعنى بضياعه وضياع الشقيق الثالث. ولم يدر بخلد أحد أن ينبئها بشيء، لأنها لم تكن في الواقع من اللواتي يسهل معهن الثثرة، فهي تجنح إلى الصمت والتحفظ في أسلوبها مع الجميع - ما عدا الأطفال - إلى حد أنها، على رقتها، كان يحيط بها سمت يحمل الناس على أن يهابوها. لذلك لم يكن لها من صديقات على الإطلاق، سوى أنها في الفترة الأخيرة عقدت أواصر المعرفة مع بعض الراهبات اللائي يعشن في أحد الأديرة على مسافة ليست بالبعيدة، وهو بيت هادئ من الطوب الرمادي، يقع وراء سياج من أشجار الصفصاف الخضراء. وكانت بيربلوسوم تستقبل هؤلاء الراهبات في سرور، حينما يقبلن لتلقينها عقائدهن التي تقوم على الصبر. كانت تصغي إليهن، وتطيل التأمل في هذه العقائد بعد انصرافهن؛ لأنها كانت تتوق إلى أن تتعلم القدر الكافي الذي يتيح لها أن تصلي من أجل روح وانج لانج.

ومن ثم، كان من المحتمل ألا تعلم مطلقاً ببيع الأرض، لو لم يحدث في نفس تلك السنة التي اشترى فيها المزارع أول قطعة من الأرض، أن مضى ابن وانج الأكبر الصغير الأحذب في إثر أبيه حين انطلق إلى حقول الحصاد، وراح يتبعه على مبعدة، حتى إن الرجل لم يحس بوجوده.

كان هذا الصبي أغرب الصبية الصغار أطوارًا، ولم يكن كأى طفل من الأطفال الآخرين في أروقة البيت الكبير. فقد نفرت منه أمه منذ مولده، لسبب ما لا يعرفه أحد، ربما لأنه أقل تورّدًا وإمتاعًا للنظر من أطفالها الآخرين، أو ربما يرجع هذا إلى أنها كانت حينذاك قد ضاقت ذرعًا بإنجاب الأطفال، فضاقت به قبل أن يولد. على أنها، بدافع من النفور الذي تملكها، أعطته فور مولده لإحدى الإماء كي تتولى إرضاعه. وما كانت هذه الأمة أيضًا تكن له الحب، لأنهم سلبوها طفلها من أجله، وكانت تقول إن له عينًا تنم عن حكمة بالغة لا تتلاءم مع سنه. تبدو شريرة في وجهه الطفلي. وتقول أيضًا إنه يفيض بالخبت والشر، وإنه يعضها عامدًا وهي ترضعه. وحدث ذات مرة أن ندت عنها صرخة وهي تحمله إلى ثديها، وألقت به على بلاط الفناء، حيث كانت تجلس معه تحت شجرة ظليلة، وعندما قدم أهل البيت ليستطلعوا ما الخطب، ذكرت لهم أنه قد عضها حتى سالت منها الدماء، ثم بسطت لهم ثديها لرؤيته، فكان داميًا حقيقة.

منذ ذلك الوقت أصبح هذا الغلام أحذب الظهر، وبدا كأنما كل قدرته على النمو تنصب في هذه الكتلة الضخمة التي يحملها على منكبيه. وأطلق عليه الجميع اسم «الأحذب»، حتى أبواه كانا يناديان بهذا

الاسم. ونظرًا لأنه كان هذا المخلوق التعس، ولأن هناك غيره من الأبناء، لم يجشم أحد نفسه مشقة العناية به، ولم يتعين عليه أن يُحصّل العلم، أو أن يقوم بشيء على الإطلاق. وتعلم في سن مبكرة أن يختفي عن أعين الناس، خاصة عن أعين الأطفال الآخرين الذين كانوا يسخرون منه في قسوة بسبب الحمل الجاثم على كاهله. واعتاد أن يهيم على وجهه في الطرقات، أو أن يمضي بمفرده في أرجاء الريف، وهو يطلع في مشيته، حاملاً عبأه الضخم فوق ظهره.

وفي هذا اليوم من أيام الحصاد، مضى في إثر أبيه خفية، وظل مختفيًا عن عينيه، لأنه كان يدرك جيدًا مزاج أبيه الحاد في تلك الأيام التي يتحتم عليه فيها أن يذهب إلى أرضه. اقتفى الصبي خطاه، حتى بلغ البيت المشيد من الطين، إلا أن وانج الأكبر مر به عابرًا في طريقه إلى مزارعه، بينما لبث الأحذب هناك، ليرى من تكون هذه التي تجلس عند باب البيت.

لم تكن هذه سوى ابنة وانج لانج البلهاء التعسة، تجلس هناك في ضوء الشمس كعادتها دائمًا. لكنها كانت الآن امرأة نامية الجسم، فضلًا عن أنها قد ناهزت الأربعين من عمرها واشتعل الشيب برأسها. بيد أنها لم تزل بعد نفس الطفلة التعسة، وهي جالسة هناك تزوي وجهها، وتطوي قصاصتها من القماش. عجب الأحذب من أمرها، إذ لم يكن قد رآها من قبل، فأخذ يسخر منها بطريقته الخبيثة، ويزوي وجهه مثلها، ويفرقع أصابعه بصوت مدو تحت أنفها، حتى صرخت المخلوقة المسكينة فرقًا. إذ ذاك، هرعت بيرلوسوم إلى الخارج لترى ما الخطب. وحينما وقع بصر الغلام عليها، جرى بعيدًا، وهو يطلع ويحجل، حتى اختفى

في الظلال المدببة الشكل لحرش من أحراش الخيزران، ومن هناك راح يسترق النظر، وكأنه حيوان صغير متوحش. لكن بيرلوسوم تعرفت عليه، وافتر ثغرها عن ابتسامتها الرقيقة الحزينة، ثم أخرجت من صدر رداؤها كعكة صغيرة من الحلوى، إذ اعتادت أن تحمل معها مثل هذه الكعك، كي تلاطف به البلهاء في بعض الأحيان، عندما تركب مركب العناد على حين غرة، من جراء نزوة شاذة تعترىها، فترفع راية العصيان. مدت بيرلوسوم يدها بهذه الكعكة إلى الأحذب. فأخذ يحملق فيها في بادئ الأمر، وأخيرًا تسلل خارجًا، وأطبق على الكعكة، وحشاها كلها في فمه على الفور. ثم استطاعت عن طريق إغراء الصبي أن تحمله على المجيء والجلوس بجوارها على أريكة خشبية عند الباب. وحين رأت كيف جلس هذا الصبي المسكين مائلاً بجسمه تمامًا، وكيف بدا وجهه هضيماً مرهقاً تحت الحمل الضخم الجاثم على ظهره، وكيف بدت عيناه غاية في العمق والأسى بحيث لم تعرف من أمره أهو رجل أم طفل، سوى أنه على هذا القدر من ضلالة الجسم، حينذاك مدت ذراعها، وأحاطت به جسمه الأعوج، ثم قالت بطريقتها الرقيقة العطوف:

«خبرني يا أخي الصغير أأنت حفيد مولاي أم لا؟ فقد سمعت أن ابن مولاي له ولد مثلك».

عندئذ، نفّض الصبي عنه ذراعها في جفاء، وأومأ برأسه، وتحرك كأنه سيمضي ثانية. بيد أنها لافطته، وأعطته كعكة أخرى، وابتسمت له، ثم قالت:

«إنني أعتقد حقاً أنك تحمل تعبيراً حول فمك. يشبه تعبير مولاي

الراحل الذي يرقد الآن هناك تحت شجرة النخيل تلك. إني أفقده بمرارة حتى لأتمنى لو أنك أتيت هنا كثيرًا، لأنك تحمل بعض سماته».

هذه كانت أول مرة يتحدث فيها أحد إلى الأحب بمثل هذه الكلمات: إنها تتمناه هناك. فإن يكن من أبناء الأثرياء، إلا أنه اعتاد من إخوته أن يدفعوا به جانبًا، واعتاد من الخدم أن يهملوا أمره، وأن يلبوا مطالبه آخر الناس، لأنهم يدركون أن أمه لا تهتم به. والآن أخذ الصبي يحملق في بيربلوسوم بصورة تبعث على الرثاء، وبدأت شفتاه ترتعشان، وفجأة انخرط في البكاء، رغم أنه لم يكن يعي سببًا لبكائه. ثم صاح، والعبرات تنحدر من عينيه:

«أرجو ألا تحمليني على البكاء هكذا، لست أدري لم أبكي هكذا؟».

عندئذ هدأت بيربلوسوم من روعه، وهي تحيط ظهره الأحب بذراعها، فأحس الصبي بأنها أرق لمسة مرت على جسده طوال حياته، برغم أنه لم يكن في وسعه أن يعبر عن هذا الشعور. وهدأت نفسه دون أن يدري لماذا هدأت وكيف هدأت. على أن بيربلوسوم لم تغال في الإشفاق عليه. كلا، بل إنها أخذت تنظر إليه وكأنما ظهره مستقيم قوي شأن غيره من الصبية. منذ ذلك اليوم، اعتاد الأحب أن يأتي كثيرًا إلى البيت المشيد من الطين، إذ لم يكن ثمة من يهتم به أين ذهب أو ماذا فعل. ظل يأتي يوميًا بعد يوم، حتى التصقت روحه ذاتها ببيربلوسوم. وكانت هي أيضًا بارعة في معاملته، فراحت تتظاهر بأنها تعتمد عليه، وأنها في حاجة إلى معونته في العناية بأمر البلهاء. وحيث إن أحدًا لم يسبق له أن تطلع إلى الصبي يوميًا في طلب العون من أي نوع كان، فقد أصبح هادئًا رقيقًا، وتلاشى من

نفسه الكثير من روحه الشريرة، على مر الشهور.

لو لم يكن هذا الصبي، لكان من المحتمل ألا تعلم بيربلوسوم مطلقاً ببيع الأرض. بل إن الصبي لم يدرك أنه قد أفضى إليها بالنبأ، فقد اعتاد أن يحدثها عن كل ما يجول يخاطره ويثرثر معها عن هذا وذاك. فقال لها ذات يوم:

«لي أخ سيصبح جندياً عظيماً. كما أن عمي سيغدو من الجنرالات العظام في يوم من الأيام، وأخي معه يتعلم فنون الحرب. بل إن عمي نفسه سيصبح ملكاً ذات يوم، حينئذ سيصبح أخي كبير ضباطه، فقد سمعت أمي تقول هذا».

حينما ذكر الصبي هذا، كانت بيربلوسوم جالسة على الأريكة الخشبية بجوار الباب وهي تلقي بصرها عبر الحقول، فقالت بصوتها الهادئ:

«أعمك عظيم إلى هذا الحد إذن؟» ثم تريثت برهة، واستطردت قائلة: «لكن، ليت له أن يكن جندياً، لأنه شيء بالغ القسوة أن يكونه».

بيد أن الصبي صاح في شيء من الزهو: «أجل، إنه سيصبح أعظم الجنرالات شأنًا. في اعتقادي أن الجندي، إذا كان بطلاً شجاعاً مغواراً، كان أروع شيء يسحر الخيال يمكن للرجل أن يكونه. كما أننا جميعاً سنصبح من العظماء معه. وفي كل شهر يرسل أبي وعمي الثاني الفضة إلى عمي الجندي، إلى أن يحين الوقت الذي يصير فيه من العظام. ويأتي رجل ضخم مرعب أشرم الشفة، في طلب الفضة، لكننا في يوم من الأيام سنستعيدها كلها ثانية، فقد سمعت أبي يقول

هذا لأمي».

حينما استمعت بيرلوسوم إلى هذا الحديث تطرق إلى ذهنها وميض من الشك الغريب، فراحت تنعم الفكر قليلاً، ثم قالت برفق -وكان الأمر ليس بذئ أهمية- وكأنها تتسائل بدافع الفضول العقيم:

«ومن أين تأتي كل هذه الفضة يا ترى؟ هل يقرضها له عمك الثاني من متجره؟»

فأجابها الصبي في براءة، مزهوًا بمعلوماته:

«كلا، إنهم يبيعون الأرض التي كانت ملكًا لجدي. إنني أرى المزارعين يدخلون إلى البيت كل يوم تقريبًا، ويخرجون صرًا مليئة بالفضة من صدور أرديتهم، ويحلون رباطها، فتظهر الفضة لامعة كالنجوم، عندما تتساقط على النضد في حجرة أبي. لقد رأيته مرارًا، فهم لا يكثرثون إذا وقفت جانبًا، لأنني هين الشأن في نظرهم».

إذ ذاك انتفضت بيرلوسوم واقفة في سرعة خاطفة، حتى إن الغلام الصغير تطلع إليها متعجبًا، لأن من عادتها أن تتحرك في نعومة بالغة. عندئذ كبحت جماح نفسها، وقالت له بطريقة في غاية العذوبة:

«فقد خطر ببالي هذه اللحظة شيء لا بد أن أفعله. فأرجو أن تعني بأمر البلهاء المسكينة بدلًا مني في أثناء غيابي، إذ ليس ثمة من أثق به ثقتي بك».

أحس الصبي بالفخر لقيامه بهذه المهمة نيابة عنها، فغاب عن باله ما ذكره لها، وجلس هناك، يتملكه شعور بالزهو، وهو يمسك في يده

بطرف معطف البلهاء، على حين كانت بيرلوسوم تتأهب للخروج. هكذا كان الصبي جالسًا، وهكذا رآته هي، بعد أن اتشحت بمعطف قاتم اللون، وانطلقت تغذ السير عبر الحقول بأقصى سرعة ممكنة. فقد كان ثمة شيء في هذين المخلوقين التعسسين، حدا بها -حتى في هذه اللحظة- إلى أن تتريث برهة، كي تلتفت خلفها، وتلقي عليهما نظرة، اقتلعت قلبها من صدرها، فتقوست شفتاها في بسمه تفيض بالحنان الحزين، بيد أنها عجلت خطاها، لأنها إذا راحت تتطلع إلى هذين الاثنين بنظرة الحب -ولم تكن تحب أحداً غيرهما الآن- فلا بد وأن ينطفئ ذلك الغضب الذي يستعر في قلبها. ومع أنه كان غضباً يتسم بالهدوء، نظراً لأن غضبها كان دائماً هادئاً، ولم يكن في استطاعتها أن تغضب بأي صورة أخرى، إلا أنه كان أيضاً غضباً صارماً، لم يكن في وضعها معه أن تخلد إلى السكينة حتى تمضي وتعثر على الشقيقين، وتكشف ما فعلاه حقاً بالأرض الطيبة التي آلت إليهما من أبيهما، الأرض التي أوصاهما بالحفاظ عليها من أجل الأجيال القادمة في أسرته.

سارت تحت الخطأ على المدقات الضيقة الممتدة عبر الحقول. وكانت وحيدة، فلم تقع عينها على أحد في هذه الدروب الجانبية المنعزلة، سوى أنه كان يلوح لها هنا وهناك، على مبعده، أشباح بعض الرجال منحنيين على أرضهم، وهم يرتدون ثياب العمل القطنية الزرقاء. حين رأت هؤلاء الرجال، اغرورقت عيناها بالدموع، مثلما حدث مراراً، فقد كانت مقلتاها سخيتين بالدمع في هذه الأيام. ذلك أنها تذكرت كيف اعتاد وانج لانج أن يتجول في هذه الدروب نفسها، وكيف كان كلفاً

بالأرض، حتى إنه كان يتوقف عن المسير أحياناً، ويغترف حفنة من ترابها يقلبها بين أصابعه... تذكرت كيف كان يأبى أن يؤجرها قط لأكثر من عام واحد، لأنه أراد أن يحتفظ بالأرض قي قبضته، وها هم أولاء أبنائه يسلبونه إياها ويبيعونها للآخرين!

فإن يكن وانج لانج قد فارق الحياة، فإنه ظل حياً في مخيلة بيربلوسوم، فروحه في نظرها كانت تحلق دائماً في أرجاء هذه الحقول، وداخلها شعور بأنه سيعلم بالأمر يقيناً، إذا ما بيعت الحقول. أجل، كانت كلما مست وجهها نسمة خفيفة باردة بالليل أو بالنهار، أو دؤم إعصار صغير على طول طريق المركبات، من تلك الأعاصير التي يخشاها الآخرون لأنها تبدو غاية في الغرابة إلى حد الزعم بأنها لا بد وأن تكون أرواحاً عابرة تحلق في الفضاء، كانت بيربلوسوم إذا صفعها مثل هذا الإعصار، ترفع صفحة وجهها باسمه، لاعتقادها أنها قد تكون روح الشيخ الذي كان بمثابة أب لها. بل وأعز إلى قلبها من أبيها الذي باعها إليه.

أسرعت تطوي الأرض، يملكها هذا الشعور بوجود وانج لانج. وامتدت الأرض أمام عينيها بهية مثمرة؛ إذ لم تبتل بالقحط طوال هذه السنوات الخمس، ولن يكون قحط هذا العام أيضاً. امتدت الحقول أمامها خصيبة، تحوطها يد الرعاية، وهي تتماوج بسنابل القمح الفارهة التي ما زالت خضراء لم تبلغ مبلغ الحصاد. مرت الآن بأحد هذه الحقول، وهبت ريح هينة من بين السنابل، موجتها حتى تمايلت، ناعمة في لون الفضة، وكأن يداً قد مستها برفق. فارتسمت بسمه على وجه بيربلوسوم، وساءلت نفسها: أي ريح هذه يا ترى؟ وتمهلت لحظة في

السير إلى الهدف الذي تنشده، حتى غاصت الريح بين سنابل القمح مرة أخرى، وخلفتها ساكنة هادئة.

عندما شارفت المدينة، وبلغت مدخلها حيث يبسط الباعة سلعهم من الفاكهة. حنت رأسها، وظلت تصوب ناظرها إلى الأرض في ثبات، فلم تسم بهما مرة واحدة، لتصافح عيني أحد من الناس. كما أن أحدًا لم يعرها اهتمامًا، لأنها -وهي على هذا القدر من النحول وضآلة الجسم، وليست في ريعان الشباب كما كانت في الماضي، وقد اتشحت كما كانت بردائها القاتم، وخلا وجهها من المساحيق والطلاء- لم تكن بالمرأة التي تتطلع إليها أنظار الرجال أكثر من أي امرأة أخرى. هكذا مضت بيربلوسوم. ولئن تطلع أحد إلى وجهها الساكن الشاحب، لما تخيل أن ثورة عميقة عارمة تستعر في أعماقها، وأنها تمضي في إصرار لتوجيه اللوم المرير، وقد حشدت شجاعته لمواجهة الساعة الحاسمة.

عندما وصلت إلى البوابة الكبيرة لبيت المدينة، مرت من خلالها، دون أن ترفع عقيرتها بالنداء لتعلن قدومها. كان حارس البوابة الهرم جالسًا هناك عند العتبة، منكس الرأس تحت وطأة النعاس، وقد فغر فكيه، فبدت أسنانه الثلاث اليتيمة مبعثرة هنا وهناك في داخل فمه. فأجفل الرجل، عندما مرت به بيربلوسوم، لكنه عرفها، وعاد ينكس رأسه ثانية. وكما دبرت من قبل، مضت إلى بيت وانج الأكبر مباشرة، فبرغم أنها كانت تبغضه من أعماق قلبها، فقد كانت تأمل أن تهز المشاعر في قلبه أكثر من قلب وانج الثاني الذي يستبد به الجشع. هذا فضلًا عن إدراكها أن وانج الأكبر لا يعتمد إلى القسوة إلا في القليل النادر، وأنه -على حماقته-

يحمل أيضًا قلبًا طيبًا يمكن أن يلين في بعض الأحيان، وأنه من الممكن أن يكون عطوفًا ما دام لا يسبب له العطف ما لا يطيق من المتاعب في لحظتها. لكنها كانت تخشى عيني الابن الثاني الضيقتين الباردتين.

دلفت بيربلوسوم إلى الأروقة الأمامية. ورأت إحدى الإماء تتسكع هناك، فتاة مليحة كانت قد تسلفت خارجًا، كي تلفت أنظار شاب من الخدم، وقف ينتظر شيئًا ما في الفناء. قالت بيربلوسوم للأمة بطريقتها المذهبة:

«خبري سيدتك يا بنية أنني قد أتيت لأمر ما، فاسألها هل ترغب في مقابلي؟».

وكانت زوجة وانج الأكبر تبدي شيئًا من الود لبيربلوسوم بعد موت وانج لانج. إنه كان ودًا يفوق إلى حد بعيد ما كانت تبديه نحو لوتس في أي يوم مضى، لأن لوتس كانت بالغة الخشونة سليطة اللسان في كل ما تنفوه به، في حين أن بيربلوسوم لم تكن قط تتحدث بمثل هذا الأسلوب. وقد اعتادت زوجة وانج الأكبر في الآونة الأخيرة عندما كانت تلتقي ببيربلوسوم في بعض المناسبات الرسمية التي تجمع بين أفراد الأسرة، أن تجاملها إلى حد القول:

«برغم كل شيء، فإن التقارب بيني وبينك أكثر منه إلى هؤلاء الآخرين، لأن بصيرتنا أكثر منهم إرهافًا وحساسية».

بل لقد قالت لها: «تعالى وتحديثي إليّ الفينة بعد الفينة عن تلك الأشياء التي يذكرها لك الكهنة والراهبات بشأن الآلهة. فأنا وأنت

الوحيدتان اللتان تتصفان بالتقى والورع في هذا البيت».

قالت لها هذا بعد أن بلغها أن بيرلوسوم تصغي إلى تعاليم راهبات ذلك الدير الذي لا ينأى عن البيت المشيد من الطين. لذلك، طلبت بيرلوسوم أن تقابلها الآن. ولم تلبث الأمة المليحة أن خرجت إليها، وهي تسترق النظر هنا وهناك، لترى أما زال الخادم الشاب واقفاً هناك أم لا، ثم قالت:

«تدعوك سيدتي إلى الدخول والجلوس في البهو الكبير. وسوف تأتي بمجرد أن تفرغ من أداء الصلوات التي نذرت أن تؤديها كل صباح، بعدد حبات المسبحة».

ومن ثم دخلت بيرلوسوم، وجلست على مقعد جانبي في البهو الكبير.

وحدث أن وانج الأكبر استيقظ متأخراً للغاية في ذلك اليوم، لأنه قد ذهب في الليلة السابقة إلى وليمة أقيمت في أحد النزل الفاخرة بالمدينة. كانت وليمة فخمة، تفيض بأجود الخمر، وقد وقفت مغنية حسناء وراء مقعد كل واحد من الضيفين، لتصب له خمره، وتغني له، وتنادمه، وتقوم بأي شيء آخر قد يبتغيه منها الضيف المناط بها خدمته. وقد التهم وانج الأكبر كميات هائلة من الطعام، وتجرع من الخمر أكثر مما يفعل عادة. وكانت فئاته المغنية أملح الصبايا، صغيرة لثغاء، لا تعدو سنهما السابعة عشرة، ومع ذلك، فقد كانت محنكة في دلالتها، حتى لتبدو وكأنها امرأة ألفت الرجال لعشر سنوات أو تزيد. لكن وانج الأكبر كان قد أفرط في الشراب إلى حد أنه لم يتذكر كل ما حدث في الليلة السابقة، حينما

استيقظ هذا الصباح ودلف إلى البهو، وهو يتسّم ويتثّاب ويتمطى، دون أن يلحظ أن أحدًا هناك أمام عينيه. والحق أن عينيه كانتا بطيئتين في رؤية أي شيء هذا الصباح، لأنه كان يتسّم ويمعن الفكر في الفتاة الصغيرة، وكيف دست أصابعها الدقيقة الندية في داخل سترته، وهي تتحسس عنقه لتداعبه حين كان يعابثها. وبينما كان هذا الخاطر يراوده، قال لنفسه إنه سوف يستفسر من صديقه المضيف عن المكان الذي تعيش فيه هذه الفتاة، وعن المشرب الذي تعمل فيه، وإنه سوف يبحث عنها حتى يعثر عليها، ويرى ماذا يكون من أمرها..

راح يتمطى بذراعيه فوق رأسه، وهو يتثّاب بصوت عال، ثم أخذ يضرب على فخذه لتدب فيه اليقظة، ودخل يتسكع في البهو الكبير، لا يرتدي شيئاً سوى ثيابه الداخلية الحريرية، وهو عاري القدمين، وقد دسهما في خفين من الحرير. إذ ذاك، وقعت عينه فجأة على بيربلوسوم. أجل، كانت تقف هناك منتصبة القامة، يخيم عليها الهدوء، فبدت في ردائها الرمادي وكأنها شبح من الأشباح. لكنها كانت ترتعش، لأنها تشمئز أشدّ الاشمئزاز من هذا الرجل. وحين رآها هناك، استبدت به الدهشة، حتى إنه دلى ذراعيه فجأة، وحبس ثأؤبه دون أن يكمله، وأخذ يحملق فيها كي يتحقق منها. وحينما تبين أنها هي حقيقة، سعل في ارتباك، وقال بلهجة مهذبة إلى حد بعيد:

«ألم أكن أعلم أن أحدًا هنا. هل تعرف زوجتي أنك هنا!».

قالت بيربلوسوم، وهي تنحني له إذا تتحدث:

«أجل، لقد أرسلت إحدى الإماء كي تنبئها».

ثم ساورها التردد، وقالت لنفسها: «من الأفضل أن أتحدث إليه الآن، وأفصح عما ينبغي أن أذكره له على حدة». فشرعت في الكلام بسرعة تفوق مألوف عاداتها، وأخذت الكلمات تتدافع من فمها، يحث بعضها بعضًا:

«لكنني أتيت لمقابلة سيدي الأكبر. إني في غاية الأسى، ليس في وسعي أن أصدق الأمر. لقد قال مولاي نفسه، يجب ألا تباع الأرض، وها أنتم أولاء تبيعونها، إني أعلم أنكم تبيعونها!».

وأحست بيرلوسوم بأن وجنتيها تتضرجان وئيدًا بالحمرة، وركبها الغضب على حين غرة، حتى إنها لم تكد تستطيع أن تصد نفسها عن البكاء. وعضت على شفتيها، ثم رفعت عينيها، وتطلعت إلى وانج الأكبر، برغم اشمئزازها منه إلى حد أنها لم تكن تطيق أن تتطلع إليه إلا بشق النفس. ومع أنها كانت تنظر إليه من أجل وانج لانج، لم يسعها إلا أن تلاحظ كيف تبدو عنق هذا الرجل صفراء مترهلة مقرزة من فتحة السترة التي تركها محلولة الأزرار، وكيف يتدلى لحمه مكيسًا تحت عينيها، وكيف تبرز شفتاه مكتنزتين غليظتين شاحبتين. وحينما رأى عينيها مصوبتين إليه في ثبات، داخله الاضطراب، لأنه كان أشد ما يكون خوفًا من غضب النساء، فتحول عنها، متظاهرًا بأنه يجب أن يعقد أزرار سترته بدافع الأدب واللياقة. ثم قال في عجلة، وهو ينظر من وراء كتفه: «

لكنك قد استمعت إلى قصة لا أساس لها.. إنك قد رأيتها في الأحلام!».

عندئذ قالت بيرلوسوم في لهجة أشد عنفًا من أي لهجة سمعها أحد

تحدث بها من قبل:

«كلا، لست بالحالمة. لقد سمعتها من شفتي إنسان يقول الحق!».

وأحجمت عن ذكر المصدر الذي استقت منه القصة، خشية أن يضرب الرجل ابنه الأحذب المسكين، لذا احتفظت باسم الصبي في طي الكتمان، لكنها استطردت قائلة:

«إنني أعجب حقاً من أبناء مولاي الذين يعصون أوامره على هذا النحو. إنني على ضعفني وتفاهة شأني، لا بد أن أتكلم، ولا بد أن أقول لك هذا: «إن مولاي سوف ينتقم لنفسه! إنه ليس نائياً عنا كما تعتقدون، فروحه ما زالت تحلق فوق أرضه. وحين يرى أن الأرض تضيع، سوف تكون لديه سبل الانتقام لنفسه من الأبناء الذين لا يمثلون لأمر أبيهم!».

كانت بيربلوسوم تقول هذا بطريقة في غاية الغرابة، وقد اتسعت عينها وارتسم فيهما تعبير جاد، وكان صوتها الناعم ينطلق هامساً، يبعث على القشعريرة، حتى إن وانج الأكبر غشيه خوف مبهم لم يدرك كنهه. والواقع أنه كان رجلاً سريع الخوف على ضخامة جسمه، فلم يكن في وسع أحد أن يحمله على المضي وحيداً بين المقابر ليلاً، فضلاً عن أنه كان يؤمن في قرارة نفسه بالقصص العديدة التي تُروى عن الأرواح. كان يؤمن بها فعلاً في قرارة نفسه، مع أنه كان يتكلف الضحك منها عالياً. ومن ثم، فعندما تحدثت إليه بيربلوسوم هكذا، سارع بالقول:

«لم نبع من الأرض سوى القليل. القليل فقط مما يخص أخي الأصغر. إنه في حاجة إلى الفضة، فالجندي لا يمكن أن يرغب في امتلاك

الأرض. وأعدك بأنه لن يباع المزيد منها».

لدى هذا القول، فتحت بيربلوسوم فمها لتتكلم، لكن قبل أن ينطلق صوتها، دخلت زوجة وانج الأكبر. وكانت شجنى هذا الصباح، حانقة على زوجها، لأنها قد سمعت صوته، حين دخل ثملاً، يتحدث عن فتاة أو أخرى كان قد قابلها. وما إن وقع بصرها عليه الآن حتى ألقت عليه نظرة ازدراء، فسارع بالابتسام، والإيماء برأسه في غير مبالاة، كأن شيئاً لم يحدث. ومع ذلك فقد راح يرقبها خفية، واغتنط في قرارة نفسه بوجود بيربلوسوم، لأن زوجته كانت من الكبرياء بحيث لا يمكنها أن تفصح عما يعتمل في ذهنها ما لم يكن بمفرده. لذا، انطلق في الكلام، مثيراً الكثير من الجلبة، وهو يتحسس وعاء الشاي الموضوع على النضد، ليرى هل هو ساخن أم لا. قال:

«آه، ها هي ذي أم أبنائي. هل هذا الشاي ساخن بما فيه الكفاية بالنسبة إليك؟ لم أتناول طعامي بعد، فقد كنت لتوي في طريقي إلى المشرب كي ارتشف جرعة من الشاي هناك. سوف أمضي في سبيلي، كيلاً أضيّقكما، حسناً، إني أعلم أن السيدات لديهن ما يقلنه فيما بينهن، ما لا ينبغي أن نستمع إليه نحن الرجال» وانحنى لهما، وهو يصطنع ضحكة زائفة جوفاء، يعتربه القلق والارتباك تحت وطأة صمت زوجته المتعالية، ونظراتها الجامدة التي تصوبها إليه. ثم سارع بالخروج في خطى متعجلة للغاية حتى إن لحمه كان يترجرج عليه.

طوال وجوده في البهو هناك، لم تنبس السيدة بشيء على الإطلاق. بل اتخذت لها مقعداً، وشدت ظهرها تماماً، مبتعدة عن ظهر المقعد، إذ

لم يكن من عاداتها أن تتكىء قط إلى الخلف، وراحت تنتظر أن يمضي من المكان. والواقع أنها بدت فعلاً سيدة تبلغ حد الكمال، فقد كانت ترتدي معطفًا من الأطلس الأملس، يتفاوت لونه بين الأزرق والرمادي، وكان شعرها ممشوطاً ومعقوصاً ومدهوناً بالزيت، هذا برغم أن الوقت لم يكد ينحدر إلى منتصف النهار، في تلك الساعة التي لا تفعل فيها غالبية السيدات شيئاً أكثر من أن يتقلبن في مضاجعهن، ويمددن أيديهن لتناول أول رشفة من الشاي.

وعندما رأت أن زوجها قد انصرف، ندت عنها تنهيدة، وقالت في وقار:

«لا يدري أحد حقيقة حياتي مع ذلك الرجل. لقد وهبته شبابي وجمالي دون أن أتذمر قط، مهما تحتم عليّ أن أتحمل منه كثيراً، حتى بعد أن أنجبت ثلاثة من الأبناء، وحتى بعد أن ذهب واتخذ لنفسه محظية سوقية من بنات العامة، فتاة كان من الممكن أن أكرّيتها خادمة لي. كلا، بل احتملت منه كل ما فعله، برغم أنني لم أعتد مطلقاً مثل هذه الأساليب الوضيعة التي ينتهجها».

وصعدت زفرة حارة، فأحست بيرلوسوم أنها حزينه حقاً رغم كل ادعائها، فقالت لتسري عنها:

«حسنًا، إننا نعلم جميعاً كم أنت زوجة فاضلة. ولقد سمعت الراهبات يذكرن أنك أسرع في استيعاب شعائر الدين الكريمة من أي أخت علمانية قمن بتعليمها».

فصاحت السيدة في غبطة بالغة:

«أَيَقْلَن هَذَا؟» وانطلقت في الحديث عن الصلوات التي ترددها، وعدد مراتها كل يوم، وكيف أنها في يوم من الأيام ستقطع على نفسها عهدًا بالآلا تتذوق اللحم على الإطلاق، وكيف أنه ينبغي لنا جميعًا نحن البشر الفانين أن نفكر تفكيرًا جادًا خطيرًا في المستقبل، ما دام لا يوجد سوى النعيم والجحيم مكانًا تركن إليه جميع الأرواح كي تنعم بالراحة الأبدية، ريثما تبدأ ثانية دورة الحياة المريرة، فيلقى أهل الخير جزاءهم، وأهل الشر جزاءهم كذلك.

هكذا ظلت تثرثر، في حين أن بيربلوسوم لم تكن تصغي إليها إلا بنصف شعورها، وبالنصف الآخر راحت تسائل نفسها في كآبة: أمن الممكن أن تصدق ما قاله الرجل عندما بذل لها الوعد بالآلا يبيع مزيدًا من الأرض. كان من العسير عليها أن تؤمن بأن من المحتمل أن يكون صادقًا. وعلى حين فجأة شعرت أنها منهكة، فاغتنمت لحظة صمت توقفت فيها السيدة عن الحديث، لترتشف الشاي، ونهضت قائلة في رقة:

«لست أدري، يا سيدتي، مدى ما يُطلعك عليه زوجك من أموره الخاصة. لكن، إذا كان في استطاعتك أن تذكره بين الفينة والفينة بأن آخر ما أوصى به أبوه هو ألا تباع الأرض، فإني أتوسل إليك أن تفعل ذلك. لقد كد مولاي وكدح طوال حياته كي يجمع هذه الضياع، حتى تستقر عشرات الأجيال من سلالته على دعامة راسخة. ويقينًا أنه لأمر سيئ أن تباع الآن في هذا الجيل. إني ألتمس منك العون يا سيدتي».

ولم تكن هذه السيدة تعلم في الواقع مقدار ما يبيع من الأرض، لكنها

أرادت أن تتظاهر أن ليس ثمة شيء تجهله، ومن ثم قالت في ثقة كبيرة:
«ليس هناك ما يدعو للخوف، لأنني لن أدع زوجي يقدم على أي عمل شائن. ولئن بيع بعض الأرض، فهي ليست سوى القطع النائية التي تخص الأخ الثالث؛ إذ إنه يدبر بعض الخطط ليصبح جنرالاً ويرفع من شأننا جميعاً، وهو يحتاج إلى الفضة أكثر من حاجته إلى الأرض».

حينما سمعت بيرلوسوم نفس الكلام يردد على مسامعها مرة أخرى، داخلها شيء من الطمأنينة، واعتقدت أنه لا بد وأن يكون صدقاً، ما دام قد ذكر ثانية على هذا النحو، فاستأذنت من السيدة، وقد هدأ روعها قليلاً. وانحنت لها، ونطقت بعبارات الوداع، بطريقتها الناعمة الهادئة، وهي تقدم لها شتى فروض الاحترام، حتى تركتها قريبة العين، راضية تماماً عن نفسها. وارتدت بيرلوسوم إلى البيت المشيد من الطين.

أما وانج الأكبر، فقد قابل أخاه في مشرب الشاي الذي ذهب إليه. كان وانج الثاني هناك، يتناول وجبة الظهيرة، فتهالك الأكبر بعنف على مقعد بجوار النضد الذي كان أخوه جالساً إليه بمفرده، وقال له في كدر:
«يلوح لي أن الرجال لا يمكنهم أبداً أن يسلموا من مشاكسة النساء. وكأنما ليس لدي ما يكفيني من هذا في بيتي، حتى تأتي إليّ امرأة أبينا تلك، لتقول لي إنها تسمع شائعات عن بيع الأرض، وترفع عقيرتها بالصياح كي تحصل مني على وعد بأن الأرض لن تباع!».

إذ ذاك، تطلع وانج الثاني إلى أخيه، وتجدد وجهه الهضيم الناعم، فارتسمت عليه ابتسامته الباهتة، ثم قال:

«ماذا يهملك مما تقوله مثل هذه المرأة؟ دعها تفل ما تشاء! إنها أهون الناس شأنًا في بيت أبي، وليس لها سلطة من أي نوع. لا تأبه بها. ولئن ذكرت لك موضوع الأرض، تحدث إليها في أي شيء ما عدا الأرض. نوه إلى هذا وذاك من الأمور، لكن دعها تحس أنك لا تعيرها أدنى اهتمام، إذ ليس في قدرتها أن تفعل شيئًا. جدير بها أن تغتبط بأنها تحصل على نفقات طعامها كل شهر، ويسمح لها بأن تمكث في ذلك البيت».

في هذه اللحظة أقبل النادل يحمل قائمة الحساب، فألقى وانج الثاني عليها نظرة حادة، وجمع الأرقام في ذهنه، فوجدها صحيحة. حينئذ، أخرج من جيبه بضع قطع من العملة، بالقدر المطلوب، ودفع النقود في بطة، وكأنه يعترض على أن الحساب لم يكن خاطئًا بصورة ما، ثم انحنى انحناء قصيرة لأخيه، ومضى خارجًا. ومكث وانج الأكبر بمفرده.

وبرغم ما قاله أخوه، فقد أحس ببعض الكآبة تشاركه في جلسته، وراح يسائل نفسه في شيء من الرهبة عما كانت بيرلوسوم تعنيه عندما قالت إن الرجل العجوز ليس نائيًا، وإن يكن قد فارق الحياة. وبينما هو يمعن في التفكير، خامره إحساس حاد بالقلق، حتى إنه في نهاية الأمر نادى النادل، وأمره بأن يحضر صحيفة لذينة فاخرة من الكابوريا، كي يسري بها عن نفسه، وتتيح له أن ينسى ما يكدره.



مرتين وثلاثًا بعث وانج النمر بتابعه الأمين الأشرم إلى أخويه،
ومرتين وثلاثًا عاد الرجل بالفضة إلى ضابطه، كان يحملها على ظهره،
محزومة في قطعة من القماش الأزرق، كما لو كانت بعض متعلقات رثة
خاصة به. وكان يرتدي سترة وسراويل خشنة المظهر زرقاء اللون، يمضي
عاري القدمين إلا من نعلين غليظتين من القش. وما كان أحد من المارة
في الطريق، حين يرى هذا الرجل يجر قدميه بعناء في التراب وحمله في
صرّة على ظهره، ليتخيل أنه يحمل فيها قطعًا من الفضة، أو أن الرجل لا
يعدو أن يكون مجرد واحد من الطغام. وبالرغم من ذلك، فلو أن أحدًا عنّ
له أن يتأمله عن كثب، لتبين أن الرجل يتفصد منه العرق بصورة غريبة،
تحت وطأة مثل هذا الحمل الصغير الذي يحمله. على أن أحدًا لم يتأمله
عن كثب إلى هذا الحد، ما دام يرتدي مثل هذه الثياب الرثة، يبدو وجهه
فضًا سوقيًا مثل عشرات الوجوه التي تقع عليها العين في أثناء اليوم، سوى
أنه كان أشرم الشفة. ولئن تفرس فيه أحد من الناس هنيهة، ما كان ذلك إلا
ليعجب من منظر شفته البشعة تلك، وسنيه الناتئتين في أسفل أنفه.

على هذا النحو، كان التابع الأمين يحضر الفضة في أمان إلى ضابطه. وعندما تجمع لوانج النمر منها -دفيئاً تحت خيمته- ما يكفيه لمدة ثلاثة أشهر، ريثما يتمكن من توطيد أقدامه، حدد يوم الانطلاق لحسابه الخاص. وأعطى إشارته السرية، فسرت كلمة السر بين أولئك الرجال الذين أبدوا استعدادهم للمضي معه. وفي يوم بعينه، بعد حصاد الأرز، وقبل أن يهبط البرد قادماً من الشمال، في ليلة معينة، اختفى فيها وجه القمر حتى بزوغ الفجر، بل إنه لم يكن عند الفجر سوى شيء شائن يتعلق معوجاً في كبد السماء، تسلل هؤلاء الرجال كل من فراشه الذي ينام فيه، وخلفوا وراءهم علم الجنرال الهرم الذي كانوا يعملون تحت إمرته.

هكذا، في تلك الليلة الظلماء، زحفت خارجاً جماعة قوامها مائة من الرجال. فنهض كل منهم في صمت مطبق، وطوى ملحفته، ثم ربطها فوق ظهره، وتقلد بندقيته إن كانت لديه بندقية، واستولى على بندقية جاره أيضاً، إذا تسنى له أن يفعل ذلك، دون أن يوقظ صاحبها، برغم أن هذا لم يكن بالأمر الهين، إذ جرى العرف بين الجنود أن ينام كل رجل، وقد وضع بندقيته تحت جسده، بطريقة تجعله يهب من نومه، لو أن أحداً تحرك ليسلبها منه، ومن ثم يستطيع أن يصيح في طلب الغوث. ومرد هذا أن البندقية كانت شيئاً بالغ القيمة، لا يمكن بيعه إلا لقاء الوفير من الفضة. وفي بعض الأحيان، كان الجنود يسرقون البنادق لبيعها، إذا لحقت بهم خسارة جسيمة في لعب الميسر، أو إذا لم يتقاضوا رواتبهم شهوراً عديدة، حينما لا تكون ثمة حرب مستعرة الأوار، ولا يكون ثمة سلب ونهب، وبالتالي لا تدخل جيوبهم الفضة. أجل، بل إنه كان أمراً يبعث على الأسى أن يفقد

أحد الجنود بندقيته، لأن البنادق تشتري من أقطار خارجية قصية للغاية. في هذه الليلة استولى الرجال الذين تسللوا خارجًا، على ما وسعهم من البنادق، بيد أن كل ما حصلوا عليه لم يعد نحوًا من عشرين بندقية علاوة على بنادقهم الخاصة، إذ كان الجنود جميعًا يتذرعون بالحذر البالغ حين نومهم. ومهما يكن من أمر، فعشرون بندقية كانت عددًا طيبًا، يمكنهم به أن يزدوا عددهم عشرين رجلًا.

كان جميع هؤلاء الجنود المائة من أبسل الرجال وخيرة المقاتلين تحت لواء الجنرال الهرم. فمن بين شبيبة جنوده كان هؤلاء أشدهم شجاعة وجسارة، وأعتاهم قلبًا، وأكثرهم مرانة. كان بضعة أفراد قلائل منهم ينتمون إلى الجنوب، أما الغالبية الساحقة، فتتحد من الأقاليم الداخلية الوحشية، حيث يتسم الرجال بالجرأة، والتمرد على القانون، وعدم الخوف من نشر الموت. مثل هؤلاء الرجال من السهل أن يبهروا أكثر من غيرهم، بنظرات «وانج النمر» المتشامخة، وبقوامه الممشوق الفاره، كما استولى عليهم الإعجاب بفترات صمته، ونوبات غضبه المباغطة، وشراسة طبعه. وزاد من إعجابهم به أنه لم يكن الآن ثمة شيء يقدسونه في الجنرال العجوز المترهل الذي أصبح من البدانة بحيث لم يعد يستطيع حتى أن يمتطي صهوة جواده، ما لم يرفعه اثنان من الرجال، ويدفعان بساقيه فوق السرج. أجل، لم يعد ثمة ما يلهب مشاعر الشباب في رجل مثله، ومن ثم كانوا على استعداد للتخلي عنه، والمضي وراء بطل جديد.

في هدأة تلك الليلة نهض كل واحد من هؤلاء الرجال، عندما تلقى

إشارة البدء، وحمل بندقيته، مصطحبًا جواده إذا كان يملك جوادًا. وكانت الإشارة هي أن يهب الرجل على الفور عندما يحس بثلاث طرقات هينة على خده الأيمن، ثم يشد حزامه ومعه ذخيره، ويتقلد بندقيته، ويمتطي جواده، أو يسير على الأقدام إذا لم يكن لديه جواد، متجهًا إلى بقعة معينة في واد قليل الغور يقع عند ذروة أحد الجبال، على مبعدة خمسة أميال. كان هناك معبد عتيق، هجره أهله عدا ناسك طاعن في السن، ذاهل العقل، يعيش بين الأطلال. سيظلهم هذا المأوى على حقارته، ريثما يتمكن «وانج النمر» من أن يشكل منهم جيشًا، ثم يقودهم زاحفًا إلى المنطقة التي يقع اختياره عليها.

وكان «وانج النمر» قد أعد لكل شيء عدته هناك. فقبل الزحف بأيام، أرسل التابع الأمين وابن أخيه المجذور، يحملان خمورًا عبثًا في دنان المعبد، كما كان معهما بعض الخنازير الحية والدجاج، وثلاثة من الثيران السمينة، حبساها في صومعة خاوية، كان أحد الكهنة يعيش فيها يومًا. لقد ابتاع وانج النمر هذه الحيوانات من الفلاحين في تلك الأنحاء، ولما كان رجلًا شريفًا، فقد دفع ثمن كل ما اشتراه وأبى أن يأخذ ما يملكه الفقراء دون مقابل كما يفعل بعض الجنود. كلا، بل أمر رجله الأمين أن يدفع قرابة القيمة الكاملة، ثم سيقط الحيوانات إلى أعلى الجبل، حتى بلغت ذلك المعبد، حيث مكث الغلام المجذور للسهر عليها.

كما ابتاع التابع الأمين أيضًا ثلاثة مراحل ضخمة من الحديد، حملها على رأسه واحدًا واحدًا إلى ذروة الجبل، ثم ثبتها على أفران صغيرة أقامها من قوالب الطوب العتيقة المتخلفة من المعبد المهدم. على أنه

لم يشتر شيئاً أكثر من ذلك، لأن وانج النمر كان يزمع المضي سريعاً من هذا المكان، متجهاً بأقصى سرعة ممكنة إلى معقل حصين في الشمال، حيث يصبح بمأمن من الجنرال الهرم. بل إنه لم يكن يريد أن يقترب من العاصمة الشمالية، خشية أن يضطر إلى الالتحام - قبل الأوان - مع جنود الدولة الذين كانوا ينطلقون في بعض الأحيان لمناهضة ملوك الحرب الذين كان وانج النمر يضمّر أن يكون واحداً منهم. وبالرغم من ذلك، لم يكن يهاب كثيراً أيّاً من هذين الخطرين، ذلك أن غضب الجنرال الهرم كان قصير المدى في هذه الأيام، أما فيما يتعلق بالدولة، فقد كانت تجتاز حقبة انقرضت فيها إحدى الأسرات الملكية، ولم تظهر بعد أسرة جديدة لتحل محلها، لذا دب الضعف في كيان الدولة، وازدهرت دولة اللصوص، في حين راح ملوك الحرب يناضلون جميعاً كي يتبوأوا مكان الصدارة، ولم يكن ثمة ما يكبح جماحهم.

في تلك الليلة المدلهمة، مضى وانج النمر إلى ذلك المعبد، واصطحب معه الغلام الشاحب ابن وانج الأكبر. وكان مما يحير الرجل في كثير من الأحيان، أن يعرف ماذا سيفعل بهذا الفتى الذليل الرعيد. فقد طرب الفتى المجدور لهذه المغامرة، وانطلق في مرح للقيام بما أمر به، في حين أن هذا الآخر توارى بعيداً عن الأنظار، وعندما أمره وانج النمر في صوت كالزئير أن يتبعه، تسلل راعشاً في أعقابه، وحين سلط عمه عليه ضوء شعلته المتوهجة، تبين أنه غارق في بحر من العرق، فصرخ فيه بازدراء:

«كيف تتصبب عرقاً، في حين أنك لا تفعل شيئاً؟».

لكنه لم يترث ليستمع إلى الرد، إن كان ثمة رد، بل تقدم في خطى فسيحة، يشق ظلام الليل، تتبعه خطا الغلام المتعثرة.

وهناك، عند الممر المؤدي إلى المعبد المهدم فوق قمة الجبل، استقر وانج النمر على إحدى الصخور، وأرسل الغلام إلى داخل المعبد للمساعدة على إعداد الطعام. لبث هناك وحيدًا يترقب، ليرى من سيقبل في تلك الليلة، للانضواء تحت لوائه، من بين الرجال الذين بذلوا له الوعد. ثم أقبل الرجال، أزواجًا وفرادى، وفي ثمانيات وعشرات. فكان وانج النمر يتهلل لرؤية كل واحد منهم، ويهتف منادياً إياه:

«مرحى، هأنذا قد أتيت!» ويصيح أيضاً: «مرحى أيها الرفاق الطيبون الشرفاء!».

وكان كلما سمع وقع خطوات القادمين للانضمام إليه، وهم يرتقون الدرجات الحجرية المهدامة في طريق المعبد، يرفع الشعلة الخائية التي يحملها في يده، وينفخ فيها ليحيي جذوتها، ثم يلقي ضوءها على صفحات الوجوه، ويتهلل حين يرى بين القادمين هذا أو ذاك من الرجال الأشداء الذي يعرفهم. على هذا النحو التأم شمل المائة، ثم قام وانج النمر بإحصاء عددهم. وبعد أن قدم كل من كان يتوقع مجيئهم، أمر بذبح الثيران والدجاج والخنازير، فعكف الرجال على هذه المهمة في حماسة، لأنهم لم يتذوقوا اللحم الشهى في عديد من أيام حياتهم. أشعل بعضهم الأفران، حتى زارت ألسنة النيران، وأتى البعض الآخر بالماء من جدول في الجبل يتدفق على مقربة، وذبح الآخرون الحيوانات وسلخوا جلودها وقطعوها إربًا. أما الدجاج، فبعد أن نزعوا ريشه، علقوه على سفافيد

من الخشب الأخضر، هي أغصان متفرعة قطعها الرجال بالفؤوس من الأشجار المحيطة بالمعبد، ثم قاموا بشي هذا الدجاج كاملاً على لهيب النيران.

وعندما أصبح كل شيء معداً، بسطوا السماط في الشرفة الحجرية الواقعة أمام المعبد، وهي شرفة خربة، تشق فيها الأعشاب طريقها بين الأحجار العتيقة، فتفسحها بعضها عن بعض. وفي وسط الشرفة، يجثم قمقم ضخم من الحديد، أكثر ارتفاعاً من قامة الرجل، لكنه كان أيضاً يتداعى تدريجياً من شدة القدم، فيستحيل إلى تراب أحمر اللون. حينذاك كان قد تنفس الصباح، وأخذت أشعة الشمس الوليدة تنساب على الرجال، الذين كانوا يتضورون جوعاً من أثر هواء الجبل الندي القارس، فاحتشدوا كلهم ضاحكين متلهفين حول الطعام الذي تتصاعد منه الأبخرة، وأكلوا جميعاً ملء بطونهم، يشيع الفرح بين صفوفهم، إذ بدا للجميع أنهم يبدأون عهداً جديداً أفضل، تحت لواء هذا القائد الجديد، فهو شاب يتسم بالبسالة، سيمضي بهم إلى أرض جديدة، حيث يجدون الطعام والنساء وكل الرغد الذي يحتاج إليه رجل يفيض بالعافية.

لما أشبعوا لهفة الجوع الأولى، وقبل أن ينكبوا على الطعام مرة أخرى، فضوا الأختام الفخارية لدنان الخمر، وأترع كل رجل طاسه بالخمر. وأخذوا يشربون ويتضحكون ويهتفون ويصيحون بعضهم في بعض أن يشربوا نخب هذا أو ذاك، وكانت غالبية الأنخاب تحية لقائدهم الجديد.

ومن ظلال دغل من أشجار الخيزران، كان الناسك الذاهل المسكين

يرقبهم وقد طار لبه من شدة الدهشة، فراح يتمتم بينه وبين نفسه، إذ وقع في روعه أنهم زمرة من الشياطين. وجعل يحملق فيهم مليًا، ليتبينهم وهم يأكلون ويشربون بهذه القوة الفياضة، فسأل اللعاب من فمه حين رآهم يمزقون إربًا تلك اللحوم التي يتصاعد منها البخار، لكنه لم يتجاسر على الخروج من مكمنه، لأنه لم يكن يدري أي شياطين تلك التي أتت هكذا على حين غرة إلى الوادي الذي لم يسكنه أحد سواه مدى ثلاثين عامًا، عاشها بمفرده، يرعى قطعة صغيرة من الأرض ليقيم منها أوده. وبينما هو يحملق فيهم، حدث أن أحد الجنود، وقد امتلأ بالطعام، وتحدرت حواسه من أثر الخمر، أطاح بعيدًا بعظمة كان يلوكها من فخذ أحد الثيران، فسقطت عند حافة الدغل. إذ ذاك، مد الناسك يده الواهنة، وأطبقها على العظمة، ثم سحبها في صمت إلى داخل الظلال، ورفعها إلى فمه، وأخذ يمصها ويقرضها، وبدنه يرتعش بصورة غريبة، لأنه لم يتذوق اللحم طوال هذه السنوات، حتى لقد نسي نكهته ولذة مذاقه. لم يتمالك نفسه من أن يمص العظمة ويقرضها، برغم أنه كان يفعل هذا وهو يئن من أعماقه، لإدراكه - من خلال كل ذلوله - أنه يقارف الخطيئة.

وبعد أن التهم الرجال ما وسعهم من الطعام، وبعثروا الفضلات في أرجاء الفناء، هب «وانج النمر» واقفًا في حركة حادة خاطفة، ثم وثب معتليًا ظهر سلحفاة عتيقة هائلة الحجم، قدت من الحجر، تجثم إلى جانب الشرفة مرتفعة قليلًا عنها، عند قاعدة شجرة شامخة معمرة من أشجار العرعر. كانت هذه السلحفاة تميز يومًا ضريحًا ذائع الصيت، وقد حملت على ظهرها في سالف الأيام لوحة حجرية عالية، تعدد

مناقب الميت صاحب الضريح، لكن الشجرة - في أثناء نموها الذي لا يقهر - دفعت هذه اللوحة جانباً، حتى إنها سقطت في نهاية الأمر، وكانت الآن ملقاة على الأرض، وقد شجت، وانطمست حروفها بفعل الرياح والأمطار، في حين أن الشجرة استمرت في النماء.

قفز وانج النمر فوق هذه السلحفاة، ووقف يطل على جميع رجاله من علي. انتصب متشامخاً، ويده على مقبض سيفه، وقد دفع بإحدى قدميه إلى الأمام، فاستقرت على رأس السلحفاة. راح يتطلع إليهم من عليائه، وقد قطب حاجبيه السوداوين في حين كانت عيناه تومضان في نظرة ثاقبة. وبينما هو يتطلع إلى هؤلاء الرجال، رجاله، أخذ قلبه يتضخم ويتضخم، حتى أحس وكأنما سينفجر به جسده، وتحدث إلى نفسه قائلاً:

«هؤلاء هم رجالي أنا - أقسموا أن يتبعوني - لقد حانت ساعتي». ثم صاح بصوت مسموع، وصوته المتكبر يجلبجل في أرجاء الغابات التي يلفها الصمت، وتدوي أصداؤه في أروقة المعبد المهدمة، قائلاً:

«أيها الإخوة الطيبون! هاأنا، رجل متواضع مثلكم. كان أبي يفلح الأرض، وأنا نابع من الأرض، لكن قيض لي مصير خارج نطاق فلاحة الحقول، فهربت من موطني وأنا بعد في حدثي، وانضمت إلى جنود الثورة تحت لواء الجنرال الهرم.

أيها الإخوة الطيبون!... كنت في مبدأ الأمر أحلم بخوض حروب باسم النبل والشرف، نشنها لمناهضة حاكم فاسد، فهذا ما كان الجنرال العجوز يردده عن حروبه. لكن لواء النصر عقد له في سهولة بالغة، فصار إلى الحال التي نعرفها عنه، لذا لم يعد بوسعي أن أستمري في العمل تحت

إمرة مثل هذا الرجل. والآن، عندما تبينت أن الثورة التي تزعمها لم تؤت الثمار التي كنت أحلم بها، وتبينت أيضًا أننا نعيش في عصر ينخر فيه الفساد، وأن كل رجل يناضل من أجل ذاته، حينئذٍ واتتني الفكرة أنه قد كتب لي في لوح القدر أن أوجه النداء إلى جميع الرفاق الطيبين الذين يستبد بهم القلق، ويعملون بلا مقابل تحت لواء الجنرال العجوز، وأن أنطلق بهؤلاء الرجال قدمًا، كي نشق لأنفسنا طريقًا إلى مكان يصبح ملكًا لنا متحررًا من الفساد. ولست بحاجة إلى أن أقول لكم إنه لا يوجد حكام يتمسكون بأهداب الشرف، فالناس يجأرون تحت وطأة ما يعانون من مظاهر القسوة والاضطهاد، على أيدي أولئك الذين كان يجدر بهم أن يعاملوهم معاملة الآباء للأبناء. كان هذا هو الحال منذ الأزمنة القديمة، التي ترجع إلى خمسمائة من السنين، عندما كان الرفاق البواسل الطيبون يتحدثون معًا لينزلوا العقاب بالأغنياء، ويكفلون الحماية للفقراء. هذا ما سنفعله نحن كذلك! إنني أدعوكم، أيها الرفاق الطيبون البواسل أن تتبعوني أينما يممّت وجهي! فلنقسم على أن نعيش أو نموت معًا!«.

هنالك وقف منتصبًا، يصيح بهذه الكلمات، في صوته الهائل العميق، وكانت عيناه تبرقان وتطلقان الشرر هنا وهناك صوب الرجال الجالسين القرفصاء على الأحجار أمامه، وتارة يقطب حاجبه، وتارة أخرى يقفز حاجباه إلى أعلى وكأنهما ألوية مبسوطة، فيضيء التعبير المرتسم على وجهه ويتغير من لحظة إلى أخرى. وبعد أن فرغ من حديثه، وثب الرجال جميعًا واقفين على أقدامهم، وانطلقت من حناجرهم صيحة عاتية:

«نحن نقسم! إنا لقائدنا ألف ألف سنة!».

ثم صاح رجل، يجنح إلى المجنون والهذر أكثر من الآخرين، قائلاً
في صوت عال رفيع:

«بالله عليّ، إنه ليشبه نمراً أسود الحاجبين، بالله عليّ!».

هكذا كان وانج النمر يبدو فعلاً، فقد كان ممشوقاً فاره القامة، يتحرك
في خفة ونعومة، يضيق وجهه عند الذقن، ويتسع بين عظام الخدين،
وكانت له جبهة عريضة للغاية، وعينان ضاريتان يقظتان براقتان، يرتسم
فوقهما حاجبان طويلان سوداوان، ينسدلان إلى أسفل، فيظللان عينيه،
حتى إنه كان حين يقطبهما، تلوح عيناه وكأنهما تتلصصان وتومضان
بالبريق من داخل أحد الكهوف، وحين يرفعهما إلى أعلى، تبدوان
وكأنهما تنبثقان من تحت الحاجبين، وتنسبط أساريه فجأة كما لو كان
نمراً يثب منقضاً.

إذ ذاك، ضحك الرجال جميعاً في شراسة، ورددوا الصيحة، هاتفين:

«مرحى، النمر، النمر الأسود الحاجبين!».

أما الناسك الذاهل المسكين، فلم يدرك كنه كل هذا الهتاف عن
النمور، الذي يدوي في أرجاء الوادي. والواقع أن بعض النمور كانت
تهيم في هذه التلال، وتبعث في قلبه أشد الرعب. لذا، فإنه الآن، عندما
تطرقت إلى مسامعه هذه الصيحات الهائلة، تلفت حوله هنا وهناك في
أنحاء الدغل الذي يكمن فيه، ثم ركض مسرعاً واختبأ داخل حجراته
الصغيرة الحقيرة التي كان ينام فيها، في الجانب الخلفي من المعبد،
وأحكم الرتاج البدائي وراء الباب، ثم تسلل إلى فراشه، وشد عليه ملحفته

البالية الممزقة حتى قمة رأسه، ورقد هناك راعشاً باكياً، يتمنى لو أنه لم يذق طعم اللحم.

كان وانج النمر يتصف بكل ما يتصف به النمر من حذر، فأدرك أن مغامرته لم تكد تتجاوز مرحلة البداية، وأنه يجب أن يتدبر ملياً ما ينتظره في الطريق إلى الأمام. ترك الرجال يستسلمون للكرى فترة من الزمن، حتى يتلاشى أثر الخمر التي تجرعوها، وتتصاعد أبخرتها من رؤوسهم. وفي أثناء نومهم، دعا إليه ثلاثة من رجاله يعهد فيهم الحذق والدهاء، وطلب إليهم أن يتخفوا. أمر أحدهم أن يتجرد من كل لباسه، ما عدا سراويله الداخلية البالية، وأن يلطخ نفسه بالطين والقذارة شأن المتسولين، وأن يمضي مستجدياً في القرى القريبة من المدينة التي يعسكر فيها الجنرال العجوز، وعليه أن يصغي بأذنيه ويرقب بعينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليكتشف هل يعد الجنرال عدته لمطاردتهم أم لا؟ كما طلب إلى الاثنين الآخرين أن يذهبا إلى إحدى المدن التي تقام فيها الأسواق، وأن يبتاعا ثياب فلاح وسلاله ومدراته من أحد المراهن، وأن يبتاعا أيضاً بعض نتاج الحقول، ويحملاه إلى قلب المدينة، ثم يتسكعا هناك، كي يتبيننا حديث الناس، أيتحدث أحد عما حدث، وما يحتمل أن يحدث الآن بعد أن هرب من الجنرال العجوز خيرة رجاله. وفضلاً عن ذلك، أقام وانج النمر تابعه الأمين الأشرم للمراقبة عند المدخل المؤدي إلى الممر الجبلي، كي يجوس بعينه الحادثين أنحاء الريف، حتى إذا لمح في أي مكان تحركات تزيد في عددها عن بضعة رجال معدودين، فعليه حينذاك أن يهرع دون توان، كي ينقل النبأ إلى قائده.

بعد أن فرغ من هذا، وانطلق هؤلاء الرجال إلى مهامهم، ونام الآخرون حتى تلاشى منهم أثر الخمر، قام وانج النمر بإحصاء كل ما يمتلك، وسجل بالفرشاة على الورق عدد رجاله وعدد بنادقه وكمية الذخيرة ونوع ثياب الرجال وحالة أحذيتهم، هل هي تصلح للقيام بزحف طويل المدى أم لا. ثم أمر رجاله بأن يصطفوا، ويمروا من أمامه، وأخذ يتفحص كلا منهم عن كشب، فوجد أن لديه -دون أن يدخل الغلامين في حسابه- مائة وثمانية من الرجال الأشداء الأصحاء، ليس بينهم طاعن في السن، وفيما عدا أفراد قلائل، لم يكن بينهم مريض بعلقة تتجاوز التهاب العينين، أو الحكة أو ما شابه ذلك من العلل البسيطة التي يمكن أن تصيب جسم الإنسان، مما لا يمكن اعتباره أمراضًا بمعنى الكلمة. وبينما كان رجاله يمرون وثيّدًا من أمامه على هذا النحو، راحوا يفرغون أفواههم مشدوهين وهم يحملقون في العلامات التي يخطها على الورق؛ إذ لم يكن فيهم من يعرف القراءة والكتابة سوى عدد هزيل لا يعدو اثنين أو ثلاثة. وازدادت رهبتهم من وانج النمر عن ذي قبل، فهو إلى جانب مهارته في فنون الحرب، كان يمتلك هذه الحكمة كذلك، وهي أنه يستطيع أن يخط بفرشاته بعض العلامات على رقعة من الورق، ثم يعيد النظر إليها فإذا به يستخلص منها المعاني.

وفضلاً عن رجاله، وجد «وانج النمر» أن لديه مائة واثنين وعشرين بندقية، وأن منطقة كل من الرجال عامرة بالذخيرة، بالإضافة إلى ثمانية عشر صندوقاً من طلقات الرصاص، كان قد استولى عليها خفية من مخزن الجنرال -إذ كان من المباح له أن يلجئه- وأرسلها واحداً واحداً

إلى المعبد. لقد أتى بها رجله الأمين إلى هناك، واختزنها وراء تمثال بوذا العتيق المتداعي في داخل المعبد، حيث هناك أمتن أجزاء السقف وأقلها رشحًا، كما أن تمثال بوذا كان يقي هذه الصناديق شر الأمطار التي تتدفق إلى الداخل من الأبواب الفاغرة.

أما عن اللباس، فقد كان لدى الجنود ثيابهم التي يرتدونها، وهذه تكفيهم حتى تقبل رياح الشتاء، ولدى كل رجل ملحفته التي ينام فيها.

كان وانج النمر قرير العين بكل ما يمتلكه، فضلًا عن أنه قد تبقى من الطعام ما يكفي لمأكلهم ثلاثة أيام أخرى. وكانت خطته، عندئذ، هي أن يزحف في أثناء الليل، متجهًا بأقصى سرعة ممكنة إلى الأصقاع الجديدة التي سيحتلها في الشمال. وحتى لو لم تكن نفسه قد عافت بلاد الجنوب لزحف منها إلى أي منطقة أخرى على حد سواء، ذلك الجنرال العجوز قد أصبح من الخمول والتراخي بحيث لم يتحرك من هذه المنطقة طوال عشر سنوات وأكثر، وهو يعيش على أرزاق الناس، يفرض عليهم ضرائب فادحة لا طاقة لهم بها، ويستولي على حصة من غلالهم أيضًا. لقد ظل يفعل هذا، حتى ابتلي الناس بالفقر المدقع، ولم يعد ثمة شيء يمكن أن يسلبه منهم بعد ذلك، لذا كان من الضروري أن ينشد وانج النمر بلادًا أكثر نضارة.

بل ولم يكن من أهدافه أن يخوض معركة مع الجنرال الهرم من أجل هذه المنطقة من الأرض المثقلة بالضرائب، فقد دبر خطته على أساس أن يتحرك متجهًا إلى الأقاليم القريبة من موطنه، فهناك تقع بعض التلال في اتجاه الشمال الغربي، حيث يمكنه أن يحصن رجاله. ولئن طورد

مطاردة عنيفة، ففي وسعه أن يتراجع إلى المناطق الأصعب منالاً، حيث الجبال وعرة ضارية، وأهلها وحوش كواسر، حتى إن ملوك الحرب قلما يتجهون إلى هذه المناطق، اللهم إلا في تلك الأحيان التي يضطرون فيها إلى قطع الطريق والتقهقر. ولا يعني هذا أن وانج النمر كانت تراوده الآن فكرة التقهقر. كلا، بل لقد لاح له أن طريقه يمتد ممهداً أمامه، وما عليه إلا أن يتجرد من الخوف، ويضغط بقواته إلى الأمام، ويرفع اسمه خفائاً في ربوع الأرض. كانت آماله في العظمة تحلق في آفاق لا حدود لها.

ثم ارتد الرجال الذين كان قد أطلقهم لتسقط الأنباء، وقال أحدهم: «سرت الأنباء في شتى الأنحاء أن عش النحل العتيق قد انقسم على نفسه، وأن سرباً جديداً قد انطلق خارجاً. ويستبد الذعر بالناس في كل مكان، فهم يقولون إن الجنرال قد امتصهم حتى نضب معينهم، وأن الأرض لا طاقة لها بأن تطعم عصاباتين».

وقال الرجل الذي قام بدور الشحاذ: «تسكنت حول المعسكر العتيق، ولطخت وجهي بالطين والقذارة، بحيث لم يكن في وسع أحد أن يتبين حقيقتي، وأخذت أصيخ السمع وأرقب ملياً، بينما كنت أعول في طلب الصدقة. كان المعسكر بأسره قائماً على قدم وساق، والجنرال العجوز يصرخ ويصيح ويأمر بهذا وذاك، ثم يسحب أوامره ثانية، ويصدر أوامر أخرى. كان مضطرب الكيان، من جراء ما يعتريه من غضب وارتباك، وكان وجهه منتفخاً قاني الحمرة، بل إنني تجاسرت على الاقتراب منه عن كذب، كي أتبين حاله، فوجدته يصيح، وسمعته يقول: «لم أكن أتخيل يوماً أن ذاك الشيطان الأسود الحاجبين يمكن أن يقدم على حركة كهذه،

وقد أوليته ثقتي في كل الأمور. أجل، ثم يقول الناس إن أهل الشمال أكثر أمانة منا! لكم أتمنى لو أنني تمكنت منه هنا، وأغمدت سيفي في جسده، اللص اللعين، ابن اللص» وكلما تفوه بكلمة أو كلمتين، كان يصيح في رجاله بأن عليهم أن يتقلدوا أسلحتهم ويطاردونا ويخوضوا المعركة!.

وتوقف الرجل عن الحديث، وأغرق في ضحك مكتوم، إذ كان هو نفس الشخص الذي يحب الهذر بطريقته الصارخة. ثم قال وصوته يرتفع في نبراته الرفيعة الحادة، وهو يبتسم كاشفًا عن أسنانه من خلال الطين الذي يلطخ وجهه:

«لكني لم أر جنديًا واحدًا يحرك ساكنًا على الإطلاق!».

فارتسمت على وجه وانج النمر ابتسامة صغيرة شاحبة، وأدرك أن ليس ثمة ما يخشاه، لأن هؤلاء الجنود لم يتقاضوا رواتبهم قرابة العام، وأنهم لم يلبثوا هناك إلا ليحصلوا على الطعام دون أن يفعلوا شيئًا. أما إذا طلب إليهم القتال، فلا بد وأن تدفع إليهم رواتبهم قبل أن يخوضوا حومة الوغى. وكان وانج النمر يدرك أنه عندما يصل الموقف إلى هذه النقطة، فإن الجنرال لن يدفع لهم أجورهم، لذلك سيتلاشى غضبه في مدى يوم أو يومين، ويهز منكبيه، ثم يعود أدراجه إلى نساءه، ويعود جنوده إلى النوم في الشمس، لا يستيقظون إلا لتناول الطعام، ثم ينامون من جديد.

أما «وانج النمر»، فقد يمم وجهه شطر الشمال، وهو يدرك أن ليس ثمة ما يدعوه إلى الخوف من كائن على وجه الأرض.

سمح وانج النمر لرجاله أن يقصفوا ويمرحوا طوال أيام ثلاثة، فأكلوا ما وسعهم من الطعام، وشربوا دنان الخمر حتى ثمالة الثمالة. بعد أن أكلوا ما لم يأكلوه في عديد من الشهور، وأتخمت بطونهم بالطعام، وبعد أن استمتعوا بالنوم حتى لم يعد بوسعهم مزيد من النوم، استيقظوا وهم يفيضون بالقوة والحيوية، تحدوهم الرغبة في العراك. وكان وانج النمر قد عاش بين الجنود طوال هذه السنين، وخبر طبيعتهم جيداً، وعرف كيف يسوس رجالاً جهلة أشداء من طبقة الدهماء، وكيف يرقب تقلبات أهوائهم ويستغلها، وكيف يتظاهر بأنه يطلق لهم العنان، في حين أنه يملك زمامهم في نطاق إرادته هو، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لذا، فإنه عندما ترامى إلى سمعه أن رجاله سرعان ما يتورطون في العراك، ويتوعد بعضهم بعضاً دون ما سبب على الإطلاق، أو لأسباب تافهة لا تزيد أهمية عن أن أحدهم، وهو يحاول النوم، تعثر في ساقى الآخر المبسوطتين، وعندما رأى أن بعض الرجال بدأ يفكر في النساء ويتشوق إليهن، حينئذ أدرك أنه قد حانت الساعة للبدء في مهمة جديدة شاقة.

إذ ذاك، وثب معتليًا ظهر السلحفاة الحجرية العتيقة مرة أخرى، ثم شبك ذراعيه فوق صدره، وصاح قائلاً:

«هذه الليلة، حينما تأفل الشمس في الأفق، وراء حافة الحقول المنبسطة عند سفح الجبل، يجب أن نشد الرجال إلى أرضنا. على كل رجل أن يأخذ حذره، فلئن كان أحدكم لا تزال تراوده فكرة العودة إلى الحياة السهلة والنوم تحت لواء الجنرال العجوز، فليعد أدراجه من الآن، ولن أقتله. أما إذا نكث أحد الرجال بالعهد الذي أقسمناه، بعد أن ينطلق معي هذه الليلة، حينئذ سوف أغمد فيه سيفي!».

وما إن تفوه بهذه الكلمات الأخيرة، حتى استل سيفه في سرعة خاطفة كوميض البرق بين الغيوم، ودفعه مباشرة صوب الرجال الذين كانوا ينصتون إليه، فأجفلوا من الذعر، حتى إنهم ارتدوا إلى الخلف، يقع أحدهم فوق الآخر، وأخذوا يتطلعون بعضهم إلى بعض، وقد تملكهم الرعب. في حين وقف وانج النمر ينتظر، وهو ينظر إليهم شزراً. وبينما هو ينتظر، راح خمسة من بين الرجال المتقدمين في السن ينظرون في ارتياب بعضهم إلى بعض، وإلى ذلك السيف القاطع اللامع الذي يمسك به مصوباً إليهم، ثم نهضوا دون أن ينبسوا بكلمة، وتسלّوا بعيداً إلى أسفل الجبل واختفوا عن الأنظار. وأخذ وانج النمر يرقبهم في أثناء رحيلهم، وهو ما زال يشهر سيفه اللامع الذي لم يهتز قيد أنملة. ثم صاح قائلاً:

«أمن أحد آخر؟».

خيم صمت هائل على الرجال، ومضت برهة لم يتحرك فيها أحد من مكانه. ثم تحرك فجأة شبح منحني القامة ضئيل الجسم، في مؤخرة

الحشد، وسارع بالتسلل بعيداً. كان هذا هو ابن وانج الأكبر. ولكن «وانج النمر»، حينما تبين من يكون هذا، صاح في صوت كالزئير:

«ليس أنت، أيها الأبله الصغير إن أباك قد أعطاك إليّ، فأنت لا تملك حريتك».

وفي أثناء كلامه، أغمد سيفه، وهو يتمتم بازدياء: «لن أغمس هذا النصل الرائع في مثل هذا الدم الشاحب. كلا، بل إنني سأضربك بالسوط ضرباً مبرحاً كما يضرب المرء طفلاً» وانتظر حتى وقف الصبي ساكناً في مكانه مرة أخرى، منكس الرأس كعهده دائماً:

ثم قال وانج النمر في نبرات صوته العادية:

«فليكن ذلك كذلك إذن. اهتموا بأمر بنادقكم، وأحكموا رباط أحيديكم على أقدامكم وتمنطقوا بأحزمتكم، لأننا سنقوم بزحف جبار هذه الليلة. سوف ننام بالنهار ونزحف ليلاً، حتى لا يدرك الناس أننا نتحرك عبر الريف. وكلما أقبلنا على منطقة نفوذ أحد ملوك الحرب، سوف أنبئكم باسمه. ولئن استفسر منكم أحد عمن نكون، يجب أن تبادروا بالقول: «إننا فرقة من الجنود الرحل، جئنا للانضمام إلى ملك هذه الأصقاع».

وعندما مالت الشمس للمغيب، فلم يبق سوى شعاع شاحب من ضوء النهار، في حين بزغت النجوم، دون أن يظهر وجه القمر، زحف الرجال صفوفاً إلى الممر، يرتدون ملابسهم الرثة، وقد تمنطق كل منهم، حاملاً حزمته فوق ظهره، وبندقيته في يده. على أن «وانج النمر» لم يعط

البنادق الزائدة إلا للرجال الذين يعرفهم أوثق المعرفة، ويمكنه أن يوليهم ثقته، إذ كان من بين رجاله هؤلاء، الكثيرون ممن لم يخبر معدنهم بعد، وكان بوسعه أن يستغني عن أحد الرجال أكثر من استغنائه عن إحدى البنادق. ثم قاد الذين يملكون جيادًا، جيادهم إلى أسفل الجبل. وعند السفح، قبل أن ينطلقوا على الطريق الرئيس المؤدي إلى الشمال، توقف وانج النمر، وقال بطريقته الخشنة:

«ليس لأحدكم أن يتوقف عن المسير إلا في المكان الذي أحده، لن نخط الرجال طويلاً، حتى نتوقف عند مطلع الفجر بالقرية التي سيقع اختياري عليها، حيث يمكنكم أن تأكلوا وتشربوا، وسوف أدفع ثمن طعامكم وشرابكم».

وبينما كان يقول هذا، وثب معتلياً صهوة جواده، وهو حيوان شامخ أحمر اللون، ذو عظام غليظة وشعر طويل مجعد، كان قد انحدر من سهول منغوليا. جواد بالغ القوة، لا يعرف الكلل. وكان لا بد له ألا يعرف الكلل في هذه الليلة، فقد وضع وانج النمر على السرج من تحته كثيراً من الجنيهات الفضية التي كان يحملها معه. وما لم يستطع أن يأخذه معه، عهد به إلى تابعه الأمين، وإلى آخرين غيره بكميات أقل منه، حتى إذا ما سقط أحدهم فريسة للإغراء الذي يمكن أن يتعرض له أي إنسان، فلن تكون الخسارة فادحة. على أن وانج النمر، برغم قوة جواده، أبى أن يطلق له العنان، لينطلق بأقصى طاقته. كلا، فقد كان عطوفاً في أعماق قلبه، لذا كبح جماح جواده، وجعله يبطئ الخطى، مراعيًا حال أولئك الرجال الذين لا يملكون جيادًا، ولا بد أن يمشوا على الأقدام، كما أن ابني أخويه كانا

يمتطيان -على كلا جانبيه- الحمارين اللذين كان قد اشتراهما لهما، ولم تكن سيقان الحمارين القصيرة لتقوى على أن تتماشى مع خطى الجواد الفسيحة. كان ثلاثون ونيف من رجال وانج النمر على ظهور الجياد، في حين مضى الباقون على الأقدام، فقسم فرسانه إلى قسمين، وضع نصفهم في المقدمة، والنصف الآخر في المؤخرة، والمشاة فيما بينهم.

هكذا زحفوا ميلاً بعد ميل، يشقون حجب الليل الذي يلفه السكون ويتوقفون بين الفينة والفينة، كلما صاح وانج النمر بأن في وسعهم أن يركنوا إلى الراحة لفترة وجيزة، ثم يتحركون ثانية عندما يصدر أوامره بذلك. كانوا رجالاً أشداء لا يتذمرون، فساروا وراءه عن طيب خاطر، لأنهم عقدوا عليه آمالاً كباراً. وكان وانج النمر راضياً عنهم كذلك، فقطع على نفسه عهداً أنه لن يخذلهم ما لم يخذلوه، وأنه يوم يحلق في سماء العظمة، سوف يرفع من شأن كل رجل من أتباع الطليعة هؤلاء.

وبينما كان يرقبهم ويفكر فيهم كرجال يعتمدون عليه ويثقون فيه كما يثق الأطفال في أولئك الذين يشملونهم بالرعاية، استيقظت في قلبه مشاعر الحنان نحو رجاله هؤلاء، لأنه كان رجلاً يمكن أن يكون حنوناً في قرارة نفسه. وكان عطوفاً على رجاله، يسمح لهم من آن إلى آخر أن ينعموا بالراحة، لفترة أطول قليلاً من المعتاد، كلما استلقوا على بقعة معشوشبة، أو في ظلال بعض أشجار العرعر التي تُزرع حول المقابر.

على هذا النحو زحفوا نيفاً وعشرين ليلة، وهم يركنون إلى الراحة نهائياً في القرى التي يحددها لهم وانج النمر. على أنه، قبل أن يقبلوا على أي قرية من القرى، كان يحرص على أن يستفسر عن اسم ملك الحرب في

تلك الأصقاع. ولئن سأل أحد عمن تكون هذه الفرقة من الجنود، وإلى أي وجهة تمضي، كان وانج النمر يحمل الرد حاضرًا زلقةً على طرف لسانه.

وبالرغم من ذلك، كان الأهالي في كل قرية يطلقون صيحات مدوية نادية، عندما يرونهم قادمين، لأنهم لا يعلمون إلى أي مدى سيمكث هؤلاء الجنود الرحل، أو ما سيلتهمونه من طعام، أو ما قد يشتهونه من نساء. بيد أن وانج النمر كانت له أهداف رفيعة في هذه الأيام الأولى، فأحكم زمام رجاله، ومما شدد من قبضته عليهم أنه كان يحس في أعماق قلبه بفتور غريب تجاه النساء، إلى حد أنه كان أشد ما يكون ضجرًا إذا رأى غيره من الرجال مفعمًا بالشهوة المتقدمة. وقال لهم:

«لسنا لصوصًا أو قطاع طرق، ولست من زعماء اللصوص! كلا، بل إنني سوف أشق لنفسي سبيلًا إلى العظمة أفضل من ذلك السبيل، وسوف نحقق النصر بمهارة سواعدنا وبالسبل الشريفة، لا عن طريق الفتك بالناس. لكم أن تبتاعوا ما تحتاجون إليه، وسوف أدفع ثمنه، ولكم أن تحصلوا على رواتبكم كل شهر. لكنني لن أسمح لكم أن تقربوا امرأة، ما لم تكن من النسوة الراغبات اللواتي ألفن الاتصال بالرجال لقاء الثمن، لكسب رزقهن. ولا تلجأوا إليهن إلا عند الضرورة القصوى. احذروا الذهاب إلى اللائي يكن مبتذلات غاية الابتذال، ويحملن في أجسادهن موتًا خبيثًا ينشره حولهن هنا وهناك. ابتعدوا عن مثل هؤلاء النسوة. أما إذا ترامى إلى سمعي أن أحدًا من رجالي قد اغتصب حرامًا زوجة فاضلة أو بنتًا عذراء، ذلك الرجل سوف أقتله قتلاً دون أن أتبع له الفرصة حتى لأن يذكر ما قد فعل!». »

بينما كان وانج النمر يتكلم على هذا النحو، توقف كل واحد من رجاله عن المسير كي يصغي إلى حديثه ويفكر فيه، فهناك كانت عيناه تومضان من تحت حاجبيه، وكان هؤلاء الرجال يدركون جيداً أن قائدهم -على طيبة قلبه- لم يكن يهاب أن يردي أحد الرجال قتيلاً. وغمغم الشباب في إعجاب، ففي الواقع أن «وانج النمر» كان بطلهم في هذه الأيام، وهتفوا:

«مرحى، النمر.. مرحى، النمر الأسود الحاجبين!».

هكذا راحوا يواصلون الزحف أو يتلبثون طبقاً لأوامره، وحرص كل واحد منهم على أن يطيع تعليماته، أما إذا لم يفعل، فقد كان يتكتم الأمر تكتماً بالغاً.

ثمة أسباب عديدة حدث بوانج النمر أن يؤثر الاستقرار في بلاد لا تنأى كثيراً عن موطنه، من بينها أنه سيكون بمقربة من أخويه حتى يثق من الحصول على الدخل الذي سيقدمانه إليه لفترة من الزمن، ريثما يتمكن من إقرار ضرائب لحسابه الخاص، ويجنب نفسه خطر ضياع فضته التي قد تتعرض للسرقة على طول الطريق حتى تجلب إليه. وفضلاً عن ذلك، فلو أنه واجه كارثة جسيمة على حين غرة، كالتى يمكن أن تلحق أحياناً بأي إنسان إذا قلبت له السماء ظهر المجن، حينئذ يمكنه أن يختفي بين أهله وعشيرته، وعائلته من المكانة والثراء بحيث ينعم بالأمن هناك. ومن ثم شق طريقه في عزم وثبات. متجهاً شطر المدينة التي يعيش فيها شقيقاه. لكن، في اليوم السابق لوصولهم على مرمى البصر من جدران المدينة، أصبح وانج النمر نافذ الصبر في معاملته لرجاله، لأنهم تقاعسوا

في الزحف. وعندما أرخى الليل سدوله، وأمرهم بأن يشدوا الرحال، تمهلوا في التحرك، وسمع وانج النمر بعضهم يغمغم متذمرًا، قال أحدهم: «حسنًا، ثم ماذا؟ إن هناك أشياء أفضل من المجد. لست أدري ما إذا كنا قد أحسنًا عملًا، بالمجيء وراء رجل ضار متوحش كهذا الرجل!» في حين قال آخر: «من الأفضل أن نحصل على فترة للنوم، إذ ليس ثمة من يدعو لأن تبلى أقدام المرء، حتى ولو نقص ما نحصل عليه من طعام».

والحق أن هؤلاء الرجال كان قد نال منهم الإنهاك كل منال، لأنهم لم يألفوا الزحف بمثل هذا الثبات، فقد ركن الجنرال الهرم إلى حياة النعومة والترف في هذه السنوات الأخيرة، حتى سرت عدوى التراخي بين صفوف رجاله. ولما كان وانج النمر يدرك حق الإدراك مدى تقلب أهواء هؤلاء الرجال الجهلة، فقد لعنهم في قرارة نفسه، لأنهم يقبلون على الشكوى، في حين أنهم يقتربون الآن من أرضهم الجديدة في الشمال. وغاب عن ذهنه أنه على حين كان هو مبتهجًا بوجوده في بلاد الشمال، وقلبه مفعم بالرضا لأن في وسعه أن يشتري الخبز القديم، وأن يشتم رائحة الثوم الكبير اللذيذ مرة أخرى، كانت هذه الأشياء لما تزل بعد غريبة بالنسبة إلى رجاله. وقد قال له تابعه الأمين على انفراد، وهما يخلدان إلى الراحة تحت إحدى أشجار العرعر، في منتصف إحدى الليالي:

«لقد حان الوقت لأن ندعهم ينعمون بالراحة في مكان ما، نحوًا من ثلاثة أيام متتالية. إنه الوقت الملائم لأن نولم لهم الولاثم، ونزيد لهم قليلًا من الفضة».

فقفز وانج النمر واقفًا على قدميه، وصاح قائلاً:

«أرني رجلاً يتحدث عن التخاذل، ولسوف أرديه قتيلاً برصاصة في ظهره».

لكن الرجل الأمين الأشرم انتحى به جانباً، وهمس قائلاً بطريقة مسالمة:

«كلا، لا تتحدث هكذا يا قائدي. أفلع عن غضبك. إن هؤلاء الجنود ليسوا إلا أطفالاً في أعماقهم، ولسوف يدون لك من ضروب القوة ما لن تصدق أنه حقيقة، لو أنهم تطلعوا بعين الأمل إلى متعة صغيرة سيحصلون عليها بعد حين، حتى وإن كانت هذه المتعة مجرد مكافأة تافهة كصحفة من اللحم، أو دن من خمر جديدة، أو عطلة يوم للعب الميسر. إنهم سذج إلى هذا الحد، من السهل إرضائهم، وسرعان ما يتملكهم الحزن. إن بصيرتهم ليست متفتحة مثلك يا قائدي، حتى يتبادر إلى ذهنهم أن يتطلعوا إلى ما هو أبعد من اليوم التالي».

بينما كان هذا التابع الأمين يتوسل إليه على هذا النحو، توقف في بقعة من ضوء القمر الشاحب، فقد كان القمر وليداً، ثم اكتمل الآن في أثناء مسيرهم. وفي هذا الضوء، بدا وجه الرجل غاية في البشاعة، لكن وانج النمر قد خبر معدنه مراراً وتكراراً، وعرف عنه الصدق والتعقل، فلم يعد يلحظ شفته الشرماء، بل كان يرى فقط وجهه الأسمر الطيب المألوف وعينييه الخاضعتين المخلصيتين، فيوليه ثقته. أجل، كان «وانج النمر» يثق بهذا الرجل، برغم أنه كان يجهل أصله، لأنه لم يكن يذكر قط شيئاً عن نفسه، أما إذا ألحف الرجال عليه بالسؤال إلحافاً شديداً، فقد كان يكتفي بأن يقول:

«إني أنتمي إلى بلاد نائية. ولئن أخبرتكم عنها، لما عرفتم اسمها، فهي بعيدة جدًا».

لكن، ترامت الشائعات بأنه قد اقترف جريمة ما. قيل كانت له زوجة جميلة، فتاة مليحة، لم تستطع أن تتحمل منظره. فاتخذت لها عشيقًا، وقد عثر هذا الرجل بالاثنين معًا، ففضى عليهما، ولاذ بالفرار. ولم يكن أحد يدري نصيب هذه الرواية من الحقيقة. على أن الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن هذا الرجل قد تعلق بوانج النمر منذ البداية، دون ما سبب سوى أن الشاب على هذا القدر من الشراسة والجمال. وبسبب جماله بالذات، بدا وكأنه أعجوبة في عيني هذا الإنسان القبيح التعس. وأحس وانج النمر بهذا الحب يعتمل في قلب الرجل، ومنحه من تقديره ما يفوق الآخرين جميعًا، ذلك لأن الرجل لم يكن يتبعه بدافع من الرغبة في الكسب أو المنصب، بل بدافع من هذا الحب الغريب الذي لم يطلب في مقابله جزاء سوى أن يحظى بقبره. لذلك، كان وانج النمر يركن إلى ولائه، ويعيره دائمًا آذانًا مصغية. وأدرك الآن أن الرجل على حق هذه المرة أيضًا، ومن ثم اتجه إلى حيث كان رجاله مضطجعين في ظلال أشجار العرعر، وقد نال منهم الإرهاق، وخيم عليهم الصمت. وقال لهم في عطف يفوق مألوف عادته:

«أيها الإخوة الطيبون، نحن على مشارف مدينتي، وبالقرب من القرية التي ولدت فيها، وأنا أعرف جميع الطرق والدروب في هذه البقاع. لقد كنتم شجعانًا لا تعرفون الكلل طوال هذه الأيام والليالي المضنية. والآن سأعد لكم مكافأتكم. سوف أقودكم إلى القرى المحيطة بقريتي الصغيرة،

لكني لن أتجه بكم إلى تلك القرية بالذات لأن القوم هناك هم عشيرتنا، ولا أرغب في الإساءة إلى مشاعرهم. وسوف آمر بشراء الماشية وذبحها، والخنازير أيضًا، وبشي البط والإوز، وسوف تأكلون ملء بطونكم. أما الخمر، فسوف تحصلون عليها كذلك. إن أجود صنوف الخمر في هذه البلاد تصنع هنا، وهي خمر صافية مسكرة، تتساعد أبخرتها سريعًا. وفضلًا عن ذلك، سيحصل كل رجل على ثلاث قطع من الفضة مكافأة له».

عندئذ، انشرفت صدور الرجال، ونهضوا ضاحكين، وحملوا بنادقهم على مناكبهم، وتقدموا إلى المدينة في نفس تلك الليلة، وتجاوزوها، ثم قادهم وانج النمر إلى القرى فيما خلا قريته. وتوقف هناك، حيث وقع اختياره على أربعة من الكفور الصغيرة أنزل بها رجاله. على أنه لم ينزلهم في اعتداد وخيلاء، كما يفعل بعض ملوك الحرب. كلا، بل مضى بنفسه أولاً من قرية إلى قرية، في مطلع الفجر، حينما كان الدخان قد بدأ يتسرب من الأبواب المفتوحة، في أثناء إشعال النيران في المواقد لإعداد الوجبة الأولى. وبحث عن كبار أهل القرية، وقال لهم في أسلوب مهذب:

«سوف أدفع ثمن كل شيء فضة. ولن يتطلع رجل من رجالي إلى امرأة لا تحل له. يجب أن تقبلوا خمسة وعشرين من الرجال».

لكن شيوخ القرية انقبضت صدورهم، على الرغم من كل لطفه ورقته، فقد بذل لهم ملوك الحرب الوعود قبل هذه المرة، ومع ذلك لم يدفعوا لهم شيئاً. فراحوا ينظرون إلى وانج النمر، تطل الريّة من عيونهم، وهم يمسحون بأيديهم على ذقونهم ويتمتمون فيما بينهم في مداخل

بيوتهم، وأخيرًا طلبوا منه عربونًا يدلل على نواياه الطيبة.

إذ ذاك، أخرج وانج النمر فضته في سخاء، فهؤلاء كانوا من بني وطنه. وترك عربونًا من الفضة في يد شيخ كل قرية. وقبل أن يترك رجاله، قال لهم على انفراد:

«يجب أن تضعوا نصب أعينكم أن هؤلاء القوم كانوا أصدقاء أبي. هذا هو موطني، ومن يراكم من الناس يراني فيكم. تحدثوا بطريقة مهذبة، ولا تأخذوا شيئًا دون مقابل. وإذا تطلع أي رجل من رجالي إلى امرأة ليست شائعة للجميع، فسوف أقتله قتلاً!».

وإذا رأى رجاله مدى ضراوته، صاحوا يقطعون له العهد، ويصبون على أنفسهم وابلًا من اللعنات المنتقاة، إذا هم قصروا في القيام بما أمرهم به. ثم بعد أن أنزلهم جميعًا في القرى، حيث كان الطعام يعد لهم، ودفع من الفضة ما يكفي لأن تستحيل النظرات الحانقة إلى بسمات على وجوه الفلاحين، بعد أن أنجز كل شيء، تطلع إلى ابني أخويه، وقال لهما في مرح يتسم بالخشونة، فالواقع أن وجوده في موطنه كان يبعث السرور في قلبه:

«حسنًا، أيها الغلامان، إن أبويكما سوف يغتبطان برؤيتكما، بالله عليّ. وسوف أخلد أنا أيضًا إلى الراحة هذه الأيام السبعة، فالحرب تنتظرنا على الأبواب».

ولوى زمام جواده شطر الجنوب، مارًا بالبيت المشيد من الطين دون أن يتوقف هناك، لأنه لم يمر بمقربة منه عن قصد، وتبعه ابنا أخويه

على حماريهما. هكذا اقتربوا من المدينة، واجتازوا البوابات العتيقة مرة أخرى، وأشرفوا على البيت. وللمرة الأولى طوال هذه الشهور، لاحظت فرحة باهتة على وجه ابن وانج الأكبر، وراح يسرع الخطا قليلاً متجهًا إلى بيته.



سبعة أيام وسبع ليال، قضاها وانج النمر في البيت الكبير بالمدينة، فأقام له شقيقاه المآدب، وعاملاه باعتباره ضيفاً رفيع المكانة. أربعة أيام وأربع ليال، قضاها في أروقة وانج الأكبر الذي بذل قصارى جهده كي ينال الخطوة لدى شقيقه الأصغر، بيد أن كل ما استطاع عمله هو أنه قدم إليه تلك الأشياء التي تعد متعةً في نظره، فأولم له الولائم كل ليلة، وأخذه إلى المشارب حيث الفتيات المغنيات والعازفون على العود، كما اصططحبه إلى دور المسرح. على أن وانج الأكبر بدا وكأنما يمنح نفسه المتعة أكثر مما يتمتع أخاه، فقد كان وانج النمر رجلاً غريب الأطوار، يأبى أن يتناول من الطعام أكثر مما يحتاج إليه لسد الرمق، ثم يتوقف عن الأكل، ويظل جالساً في صمت، بينما الآخرون يلتهمون الطعام. كما كان يأبى أن يحتسي من الشراب أكثر مما يرغب فيه.

أجل، كان يظل جالساً إلى موائد المآدب، حيث يمرح الرجال ويأكلون ويشربون، حتى يتفصد منهم العرق، ويضطرون إلى خلع هذا الرداء أو ذاك الثوب، بل إن بعضهم كان يمضي خارجاً، ويلفظ ما قد تناوله من طعام، حتى يحظى بمتعة تناول المزيد، أما وانج النمر، فلم

يكن يستهويه شيء، كلا، لم تستهوه أفخر أنواع الحساء، ولا أشهى لحوم
ثعابين البحر التي تباع بأعلى الأثمان لأنها نادرة الوجود عسيرة الصيد،
بل ولا الحلوى، ولا أي طعام يصنع من الفاكهة، لم تستهوه بذور زهرة
اللوتس المسكرة، ولا عسل النحل، ولا أي شيء من تلك الأشياء التي
يقبل الناس عادة على تناولها، مهما اكتظت بطونهم بالطعام.

وبرغم أنه كان يذهب مع أخيه الأكبر إلى مشارب الشاي، تلك التي
يمضي إليها الرجال للعب والعبث مع النساء، فقد كان يجلس جامدًا
في كامل وعيه، وسيفه يتدلى من حزامه، يأبى أن يحل وثاقه، وهو يرقب
كل شيء بهاتين العينين السوداوين. ولئن لم يلح في وجهه الامتعاض،
لم يكن أيضًا يلوح فيه الرضا، بل لقد بدا عليه وكأنه لا يميز مغنية عن
الأخرى في رخامة الصوت أو جمال الوجه، هذا مع أن بعض المغنيات
-أكثر من واحدة أو اثنتين- أولينه انتباههن، وتحرقن شوقًا إلى فحولته
السمراء وسمته الوسيم، حتى إنهن بذلن معه قصارى جهدهن، ومضين
إليه، بل ووضعن أيديهن الصغيرة عليه، وصوبن إليه لمحات طويلة عذبة
ناعسة. لكنه كان يظل جالسًا كما هو، جامدًا لا يتأثر، وهو يتفرس في كل
شيء على حد سواء، شفتاه جافيتان كعهدهما دائمًا. ولئن تفوه بشيء،
فلم يكن يتفوه بتلك الأشياء التي تألفها النسوة المليحات، بل كان يقول:
«هذا الغناء أشبه بنقيق طائر أبو زريق في نظري!».

وحدث مرة أن مخلوقة لينة الأعطاف، ضئيلة الجسم، ملطخة
بالأصباغ، ممطوطة الشفتين، صوبت إليه ناظرها، وهي تشدو بأنشودتها
الصغيرة، فصاح قائلاً: «لقد ضقت ذرعًا بكل هذا!» ونهض من مكانه،

وانصرف خارجاً، فاضطر وانج الأكبر أن يمضي في إثره، وإن كان قد أمضيه أن يترك مثل هذا العرض الرائع.

والحق أن «وانج النمر» قد ورث عن أمه أسلوبها المقل المقتضب في الحديث، فلم يكن يتفوه بشيء قط دون داع. وإذا تحدث، كان حديثه لازعاً يتسم بالصدق، حتى إن الناس، بعد أن يستمعوا إليه مرة أو مرتين، كانوا يخشون منه مجرد أن يحرك شفثيه.

بهذا الأسلوب، تحدث ذات يوم، عندما جال بخاطر زوجة وانج الأكبر أن تأتي إليه، كي تشحذ من عزمته بعض الشيء، وتقول كلمة طيبة أو كلمتين من أجل ابنها الثاني. في عصر أحد الأيام، دلفت إلى الحجرة التي كان وانج النمر جالساً فيها يحتسي الشاي، في حين جلس وانج الأكبر إلى نضد صغير يحتسي الخمر. دخلت تتألق في خطاها، يحيطها تواضع شديد، وقد غضت من بصرها في تأدب بالغ، ثم انحنت، وهي ترسم على وجهها ابتسامة متكلفة، دون أن تتطلع إلى الرجلين، في حين أن وانج الأكبر، حينما رآها تلج الحجرة، مسح وجهه في عجلة، وصب لنفسه قدحاً من الشاي بدلاً من الخمر التي كان يضعها ساخنة في إبريق من الزنك.

دخلت تتمايل على قدميها الصغيرتين، يلوح عليها الأسي، وجلست على مقعد منخفض لا يليق بمكانتها، مع أن وانج النمر نهض من مكانه، وأوماً إليها أن تجلس على مقعد أعلى. لكن السيدة قالت، وهي تجعل صوتها يبدو واهناً رقيق النبرات، كعادتها في هذه الأيام، ما لم تنس نفسها، أو يعترها الغضب:

«كلا، إني أعرف مكانتي يا أخا زوجي، فما أنا إلا امرأة ضعيفة الجانِب لا قيمة لي. ولئن غابت هذه الحقيقة عني يوماً، فإن مولاي يحشم نفسه عناء تذكيري بها ثانية، نظراً لأن لديه نسوة كثيرات خيراً وأفضل مني».

قالت هذا، ونظرت بطرف عينيها إلى وانج الأكبر، فتصببت منه قطرات خفيفة من العرق، وتمتم بطريقة واهنة:
«والآن يا سيدتي، متى حدث أني...».

وجعل يحصي في ذهنه ما إذا كان في الفترة الأخيرة قد أقدم على شيء معين يحتمل أن يكون قد ترامى إلى سمعها على غير وجهه. حقيقة أنه عثر على الفتاة المغنية، وجدّ في طلبها، تلك الشابة المتمنعة المتدللة، التي بعثت في قلبه متعة غامرة في إحدى المآدب ذات ليلة. وقد بدأ يتردد عليها، ويرتب لها مبلغاً معيناً من المال، بل لقد دار بذهنه أن يفرد لها بيتاً في المدينة يلتقي بها فيه، مقابل منحة معينة، كما يفعل الرجال حين لا يرغبون في إضافة عبء امرأة جديدة إلى أروقتهم، ومع ذلك يشتهونها إلى حد أنهم يحتفظون بها لفترة من الزمن على أقل تقدير. لكنه لم يكن قد نفذ هذه الفكرة بعد، لأن أم الفتاة كانت على قيد الحياة، وهي عجوز شمطاء، يستبد بها الجشع، بحيث أبت أن تهبط إلى السعر الذي عرضه وانج الأكبر ثمناً لابنتها. لذا، خطر له أن زوجته لا يمكن أن تكون قد سمعت بهذا الأمر قبل وقوعه، ومسح وجهه بكمه مرة أخرى، وحول بصره عنها، وأخذ يرتشف الشاي في بطء، بصوت مسموع.

على أن السيدة لم تكن تفكر فيه هذه المرة، فمضت في حديثها، دون

أن تأبه بتمتمته، قائلة:

«لقد حدثتني نفسي أنني على ضعة شأني، وبرغم أنني مجرد امرأة، فإنني أم لابني، وجدير بي أن أجيء لتقديم آيات الشكر إليك يا أخا زوجي، لما قد أدبته من أجل ثاني أبنائنا القليل الشأن. وإن يكن شكري لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى إنسان مثلك، فإن متعتي هي أن أقوم بما يجب عليّ القيام به، إنني أؤدي واجبي برغم كل الأعباء ومظاهر الازدراء التي يتحتم عليّ أن أتحمّلها».

هنا ألقت نظرة أخرى على زوجها، فحك رأسه، وتطلع إليها في غباء، وغرق في العرق مرة أخرى، لأنه لم يكن يدري ما هي موشكة على قوله، ولأن بدانته المفرطة كانت تجعله يتصبب عرقاً دون ما سبب على الإطلاق، بيد أنها استطردت قائلة:

«لذا، فهأنذا أتقدم إليك بآيات شكري يا أخا زوجي، وهي على تفاهة قيمتها، نابعة من قلب مخلص. أما عن ابني، فإني أقول لك إنه إذا كان ثمة غلام جدير بعطفك، فهو ذاك الغلام. إنه أطيب الصبية قلباً، وخيرهم خلقاً، وأرقهم شعوراً، وكم هو راجح العقل! إني أمه، وبرغم أنه يقال إن الأمهات يرين دائماً خير الصفات في أبنائهن، فإنني ما زلت أردد ثانية أننا -أنا ومولاي- قد قدمنا إليك خير أبنائنا».

طيلة هذه الفترة، ظل وانج النمر جالساً يحملق فيها كعادته دائماً عندما يتحدث أي إنسان أمامه، فقد اعتاد أن يحملق في محدثه بصورة غريبة تجعل المرء في حيرة من أمره، أهو يستمع إلى حديثه أم لا؟ إلا حينما يفوه بالرد، وقد فاه به الآن في صراحة قاسية:

«إذا كان الأمر كذلك، يا زوجة أخي، إذن فإنني آسف من أجل أخي ومن أجلك. إنه أجبني وأضعف صبي وقعت عليه عيناى طوال حياتي، فحميته لا تفوق حمية دجاجة أليفة. ليتكما أعطيتما نى ابنكما الأكبر، فهو صبي عنيد قوي الشكيمة، يمكنني ترويضه، حتى أصوغ منه رجلاً صلباً شديد المراس يدين لى بالطاعة، دون سواى. لكن ابنكما الثانى هذا دائم البكاء، ولكأنى أحمل معى الطائر الباكى فى كل مكان. لىس ثمة جدوى من ترويضه، إذ لىس فىه من شىء على الإطلاق، وبالتالى لا يمكن خلقه من جديد. كلا، إن كلا ابنى أخوى يشران فى قلبى خيبة الأمل، فولدكما رخو جبان، وعقله تطمسه دموعه. أما الآخر فلدىه من القوة والحيوية والخشونة ما يؤهله لمجابهة الحياة، لكنه طائش مهرج محب للهذر، ولا أدرى إلى أى مدى يستطيع المهرج أن ىرقى عالياً. وإنه لمن شر البلاى بالنسبة إلىّ ألا يكون لى ولد من صلبى حتى أنتفع به حين أكون فى حاجة إليه».

لا يدرى أحد ما كان يحتمل أن تفوه به السيدة ردّاً على مثل هذا الحديث، لكن وانج الأكبر انتابته الرعشة، لإدراكه أن أحداً لم يتحدث إليها قط بمثل هذه الصراحة من قبل، أما هى، فقد تضرع وجهها بالحمرة القانية، وفتحت فمها لتردّ ردّاً حاداً. لكن، قبل أن تتمكن من صياغة الكلمات، خرج ابنها الأكبر من وراء ستار، حيث كان يصغى إلى الحديث. وصاح فى لهفة:

«أواه، دعينى أذهب يا أماه.. إنى أريد أن أذهب».

وقف أمامهم جميعاً تملكه اللهفة، يبدو وسيماً فى ريعان شبابه،

وأخذ ينقل بصره في سرعة من وجه إلى آخر. كان يرتدي ثوباً أزرق زاهياً في لون ريش الطاووس، كالذي يغرم بارتدائه شباب السادة، ويتعل حذاء من جلد مستورد، ويتحلى بخاتم من حجر اليشم في إصبعه، وشعره حليق على أحدث طراز، وقد أرسله إلى الخلف مضمخاً بزيت زكي الرائحة. كان شاحب الوجه شأن الشباب في البيوتات الثرية، أولئك الذين ليسوا بحاجة مطلقاً لأن يكدحوا أو أن تصليهم الشمس بنارها. وكانت يدها ناعمتين كأيدي النساء. على أنه، بالرغم من وسامته وشحوبه، كانت نظراته تفيض بالحيوية، وعينه قوية يشع منها الضجر. بل ولم يكن يتحرك في رخاوة، حين ينسى نفسه، فيغيب عن باله أن الأسلوب العصري للشباب المتسكع في المدينة يقتضي أن يسير متراخياً غير محتفل بشيء. كلا، لقد كان في وسعه، عندما يندلع في أعماقه لهيب رغبة ما، أن يُنحي كل تراخيه جانباً، فيبدو كما بدا الآن.

غير أن أمه صاحت في حدة:

«هذا أكبر هراء سمعته في حياتي، فأنت الابن الأكبر ورب البيت بعد أبيك، فكيف يمكننا أن ندعك تمضي إلى الحروب، وقد تلقى حتفك في إحدى المعارك؟ إننا لم نوفر جهداً على الإطلاق في سبيلك، فقد أرسلناك إلى شتى المدارس في هذه المدينة، واكترينا العلماء كي يلقنوك العلم. بل لقد بلغ من شدة حبننا لك، أننا أبينا أن نبعث بك إلى مدرسة في الجنوب. فكيف يمكننا أن نسمح لك بالمضي إلى الحرب؟» وحين رأت أن وانج الأكبر يجلس صامتاً منكس الرأس، قالت في حدة: «هل يتحتم عليّ أن أحمل كل هذا العبء على عاتقي يا مولاي؟».

إذ ذاك، قال وانج الأكبر في وهن:

«إن أمك محقة يا بني، إنها دائماً على صواب، فنحن لسنا في غنى عنك حتى نلقي بك إلى مثل هذه المخاطرة».

ومع أن الشاب ناهز التاسعة عشرة من عمره، فقد أخذ يدق بقدميه على الأرض ويبكي ويرغي ويزيد، ثم جرى، وضرب رأسه في الجزء العلوي من الباب صائحاً:

«سأتجرع السم إذا لم أستطع أن أفعل ما أريد!».

حينئذ نهض أبواه في زعر شديد، وصاحت السيدة في طلب خادم السيد الصغير. ولما قدم الرجل راكضاً، وقد تملكه الفزع، صاحت فيه: «خذ الطفل إلى مكان ما ليلهو فيه، وسرّ عنه، وحاول أن تصرف عنه هذا الغضب!».

وسارع وانج الأكبر بإخراج حفنة طيبة من الفضة من منطقتة، وضغطها في يد ابنه، قائلاً:

«خذها يا بني، امض وابتع لنفسك شيئاً تحبه، أو أنفقها في لعبة ما، أو فيما يروق لك».

في بادئ الأمر، دفع الفتى بالفضة بعيداً، متظاهراً بأنه لن يقبل مثل هذه الترضية، لكن الخادم أخذ يلاطفه ويتوصل إليه، حتى أخذها بعد هنيهة، وكأنه يأخذها كارهاً، ثم سمح للخادم أن يقوده إلى الخارج، وهو يرتمي هنا وهناك، صائحاً أنه سيذهب، سيذهب مع عمه.

عندما انتهت المسألة، تهاوت السيدة على أحد المقاعد، وتنهدت

بطريقة مؤثرة، ثم قالت لاهثة:

«لقد كانت له دائماً مثل هذه الروح حتى إننا لا ندرى ماذا نفعل معه، إنه أشق كثيراً في تربيته من الصبي الذي أعطيناه لك».

في تلك الأثناء كان «وانج النمر» يجلس جاداً صارماً، وهو يرقب كل ما جرى، ثم قال:

«إن التربية أسهل منألاً حيث توجد الإرادة منها حيث لا يوجد شيء على الإطلاق. بوسعي أن أخلق ذلك الغلام، لو أنه كان في قبضتي. وكل هذا الهياج إنما يرجع إلى عدم تربيته».

لكن السيدة كانت في غاية الكدر، حتى لم تعد تطيق المزيد، ولم تكن لتحتمل أن يقال إنها لم تحسن تربية أبنائها، ومن ثم مضت بطريقتها المهيبة، وقالت وهي تنحني:

«ما من شك أن لديكما الكثير مما ترغبان في قوله أحكما للآخر».

ومضت خارجة.

إذا ذاك تطلع وانج النمر إلى شقيقه الأكبر بنظرة واجمة، تنم عن الرثاء، ولم ينبس بكلمة لفترة من الزمن، سوى أن وانج الأكبر شرع في احتساء الخمر مرة أخرى - لكن دون حماسة - وقد شاعت اللوعة في وجهه البدين. وفي النهاية ندت عنه زفرة من الأعماق، قبل أن يقول في تفكير عميق، يفوق مألوف عاداته في الحديث:

«ثمة شيء يبدو لغزاً في نظري، هو أن المرأة في شبابها يمكن أن تكون في غاية الاستسلام والرقّة والخضوع لإرادة الرجل، في حين أنها

عندما تتقدم بها السنون تصبح شخصاً آخر تماماً، فتكون ميالة للتعنيف وإثارة المتاعب، مجردة من كل تعقل، لدرجة أن الرجل يظل حيالها مشدوهاً. إني أقسم في بعض الأحيان أن أبعد عن النساء قاطبة، لأنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أن الثانية ستتعلم من الأولى، وكلهن سواء». وراح ينظر إلى أخيه في حسد غريب، بعينين يلوح فيهما الأسى، وكأنه طفل كبير، ثم قال في حزن:

«إنك سعيد الحظ، وأسعد حظاً مني؛ لأنك متحرر من النساء، متحرر من الأرض. أما أنا فمكبّل بالاثنتين. إني مكبّل بهذه الأرض اللعينة التي تركها لي أبي. وإذا لم أعن بأمرها، لن نحصل على شيء منها، فهؤلاء القرويون الملاعين كلهم لصوص، يتحالفون ضد مالك الأرض، مهما كان عادلاً طيب القلب. أما عن ناظر عزيتي. فمن ذا الذي سمع قط عن رجل أمين يعمل ناظر عزة؟!» وأرخى فمه الغليظ في شجن، وتنهذ ثانية، ثم نظر إلى أخيه مرة أخرى، وقال: «أجل، إنك سعيد الحظ، إذ ليس لديك أرض، ولست مرتبطاً بأي امرأة».

فأجابه وانج النمر بمتهى الازدراء:

«لست أعرف نساء على الإطلاق».

وقد اغتبط حينما انقضت الأيام الأربعة وأمكنه أن يمضي إلى أروقة وانج الثاني.

عندما دلف وانج النمر إلى بيت أخيه الثاني، لم يتمالك نفسه من أن يعجب حين رأى كم هو مختلف عن بيت الآخر، وكم هو مفعم بالمرح

الصاخب، رغم الشجار الذي ينشب بين الأطفال. وكان كل هذا المرح والصخب يجيش ويتعالى، ثم يتركز حول زوجة وانج الثاني القروية. كانت مخلوقة كثيرة الجلبة، شديدة الصخب، متوردة الوجه، عالية الصوت، كلما تحدثت جلجل صوتها في أرجاء البيت. وبرغم أنها كانت تفقد أعصابها عشرات المرات في اليوم الواحد، فتصك رأس هذا الطفل في رأس ذاك، أو تطيح بذراعها، مشمرة كمها دائماً إلى ما فوق مرفقها، فتصفع أحد الأطفال على خده صفعة مدوية، حتى إن البيت كان مرتعاً للزئير والصراخ من مطلع الصباح إلى هبوط الليل، فضلاً عن أن أصوات الخدم جميعاً كانت تدوي عالياً كسيدتهم، برغم هذا كانت زوجة وانج الثاني مولعة بأطفالها، بطريقتها الخشنة، فتمسك بأحدهم وهو يمر بها، وتحك أنفها في عنقه السمين. وعلى حين أنها كانت مدبرة غاية التدبير في إنفاق المال، لم يكن أحد الأطفال يأتي إليها باكيًا في طلب بنس لشراء قطعة من الفاكهة المسكرة، أو بعض الأطعمة الحلوة الساخنة من أحد الباعة المتجولين، أو عود من ثمار الزعرور المغموسة في السكر، أو ما شابه ذلك من الأشياء التي يكلف بها الأطفال، إلا وتدس يدها في ثنايا صدر رداؤها، وتنقب حتى تخرج له بنسًا. وفي أرجاء هذا البيت الصاخب الذي يفيض بالحيوية، يتحرك وانج الثاني هادئًا رصينًا، مليئًا بخططه الخفية، يغمره دائماً شعور بالرضا عن أهل بيته جميعاً، ويعيش مع زوجته في هناء مقيم.

وللمرة الأولى في هذه الأحيان نحى وانج النمر جانباً -لفترة من الزمن- خططه لبلوغ المجد. وفي حين كان رجاله ينعمون بالراحة

ويقصفون، عاش هو في بيت أخيه، حيث وجد هناك شيئاً يستهويه. هنالك أدرك السر في أن ابن أخيه المجدور قد نبع مرحاً ضاحكاً من هذا البيت، على حين أن الغلام الآخر كان دائماً مذعوراً متهيّباً. فقد أحس بالرضا يشيع بين وانج الثاني وزوجته، وأحس به يغمر الأطفال أيضاً، مع أنهم لم يكونوا يغتسلون كثيراً، بل ولم يكن أحد من الخدم يعيرهم اهتماماً يعدو العناية بإطعامهم في أثناء النهار، ثم وضعهم في هذا الفراش أو ذاك، إذا ما أقبل الليل. ومع ذلك، كان كل طفل من بين هذا «الطاقم» من الأطفال يفيض بالمرح. وراح وانج النمر يتبعهم بعينه في كل مكان، بينما تتحرك في قلبه بعض المشاعر الغريبة. وكان من بينهم طفل في الخامسة أو نحو ذلك، أولاه وانج النمر جلّ اهتمامه، إذ كان أكثر الصبية امتلاءً ووسامة، وأحس بقلبه يهفو إليه بصورة ما. لكنه حين كان يسط يده وجلاً نحو الطفل، أو يعثر له على بنس، فيقدمه إليه، يرسم الوقار فجأة على وجه الطفل، ويضع إصبعه في فمه، محملاً في نظرات وانج النمر الجادة، ثم يجري بعيداً وهو يهز رأسه معرضاً. وكان وانج النمر يتألم لهذا الرفض كما لو كان الطفل رجلاً، ومع ذلك يحاول أن يتكلف الابتسام، وكأن شيئاً لم يحدث.

على هذا النحو ظل وانج النمر ينتظر انقضاء هذه الأيام السبعة، وقد جعلته بطالته النادرة الحدوث يجنح إلى التأمل أكثر من المعتاد. ذلك أنه حين رأى هذين البيتين يزخران بالأطفال، راوده من جديد شعور بالنقص، شعور بافتقاره إلى ولد يلتصق به، فأمعن في التأمل، وراح يفكر قليلاً في النساء، إذ كانت تلك أول مرة يعيش فيها منطلقاً في بيت توجد فيه

الزوجات والوصيفات والشابات من الإماء راكضات هنا وهناك. وأحياناً كانت تتحرك في أعماقه مشاعر غريبة عذبة، حين تقع عينه على وصيفة هيفاء، وهي توليه ظهرها، بينما تقوم ببعض أمرها، فتعود به الذاكرة إلى يوم كانت بيرلوسوم تبدو بهذه الصورة، وهي تجوب أرجاء هذه الأروقة بالذات، حيث كان يعيش في حدثه. لكن، ما إن تستدير إليه الوصيفة ويرى وجهها حتى يجثم عليه اضطرابه القديم. والحق أن شيئاً كان يختم على نبع الحيوية في شبابه، لدرجة أنه كان يحس بشيء من التوقف في نبضات قلبه، حين يرى وجه امرأة، فيشبح عنها.

في أثناء بطالته، وهذا الشعور الشاحب يتحرك في أعماقه، ظل يساوره القلق، وفي إحدى العصاري، حدثته نفسه أن يذهب ويقدم فروض الاحترام إلى لوتس، ففي أروقتها غالباً ما كان يرى بيرلوسوم في تلك الأيام الغابرة، فراودته رغبة خفية في أن يلقي نظرة على الحجرات والأروقة مرة أخرى. فانطلق إليها، بعد أن أرسل خادمه أولاً ليعلم مقدمه. فنهضت لوتس من مكانها حيث كانت تجلس إلى المائدة، تلعب الميسر مع صديقاتها العجائز من سيدات البيوت الأخرى. بيد أنه أبى أن يمكث طويلاً. كلا، بل جاس بعينه في أرجاء هذه الحجرة، فتذكرها وتمنى في هذه اللحظة لو أنه لم يأت، فنهض وقد عاوده القلق، وأبى البقاء. لكن لوتس لم تكن لتدرك كنه نظراته السابحة في التأمل، فصاحت:

«انتظر، فعندي شراب الزنجبيل المسكر في الإبريق، وعندني جذور اللوتس المسكرة، وما إلى ذلك من الأشياء التي يحبها الشباب... فبرغم بدائتي وتقدمي في السن، لم أنس بعد طيبة الشباب. كلا، ما زلت أذكر

تمامًا طبيعتكم جميعًا!».

ووضعت يدها على ذراعه، وضحكت ضحكتها الغليظة الفظة، وهي تغمز له بعينها. وفجأة استولى عليه شعور بالاشمئزاز منها، فشد قامته وانحنى، ثم استأذن منها ثانية، واسرع خارجًا. لكن ترامت إلى سمعه قرقرة ضحك النسوة العجائز، وهن يلعبن الميسر، وظل الصوت يلاحقه عبر الأروقة.

على أنه، في أثناء سيره، ظلت ذكرياته تثير في نفسه مزيدًا من القلق، وقال ليشد من أزر نفسه.. إن حياته الآن بعيدة كل البعد عن هذا المكان، وإنه يجب أن يمضي في طريقه، وإنه سيمضي بعيدًا مرة أخرى، بعيدًا عن هذه الأروقة، حاليًا يزور قبر أبيه مرة، كما يقتضيه الواجب، لا سيما قبل أن يواصل مغامرته.

ومن ثم، ففي الصباح التالي، وهو اليوم السادس، قال وانج الثاني: «لن أمكث هنا أكثر من الفترة اللازمة لأن أشعل شيئًا من البخور عند قبر أبي، وإلا اعتري رجالي الكسل والتراخي، فما زال أمامنا طريق طويل وعمر. ما قولك بشأن الأموال التي أحتاج إليها؟».

فقال وانج الثاني:

«لا شيء، سوى أنني سوف أعطيك كل شهر ما قد اتفقنا عليه».

على أن وانج النمر صاح في ضجر:

«ثق أنني سوف أرد إليك يومًا كل ما اقترضته منك. إنني ماض الآن إلى قبر أبي، وفي هذه الفترة، اعمل على أن يكون الغلامان على أهبة

الاستعداد للرحيل معي، وعلى ألا يشرب الخمر حتى الثمالة أو يكتظا بالطعام هذه الليلة. لأننا سنشد الرجال فجر الغد». ومضى خارجاً تراوده شبه أمنية ألا يضطر إلى اصطحاب ابن أخيه الأكبر مرة أخرى، لكنه لم يكن يدري كيف يتسنى له أن يرفض اصطحابه معه، خشية أن يولد ذلك غيرة في القلوب. وبينما كان يمضي في طريقه، أخذ معه قليلاً من البخور من كمية مذخورة بالبيت، وانطلق خارجاً إلى قبر أبيه.

كان هذان الاثنان: الأب والابن، بعيدين كل البعد أحدهما عن الآخر، وهما على قيد الحياة. بل لقد كانت طفولة وانج النمر تشوبها المرارة، لأن أباه أصر على وجوب بقاءه في الأرض، فنشأ كارهًا للأرض. وأحس نحوها الآن بالكراهة. وبينما هو يقترب من البيت المشيد من الطين الذي يمتلكه، كرهه أيضاً، رغم أنه كان مرتع طفولته. لم يشعر نحوه بالحب، لأنه كان يوماً بمثابة السجن بالنسبة إليه، حتى لقد اعتقد أنه لن يتحرر من إساره مطلقاً. فلم يقترب منه، بل دار من حوله، واخترق غابة صغيرة من الأشجار، مقترباً من الرابية، التي تستوي عليها مقابر الأسرة.

وإذ هو يقترب في خطاه السريعة، تطرق إلى سمعه صوت رقيق خافت كأنما هناك إنسان يبكي، فسأل نفسه: من ذا الذي يحتمل أن يبكي عند ذلك القبر؟ فقد كان يعلم أن لوتس تلعب الميسر حينذاك، ويعلم حق العلم أن من المحال أن تكون هي الباكية. فاتأد في خطواته الفسيحة، واقترب عن كثب، وأخذ يسترق النظر بين الأشجار. هنالك رأى أعجب مشهد وقعت عليه عيناه طوال حياته. كانت بيرلوسوم تسند رأسها على قبر أبيه، وهي تجلس القرفصاء على الخضيرة، بالطريقة التي تعتمد إليها

النساء، حين يذرفن الدموع، على اعتقاد منهن أن ليس ثمة أحد بمقربة، وأن في وسعها الإغراق في البكاء دون ما سلوى. وعلى مسافة ليست بالبعيدة منها، كانت تجلس أخته البلهاء التي لم يكن قد رآها طوال هذه السنوات العديدة المديدة. ورغم أن شعرها كان الآن مجللًا بالبياض، ووجهها كان ضئيلاً متغضناً، فقد كانت تجلس في رقعة من ضوء شمس الخريف، تعبت بقصاصة من القماش الأحمر تطويها ثم تعيد طيها، وهي تبسم إذا تراها متوهجة الحمرة تحت أشعة الشمس. في حين جلس غلام ضامر الجسم، أعوج أحذب، وهو يتشبث بمعطفها في إخلاص، شأن الطفل الذي يُطلب إليه أن يسدي خدمة ما لإنسان يحبه. وكان يتجه بوجهه في أسمى نحو المرأة الباكية، وقد تقلص فمه، ولاح عليه أنه هو الآخر موشك على البكاء من أجلها.

وقف وانج النمر هناك، وقد تسمر في مكانه من شدة الدهشة، وراح يصغي إلى بيربلوسوم وهي تواصل نواحيها بطريقتها الرقيقة الخافتة تلك، وكأنما البكاء ينبع من أعماق أعماقها. وفجأة لم يعد يطيق الموقف. كلا، لقد استولى عليه مرة أخرى غضبه القديم على أبيه، ولم يعد يطيقه. فأسقط البخور من يده حيث كان واقفاً، واستدار ثم مضى مسرعاً، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، فتصعد منه زفرات عميقة في أثناء مسيره، دون أن يعي ذلك.

واندفع عائداً أدراجه عبر الأرض، لا يدري من أمره شيئاً سوى أنه يجب أن يتعد عن هذا المكان، عن هذه الأرض، عن هذه المرأة، يجب أن ينصرف إلى شؤونه الخاصة. سار عائداً أدراجه تحت شمس الخريف

القائظة وهي ترسل أشعتها صافية وضاءة إلى الحقول، لكنه لم ير منها شيئاً، ولم يلحظ أي صورة من صور الجمال.

وعند بزوغ الفجر، كان قد استيقظ من نومه، واعتلى صهوة جواده الأحمر، الذي راح يقعي ويقفز ضجراً في البرد القارس، فتصطدم حوافره بعنف على أحجار الشارع المرصوف. وعلى ظهر حماره، جلس الغلام المجذور، وقد امتلاً بكل ما تناوله من طعام في وجبة الصباح. فمضيا راكبين حول البيت، حتى بلغا بوابة بيت وانج الأكبر لإحضار الغلام الآخر. غير أنهما ما كادا ينتظرانه، حتى خرج أحد الخدم راكضاً من البوابة، صائحاً وهو يجري إلى مكان ما:

«يا له من شيء مشؤوم! يا لها من لعنة هبطت على هذا البيت!» وظل يركض في طريقه إلى مكان ما.

إذ ذاك، أحس وانج النمر بضجره يستيقظ في أعماقه، وهتف قائلاً: «أي لعنة هذه؟ إن اللعنة هي أن الشمس تقترب من الأفق وأنا لم أنطلق بعد في طريقي».

لكن الخادم لم ينظر خلفه، فأخذ وانج النمر يصب وابلاً من اللعنات في حرارة بالغة، وصاح في الغلام المجذور:

«إن ابن عمك ذلك الغلام اللعين ليس إلا عبناً بالنسبة إليّ، ولن يكون أبداً أي شيء آخر غير ذلك! اذهب وابحث عنه حتى تعثر عليه، وأخبره أن عليه أن يحضر، وإلا فلن أصحبه معي!».

وفي التو انزلت الغلام المجذور هابطاً من على ظهر حماره الضئيل

العجوز، وهرع إلى الداخل. وبطريقة أكثر تؤدة، هبط وانج النمر من على صهوة جواده، وتقدم إلى البوابة، ثم ناول العنان لحارس الباب، كي يمسك له به. لكن قبل أن يخطو خطوة أخرى، كان الغلام قد خرج ثانية، يبدو وجهه ناصع البياض كالأشباح، وهو يلتقط أنفاسه في سرعة خاطفة، وكأنه كان يعدو حول جدران المدينة. وقال لاهثاً بين أنفاسه:

«لن يأتي مرة أخرى على الإطلاق؛ إنه مشنوق وميت!».

فصاح «وانج النمر»: «ماذا تقول أيها القرد الصغير؟» ثم قفز وراح يعدو إلى داخل بيت أخيه.

كان الاضطراب يسود المكان حقاً، وكان الرجال والنساء والخدم جميعاً يحتشدون حول شيء ما في الفناء، وكانت تتعالى فوق الصباح والضجيج صرخات مدوية تطلقها إحدى النساء، كانت أم الصبي هي التي تطلق هذه الصرخات. لكن وانج النمر أزاح المحتشدين جانباً، وإذا به يرى وانج الأكبر وسط هذا الحشد، وقد امتقع وجهه البدين حتى صار أصفر في لون الشحم القديم، يهتز جسده من أثر البكاء، وهو يعتمد بين ذراعيه جثة ابنه الثاني. كان الصبي ممدداً هناك في الفناء تحت سماء الصباح الزاهرة، جثة هامة، ورأسه يتدلى إلى الخلف فوق ذراع أبيه. فقد شقق نفسه بحزامه على عمود خشبي في الحجرة التي كان ينام فيها مع أخيه الأكبر، ولم يدر أخوه بالأمر حتى استيقظ في الصباح، لأنه كان مستغرقاً في نوم عميق بعد أن احتسى الخمر في إحدى الحفلات المرححة في الليلة السابقة. ولما استيقظ من نومه عندما بزغ شعاع الفجر الشاحب، ورأى الجسم الضئيل متدلياً، ظنه رداءً في بادئ الأمر، فسأل نفسه في

عجب: لماذا هو معلق هناك؟ لكنه حينما تحقق منه، أطلق صرخات مدوية، فأيقظ أهل البيت.

بعد أن روى أحدهم هذه القصة لوانج النمر، وساهم عشرون من الآخرين في روايتها، وقف يطل على هذا الابن الميت، تساوره أغرب المشاعر، ورثى لهذا الصبي هنيهة، كما لم يرث له قط وهو على قيد الحياة، فقد بدا الآن بعد موته بالغ الهزال والضآلة. ثم سما وانج الأكبر بعينه، فرأى أخاه هناك، فقال وهو ينشج بالبكاء:

«لم أكن أتخيل مطلقاً أن طفلي هذا سيؤثر الموت على الذهاب معك. لا بد أنك كنت تعامله معاملة في غاية السوء حتى جعلته يبغضك إلى هذا الحد! من حسن حظك أنك أخي، وإلا كنت... كنت...».

فقال وانج النمر في لهجة أكثر رقة مما اعتاده في الحديث:

«لا يا أخي، لم أكن أعامله معاملة سيئة. بل لقد كان لديه حمار يركبه، في حين أن الآخرين ممن يكبرونه سنّاً كانوا يمشون على الأقدام. لكنني لم أكن أتخيل أنه شجاع إلى حد أن يجابه الموت. لقد كان من الممكن أن أخلق منه شيئاً - مهما يكن من أمره - لو أنني أدركت أنه يحمل في أعماقه القدرة على لقاء الموت».

وظل واقفاً يتفرس في الغلام هنيهة. ثم بدأ فجأة بعض الهرج والمرج، حينما عاد الخادم الذي كان قد خرج يعدو إلى مكان ما.. عاد يصطحب أحد العرافين، وبعض الكهنة يحملون طبولهم، وكل من يقتضي واجبهم المجيء في حالة مثل هذا الموت المشؤوم. وبينما يسود الهرج والمرج،

مضى وانج النمر بعيداً، وراح ينتظر وحيداً في إحدى الحجرات.

ولكنه بعد أن انتظر، وقام بكل واجبه كأخ في هذا البيت الحزين، امتطى جواده ومضى. وبينما يمضي في طريقه، اشتد به الحزن عن ذي قبل، وكان لزاماً عليه أن يتجلد، فراح يذكر نفسه المرة تلو المرة أنه لم يضرب الغلام قط أو يضطهده بأي صورة من الصور، وأن أحداً لم يكن يتخيل أنه يحمل في أعماقه هذا اليأس الذي بلغ به حد القضاء على حياته. وقال في نفسه إن هذا قدر محتوم من السماء، لم يكن في وسع بشر أن يتحاشاه، فهكذا حياة الإنسان، تتحكم فيها السماء على هذا النحو، حمل نفسه على أن ينسى الغلام الشاحب، وأن ينسى منظره حينما كان رأسه ملقى على ذراع أبيه، وحدث نفسه قائلاً:

«قد لا يكون الأبناء أيضاً نعمة خالصة».

بعد أن بعث في قلبه الراحة على هذا النحو، أحس أنه أحسن حالاً، فصاح بحرارة في الغلام المجذور:

«هيا يا غلام، فأمامنا طريق طويل، ولا بد أن ننطلق فيه».



ألهب وانج النمر جواده بسوطه الجلدي المجدول، وأطلق له العنان، فانطلق يركض عبر الريف وكأنه يطير على أجنحة. وكان اليوم ملائمًا للشروع في مغامرة عنيفة كمغامرته، فالسماء صافية الأديم، والرياح تهب حادة رطبة فياضة بالحيوية، فتميل بالأشجار في هذا الاتجاه وذاك، وتكاد تقتلعها من جذورها، وتسوط الأوراق، فتطيح بها من على أغصانها، وتثير الغبار في طرق المركبات، وتدوم حول نفسها فوق حقول القمح المجزوزة.. وفي قلب وانج النمر، استيقظ شعور بالاستهتار أشبه بالرياح ذاتها، وتعمد أن يتخذ طريقه بعيدًا عن البيت المشيد من الطين، فدار دورة فسيحة مبتعدًا عن ذلك المكان الذي تعيش فيه بيربلوسوم، قائلاً لقلبه:

«لقد ولى الماضي بخيره وشره. إني أنطلق الآن إلى آفاق عظمتي ومجدي».

هكذا بدأ النهار، وأشرقت الشمس مكتملة هائلة، تتألق على أطراف الحقول، لكنه تطلع إليها من غير أن يهتز له جفن، ولاح له أن السماء نفسها تباركه في يوم كهذا، وأنه سينال العظمة؛ لأنها كتبت له في لوح القدر. وفي الصباح الباكر أقبل على الكفور التي ينزل بها رجاله، وخرج

تابعه الأمين الأشرم لملاقاته، قائلاً:

«حسن جداً أنك قد أتيت يا قائدي، فالرجال قد ارتاحوا وامتلاًوا بالطعام، وأصبحوا يتحرقون إلى الحصول على مزيد من الحرية». فهتف وانج النمر: «أخرجهم إذن في صفوف متراسة، بعد أن يتناولوا وجبة الصباح. ولنمض في طريقنا، كي نقطع نصف المسافة إلى أرضنا، قبل أن يقبل الغد».

وكان وانج النمر في أثناء تلك الأيام التي قضاها في بيت وانج الثاني، قد أمعن الفكر طويلاً في أي الأراضي ينبغي أن يستولي عليها ليخضعها لحكمه. وقد تحدث في الأمر إلى أخيه الذي كان يتسم بالحرص والفتنة، فبدا لهما أن الأراضي الواقعة عبر الحدود مباشرة، داخل نطاق الإقليم المتاخم، إنما هي أراض ملائمة تماماً للهدف، وخير ما يمكن الاستيلاء عليه. كانت هذه الأصقاع بعيدة عن موطن وانج النمر بالقدر الذي لن يتيح له أن يقتات على أهله وعشيرته إذا دعت الحاجة الماسة، ومع ذلك، فهي قريبة بالقدر الذي يمكنه من الاحتماء بقومه إذا مُني بالهزيمة في إحدى الحروب. وفضلاً عن ذلك، فهي من القرب بحيث يمكن أن تنقل إليه بسهولة تلك الفضة التي سيحتاج إليها ريثما يوطد أقدامه، دون أن يحيق بها خطر داهم من جانب اللصوص. أما عن الأراضي نفسها، فهي أرض طيبة تشتهر بالخصوبة، لم تبتل بالقحط كثيراً، تتراوح بين الارتفاع والانخفاض، كما أن بها جبلاً تصلح ملاذاً في حالة التقهقر. وبها بعد هذا كله طريق رئيس يصل بين الشمال والجنوب، يمر به المسافرون جيئةً وذهاباً، ومن الممكن جباية ضرائب على الدخل من مثل أولئك

المسافرين، في مقابل منحهم حق المرور في ذلك الطريق. وهناك أيضًا مدينتان أو ثلاث من المدن الكبرى، وإحدى المدن الصغرى، بحيث لن يحتاج وانج النمر إلى الاعتماد كلية على الكادحين في الأرض. ولهذه الأراضي قيمة أخرى كذلك، هي أنها تصدر إلى الأسواق أجود أنواع الغلال اللازمة لصنع الخمر، فلم يكن أهلها يعانون الفاقة.

لم تكن هناك سوى عقبة واحدة فحسب، تقف في سبيل الحصول على كل هذه الخيرات، هي أن أحد ملوك الحرب كان يسيطر فعلاً على ذلك الإقليم، ولا بد لوانج النمر أن يتخلص منه أولاً، إذا أراد أن يصل بالفلاح إلى مده، إذ ليس ثمة إقليم يبلغ من الثراء حد أن يكفل الرزق لاثنيين من ملوك الحرب معاً. وكان وانج النمر يجهل طبيعة هذا الملك واسمه ومدى قوته، إذ لم يمكن أن يستدل من أخويه على شيء قاطع بشأنه، سوى أنهما قد سمعا أنه يطلق عليه اسم الفهد، لأن له جبهة غريبة الشكل تنحدر إلى مؤخرة رأسه كجبهة الفهد، وأنه يحكم الناس حكماً فظاً أثار الكراهية في قلوبهم.

ومن ثم أدرك وانج النمر أنه يجب أن يتسلل إلى تلك الأراضي خفية، لا في زحف عسكري يتسم بالجرأة. كلا، يجب أن يتسلل في الخفاء، مفرقاً رجاله إلى جماعات صغيرة، كيلا يبدو على مظهرهم أنهم أعظم خطراً من بضع جماعات من الجنود الفارين، ثم يبحث عن ملاذ يأوي إليه في أحد الجبال، ومن ذلك الموقع الملائم يمكنه أن يتحرى في أرجاء الإقليم، بصحبة أتباعه الأمناء، حتى يتبين أي صنف من ملوك الحرب ذلك الذي يتحتم عليه أن يلتحم به، ويسلبه الأراضي التي كان يحس بأنها

قد أصبحت فعلاً ملك يديه بحكم القدر.

وكما دبر الخطة، نفذها. فبعد أن تجمع رجاله خارج الكفور، وتأكد أن كل رجل قد تناوله طعامه وبعث في جسمه الدفء ببعض الخمر الجيدة كي تقيه غائلة الرياح القارسة البرودة التي كانت تنافح حرارة الشمس الصاعدة، وبعد أن حرص على دفع ثمن كل شيء للقرويين، وسألهم: «هل أقدم رجالي على شيء لا يليق بهم في بيوتكم؟» وسمعهم جميعاً يجيبون في طلاقة: «كلا، لم يفعلوا شيئاً. يا ليت جميع الجنود كانوا كجنودك!». حينئذ اغتبط وانج النمر، وسحب رجاله بعيداً خارج نطاق القرى، حيث أفضى إليهم، وهم ملتفون من حوله، بأمر الأراضي التي سيقودهم إليها، قائلاً:

«إنها أجود الأراضي قاطبة، ولا يوجد بها سوى ملك واحد من ملوك الحرب يتحتم علينا أن نقاتله. وهناك أيضاً في تلك الأرض، ستجدون من الخمر المسكرة ما لم تذوقوه قط من قبل».

حين سمع رجاله هذا القول، هتفوا جذلاً، وصاحوا صيحات مدوية: «امض بنا إلى هناك يا قائدنا؛ لقد تحرقنا شوقاً إلى مثل هذه الأراضي!».

فأجابهم وانج النمر، وهو يتسم ابتسامته الصارمة:

«إن الأمر ليس هيناً إلى هذا الحد، إذ يجب علينا أن نتحرى قوة الملك الذي يسيطر عليها. فإن كان رجاله كثرة بالنسبة إلينا، فلا بد أن نبحث عن السبل الكفيلة بكسبهم منه واستمالتهم إلى صفوفنا. على كل رجل منكم

أن يتجسس بعينه وأذنيه. ولا ينبغي أن يعرف أحد أبداً سبب قدومنا، وإلا ضعننا. سوف أذهب بنفسى أولاً لأرى أين يمكن إقامة معسكرنا، بينما يبقى تابعي الأمين الأشرم عند كفر على الحدود يُسمّى «وادي السلام». سيمكث في خان سمعت عنه هناك، هو آخر خان في الشارع على وجه التحديد، توجد خارج بابه راية معلقة تحمل شارة الحانة. سينتظركم هناك، ويسر إليكم باسم المكان الذي سأحدده لاجتماع فيه. والآن يجب أن تتفرقوا في مجموعات: ثلاثة أو خمسة أو سبعة، وتهيموا على وجوهكم كما لو كنتم جنوداً فارين من الجيش، ولئن سألكم أي رجل عن الوجهة التي تنشدونها، استفسروا منه عن مكان الفهد على زعم أنكم قد أتيتم للانضمام إليه. وسوف أمنح كل واحد منكم ثلاث قطع من الفضة لطعامه ريشما نلتقي. على أن هناك أمراً واحداً أوجهه إلى كل فرد منكم، ذلك إنه إذا ترامى إلى سمعي أن واحداً من رجالي قد أساء إلى مشاعر رجل رقيق الحال، أو تطلع إلى امرأة لا تحل له، فلن أسأل عمن يكون هذا الرجل، بل سأقتل قتلاً اثنين من الرجال في مقابل كل رجل من هذا القبيل يبلغني أمره».

إذ ذاك هتف أحد الرجال: «لكن يا قائدي ألن نمنح مطلقاً الحرية في أن نفعل الأشياء التي يسمح بها للجنود؟».

فصاح به وانج النمر: «حينما أصدر أمري، تكون لكم الحرية! لكنكم لم تقاتلوا بعد في سبيلي، فكيف تنالون غنائم المعركة في حين أن المعركة لم تنشب حتى الآن؟».

فلاذ الرجل بالصمت، وانتابه الخوف، فقد عُرف عن وانج النمر أن

نوبات غضبه تواتيه كالفجاءة، وأنه لم يكن بالرجل الذي يستطيع المرء أن يحرك مشاعره بكلمة لبقة أو قول مرح يذكر في مناسبتة. على أنه عرف أيضًا بالعدل، وكان هؤلاء الرجال الذين تبعوه على خلق طيب، ويدركون ما هو حق وعدل. والحق أنهم لم يخوضوا بعد حومة الوغى، فرضوا بالانتظار، ما داموا يحصلون على الطعام والمأوى والأجر.

ثم أخذ وانج النمر يراقبهم يتفرقون في جماعات. وبينما هم يتفرقون على هذا النحو، راح يدفع لهم الفضة من الكمية المذخورة التي كان يحملها في جعبته. ثم اصطحب الغلام المجدور على ظهر حماره والتابع الأمين الأشرم على ظهر دابة كان قد ابتاعها له من أحد الكفور، وانطلق الثلاثة بمفردهم صوب الشمال الغربي.

حين وصل وانج النمر إلى حدود ذلك الإقليم الذي كان قد سمع عنه، حمل جواده الأحمر على أن يعتلي ضريحًا ضخماً لأحد الأثرياء، كان ينتصب عاليًا هناك، ومن هذا الموقع الملائم أخذ يجوس بعينه أنحاء الأرض. كانت أبهى أرض وقع عليها بصره طوال حياته، تنبسط أمام عينيه، صاعدة هابطة في تلال صغيرة منخفضة ووديان فسيحة قليلة الغور، تكسوها الخضرة الباهتة لبواكير قمح الشتاء الذي انبتق نبتة حديثاً من الأرض. وإلى الشمال الغربي تشامت التلال فجأة إلى جبال وعرة مسننة زاخرة بالصخور، تبدو واضحة المعالم أمام السماء الزاهرة في ذلك اليوم. وكانت بيوت أهل تلك المنطقة متناثرة في بعض القرى الصغيرة والكفور، وهي بيوت متينة البنيان مشيدة من الطين، ليست متداعية، والكثير من أسطحها مسقوف حديثاً بالقش المتخلف من حصاد

ذلك العام. بل لقد كانت هناك بضعة بيوت مصنوعة من قوالب الطوب والقرميد. وفي مداخل البيوت التي تقع على مقربة في مجال الرؤية الواضحة، وقع بصره على أكوام من القش، وقد ترمى إلى سمعه من بعيد صوت نقنقة الدجاج الذي وضع البيض، وبين الفينة والفينة كانت الريح تحمل إليه حيث يقف، مقتطفات من أغنية يترنم بها أحد الفلاحين وهو يزرع حقوله. كانت الأرض في غاية البهاء، فقفز قلبه في جنبات صدره حين رأى كم هي بهية سخية. لكنه لم يكن يزمع أن يجوس خلالها في ثياب الجندي التي يرتديها، ممتطياً صهوة جواده الأحمر، ما قد يطلق شائعات الحرب بين الناس قبل أن يحين الأوان. كلا، لقد ألقى ببصره، واختط لنفسه طريقاً متعرجاً يفضي إلى الجبل، حيث يمكنه أن يختفي مع رجاله، ثم يتحرى قوة عدوه، قبل أن يتاح لأحد أن يدري بمقدمه.

وكانت هناك قرية صغيرة عند سفح الراية التي يربض عليها هذا الضريح الشامخ وعدد من الأضرحة الأخرى، تلك هي قرية الحدود التي كان وانج النمر قد تحدث عنها إلى رجاله، وهي تمتد لمسافة تبلغ الميل، على جانبي شارع واحد. فلوى عنان جواده متجهاً إلى هناك، وعبر القرية، بينما الاثنان الآخران يتقدمان في إثره. كان الوقت حينذاك قد بلغ تلك الفترة من الصباح التي يعود فيها الفلاحون إلى كفورهم، فكان مشرب القرية غاصاً بهم، وهم يحتسون الشاي، أو يرتشفون ملء أوان من الحساء المصنوع من دقيق القمح أو الحنطة السوداء. وكانت سلالهم التي أفرغت محتوياتها في الأسواق، مكومة على الأرض بجوارهم، وهم يتناولون الطعام. وحين سمعوا وقع حوافر الدواب على أحجار الشارع، سموا بأعينهم في دهشة، وراحوا يحملقون، وقد فغرو أفواههم في أثناء

مرور وانج النمر. كما أدار هو رأسه أيضًا وألقى نظرة عليهم، كي يتبين أي صنف من الرجال هم، فغمرت قلبه الغبطة حين رأى كم هم حسنو السمات، مفتولو العضلات، سمر الوجوه، يفيضون بالحيوية، تبدو عليهم آثار الغذاء الجيد. وعاد يقول في نفسه من جديد إنه قد وفق غاية التوفيق في اختيار أراضيه، ما دام يترعرع بين أحضانها مثل هؤلاء الرجال. على أنه ألقى عليهم هذه النظرة فحسب، ومضى في تواضع غير عادي، كمن يجتاز أحد الأماكن زائرًا، ثم يمضي في سبيله إلى مكان آخر بعيد.

وفي نهاية الشارع وجد الحانة التي كان قد سمع بها، فأمر الاثنين بالانتظار خارجًا، وأوقف جواده وترجل، ثم أزاح جانبًا الستار المسدل على الباب، ودلف إلى داخل الحانة. لم يكن ثمة أحد هناك، فقد كان المكان ضيقًا غاية الضيق، لا يوجد به سوى نضد واحد أو نحو ذلك لرواد الحانة. جلس وانج النمر، ثم ضرب بيده على النضد، فخرج أحد الصبية راكضًا، لكنه حين رأى شراسة ذلك الرجل الجالس هناك، هرع عائداً أدراجه إلى أبيه، وهو صاحب الحانة، فخرج الرجل ومسح النضد بمئزرته الممزقة، قائلاً في لهجة مهذبة:

«ماذا ستحتسي من الخمر يا سيدي الزائر؟»

فأجابه وانج النمر: «ماذا عندك؟».

أجاب صاحب الحانة: «لدينا خمر السورغو الطازجة التي تصنع في هذه الأنحاء. إنها أجود أنواع الخمر، وهي تشحن على ظهور السفن إلى كل أرجاء الأرض، بل إنها على ما أظن ترسل إلى الإمبراطور في العاصمة».

لدى هذا القول، ضحك وانج النمر في شيء من الازدراء، ثم قال:
«ألم يترام إلى سمعكم في هذه القرية أنه ليس لنا إمبراطور في هذه
الأيام؟».

إذ ذاك ارتسمت على وجه الرجل نظرة رعب هائلة، وهمس قائلاً:
«كلا، لم أسمع بهذا! متى فارق الحياة؟ أو هل اغتصب منه العرش
بالقوة، وإذا كان الأمر كذلك، فمن إمبراطورنا الجديد؟».

وعجب وانج النمر أن من الممكن أن يوجد إنسان على هذا القدر من
الجهل، فأجابه في شيء من الاحتقار:

«ليس لنا إمبراطور جديد على الإطلاق في هذه الأيام».

فقال الرجل في رعب، وكأن كارثة جديدة قد حلت به على حين
غرة: «إذن، فمن الذي يحكمنا؟».

قال وانج النمر: «إنه زمن الصراع. يوجد حكام متعددون، ولا يعلم
أحد من منهم سيمكنه الاستيلاء على مقعد الصدارة. إنها فترة في وسع
أي رجل أن يستغلها كي يعتلي سلم المجد».

وما إن قال هذا. حتى حلق به الطموح عاليًا على حين فجأة، ذلك
الطموح الذي يشغل الجانب الأكبر من كيانه، فصاح في قلبه: «ولم لا
أكون أنا ذلك الرجل؟» لكنه لم يقل شيئًا بصوت مسموع، بل ظل جالسًا
ينتظر خمرة بجوار النضد الصغير العاري من الطلاء.

وبعد أن جاء الرجل بإبريق الخمر، قفل راجعًا وقد بدا جليًا من
ملامح وجهه الوقور أنه يعاني ضيقًا شديدًا، ثم قال لوانج النمر:

«إنه لأمر مشؤوم ألا يكون لنا إمبراطور، وكأننا جسد بلا رأس، فهذا يعني اندلاع حركات وحشية في شتى الأنحاء، وما من رجل يرشدنا جميعاً سواء السبيل. إنه أمر سيئ ذلك الذي أنبأني به يا سيدي الزائر. يا ليتك لم تنبئني به، لأنني لن أتمكن الآن من نسيانه، على ضعة شأني، لن أستطيع نسيانه. ومهما كانت قريتنا وادعة مسالمة، فإنني سأعيش كل يوم في خوف مما قد يتمخض عنه اليوم التالي».

وصب الرجل الخمر الدافئة في طاس وقد نكس عينيه. لكن وانج النمر لم يحر جواباً، لأن أفكاره كانت تحلق في مكان آخر بعيداً عن هذا الإنسان الذليل، فقد كان من ناحيته سعيداً بأن يكون الزمن على حاله. وصب الخمر، ثم أفرغها في جوفه بسرعة، فسرت حارة قوية في دمائه، وأحس بها تصعد إلى وجنتيه، وتتصاعد أبخرتها إلى رأسه. فلم يحتس منها أكثر من بضع طاسات، دفع ثمنها وثن طاس آخر حمله خارجاً إلى تابعه الأمين الأشرم. فأحس الرجل لذلك بامتنان بالغ، وأخذ الطاس بين كلتا يديه، وراح يرتشف منه ما وسعه، وهو يتذوقه بلسانه كما يفعل الكلب، ثم ألقى برأسه إلى الخلف، وأفرغه في جوفه، لأن شفته العليا، وهي مشطورة كما كان حالها، تكاد تكون عديمة الجدوى بالنسبة إليه.

ثم عاد وانج النمر أدراجه إلى داخل الحانة، وقال لصاحبها:

«ومن الذي يسودكم هنا في هذا الإقليم؟».

عندئذ، تلفت الرجل شرقاً وغرباً، ولما لم ير أحداً بمقربة، قال في

صوت خفيض:

«إنه زعيم لصوص يُدعى الفهد. وهو إنسان بالغ القسوة عديم الرحمة. ويتحتم على كل واحد منا أن يدفع له ضريبة، وإلا انقض علينا مع جميع رجاله الأشرار. ينقض علينا هو ورجاله كسرب من الغربان المشؤومة ليتنفوا ريشنا. كم نتمنى جميعاً لو أننا استطعنا الخلاص منه!».

فسأله وانج النمر: «لكن، ألا يوجد أحد يقف في وجهه؟» ثم جلس، بعد أن ألقى السؤال في غير احتفال كما لو كان الأمر تافهاً لا يهمه في شيء. ولكي يغالي في التظاهر بعدم الاكتراث، قال للرجل: «جئني بإبريق من الشاي الأخضر الخفيف، فالخمر ما زالت تتقد في حلقي».

وبينما كان الرجل يحضر الشاي، أجاب وانج النمر قائلاً:

«ما من رجل يستطيع أن يقف في وجهه يا سيدي الزائر. إننا نريد أن نشكوه للحكام، إن كان ثمة جدوى من ذلك. لقد حدث ذات مرة أن ذهبنا فعلاً إلى بلاط مقاطعتنا، حيث يعيش الحاكم الأعلى لإقليمنا، وبسطنا له قضيتنا، وطلبنا إليه أن يرسل جنوده، وأن يستعير جنوداً من الحاكم الذي يعلوه منصباً، ويرى ما إذا كانوا مجتمعين سيتمكنهم أن يطردوا هذا الرجل الذي يضطهدنا. لكن، يا سيدي، حين قدم هؤلاء الجنود، كانوا رجالاً قساة القلوب، عاشوا في بيوتنا، واغتصبوا بناتنا، وأكلوا كل ما رغبوا فيه ملء بطونهم دون أن يدفعوا لنا شيئاً، حتى إنهم أصبحوا عبئاً لا طاقة لنا به. بل، والأدهى من ذلك، أنهم كانوا من الجبن بحيث ولوا هاربين بمجرد أن اشتموا رائحة المعركة، فازداد اللصوص صلفاً على صلفهم. لذا مضينا عندئذ وتوسلنا إلى الحاكم أن يرفع عنا نير جنوده، ففعل هذا في نهاية الأمر، على أن الأمر -في أحسن مظاهره- كان يبعث على المرارة

الشديدة، فقد ذهب كثير من الجنود وانضموا إلى اللصوص، متذرعين بأنهم لم يتسلموا رواتبهم لفترة طال مداها، وأنهم يجب أن يحصلوا على القوات. وهكذا أصبحنا أسوأ حالاً عن ذي قبل، فالجندي يملك بندقية يحملها معه أينما ذهب. وكأن هذا لم يكن فيه الكفاية، حتى يأتي حاكمنا ذاك الذي يعيش هناك في قصر المقاطعة، فيبعث بجباة الضرائب، ويفرض ضريبة ثقيلة علينا جميعاً، على الرجال وعلى الأراضي وعلى أصحاب الحوانيت أيضاً، ذلك لأن الدولة، على حد قوله، قد تجشمت تكاليف فادحة في سبيل حمايتنا، ويتحتم علينا أن ندفع لها الثمن لقاء ذلك. وكنا نعلم حق العلم أن الحاكم وجليون أفيونه هما الدولة. لذلك، فإننا منذ تلك المرة لم نطلب أي عون على الإطلاق، مؤثرين أن ندفع المبالغ الطائلة للفهد في كل يوم من أيام الأعياد، وهكذا ندرأ شره. إن الأمر محتمل ما دمنا لا نبتلى بالقحط، فقد مرت علينا حتى الآن سنون عديدة طيبة، ولا ريب أن السماء سوف ترسل إلينا سنة عجفاء في القريب العاجل، ولا بد أن سنين عديدة مجدبة مخبأة لنا في الغيب. ولست أدري ماذا سيكون من أمرنا حينذاك».

أنصت وانج النمر باهتمام إلى كل هذه الرواية الطويلة، بينما كان يحتسي شايه. ثم سأله ثانية:

«أين يعيش هذا الفهد؟».

فجذبه صاحب الحانة من كفه، وقاده إلى نافذة صغيرة في الجانب الشرقي من المحل، ثم أشار بسبابته المعوجة الملوثة بالخمور، قائلاً:

«هناك يوجد جبل ذو قنتين، يسمى (جبل التنين المزدوج) وبين

القنتين يقع أحد الوديان. في ذلك الوادي يكمن وكر اللصوص».

هذا ما كان وانج النمر يترقب سماعه، ومن ثم تهادى في التظاهر بعدم المبالاة، وقال في غير اكتراث، وهو يتحسس فمه الجامد بيده:

«حسنًا، سأبتعد إذن عن ذلك الجبل. والآن لا بد لي أن أمضي في الطريق إلى موطني ناحية الشمال. ها هي ذي الفضة التي لك عندي. أما عن الخمر، فهي على حد قولك، خمر مسكرة صافية وفي غاية الجودة».

ثم خرج وامتطى صهوة جواده ثانية، وتقدم يتبعه الاثنان، دائرًا حول المنطقة، كيلا يمر بقرى أخرى، تقدم فوق قمم التلال المحيطة بها، وعبر أماكن موحشة، لكنه رغم ذلك لم يكن قط على مبعدة من الناس، لأن تلك المنطقة كانت تفلح على خير وجه، فكانت عامرة بالقرى والكفور. لكنه لم يحول عينيه عن ذلك الجبل ذي القنتين، وقاد جواده إلى الجنوب منه، متجهًا إلى جبل آخر أقل منه ارتفاعًا، رأى أن بعض أجزائه تكسوها غابات من أشجار الصنوبر.

ظلوا طيلة ذلك اليوم يتقدمون على ظهور دوابهم، وقد لفهم الصمت، إذ لم يكن أحد يتحدث قط إلى وانج النمر، ما لم يبادر هو بالحديث، اللهم إلا إذا كان هناك أمر عاجل للغاية يتحتم قوله. وقد شرع الغلام مرة في شيء من الغناء بصوت خافت، لأنه كان ممن يجدون الصمت باعثًا على الضجر والملالة، لكن وانج النمر أسكته في صرامة؛ إذ لم يكن في حالة توهله للاستماع إلى أي جلبة تتسم بالمرح.

وقبل غروب الشمس انتهى بهم المطاف إلى سفح ذلك الجبل

المكسو بالغابات الذي كانوا قد أمضوا الساعات الطوال راكبين في اتجاهه، فترجل وانج النمر من على صهوة جواده المنهك، وشرع في ارتقاء بعض الدرجات الحجرية البدائية التي تفضي إلى أعلى الجبل. راح يرتقي هذه الدرجات، والاثنان أيضًا من خلفه، في حين كانت الدواب تتعثر فوق الأحجار. وكلما تقدم بهم المسير، ازداد الجبل وعورة، فكان الطريق يمتد فوق صخور شديدة الانحدار، وهنا وهناك تنبثق نهيرات بين الصخور والأشجار، وتصبح الأعشاب كثيفة عميقة. كما كانت الطحالب النامية على الأحجار لينة رخوة، لا تحمل سوى آثار طفيفة تدل على وطء الأقدام البشرية، اللهم إلا في الوسط تمامًا، حيث لاح وكأن شخصًا أو شخصين قد مرا من هذا الطريق ذات يوم. وحينما غابت الشمس في الأفق، كانوا قد بلغوا نهاية هذا الطريق الجبلي الذي أفضى بهم إلى معبد مشيد من الأحجار الخشنة، تتجه مؤخرته ناحية الجرف، حتى لقد كان هذا الجرف في الواقع بمثابة جداره الخلفي. وكانت الأشجار تحف بالمعبد حتى تكاد تخفيه تمامًا، لكن كان من الممكن أن تراه العين، لأن جدرانها الحمراء الحائلة المتداعية كانت تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة. لم يكن سوى معبد صغير، عتيق متهدم، وكانت بواباته موصدة.

فصعد إليه وانج النمر، ووقف برهة ملصقًا أذنه بالبوابة الموصدة، لكنه لم يسمع صوتًا، فأخذ يقرعها بمقبض سوطه الجلدي. مضت فترة طويلة، ولم يقبل أحد، فراح يخبط على البوابة في عنف بالغ، وقد ثارت نائرتة. وأخيرًا فتحت فرجة من البوابة، وتطلع منها وجه كاهن حليق الشعر والذقن، وجه متغضن طاعن في السن. فقال وانج النمر:

«إننا ننشد المأوى هنا هذه الليلة». كان يتحدث وصوته بجلبجلب قاسيًا حادًا جليًا في أرجاء ذلك المكان الذي يخيم عليه الهدوء.

لكن الكاهن فتح من البوابة فرجة أخرى صغيرة للغاية، وأجاب في صوت خافت رفيع النبرات:

«ألا توجد نزل ومشارب في القرى؟ إننا مجرد حفنة قليلة من الرجال ولينا ظهورنا للعالم، وليس لدينا سوى أردأ صنوف الطعام، من غير لحم، ولا نشرب إلا الماء». بينما كانت ركبتاه العجوزتان ترتعدان في داخل أرديته، وهو يتطلع إلى وانج النمر.

بيد أن وانج النمر اقتحم البوابة عنوة، وشق طريقه إلى الداخل، مارًا بذلك الكاهن الهرم، وهو ينادي الغلام والتابع الأمين:

«ها هو ذا المكان الملائم الذي ننشده بالذات».

دلف إلى الداخل دون أن يأبه بالكهنة على الإطلاق. ثم ولج المعبد مخترقًا البهو الرئيسي حيث توجد الآلهة، الذين كانوا -شأنهم شأن المعبد- من بقايا الأزمنة الغابرة، تتساقط القشرة المذهبة من على أجسامهم الفخارية. لكن وانج النمر لم يلق عليهم نظرة واحدة، بل مرّ بهم عابرًا، ومضى إلى الصوامع الداخلية الجانبية التي يقطنها الكهنة، وانتقى لنفسه من بينها حجرة صغير أحسن حالًا من الحجرات الأخرى، فقد نظفت منذ أيام ليست بالبعيدة. هنا حل حزام سيفه، ثم أخذ تابعه الأمين يتجول هنا وهناك حتى عثر له على بعض الطعام والشراب، وإن كان لم يعد القليل من الأرز والكرنب.

لكن في تلك الليلة، لم يكد وانج النمر يضطجع على الفراش في الحجرة التي وقع اختياره عليها، حتى تطرق إلى سماعه صوت عويل خافت عميق، ينبعث من البهو الذي توجد فيه الآلهة، فنهض ومضى خارجًا ليستطلع الأمر. هنالك كان كهنة المعبد الخمسة، ومعهم خادما المعبد، وهما غلامان من أبناء الفلاحين، تركهما أهلها هناك وفاء لصلاة استجابت لها الآلهة. كانوا جميعًا جاثين ينتحبون أمام تمثال بوذا الذي كان يجلس متكئًا على بطنه البدين المتهدل في وسط البهو. وفي أثناء عويلهم كانوا يبتهلون إلى الإله أن يكفل لهم الخلاص. وكانت هناك شعلة تحترق، فيتطاير لهيبها في هذا الاتجاه وذاك، في مهب رياح الليل، بينما هؤلاء جاثون يصلون بصوت مسموع على ضوء اللهب المتطاير.

وقف وانج النمر يتطلع نحوهم، وهو ينصت إليهم، فتبين أنهم يبتهلون إلى الإله أن يحميهم من شره، ويصيحون:

«خلصنا.. خلصنا من اللص!».

ما إن سمع وانج النمر هذا القول، حتى صاح فيهم صيحة حادة مدوية، فقفز الكهنة لدى سماع صوته على حين غرة واقفين على أقدامهم، يتعثرون في أردبتهم من شدة عجلتهم. نهضوا جميعًا ما عدا كاهنًا واحدًا هرمًا، هو رئيس ذلك المعبد، فقد سقط منبطحًا على وجهه، معتقدًا أن ساعته الأخيرة قد حانت. لكن وانج النمر هتف قائلاً:

«لن ألحق بكم أذى، أيها العجائز الصلع! انظروا، إن لدي من الفضة ما يزيد عن حاجتي. فلماذا يساوركم الخوف مني؟» وبينما كان يتحدث، فتح كيس النقود في منطقتة، وأظهر لهم الفضة التي يحملها هناك، وكان

فيه حقيقة من الفضة ما لم يسبق لهم رؤيته طوال حياتهم. واستطرد قائلاً: «لديّ مزيد من الفضة أكثر من هذه. ولست أطلب منكم شيئاً سوى المأوى لفترة وجيزة من الزمن، كما قد يطلب أي إنسان من أحد المعابد في وقت حاجته».

بعث منظر الفضة راحة غامرة في قلوب الكهنة، فراحو يتطلعون بعضهم إلى بعض، وهم يقولون فيما بينهم:

«لعله ضابط أو آخر من رجال الحرب، قتل رجلاً لم يكن ينبغي أن يقتله أو فقد الحظوة لدى قائده، لذا يجب أن يختفي عن الأعين لفترة وجيزة. لقد سمعنا من قبل عن أشياء من هذا القبيل».

أما وانج النمر، فقد تركهم يفكرون كما يحلو لهم، وابتسم ابتسامته الباهتة الخالية من المرح، ومضى عائداً إلى فراشه.

نهض في اليوم التالي عند بزوغ الفجر، وانطلق خارجاً إلى بوابة المعبد. كان صباحاً يغشاه الضباب، والغيوم تجثم على الوديان، وتلف قمة هذا الجبل، فتحجب قمم الجبال الأخرى، وكان وانج النمر وحيداً مختفياً عن أنظار العالم، على أن البرودة القارسة التي كانت تشيع في الهواء ذكرته بأن الشتاء لا بد قادم سريعاً، وأن عليه الكثير مما ينبغي القيام به قبل حلول الثلج، فقد كان رجاله يعتمدون عليه في الحصول على الطعام والمأوى والملبس الذي يقيهم غائلة البرد. ومن ثم دلف إلى داخل المعبد ثانية، ومضى إلى أحد المطابخ حيث كان ينام تابعه الأمين والغلام، ملتحفين ببعض القش، وما زالا غارقين في النوم، وأنفاس الرجل تنطلق كالصفير من شفته الشرماء. كانا يغطان في نوم عميق، في

حين أن أحد خادمي المعبد كان قد بدأ يطعم النار بالقش في عناية، داخل فوهة الفرن المصنوع من قوالب الطوب، وكانت حلقات من البخار قد أخذت تتسرب من تحت الغطاء الخشبي للقدر الحديدية المثبتة على قوالب الطوب. وما إن وقع بصر خادم المعبد على وانج النمر حتى انكمش مترجعاً، وتوارى عن عينيه.

لكن وانج النمر لم يحفل به، بل راح يصيح منادياً على تابعه الأمين، ثم أمسك به، وأخذ يهزه، وهو يأمره بأن ينهض ويتناول الطعام كي يمضي إلى الخان خشية أن يمر به بعض الرجال في ذلك الصباح. عندئذ نهض التابع الأمين مترنحاً من نومه، وهو يمسح على وجهه بكفتي يديه، ويتنأب بصورة بشعة. على أنه دَسَّ بدنه في ثيابه، ثم غمس وعاء في القدر التي كانت تغلي، وراح يرتشف منه شيئاً من عصير السورغو اللامع الذي كان خادم المعبد يطهوه هناك. وما لبث أن انطلق هابطاً إلى سفح الجبل، يبدو رجلاً حسن السمات لو أن المرء رأى منه ظهره دون وجهه. وراح وانج النمر يتبعه بعينه وهو يمضي في طريقه، فأحس نحوه بالتقدير لوفائه.

وبينما كان وانج النمر ينتظر طوال ذلك اليوم أن يتجمع له رجاله في ذلك المكان الموحش، أخذ يدبر ما سيقوم به، ومن سيختار من الأتباع الأمناء ليتخذ منهم أعواناً يبذلون له المشورة. وراح يوزع المهام بحيث تضطلع كل جماعة من الرجال بعمل معين، فهؤلاء للتجسس، وهؤلاء للسعي وراء الطعام، وآخرون لجمع الوقود، وغيرهم لطهي الطعام وإصلاح الأسلحة وتنظيفها، فيسهم كل رجل بنصيبه في حياتهم المشتركة. وفكر أنه يجب ألا يغرب عن باله أن يسيطر عليهم جميعاً بيد

من حديد فلا يكافئهم إلا حين تكون المكافأة مستحقة، وأن ينظم كل شيء تحت سيطرته الكاملة. يجب أن تكون الحياة والموت ملك يديه.

وفضلاً عن ذلك، جعل يدبر كيف سيمضي ساعات بعينها كل يوم، يتولى فيها تدريب رجاله على حيل الحرب ومواقفها، ليكونوا على أهبة الاستعداد حين يقبل وقت النضال. وما كان ليجرؤ على إضاعة طلقات الرصاص هباء في التدريب على استخدام البنادق، نظرًا لأنه لم يكن قد امتلك منها بعد الكثير مما يفرض عن حاجته، لكنه رغم ذلك عقد العزم على أن يدرب رجاله قدر استطاعته.

ثم ظل ينتظر في قلق فوق قمة ذلك الجبل الذي يخيم عليه السكون. وقبل نهاية اليوم، كان خمسون ونيف من الرجال قد وجدوا طريقهم إليه ثانية، ثم أقبل نحو من خمسين آخرين قبل نهاية اليوم التالي. أما الحفنة الباقية فلم تأت مطلقاً، والظاهر أنهم قد تخلوا عنه في سبيل هدف آخر. وظل وانج النمر ينتظرهم يومين آخرين، لكنهم لم يأتوا إليه، فأحس بالأسى، لا من أجل الرجال، بل لأنه قد فقد مع كل واحد منهم بندقية لها نفعها ومنطقة عامرة بطلقات الرصاص.

وحينما رأى الكهنة العجائز هذا الجحفل من الرجال يحتشدون في معبدهم الوادع، طار لبهم شعاعاً وانتابتهم الحيرة، لكن وانج النمر هدأ من روعهم، قائلاً لهم المرة تلو المرة:

«سوف ندفع لكم ثمن كل شيء. ليس هناك ما يدعوكم للخوف».

على أن رئيس المعبد أجابه بطريقته التي دب فيها الوهن، فقد بلغ من

العمر أرذله حتى لقد جف لحمه، وتغضن على عظامه من أثر الشيخوخة:

«ليس الأمر قاصراً على أننا نخشى ألا نحصل على مقابل، بل إن هناك أشياء لا يمكن أن يعوضها المال. لقد كان هذا المعبد مكاناً في غاية الهدوء، واسمه على وجه التحديد «معبد السلام المقدس». وقد عشنا نحن القلة في هذا المكان بعيداً عن العالم طوال هذه السنين العديدة. والآن ها قد قدم رجالك الأشداء الجياع، فضاع الهدوء والسلام بمقدمهم. إنهم يحشدون في البهو الذي توجد فيه الآلهة، ويلفظون بصاقهم في كل مكان، وهم يقفون أينما اتفق لهم، حتى أمام الإله ذاته، ويتبولون كما يحلو لهم. فضلاً عن أنهم غلاظ متوحشون في كل أمرهم».

فقال وانج النمر: «إن انتقالكم بآلهتكم إلى مكان آخر لا يسر عليكم من أن أغير هذه الطباع في رجالي، لأنهم من فئة الجنود. انقلوا آلهتكم إلى البهو الداخلي، وسوف أحظر على رجالي الذهاب إلى ذلك المكان بالذات. هكذا يمكنكم أن تنعموا بالهدوء والسلام».

وهذا ما نفذه رئيس المعبد الهرم، نظراً لأنه لم يكن ثمة سبيل آخر، فنقلوا الآلهة كلاً على ركيزته، ما عدا تمثال بوذا المذهب الذي كان من الضخامة بحيث خشوا أن يتحطم لو أنه سقط من أيديهم، فينزل كارثة بهم جميعاً. ومن ثم عاش الجنود معه في البهو، وغطى الكهنة وجهه بقطعة من القماش كيلا يرى المنكر، فيعتريه الغضب من جراء تلك الآثام التي لم يكن بوسعهم تحاشيها.

ثم انتقى وانج النمر من بين رجاله، الثلاثة الذين سيتخذ منهم أتباعاً أمناً له. انتقى الرجل الأشرم أولاً، ثم اثنين آخرين من بعده، أحدهما

يُكنى بالصقر؛ إذ كان ذا فم ضيق مرتخ وأنف معقوف في غاية الغرابة، يبرز وسط وجهه الهضيم. أما الآخر، فيُكنى بجزار الخنازير، وهو رجل ضخمة غليظ بدين، دموي البشرة، ذو وجه كبير مفلطح، تبدو ملامحه حطيمة فيه، وكأن يداً قد عاثت فيه فساداً في أثناء خلقه. على أنه كان إنساناً يفيض بالحيوية، وقد كان حقيقة جزار خنازير في يوم من الأيام، لكنه قتل أحد جيرانه في مشاجرة ما، وكثيراً ما كان يساوره الندم على فعلته، فيقول: «لو أنني كنت أتناول طعامي من الأرز، ممسكاً في يدي بالأعواد الخشبية، لما تمكنت مطلقاً من قتله. لكنه تشاجر معي حينما كانت سكين تقطيع اللحم في يدي، والظاهر أنها اندفعت إليه من تلقاء نفسها». ومهما يكن من أمر، فبعد أن مات الرجل متأثراً بجراحه، اضطر جزار الخنازير إلى أن يلوذ بالفرار كي ينجو بنفسه من المحاكمة. وكانت لهذا الرجل قدرة عجيبة، هي أنه -على خشونته وغلظته- يتميز بخفة دقيقة خاطفة في يديه، حتى لقد كان في مقدوره إذا أمسك بزوج من الأعواد الخشبية أن يتصيد بهما الذباب واحدة واحدة وهو يطير في الهواء، وكثيراً ما كان رفاقه يطلبون إليه أن يفعل هذا أمامهم، ثم يضجون بالضحك حين يشهدون منه مثل هذه البراعة، وبنفس هذه الخفة والإحكام في التصويب كان في إمكانه أن يطعن رجلاً، فيسفك دمه بإتقان وسرعة خاطفة.

كان هؤلاء الثلاثة في غاية المهارة والدهاء، برغم أن أحداً منهم لم يكن يعرف القراءة والكتابة. لكن بالنسبة إلى حياة كحياتهم لم يكن هناك ما يدعوهم إلى التزود بالعلم من الكتب، بل ولم يكن يدور بمخيلتهم أن هذا العلم يمكن أن يجديهم نفعاً. وبعد أن وقع اختيار وانج النمر عليهم،

دعاهم إلى حجرته، وقال لهم:

«سأعتبركم بمثابة أتباعي الثلاثة الأمناء، فوق مرتبة الآخرين، كي تضطلعوا بمهمة مراقبتهم، وتبينوا ما إذا كان أحدهم يخونني أو يقصر في تنفيذ أوامري. وثقوا أنكم سوف تحصلون على الجزاء يوم أرقى إلى علياء المجد».

ثم صرف الصقر وجزار الخنازير، فلم يبق معه سوى التابع الأمين الأشرم، وقال له في صرامة شديدة:

«أما أنت، فإني أرفعك فوق مرتبة هذين الاثنين الآخرين، ويقتضيك واجبك أن تبين ما إذا كان يخذلاني في ولائهما».

ثم عاد، فدعا الثلاثة معًا، وقال لهم: «أما من ناحيتي، فإني سأقتل أي رجل من رجالي يكون ولاؤه موضع الشبهات. سوف أقتله قتلًا في لمح البصر، بحيث لن يتسنى له أن يلتقط النفس الذي كان مقدورًا له أن يلتقطه في اللحظة التالية».

فأجاب تابعه الأشرم في لهجة مسالمة: «ليس ثمة ما يدعوك للخشية مني. قد تخونك يدك اليميني ذاتها قبل أن أقدم على خيانتك».

كما أقسم الاثنين الآخران أيضًا قسمًا مغلفًا، وقال الصقر في صوت يعلو أصواتهم جميعًا:

«هل أنسى يومًا أنك أخذتني جنديًا عاديًا من العامة، ثم رفعت من شأنني عاليًا؟» فاه بهذا القول، لأنه كان يعلق عليه آماله.

وانحنى ثلاثتهم أمام وانج النمر إظهارًا لخضوعهم وولائهم. ولما

فرغ من هذا الأمر، انتقى عددًا من الرجال الذين يتصفون بالمهارة والحيلة وأطلقهم في شتى أنحاء الإقليم، كي يتسقطوا له الأنباء عن غريمه، وأصدر إليهم أوامره قائلاً:

«اذهبوا على جناح السرعة، واجمعوا ما وسعكم من معلومات، حتى تتمكن من توطيد أقدامنا، قبل أن يبدأ البرد الزمهرير. اكتشفوا كم عدد الرجال الذين ينضوون تحت لواء الفهد، ولئن صادفتم بعضهم، تحدثوا إليهم واختبروا مدى ولائهم له، وتبينوا: أمن الممكن رشوتهم للتخلي عنه أم لا؟ سوف أبذل الرشوة لكل رجل يمكنني رشوته. لأن حياتكم أئمن في نظري من الفضة. لن أضيع حياة رجل من رجالي، إذا استطعت شراء رجل بالرشوة عوضًا عن ذلك».

إذ ذاك نضا هؤلاء الرجال عنهم ثياب الجنود، وارتدوا ملابسهم الرثة البالية، وأعطاهم وانج النمر نقودًا لشراء ما قد يحتاجون إليه من ثياب خارجية من ثياب الدهماء. ثم هبطوا إلى سفح الجبل، وانطلقوا إلى القرى، حيث قصدوا المراهن، وابتاعوا منها بعض الأسماك البالية التي يرهنها الفلاحون والعمامة لقاء بنسات معدودات ولا يستردونها أبدًا بسبب فقرهم المدقع. وفي هذا اللباس جاس الرجال شتى أنحاء الريف، وتسكعوا في النزل، بالقرب من موائد الميسر، حيث يقامر الرجال لتزجية الوقت، وتلبثوا في الحوانيت القائمة على جوانب الطرقات، وهم يرهفون السمع في كل مكان. ثم عادوا أدراجهم، وأفضوا إلى وانج النمر بكل ما توصلوا إليه.

كانت الأنباء التي رواها هؤلاء الرجال هي نفس الأنباء التي كان

وانج النمر قد سمعها في الحانة، ومؤداها أن الأهالي في هذه البقاع يخشون زعيم اللصوص هذا -الفهد- ويكونون له الكراهية، لأنه يطالبهم في كل عام بمزيد من الفضة، وإلا انقض عليهم، وأعمل السلب والنهب في بيوتهم وحقولهم. وهو يتذرع بأن لديه حشدًا من الرجال، يتزايد عامًا بعد عام، ولا بد لهم من الطعام، فضلًا عن أنه يدرأ أذى غيره من اللصوص عن عامة الناس، لذا يجب عليهم أن يدفعوا له الثمن لقاء ذلك. وكانت عصابته قد أضحت حقيقة بالغة الضخامة، يزداد عددها كل عام، ذلك لأن كل عاطل عازف عن العمل في أرجاء ذلك الإقليم بأسره، وكل من اقترب إحدى الجرائم، كان يلوذ بالفرار إلى وكر اللصوص في «جبل التنين المزدوج»، وينضوي تحت لواء الفهد. فلئن كان من الرجال الأشداء البواسل، قوبل بالترحيب البالغ، أما إذا كان من الضعاف الجبناء، ففي هذه الحالة يُبقي عليه هناك ليقوم بخدمة الآخرين. بل إن بعض النساء كن يمضين إلى الوكر: نساء جسورات مات عنهن أزواجهن، فلم يعدن يقمن وزنًا لسمعتهن، طيبة كانت أم سيئة، فضلًا عن أن بعض الرجال حين ذهبوا إلى الوكر، اصطحبوا معهم زوجاتهم، كما كانت هنالك أيضًا بعض السبايا، يحتفظ بهن لمتعة الرجال. هذا، وقد كان الفهد حقيقة يدرأ خطر غيره من زعماء اللصوص عن هذا الإقليم بأسره.

ومع ذلك كان الأهالي يبغضونه ولا يرغبون في إعطائه شيئًا، لكنهم كانوا يعطونه ما يريد، شاءوا أم كرهوا، لأنهم كانوا مجردين من السلاح. لقد كان من الممكن في الأزمنة الغابرة أن يرفعوا راية التمرد، مستعينين بالمذاري والمناجل والسكاكين وما إلى ذلك من الأدوات البدائية

البسيطة، أما الآن، وقد أصبح اللصوص يملكون البنادق المستوردة من الخارج، فلم تكن هذه الأدوات تجديهم نفعاً، بل ولم يكن أي ضرب من ضروب الشجاعة أو الغضب يجدي نفعاً في وجه موت منقضى كهذا الموت.

وعندما استفسر وانج النمر من جواسيسه عن عدد أتباع الفهد، حصل منهم على إجابات غريبة، فقد ذكر البعض أنهم سمعوا أن عددهم يبلغ الخمسمائة، في حين قال البعض الآخر إنهم ألفان أو ثلاثة آلاف، وقال غيرهم إنهم أكثر من عشرة آلاف. فلم يكن بوسعهم أن يعرف وجه الحقيقة، إنما أدرك فقط أنهم يفوقون رجاله بأعداد غفيرة. وقد أعطته هذه الأنباء مادة غزيرة يقلب فيها أوجه الفكر، فرأى أنه يجب أن يتوصل بالمكر والحيلة، ويحتفظ ببناقله ريثما تحين المعركة العنيفة الفاصلة، بل يجب أن يتجنب هذه المعركة أيضاً إذا وجد إلى ذلك سبيلاً. هكذا راح ينعم الفكر، وهو جالس ينصت إلى حديث جواسيسه، وتركهم ينطلقون في الحديث على هواهم، مدركاً أن الرجل الجاهل عادة ما تجري على لسانه أهم الأنباء دون أن يعي، فتحدث الرجل المهذار -نفس الرجل الذي أطلق على قائده اسم النمر الأسود الحاجبين- قائلاً في زهو وهو يرفع من نبرات صوته الرفيع الواهن:

«فيما يتعلق بي، فكنت من الجسارة بحيث اندفعت في طريقي إلى كبرى المدن، وهي مركز هذه المقاطعة بأسرها، وأخذت أرهف السمع، فوجدت أن الأهالي يملكهم الخوف هناك أيضاً. فما من عام إلا ويتقدم هذا الفهد ببعض مطالبه في أيام الأعياد، ويتحتم على التجار أن يعطوه

أكداً هائلة من الفضة، وإلا هدد بشن هجومه على المدينة ذاتها. وقد قُلت للرجل الذي أفضى إليّ بذلك، وهو بائع كرات يصنعها من لحم الخنزير، أشهر ما تذوقته من طعام طوال حياتي - إن لديهم هنا خنازير نادرة الوجود، يا قائدي، وهم يضعون الثوم في اللحوم، سأكون سعيداً لو أننا أقمنا هنا - قُلت للرجل «لكن لم لا يطلق حاكمكم جنوده كي يقتلوا ويخوضوا المعركة ضد هذا اللص من أجل خلاص الشعب؟» فقال الرجل الذي يصنع كرات لحم الخنزير - وهو رجل طيب، أعطاني قطعة من إحدى الكرات المقطوعة فوق ما دفعت ثمنه - قال: «إن حاكمنا ذاك غارق في تدخين الأفيون، ويخاف من خياله. أما الجنرال الذي يحتفظ به قائداً لجيشه، فهو لم يخص قط غمار الحرب، ولا يعرف كيف يمسك بالبندقية. إنه رجل ضئيل الجسم حاد المزاج كثير الجلبة، يهتم بالطريقة التي يطهو بها حساءه أكثر من اهتمامه بما يجري لنا! أما عن ذلك الحاكم، فجدد بك أن تشاهد الحراس الذين يحتفظ بهم من حوله ويغدق عليهم المال أكثر فأكثر، خشية أن ينقلبوا عليه أو يقبلوا الرشوة من أحد. إنه ينفق عليهم المال مثلما يصب المرء الشاي البارد من الإبريق على الأرض. ومع هذا كله، يستبد به الهلع لدرجة أنه يرتجف ويهتز كيانه لمجرد ذكر اسم الفهد، ويظل يتأوه معبراً عن رغبته في التحرر من إساره، على أنه لا يحرك ساكناً، بل يدفع له مزيداً من الفضة في كل عام ليتقي شره» هذا ما قاله لي ذلك البائع. وبعد أن تناولت طعامي من لحم الخنزير، لاحظت أنه لا يرغب في إعطائي المزيد منه حتى ولو دفعت له ثمن قطعة أخرى، حينئذ مضيت في طريقي وتحدثت إلى شحاذ كان جالساً يلتقط القمل من

ثيابه في بقعة مشمسة تقع بين جدارين. وهو رجل عجوز حكيم قضى طوال حياته متسولاً في شوارع تلك المدينة. إنه ليفوق الشيوخ جميعاً في مهارته وفطنته، فما من قملة التقطها بين أصابعه إلا وقضم رأسها ثم مضغها. بالله عليّ، لقد تغذى غذاء طيباً بكل هذا القمل الذي كان يحمله! بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث حول أمور عدة، ذكر لي أن الحاكم يبدو أكثر استعداداً لأن يفعل شيئاً هذا العام لأن رؤسائه قد ترامى إلى سمعهم أنه يترك لصاً يحكم وينهي في أقاليمه، فضلاً عن أن هناك كثيرين يتحرقون شوقاً إلى الاستيلاء على منصبه، وهم يتهمون به في بلاط الحاكم الأعلى بأنه لا يؤدي واجبه. فإذا اضطر إلى التخلي عن منصبه، فإن بضعة عشر من الرجال سوف يتناحرون للحصول على مقعده، لأن هذه الأقاليم في غاية الخصوبة، وتدر دخلاً وفيراً. والناس في أسى بسبب هذا أيضاً، فهم يقولون «حسناً، لقد أطعمنا هذا الذئب العجوز، فلم يعد جشعاً كما كان من قبل، فلئن جاءنا حاكم جديد منقُضاً كالوحوش الضارية، فلا بد أن نطعمه من نفس نقطة البداية مرة أخرى».

هكذا ترك وانج النمر رجاله يتحدثون على هواهم، فانطلقوا في الحديث شأن الرجال الجاهلاء، وراحوا يروون كل ما ترامى إلى مسامعهم، وهو يقهقهون في مرح صاخب لأن قلوبهم كانت مليئة بالآمال الكبار، وقد وضعوا ثقتهم في قائدهم. وكانوا جميعاً فرحين مستبشرين بهذه الأرض وتلك الكفور التي مروا من خلالها، فرغم أن أهلها كان عليهم أن يطعموا هذين الاثنين -الفهد والحاكم- فقد كان يتبقى لهم القدر الكافي الذي يكفل لهم طعاماً طيباً هم أيضاً، ذلك لأنها كانت أرضاً طيبة في

غاية السخاء، يتبقى لهم القدر الوفير من نتاجها. ترك وانج النمر رجاله يسهبون في الحديث. ومع أن الكثير مما ذكره ولم يكن بذي قيمة، فقد جرت على ألسنتهم مرارًا أشياء يرغب في معرفتها، وكان في إمكانه أن يستخلص زبدة القول من حديثهم المرسل، بما له من فطنة تفوق فطنتهم إلى حد بعيد.

وعندما كف الرجل ذو الصوت الرفيع عن الكلام، تعلق ذهن وانج النمر بآخر نقطة ذكرها في حديثه، ألا وهي أن الحاكم يتملكه الخوف من أن يفقد منصبه، فراح ينعم الفكر عميقًا في هذا الأمر، ولاح له أن سر المغامرة بأكملها يكمن هنا، فربما استطاع الاستيلاء على السلطة في هذه البقاع عن طريق هذا الشيخ الضعيف الواهن، وكان كلما أصغى إلى حديث رجاله، ازداد يقينًا من أن الفهد ليس بالقوة التي كان يتوسمها فيه، وبعد هنيهة عقد العزم على أن يرسل أحد الجواسيس إلى معقل اللصوص ذاته، كي يتبين عدد الرجال هناك، وكل ما يملكه الفهد من ضروب القوة.

في تلك الليلة، راح يتصفح وجوه رجاله وهم يجلسون القرفصاء يتناولون وجبة المساء، يمسك كل منهم بليفة من الخبز القديد يقضم فيها، ووعاء من عصيد القمح يرتشف منه. وظل فترة من الزمن عاجزًا عن أن يحزم أمره بشأن من يرسله منهم إلى الوكر، إذ لم يبد له أن أحدًا منهم على قدر كاف من الفطنة والحدق. ثم وقعت عينه على ابن أخيه، ذلك الغلام الذي يبقيه دائمًا بمقربة منه، وكان في هذه اللحظة يزدرد طعامه في شراهة، وقد انتفخ شدقاه، وامتلأ فمه بالطعام. فلم يفعل وانج النمر شيئًا سوى أنه مضى إلى غرفته الخاصة، فتبعه الغلام على الفور كما يقتضيه

واجبه، وأمره وانج النمر أن يوحد الباب ويقف ليستمع إلى كلامه، ثم قال له:

«هل لديك من الشجاعة ما يؤهلك بمهمة معينة سأنبئك بها؟».

فأجابه الغلام في صلابة، وهو ما زال يلوك لقمته الضخمة التي تملأ فمه: «جربني يا عماه كي ترى!».

فقال وانج النمر: «سوف أجربك. عليك أن تحمل مقلاعًا صغيرًا كالذي يستخدمه الصبية في صيد الطيور، وتمضي إلى ذلك الجبل ذي القنتين، تمضي حوالي فترة المساء، وتظاهر بأنك قد ضللت طريقك، وأنت خائف من الوحوش الكاسرة في الجبل، عليك أن تذهب باكيًا عند بوابة الوكر، وحين يسمحون لك بالدخول قل لهم إنك ابن أحد الفلاحين المقيمين في الوادي على الجانب الآخر من الجبل، وإنك قد تسلفت الجبل بحثًا عن الطيور، فلم تلاحظ أن الليل قد هبط سريعًا، وقل إنك ضال، ثم توسل إليهم أن يمنحوك المأوى ليلة واحدة في هذا المعبد. أما إذا رفضوا السماح لك بالبقاء، عندئذ التمس منهم أن يصحبك أحد المرشدين إلى الممر في القليل، وافتح عينيك جيدًا، لاحظ كل شيء، لترى كم عدد الرجال هناك وكم عدد البنادق، وما هو شكل الفهد، كي تخبرني بكل شيء. هل يمكنك أن تكون شجاعًا إلى هذا الحد؟».

وسدد وانج النمر عينيه السوداوين إلى الفتى، فرأى وجهه المتورد يمتقع، حتى لقد برزت فيه بثرات الجدري وكأنها ندب على بشرته، لكنه تفوه برد طيب. قال وإن يكن مبهور الأنفاس بعض الشيء:

«يمكنني القيام بها».

فقال له وانج النمر في لهجة صارمة: «لم أطلب منك قط من قبل أن تفعل شيئاً، لكن ربما كان لتهريجك بعض النفع الآن. أما إذا وضعت ولم تستخدم ذكاءك، أو كشفت ما خفي من أمرك، فلا تلومن إلا نفسك. لكنني اخترتك لهذه المهمة، لأنك تحمل هذا الوجه المرح الأبله، ولأنني أعلم أن مظهرك أكثر سداجة من مخبرك. قم بدور الغلام الساذج، تكن بمأمن من الخطر. ولئن وقعت في قبضتهم، فهل يمكنك أن تكون شجاعاً إلى حد أن تذوق الموت وأنت معتصم بالصمت؟».

إذ ذاك عاد الدم الأحمر القاني يتدفق في وجه الفتى، وهو واقف هناك، تلوح عليه القوة والعافية، في ثيابه القطنية الخشنة الزرقاء، وقال: «جربني يا قائدي!».

حينئذ داخل وانج النمر شعور بالرضا عنه، فقال له:

«غلام شجاع! هذا هو المحك، فإذا قمت بالمهمة على خير وجه، تكون جديراً بالترقية إلى مرتبة أعلى».

وبينما هو ينعم النظر في الغلام، ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، وإذا بقلبه الذي كان نادراً ما يتأثر بشيء اللهم إلا نوبات الغضب التي تعتريه، إذا بهذا القلب يهفو الآن قليلاً إلى هذا الغلام، على أن هذا الشعور لم يكن أيضاً يتجه إلى الغلام ذاته، إذ لم يأنس في نفسه ميلاً إليه، لكن قلبه اهتز بحنين غامض، وعاد يتمنى لو أن له ابناً من صلبه، لا كهذا الغلام، بل ابن قوي مخلص رزين ينبثق من صلبه.

ومن ثم أمر الغلام أن يتسربل بثياب كالتى يرتديها أبناء الفلاحين، وأن يحزم منشقة حول خصره، وأن يضع حذاء عتيقاً بالياً في قدميه العاريتين، لأنه سيقطع طريقاً طويلاً ويتسلق صخوراً خشنة وعرة. ومن غصن صغير متفرع صنع الغلام مقلاعاً صغيراً كالذى يحمله الصبية، وبعد أن فرغ من صنعه، أخذ يعدو في خفة هابطاً على جانب الجبل، واختفى عن الأنظار في داخل الغابات.

وفي أثناء اليومين اللذين تغيب فيهما، قام وانج النمر بتنظيم رجاله طبقاً لخطته، فوزع أنصبة العمل عليهم جميعاً كيلا يبقى أحدهم عاطلاً يعيثُ فساداً. وأرسل أتباعه الأمناء إلى أنحاء الريف لشراء الطعام، أرسلهم فرادى، فابتاعوا اللحم والغلال بكميات صغيرة حتى لا يرتاب أحد في أنهم يتعاون المؤونة لمائة من الرجال.

ولما أقبل مساء اليوم الثاني، مضى وانج النمر خارجاً، وراح يلقي ببصره إلى أسفل الدرجات الصخرية، كي يتبين ما إذا كان الغلام قادماً. وفي أعماق قلبه خامره شعور بالخوف عليه، وإذا تمثله في مخيلته وقد لقي حتفه بطريقة يحتمل أن تكون قاسية، أحس بنوع من الحنان الغريب والشعور بالندم يعتمل في قلبه. وعندما أرخى الليل سدوله، وبزغ القمر الوليد، تطلع إلى «جبل التنين المزدوج» وأطلق العنان لأفكاره:

«ربما كان ينبغي أن أرسل رجلاً يمكنني الاستغناء عنه، لا ابن أخي أنا. فلو أنه مات ميتة قاسية، فكيف سأواجه أخي؟ ورغم ذلك، لم يكن بوسعي أن أثق بأحد إلا بابن لحمي ودمي».

ظل يتربص عودته بعد نوم رجاله، وتجلى وجه القمر من وراء

الجبال، وأخذ يتخايل صاعدًا إلى عليائه في كبد السماء، لكن الغلام لم يقبل بعد. وأخيرًا أصبحت رياح الليل قارسة البرودة، فدلف وانج النمر إلى الداخل، يحمل بين جنبه قلبًا مثقلاً، لأنه اكتشف شيئًا لم يكن يعرفه من قبل، وهو أنه سيفتقد الغلام قليلًا إذا لم يعد على الإطلاق، فقد كانت له تلك الأساليب المرححة الماكرة، التي يستحيل معها إثارة غضبه.

على أنه، بينما كان يرقد مسهدًا في الهزيع الأخير من الليل، ترامت إلى سمعه طرقات خفيفة على البوابة، فنهض في عجلة من أمره، ومضى إلى الخارج. وما إن أزاح الرتاج الخشبي، حتى رأى الصبي هناك، يبدو منهكًا خائر القوى إلى أبعد مدى، لكنه ما زال محتفظًا بروحه المرححة. فدخل ظالمًا، وقد تمزقت سراويله من على فخذه، الذي سالت منه الدماء إلى أسفل ساقه، ثم جفت عليها. ومع ذلك ظل في حالة معنوية عالية.

وصاح في صوت واهن استنفده الإرهاق:

«ها قد عدت يا عماء» وعلى حين غرة ضحك وانج النمر ضحكة صامتة، بالطريقة التي اعتاد أن يضحك بها، حين يكون مسرورًا حقيقة، ثم قال له في لهجة خشنة:

«ماذا فعلت بفخذك؟».

لكن الغلام أجابه في خفة: «لا شيء يذكر».

إذ ذاك أطلق وانج النمر إحدى الملح المعدودات التي نطق بها طوال حياته، قد استبد به السرور، وقال:

«أرجو ألا يكون الفهد قد خمشها!».

لدى هذا القول، ضحك الغلام عاليًا، مدرِّكًا أن عمه إنما يقصد المزاح، ثم جلس على الدرج في داخل المعبد، وقال:

«كلا، لم يخمشها. لقد سقطت على إحدى أشجار العوسج، لأن الطحالب رطبة زلقة من أثر الندى، فخدشتني الشجرة. إني أتضور جوعًا يا عماء!».»

فقال وانج النمر: «تعال إذن وتناول طعامك. يجب أن تأكل وتشرب وتنعم بالنوم قبل أن أستمع إلى قصتك».

وأمر الغلام أن يدلف إلى البهو ويجلس هناك، ثم زار مناديًا أحد الجنود ليأتي بالطعام والشراب، متوليًا هذه المرة خدمة الغلام بنفسه. على أن الضجة التي أثارها أيقظت الرجال النائمين، فنهضوا من سباتهم واحدًا في إثر الآخر، وقدموا يتزاحمون إلى الفناء الذي كان يضيئه نور البدر، تحذوهم جميعًا الرغبة في الاستماع إلى رواية الغلام عما شاهده في الوكر. وإذ تبين وانج النمر أن الغلام بعد أن تناول طعامه وشرابه قد أفعمه الشعور بخطورة شأنه واستبد به الانفعال لما أحرزه من نجاح في مغامراته حتى لقد نأى النوم عن عينيه، كما تبين أيضًا أن الفجر أصبح الآن وشيكا، قال له:

«قصها الآن كلها إذن، ثم اذهب للنوم بعد ذلك».

ومن ثم جلس الغلام على المذبح أمام تمثال بوذا المحجب الوجه، وقال:

«حسنًا، ظلمت أمشي وأمشي، فذلك الجبل يبلغ ارتفاعه ضعف

هذا، يا عماء، والوكر يكمن في واد دائري كالوعاء يقع عن القمة. يا ليتنا نستطيع أن نتخذة مقرًا لنا عندما نستولي على الإقليم. لديهم هناك البيوت وكل شيء وكأنها قرية صغيرة. لقد فعلت ما أمرتني به يا عماء. ذهبت باكيًا ظالعًا إلى البوابات بالليل، أحمل صيدي من الطيور في صدر ردائي. إن بعض الطيور التي تحلق فوق ذاك الجبل لها أغرب الألوان وأزهاها. كان أحد الطيور التي أصبتها ذا لون أصفر زاهٍ يغطي كل أجزائه وكأنه الذهب. إنه ما زال معي، لكم كان جميلًا!» وبينما هو يتحدث، أخرج من صدر ردائه طائرًا أصفر اللون، تهدل ميتًا رخوًا في يده، كما لو كان حفنة من التبر. وكان وانج النمر على أحر من الجمر لسماع رواية الغلام، فراح يتميز غيظًا من هذا الاهتمام الطفلي بطائر قتيل، ولكنه كبح جماح نفسه، وترك الغلام يسرد قصته بطريقته الخاصة، فاستطرد في الحديث، بعد أن وضع طائرته في عناية بجواره على المذبح، وتصفح وجوه الرجال المنصتين إليه واحدًا بعد الآخر، في حين توهج بجانبه الشعلة التي أمر وانج النمر بإشعالها وغرسها في رماد قمقم البخور القابع فوق المذبح، قال الغلام:

«حسنًا، وحينما سمعوا الطرقات على البوابة، قدموا من الداخل وفتحوا فرجة ضيقة للغاية في بادئ الأمر، وجعلوا يختلسون النظر منها ليتبينوا من الطارق؟ فانخرطت في البكاء بطريقة تبعث علي الرثاء، قائلاً: «إني بعيد عن بيتي، لقد تجولت أبعد مما ينبغي، وهبط علي الليل. إني خائف من وحوش الغابة، دعوني أدخل إلى هذا المعبد!» فما كان من الرجل الذي فتح البوابة إلا أن أوصدها ثانية، وهرع يطلب الرأي من

أحدهم في الداخل، في حين مضيت أنا في البكاء والأنين بطريقة مؤثرة قدر استطاعتي» وهنا شرع الغلام في الأنين ليريهم كل ما فعله، فضج الرجال جميعاً بالضحك، وقد استولى عليهم الإعجاب به، وصاح بعضهم من هنا أو هناك:

«القرد الصغير.. الشيطان الصغير المجدور!».

فاتفر فم الغلام عن ابتسامة كشفت عن أسنانه وشملت كل وجهه المجدور من شدة الجذل، ثم استطرد في الحديث قائلاً:

«وفي النهاية سمحوا لي بالدخول. فأخذت أظهار بالسذاجة ما وسعني ذلك. وبعد أن تناولت بعض خبز القمح ووعاء من العصيد، تظاهرت بأني خائف وأني عارف أين أنا، وبدأت أصيح: «إني أريد العودة إلى بيتي. إني خائف هنا، فأنتم عصابة اللصوص، إني خائف من الفهد!» وانطلقت أعدو نحو البوابة، طالباً أن يسمحوا لي بالخروج، وأنا أقول: «مهما يكن من أمر، فإني أفضل عن طيب خاطر أن أكون بين الوحوش الكاسرة!».

وعندئذ ضحكوا جميعاً من شدة سذاجتي، وهدأوا من روعي، قائلين: «أظن أننا نلحق الأذى بغلام صغير؟» فتوقفت عن الارتعاش والبكاء بعد هنيهة، متظاهراً بأني أكثر ارتياحاً عن ذي قبل. ثم سألوني من أين جئت، فذكرت لهم اسم قرية كنت قد سمعت أنها تقع على الجانب الآخر من الجبل. ثم سألوني عما ترامى إلى سمعي بشأنهم، فقلت إني قد سمعت أنهم في غاية الشجاعة والبطولة، وأن زعيمهم ليس إنسياً، بل إن له بدن إنسان عليه رأس فهد، وقلت: «ليتني ألقى نظرة عليه، وإن كنت سأحس بالرهبة لمشاهدة مثل هذا المنظر!» فضحكوا جميعاً مني، وقال

أحدهم: «سوف أريك إياه». ثم قادني إلى إحدى النوافذ، فوقفت في الظلام أطلع إلى داخل الغرفة التي كان فيها بعض المشاعل المتوهجة، وهنالك كان الزعيم جالسًا. إنه حقيقة رجل مربع الشكل، يا عماه، فقمة رأسه عريضة، تنحدر نحو جبهته، حتى إنه أشبه ما يكون بالفهد. كان جالسًا يحتسي الشراب مع امرأة صغيرة السن. إنها أيضًا في غاية الشراسة، ومع ذلك، فهي مليحة، وإن تكن شرسة. وكانا يتبادلان الشراب من إناء خمر، يشرب هو أولاً، ثم تشرب هي من بعده».

فسأله وانج النمر: «كم عدد الرجال في ذاك المكان، وماذا عندهم من بنادق؟».

قال الصبي في حماسة: «يا الله! عديد من الرجال يا عماه. ثلاثة أضعاف رجالنا المقاتلين، ومعهم كثير من الخدم، وهنالك أيضًا بعض النساء، وأطفال صغار يركضون في كل مكان، وبعض الصبية في مثل سني، وقد سألت أحدهم عن يكون أباه، فأجابني بأنه لا يدري، إذ ليس لهم آباء متميزون، فهم يعرفون أمهاتهم دون آبائهم، وذلك أيضًا من الأمور الغريبة. وجميع رجال الحرب هناك عندهم بنادق، أما الخدم، فلا يملكون إلا المناجل والسكاكين وما شابه ذلك من الأدوات البدائية. غير أن لديهم أكداً هائلة من الأحجار الكروية الشكل مكومة على قمم الجروف الصخرية التي تحيط بالوكر، كي يدرجوها على كل من يشن هجومًا عليهم. ولا يوجد إلا ممر واحد يفضي إلى ذلك الوكر، لأن الصخور تحف به من كل جانب، ويقف الحراس دائماً عند الممر. على أن الحارس كان نائمًا حينما مررت به، فستللت دون أن يحس بي.

كان غارقاً في النوم حتى لقد كان من الممكن أن آخذ بندقيته، إذ كانت ملقاة هناك على الصخر بجانبه، كان يغط في نومه بحيث كان بوسعي أن أستولي عليها. ومع أن الإغراء راودني على ذلك، إلا أنني لم أفعل، لئلا يدركوا أن حقيقتي تختلف عن المظهر الذي ظهرت به».

فعاد وانج النمر يسأله: «هل تبدو على محاربيهم سيماء الفحولة والبسالة؟».

فأجابه الغلام: «إنهم من البسالة بمكان، والبعض منهم ضخم الجثة، في حين أن البعض الآخر ضئيل الجسم. غير أنهم أخذوا يتحدثون فيما بينهم بعد تناول الطعام، دون أن يحفلوا بوجودي، إذ إنني جلست مع الصبية بعد فترة وجيزة. وقد سمعت الرجال يجأرون بالشكوى من الفهد لأنه يأبى توزيع الغنائم طبقاً لشريعتهم، ويحتفظ لنفسه بنصيب الأسد، كما أنه شره في امتلاك جميع النسوة المليحات، ويرفض السماح لغيره من الرجال بالحصول عليهن حتى يدب في نفسه السأم منهن. كما قالوا إنه لا يشرك معه الآخرين كما يجدر بالإخوة أن يفعلوا، بل يتشامخ بنفسه إلى عنان السماء، مع أنه ينحدر من أصل سوقي، ولا يعرف القراءة أو الكتابة، وقد ضاقوا ذرعاً بتعاليه».

بعثت هذه الأنباء غبطة غامرة في قلب وانج النمر، فاستغرق في التأمل. وقد مضى الصبي في سرد قصته عن هذا أو ذاك، وعما تناوله من طعام، وما أظهره من ضروب المهارة. وظل وانج النمر يتأمل ويتدبر، ولم يلبث أن أدرك بعد هنيهة أن الغلام قد أفرغ كل ما في جعبته، فلم يعد حديثه إلا ترديدًا لكلامه السابق، وأنه ينقب في زوايا عقله بحثًا عن شيء

أخير يقوله كي يحتفظ باهتمام الرجال وإعجابهم أطول مدة ممكنة.
فنهض من مكانه، وأثنى على الغلام، ثم أمره بالمضي للنوم، كما أمر
الرجال بالبدء في أداء مهامهم، فقد بزغ الفجر. وكانت الشعلة قد خبت،
فبدا وميض لهبها الذابل شاحباً في ضوء الشمس البازغة.

ودخل إلى غرفته، ثم دعا إليه أتباعه الأمناء، وقال لهم:
«لقد فكرت ودبرت، وفي اعتقادي أنني أستطيع أداء هذه المهمة من
غير أن أفقد حياة رجل واحد أو بندقية واحدة. يجب أن نتجنب خوض
المعركة ما داموا في ذلك الوكر يفوقونا بأعداد غفيرة. إن الشيء الذي
يفعله المرء كي يقتل حيوان الجريش هو أن يسحق رأسه، فتدب الفوضى
في سيقانه المائية، فتندفع هنا وهناك متخبطة بعضها في بعض، ومن ثم
تصبح عاجزة عن إلحاق الأذى بأحد، سنقضي على الرأس السام لعصابة
الللصوص هذه بنفس الوسيلة».

فأخذ الرجال يحملقون مشدوهين، وقد اعتراهم الدهول لمثل هذه
الجرأة، وقال جزار الخنازير بطريقته الخشنة العالية الصوت:
«إنها تلوح خطة طيبة، يا قائدي، لكن يجب عليك أولاً أن توقع
بحيوان الجريش قبل أن تتمكن من بتر رأسه».

فأجاب وانج النمر: «هذا ما سأفعله، وها هي ذي خطتي. إنها تقتضي
منكم مساعدتي على تنفيذها. علينا أن نرتدي ثياباً بالغة الفخامة توحى
بالفروسية، كالتي يرتديها الأبطال المغاوير، ونمضي إلى حاكم هذا
الإقليم، ونقول له إننا جنود من البواسل نتجول هنا وهناك، وإننا ننشد

الخدمة تحت إمرته، ننشد خدمته سرًا كحرس خاص به، ونقطع على أنفسنا عهدًا بأن نقضي له على الفهد. إنه الآن قلق على منصبه، وسيكون متلهفًا على مساعدتنا. وها هي ذي الخطة: سوف أطلب إليه أن يتظاهر بعقد هدنة مع اللصوص، ويدعو الفهد مع الذين يلونه في المنزل إلى وليمة فاخرة. ثم عندما تحين اللحظة الحاسمة، وفي الإمكان أن يميزها بأن يسقط كأس خمر من يده، فتتحطم، عندئذ نندفع أنا وأنتم من مخبئنا وننقض على اللصوص، فنجهز عليهم. وسوف أجعل رجالنا ينتشرون خفية في شتى أنحاء المدينة، كي ينقضوا على اللصوص الأقل شأنًا الذين قد يرفضون الانضواء تحت لوائي. وهكذا نقضي على رأس حيوان الجريش هذا، وهو ليس بالأمر العسير».

وبدا لهم جميعًا أن هذه خطة عملية يمكن تنفيذها، فاستولى عليهم الإعجاب، وأظهروا موافقتهم عليها في تحمس. وبعد أن استطردوا في الحديث قليلًا بشأن كيفية تدبيرها، صرفهم وانج النمر، ثم دعا رجاله للقدوم إلى بهو المعبد. وأرسل أتباعه الأمناء ليتأكدوا أن الكهنة ليسوا في مكان قريب يمكنهم من الاستماع إلى حديثه، ثم أفضى إلى رجاله المحتشدين بمضمون خطته. ولما أن استمعوا إليها صاحوا صيحات مدوية:

«رائع! رائع! مرحى، النمر الأسود الحاجبين!».

كان وانج النمر واقفًا أسفل تمثال الإله المحجب وهو يستمع إلى هتافهم، فلم ينبس ببنت شفة، بل ظل متعاليًا صامتًا مترفعًا إلى أبعد حد، ومع ذلك، فقد جاشت في أعماقه نشوة عميقة بقوته، حتى إنه غض من

بصره، وبدا عليه الجدد والوقار، وهو واقف هناك بين رجاله. ولما أن اعتصموا بالصمت مرة أخرى، وانتظروا سماع أي شيء آخر قد يفضي به إليهم، قال:

«عليكم أن تأكلوا وتشربوا جيداً، ثم تردوا ثياباً بسيطة رخيصة بقدر الإمكان، على أن تحتفظوا بسمت الجنود رغم ذلك، ثم تحملوا بنادقكم وتنتشروا متفرقين في أنحاء المدينة، على ألا تبتعدوا كثيراً عن قصر الحاكم. وعندما أطلق صفارتي الحادة الصوت، عليكم بالمجيء إلى هناك. لكن يجب أن تنتظروا عدداً من الأيام بالمدينة حتى أدعوكم إليّ». واستدار إلى تابعه الأمين الأشرم قائلاً: «ادفع لكل رجل خمس قطع من الفضة ينفق منها على الخمر والمسكن والطعام الذي يحتاج إليه».

فففذ هذا الأمر، وأحس الجميع بالرضا. ثم نادى وانج النمر أتباعه الثلاثة الأمناء، فارتدوا ثياب الفروسية التي توشي بالبسالة، وأخفوا سيوفاً قصيرة في ثنايا أرديتهم، وحملوا بنادقهم، ثم خرجوا جميعاً معاً.

أما الكهنة، فقد استبد بهم الفرح والجدل حين رأوا هؤلاء الرجال المتوحشين يمشون عندهم. بيد أن وانج النمر، إذا أبصر بهم متهللين، قال لهم:

«لا تفرحوا قبل الأوان، فربما عدنا أدراجنا. إنما إذا أمكننا أن نعثر على مكان خير من هذا، فلن نعود إليكم». ومع ذلك، فقد أجزل لهم العطاء، ومنحهم مبلغاً من المال فوق ما هو مدين به، قائلاً لرئيس المعبد: «أصلحوا سقوف معبدكم، ورمموا بيوتكم، واشتروا رداءً جديداً لكل واحد منكم».

فرح الكهنة فرحًا طاغيًا بهذه المنحة السخية. وشعر رئيس المعبد الهرم بشيء من الخجل فقال:

«مهما يكن من أمر، فأنت رجل فاضل، سأصلي للآلهة من أجلك، كيف يتسنى لي مكافأتك بغير هذا؟».

فأجابه وانج النمر قائلاً: «كلا، وفر على نفسك الجهد مع الآلهة، لأنني لم أؤمن بها قط إيمانًا عميقًا. لكن، إذا سمعت في مستقبل الأيام عن رجل يدعى النمر، فاذكره بالخير، وقل إن النمر قد أحسن معاملتكم».

فحملق فيه رئيس المعبد الهرم، وراح يتلعثم في ذهول قائلاً إنه سيفعل ذلك، سيفعل ذلك! وضم الفضة إلى صدره في اعتزاز، وهو يحملها بين كلتا يديه.



قاد وانج النمر أتباعه الأمناء إلى المدينة، ولما أدركوها اتجهوا إلى بوابات قصر الحاكم مباشرة. وحينما وصل وانج النمر إلى إحدى البوابات، قال في جراءة للحراس الذين كانوا يتكئون في خمول وتراخ على الأسدين الحجريين هناك:

«دعوني أدخل، فلدي أمر خاص أريد أن أسرّ به إلى الحاكم».

فأثار حارس البوابة بعض الاعتراض، لأن وانج النمر لم يبرز له شيئاً من الفضة، وحين رأى وانج النمر أن الرجل يأبى السماح له بالدخول، أطلق صيحة واحدة، فإذا بأتباعه الأمناء يثبون إلى الأمام، مصوبين بنادقهم إلى صدر الحارس. فاخضّر لونه، وارتد إلى الخلف، فاخترقوا البوابة، وهم يدقون بأحذيتهم على أحجار الفناء. وكان هناك أيضاً أولئك الجنود الذين يتسكعون حول البوابات، وقد شهدوا ما حدث، فلم يجروّ واحد منهم على أن يتحرك من مكانه لصدّهم. ثم صاح وانج النمر في غلظة وشراسة، وهو يقطب حاجبيه السوداوين، فيظللان عينيه:

«أين الحاكم؟».

لكن أحدًا من الرجال لم يتحرك من مكانه، وإذ رأى منهم هذا المسلك، ثارت ثائرتة على حين فجأة، فأخذ بندقيته ووخز بها أقرب رجل إليه في بطنه، فقفز الرجل في رعب، صائحًا:
«سوف أصبحك إليه.. سوف أصبحك إليه!».

وركض مهرولاً أمامهم، فضحك وانج النمر ضحكة صامتة، إذ رأى ما انتاب الرجل من فزع.

ومضوا في إثره، يخترقون الأروقة واحدًا بعد الآخر. على أن وانج النمر لم يحول عينيه يمنة أو يسرة، بل ظل يتجه بوجهه إلى الأمام، تبدو عليه سيماء الضراوة، وحذا حذوه أتباعه الأئماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. وفي نهاية المطاف بلغوا آخر فناء داخلي في القصر، وكان رائع الجمال، يزدان ببركة من الماء، وشرفة من نبات الفاونيا وبعض أشجار الصنوبر المعمرة. لكن شبائك نوافذ الحجرات التي تعلو الفناء كانت مسدلة، وكان الصمت يلف المكان. وهناك عند عتبة الباب توقف الرجل الذي يقودهم عن المسير، وسعل، فأطل أحد الخدم من شبيكة النافذة، وقال:

«ماذا تريد؟ إن مولانا نائم».

لكن وانج النمر صاح في صوت جهير، فبدا صوته وكأنه يرتطم من حوله في أرجاء ذلك الفناء الساكن:

«أيقظه إذن، فلديّ أمر بالغ الأهمية لا بد أن أنبئه به. يجب أن يستيقظ، فالأمر يتعلق بذات منصبه!».

فجعل الخادم يتفرس فيهم وقد ساوره التردد، بيد أنه لاحظ أن نظرة وانج النمر تفيض بالسطوة والنفوذ، فتكهن بأن هؤلاء الرجال لا بد أنهم رسل من بلاط عليّة الحكام. ومن ثم مضى إلى الداخل، وأخذ يهز الحاكم العجوز النائم، فهب من أحلامه، ونهض من فراشه، واغتسل ثم لبس أرديته، وذهب إلى قاعته، حيث جلس هناك، أمر الخادم أن يدخلهم. عندئذ دخل وانج النمر بجسارة، محدثاً ضجة عالية، وانحنى انحناءة لائقة أمام الحاكم العجوز، لكنه رغم ذلك لم يغال في الانحناء، بل ولم تكن انحناءته تعبر عن احترام شديد.

امتلاً قلب الحاكم العجوز بالرعب حين رأى مدى ضراوة هؤلاء الرجال الواقفين أمامه، فنهض في عجلة من أمره، ودعاهم إلى الجلوس، وأمر بإحضار الفطائر والخمر والفاكهة. ثم راح يلقي عبارات المجاملة المعتادة التي تقال لتحية الضيف، فرد عليها وانج النمر، مُقلِّاً في مجاملته قدر استطاعته. وأخيراً، بعد أن فرغوا من هذه الرسميات، قال للحاكم في أسلوب واضح صريح:

«لقد سمعنا من عليّة الحكام بأنك ترزح تحت نير عصابات اللصوص، يا أكرم الأكرمين، فجئنا كي نقدم سواعدنا القوية ومهارتنا لمساعدتك على التحرر منهم».

وكان الحاكم طوال هذه الآونة يسائل نفسه عن أمرهم، وهو يرتعد من الخوف. ولما سمع هذا قال في صوته الراعش المشدوخ:

«حقيقة إنني مبتلى بهذا الوباء. إنني شخصياً لست من رجال الحرب، بل من فئة العلماء، ولا أعرف كيف أتعامل مع مثل هؤلاء اللصوص».

وحقيقة إن عندي جنراً لا يعمل في خدمتي، لكن الدولة تدفع له المبالغ الطائلة بغض النظر عما يقوم به، وهو لا يحب خوض المعارك، فضلاً عن أن أهل هذا الإقليم في غاية العناد والحماسة، حتى إننا لا ندرى هل سينضمون إلى جانب اللصوص ضد الدولة أم لا، إذا ما نشبت معركة من المعارك، فما أسهل أن تثور ثائرتهم بسبب ضريبة طفيفة عادلة. لكن، من أنتم؟ وما اسم عائلاتكم الشريفة، وأين موطن أجدادكم؟».

بيد أن وانج النمر لم يفه بأكثر من قوله:

«نحن من البواسل، نهيم على وجوهنا، ونعرض سواعدنا حيث تدعو إليها الحاجة. ولقد نمى إلى علمنا أن وباء من اللصوص يجثم على هذه المنطقة. إن لدينا خطة للقضاء عليهم إذا ما رغبت في اكتراثنا للعمل».

ولا نستطيع القول أكان من الممكن في الظروف العادية أن يعير الحاكم العجوز هؤلاء الغرباء آذاناً مصغية أم لا، لكنه في تلك الآونة، كان حقاً في شدة الخوف من أن يسلب منه مورد رزقه، إذ لم يكن له من ولد يعوله، ولم يكن بوسعه في سنه المتقدمة أن يأمل في الحصول على مصدر آخر للرزق. وكانت له زوجة عجوز وعشرات من الأقرباء من نوع أو آخر، يعتمدون جميعاً عليه وعلى منصبه، فضلاً عن أن أعداءه قد ازدادوا قوة وجشعاً في فترة شيخوخته العاجزة، لذلك كان الرجل يتعلق بأي شيء يحتمل أن يكفل له الخلاص من متاعبه، ومن ثم أعارهم سمعه. وبعد أن صرف خدمه عدا قلة بقيت للحراسة، أفضى إليه وانج النمر بخطته، وما إن استمع إليها حتى تشبث بها في لهفة شديدة. على أنه كان يخشى شيئاً واحداً فقط، هو أنهم إذا باءوا بالفشل، ولم يقضوا

على الفهد، فسينتقم اللصوص انتقامًا مروعًا. لكن وانج النمر، إذ تبين ما يخشاه الرجل الهرم، قال في غير احتفال:

«يمكنني أن أقتل فهدًا بنفس السهولة التي أقتل بها قطًا، أستطيع أن أقطع رأسه وأجعله يقطر دمًا، دون أن تختلج يدي. وأقسم لك على ذلك!».

فاستغرق الحاكم العجوز في التأمل، وجعل يفكر في أنه طاعن في السن، وأن جنوده ضعفاء جبنا، فترأى له أن هذه هي فرصته الوحيدة. وقال:

«لا أرى من سبيل آخر».

ثم نادى خدمه ثانية، وأمرهم بإحضار اللحوم والخمور وإعداد الوليمة، وراح يعامل وانج النمر وأتباعه الأمناء على أنهم ضيوف الشرف. وبعد الوليمة، انتظر وانج النمر مع الحاكم العجوز، فرسما الخطة، ووضعوا كل تفصيلاتها على خير وجه، ثم قاما بتنفيذها في الأيام القليلة التالية.

بعث الحاكم العجوز برسله إلى وكر اللصوص، وأمرهم أن يقولوا لهم إنه يتقدم في السن، وإنه سيعتزل منصبه وشيئًا، وسيأتي رجل آخر ليشغل مكانه، لكنه قبل أن يمضي يريد أن يتحقق من أن العداء لن يبقى في النفوس بعد اعتزاله، ولذا يرغب في أن يأتي الفهد مع زعماء عصابته لتناول العشاء والاشتراك في وليمة معهم، كي يوصي بهم الحاكم الجديد خيرًا. وما إن سمع اللصوص إلى هذا الحديث، حتى لزموا جانب الحذر، لكن وانج النمر كان قد فكر في هذا أيضًا، فطلب إلى الحاكم

أن ينشر الشائعات في كل مكان بأنه سيعتزل منصبه. ومن ثم، عندما سأل اللصوص عن الأمر في أوساط العامة، سمعوا نفس القصة، فصدقوها، ورأوا أنه سيكون من المفيد لهم لو أمكن التأثير على الحاكم الجديد لمصلحتهم، حتى يهابهم ويدفع المبالغ التي يطلبونها منه، فيوفر عليهم عناء المعركة. لذلك قبلوا الهدنة التي عرضها عليهم الحاكم العجوز، وبعثوا إليه برسالة يبلغونه فيها أنهم سيأتون إلى القصر في ليلة بعينها، عندما يكون القمر في المحاق.

وتصادف أن هطلت الأمطار في ذاك اليوم، وكان الليل حالك الظلمات، مفعماً بالضباب والرياح، لكن اللصوص حفظوا وعدهم وقدموا في أبهى ثيابهم، يحملون أسلحتهم ماضية نظيفة براقه، وقد أمسك كل رجل بسيفه مسلولاً لامعاً في يده. وغصت الأروقة بالحراس الذين جاءوا بهم معهم، ووقف بعضهم خارجاً في الشوارع المحيطة ببوابات القصر، متيقظين لدرء خطر الخيانة. على أن الحاكم الهرم قام بدوره خير قيام، فرغم أن ركبتيه العجوزتين الواهنتين قد عرتهما الرجفة في داخل أرديته، فإنه عمل على أن يحتفظ وجهه بطابع الهدوء والوداعة، وأن يحتفظ صوته بطابع الأدب والمجاملة، كما أمر رجاله بأن ينحو كل أسلحتهم جانباً، ولم رأى اللصوص أنه ليس ثمة أسلحة في المكان ما عدا أسلحتهم الخاصة، ازداد شعورهم بالارتياح والانطلاق.

وكان الحاكم قد أمر طهاته بإعداد أفخر صنوف المآدب، على أن يبسط السماط لزعماء اللصوص في أقصى قاعة داخلية، أما الحراس، فيقدم لهم الطعام في الألفية. وبعد أن أعد كل شيء، تقدم الحاكم العجوز

الزعماء إلى قاعة الحفل، وتنازل الفهد عن مقعد الشرف، فجلس فيه بعد كثير من التمتع وانحناءات المجاملة، في حين جلس الحاكم في مقعد المضيف. بيد أنه كان قد حرص من قبل على أن يكون مقعده قريباً من أحد الأبواب، فقد دبر خطة للهروب والاختفاء ريثما ينتهي كل شيء، بمجرد أن تحين اللحظة الحاسمة التي يتعين عليه فيها أن يسقط كأس خمره على الأرض، بمثابة إشارة للهجوم.

هكذا بدأت الوليمة. وكان الفهد في بادئ الأمر يحتسي الخمر في حذر، وهو ينظر شزراً إذا أسرف أحد زعماء عصابته في الشراب. لكن الخمر كانت في غاية الجودة، فهي من أفخر صنوف الخمر في شتى ربوع ذلك الإقليم، كما كانت اللحوم التي قدمت إليهم متبلة بطريقة ماهرة بارعة حتى تثير ظمأهم، كانت لحوماً لم يسبق لهؤلاء اللصوص أن تذوقوا مثلها من قبل، فهم لا يعرفون سوى طعامهم الغليظ الخشن. ومثل هذه الألوان الشهية الساخنة ما كانوا ليحلموا بها يوماً، فقد نشأوا غلاظاً أجلاً، لم يألّفوا من لذائذ الطعام شيئاً، منذ نعومة أظفارهم. ومن ثم تداعى تحفظهم في النهاية، فراحوا يأكلون ويشربون ملء بطونهم في غير تروٍّ، وكذلك فعل الحراس في الأفنية، بل لعلهم كانوا أكثر انطلافاً، إذ لم يكونوا في مثل فطنة زعمائهم.

كان وانج النمر وأتباعه الأمناء يرقبون الوليمة من وراء ستار مسدل على نافذة ذات شبيكة، تقع بمقربة من الباب الذي كان مبيتاً أن يشنوا هجومهم من خلاله. وقد استل كل منهم سيفه، ووقف متأهباً، يرهف السمع في انتظار تهشيم كأس الخمر الخزفية التي ستكون بمثابة إشارة

الهجوم لهم. وبعد أن استمرت المأدبة ما يربو على ثلاث ساعات، حانت لحظة كانت الخمر تتدفق فيها أنهارًا من غير حدود، والخدم يهرعون هنا وهناك، وقد امتلأ اللصوص باللحم والخمر، وثقلت أطرافهم من أثر ما اكتظت به بطونهم. وعلى حين غرة بدأ الحاكم الهرم يرتجف، واغبرَّ وجهه، ثم قال في صوت متلعثم:

«إن أَلَمًا بالغ الغرابة قد أصاب قلبي».

ورفع كأس خمره بأقصى سرعة، لكن يده عرتها رجفة شديدة اهتزت معها الكأس الدقيقة الهشة، حتى لقد بدت وكأنما ستسقط من يده، ولم تلبث أن سقطت على البلاط. وإذا بالرجل يقف مترنحًا، ويخرج من الباب في خطيئ متعثرة.

إذ ذاك، وقبل أن يلتقط اللصوص أنفاسهم من شدة الدهشة، نفخ وانج النمر في صفارته، وصاح برجاله صيحة واحدة، فهجموا عبر الباب على زعماء اللصوص، وانقض كل من الأتباع الأمناء على الرجل الذي كان وانج النمر قد حدده له من قبل، على أنه احتفظ لنفسه بمهمة القضاء على الفهد.

وكانت الأوامر قد صدرت إلى الخدم بأن يرتجوا جميع الأبواب حالما يسمعون الصيحة، ولما تبين الفهد هذا، قفز واقفًا على قدميه، واندفع نحو الباب الذي كان الحاكم الهرم قد خرج منه مترنحًا. لكن وانج النمر انقض عليه، وقبض على ذراعيه، وما كان الفهد يحمل سوى سيف قصير اختطفه لحظة أن قفز من مكانه، ولم يكن هذا سيفه الخاص، لذا كان في حالة من العجز. على هذا النحو، انقض كل رجل على غريمه،

وامتلأت القاعة بالصرخات واللعنات والرجال المتصارعين. وفي أثناء المعركة، لم يحول أحد من الأتباع الأمانة عينيه ليرى ما يفعله الآخرون إلا بعد قضائه على الرجل المناط به قتله. على أن بعض اللصوص لقوا مصرعهم دون مشقة، لأنهم كانوا سكارى يتخطون. وكلما فرغ أحد الأتباع من قتل غريمه، اتجه صوب وانج النمر ليرى كيف يقوم بأداء مهمته، ويقدم إليه يد العون.

ولم يكن الفهد غريماً حقيراً يستهان به، فرغم أن الشراب قد أخذ منه شيئاً، فإنه كان يتحرك في خفة بالغة وكأنه يطير على أجنحة، وأمكنه أن يرفس بقدميه ويبارز بالسيف في مهارة فائقة، حتى إن وانج النمر لم يستطع القضاء عليه بطعنة واحدة من سيفه. ومع ذلك، فقد أبى أن يساعده أحد، لأنه كان ينبغي الحصول على هذا المجد، فراح يناضل مع الفهد. والحق أنه حين رأى كيف يقاتل هذا الرجل مستميتاً في بسالة وهو لا يحمل سوى هذا السلاح الهزيل الذي اختطفه، اهتزت مشاعره إلى حد الإعجاب به، شأن الرجل الشجاع وهو يناضل غريمه إن كان هو أيضاً يتسم بالبسالة، وداخله شعور بالأسف لأنه يجب أن يقتل هذا الرجل. وبالرغم من ذلك كان لا بد أن يقتله، ومن ثم دفعه بسيفه الخاطف إلى أحد الأركان، وكان الرجل ثملاً ومتخماً بالطعام، فلم يكن بوسعه أن يبذل قصارى جهده. أضف إلى ذلك، أنها كانت معركة يائسة بالنسبة إلى الفهد الذي تعلم بنفسه كل ما يعرفه من فنون القتال، على حين أن وانج النمر قد تمرس عليها في صفوف أحد الجيوش، فهو يحذق فن السلاح وشتى حيل المبارزة وأوضاعها. لذلك حانت اللحظة التي عجز فيها الفهد عن

الدفاع عن نفسه بالسرعة الملائمة ، فطعنه وانج النمر في مقتل، ثم ثنى سيفه في جسده مرة واحدة بقوة، فانبثق منه سيل من الماء والدماء. لكن بينما كان الفهد يتهاوى إلى الأرض وهو يعاني سكرات الموت، حذج وانج النمر بنظرة هائلة لم تغب عن مخيلته قط طوال حياته، إذ كانت في غاية الوحشية والضراوة. وكان مظهر الرجل أشبه بالفهد حقاً، فلم تكن عيناه سوداوين كعيون سائر البشر، بل كانتا شاحبتين صفراوين في لون الكهرمان. وحين رآه وانج النمر يرقد في النهاية جثة هامدة بلا حراك وقد برزت عيناه الصفراوان من محجريهما، قال في نفسه إن هذا الرجل كان فهداً حقيقية، ففضلاً عن عينيه، كانت قمة رأسه عريضة، تنحدر إلى الخلف بصورة بالغة الغرابة تجعله أشبه بالحيوان المتوحش. عندئذ تجمع الأتباع الأمناء حول قائدهم كي يكيلوا له الثناء، بيد أنه ظل قابضاً على سيفه الملطخ بالدماء، فقد غاب السيف عن باله، وهو ينظر إلى جثة الرجل محملاً فيها، ثم قال وفي صوته رنة الأسف:

«كنت أتمنى لو أنني لم اضطر إلى قتله، فقد كان رجلاً باسلاً ضارياً، يحمل نظرة البطولة في عينيه».

لكن بينما كان واقفاً يتطلع في حزن إلى ما تحتم عليه أن يفعله، صاح جزار الخنازير قائلاً إن قلب الفهد لم تزل تدب فيه الحياة، وقبل أن يدرك أحد ما هو مقدم عليه، كان قد مد يده وتناول وعاء من على المائدة، وبذلك القدرة الدقيقة الخاطفة التي تكمن بصورة غريبة في يده الخشنة، شق الجانب الأيسر من صدر الفهد، وضغط على الضلوع معاً، فإذا بقلب الفهد يثب من الشق، فيتلقاه جزار الخنازير في الوعاء. وحقيقة أن القلب

لم يكن خامد الحركة، فقد ارتجف مرة أو مرتين في الوعاء، الذي مده
جزار الخنازير إلى وانج النمر، وهو يصيح في نبرات عالية مرحة:
«خذه وكله يا قائدي، فقد قيل منذ قديم الزمان إن قلب العدو الشجاع
إذا أكله المرء دافئاً، يجعل قلبه في ضعف شجاعته!».

لكن وانج النمر عزف عنه، وأشاح بوجهه قائلاً في تعال وكبرياء:
«لست بحاجة إليه». ثم وقعت عينه على أرض القاعة بالقرب من
المقعد الذي كان الفهد جالساً عليه في أثناء الوليمة، فرأى سيف الفهد يلمع
هناك، فمضى إليه والتقطه من على الأرض. كان سيفاً رائعاً من الصلب، من
الصنف الذي يتعذر صنعه في هذه الأيام، فهو ماض إلى حد أنه ينفذ في
خيوط من الحرير، وبتار بحيث يشطر سحابة إلى شطرين. وجربه وانج النمر
في رداء أحد اللصوص كان يرقد جثة هامدة هناك، فإذا به يغوص إلى عظام
الرجل، وهو لم يكذب يضغط عليه مطلقاً. فقال وانج النمر:

«سأخذ هذا السيف وحده ليكون من نصيبي. إني لم أر قط سيفاً
كهذا».

وفي هذه اللحظة، ترمى إلى سمعه صوت مكتوم، وإذا به ينبعث من
الغلام المجذور، الذي كان قد وقف يحملق في جزار الخنازير، فأصيب
بالغثيان على حين غرة، ولفظ ما في أمعائه من هول ما رأى. وإذا سمع
وانج النمر صوته، قال له في لهجة رقيقة، مدرّكاً أنها أول مرة يشهد فيها
الغلام رجلاً يلقون مصرعهم:

«لقد فعلت خيراً أنك لم تصب بالغثيان قبل الآن. امض خارجاً إلى

الهواء الندي في الفناء».

لكن الغلام أبى أن يمضي، متشبثاً برأيه في قوة وصلابة، ما بعث
السرور في قلب وانج النمر، فقال له:

«إذا كنت أنا النمر، فأنت خليك بأن تكون شبل النمر، وأقسم على
ذلك!».

فاغبط الغلام حتى لقد افتر فمه عن ابتسامة عريضة كشفت عن
أسنانه التي بدت لامعة في وجهه الأبيض العليل.

بعد أن قام وانج النمر بأداء ما وعد به الحاكم، مضى خارجاً إلى
الأفنية ليرى ماذا فعل رجاله بصغار اللصوص. وكانت ليلة ظلماء تغشاها
الغيوم، فبدت أشباح الرجال لا تكاد ترى في ظلمة الليل. كانوا في انتظاره
فأمر بأن توقد المشاعل، ولما توهج لهيبتها تبين أن عدد القتلى لا يزيد
على بضعة رجال، فشعر بالسرور لذلك، لأنه كان قد أصدر أوامره بالألا
يقتل اللصوص جزافاً، وبأن تتاح لهم فرصة الخيار لو أنهم رغبوا في تغيير
اللواء الذي يدينون له بالولاء، ذلك إذا كانوا من البواسل.

غير أن مهمة وانج النمر لم تكن قد وصلت بعد إلى مداها. ذلك
أنه عقد العزم على اقتحام الوكر في التو، وهو في أضعف حالاته، قبل
أن يتسنى للصوص الباقين تعزيز قواهم. لم يتلبث حتى لمقابلة الحاكم
الهم، بل بعث إليه برسالة يقول فيها: «لن أطالب بالجزاء حتى أسحق
جحر الثعابين هذا!» ثم نادى رجاله، ومضى بهم عبر الحقول في دجى
الليل البهيم، متجهين إلى «جبل التنين المزدوج».

على أن رجاله لم يتبعوه الآن عن طيب خاطر، لأنهم قد خاضوا معركة هذه الليلة، وكان عليهم أن يزحفوا ما لا يقل عن ثلاثة أميال أو نحو ذلك، وربما اضطروا إلى القتال مرة أخرى، فضلاً عن أن الكثيرين منهم كان يحدوهم الأمل في أن يسمح لهم بالسلب والنهب في المدينة مكافأة لهم على المعركة التي خاضوا غمارها، لذلك رفعوا عقيرتهم بالشكوى إليه، قائلين:

«لقد قاتلنا وخاطرنا بحياتنا في سبيلك، لكنك لم تدعنا نستولي على أي غنائم أو أسلاب. إننا لم نعمل قط تحت لواء قائد في شدتك وصلابتك، فنحن لم نسمع قط عن جنود يتحتم عليهم القتال من غير أن يحصلوا على غنائم، بل ولا حتى أن يلمسوا إحدى الفتيات بأيديهم، وقد كبحننا جماح أنفسنا حتى قاتلنا من أجلك، ومع ذلك، فأنت لا تمنحنا الحرية».

في بادئ الأمر، أبي وانج النمر أن يرد على هذا القول، لكنه لم يعد يطيقه حينما سمع عديد منهم يتمتمون مع بعضهم البعض في تذر، وأدرك أنه يجب أن يعاملهم في قسوة وصلابة، وإلا أقدموا على خيانتته. ومن ثم استدار إليهم، وفرقع سيفه القاطع في الهواء، فأحدث صوتاً كالصفير، ثم زأر فيهم قائلاً:

«لقد قتلت الفهد، وسوف أقتل أي واحد منكم، بل أفضي عليكم جميعاً، من غير أن أحفل بشيء. أليس لديكم من حكمة على الإطلاق؟ هل يمكننا أن ننهب نفس المكان الذي نأمل في أن يكون ملكاً لنا، فنوغر صدور الناس علينا من الليلة الأولى ذاتها؟ لا أريد أن أسمع كلمة أخرى

من هذه الكلمات اللعينة! حينما نصل إلى الوكر، يمكنكم أن تنهبوا أي شيء، وتستولوا عليه كله، سوى أنه من المحظور عليكم أن تغتصبوا امرأة ضد إرادتها».

هكذا ألقى الرعب في قلوب رجاله، فقال أحدهم متهيباً: «لكننا أيها القائد لم نقصد سوى المزاح». وقال آخر فيما يشبه التساؤل: «لست أنا الذي تدمرت يا قائدي. وإذا كنا ستعمل السلب والنهب في الوكر، فأين سنقيم إذن؟ لقد كنت أظن أننا سنقيم في الوكر».

فأجابه وانج النمر متجهماً، لأنه كان لم يزل غاضباً:

«لسنا عصابة لصوص، ولست زعيم لصوص من السوق. فلدي خطة أفضل من هذا السبيل، لو أنكم فقط أوليتموني ثقتكم ولم تسلكوا مسلك الحمقى. سنضرم النار في هذا الوكر حتى نساويه بالأرض، وسوف تنقش لعنة هؤلاء اللصوص عن هذه المنطقة من الريف، فلا يكون ثمة ما يدعو الناس إلى الخوف منهم بعد الآن».

إذ ذاك عرت الدهشة رجاله - حتى أتباعه الأمناء - أكثر من أي وقت مضى، فقالوا بلسان أحدهم:

«لكن ماذا سنكون إذن؟».

فأجاب وانج النمر في خشونة بالغة: «سنكون من رجال الحرب. لا من قطاع الطرق. ولن يكون لنا وكر، بل سنعيش في المدينة، في نفس أروقة الحاكم، وسنكون جيشه الخاص، لا نخشى كائنًا من كان، لأننا سنعمل باسم الدولة».

عندئذ أطبق الصمت على الرجال من شدة الرهبة حيال براعة قائدهم هذا، وانجلت عنهم ميولهم الشريرة كأنها ريح عابرة. ثم أخذوا يطلقون ضحكات عالية، وقد أولوه ثقتهم، وراحوا يرتقون في لهفة الدرجات المفضية إلى الممر الذي يتجه نحو الوكر، ومن حولهم تضافرت حلقات الضباب، وهي تتماوج بين الجبال، وكان الدخان يتصاعد من مشاعلهم في الضباب البارد.

وعلى حين فجأة بلغوا مدخل الممر، حيث كان أحد الحراس واقفاً، فاستبد به الدهول لدرجة أنه عجز عن الفرار، وإذا بأحد الرجال -وقد بلغ به المرح مده- ينفذ سيفه في جسده، قبل أن يفوه بكلمة. شهد وانج النمر هذا، غير أنه لم يعنف رجله هذه المرة، فهو لم يقض إلا على رجل واحد، وفي الحقيقة أن القائد لا يمكنه أن يحكم قبضته تمامًا على زمرة من الرجال الجهلة الضواري؛ خيفة أن ينقلبوا عليه ويمزقوه إربًا. لذا ترك الرجل ملقى على الأرض جثة هامة، ومضى بهم في طريقه إلى بوابات الوكر.

وكان هذا الوكر أشبه بالقرية حقيقة، له جدار صخري قد من الجبل، ولحمت أجزأؤه معًا بالطين والجص حتى أصبح في غاية المتانة، وكانت له بوابات ضخمة ذات إطارات حديدية مثبتة في الجدار. فأخذ وانج النمر يترك على تلك البوابات لكنها كانت موصدة وقد أحكم رتاجها، ولم يتلق ردًا. ولما أعاد الطرق دون أن يرد عليه أحد، أدرك أن الذين في الداخل قد بلغهم ما لحق بقائدهم، فما من شك أن بعض اللصوص قد هرعوا عائدين أدرأجهم، يحملون النذير إلى الآخرين، وهم إما قد لاذوا

بالفرار، وإما حصنوا أنفسهم داخل البيوت، ووقفوا على أهبة الاستعداد لصد الهجوم.

حيثئذ أمر وانج النمر رجاله بإعداد مشاعل جديدة من أعشاب الخريف الجافة التي تحف بالوكر، ثم أوقدوا هذه المشاعل التي صنعوها من العشب المجذول، وأحرقوا الجانب الخشبي من إحدى البوابات حتى فتحوا فيه فجوة، ولما اتسعت هذه الفجوة بما فيه الكفاية انزلق أحدهم من خلالها، ورفع الرتاج من وراء البوابات في سرعة خاطفة. ثم دخلوا جميعاً، يتقدمهم وانج النمر.

بيد أن الوكر كان في سكون الموت. فوقف وانج النمر يرهف السمع، وما من صوت. حيثئذ أصدر أوامره بأن ينفخ كل رجل في شعلته حتى يتأجج لهيبها، ثم يضرمو النار في البيوت، فهرع الرجال جميعاً للقيام بهذه المهمة، وأخذوا يصرخون ويصيحون عندما اندلعت النيران في أسطح البيوت المستقوفة بالقش. وما إن بدأ الوكر بأكمله يستعر باللهب، حتى أخذ أناس يركضون من داخل البيوت وكأنهم جيش من النمل يزحف من على أحد التلال. تدفقوا رجالاً ونساء وأطفالاً، يعدون هنا وهناك، وقد حنوا أجسامهم في هلع، وبينما هم يركضون أخذ رجال وانج النمر يصبون إليهم الطعنات إلى أن صاح فيهم آمراً بأن يسمح لهم بالفرار على أنه أباح لرجاله أن يدخلوا البيوت للاستيلاء على متاعهم.

فاندفعوا إلى داخل البيوت التي لم تستعر فيها ألسنة النيران، وراحوا يسحبون خارجها أسلابهم من قطع الحرير والقماش والثياب وكل ما أمكنهم حمله. كما عثر البعض على ذهب وفضة، وعثر البعض الآخر

على دنان مليئة بالخمير والطعام، فأخذوا يأكلون ويشربون في نهم، حتى إن بعضهم من شدة لهفتهم لقوا حتفهم في سعيير اللهب التي أشعلوها بأيديهم. وحين رأى وانج النمر أنهم يسلكون مسلك الأطفال، أرسل إليهم أتباعه الأمناء كي يعملوا على ألا يلحقوا بأنفسهم الأذى، ومن ثم لم يهلك كثير منهم.

أما هو، فقد وقف جانباً يرقب كل شيء، كما أبقي ابن أخيه بمقربة منه، وأبى أن يسمح للصبي بأن يغتنم شيئاً من الأسلاب، قائلاً له:

«كلا يا غلام، إننا لسنا باللصوص، فأنت ابن لحمي ودمي، ونحن لا نعرف السرقة. هؤلاء رجال جهلة من الدهماء، ولا بد أن أسمح لهم أن يفعلوا ما يروق لهم مرة في كل حين، وإلا فإنهم لن يتفانوا في خدمتي، ولعله من الأفضل أن أطلق لهم العنان هنا. يجب أن أستغلهم كأداة في يدي، فهم وسيلتي إلى المجد. لكنك لست مثلهم».

هكذا أبقي الغلام بجواره، وحسنًا فعل، فقد حدث حينذاك أمر في غاية الغرابة. فبينما كان وانج النمر واقفاً هناك، متكئاً على بندقيته وهو يرقب البيوت المستعرة التي بدأ الدخان يتصاعد منها ويخبو فيها اللهب، إذا بالغلام يطلق صرخة هائلة على حين غرة، فاستدار وانج النمر على عقبه مسرعاً، فرأى سيفاً ينقض عليه من أعلى. فما كان منه إلا أن رفع سيفه في التو، وتلقاه به، فانزلق نصله على السيف المصقول، ومس يده مساً هيناً، لم يكد يصيبه بجرح، ثم سقط على الأرض.

على أن وانج النمر قفز في غياهب الظلام بخفة تفوق خفة النمر، وقبض على شخص ما، ثم جذبه من الظلام إلى دائرة الضوء المنبعث

من النيران، وإذا به امرأة، فوقف حائرًا مببل الفكر، وهو يمسك بها من الذراع التي كان قد قبض عليها، ثم صاح الغلام:

«إنها المرأة التي رأيتهما تحتسي الخمر مع الفهد!».

لكن قبل أن يفوه وانج النمر بكلمة واحدة، أخذت المرأة تتثنى وتتلوى وتحاول أن تتخلص منه، ولما وجدت أنه يحكم قبضته عليها وأنها لا تستطيع فكاكًا، أمالت رأسها إلى الخلف، وبصقت في عينيه مباشرة. ولم يكن مثل هذا الشيء قد حدث له قط من قبل، كان عملاً قذراً كريهاً، لدرجة أنه رفع يده وصفعها على خدها كما يصفع المرء طفلاً عنيداً، فخلعت يده الصلبة آثار أصابعه قانية على وجنتيها، وصاح قائلاً:

«هذه لك، أيتها النمرة!».

قال هذا دون تفكير فيما يقوله، فردت عليه صائحة في لهجة شريرة:

«يا ليتني قتلتك أيها اللعين.. كنت أقصد قتلك!».

فقال متجهماً، وهو ما زال يحكم قبضته عليها:

«حسنًا، إنني أعلم أنك كنت تقصدين هذا، ولو لم يكن غلامي المجذور هنا، لكنت في هذه اللحظة أرقد جثة هامدة، وقد شجت جمجمتي!» ونادى بعض رجاله، أمرًا إياهم أن يأتوا بحبل ويقيدوها به. ثم ربطوها إلى إحدى الأشجار هناك بجوار البوابة ريثما يقرر ماذا سيفعل بها.

كان قد أحكموا وثاقها تمامًا، فأخذت تناضل وتحاول أن تتخلص حتى تمزق لحمها، لكنها لم تستطع حتى أن تخفف من وطأة القيد.

وبينما كانت تناضل للخلاص، راحت تصب عليهم جميعاً - لا سيما وانج النمر - وأبلاً من الشتائم التي يندر أن يسمعها المرء في أي مكان، إذ كانت في غاية الحطة والبذاءة. وكان وانج النمر واقفاً يرقب الرجال وهم يوثقونها، وبعد أن أحكموا وثاقها حتى يأمنوا جانبها، ثم مضوا لممارسة متعة السلب ثانية، أخذ هو يمشي أمامها جيئةً وذهاباً، وهو يتطلع إليها في كل مرة يمر بها. وكلما مر بها، يصوب إليها نظرة أكثر ثباتاً في مزيد من العجب، فتبين أنها صغيرة السن، وأن لها وجهًا جميلاً مشرقاً يتسم بالقوة والصلابة، فشفتاها دقيقتان متوردتان، وجبهتها عالية ناعمة، وعيناها براقتان نافذتان يطل منهما الغضب، كان وجهها نحيلًا لامعًا كوجه الثعلب. أجل، بل كان جميلاً حتى في هذه اللحظة، وهو يتقلص بالحدق عليه في كل مرة يمر بها، وكانت كلما مر من أمامها تلعنه وتبصق عليه.

على أنه لم يأبه بها، سوى أنه راح يتفرس فيها بطريقته الصامتة في أثناء مسيره. وبعد فترة من الزمن، وبينما الليل يزحف في تناقل نحو الفجر، نال منها النصب، فقد أحكموا وثاقها حتى إنها أحست بألم طاغ، لم تعد تطيقه في النهاية، فتوقفت أولاً عن إطلاق اللعنات واكتفت بالبصق، وبعد هنيهة فاض بها العذاب، فلم تعد تبصق أيضاً، وأخيراً قالت لاهثة، وهي تلحق شفتيها:

«فكوا وثاقي ولو قليلاً، لأنني أشعر بألم بالغ».

بيد أن وانج النمر لن يحفل بهذا أيضاً، واكتفى بمجرد الابتسام، على اعتقاد أنها إحدى الأعبىء. فأخذت تتوسل إليه على هذا النحو كلما اقترب منها، لكنه أبى أن يرد عليها. وأخيراً مرّ بها في إحدى المرات،

فوجد رأسها متدليًا على صدرها، وقد خيم عليها الصمت. ومع ذلك لم يرغب في الاقتراب منها، إذ لم يكن يريد أن تبصق عليه مرة أخرى، وظنها تتصنع النوم أو الإغماء. لكنه عندما مر بها عدة مرات دون أن تحرك ساكنًا، أرسل إليها الغلام، فمضى إليها ورفع رأسها، ممسكًا بذقنها، فوجد أنها حقيقة قد غابت عن الوعي.

عندئذ ذهب إليها وانج النمر، وتطلع إليها عن كثب، فتبين أنها أكثر ملاحظة مما لاحت لعينه حين رآها في الضوء الكليل الراعش الذي كان ينبعث من النيران الخابية. لم تكن تزيد عن الخامسة والعشرين من العمر، لا يبدو عليها مظهر بنات الفلاحين من السوق أو سيماء النساء الشائعات، فلم يسعه إلا أن يسائل نفسه عمن تكون، وكيف تأتي لها أن تصل إلى هذا المكان، وأين عثر الفهد على مثل هذه المرأة. ثم دعا أحد الجنود أن يأتي ويقطع الجبل الذي يشدها إلى الشجرة، مبقيا على وثاقها، على أن يخفف عنها قليلاً، ولا تصلب على الشجرة. وأمر الرجال أن يرقدوها على الأرض، حيث ظلت ممددة، فلم تعد إلى وعيها حتى بزغ الفجر، وأخذ شعاع الشمس يتسلل من خلال الضباب الذي يخيم في البكور.

وفي هذه الساعة، دعا إليه رجاله، وقال لهم:

«لقد أزف الوقت. فلدينا أمور أخرى غير هذا ينبغي القيام بها».

فتوقف الرجال رويدًا عن عراكمهم على الأسلاب، وتجمعوا استجابة لندائه، فقد رفع صوته مدويًا بطريقة في غاية الشراسة، وأمسك ببندقته مرفوعة الزناد، على أهبة الاستعداد للرد على أي واحد منهم يأبى أن يذعن لأوامره، ثم قال حينما قدم رجاله:

«اجمعوا كل البنادق والذخيرة الموجودة هنا، فهي لي. إنها نصيبي من الأسلاب».

ولما قام رجاله بهذه المهمة، أحصى عدد البنادق، فكانت مائة وعشرين بندقية، فضلاً عن كمية وفيرة من الذخيرة. على أن بعض البنادق كانت قديمة يعلوها الصدأ أو تافهة القيمة، فأبقى هذه على حدة لأنها من طراز عتيق معقد، ليتخلص منها حالما يتمكن من الحصول على ما هو خير منها.

وفي قلب الوكر المهدم الذي يتصاعد منه الدخان، أخذ رجاله يحزمون غنائمهم في صرر بعضها كبير الحجم وبعضها صغير، وأعاد هو إحصاء البنادق التي عثروا عليها، ثم أعطاها للرجال ذوي الجدارة بثقتهم لحراستها. وفي النهاية استدار إلى المرأة الموثوقة. كانت قد عادت إلى وعيها، وهي راقدة على الأرض مفتوحة العينين. وعندما نظر إليها، سددت إليه عينيها في غضب، فقال لها في خشونة:

«من أنت، وأين موطنك حتى أرسلك إليه؟».

لكنها أبت أن ترد عليه بكلمة واحدة، وكان ردها أن بصقت عليه، وقد بدا وجهها أشبه بقطعة غاضبة. وأثار هذا المسلك ثأثره إلى حد بعيد، فنادي اثنين من رجاله، وقال لهما:

«ضعوا عموداً من الخشب بين طيات وثاقها، واحملوها إلى قصر الحاكم، ثم ألقوا بها في السجن هناك، عساها أن تكشف عن شخصيتها حينذاك!».

فصدع الرجال لأوامره، ودفعوا العمود بلا رحمة بين طيات الجبال، ثم حملوا طرفيه على أكتافهم، وهي تتأرجح معلقة به.

أما وانج النمر، فإنه بعد أن أعد كل شيء، وقد تجلى قرص الشمس من وراء قمم الجبال، تقدم رجاله هابطاً إلى بداية الممر. وكانت سحابة باهتة من الدخان لما تزل تتعالى من الوكر، لكنه لم يلتفت وراءه ليلقي عليه نظرة أخيرة.

هكذا زحفوا ثانية على امتداد الطريق الممتد عبر الريف إلى المدينة. وكم من رجل مر بهذا الحشد العجيب، فاختلس النظر إليه، لا سيما إلى المرأة المشدودة إلى العمود، وقد تدلى رأسها إلى أسفل، وبدا وجهها الشبيه بوجه الثعلب شاحباً في لون الرماد. وكان كل رجل من المارة يساوره العجب، لكن أحداً لم يجرؤ على السؤال عما حدث، لئلا يتورط في مشاجرة مستيئسة. وكان الخوف بداخلهم، فيمضي كل إلى شأنه، وهو يغض من بصره، بعد أن يختلس من المشهد لمحة خاطفة أو لمحتين. وفي النهاية، عندما بلغ وانج النمر ورجاله بوابات المدينة كان النهار قد انبجض ضوءه وأخذت أشعة الشمس تتدفق على الحقول.

لكن، بينما هو يشق حجب الظلام الذي يخيم على الممر الممتد عبر جدار المدينة، أقبل عليه تابعه الأمين الأشرم، وانتحى به جانباً خلف شجرة تنتصب بجوار البوابة، ثم همس قائلاً له، وصوته يهمس هسيساً ينم عن خطورة ما يرغب في قوله:

«عندي حديث لا بد أن أقوله لك يا قائدي، من الخير ألا يكون لنا أدنى صلة بهذه المرأة، إذ إن لها وجه الثعلب وعينيه، ونساء كهذي

لا يَكُنْ إلا نصف بشر، أما النصف الآخر، فينتمي إلى فصيلة الثعالب.
وهنَّ ينطوين على شر بالغ الأذى له طابع السحر. دعني أغمد سكينني في
جسدها، فأقضي عليها».

ومع أن وانج النمر قد سمع الكثير من القصص التي تدور حول
الأشياء التي تفعلها النساء من أنصاف الثعالب، فإنه كان جسورًا لا يهاب
شيئًا في أعماق قلبه، حتى إنه ضحك عاليًا حينذاك، وقال للرجل:
«أنا لا أخشى رجلًا أو شبحًا، وهذه ليست سوى امرأة». ثم تجاهله،
ومضى إلى مقدمة الحشد مرة أخرى.

على أن التابع الأمين الأشرم سار في أعقابه وهو يتمتم قائلاً:
«لكن هذه امرأة، شر من الرجل، كما أنها ثعلب، شر من المرأة».



عندما دلف وانج النمر إلى نفس الأروقة التي قام فيها بهذا العمل الرائع في الليلة السابقة، يتبعه رجاله في خطى متعثرة من شدة الإعياء، إذ بهم يجدون هذه الأروقة وقد نظفت تمامًا، وعاد كل شيء إلى سابق عهده. كانت جثث القتلى قد رفعت خارجًا، ومسحت الدماء، وأزيلت آثارها بالماء. وكان جميع الحراس والخدم يقفون كل منهم في مكانه، فساورهم خوف وحذر عندما عبر وانج النمر بوابات القصر، وقد أقبل عليها متشامخًا كأنه أحد الملوك، فسارع الجميع بالانحناء بين يديه.

على أنه شد قامته، متطلعًا إلى الأمام في ترفع واعتداد، ومضى في خطوات فسيحة عبر الأفنية والأبهاء، ترسم الكبرياء في سمات رائع على وجهه الأسمر الداكن. إذ كان يدرك جيدًا أن هذا الإقليم بأسره قد أصبح الآن في قبضة يده. والتفت إلى حارس كان واقفًا هناك وصاح به:

«خذ هذه المرأة الموثوقة، وضعها في مكان ما من سجن القصر! اسهر على حراستها، واعمل على أن يقدم إليها الطعام، وألا تلقى معاملة سيئة، فهي أسيرتي. وعندما يروق لي، سوف أقرر نوع العقوبة التي ستوقع عليها».

ثم وقف يرقب الرجل وهو يحملها خارجًا، معلقة على العمود الخشبي. وكانت قد أنهكت تمامًا، فبدأ وجهها ممتقعًا في لون الشحم، بل لقد سرى الشحوب إلى شفتيها اللتين كانتا تفيضان بالحمرة، وبدأت عيناهما حالكتي السواد في لون الحبر وسط الشحوب الذي يعلو وجهها. وكانت تلهث لالتقاط كل نفس من أنفاسها. بيد أنه كان لم يزل في استطاعتها أن تحول هاتين العينين السوداوين الواسعتين المتوحشتين صوب وانج النمر، وحين رآته يشملها بنظرة فاحصة صمرت وجهها اشمئزًا منه، غير أن فمها كان قد جف من اللعاب. وذهل وانج النمر، فهو لم يرقب امرأة كهذه، ومضى يفكر متحيرًا فيما سيفعله بها، إذ كان من المحال أن يطلق سراحها وهي تفيض هكذا بالحقده عليه، وتستبد بها هذه الرغبة العارمة في الانتقام منه.

لكنه نحى أمرها عن ذهنه في ذلك الوقت، ودلف إلى حضرة الحاكم الهرم الذي كان في انتظاره من قبل مطلع الفجر، جالسًا هناك في كامل ثيابه بعد أن أمر خدمه بإعداد أفخر صنوف الطعام. ولما رأى وانج النمر يدخل عليه، عرته رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وخيم عليه ارتباك شديد، ذلك لأنه رغم امتنانه لما قام به وانج النمر، فإنه أدرك أن مثل هذا الرجل لا يمكن أن يسدي خدمة إلى آخر دون مقابل، لذا كان يخشى سماع ما سيطلب به وانج النمر من جعالة، خيفة أن يكون شيئًا جسيمًا يثقل كاهله أكثر مما كان يثقله الفهد.

لذلك ظل ينتظره في حيرة فظيعة، وحين أعلن له مقدمه ورآه يخطو إلى داخل القاعة في خطى فسيحة متزنة شأن الأبطال، اضطرب

حاله من شدة مخاوفه وهواجسه، حتى إنه لم يعد يدري ماذا يفعل بيديه وقدميه التي أخذت ترتعد وتتحرك دون أن يعي، وكأنها تحيا حياة خاصة بها منفصلة عن كيانه. على أنه دعا وانج النمر إلى الجلوس، فرد عليه عبارات المجاملة اللائقة، وبعد أن فرغا من فروض المجاملة، انحنى له وانج النمر ثم انحنى، لكن دون أن يغالي في الانحناء، وبعد أن أمر الحاكم الهرم بإحضار الشاي والخمور واللحوم، جلسا في النهاية، وراحا يتحدثان قليلاً في بعض الأمور التافهة.

ثم جاءت اللحظة التي لم يعد بعدها من الممكن تجنب الحديث في الأمر الذي قام وانج النمر بأدائه. وفتح الحاكم الهرم فمه لتخرج منه الكلمات، وهو يولي عينيه شرقاً وغرباً، محملاً في شتى الاتجاهات ما عدا اتجاه وانج النمر. على أن الأخير لم يشد من أزره، فقد أصبحت السلطة الآن ملك يديه، وكان يعرف حق المعرفة ما يعتمل في قلب الحاكم الهرم، فلم يفعل شيئاً سوى أنه ثبت عينيه على ذلك الرجل المنهار الأعصاب، مدرّكاً أنه بهذا الأسلوب ييث الرعب في قلبه، وقد أضفى عليه هذا الإدراك شعوراً بالنشوة، ينبعث من الخبث الكامن في أعماقه. وأخيراً شرع الحاكم في الحديث بصوته العجوز الواهن المتعجل، في نبرات رقيقة هامسة خافتة للغاية:

«ثق أنه من المحال أن أنسى أبداً ما قمت به في الليلة الماضية، ولن يمكنني مطلقاً أن أوفيك حقلك من الشكر على خلاصي من البواء الذي ظلمت أزرع تحت نيره طيلة هذه السنين، إذ يمكن لشيخوختي أن تنعم بالهدوء الآن. ماذا أقول لك وأنت الذي كتب لي الخلاص، وكيف

أكافئك وأنت مني في منزلة تفوق منزلة الابن؟ وكيف أكافئ رجالك
الأشراف النبلاء؟ اطلب ما تريد، ولو كان منصبى ذاته، يكن لك».

وراح ينتظر الرد راعشاً، وهم يقضم في ظفر سبابته. على حين جلس
وانج النمر هادئاً ينتظر حتى يفرغ الحاكم الهرم من حديثه ثم رد عليه في
دماثة:

«أنا لا أطلب شيئاً على الإطلاق. لقد كنت منذ صدر شبابي أناهض
جميع الأشرار المولعين بالأذى. فلم أفعل ما فعلته إلا لتحرير الناس من
هذا الوباء».

ثم لاذ بالصمت، وعاد ينتظر ثانية، فقد جاء الآن دور الحاكم الهرم
في الحديث، فقال:

«إنك تحمل في صدرك قلب بطل، إذ لم أكن أتخيل أنه يوجد
أضرابك في هذه الأيام. ومع ذلك، لا يمكنني أن أنعم بالنوم في هدوء
وسلام، حتى بعد أن يدركني الموت، ما لم أقدم إليك آيات الشكر بصورة
ما. فتكلم وصارحني ما هي خير مكافأة تروق في عينيك؟».

هكذا راحا يتجاذبان أطراف الحديث، ومع كل عبارة يفوه بها أحدهما
في دوره -بكل أدب ولطف- كانا يقتربان من بيت القصيد في النهاية. ثم
أوضح له وانج النمر في كلمات ملفوفة أنه قد عقد العزم على أن يقبل
بين صفوف جيشه جميع أتباع الفهد القدامى ممن يرغبون في تغيير اللواء
الذي يدينون له بالولاء. فامتلاً قلب الحاكم الرعب، وأمسك بمسندى
مقعده المحلى بالنقوش المحفورة، ثم نهض واقفاً على قدميه، وقال:

«لكن هل تزمع أن تكون زعيم عصابة من اللصوص في مكانه إذن؟».

وقال بينه وبين نفسه إنه إذا كان الأمر كذلك، فقد قضي عليه حقًا، لأن هذا الرجل الغريب الفاره القامة ذا الحاجبين الأسودين الذي أتى إليه لا يدري من أين، لاح لعينيه أشد ضراوة من الفهد نفسه، فضلًا عن أنه يفوقه ذكاء ومهارة! بل إن الفهد كان على أقل تقدير واضحًا للجميع، فهم يعرفون مقدار الإتاوة التي يطلبها منهم. وبينما كانت هذه الأفكار تجول بخاطر الحاكم، بدأ يئن قليلًا بصوت مسموع، دون أن يعي. أما وانج النمر، فقد جاهر بمكنون صدره من غير لف أو دوران، قائلاً:

«ليس ثمة ما يدعوك للخوف. إذ ليس في نيتي أن أكون من اللصوص. لقد كان أبي رجلًا شريفًا من ملاك الأرض، وقد آل إليّ إرثي الخاص منه. لست فقيرًا بحيث أحتاج إلى السرقة للحصول على شيء. فضلًا عن أن أخوي الكبيرين رجлан محترمان من ذوي الثراء. وإن كنت سأشقى لنفسي طريق المستقبل إلى أوج المجد، فإن هذا سيكون عن طريق مهارتي في فنون الحرب، لا عن طريق الخديعة الدنيئة التي يلجأ إليها اللصوص. كلا، هذه هي جعالتني وكل ما أطلبه منك. دعني أمكث مع رجالي هنا في بلاطك. ونصبني قائدًا عامًا لجيشك الخاص. سوف آتي أنا ورجالي إلى القصر كجزء من حاشيتك، فأحميك من اللصوص، وأحمي شعبك أيضًا. يمكنك أن تطعمنا وتمنحنا جانبًا معينًا من الدخل الذي هو حق لنا، وأن تعطيني الحماية التي يكفلها اسم الدولة».

أصغى الحاكم الهرم إلى هذا القول، وهو فريسة الحيرة والارتباك، ثم قال في وهن:

«ولكن ماذا سأفعل بالجنرال الذي عندي من قبل؟ سأكون ممزقاً بينكما؛ لأنه لن ينزل عن منصبه بسهولة».

فرد عليه وانج النمر ردّاً يتسم بالبسالة:

«فلنتبارز على المنصب كما يفعل الرجال الشرفاء، فإذا انتصر عليّ، فأني سأمضي تاركاً له رجالي وبنادقي. أما إذا كتب لي النصر، فعليه عندئذ أن يمضي تاركاً لي رجاله وبنادقه».

إذ ذاك أرسل الحاكم في طلب جنراله، وهو يئن ويتنهد، فقد كان عالماً من مريدي أهل الحكمة، يحب السلام. وبعد هنيهة أقبل الرجل، ضئيل الجسم مكور البطن منتفخاً بالعظمة، يرتدي ثياباً عسكرية من طراز أجنبي، ويطلق لحيه خفيفة متناثرة على وجهه، وكان يرفع حاجبيه الصغيرين، باذلاً قصارى جهده الهزيل لتبدو عليه سيماء الضراوة والبسالة. دخل إلى القاعة يجر وراءه سيفاً طويلاً، وهو يضرب الأرض بعنف في كل خطوة يخطوها. وحيثما انحنى للحاكم، ثنى جذعه تماماً، وحاول أن يبدو كالوحوش الكاسرة.

وبصورة ما أفضى الحاكم الهرم إليه بالأمر، وهو يتردد في حديثه ويتفصد منه العرق. على حين جلس وانج النمر هناك في غير احتفال، وقد حول عينيه بعيداً، فظهر وكأنما يفكر في أمور أخرى. وفي النهاية لاذ الحاكم بالصمت، منكساً رأسه، وهو يتمنى لو أنه كان في عداد الأموات، ويفكر في نفسه أنه لن يلبث أن يلقي حتفه بين هذين الرجلين، فقد استقر في روعه دائماً أن جنراله يتمتع بقدر كبير من الضراوة، لأن الرجل كان على شيء من حدة الطبع وسرعة الغضب. على أن وانج النمر كان يفوقه

إلى حد بعيد في سرعة غضبه وعمق ثورته، الأمر الذي يستطيع أي إنسان أن يلمسه إذا تطلع إلى وجه النمر هذا.

وثار الجنرال الضئيل المكور البطن لما سمعه من الحاكم، فوضع يده الصغيرة المكتنزة على سيفه، متظاهراً بأنه سينقض على وانج النمر. لكن وانج النمر لمح الحركة وهي لم تكذ تحدث، رغم أنه في الظاهر كان في هذه اللحظة يتفرس في الشرفة المقامة من نبات الفاونيا في الفناء. وإذا به يرفع شفثيه العريضتين مكشراً عن أسنانه البيضاء، ويرخي حاجبيه السوداوين الكثيفين، وقد طوى ساعديه على صدره، وراح يحدق بعنف في الجنرال الضئيل، مصوباً إليه نظرة هائلة، حتى إن الرجل الضئيل تعثر في حركاته وفكر ملياً فيما أقدم عليه، فابتلع ثورته قدر استطاعته. والحقيقة أنه لم يكن أحق، فأدرك أن دولته قد دالت، ولم يجرؤ على أن يختبر قوته في معركة وانج النمر. وأخيراً قال للحاكم الهرم:

«لقد كنت أفكر منذ أمد بعيد في أنه يجمل بي أن أعود إلى أبي العجوز، فأنا ابنه الوحيد، وقد أصبح طاعناً في السن. لكن لم تتح لي قط فسحة من الوقت للذهاب إليه من قبل، لأن واجبي هنا في بلاطك الشريف كان مطرداً ومضنياً إلى أبعد الحدود. وفضلاً عن هذا الواجب البنوي الذي يقع على عاتقي، فهناك تلك العلة التي تلم بي في معدتي بين الفينة والفينة. إنك تعلم بهذه العلة يا مولاي، وتعلم أنني من جرائها لم أتمكن من مقاتلة هؤلاء اللصوص كما كنت أتوق من أعماقي، لقد ظلمت طيلة هذه السنين أتميز غيظاً من عجزني الذي فرضته عليّ السماء ذاتها. لذلك أنسحب الآن مبتهجاً إلى بيتي الريفي العتيق لكي أقوم بواجبي نحو

أبي العجوز، وأعالج أيضًا علتي المتزايدة».

قال هذا، ثم انحنى في صلابة بالغة، فنهض الحاكم وانحنى هو أيضًا، وقال له متممًا:

«ثق أنه ستجزل لك المكافأة على إخلاصك طيلة هذه السنين».

وبينما كان الجنرال الضئيل ينسحب من القاعة، أخذ الحاكم الهرم يتبعه بعينه في حسرة، وندت عنه تنهيدة، وهو يحدث نفسه أنه كان جنرالًا يسهل التعامل معه مهما يكن من أمره، ولئن كان لا يجمع اللصوص، فإنه رغم ذلك لم يكن بالرجل الذي يشق وجوده في البلاط، اللهم إلا عندما تنطلق نوبات غضبه الهزيل حول مشكلة تافهة تتعلق بالطعام والشراب، وكانت هذه المشكلات تسوى بسهولة. ثم اختلس الحاكم الهرم نظرة إلى وانج النمر، فاستبد به القلق، لأنه بدا لعينه شابًا فظًا بالغ الشراسة حاد المزاج. لكنه لم يزد على أن قال له بطريقته المسالمة:

«إنك تملك الآن المكافأة التي ترغب فيها. وحالما يرحل الجنرال العجوز، يمكنك أن تستولي على الأروقة التي كان يشغلها، ويمكنك أن تأخذ الجنود أيضًا. لكن هناك أيضًا شيئًا آخر: ماذا أقول لرؤسائي حين يصبح معروفًا لديهم أنني قد غيرت جنرالي؟ وما القول لو أنه ذهب يشكوني إليهم؟».

لكن وانج النمر كان بارعًا، فأجابه على الفور:

«إن هذا كله سيضفي عليك إكليل المجد. قل لهم إنك قد اكرتت أحد الرجال البواسل، فقمع اللصوص، وإنك احتفظت به بمثابة حارس

خاص لك. ثم عليك أن ترغم الجنرال -وسوف أضع قوتي من ورائك تشد من أزرِك- على أن يكتب طالبًا السماح له باعتزال العمل، وتحتم عليه أن يذكر اسمي خلفًا له في منصبه. هكذا يكون لك المجد لأنك اِكتريتني، فدحرت اللصوص عن طريقي».

فرأى الحاكم الهرم -وإن كان على مضض منه- أن هذه ليست بالخطئة الدنيئة، فبدأ قلبه ينشرح شيئًا ما، سوى أنه ظل خائفًا من وانج النمر؛ يخشى قسوة قلبه لئلا تنقلب عليه في يوم من الأيام. لكن وانج النمر تركه نهبًا للخوف، لأنه يتمشى مع هدفه، وارتسمت على وجهه ابتسامته الباردة.

استقر وانج النمر في هذه الأروقة، فقد حل الشتاء قادمًا من الشمال. وكان راضيًا كل الرضا عن كل ما قام به، ذلك لأن رجاله توافر لهم الغذاء والكساء، وبدأت الإيرادات ترد إليه، فأمكنه أن يبتاع لهم ثياب الشتاء، ونعموا جميعًا بالدفع والطعام.

وذات يوم كان فيه خاملاً، بعد أن نسق لرجاله كل شيء، واقترب منتصف الشتاء، وأخذت الأيام تتوالى في موكب رتيب، تذكر على حين غرة المرأة التي ما زال يحتفظ بها في السجن. وحين جالت بخاطرهِ، ابتسم بينه وبين نفسه في خشونة، وهتف في الحارس الواقف ببابه:

«اذهب وأحضر لي من السجن تلك المرأة التي أرسلتها إلى هناك منذ ستين يومًا تقريبًا! لقد غاب عن بالي أن أحدد العقوبة التي ستوقع بها، لأنها حاولت قتلي». ثم ضحك ضحكة صامته، واستطرد قائلاً: «أغلب الظن أنها قد أصبحت مستأنسة الآن».

ثم راح ينتظرها في شيء من النشوة والاهتمام؛ ليرى إلى أي مدى قد روضت المرأة.

كان يجلس وحيداً في قاعة خاصة به، وبجواره مجمرة فحم ضخمة مصنوعة من الحديد. وفي الخارج كانت ثلوج منتصف الشتاء تهطل مدراراً حتى إنها كست الفناء وتدلّت كثيفة من على الأغصان والأشجار جميعاً، فقد كانت الرياح خامدة في ذاك اليوم، فلم يكن يشيع في الهواء سوى برد قارس للغاية يكتنفه الصمت، بلغ درجة التجمد من أثر الرطوبة المنبعثة من الثلوج الهابطة. على أن وانج النمر راح ينتظر المرأة في خمول واسترخاء، وهو ينعم بالدفء بجوار مجمرة الفحم، وقد تذرّج جيداً في رداء من صوف الغنم، وألقى جلد نمر على ظهر مقعده ليدفع عنه لسعة البرد.

ومضى زهاء الساعة قبل أن يترامى إلى سمعه صوت هرج ومرج ينبعث من الفناء الساكن، فتطلع نحو الباب، فإذا بالحارس قادم مع أسيرته، وكان بصحبته اثنان آخران من الحراس لمساعدته. ورغم ذلك، كانت المرأة تتلوى في هذا الاتجاه وذاك، وتناضل جاهدة للخلاص من الحبال التي تقيدها. على أن الحراس أدخلوها عنوة من الباب، وفي أثناء الصراع بينهم وبينها انجرفت الثلوج إلى الداخل معهم. ولما أحكموا قبضتهم عليها في نهاية الأمر، ووقفوا بها أمام وانج النمر، قال الحارس معتذراً:

«عفوك أيها الجنرال لأن كل هذه الفترة الطويلة قد انقضت قبل أن أتمكن من تنفيذ أمرك. لكننا اضطررنا لأن نلجأ إلى القوة مع هذه الساحرة

الصغيرة في كل خطوة نخطوها. لقد رقدت كما ولدتها أمها على فراشها في السجن، فلم نتمكن من الدخول، بدافع الأدب، لأننا رجال محترمون لنا زوجاتنا. ومن ثم كان لابد أن تقوم النسوة الأخريات في السجن بإلباسها ثيابها قسراً، فعضتهن وخمشتهن وتصارعت معهن، لكنهن استطعن في النهاية إن يلبسها ما يكفي من الثياب، فأمكننا أن ندخل حينذاك، ثم أوثقناها وسحبناها خارجاً. إنها مصابة بلوثة في عقلها، لابد وأنها بلوثة! إننا لم نر قط من قبل امرأة كهذه، بل إن هناك في السجن من يقلن إنها ليست امرأة، إنما هي ثعلب تحول إلى امرأة لتحقيق هدف شرير تريده الشياطين».

بيد أن المرأة الشابة، حين سمعت هذا القول، نفضت شعرها المنساب إلى الخلف، فقد كان شعرها قصيراً في يوم من الأيام، أما الآن، فقد استطال حتى تهدل إلى قرب كتفها. وصرخت قائلة:

«لست مجنونة اللهم إلا بالكراهية نحوه». وأخذت تصب اللعنات على وانج النمر، ثم مدت ذقنها نحوه، وبصقت في اتجاهه، وكان من الممكن أن تستقر عليه البصقة لو أنه لم يتراجع مسرعاً. وإذ تبين الحراس ما تهدف إليه، دفعوها إلى الخلف، فتطاير اللعاب وهو يهس على قطع الفحم المتقدة في المجرمة. ثم جعل الحارس يحملق فيها، وعاد يقول في اقتناع راسخ:

«هأنذا ترى أنها مجنونة يا قائدي».

لكن وانج النمر لم ينس بينت شفة، إنما ثبت ناظره على هذه المخلوقة العجيبة المتوحشة، وهو يصغي إلى كلامها، إذ إن كلامها

-حتى وهي تصب اللعنات- لم يكن كلام امرأة جاهلة أو سوقية. وتطلع إليها عن كذب، فوجد أنها، وإن تكن دقيقة الجسم وهزيلة إلى حد النحافة، إلا أنها ما زالت وسيمة مترفعة في كبرياء، لا تبدو عليها سيماء بنات الريف الغليظات. على أن قدميها كانتا كبيرتين وكأنهما لم تعرفا الفيد يومًا، وهذا ليس بالأمر المألوف في تلك الأنحاء بالنسبة إلى امرأة تنحدر من أسرة طيبة. وأما كل هذه المتناقضات لم يستطع أن يتكهن بشيء من أمرها، فظل يتفرس فيها، ويتأمل حاجبيها السوداوين الدقيقين وهما يتقوسان فوق عينيها الغاضبتين، وشفتيها الممطوطتين الرقيقتين وقد كشفتتا عن أسنانها الناصعة الصقيلة. وبينما هو يتأملها، خطر له أنها أجمل امرأة وقعت عليها عيناه طيلة حياته. أجل، كانت جميلة رغم وجهها الشاحب الغاضب المتقلص. وأخيرًا قال لها في تودة:

«لم تسبق لي معرفة بك على الإطلاق، فلم تضميرين لي البغضاء؟».

فأجابت المرأة بحدة وانفعال، وكانت نبرات صوتها واضحة نفاذة:

«لقد قتلت سيدي، ولن أخلد إلى السكينة حتى أنتقم له. ولئن قتلتنى،

فسأحتفظ بعيني مفتوحتين بعد موتي حتى أنتقم له!».

إذ ذاك أصيب الحارس بالرعب، ورفع سيفه، صائحًا في ثورة عارمة:

«إلى من تتحدثين أيتها الثعلبة؟» وكاد يضربها على فمها بسطح سيفه

لولا أن وانج النمر أشار إليه ألا يلمسها. ثم قال لها بطريقة الهادئة:

«هل كان الفهد سيدك؟».

فصاحت بنفس الصوت المنفعل الحاد: «أجل».

فمال وانج النمر بجسمه إلى الأمام في تراخ، ثم قال لها بهدوء وفي
ازدراء شديد:

«لقد قتلتته. إن لك الآن سيدًا جديدًا، هو أنا».

عندئذ اندفعت المرأة الشابة إلى الأمام وكأنما تريد أن تنقض عليه
وتقتله لو أمكنها ذلك، فأخذ الحارسان يتصارعان معها، بينما كان وانج
النمر يرقبهم. ولما أحكما قبضتيهما عليها مرة أخرى بحيث لم تعد تملك
حراكًا، كان العرق يتصبب على صدغيها، وهي تلتقط أنفاسها لاهثة،
وتكاد تنفجر في البكاء، بيد أنها وقفت تسدد نظراتها الثائرة إلى وجه وانج
النمر. ثم التقت عيناه بعينيها، وراح يحدق فيهما، فبادلته التحديق في تحد،
وكانها لا تخشاه وتأبى أن تحول ناظرها عنه، بل وكأنها قد صممت على
أن تجعله يغض من بصره قبل أن تخفض هي عينيها الجسورتين. على أنه
ظل ينظر إليها شزراً بإصرار لا يقهر، في صبر هادئ عميق، دون أن تلوح
في وجهه بادرة تنم عن الغضب، ذلك أنه -رغم عمق ثورته عادة- كان
قادرًا على أن يتجمل بهذا الصبر العميق إذا لم يساوره الغضب.

أما المرأة، فقد ظلت تحدد في عينيه لفترة طال مداها، لكن جفونها
ارتجفت في النهاية، على حين ظل هو يحدق فيها بنظرة ثابتة لا تريم، ثم
ندت عنها صرخة، واستدارت قائلة للحراس:

«أواه، خذوني من هنا إلى السجن ثانية!» ولم تعد تنظر إليه بعد ذلك.

فقال لها وهو يبتسم بطريقته الخالية من المرح:

«هأنتي تريين. لقد قلت إن لك الآن سيدًا جديدًا».

لكنها أبت أن تجيبه. وعلى حين فجأة وقفت منكسة الرأس، وقد فرجت شفيتها، وراحت تلهث قليلاً، وأخيراً أمر الحراس أن يمشوا بها ثانية، فخرجت هذه المرة من غير مقاومة على الإطلاق، إذ سعدت بالمضي بعيداً عنه.

كان وانج النمر في هذه اللحظة أشد ما يكون فضولاً لمعرفة من تكون هذه المرأة. استبدت به الرغبة في أن يعرف كيف تأتي لها أن توجد في وكر اللصوص، وتعلقت بذهنه فكرة معرفة قصتها. لذلك عندما عاد الحارس أدراجه، وهو يهز رأسه قائلاً:

«لقد كبحت جماح الكثيرات من النسوة المتوحشات في زماني، لكنني لم أر مثل هذه النمرة». قال له:

«أخبر مدير السجن أنني لا بد أن أعرف من تكون، ولماذا كانت في الوكر؟».

فقال الحارس: «إنها لن تجيب عن أي أسئلة. كلا، إنها لن تفوه بشيء. إن التغيير الوحيد الذي طرأ عليها هو أنها كانت تعزف عن الطعام في بادئ الأمر، أما الآن، فهي تأكل كالوحوش الكاسرة، لكن لا يبدو عليها أنها تأكل بدافع الجوع، بل إنها تلتهم الطعام وكأنما تستمد القوة لتحقيق هدف ما. لكنها تأبى أن تكشف لأحد عن شخصيتها. إن النسوة في السجن يعصف بهن الفضول، وقد حاولن سؤالها بكل طريقة ماهرة، لكنها ترفض الإفضاء بشيء. ربما يفلح التعذيب في انتزاع السر منها، ومع ذلك لا يمكنني التكهن بمسلكتها حتى حينذاك، فهي مخلوقة في غاية الشراسة تفيض بالمرارة. هل تأمر بتعذيبها يا قائدي؟».

فراح وانج النمر ينعم الفكر هنيهة، ثم صر على أسنانه، وقال في النهاية:

«إذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى، فليكن عن طريق التعذيب. إنها يجب أن تآتمر بأمرى. على ألا يفضي التعذيب إلى موتها». وبعد برهة استطرد قائلاً: «لا تكسروا شيئاً من عظامها، ولا تشوهوا بشرتها».

وفي نهاية اليوم، عاد إليه الحارس ليدلي بتقريره، فقال في قنوط: «يا قائدي، في عليائك، من المحال أن نحمل هذه المرأة على الإفشاء بشيء ما دام يتحتم علينا أن نعذبها تعذيباً في غاية الرقة بحيث لا نكسر عظامها أو نشوه بشرتها. إنها تهزأ بنا».

فنظر وانج النمر إليه في كدر وكآبة، ثم قال:

«دعوها إذن في الوقت الحالي. أعطوها لحوماً وشيئاً من الخمر لتأكل وتشرب».

وترك الأمر كامناً في زوايا عقله يتسنى له التفكير فيما سيفعله بها.

وبينما هو ينتظر أن تواتيه فكرة ما بشأنها، أرسل تابعه الأمين الأشرم جنوباً إلى مسقط رأسه، أمراً إياه أن يبلغ أخويه بكل ما صادفه من أحداث، وأن يروي لهما كيف أحرز نجاحاً عظيماً بغير أن يفقد سوى بضعة رجال، وكيف حصن نفسه في إقليمه الجديد. على أنه وجه إليه تحذيراً، إذ قال له:

«ليس لك أن تغالي في التباهي بما قمت به، فهذه المنطقة الصغيرة، وهذا المركز الصغير في المقاطعة، إن هما إلا الخطوة الأولى التي أخطوها إلى أعلى في طريقي إلى ذروة جبل المجد السامق الممتد أمامي».

لذا يجب ألا تدع شقيقي يعتقدان أنني قد بلغت العلياء التي أزمع الوصول إليها، وإلا جاءا يتعلقان في أذيالي، متوسلين إليّ أن أحتضن هذا الابن أو ذاك من أبنائهما، لست أرغب في المزيد من هؤلاء الأبناء. كلا، إنني لا أرغب فيهم، رغم أنني لم أنجب ذلك الابن النابع من صليبي الذي أتمنى أن يكون لي. حدثهما إذن عن القدر الضئيل الذي أحرزته من النجاح، وأسرد عليهما القصة بطريقة تحثهما على إعطائي المبالغ التي ما زلت في حاجة إليها، إذ إن لديّ الآن خمسة آلاف من الرجال لا بد لهم من الطعام والكساء، وهم يأكلون كالذئاب. ورغم ذلك، أبلغ أخويّ أنني قد بدأت مغامرتي، وسأمضي على الطريق حتى أفرض سلطاني على هذا الإقليم، ثم أقاليم أخرى من بعده. فطريقي لا حدود له».

فوعده التابع الأمين أن يفعل كل هذا، ثم مضى في طريقه صوب الجنوب، وهو يبدو في رداءه كأحد الحجاج الفقراء الذين يذهبون للتعبّد في بعض المعابد النائية.

أما وانج النمر، فقد اضطلع في تلك الآونة بأن يكفل الاستقرار لرجاله، والواقع أنه كان يحق له أن يفخر بما قام به، فقد أقام دعائم مستقبله بطريقة مشرفة، لا كزعيم عصابة لصوص من السوق، بل إنه وطّد أقدامه في بلاط الحاكم كجزء من الهيئة الحاكمة في ذاك البلد، وطبقت شهرته الآفاق في شتى أنحاء ذلك الإقليم، وأصبح الناس في كل مكان يتحدثون عن النمر. ولما أن فتح قوائم التطوع لكل من يرغب في الالتحاق بخدمته، تقاطر الرجال للانضواء تحت لوائه. لكنه انتقاهم بدقة وعناية، فاستبعد الطاعنين في السن، وغير اللائقين، ومن تبدو عليهم

سيماء الضعف، وضعاف النظر، والمعتوهين، كما استغنى عن الذين لا يتسمون بالقوة أو المقدرة من جنود الدولة، فقد كان الكثير من هؤلاء الجنود يعملون في الجيش لمجرد الحصول على لقمة العيش. وعلى هذا النحو حشد لنفسه جيشًا عاثيًا قوامه ما يقرب من ثمانية آلاف رجل، كلهم شباب أقوياء صالحون للحرب.

كما أخذ المائة الذين كانوا معه منذ البداية، ما عدا القلة التي لقيت مصرعها في المعركة مع اللصوص أو التي احترقت في الوكر، وركب جنود الطليعة هؤلاء إلى مرتبة الضباط والجاوشية للإشراف على الرجال الجدد. على أنه، بعد أن فرغ من كل هذا، لم يركن إلى الراحة والخمول لينعم بالطعام والشراب كما قد يفعل كثير من الرجال لو أنهم كانوا في مكانه. كلا، بل كان يحمل نفسه على النهوض مبكرًا، حتى في فصل الشتاء، كي يلحق رجاله ويدربهم، ويجبرهم على تعلم كل ما يعرفه من فنون الحرب والمعركة، كان يعلمهم كيف يستخدمون الحيلة، ويشنون الهجوم، ويختفون في الكمائن، وكيف يتقهقرون دون أن تلحق بهم خسائر. فقد وطد العزم على أن يلقنهم كل شيء في استطاعته، إذ لم يكن من أهدافه أن يمكث إلى الأبد في هذا البلاط الصغير لأحد حكام الأقاليم.. كلا، بل كانت أحلامه تجيش في أعماقه، فأطلق لها العنان لتتشامخ إلى آفاق العظمة على هواها.

كان شقيقا وانج النمر الكبيران ينتظران على أحر من الجمر سماع ما انتهى إليه شقيقهما في مغامرته، لكن كلاً منهما كان يبدي قلقه بأسلوبه الخاص. فكان وانج الأكبر، منذ شنق ابنه نفسه، يتظاهر بأنه لم يعد يهتم بأمر أخيه، ويندب ابنه كلما جالت ذكراه بخاطره. وكانت زوجته تحذو حذوه، غير أن حزنهما وجد السلوى في الشكوى من زوجها، فدأبت على أن تقول له:

«لقد قلت منذ البداية إنه لا ينبغي أن يذهب. لقد قلت منذ البداية إنه أمر شائن بالنسبة إلى عائلة كعائلتنا أن ترسل مثل هذا الابن الطيب ليكون من عامة الجنود. إنها حياة سوقية وضيعة، وطالما قلت هذا!!».

وفي مبدأ الأمر كان وانج الأكبر من الحماقة بحيث يرد عليها قائلاً:
«لم أكن أدري يا سيدتي أنك غير راضية عن ذلك، فقد لاح لي أن لديك استعدادًا كافيًا لذهابه، زاد منه أن الغلام ما كان سيعمل كجندي عادي من العامة، بل إن أخي كان سيرقى به كلما ارتقى بنفسه عاليًا».
لكن هذه السيدة كانت تصر على قولها، فتصرخ في انفعال عنيف قائلة:

«إنك لا تدري ما أقوله لك، لأن ذهنك منصرف دائماً إلى شيء آخر، امرأة أو أخرى، على ما أظن! طالما قلت مراراً في جلاء ووضوح إنه لا ينبغي أن يذهب، ومن يكون أخوك سوى جندي عادي من العامة؟ لو أنك أصغيت إلى كلامي، لكان ابننا اليوم حياً يرزق. لقد كان خير أبنائنا، خلق ليكون من العلماء. لكن كلامي لا يجد أبداً آذاناً مصغية حتى في بيتي!».

ثم تتنهد وهي تضيف على وجهها طابعاً يبعث على الرثاء، فيحول وانج الأكبر عينيه شرقاً وغرباً، ويستبد به القلق والارتباك لأنه قد جلب على نفسه هذه العاصفة، ولا يرد عليها بكلمة واحدة على أمل أن يعجل هذا الأسلوب بتبديد سورة غضبها. والحق أن هذه السيدة، وقد مات ابنها، دأبت على النواح، وهي تردد دائماً أنه كان خير أبنائها مهما يكن من أمره، رغم أنها كانت إبان حياته تعنفه وتتلمس له الأخطاء، وتعتقد أن ابنها الأكبر يفوق الجميع إلى حد بعيد. أما الآن فلم يعد في الأكبر ما يعجبها، لذا خيل إليها أن الابن الميت كان خيراً منه. وكان هناك أيضاً ذلك الثالث الأحذب، لكنها لم تكن تهتم قط بالسؤال عنه، بعد أن علمت أنه يحب الحياة مع بيرلوسوم التي أصبح يعيش معها الآن طيلة أيامه. وكانت أمه تقول إذا تحدث عنه أحد:

«إنه ضعيف البنية، وهواء الريف ينفعه».

وبين الحين والآخر كانت ترسل هدية صغيرة إلى بيرلوسوم تعبيراً عن امتنانها، ترسل إليها شيئاً أو آخر من الأشياء التافهة عديمة النفع،

كأنية صغيرة من الفخار المزخرف بنقوش الأزهار، أو قطعة من القماش الرخيص ليست من الحرير الخالص، لكنها خلابة اللون والمظهر، من الصنف الذي لم تكن بيربلوسوم ترتديه على الإطلاق. على أن بيربلوسوم كانت تزجي إليها الشكر دائماً في كياسة مهما كان نوع الهدية، وترسل إليها بالتالي بعض البيض الطازج أو شيئاً من نتاج الأرض، فقد كانت تحرص دائماً على أن ترد عليها بهدية ما حتى لا تكون مدينة لها بشيء. ثم تأخذ القماش وتعطيه للبلهاء، أو تصنع منه سترة زاهية اللون أو بعض الأحذية تبعث بها السرور في قلب المخلوقة التعسة. أما الأنية الفخارية، فتعطيها للأحذب إذا راقى في عينيه، أو لزوجته الفلاح التي كانت تعيش معها هناك في البيت المشيد من الطين، إذا استهوتها سلعة المدينة المزخرفة بالأزهار أكثر من آنياتها الفخارية ذات اللونين الأبيض والأزرق.

أما وانج الثاني، فقد راح بأسلوبه الخاص يترقب سماع الأنباء عما قام به أخوه الأصغر، وهو يسترق السمع إلى حديث الناس هنا وهناك، فترامت إلى سمعه شائعات مؤداها أن زعيم عصابة اللصوص في المنطقة شمالي إقليمهم قد لقي مصرعه على يد أحد البواسل من الشباب الجدد، لكنه لم يعرف نصيب هذه الشائعات من الصحة، وما إذا كان هذا الرجل الباسل هو أخوه أم لا؟ ومن ثم راح ينتظر، وهو يدخر ماله حتى يأتي التابع الأمين في طلبه، كما كان يبيع أيضاً أراضي وانج النمر كلما وجد سبيلاً إلى بيعها في حدود الحكمة والتعقل، ثم يستثمر ثمن الأرض بالربا الفاحش. ولئن استثمر مال أخيه مرة أو مرتين دون أن ينبئ أحداً بذلك، فقد اعتبر أن هذا هو أجره العادل الذي يستحقه في مقابل كل المتاعب

التي يتجشمها في سبيله، وأنه لا يفتئت على أخيه بهذا المسلك، فما من إنسان آخر كان من الممكن أن يسدي إلى وانج النمر ما أسداه هو إليه من خدمات طيبة.

على أن وانج الثاني، يوم وقف التابع الأمين الأشرم على عتبة باب بيته، لم يكد يستطيع انتظار سماع قصته، فارتسمت على وجهه اللفتة على غير مألوف عادته، وهو يسحبه إلى حجرته الخاصة، حيث صب له الشاي، ثم أدلى التابع الأمين برسالته، فاستمع وانج الثاني إلى القصة حتى نهايتها دون أن ينبس بكلمة.

ولما أن فرغ التابع الأمين من سردها -وقد أحسن روايتها متوخياً الدقة- ختم حديثه كما أمره وانج النمر أن يختمه، قائلاً:

«إن شقيقك، قائدي، يقول إنه لا ينبغي أن نتعجل بالقول إنه قد تسنم ذروة الجبل، فهذه لا تعدو كونها الخطوة الأولى، إذ إنه لا يسيطر إلا على مركز إقليم صغير، في حين أنه يحلم بإخضاع أقاليم عديدة».

إذ ذاك التقط وانج الثاني أنفاسه قليلاً، ثم سأل:

«لكن هل تظن أنه واثق من نفسه إلى الحد الذي يجعلني أقدم مطمئناً على المخاطرة بفضتي في سبيله؟».

فأجابه التابع الأمين:

«إن أخاك رجل في غاية الحذق والبراعة، فكم من رجل كان من الممكن أن يقنع بالاستقرار في وكر اللصوص، ثم يعمل السلب والنهب في الإقليم، فيرتفع بنفسه بعض الشيء، لكن أخاك من الحكمة بحيث

لا يسلك هذا المسلك، فهو يدرك أن اللص يجب أن يتحول إلى رجل له احترامه قبل أن يتمكن من الوصول إلى عرش الملك. لذلك، فإن أخاك تسانده سلطة الدولة. أجل، فرغم أنه لم يسيطر إلا على مقعد يشغله أحد صغار الحكام، فإنه يمثل الدولة، ومن ثم، فهو جنرال تابع للدولة. وحينما ينطلق للقتال مع غيره من ملوك الحرب، أو يجد باعثاً للعراك مع أحد، كما سيفعل عندما يقبل الربيع، حينئذ يمكنه الانطلاق كأحد أرباب السلطة والنفوذ، لا كأحد المتمردين».

فأحس وانج الثاني بغبطة غامرة لمثل هذه الحيلة والتبصر. ولما كانت الساعة تقترب من الظهر، فقد قال للرجل في حرارة تفوق المعتاد: «تعال لتأكل وتشرب معنا، إذا أمكنك أن تحتمل وجبتنا العادية البسيطة». ثم اصطحبه معه، وأجلسه إلى مائدتهم العائلية.

ولما وقع بصر زوجة وانج الثاني على التابع الأمين، صاحت تحييه بطريقتها الحارة، وقالت:

«ما أخبار ابني الصغير المجذور؟».

فنهض التابع الأمين واقفاً، وأجابها بأن ابنها على خير حال، وأنه يحسن عمله، وأن في نية الجنرال أن يرفع من شأنه بلا ريب، فهو يحتفظ به دائماً بمقربة من شخصه. لكنه قبل أن يفوه بكلمة واحدة، كانت المرأة قد هتفت به أن يجلس ولا يقف تأدباً. وبعد أن جلس على مقعده ثانية، جال بخاطره أن يروي لهم كيف مضى الصبي إلى وكر اللصوص، وكيف لجأ إلى المكر والحيلة، وكيف أدى واجبه بإتقان. لكنه أحجم عن الكلام،

مدرِّكاً أن النساء غريبات الأطوار، وأن مزاجهن لا يثبت على حال، وأن الأمهات أغربهم جميعاً، إذ تتباهن المخاوف ويتوجسن شروراً تحديقاً بأبنائهن ليس لها وجود في الواقع. لذلك قنع الرجل بالصمت، بعد أن قال ما فيه الكفاية لأن يبعث السرور في قلبها.

وفي خلال دقائق معدودات، كانت قد نسيت تماماً كل ما سألتته عنه، فقد شغلت في أمور شتى، وأخذت تهرع في صخب هنا وهناك، تحضر الآنية، وتصفها على المائدة، وهي تضم أحد أطفالها إلى ثديها في أثناء قيامها بالعمل. ظل الطفل يرضع في هدوء واطمئنان، في حين راحت هي بيدها الطليقة تغرف الطعام بهمة وحماسة للضيف ولزوجها، وللأطفال الصارخين الجياع الذين لا يتناولون طعامهم على المائدة، بل يقفون عند الباب أو في الشارع حاملين أوعيتهم وأعوادهم الخشبية، وحينما تفرغ أوعيتهم يهرعون إلى الداخل في طلب المزيد من الأرز والخضراوات واللحوم.

وما إن فرغوا من تناول الطعام واحتساء الشاي بعد الأكل، اصطحب وانج الثاني التابع الأمين إلى بوابة أخيه الأكبر، حيث طلب إلى الرجل أن ينتظر ريثما يتمكن من دعوة أخيه خارجاً، ثم يمضون إلى أحد مشارب الشاي للحديث. على أنه طلب إليه أيضاً ألا يظهر نفسه، خشية أن تراه السيدة زوجة وانج الأكبر، فيضطروا إلى الدخول والاستماع إلى حديثها حيناً من الوقت. وإذا قال هذا، مضى إلى الداخل، واخترق رواقاً أو رواقين، في طريقه إلى الحجرات الخاصة بأخيه الأكبر، حيث وجده مستغرقاً في نوم عميق على أريكة بجوار مجمرة من الفحم المتوهج، وهو يغط غطيّاً

عاليًا، بعد أن تناول وجبة الظهيرة.

بيد أن وانج الأكبر، حين أحس بلمسة أخيه الخفيفة على ذراعه، لم يلبث أن انتفض من نومه وهو يزنخر، وبعد أن ظل برهة في ذهول بين اليقظة والنوم، أدرك أن أخاه قد جاء في طلبه، فجاهد للنهوض، وسحب عليه أرديته المصنوعة من الفراء التي كان قد نحاها جانبًا، ثم مضى في أعقاب أخيه بخفة كيلا يسمع له صوت. لم يرهما أحد وهما خارجان، اللهم إلا محظيته المليحة التي أطلت برأسها من أحد الأبواب لتبين من الذي يمر، فرفع وانج الأكبر يده مشيرًا إليها بالصمت، فتركته يمضي في طريقه، إذ كانت مخلوقة طيبة رقيقة، وإن كانت تهاب زوجته وتخشاها، فلو أنها سألتها عنه، يمكنها أن تكذب عليها بأسلوب لبق مدعية أنها لم تره.

ذهب الرجال معًا إلى مشرب الشاي، حيث أعاد التابع الأمين سرد قصته، وكان وانج الأكبر يتأوه في أعماق قلبه، لأنه ليس له ابن يمكنه أن يقدمه إلى أخيه الأصغر، وتملكته الغيرة لأن شقيقه الثاني قد أصاب كل هذا التوفيق في عمله. لكنه أخفى مشاعره هذه المرة، ولم يتحدث إلا حديثًا طيبًا إلى الرجل، مبدئيًا موافقته على كل ما ذكره أخوه بشأن الأموال التي ينبغي إرسالها إلى وانج النمر، وظل ينتظر حتى آب إلى بيته.

ثم أحس فجأة وكأن مشاعر الغيرة قد فاضت بقلبه، فمضى ينشد ابنه الأكبر. كان الشاب مضطجعًا في فراشه المحاط بالستر في حجرته الخاصة، خاملاً متورد الوجه، وهو يقرأ قصة خليعة داعرة تسمى «النساء الشقراوات الثلاث»، فهب مذعورًا حين رأى أباه يدخل الحجرة، وأخفى

الكتاب بين ثنايا ردائه. لكن أباه لم يلمح الكتاب، لأن ذهنه كان مشغولاً بالحديث الذي جاء لقوله، فشرع في الكلام على عجل:

«أما زلت يا بني راغباً في الذهاب لتكون برفقة عمك، وترقى معه إلى مكانة رفيعة الشأن؟».

على أن الشاب كان قد شبَّ عن تلك اللحظة التي مرت به في حياته، فتثائب في رقة ونعومة، وحينما انفرجت شفتاه بدا ثغره جميلاً وردياً كثغر الفتاة، ثم تطلع إلى أبيه، وابتسم في تراخ قائلاً:

«هل كنت يوماً من الحماقة بحيث رغبت في الذهاب لأكون جندياً؟»
فأخذ أبوه يحثه قائلاً في قلق ولهفة:

«لكنك لن تكون جندياً. بل إنك منذ البداية ستشغل منصباً يفوق كثيراً مرتبة الجندي. ستلي عمك في المرتبة». ثم خفض من صوته في نغمة إغراء لابنه: «إن عمك قد أصبح جنراً، بعد أن وطد دعائم مستقبله عن طريق خدعة لم أسمع بأحكم منها طيلة حياتي، وقد انقضى بذلك أسوأ ما في الأمر».

على أن الشاب هز رأسه في عناد. حينئذ نظر وانج الأكبر -وهو يتأرجح بين الثورة والعجز- إلى ابنه المضطجع هناك على فراشه. وفي هذه اللحظة بزغت في ذهن هذا الرجل صورة من الحقيقة، رأى ابنه على حقيقته، شاباً ناعماً متأنقاً خاملاً، لا يعرف إلا المتعة هدفاً يتطلع إليه، ولا يخشى شيئاً سوى ألا يستزيد من الثياب الفاخرة، فيصبح أقل أناقة من غيره من الشباب الذين تربطهم به أواصر المعرفة. أجل، لقد رأى وانج

الأكبر ابنه وهو مستلق على أغطية فراشه الحريية، يرفل في الحرير من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، يضع خفين من الأطلس في قدميه، تبدو بشرته مدهونة معطرة كبشرة إحدى الحسنات، ويبدو شعره مضمخًا بالعطرمصقولًا بزيت مستورد من الخارج. ذلك أن الشاب كان يدرس خير السبل التي تضيف على جسده طابع الجمال من شتى نواحيه، فهو يكاد يتعبد في محرابه لنعومته وجماله، ويجزيه عن الجهد الذي يبذله في تجميله أن الكثيرين ممن يعبت معهم بالليل في دور المسرح وأندية الميسر كانوا يطرون جماله. أجل، كان هذا الشاب -في نظر الجميع- هو السيد الصغير في بيت ثري، فما كان ليخطر بذهن أحد أن جده كان رجلًا يدعى وانج لانج، فلاح نابع من الأرض. وبالرغم من أن وانج الأكبر كان مرتبكا مشت الفكر بما يشغل باله من شتى الأمور التافهة، فقد لمس في هذه اللمحة الوحيدة الخاطفة جوهر أكبر أبنائه، فانتابه الخوف عليه، وصاح في صوت عال يختلف تمامًا عن نبراته المتهدجة المألوفة:

«إنني أخشى عليك يا بني، إنني خائف أن تصل إلى نهاية سيئة!» ثم صاح في لهجة أشد حدة من أي لهجة تحدث بها إلى ابنه هذا من قبل: «إنني أقول إنك يجب أن تذهب وتشق لنفسك طريقًا في الحياة، بدلًا من أن تركز هنا إلى ملذاتك في كسل وخمول حتى يتقدم بك العمر!» وتمنى -في شيء من الرعب لم يدرك كنهه في أعماقه- لو أنهم كانوا قد اغتنموا فرصة اللحظة التي راود الفتى فيها الطموح. لكن، أوان الطموح قد فات وولت اللحظة.

وحين سمع الفتى هذه اللهجة غير المألوفة التي بدت في صوت أبيه،

جلس في فراشه على حين غرة، ثم صاح ومشاعر الغيظ والخوف تتنازعه:
«أين أمي؟ سوف أمضي لأسأل أمي هل توافق على ذهابي أم لا،
وأرى هل هي أيضًا متلهفة للخلاص مني إلى هذا الحد!».

على أن وانج الأكبر، إذ سمع منه هذا، تقهقر عائداً إلى طبيعته مرة
أخرى وسارع بالقول في لهجة مسالمة:

«حسنًا - فليكن - لك أن تفعل ما يعجبك، ما دمت ابني الأكبر!».

وأطبقت عليه الغمامة تلفه من جديد، بعد أو لت لحظة الشفافية.
فندت عنه تنهيدة، وراح يفكر في نفسه أنه من المحال في الواقع أن يساوى
صغار السادة بالآخرين من شباب الدهماء، قائلاً لنفسه إن زوجة أخيه
هي في الحقيقة امرأة من حثالة الدهماء، وما من شك أن ابنها المجدور
لا يزيد كثيراً عن أنه مجرد خادم لعمه. هكذا واسى نفسه بطريقة مبهمة،
وخرج يجر قدميه من حجرة ابنه. أما الفتى، فقد عاد يستلقي ثانية على
وسادته المكسوة بالحرير، وقد شبك يديه تحت رأسه، وارتسمت على
وجهه ابتسامته الرخوة الكسول. وبعد هنيهة، أخذ يتحسس رداءه بحثاً
عن الكتاب الذي كان قد أخفاه عن أبيه، وأخرجه من مكمته، ثم انهمك
في القراءة مرة أخرى، فقد كان كتاباً لذيذاً مثيراً امتدحه له أحد أصدقائه.

بيد أن وانج الأكبر لم يستطع نسيان ذلك الشعور المبهم بالكآبة الذي
ظل جاثماً على قلبه، حتى لقد لاح له للمرة الأولى أن حياته ليست جميلة
طيبة كما كان يتوهمها. ولما أن رأى التابع الأمين ير حل ثانية - وقد اكتظت
بالفضة مزودة رداء الحجاج الذي يرتديه، وأصبحت منطقته جامدة حول

وسطه بما فيها من فضة، كما امتلأت بها أيضًا الصرة التي يحملها حتى لقد استطاع بشق النفس أن يرفعها إلى كاهله - أحس بالمرارة الشديدة لأنه عاجز عن التفكير في شيء يستطيع وانج النمر أن يؤديه في سبيله. بدا له أن الأمر يبعث على المرارة، وأن حياته تبعث على السأم الشديد، إذ ليس له من ولد يمكنه أن يتطلع به إلى المجد، ليس لديه سوى هذه الأرض التي يملكها، ومع ذلك لا يجرؤ على التخلي عنها كلية. وبلغ به الأمر أن زوجته لمحت عليه أمارات الكآبة، وفي شدة محنته أفضى إليها بشيء من الهم الذي يلم به، فقد اعتادت أن تجلو له الأمور بطريقة سليمة، حتى إنه آمن في قرارة نفسه أنها تفوقه في حكمته، وإن كان ينفي هذا الشعور نفيًا قاطعًا لو أن أحدًا سأل عنه. على أن زوجته لم تساعد على الإطلاق هذه المرة، فحينما حاول أن يروي لها كيف أضحى أخوه الأصغر من العظماء، أطلقت ضحكة حادة النبرات تنم عن الازدراء، ثم قالت:

«إن جنرالًا في مركز إقليم صغير لا يعد من ملوك الحرب العظام، يا رجلي العجوز المسكين! إن من البلاء أن تغبطه إلى هذا الحد! عندما يصبح ملك الحرب في الإقليم بأسره، حينئذ يكون قد حان الوقت للملائم لأن تكلف ابنتنا الأصغر بالذهاب إليه. وأغلب الظن أنه سيكون أصغر أبنائك الذي هو الآن مجرد طفل رضيع على ثديي الأخرى!».

ومن ثم لاذ وانج الأكبر بالصمت، وظل فترة من الزمن لا يغشى أماكن متعته في لذة وحماسة كسابق عهده، ولم يعد للمنادمة مع أصدقائه العديدين ما كان لها من قيمة بالنسبة إليه في الماضي. كلا، بل راح يجلس وحيدًا، في حين أنه لم يكن بالرجل الذي يحب الوحدة، فقد كان يميل

إلى الجلوس في الأماكن التي يوجد فيها أناس يهرعون هنا وهناك، محدثين ضجة من نوع أو آخر، حتى وإن كانت تلك الضجة في نطاق البيت، حيث يتشاجر الخدم مع الباعة، ويصيح الأطفال ويتعاركون، ويدوي الهدير المألوف للحياة اليومية. حتى هذه الضجة كان يؤثرها على الجلوس وحيدًا.

أما الآن، فهو يجلس وحيدًا تحت وطأة شعوره بالتعاسة الذي لا يعرف له سببًا، سوى أنه جال بخاطره للمرة الأولى في حياته أنه لم يعد في ريعان الشباب كما كان يومًا، وأن الشيخوخة ترحف نحوه على غفلة منه، ولاح له أنه لم يجد في حياته من النعم ما كان يحتمل أن يجده، وأنه لم يحقق من العظمة ما كان ينبغي له أن يحققه. وكان أهم أسباب تعاسته الغامضة شيء واحد لا يكتنفه الغموض، ألا وهو الأرض التي آلت إليه من أبيه. فقد كانت هذه الأرض لعنة في نظره، لأنها مصدر رزقه الوحيد، ولا بد أن يعطيها شيئًا من الإشراف والرعاية، وإلا، فلن يجد ما يقيم به أوده هو وأطفاله وزوجاته وخدمه. وخيل إليه كأنما سحر خبيث يكمن في هذه الأرض، فهو دائمًا إما في موسم بذرها، ولزامًا عليه أن ينطلق إليها، وإما في موسم تسميدها ولا بد أن يشرف عليها، وإما في موسم حصادها، ويجب أن يقف تحت أشعة الشمس القائظة لكي يكيل الغلال، وإما في موسم جمع الإيجارات من المستأجرين. كما كانت هناك أيضًا تلك الجولة المقيمة التي يقوم بها في أنحاء الأرض، والتي ترغمه على أن يشقى ويكدح، في حين أنه كان بطبيعته رجلًا مترفًا من طبقة السادة. أجل، فبالرغم من أن لديه وكيلا لأعماله، فقد كان في طبيعته شيء من الدهماء

-وإن لم يكن نابغاً من إرادته- يجعله يصاب بالغثيان لمجرد التفكير في أن وكيله قد أصاب ثراء على حسابه. لذلك فإنه رغم بغضه لهذه المهمة، كان يجر قدميه في كل موسم متجهاً إلى الأرض، حيث يمكنه الإشراف بنفسه على ما يقوم به الفلاحون هناك.

في هذه الآونة، اعتاد أن يعتكف أحياناً في حجرته الخاصة، وأحياناً أخرى يجلس في ظل إحدى الأشجار في الفناء خارجها إذا كانت شمس الشتاء دافئة بما فيه الكفاية، ويأخذ في الأنين حين يطوف بخاطره كيف يتحتم عليه أن ينطلق إلى الأرض عامّاً بعد عام، وإلا، فإنه لن يحصل على شيء من أولئك اللصوص الذين يستأجرونها منه. أجل، فقد كانوا يصيحون دائماً كالكلاب النابحة: «آه، لقد ابتلينا بالفيضانات هذا العام». «آه، لقد حل بنا قحط لم يسبق له مثيل». أو ينبحون قائلين: «هذا هو عام الجراد». وكان في جعبتهم، هم ووكيل أعماله، مئات الألاعيب للتحايل عليه كمالك أرضهم، حتى إنه سئم هذا الصراع الدائب بينه وبينهم، فراح ينحي باللائمة على الأرض وعافتها نفسه. لذلك كان يتطلع متلهفاً إلى اليوم الذي يصبح فيه أخوه وانج النمر من العظمة ورفعته الشأن بحيث لا يعود هو بحاجة لأن ينطلق خارجاً في القيط والبرد، وكان يتشوق إلى اليوم الذي يستطيع أن يقول فيه «أنا شقيق وانج النمر»، فتغني عن كل قول. لقد خيل إليه في الماضي أنه شيء عظيم أن يطلق عليه الناس اسم «وانج مالك الأرض» -إذ كان هذا هو اسمه الآن- وظل يعتبره اسماً كريماً مشرفاً حتى أقبلت عليه هذه اللحظة.

والحق أن وانج مالك الأرض وجد أن هذا العمل يحشمه عناء

شديدًا، لأنه قد اعتاد طيلة حياته قبل موت أبيه وانج لانج أن يحصل منه في سخاء على كفايته من المال لدفع ثمن كل ما يحتاج إليه، دون أن يكدر في الحصول عليه. على أنه بعد تقسيم الإرث، أخذ يتكبد العناء بصورة لم يعتدها من قبل، ورغم كل هذا الكدر الذي لم يألفه، لم يكن يحصل على كل حاجته من الفضة، بل ولم يكن يبدو على أبنائه وزوجتيه أنهم يأبهون قط بكدره وشقائه في الأرض.

كلا، فأبناؤه يرغبون فقط في ارتداء أفخر الثياب، فلا بد لهم من شراء هذا الفراء في الشتاء، وذلك الفراء الهفهاف الأنيق ليبطنوا به أرديتهم في الربيع والخريف، فضلًا عن شتى صنوف الحرير كل في موسمه، وإنها لمحنة خليقة بأن تحطم قلوبهم لو أنهم اضطروا إلى ارتداء سترة أطول قليلًا مما ينبغي، أو متسعة بعض الشيء عن أحدث طراز هذا العام، فهم لا يخشون شيئًا خشيتهم من أن يكونوا مثارًا لضحك رفاقهم من شباب المدينة المتأنق المعطر. كان هذا هو حال الابن الأكبر، وها هو ذا الابن الرابع يتلقن الآن هذا الأسلوب أيضًا. فرغم أنه لا يعدو الثالثة عشرة من عمره، فهو يصر على أن تنسق له أرديته الصغيرة على هذا الطراز أو ذاك، ولا بد له من خاتم يزين إصبعه، ولا بد أن يضمخ شعره ويدهنه أيضًا، ولا بد له من وصيفة خاصة تقوم على خدمته ورجل من الخدم يصحبه إلى الخارج. ولأنه كان حبيب أمه المدلل وتخشى أن يلحق به الأذى على أيدي الأرواح الشريرة، فقد كان يضع حلقًا من الذهب في إحدى أذنيه ليخضع به الآلهة ويحملها على الاعتقاد بأنه فتاة عديمة القيمة.

أما عن زوجته، فقد فشل تمامًا في إقناعها بأنه لم يعد في البيت من

الفضة ما كان فيه يومًا من قبل. ولئن قال لها حين تطلب منه قدرًا من المال:

«لكني لا أملك كل هذا المبلغ لإعطائه لك. لا يمكنني أن أعطيك الآن سوى خمسين قطعة من الفضة». حينئذ تصيح في وجهه:

«لقد نذرت هذا المبلغ للمعبد لبناء سقف جديد يظل رأس أحد الآلهة، ولو أنني لم أقدمه لضاعت كرامتي. إن لديك هذا المبلغ بلا ريب، لأنني أعلم أنك تنفق المال كالماء على شرب الخمر ولعب الميسر، وعلى كل أولئك النسوة الوضيعات اللاتي أعرف أنهن في حوزتك. إني الوحيدة في هذا البيت بأسره التي تتطلع إلى القيم الروحية وإلى الآلهة. وربما اضطرت يومًا للصلاة من أجل خلاص روحك من الجحيم، وحينئذ سيساورك الندم لأنك لم تعطني الفضة».

ومن ثم يتحتم على وانج المالك أن يجد لها الفضة بصورة أو بأخرى، وإن كان يمقت غاية المقت أن يرى ماله الغالي يتسرب إلى أيدي أولئك الكهنة المداهنين العاملين في الخفاء، الذين يكن لهم الكراهية ولا يثق فيهم، فقد سمع عنهم أمورًا معينة تفيض بالشر والإثم، ومع ذلك لم يتسن له أن يعرف عن يقين ما إذا كانت لهم بعض الدراية بفنون السحر. وبالرغم من تظاهره بأنه لا يؤمن بالآلهة على اعتبارها أشياء لا تليق إلا بالنساء، فإنه لم يستطع أن يقطع مطلقًا ما إذا كانت قوة ما تكمن فيها أيضًا، فكان هذا عاملاً آخر من عوامل الحيرة والاضطراب في نفسه.

والحق أن زوجته هذه قد تعمقت في علاقتها الوطيدة بالآلهة والمعابد وما شابه ذلك، بحيث أصبحت غاية في القداسة، فراحت تمضي

الساعات الطوال في زيارة هذا الإله وذاك. وكانت تبلغ قمة المتعة حين تخترق بوابة أحد المعابد متكئة على وصيفاتها شأن السيدات العظيمات، وحين تمضي إلى الداخل لمقابلة كهنة المعبد، فيأتي إليها رئيس المعبد نفسه منحنيًا في ذلة وخضوع، مليئًا بالملق وهو يتدفق بالحديث عن أنها محبوبة الآلهة، وأنها راهبة من أهل الدنيا قريبة جدًا من «طريق السماء».

وعندما يتحدث إليها الكهنة بهذا الأسلوب، كانت تتكلف الابتسام وتغض من بصرها وهي تستغفر الآلهة. على أنها في غالبية الأحيان وقبل أن تعي جيدًا ما تفعله، تكون قد نذرت لهم هذا وذاك ووعدتهم بمبلغ من المال يربو على ما كانت ترغب حقيقة في إعطائه لهم. لذلك كان الكهنة يحرصون أشد الحرص على أن يمنحوها حقها الوافر في الثناء، ويرفعوا اسمها عاليًا في عدة أماكن من المعبد، كمثال يقتدي به الأتقياء الورعون. بل إن أحد المعابد قدم إليها رمزًا من الخشب مطليًا باللون الأحمر القرمزي، حفرت عليه حروف مذهبة تبين أن هذه السيدة من مريدات الآلهة تتمتع بهذا القدر من الصلاح والتقوى، وعلق الكهنة هذا الرمز في أحد الأبهاء الثانوية بالمعبد، ولكنه وضع حيث يمكن أن تقع عليه أنظار الكثيرين من الزوار. بعد هذا الحدث ازدادت هيئتها كبرياء وتقوى وقداسة، وحرصت على أن تجلس دائمًا ساكنة رصينة، وعلى أن تشبك يديها معًا، ودأبت على أن تمسك بمسبحتها وتتمتع بمقاطع من صلواتها، بينما الآخرون يثرثرون أو يتحدثون التافه من الحديث. ومن جراء كل هذه القداسة، كانت السيدة تشدد الوطأة على زوجها، وتصر على أن تنال ما تحتاج إليه من الفضة للمحافظة على السمعة التي تحيط بها.

ولما رأت زوجة وانج المالك الصغرى ما تحصل عليه السيدة، أرادت هي الأخرى أن تنال نصيبها الصغير من الفضة، ولم يكن ذلك من أجل الآلهة، رغم أن الفتاة قد تعلمت كيف تثرثر عنهم إرضاء للسيدة. لكنها على أي حال كانت تطالب بنصيبها من الفضة، ولم يستطع وانج المالك أن يدرك ماذا هي فاعلة بها، لأنها لم تكن ترتدي ثيابًا من الحرير الفاخر الموشى بالزهور أو تبتاع الجواهر والحلي الذهبية لتزين لباسها وشعرها. ومع ذلك كانت النقود تغيض من يدها في سرعة خاطفة هي أيضًا، لكنه لم يتذمر خشية أن تمضي الفتاة إلى السيدة وتذرف الدموع أمامها، فتعنفه السيدة على زعم أنه ما دام قد اتخذ لنفسه مثل هذه المرأة، فجدير به أن يدفع لها شيئًا من الفضة. ذلك أن هاتين المرأتين كانتا تميلان إحداهما إلى الأخرى بطريقة عجيبة تتسم بالفطور، وتحدان معًا في وجه زوجهما إذا ما رغبتا في الحصول على شيء منه.

ومهما يكن من أمر، فقد اكتشف وانج المالك الحقيقة ذات يوم، إذ رأى زوجته الصغرى تتسلل خارجة إلى بوابة جانبية، ثم تخرج شيئًا من ثيابا صدر رداؤها، وتعطيه لرجل واقف هناك، فاسترق وانج المالك النظر إليه، فإذا به يتبين أن الرجل إنما هو أبوها الهرم. فأحس بمرارة شديدة، وتحدث إلى نفسه قائلاً:

«هكذا أنا أطعم أيضًا ذلك الوغد العجوز وعائلته!».

ثم مضى إلى غرفته الخاصة حيث جلس يتنهد، وانتابته مرارة بالغة لفترة من الزمن، فراح يتأوه بينه وبين نفسه. على أن هذا لم يجده نفعًا، إذ لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا، لأنها إذا آثرت أن تعطي ما تحصل عليه

من زوجها لأبيها، دون أن تنفقه في شراء الحلوى والثياب وما شابه ذلك من الأشياء التي تكلف بها معظم النساء، فهذا من حقها، سوى أنه يجمل بالمرأة أن تلتصق ببيت زوجها أولاً وقبل كل شيء. لكن وانج الأكبر لم تواته القدرة على الدخول في معركة معها، فترك الأمر يمر عابراً.

وزاد من حدة الصراع الذي يمزق منه الأعماق أنه لم يستطع كبج جماح شهواته الخاصة، رغم أنه كان يحاول الآن مخلصاً للمرة الأولى في حياته، وقد ناهز الخمسين، أن يقلل ما ينفقه من مال على شهوته للنساء. بيد أن هذا الضعف حيال النساء ما زال يعتمل في نفسه، فهو لا يطيق أن يتوسمن فيه الشح والتقتير، إذا جلس معهن حين يلح عليه الهوى. وفضلاً عن هاتين المرأتين القابعتين في بيته، كانت في حوزته تلك الفتاة المغنية التي أسكنها كمحظية مؤقتة في جانب آخر من المدينة، بالاتفاق المتبادل بينهما، على أنها كانت فتاة مليحة تتعلق به كالعلق، فمع أنه قد فرغ من هواها سريعاً، إلا أنها ظلت تحتفظ به عن طريق التهديد بالقضاء على حياتها، لأنها تحبه حباً يفوق الدنيا بأسرها. وكانت تبكي على صدره، وتدفع أصابعها الدقيقة المدببة في لحمه المتهدل على عنقه، وتتعلق به في وله، بحيث لم يكن يدري ماذا هو فاعل بها.

وكانت معها أيضاً أمها العجوز، وهي شمطاء دنيئة، تنعق بدورها قائلة:

«كيف تتخلى عن ابنتي التي منحتك كل شيء؟ من أين تعيش الآن، وهي لم تعمل في دور المسرح طيلة هذه السنين التي استحوذت عليها فيها حتى ضاع صوتها وشغلت الأخريات مكانها؟ كلا، سوف أدافع عنها

وأعرض قضيتها على الحاكم إذا ما تخلت عنها!».

فكان هذا الكلام يبعث الرعب في قلب وانج المالك؛ لأنه يخشى أن يصبح أضحوكة أهل المدينة، إذا سمعوا البذاءات التي ستطلقها عليه هذه الشمطاء في بلاط الحاكم، إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. ومن ثم كان يتحسس بيده متعجلاً في جيب منطقتة، ويخرج لهما ما يحمله من فضة. وإذا لحظت المرأتان ما يعتريه من رعب. دأبتا على تدبير المكائد له، واغتنام كل فرصة ممكنة لإثارة العاصفة وذرف الدموع، مدركتين أنهما حين يسلكان هذا المسلك، يسارع هو بدفع الفضة إليهما. وأغرب الغرائب جميعاً أن هذا الرجل الضخم المترهل الضعيف ظل عاجزاً عن تحرير نفسه، رغم كل المتاعب العديدة التي تأخذ بخناقته. بل إن شهواته لا بد وأن تغلبه على أمره إذا حضر مأدبة في مكان ما، ولا بد أن يدفع شيئاً من الفضة لأي مغنية جديدة صغيرة يراها هناك، رغم أنه حين يرتد إلى بيته ويثوب إلى رشده في اليوم التالي، يأخذ في الأنين من حماقته، ويلعن قلبه الذليل.

لكنه الآن، وهو يجيل خاطره في كل هذا، في أثناء تلك الأسابيع التي خيم عليه فيها القنوط والكآبة، انتابه الذعر لما أحس به من خمود وهمود، حتى إنه لم يعد يهتم بأن يتناول القدر الذي اعتاد أن يلتهمه من الطعام، ولما وجد أن شهيته للطعام تتضاءل، اعتراه الرعب خشية أن يفارق الحياة سريعاً قبل الأوان، فقال بينه وبين نفسه إنه يجب أن يتخفف من بعض متاعبه. لذا عقد العزم على أن يبيع مساحة كبيرة من أرضه، ويعيش على ثمنها من الفضة، مفكراً في قرارة نفسه أنه يجب أن ينفق ماله، وأن على

أبنائه أن يعنوا بأمر أنفسهم إذا لم يتبق لهم ما يكفيهم طوال حياتهم. فقد بدا له فجأة أن من العبث أن يضيق المرء على نفسه من أجل أولئك الذين يعيشون من بعده. فنهض وقد ركبه العناد، ومضى إلى أخيه الثاني، ثم قال له:

«إن تكويني لا يتلاءم مع المتاعب والأعباء التي تحيط بحياة مالك الأرض، فأنا رجل من أهل المدينة أحب الراحة والترف. كلا، لا يمكنني وأنا أزداد بدانة وأتقدم في العمر أن أنطلق خارجًا إلى الأرض في موسم بذر البذور وجمع الحصاد. ولو أنني فعلت هذا دائمًا، فإنني سأسقط يومًا جثة هامدة تحت وطأة القipzig أو البرد. كما أنني لم أعش من قبل مع طبقة العامة، لذا، فهم يخدعونني دون أن أعي، ويسلبونني كل ثمار أرضي وكدي. إنني أطلب منك الآن أن تفعل هذا: تصرف كما لو كنت وكيل أعمال، وبعبارة أخرى ما لا يقل عن نصف مساحة أرضي، ودعني أحصل على النقود التي أحتاج إليها، وما لا أحتاج إليه عليك أن تستثمره، فسوف أحتفظ به كي أتركه لأبنائي من بعدي، مع أنه ليس ثمة واحد منهم على استعداد لمساعدتي في الإشراف عليها الآن. فما من مرة أطلب فيها من ابني الأكبر أن يمضي إلى الأرض نيابة عني في بعض الأحيان، إلا ويكون على عجلة من أمره لارتباطه بموعد مع أحد الأصدقاء، أو يدعي أنه يعاني الصداع. إننا سنتضور جوعًا إذا استمر بنا الحال على هذا المنوال، فالمستأجرون هم فقط الذين يجنون الثراء من الأرض».

فتطلع وانج الثاني إلى أخيه وقد أحس نحوه بالازدراء في أعماق قلبه، بيد أنه قال له في نعمة:

«إني أخوك، ولن أتقاضي منك أي عمولة على الإطلاق في مقابل بيعها. سوف أبيعها نيابة عنك لمن يتقدم بالثمن الأعلى. لكن يجب أن تذكر لي ما هو سعرك الأدنى لكل مساحة منها».

غير أن وانج المالك كان في غاية اللهفة لأن يفرغ من أمر أرضه، فقال مسرعًا:

«إنك أخي، فبيعها بالثمن الذي تعتقد أنه حق وعدل! ألن أثق في أخي ابن أبي وأمي؟».

ثم مضى خارجًا وقد انشرح صدره، لأنه تخلص من نصف عبئه، ويمكنه الآن أن يمارس حياته العادية فترة من الزمن، وهو ينتظر الفضة التي يتوق إلى أن تتدفق بين يديه مرة أخرى. على أنه لم يفض إلى زوجته بما أقدم عليه، فربما تصرخ في وجهه أنه قد وضع مصيرهم بين يدي الآخر، وأنه إذا رغب في بيع الأرض، فالأجدر به أن يبيعها بنفسه لبعض الأثرياء العديدين الذين يشتركون معه في مآدب اللهو والقصف، والذين يبدو أنه تربطهم به أواصر الصداقة العميقة. ولم يكن وانج المالك راغبًا في أن يفعل هذا، ذلك لأنه -على كل تباهيه وجعجعته- كان في قرارة نفسه يثق في فطنة أخيه أكثر من ثقته في ذكائه هو. والآن بعد أن فرغ من هذه المهمة، استيقظ قلبه من جديد، وأمكنه أن يلتهم الطعام مرة أخرى، وقد عادت حياته تلوح طيبة في عينيه، وراح يحدث نفسه بأن هناك آخرين غيره يرزحون بالمتاعب أكثر منه، ودبت فيه الحماسة ثانية.

أما وانج الثاني، فقد غمره الشعور بالرضا عن أي وقت مضى، لأن كل شيء أصبح ملك يديه. ودبر خطته على أساس أن يشتري لنفسه أجود

ضياح أخيه. والحق أنه دفع ثمنًا عادلاً، لأنه لم يكن بالرجل الذي يخون الأمانة كما هو معهود في الرجال. والواقع أنه أبلغ أخاه الأكبر أنه قد اشترى مساحة صغيرة من أجود الأرض ليحتفظ بها في نطاق العائلة. لكن أخاه لم يعرف مقدار هذه المساحة التي اشتراها، لأن وانج الثاني حملته على توقيع عقود البيع حين أخذ منه الشراب شيئاً، فلم يلق نظرة ليتبين اسم الشاري المسجل عليها. ولأنه كان يفيض بالمرح من أثر الخمر، فقد بدا أخوه رائعاً في نظره، وجديراً بالثقة المطلقة. ولو أنه عرف الحقيقة، لكان من المحتمل ألا يحس بالرضا حين يرى كل هذه المساحة من أرضه تنتقل إلى حوزة أخيه، لذلك غالى وانج الثاني في قيمة قطع الأرض الأقل جودة التي باعها للمستأجرين ولكل من رغب في شرائها.

والحق أنه نجح بهذه الطريقة في بيع مساحات شاسعة من أرض أخيه. ومهما يكن من أمر، فقد كان وانج لانج بالغ الحكمة في زمانه، فاشترى غالبية ضياعه من الأرض الخصبة الطيبة. لذا، فعندما انتهت عملية البيع، كان وانج الثاني قد امتلك في حوزته -له ولأبنائه- أجود مساحة منتقاة من ضياع أبيه، فقد ابتاع أيضاً بنفس الأسلوب أخصب الأراضي من إرث أخيه الأصغر. ثم دبر خطة لاستغلال كل هذه الضياع، كي يزود أسواقه بكميات وفيرة من الغلال، فيزيد ذخائره من الذهب والفضة. هكذا أصبح من أرباب القوة والنفوذ في المدينة، بل في الإقليم بأسره، وأطلق عليه الناس اسم «وانج التاجر».

وما كان ليتبادر إلى ذهن أحد أن هذا الرجل الضئيل النحيل يملك كل هذه الثروة، ما لم يكن لديه علم بثرائه. ذلك لأن وانج التاجر ظل يتناول

النزr اليسير من الطعام البسيط الذي اعتاده دائماً، ولم يتخذ لنفسه زوجة جديدة في بيته كما يفعل غالبية الأثرياء حباً في الظهور إن لم يكن لأي هدف آخر، كما ظل يرتدي نفس الصنف من الأردية الحبرية القصيرة الضيقة ذات اللون الرمادي الداكن التي دأب على ارتدائها دائماً. أما في بيته، فلم يضيف أي ريش جديدة إلى الأثاث، ولم تكن ثمة أزهار في الأفنية ولا أي شيء يضيع هباء، بل إن الأزهار التي كانت هناك من قبل قد غاضت منها الحياة الآن؛ لأن زوجته المدبرة كانت تربي في البيت أسراباً من الدجاج، تجري داخل الحجرات وخارجها لتلتقط فئات الطعام الذي يتساقط من الأطفال، وتمرح في أرجاء الأفنية لتلتقط كل ورقة خضراء من الحشائش والأشجار، حتى أصبحت الأفنية عارية مجدبة تماماً فيما عدا بضع أشجار معدودات من أشجار الصنوبر المعمرة، وأصبحت أرضها جافة يابسة.

بل ولم يدع أبناءه يركنون إلى الخمول أو ينفقون المال في سفه. كلا، فقد دبر لكل منهم خطة مستقبلية، فكان كل واحد من أبنائه يمضي بضعة أعوام في المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة ويتقن الحساب على اللوحة الحاسبة. لكنه ما كان يسمح لهم بأي حال من الأحوال أن يبقوا في المدرسة الفترة التي تؤهلهم لأن يصبحوا في حكم المثقفين، فالمثقفون لن يجهدوا أنفسهم في عمل من الأعمال. بل كان من خطته أن يدرّبهم على بعض الحرف كي يساهموا في أعماله التجارية. كان يعتبر الغلام المجدور تابعاً لأخيه الأصغر وانج النمر، أما الذي يليه، فقد اعتزم أن يجعله وكيل أعماله في ضياعه. في حين ألحق الآخرين بشتي الحرف

لما أقبل دورهم في العمل، عندما بلغ كل منهم الثانية عشرة من عمره.

هذا، بينما ظلت بيربلوسوم تعيش مع الطفلين في البيت المشيد من الطين، تسير حياتها في رتابة، كل يوم كالذي قبله، ولم تكن تطمع في شيء أكثر من أن تدوم الحال على هذا المنوال. ولم تعد تأسى على الأرض، لأنها إذا لم تر الابن الأكبر لمولاها الراحل، فقد كانت ترى الأصغر يأتي إلى الضياع قبل موسم الحصاد ليقدر مدى نماء الجيوب، ويشرف بنفسه على كيل البذور وما شابه ذلك. أجل، كما كانت تسمع من الفلاحين كيف أن وانج التاجر يفوق أخاه حذقًا كمالك للأرض رغم أنه من أهل الحضر، فهو يدرك -والسنابل ما زالت خضراء في الحقول- مقدار ما سيثمره كل حقل حتى آخر مثقال ذرة من الغلال. كما كانت عيناه الصغيرتان الضيقتان متحفزتين دائمًا لرؤية أي مستأجر يضغط بقدمه خفية على حافة حمل الغلال لترجح به كفة الميزان، أو يصب الماء على الأرز أو القمح لجعله ينتفش في الحجم. ذلك أن السنين التي قضاها في سوق الغلال قد علمته كل الألاعيب التي يقوم بها أهل الريف لخداع التجار وأهل الحضر، فهم بطبيعتهم أعداء ألداء. ومع ذلك كانت بيربلوسوم إذا سألت الفلاحين هل رآه أحدهم غاضبًا في يوم من الأيام عندما يكتشف إحدى هذه الألاعيب، كانوا يجيبونها دائمًا في إعجاب يشوبه عدم الرضا، بأنه لا يعرف الغضب مطلقًا. كلا، بل إنه دائمًا هادئ الأعصاب عديم الرحمة، وأكثر حذقًا وبراعة من أي فلاح منهم. وكانت الكنية التي ذاعت عنه في شتى أرجاء تلك المنطقة من الريف هي «الرايح في كل صفقة».

كان هذا الاسم ينم عن الاحتقار وينطق بالكراهية التي تفيض بها قلوب أهل الريف جميعاً نحو وانج التاجر. على أنه لم يأبه بهم، بل إنه أحس بالسروور حين علم بالاسم الذي يطلقونه عليه، وقد علم به لأن زوجة أحد الفلاحين في ثورة غضبها ألقت به في وجهه ذات مرة وهي تصب عليه اللعنات، عندما لمحها تخفي كتلة ضخمة مستديرة من الحجر في سلة مليئة بالغلل كانت على وشك أن توضع في الميزان، وقد أقدمت على هذا العمل اعتقاداً منها أنه يوليها ظهره.

كما حدث مراراً أن بعض زوجات الفلاحين كالوا له اللعنات، فالمرأة السليطة عادة ما تكون أشد جراً من أي رجل من الرجال، فالرجل إذا كشف أمره في إحدى الألاعيب، تلوح عليه أمارات الكآبة أو الخجل حسب طبيعته، أما المرأة، فإنها تصب عليه الشتائم وتلاحقه صائحة:

«أتنسى في خلال جيل واحد كيف كان أبوك وأمك يكدحان مثلنا في الأرض، ويتضوران جوعاً أيضاً، مثلما نتضور، وأنت تطحن عظامنا وتمتص دماءنا، كما تفعل الآن؟».

وقد كان وانج المالك يساوره الخوف أحياناً عندما يحس القرويون بالمرارة، مدرّكاً أن الأغنياء ينبغي أن يخشوا جانب أولئك الفقراء الذين تبدو عليهم سيماء الصبر والذلة، والذين يمكن أن يصبحوا في غاية الجرة والقسوة حين ينقلبون على من يكونون لهم البغضاء، فيمزقونهم إرباً. أما وانج التاجر، فلم يكن يخشى شيئاً، بل إنه لم يحفل بالأمر على الإطلاق، حتى عندما لمحتة بيربلوسوم يمر بالبيت ذات يوم، فنادت عليه وخرجت لمقابلته، ثم قالت:

«سأكون قريرة العين يا سيدي وابن مولاي لو أمكنك أن تخفف قليلاً من دقتك في معاملة الفلاحين، فهم يكدحون في عناء شديد، ويعانون شظف العيش، ويشبهون الأطفال في جهلهم. إنه لمما يعتصر قلبي أن أسمع العبارات القاسية التي يرددونها أحياناً عن أبناء مولاي».

بيد أنه اكتفى بالابتسام، ومضى في سبيله، إذ لم يكن يلقي بالاً إلى ما يردده أو يفعله أي إنسان، ما دام يحصل على أرباحه كاملة. لقد كانت القوة والسلطة ملك يديه، فلم يخش شيئاً قط، لأنه كان يشعر بالأمن في ظل ثرائه.



كان الشتاء يمر في تناقل شديد، قارس البرودة في تلك البقاع. وفي أثناء هبوب الرياح العاتية وتدفق الثلوج التي جرفت العواصف، لم يسع وانج النمر إلا أن يبقى في الأروقة التي أصبح الآن يشغلها في قصر الحاكم، وأن ينتظر مطلع الربيع. هناك حصن نفسه في مقره الجديد، ومضى في ثبات وإصرار يطالب الحاكم بفرض هذه الضريبة وتلك للإنفاق على الثمانية آلاف جندي الذين يعملون تحت لوائه. أجل، بل لقد بلغ الأمر أن فرضت لحسابه ضريبة على الأراضي جميعها، تحت اسم الحماية التي يكفلها جنود الدولة لأهل الإقليم، على حين أن هؤلاء الجنود كانوا في الواقع جيشه الخاص، فقد علمهم ودرّبهم وجعلهم على أهبة الاستعداد لتوسيع نطاق نفوذه عندما تحين اللحظة الملائمة. هكذا أصبح كل مزارع في ذلك الإقليم بأسره يدفع ضريبة لوانج النمر على كل حقل يمتلكه. ذلك أن عامة الناس أخذوا يلهجون بالشثناء عليه، بعد أن انقشعت غمة اللصوص وأحرق الوكر، فلم يعد ثمة ما يدعو للخوف من الفهد، لذا أبدوا استعدادهم لأن يجزّلوا له العطاء، وإن كانوا لم يدركوا مبلغ هذا العطاء.

كما حمل الحاكم على أن يفرض ضرائب أخرى لحسابه، بعضها على المتاجر والأسواق، والبعض الآخر على جميع المسافرين عبر تلك المدينة التي كانت ممراً يصل بين الشمال والجنوب، إلى جانب ضرائب أخرى يدفعها التجار على البضائع التي يحملونها جيئةً وذهاباً للبيع والمقايضة. هكذا أصبح المال يتدفق في الخفاء وبصورة منتظمة إلى خزائن وانج النمر. كما أنه كان من الفطنة بحيث حرص على ألا تلمس الفضة أياد عديدة في أثناء نقلها إليها، مدركاً أنه ما من يد في هذا العالم بأسره يمكن أن تتخلى عن طيب خاطر عن الفضة التي تقع في قبضتها، ومن ثم عين أتباعه الأمناء للإشراف على جباية الضرائب. ومع أن هؤلاء دأبوا على مخاطبة الجميع في لهجة رقيقة تنفيذاً لأوامره، إلا أنه خولهم سلطة إيقاع العقاب بأي واحد من رجاله يكتشفون أنه يجبي ضرائب من الناس تزيد على الحصاة المعينة له، كما أنذر أتباعه الأمناء بأنه سيوقع بهم العقاب بنفسه لو أنهم خذلوه في هذه المهمة. وقد أمن شر الخيانة أكثر من معظم الحكام، لأن الجميع كانوا يهابونه باعتباره رجلاً قاسياً لا يعرف الرحمة. ومع ذلك، فقد عرفوا عنه العدل أيضاً، وعرفوا أنه لا يقدم على قتل إنسان جزافاً أو بحثاً عن مجرد المتعة.

غير أنه بينما كان ينتظر انقضاء الشتاء، طغى عليه إحساس بالضيق والسخط رغم النجاح الذي أحرزه، لأن الحياة في أروقة الحاكم لم تلائم هواه. كلا، بل ولم يجد هناك من يمكن أن يتخذ منه صديقاً، فهو يربأ بنفسه عن أن يوطد عرى الصداقة مع أحد، بحكم إدراكه أنه ما دام قد خشي الناس جانبه، أصبح من الأيسر عليه أن يحتفظ بمكانته بينهم. فضلاً

عن أنه كان بطبيعته لا يميل إلى المشاركة في مآدب القصف ومحافل الصداقة، ومن ثم عاش وحيداً لا يؤنس وحدته سوى ابن أخيه المجذور الذي يبقيه دائماً بمقربة منه لئلا يحتاج إلى شيء، وتابعه الأمين الأشرم الذي كان قائد حرسه.

والحق أن الحاكم قد أصبح الآن طاعناً في السن لا همّ له إلا العكوف على غليون أفيونه، فأضحى كل شيء يجري من حوله في انحلال وتراخ، وزخر بلاطه بالشعب والأحزاب التي تفيض بالأحقاد، واكتظ بالأتباع وأقارب الأتباع الذين ينشدون الحياة السهلة اللينة. وكان رجاله ينقلبون بعضهم على بعض، فتستعر نار الغضب والثأر والعراك بصورة مستمرة. أما إذا رفعت هذه المشكلات إلى مسامعه، فقد كان يتحول عنها إلى غليون أفيونه أو يصرف ذهنه إلى أمور أخرى، لأنه يعلم حق العلم أنه عاجز عن البت في شتى المسائل. وكان يعيش وحده مع زوجته العجوز في رواق داخلي، لا يخرج منه إلا إذا حتمت عليه الضرورة، لكنه ظل يحاول القيام بمهام منصبه، فكان في يوم التشريفات ينهض عند بزوغ الفجر، ويرتدي ثيابه الرسمية، ثم يمضي إلى قاعة العدالة، ويرتقي المنصة هناك، حيث يجلس في المقعد الذي يستمع منه إلى القضايا المعروضة عليه.

وكان يبذل قصارى جهده الهزيل في أداء مهمته، لأنه كان رجلاً طيباً محبباً للخير في أعماقه، يظن أنه يحكم بالعدل بين الناس الذين يأتون للمثول بين يديه في القاعة، بيد أنه لم يكن يدري أن كل واحد من أصحاب المظالم قد ظل يبذل المال على طول الطريق إلى القاعة، مبتدئاً بالحارس الواقف عند بوابة القصر، فما كان لرجل لا يحمل من الفضة ما

يكفي لرشوة الكبير والصغير أن يأمل في مجرد الوصول إلى قاعة العدالة تلك، بل إن نفس المستشارين الواقفين في حضرة الحاكم كانوا يحصلون جميعاً على نصيبهم من الفضة. ولم يكن يدري أيضاً أنه يعتمد اعتماداً كاملاً على هؤلاء المستشارين. كلا، فقد تقدمت به السن، وأصبح سريع الارتباك، حتى إنه كثيراً ما كان يعجز عن إدراك نقطة الجدل في بعض القضايا، فيخجل من التصريح بذلك، أو قد تعثره سنة من النوم قرب نهاية الجلسة، فلا يسمع ما يقال أمامه، ويخشى أن يكرر السؤال لثلاثي استقرار في روع الناس أنه عاجز عن أداء عمله. لذا كان يتحول بطبيعة الحال إلى مستشاريه، الذين لم يقصروا قط في منافقته والتزلف إليه. فلتن قالوا له:

«آه، إن هذا الرجل من أهل الشر، وذلك الرجل محق في دعواه»، يسارع هو بإبداء موافقته قائلاً: «هذا هو رأيي.. هذا هو رأيي». وإذا صاحوا قائلين: «مثل هذا الرجل ينبغي أن يضرب ضرباً مبرحاً لأنه خارج على القانون»، يقول هو في صوت متهدج راعش: «أجل.. أجل، فليضرب هذا الرجل!».

دأب وانج النمر في تلك الأيام التي يسودها الفراغ والخمول، على أن يمضي إلى قاعة العدالة للمشاهدة والاستماع وتزجية الوقت. وكان حين يذهب إلى هناك، ينتحي جانباً، على حين يقف أتباعه الأمناء وابن أخيه المجدور بمقربة منه لحراسته. هكذا كان يرى بعينه ويسمع بأذنيه كل هذه المظالم. وكان في البداية يقول بينه وبين نفسه إنه لن يهتم بأي أمر من هذه الأمور لأنه رجل من ملوك الحرب لا تعنيه هذه المسائل المدنية في شيء، وإنه ينبغي أن يصرف اهتمامه إلى جنوده، فهم لا يسهمون في

هذه الحياة الخاملة المنحلة التي تسود في أروقة القصر. وكان في كثير من المرات حين يشهد شيئاً يثير ثأثرته في قاعة العدالة، يمضي خارجاً ويصب جام غضبه على جنوده، فيرغمهم على أداء الطواير وتدريبات الحرب مهما كانت حال الريح في ذاك اليوم، وعلى هذا النحو كان يخفف عن قلبه وطأة الغضب.

بيد أنه كان رجلاً يؤمن بالعدالة في أعماقه. لذا فإنه عندما شهد صور الظلم تتوالى أمام عينيه المرة تلو المرة، لم يعد يطيق الأمر في النهاية، وفاض به الغضب على بعض المستشارين الذين يوسوسون في أذن الحاكم، لا سيما رئيس المستشارين. لكنه أدرك أن ليس ثمة جدوى من التحدث في الأمر إلى الرجل الهرم الذي دب فيه الوهن. على أنه بالرغم من ذلك كان في بعض الأحيان، بعد أن يجلس ويصغي إلى بعض القضايا، ويشهد المظالم تقترب أمام عينيه عشرات المرات، يحس بأنه يكاد ينفجر بالثورة المكبوتة في أعماقه، فينهض واقفاً ويمضي إلى الخارج بخطوات عريضة، وهو يتمتم مراراً بينه وبين نفسه:

«إذا لم يقبل الربيع سريعاً، فسأضطر إلى قتل إنسان ما ضد إرادتي!»

أما المستشارون، فلم يكونوا يكونون له الحب على حد سواء، لأنه يستولي على القدر الوفير من دخل الإقليم، فضلاً عن أنهم كانوا يهزأون منه على اعتباره رجلاً خشن المنبت، لا يرقى إلى مستواهم في التهذيب والثقافة.

و ذات يوم انفجرت مراحل الغضب في صدر وانج النمر بطريقة مباغته لم يكن هو نفسه يتوقعها.

بدأت ثورته بمسألة تافهة، مثلما تبدأ العاصفة العاتية أحياناً من ريح هينة وحفنة من السحب المتناثرة.

في يوم معين قبل بداية العام الجديد، في أثناء تلك الفترة التي ينطلق فيها الدائنون في شتى الأنحاء لجمع ديونهم، فيختفي المدينون ما وسعهم ذلك ليتعذر العثور عليهم حتى يحل اليوم الأول من العام الجديد، حين يصبح من المحال تحصيل الديون من أحد- حدث أن عقد الحاكم الهرم الجلسة الأخيرة في العام المنصرم للفصل في قضايا الناس، وجلس على منصته في القاعة، وتصادف في ذاك اليوم أن كان وانج النمر نهباً للضجر والقلق تحت وطأة شعوره بالفراغ. فقد كان يأبى أن يلعب الميسر حتى لا يراه جنوده جالساً إلى مائدة اللعب، فيزداد شعورهم بأن لهم الحرية في المقامرة كقائدهم، ولم يكن في طوقه أن يفرض في قراءة الروايات والقصص لأنها تضعف من كيان الرجل بما تحفل به من الأحلام الخيالية وموضوعات الحب والهيام، كما أنه لم يكن من الثقافة بحيث يقبل على قراءة مذاهب الفلسفة في العصور القديمة. هذا، ولأنه كان يعاني أيضاً من الأرق، فقد نهض واتجه برفقة حرسه إلى قاعة العدالة، حيث جلس حيناً لمشاهدة القادمين في ذاك اليوم للمثول بين يدي الحاكم. بيد أن قلبه كان يعتمل بالثورة المكبوتة فيه، فقد نفذ صبره في انتظار مطلع الربيع، لا سيما وأن الأيام العشرة الأخيرة كانت مفعمة بالبرد القارس، تفيض بسيول الأمطار التي هطلت مدراراً بلا انقطاع، حتى إن رجاله جأروا بالشكوى معترضين على الخروج بهم من ثكناتهم في هذا الطقس.

هناك جلس وانج النمر في القاعة، يمتلكه شعور بأنه ما من حياة

موحشة كحياته، إذ ليس ثمة إنسان يهتم بأمره ما إذا كان حيًّا أو فارق الحياة. هكذا جلس في مكانه المعتاد، هامدًا فاطر الهمة، تغيم على وجهه سحابة من الكآبة. ولم يلبث أن رأى رجلًا معينًا من الأثرياء يدلف إلى القاعة، وكان يعرفه، فقد وقع بصره عليه هناك من قبل. كان هذا الرجل مرابيًّا من أهل المدينة، بدين الجسم أملس الوجه، له يدان دقيقتان ناعمتان صفراوان، يلوح بهما في أثناء حديثه في رشاقة تتسم بالشر والخبث، وقد اعتاد دائمًا أن يشمر كميته المتهدلين الحريريين من على يديه قبل أن يلوح بهما. وكان وانج النمر قد تأمل يدي هذا الرجل مرارًا من قبل، فرأى كيف أنهما دقيقتان ناعمتان مكتنزتان، وكيف أن أنامله تبدو مدببة بأظافرها الطويلة. وقد دأب على تأمل يديه، في حين أنه لم يكن يهتم بالاستماع إلى حديثه.

أما اليوم، فقد حل المرابي يصحب فلاحًا فقيرًا يستبد به الرعب وتبدو عليه أمارات القلق والارتباك. ثم خر الفلاح ساجدًا أمام الحاكم، وقد ألصق وجهه بالأرض، حيث مكث صامتًا ضارعًا في طلب الرحمة. حينئذ عرض المرابي قضيته، ومؤداها أنه قد أقرض هذا الفلاح مبلغًا من المال، ووافق على أن يتخذ من أرضه ضمانًا لسداد الدين، وقد حدث هذا قبل عامين مضيا، لذا تضخم المبلغ وأرباحه حتى أصبح الآن يربو على قيمة الأرض.

ومضى المرابي يصيح وهو يفتعل الحماسة البالغة، ويشمر كميته الحريريين، ويلوح بيديه الناعمتين، ويضخم صوته في نبرات تنطق باللوم والتعنيف:

«ومع هذا، مع كل هذا، يا سيادة الحاكم الأفخم، فإنه يأبى مبارحة أرضه!» ثم راح يدير حدقتي عينية الضيقتين متطلعاً حوله بنظرات تنم عن حنقه الشديد على هذا الفلاح الشرير الآثم.

على أن الفلاح لم ينبس بكلمة، بل ظل جاثياً هناك، منكس الرأس، وهو يعتمد على يديه مشبكتين معاً. سأله الحاكم الهرم في النهاية: «لماذا اقترضت المال، ولم تسدد الدين؟».

فرفع الفلاح عينيه قليلاً، وثبت ناظره على موطئ أقدام الحاكم، وهو ما زال جاثياً في مكانه، ثم قال في لهفة وقلق:

«يا سيدي، لأنني رجل فقير من عامة الناس، ولا أعرف كيف أخاطب من هم في مكائتك يا سيدي الأفخم. إني من الطبقة الدنيا، ولم أتحدث طيلة حياتي إلى أحد أرفع شأنًا من عمدة قريتنا، فليست لي دراية بالكلام هنا. ومع ذلك يعوزني من يتحدث نيابة عني، نظرًا لأنني فقير غاية الفقر». فقال له الحاكم في كثير من الإشفاق:

«ليس هناك ما يدعوك للخوف.. ما عليك إلا أن تمضي في الحديث».

وبعد أن فتح الفلاح شفتيه مرة أو مرتين دون أن يندّ عنهما صوت، شرع في الكلام، لكنه مع ذلك لم يرفع عينيه على الإطلاق، وبدأ جلياً أن جسده الهزيل يرتعد في أسماله المرقعة التي يبرزها حشوها البالي من خلال الثقوب المنتشرة فيها وكأنه صوف أغنام عتيق. وكان الرجل عاري القدمين، وقد دسهما في نعلين من البوص، سقطا منه الآن، فاستقرت أصابع قدميه الصلبة الجامدة على أرض القاعة الحجرية الرطبة، ومع

ذلك لم يلح في وجهه أنه يحس برطوبتها. ثم بدأ يتحدث في صوت واهن قائلاً:

«يا سيدي، لقد ورثت عن آبائي قطعة صغيرة من الأرض. إنها أرض في غاية الرداءة، لم تمنحنا قط ما يملأ بطوننا من الطعام. لكن أبوي فارقا الحياة قبل الأوان، ولم يعد سواي أنا وزوجتي، فكنا إذا تضورنا جوعاً، نتقبل الجوع، وما باليد حيلة. غير أن زوجتي أنجبت طفلاً، ولم تلبث أن جاءت بطفلة بعد بضع سنين. وعندما كان الطفلان صغيرين، لم تكن الحياة بعد قاسية إلى هذا الحد. لكنهما شبا عن الطوق، وكان لا بد أن نزوج الابن، ثم أنجبت زوجته طفلاً. تأمل الموقف يا سيدي، فالأرض لم تكن تسد حاجتنا أنا وزوجتي بمفردنا، فما بالك وهؤلاء جميعاً يعيشون معنا الآن! لقد ظلت الفتاة طويلاً دون السن الملائمة للزواج، وكان عليّ أن أطعمها بصورة أو بأخرى. ثم حدث منذ عامين أن أتاحت لي فرصة عقد خطبتها على رجل عجوز من إحدى القرى القريبة منا، ماتت زوجته، وأصبح في حاجة إلى امرأة ترعى شؤون بيته، غير أنه كان من المحتم عليّ أن أقدم للفتاة رداء الزفاف. ولم يكن لديّ شروى نقير يا سيدي، لذا اقترضت قليلاً من المال، مبلغاً لا يعدو عشر قطع من الفضة، قد لا يساوي شيئاً في نظر معظم الناس، لكنه بالنسبة إليّ مبلغ جسيم يزيد عن كل ما أملكه. وقد اقترضته من هذا المرابي. وإذا بالقطع العشر تتكاثر في أقل من عام حتى أصبحت عشرين من تلقاء نفسها، مع أنني لم أحصل منه على أكثر من عشر قطع لإنفاقها على البنية. ثم أصبحت الآن أربعين قطعة في خلال عامين. كيف يمكن يا سيدي أن تتكاثر الفضة التي لا حياة فيها على

هذا النحو؟ إني لا أملك شيئاً سوى أَرْضِي. وهو يطلب مني أن أذهب عنها، ولكن أين أذهب؟ إني أقول دعه يأتي ويطردي منها بالقوة. إذ ليس هناك من سبيل آخر غير هذا».

بعد أن فرغ الرجل من هذا الحديث، اعتصم بالصمت المطبق. في حين راح وانج النمر يتفرس فيه، وأغرب ما في الأمر أنه لم يستطع تحويل عينيه عن قدمي الرجل. لقد كان وجه هذا الفلاح ضامراً ممتعاً، يروي قصه حياته، وكيف أنه لم يأكل قط ملء بطنه منذ خرج إلى عالم الشقاء. أما قدماه، فهما ترويان القصة كاملة.... إذ كان هناك تعبير بليغ تنطق به قدما هذا الرجل العاريتان، المعرقتان الملتويتان عند الأصابع، اللتان يبدو باطنهما أشبه بجلد جاموس الماء بعد تجفيفه. أجل، لقد أحس وانج النمر وهو يتفرس في قدمي الرجل أن شيئاً يجيش وينفجر في أعماقه. بيد أنه انتظر ليرى ماذا سيقول الحاكم الهرم.

وكان المرابي رجلاً معروفاً من رجالات المدينة، كثيراً ما اشترك مع الحاكم في مآدب اللهو والقصف، كما كان أيضاً موضع رضا رجال البلاط بما يدفعه من فضة للكبير والصغير في كل قضية من قضاياها، وهي عديدة. لذلك ساور الحاكم التردد، وإن كان من الجلي أن حديث الفلاح قد هز مشاعره شيئاً ما. وفي النهاية التفت إلى رئيس مستشاريه، وهو رجل يقاربه في العمر، لكنه قوي البنية مشدود القامة على شيخوخته، ما زال وجهه ناعماً وسيماً، رغم أن الشيب قد وخط السوالف الخفيفة التي تنمو في ثلاثة أجزاء من خديه وذقنه؛ إلى هذا الرجل توجه الحاكم بالسؤال:

«ماذا ترى يا أخي؟».

فأخذ هذا الرجل يمسح بيده على سوافه البيضاء الخفيفة، ثم قال في تودة وكأنه يقلب أوجه العدالة في ذهنه، غير أن كفه كانت لا تزال دافئة من أثر الفضة التي قبضها من المرابي:

«لا سبيل إلى دحض القول بأن هذا الفلاح قد اقترض المال بالفعل، وأنه لم يرده، وأن المال المقترض لا بد وأن تجري عليه الأرباح طبقاً للقانون. إن المرابي يتعيش من إقراض أمواله، مثلما يتعيش الفلاح من أرضه. ولو أن الفلاح أجر أرضه دون أن يحصل على إيجارها، فإنه يجار بالشكوى، وتكون شكواه عادلة في هذه الحال. وهذا ما فعله المرابي لا أكثر. وبناء على ذلك، فمن العدل أن يدفع له حقه».

أصغى الحاكم الهرم إلى هذا الحديث باهتمام، وهو يومئ برأسه بين الفينة والفينة، وكان من الجلي أن هذه الكلمة قد هزت مشاعره أيضاً. بيد أن الفلاح رفع عينيه على حين غرة، وللمرة الأولى أخذ يتفحص وجوه الحاضرين في نوع من الدهول. ومع ذلك، لم يتطلع وانج النمر إلى وجهه أو إلى النظرة التي لاحت في عينيه. لم ير منه سوى قدميه الهرمتين العاريتين، وقد التوت إحداهما على الأخرى تحت وطأة العذاب. وفجأة لم يعد يطبق الأمر، فانطلق غضبه العاتي، ونهض واقفاً، ثم صفق بيديه في عنف، وصاح في صوت هائل كالزئير:

«إنني أقول إن هذا الرجل المسكين يجب أن يحصل على أرضه».

ولما سمع الجمع المحتشد في القاعة هذا الزئير ينبعث من وانج النمر، اتجهت إليه الأنظار جميعاً، فوثب أتباعه الأبناء نحوه، ووقفوا من حوله مصوبين بنادقهم في وحشية. وما إن رأهم الناس، حتى انكمشوا

متراجعين إلى الخلف، ولاذوا بالصمت. لكن وانح النمر أحس بأن غضبه قد انطلق من إيساره، ولم يعد في وسعه أن يكبح جماحه حتى إذا رغب في ذلك. فمضى في حديثه وهو يشير بإصبعه نحو المرايبي، ويطعن به في الهواء المرة تلو المرة، صائحًا في صوت جبار، وحاجباه السوداوان يندفعان فوق عينيه تارة إلى أعلى وتارة إلى أسفل:

«كم من مرة شاهدت هذه الحشرة البدينة القارصة تأتي إلى هنا بقصة أو أخرى كهذه القصة، وقد ذلت لنفسها الطريق بدفع الفضة للكبير والصغير! لقد ضقت به ذرعًا! اطروده خارجًا!» ثم التفت إلى حرسه صائحًا: «اطردوه ببنادقكم!».

حين سمع الناس منه هذا القول، استقر في روعهم أنه قد أصيب بلوثة على حين غرة، فدار كل واحد على أعقابهِ، ولاذ بالفرار للنجاة بحياته. أجل، بل إن المرايبي البدين كان أسرعهم عدوًا، فقد بلغ بوابة القصر في مقدمتهم جميعًا، واخترقها صارخًا في صوت رفيع كما لو كان فأرًا توصل إلى الفرار بشق النفس. ثم انطلق كالبرق الخاطف، وكانت له دراية فائقة بالأزقة المتعرجة في المدينة، بحيث اختفى عن الأنظار رغم أن الأتباع الأمناء انطلقوا في أعقابهِ، لكنهم لم يعثروا له على أثر. وبعد أن ظلوا يعدون وراءه مسافة طويلة، لم يسعهم إلا أن يتوقفوا عن العدو، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض بوجوه جامدة، وهو يلهثون هنيهة. على أنهم واصلوا البحث عنه فترة وجيزة أخرى، ثم عادوا أدراجهم وسط الهرج والمرج الذي كان يهدر حينذاك في طرقات المدينة.

ولما وصلوا إلى القصر ثانية، وجدوه مرتعًا للضبجيج الصاخب

حقاً، ذلك أن وانج النمر، عندما أدرك ما قد شرع فيه، طغى عليه شعور بالاستهتار، فدعا جنوده، وصاح فيهم:

«اخلوا لي هذه الأروقة من جميع الناس. اطرّدوا كل هذه الديدان اللعينة مصاصة الدماء، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم!».»

فأقبل جنوده في تحمس على هذه المهمة التي أمرهم بها، فأخذ الناس يهرعون راكضين في الأروقة وكأنهم جردان تنطلق من بيت اندلعت فيه النار. أجل، لم تمض ساعة إلا وكان القصر قد خلا تماماً من الناس ما عدا وانج النمر ورجاله، أما في أروقة الحاكم الهرم، فلم يبق سواه وزوجته وبضعة أفراد من خدمه الخاص، فقد أمر وانج النمر بألا يمسه أحد بسوء.

بعد أن قام بكل هذا في تلك الثورة العاتية التي قلما انتابه مثلها في حياته الماضية -مع أنه كان غضوباً بطبيعته- دلف إلى حجرته الخاصة، حيث جلس بجوار المائدة متكئاً عليها، وظل هنيهة يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم صب لنفسه قليلاً من الشاي، راح يرتشفه في ببطء. وبعد فترة من الوقت، أدرك أنه قد اختط لنفسه في ذاك اليوم نمطاً في السلوك لا بد وأن يسلكه بصورة أو بأخرى في المستقبل. على أنه كلما أمعن في التفكير، تلاشى من نفسه الشعور بالندم على فعلته، فقد أحس الآن أن قلبه قد تحرر من كل مشاعر القنوط والكآبة، وأحس أنه منشرح الصدر، ثابت الجنان، طليق من كل قيد. وحين تسلل تابعه الأشرم إلى الحجرة ليتبين ما يحتاج إليه، ثم دخل الغلام المجذور يحمل له إبريقاً من الخمر، هتف بهما وهو يضحك ضحكته الصامتة كعادته:

«حسنًا، لقد قمت اليوم بإخلاء جحر الثعابين على أقل تقدير!».

لما سمع أهل المدينة بأمر الثورة التي اندلعت في بلاط الحاكم، اغتبط الكثيرون لعلمهم بالفساد المتفشي هناك، على حين أن بعض الناس داخلهم الخوف، فانتظروا ليروا الخطوة التالية التي سيقدم عليها وانج النمر. كما أقبل كثير من الناس في حشود صاخبة، تجمعت حول بوابات القصر، هاتفة بأنه ينبغي تحديد فترة لإقامة الأفراح والمآدب، وأنه ينبغي إطلاق سراح السجناء، حتى يتسنى للجميع أن يفرحوا ويمرحوا معًا.

أما الرجل الذي جنى الثمرة الكبرى في هذه الضجة الهادرة، وهو الفلاح المسكين، فلم يكن بين هذا الجمع المحتشد. كلا، فمع أنه قد كتب له الخلاص هذه المرة، إلا أنه لم يستطع أن يصدق بأن من الممكن أن يخبئ له القدر أي نفحة من الحظ السعيد. وعندما سمع أن المرابي قد لاذ بالفرار، أخذ يئن ويتأوه، وفر عائدًا إلى أرضه، ثم مضى إلى بيته، حيث تسلل إلى فراشه. ولئن قدم أحد ليسأل زوجته أو أطفاله عن مقره، كانوا يجيبونه بأنه قد مضى بعيدًا إلى مكان ما، ولا يعرفون له مقرًا.

ولما سمع وانج النمر بما يطالب به أهل المدينة تذكر أن في السجن بضعة عشر أو نحو ذلك من الرجال، كان قد رآهم حين ألقى بهم في غياهب السجن لسبب أو لآخر من الأسباب الظالمة الجائرة، وما كانوا ليأملوا في الخروج منه، لأن معظمهم يعاني الفاقة، ولا يملك من المال ما يكفي للحصول على حريته. ومن ثم أبدى وانج النمر موافقته على مطالب الناس، وأمر أتباعه الأمناء بإطلاق سراح السجناء، كما أعلن لرجاله أنه

قد منحهم ثلاثة أيام للقصف وإقامة الولائم، ثم أرسل في طلب الطهارة الذين يعملون في قصر الحاكم، ودعاهم للمثول بين يديه، وقال لهم في صوت جهير:

«أعدوا أشهى ألوان الطعام الوطني في بلادكم، تلك الألوان المتبلة الحامية، وصنوف الأسماك التي تتلاءم مع الخمر، وكل شيء يمكن أن يبعث في قلوبنا الفرح والمرح».

وأمر أيضًا بإحضار خمور جيدة، وبإطلاق الصواريخ والمفرقات النارية، وغيرها من الأشياء التي تبهج الناس، فشاع الفرح في قلوب الجميع.

على أنه، قبل أن يمضي أتباعه الأمناء مباشرة لتنفيذ أمره بشأن السجناء، تذكر فجأة تلك المرأة التي كانت قابعة في السجن أيضًا. لقد أراد مرارًا أن يطلق سراحها في أثناء هذا الشتاء، لكنه في كل مرة لم يكن يدري ماذا يفعل بها، لذلك اكتفى بإصدار أوامره بأن تُمنح طعامًا طيبًا، ولا تُقيد بالسلاسل شأن بعض السجناء. وبينما كان يفكر الآن في السجناء وقد انطلقوا إلى عالم الحرية، جالت تلك المرأة بخاطره، فتحدث إلى نفسه قائلاً:

«ولكن كيف يمكنني إطلاق سراحها؟».

كان يريد أن تنال حريتها، لكنه لا يرغب في أن تنال من الحرية ما يتيح لها أن تذهب بعيداً عنه، فساوره العجب من أمر نفسه حين تبين أنه يهتم بذهابها أو مجيئها. ساوره العجب من هذه المشاعر التي تعتمل في قلبه.

وبدافع من حيرته دعا تابعه الأمين الأشرم سرًا إلى حجرة نومه، وقال له:
«لكن ماذا ستفعل بتلك المرأة التي أسرناها من الوكر؟».

فأجابه التابع الأمين في لهجة جادة خطيرة:

«أجل، إنها هناك في السجن. يا ليتك تدعني أمر جزار الخنازير بأن
يغمد سكينًا في جيدها بطريقته الخاصة، فلا يسيل منها إلا القليل من
الدماء».

على أن وانج النمر أشاح بوجهه، وقال في تودة:

«إنها ليست سوى امرأة». ثم انتظر برهة، واستطرد قائلاً: «على أقل
تقدير يجب أن أراها مرة أخرى، وحينئذ يمكنني أن أعرف ما ينبغي أن
أفعله بشأنها».

فارتسمت كآبة بالغة على وجه التابع الأمين، لكنه لم ينبس ببنت
شفة، وانطلق خارجًا. وبينما هو يمضي من الحجرة، ناداه وانج النمر أمرًا
بإحضار المرأة في التو إلى قاعة العدالة حيث سيذهب لانتظارها هناك.

ولم يلبث أن دخل إلى قاعة العدالة، وارتقى المنصة، ثم جلس
في مقعد الحاكم الهرم، بدافع من شعور عجيب بالزهو كان يعتمل في
نفسه. وطاف بخاطره أنه يجب أن تراه المرأة جالسًا هناك في ذلك المقعد
الضخم المحلى بالنقوش البارزة الذي يرتفع عن بقية المقاعد الأخرى.
ولم يكن ثمة من يعترض على مسلكه هذا، فالحاكم لم يبارح بعد جناحه
الخاص، بعد أن بعث برسالة مؤداها أنه مريض بالإسهال. هكذا جلس
هناك، وقد صلب عوده في تشامخ واعتداد، واحتفظ بوجهه هادئًا ترسم

عليه الكبرياء، كما ينبغي أن تكون وجوه الأبطال.

وأخيراً أقبلت المرأة يحف بها اثنان من الحراس، وهي ترتدي سترة بسيطة من القطن، وسراويل من نسيج رخيص لونه أزرق باهت. لكن هذه الثياب البسيطة الشائعة لم تكن هي التي غيرت من سميتها. كلا، بل إنها قد تغذت غذاء جيداً، فتحول جسدها النحيل إلى الامتلاء، وإن ظل محتفظاً برشاقتها. ومع أنها لم تكن وسيمة على الإطلاق لأن وجهها محدد القسمات بصورة تتنافى مع الوسامة، فقد كانت تتمتع بجمال خارق وجرة نادرة. وقد دخلت إلى القاعة في ثبات وانطلاق، ثم وقفت أمام وانج النمر تنتظر في هدوء.

فراح يتطلع إليها وهو في أشد حالات الدهشة، إذ لم يكن يتخيل أن تغييراً كهذا قد طرأ عليها. وقال للحراس:

«لم تبدو الآن هادئة إلى هذا الحد، بالنظر إلى مدى الجنون الذي كان يتتابها من قبل؟».

فهزوا رؤوسهم وأكتافهم، قائلين:

«لا ندرى، سوى أنها بعد أن انصرفت من حضرة قائدنا في المرة الماضية، ذهبت إلى السجن ضعيفة محطمة، وكأن روحاً شريرة قد انطلقت منها، ثم ظلت على هذه الحال منذ ذلك الحين».

فقال لهم وانج النمر في صوت خفيض:

«لماذا لم تبثوني بالأمر؟ لو أنني علمت، لأطلقت سراحها».

إذ ذاك تملكهم الذهول، وقالوا للتبرير تصرفهم:

«يا سيدنا، كيف يتسنى لنا أن نعرف أنك مهتم بما حدث لها؟ لقد كنا في انتظار أوامرك».

حينذاك اندفعت الكلمات من تلقاء نفسها إلى طرف لسان وانج النمر، حتى أوشك أن يطلقها صائحًا: «لكنني مهتم بها فعلاً!» إلا أنه استطاع أن يكبح جماحها، إذ كيف يمكنه أن يفوه بهذه الكلمات أمام هؤلاء الحراس وهذه المرأة؟ ثم صاح فجأة:

«فكوا عنها هذه القيود!».

فك الحراس وثاقها دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة، فوقفت طليقة من القيد، وانتظروا جميعاً ليروا ماذا ستفعل، كما راح وانج النمر ينتظر أيضاً. على أن المرأة ظلت واقفة هناك وكأنها لم تزل مقيدة، إذ لم تحرك ساكناً. فصاح بها وانج النمر في لهجة حادة:

«إنك طليقة.. وفي وسعك أن تذهبي حينما يروق لك».

لكنها أجابت: «أين أذهب، وليس لي من بيت يأويني في أي مكان؟».

وبينما هي تقول هذا، رفعت رأسها، وتطلعت إليه بنظرة تلوح فيها أمارات السداجة على حين غرة.

وما إن صوبت إليه هذه النظرة، حتى تدفق النبع الحبيس في أعماقه، وانبثقت الشهوة والهوى في دمائه، حتى إن جسده بدأ يرتعش داخل ثيابه العسكرية. وخفض هو عينيه هذه المرة أمام نظرات عينيها، فقد كانت أقوى منه في هذه اللحظة. وعبقت القاعة بأريج هذا الوجد الذي عانى الكبت طويلاً، فأخذ الحراس يتململون في قلق، وهم يحدقون بعضهم

في بعض. ولم يلبث وانج النمر أن تذكر فجأة أنهم واقفون هناك، فزأروا فيهم قائلاً:

«اخرجوا، اخرجوا جميعاً، وقفوا خارج الباب!».

فمضوا إلى الخارج، وقد نكسوا رؤوسهم لأنهم تبينوا في جلاء ما حل بقائدهم، وإن كان ذاك هو الهوى الذي يمكن أن يحل بأي رجل، ربيعاً كان أم ضيعاً. هكذا خرجوا، وانتظروا على عتبة الباب.

ولما لم يبق في القاعة سواهما، مال إلى الأمام خارج مقعده ذي النقوش البارزة، ثم قال لها في صوت جاف أجش:

«إنك طليقة أيتها المرأة. فاختاري المكان الذي ستقصدينه، وسوف أرسل معك رجلاً يصحبك إلى هناك».

فأجابته في بساطة، وقد تلاشت منها كل مظاهر الجسارة، بيد أنها ظلت في أثناء كلامها تسدد سهام لحظها إلى عينيه:

«لقد اخترت طريقي، إنني أمتك».



لو أن وانج النمر كان رجلاً خشناً من السوق يعوزه الشعور بما هو لائق ومشروع، لكان من المحتمل أن يغتصب هذه المرأة وينال منها مأربه، إذ لم يكن لها من أب أو أخ أو أي رجل يذود عنها. غير أن تلك الساعة التي مرت به في صدر شبابه، والتي كانت أشبه بضربة صوبت إلى قلبه، جعلته يدقق غاية التدقيق في مسلكه. بل لقد ازدادت حدة نشوته حين فكر في أنه قادر على الانتظار -رغم كل وجده- ريثما يتمكن من امتلاكها زوجة له. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يريد أن يحصل عليها كزوجة، لأن عاطفته المتأججة نحوها التي أخذت تملك عليه مشاعرها ساعة بعد ساعة، امتزجت أيضاً بالشوق والحنين إلى إنجاب ابن منها، ابنه، أول ابن ينبثق من صلبه. فما من امرأة يمكنها أن تنجب للرجل ابناً شرعياً سوى زوجته الشرعية. أجل، لقد كان نصف نشوة حنيه الغامض إليها ينبعث من تفكيره في ذلك الابن الذي سيصوغانه معاً، هو بفحولته وجسده الضخم الفاره وكل ما يستطيع أن يقدمه إليها من رجولة، وهي بجمالها الثعلبي وروحها الجسور التي لا تهاب شيئاً. وحينما استغرق في هذه الأحلام، أحسن وكأنه ابنه قد خرج إلى الوجود بالفعل.

ثم دعا إليه تابعه الأمين الأشرم على جناح السرعة، وقال له أمراً:
«اذهب إلى أخويّ وأنبئهما بأنني أريد نصيبي من الفضة الذي ادخرته
لي لأحصل عليه حين أرغب في الزواج. إنني أحتاج إليه الآن لزواجي، فقد
عقدت النية على أن أقترن بهذه المرأة. اطلب إليهما أن يعطيني ألف قطعة
من الفضة، إذ يجب أن أقدم إليها الهدايا، وأن أقيم لرجالي وليمة فاخرة
في مثل هذا اليوم، وأن اشتري لنفسي رداءً جديداً يليق بهذه المناسبة. أما
إذا أعطاك أخي ثمانمائة قطعة فقط، فعد بها إليّ، ولا تتوان في انتظار بقية
الفضة. واطلب أيضاً إلى أخويّ أن يأتي لحضور حفل الزواج، هما وكل
من يهتما بإحضاره معهما».

أصغى التابع الأمين إلى هذا الحديث وهو في أشد حالات الجزع
والقنوط، وقد تدلى فكه الأسفل بصورة بشعة، ثم أخذ يتلثم قائلاً في
ألم ممض:

«آه يا قائدي.. آه يا ضابطي.. أتتزوج تلك الثعلبة؟ خذها يوماً..
خذها فترة من الوقت.. لا أن تتزوجها».

فزأر «وانج النمر» في وجهه، وهو يقفز من مقعده منقضاً عليه:
«اصمت أيها الأحمق! هل طلبت منك المشورة؟ سوف أمر بضربك
كأي مجرم عادي!».

فنكس الرجل رأسه في صمت، لكن عينيه اغرورقتا بالدموع، ثم مضى
إلى مهمته بقلب يثقله الحزن، فقد أحس بأن هذه المرأة لن تجلب على
سيده إلا شراً مستطيئاً، وظل يتمتم مراراً في أثناء مسيره على طول الطريق:

«أجل، لقد خبرت هؤلاء النسوة الثعالب! أجل، ولن يصدق قائدي
أبدًا ما أرويه له عن شرورهن! إن هؤلاء النسوة الثعالب يتعلقن، دائمًا
بخيرة الرجال.. هذا هو حالهن دائمًا!».

هكذا مضى الرجل على طول الطريق، وهو يشير بقدميه طبقات
التراب التي تتكاثف في أيام الشتاء الجافة. وكان المارة يحملقون فيه
بدافع الفضول لأنه كان يتمتم وتنحدر العبرات على خديه أحيانًا دون
أن يعي. على أنهم حين يتبينون أنه منصرف عن كل شيء سوى تلك
المشاعر التي تعتمل في قلبه، كانوا يحسبونه فاقد العقل، فيفسحون له
الجانب الأكبر من الطريق.

وعندما جاء هذا التابع الأمين حاملًا رسالته إلى وانج التاجر، دعر
ذلك الأخير، فخرج عن هدوئه الغامض هذه المرة، ورفع عينيه من على
مكتبه الذي كان جالسًا إليه يجمع بعض الحسابات، ذلك أن التابع الأمين
لم يعثر عليه في بيته، فاتجه إلى متجر غلاله مباشرة، حيث وجده هناك
جالسًا إلى مكتبه في أحد الأركان خلف نضد البيع. فرفع عينيه قائلاً في
قلق وانفعال، وقد تسمرت يراعتة في يده:

«لكن كيف يمكنني أن استرد فجأة كل هذا المبلغ من الجهات التي
أقرضته لها؟ كان يجمل بأخي أن ينبئني عندما يعقد خطبته، حتى يعطيني
مهلة عام أو عامين. إن مثل هذه العجلة ليست بالأمر اللائق في حالة
الزفاف!».

ولما كان وانج النمر يعرف طبيعة أخيه ومدى نفوره من التخلي عن

ماله، فقد قال أيضًا لتابعه الأمين قبل أن يمضي في طريقه:

«لو ما طلك أخي، فعليك أن تضغط عليه حتى تصل إلى الغاية المرجوة. بين له في جلاء ووضوح أنني لا بد أن أحصل على المبلغ، ولو أدى بي الأمر إلى المجيء بنفسني للحصول عليه. سوف أنجز مسألة الزواج في زهاء ثلاثة أيام من عودتك. كما أنك يجب ألا تتغيب هناك أكثر من خمسة أيام. ثمة ما يدعوني للإسراع في الأمر، إذ إنني لا أدري كم سيمضي من الزمن قبل أن يرسل عليّ الحكام جيشًا للزحف عليّ؛ لأنني لا آمل في البقاء متواريًا عن الأنظار، عندما يترامى إلى سمع حاكم الأقاليم ما فعلته في أروقة هذا القصر. بل إنه قد يبعث بجنوده لقتالي، ولا يمكن حينذاك أن تقام الأفراح وحفلات الزفاف في ميدان المعركة».

كان هناك جانب كبير من الحقيقة في أن وانج النمر يجب أن يتوقع أن يتردد صدى فعلته العنيفة في أروقة عليّ الحكام، ومن المحتمل حقًا أن يوقعوا به العقاب. على أن هناك حقيقة أعمق من هذه، وهي أنه قد استبدت به الشهوة إلى لقاء هذه المرأة، بحيث لم يكن بوسعها أن ينتظر هذا اللقاء لفترة أطول مما تحتمه الضرورة القصوى. كما أدرك أنه لن يؤتي نفعًا كمقاتل في ميدان الوغى إلى أن يتسنى له امتلاكها آمنًا مطمئنًا، ثم يمكنه بعد ذلك أن ينطلق بذهنه إلى آفاق أخرى. لذلك راح يستحث تابعه الأمين، حتى أصبح ضارياً في حثه، فاستطرد يقول له:

«إنني أعرف جيداً أن أخي ذلك التاجر سيعوي كالكلاب قائلاً إن ماله يوجد الآن حيث لا يمكنه الحصول عليه. فلا تحفل به. بل أخبره أنني

ما زلت أحمل سيفي، نفس السيف الخاطف القاطع الذي أخذته من الفهد بعد أن قضيت عليه!».

بيد أن التابع الأمين احتفظ بهذا الوعيد كآخر سهم في جعبته، فلم يطلقه في بداية الأمر. لم يلجأ إليه إلا عندما بدا له أن وانج التاجر موشك على المماطلة فترة أخرى، متذرعاً بأنه من العار على الأسرة أن تربطها وشائج الزواج بامرأة ليس لها عائلة أو موطن، بل ربما كانت من العاهرات شأن مثيلاتها من النساء. غير أن التابع الأمين لم يذكر له أنها امرأة تنتمي إلى وكر اللصوص. كلا، فبالرغم من أنه كان يتحرق شوقاً إلى ذكر هذه الحقيقة، ويتحرق إلى درء خطر هذه المرأة بأي وسيلة من الوسائل، فإنه كان يعرف طبيعة وانج النمر حق المعرفة، بحيث أدرك أنه سيحصل حتماً على ما أزمع الحصول عليه. ومن ثم لجأ إلى الوعيد في النهاية.

عندئذ تحتم على وانج التاجر أن يطوف مهرولاً هنا وهناك ليجمع ما وسعه من الفضة، على حين كان ذهنه يرزح تحت وطأة هم شديد، لأنه اضطر إلى استرداد المال على هذا النحو المفاجئ، ما سيؤدي إلى ضياع أرباحه، ثم مضى إلى أخيه الأكبر وهو في غاية الكآبة، وقال له:

«إن أخانا الأصغر يطالب الآن بالمبلغ المستحق له عند زواجه، فهو مقبل على الزواج من عاهرة أو أخرى، لم نسمع بها قط من قبل! إنه رغم كل شيء أشبه بك مني».

فحط وانج المالك رأسه، وراح ينقب في ذهنه بحثاً عن إجابة ما، ثم أثر السلامة، فقال:

«إنه لأمر غريب، فقد كنت أعتقد أنه بعد أن يوطد دعائم مستقبله، سيلجأ إلينا عندما يحس بالحاجة إلى الزواج، ويطلب إلينا أن نعقد خطبته بالطريقة اللائقة، ما دام أبونا قد فارق الحياة، وهو الذي كان ينبغي أن يقوم له بهذه المهمة. أجل، بل لقد كنت أفكر له في فتاة أو اثنتين». ومضى يفكر في قرارة نفسه أنه كان بوسعه يقيناً أن ينتقي له فتاة خيراً من أي إنسان آخر، بحكم درايته الفائقة بالنساء، ومعرفته بخيرة فتيات المدينة جميعاً، عن طريق الرواية على أقل تقدير.

بيد أن وانج التاجر كان قد نال منه الغيظ والكمد أي منال، بسبب الضرورة الملحة التي تأخذ بخناقه، فقال له في لهجة ساخرة:

«تأكد أنك قد فكرت له في فتاة أو اثنتين! لكن هذا لا يعينني في شيء. كل ما يعينني في الأمر هو مقدار المبلغ الذي يمكنك أن تدفعه من الألف قطعة التي يطلبها، إذ ليس لدي مثل هذا المبلغ الضخم من النقد، لأخرجه له من جيب منطقتي على هذا النحو المفاجئ».

إذ ذاك، أخذ وانج المالك يحملق بشدة في أخيه، ظل يحملق وهو متكئ بيديه على ركبتيه المكتنزتين، ثم قال في صوت أجش:

«إنك تعرف كل ما أملكه. لا توجد عندي قط أي فضة جاهزة. بع قطعة أخرى من أرضي».

فتأوه وانج التاجر قليلاً، لأن الوقت لم يكن ملائماً للبيع قبل بداية العام الجديد، فضلاً عن أنه كان يعتمد على حصاد القمح المزروع في كل أنحاء الأرض. لكنه بعد أن ارتد إلى متجره، وظل هنيهة يعمل إصبعه

في اللوحة الحاسبة كي يحصي ربحه وخسارته، وجد أن من الأربح له أن يبيع قطعة أخرى من الأرض عن أن يسترد ما له من الجهات التي أقرضه إليها بالربا الفاحش، فشرع في بيع إحدى المزارع الخصبة الوافرة. ولما أعلن عن رغبته في البيع، تقاطر الناس للشراء منه، فباع الأرض لقاء ألف قطعة من الفضة وأكثر منها قليلاً، لكنه لم يعط التابع الأمين سوى تسعمائة قطعة، واحتفظ بالباقي خشية أن يطلب وانج النمر مزيداً من المال.

بيد أن التابع الأمين كان رجلاً سليم الطوية، فلم يطلب المزيد. كما تذكر أن سيده قد أمره ألا يعطل رحيله في انتظار مئة قطعة أو نحو ذلك، ومن ثم شد الرحال حاملاً ما قد حصل عليه. أما وانج التاجر، فقد بادر إلى استثمار الفضة التي لم تطلب منه، وداخله شيء من الراحة لأنه قد وفر هذا المبلغ على أي حال.

ثمة شيء واحد مكدر حدث في هذه الصفقة التي عقدها وانج التاجر، ذلك أنه في عملية بيع الأرض باع قطعة أو قطعتين على مسافة ليست بالبعيدة عن البيت المشيد من الطين، وتصادف حينذاك أن كانت بيوبلوسوم تقف في جرن الحنطة الذي يقع أمام البيت. وحين وقع بصرها على جماعة من الرجال مجتمعين حول المزرعة، ظلت عينيها بيدها، وتطلعت إليهم في وهج الشمس، فأدركت ما يجري هناك. فمضت على عجل حتى وصلت إلى جوار وانج التاجر، وأشارت إليه أن يتخلف قليلاً عن الآخرين، ثم قالت له وقد فتحت عينيها على سعتهما في تعبير ينم عن اللوم:

«أتعودان إلى بيع الأرض؟».

لكنه ما كان ليكدر نفسه بسببها، على حين أن لديه الكثير من المتاعب الأخرى التي تكدر صفوه، لذا قال لها في غلظة وجفاء:

«إن أخي الأصغر مقبل على الزواج. والسبيل الوحيد لإيجاد المبلغ الذي يحق له شرعًا من أجل تحقيق هذا الهدف هو أن نبيع قطعة من الأرض».

عند ذلك تراجعت منكشمة بصورة في غاية الغرابة، ولم تنطق بكلمة أخرى. كلا، بل عادت وئيذًا إلى البيت، ومنذ ذلك اليوم ضاق نطاق حياتها عن ذي قبل. فالوقت الذي لم تكن تقضيه في العناية بالطفلين - كما كانت تسميهما دائمًا - كانت تثابر فيه على الإصغاء إلى تعاليم الراهبات اللاتي يأتين لزيارتها، فقد أصبحت تطلب إليهن في رجاء أن يجئن إليها كل يوم. أجل، وكانت ترحب بهن دائمًا، حتى في أثناء فترة الصباح، حين تكون رؤية إحدى الراهبات من شؤم الطالع، فيصق عليها الكثيرون إذا عبرت طريقهم قبل الظهيرة، لأنهم يعتبرون هذا فألاً سيئًا للغاية.

كما قطعت بيربلوسوم على نفسها عهدًا بأن تمتنع عن أكل اللحم طيلة حياتها، ولم يكن هذا بالأمر العسير عليها، فقد كانت دائمًا تنفر أشد النفور من القضاء على حياة المخلوقات أيًا كان نوعها. أجل، بل لقد بلغ بها الأمر أنها كانت تسدل شبائك النوافذ في ليالي الصيف القائظ، لئلا تطير الفراشات إلى داخل الحجرات، فتحترق في لهب الشموع، وكان هذا في نظرها إنقاذًا لحياة الكائنات من الفناء. لذا، كانت صلاتها الكبرى هي أن تسبقها البلهاء إلى الموت كيلا تحتاج في يوم من الأيام إلى علبة السم الأبيض التي تركها لها وانج لانج لاستعمالها عند الضرورة.

وتلقت تعاليم الراهبات، فراحت تردد الصلوات إلى ساعات متأخرة من الليل، ودأبت على أن تلف حول معصمها مسبحتها الصغيرة ذات الحبات المصنوعة من الخشب المعطر. وعلى هذه الوتيرة كانت بيرلوسوم تمضي أيام حياتها.

بعد أن رحل التابع الأمين، أخذ وانج التاجر ووانج المالك يتشاوران معًا، هل ينبغي أن يذهبا لحضور زفاف أخيهما أم لا. ومع أن كليهما كان يتوق إلى مشاركته ذلك النجاح الذي ظفر به، إلا أن التابع الأمين كان قد غالى في الحديث عن ضرورة الإسراع بالزواج خشية أن يشن عليه الحكام معركة ضد وانج النمر، لذلك داخل الأخوين شعور بالخوف، لأنهما كانا يجهلان مدى قوته، وما إذا كان سيلقى عقابًا عنيفًا في حالة الهزيمة، ما قد يورطهما أيضًا في العقاب على اعتبارهما أخويه. وكان وانج المالك بصفة خاصة يتوق إلى الذهاب ليرى صنف المرأة التي اصطفاها أخوه الأصغر، فقد ذكر عنها التابع الأمين ما يكفي لإثارة اهتمامه. على أن زوجته، حين سمعت بالأمر، قالت في لهجة جادة وقوية:

«إنه لأمر شاذ وفي غاية الغرابة أن يحدث مثل هذا الشغب الذي سمعنا به. كلا، إذ لو أنه عوقب على يد أولئك الذين يعلونه مكانة في الدولة، فمن المحتمل حينذاك أن يقع علينا العقاب جميعًا، فطالما سمعت الناس يقولون إنه إذا اقترف أحد الرجال جريمة التمرد ضد الدولة، فقد يؤدي الأمر إلى الإجهاز على أفراد أسرته حتى تاسع أبناء عمومته».

والحق أن هذه العقوبات كانت توقع في سالف الأيام، حين كان الملوك والأباطرة يكافحون للقضاء على الجريمة في شتى أنحاء البلاد.

وكان وانج المالك قد شهد مثل هذه الأمور في بعض المسرحيات، وسمع عنها من رواة القصص في خيامهم التي كان يحب أن يقصدها لتزجية الوقت، حتى إنه الآن رغم ارتفاعه فوق مستوى هذه التسلية الرخيصة بحيث لم يعد تواتيه الجرأة على الجلوس مع جمهور الدهماء في مثل هذه الأماكن. ما زال يصغي في شغف إلى رواة القصص المتجولين إذا تصادف أن دخل أحدهم إلى مشرب الشاي لسرد حكاياته... حين جالت هذه القصص بخاطره الآن، كسا وجهه الشحوب من شدة الرعب، ومضى إلى وانج التاجر، ثم قال له:

«من الأفضل لنا أن نحفظ لدينا بوثيقة مذيلة بإمضائنا، نقول فيها إن أخانا كان ابنًا عاقًا حتى لقد نبذناه من بيتنا. فإذا اندحر في إحدى المعارك، أو لحق به العقاب، لن نتورط معه، نحن وأبنائنا». في هذه اللحظة فكر في نفسه أنه سعيد لأن ابنه أبى الذهاب إلى عمه رغم كل الملابس، كما وجد متعة في الرثاء لأخيه، فقال له: «إنني متأثر حقًا من أجلك، لأن فلذة كبذك في هذا الخطر الداهم!».

ومع أن وانج التاجر اكتفى بمجرد الابتسام، إلا أنه بعد أعمل ذهنه في الأمر هنيهة، تراءى له أنها فكرة صائبة ينبغي تنفيذها على سبيل الحيلة والحذر. ومن ثم دبج ورقة بين فيها أن وانج الثالث، الشهير بالنمر، كان ابنًا عاقًا، وأنه لم يعد ينتمي إلى الأسرة. وحمل أخاه الأكبر على إمضائها أولاً ثم مهرها هو بإمضائه وحملها إلى بلاط الحاكم، حيث دفع مبلغًا من المال لتختم سرًا. عند ذلك أخذ الوثيقة وخبأها في مكان آمن، حيث لا يحتمل أن يعثر عليها أحد، ما لم تدع إليها الحاجة.

هكذا أحس الأخوان بالأمن والطمأنينة. وعندما التقيا في مشرب الشاي ذات صباح، أخذ يتبادلان النظرات، ثم قال وانج المالك:

«لم لا نذهب الآن لنمرح ونقصف، ما دمنا قد أمانا الخطر؟».

لكن قبل أن يتسنى لهما تدبر الأمر، إذ لم يكونا ممن يسهل عليهم الترحال في هذه السن، ذاعت في كل أرجاء ذلك الإقليم شائعات تناقلتها الأفواه، مؤداها أن حاكم المقاطعة قد ثار ثورة عارمة حين بلغه أن شابًا محدثًا من أهل الريف، لصًا هاربًا من جيش جنرال عجوز في الجنوب، قد استولى على مقعد الحكم في أحد الأقاليم، وأنه سيرسل جيشًا لمقاتلة هذا الشاب والقبض عليه. فقد كان هذا الحاكم مسؤولاً أمام الحكام الذين يعلنونه منصبًا، ولئن فشل في معالجة الأمر، فسوف ينحون عليه باللائمة.

عندما تسربت هذه الشائعات من النزل ومشارب الشاي الواقعة على جوانب الطرق، بل وتأكد أن هناك من هرعوا مغتربين لنقلها إلى الأخوين، عدلا عن مشروع السفر على جناح السرعة، ولزم كلاهما عقر داره فترة من الزمن، وقد سعد كلاهما بأنه لم يتباه قبل الأوان بأن له أخًا يشغل منصبًا رفيعًا، كما كانت فكرة الوثيقة التي مهرت بإمضاءهما وختمت في البلاط تبعث الراحة في قلوبهما. ولئن تحدث أحد أمامهما عن أخيهما الثالث، كان وانج الثالث يقول بصوت جهير:

«لقد كان شاردًا متوحشًا طيلة حياته!».

أما وانج التاجر، فيزم شفتيه الدقيقتين ويقول:

«ليفعل ما يروق له، فأمره لا يعنيننا؛ إذ إنه لا يكاد يكون أخًا لنا».

عندما ترامت هذه الشائعات إلى وانج النمر أيضًا، كان في أوج حفل زفافه، في أوج أيام ثلاثة أقيمت فيها الولائم الفاخرة في شتى أنحاء أروقة القصر. فقد أصدر أوامره أن تنحر الأبقار والخنازير والدجاج بهذه المناسبة، كما أمر بدفع ثمنها كاملاً لأصحابها حالما تساق للذبح. وبالرغم من أنه قد أصبح الآن من السطوة والقوة في هذا الإقليم بحيث يمكنه الاستيلاء على ما يروق له دون مقابل، بل دون أن يجروا أحد على الوقوف في سبيله، لأنه دفع ثمن كل شيء، لأنه كان رجلاً يتصف بالعدالة. وكانت هذه العدالة تستهوي إليه أفئدة العامة، حتى إنهم كانوا يطرونه فيما بينهم، فيقول أحدهم للآخر:

«من الممكن أن تجد من هو أدهى بكثير من ملك الحرب هذا الذي يبسط نفوذه علينا. إنه يملك من القوة ما يدفع به أذى اللصوص عنا، دون أن يسلبنا هو نفسه شيئاً سوى الضرائب. وفي نظري، أننا لا يمكن أن نطمع فيما هو أكثر من هذا تحت قبة السماء».

لكنهم رغم ذلك لم يغالوا في إظهار مشاعرهم نحوه علانية في تلك الآونة، لأنهم قد سمعوا الشائعات أيضًا، فانتظروا ليروا أفي استطاعته أن يظفر بأكاليل النصر في المعركة القادمة. ذلك لأنهم إذا أظهروا ولاءهم له، فسيوجه إليهم اللوم، لو أنه مُني بالهزيمة. أما إذا كتب له النصر، فيمكنهم عند ذلك أن يتشجعوا ويجاهروا بتأييدهم له.

ومهما يكن من أمر، فقد تركوه يأخذ كل ما يحتاج إليه لولائم الزفاف، رغم أنهم تحملوا عناءً شديداً في إعداد الطعام ليأكل هذا الحشد من الناس في آن واحد. فقد رغب وانج النمر في تقديم أفخر صنوف

الطعام هذه المرة، بل إنه طلب ما هو أفخر من الأفخر لنفسه ولعروسه وأتباعه الأمناء والنسوة اللائي يعنين بأمر العروس، وهن بضع عشرة من اللواتي يتسكن هن وهناك في أروقة القصر، كزوجة حارس السجن وزوجات بعض الرجال المسالمين الذين يسيرون في كل ركاب ولا يهتمون من يكون سيدهم، فقد تسلل هؤلاء عائدتين إلى أماكنهم بالقصر في اليوم التالي للانقلاب، وهم على استعداد تام لأن يقسموا يمين الولاء لأي إنسان يكفل لهم الطعام. وأبدى وانج النمر رغبته في أن تلتف النسوة حول عروسه كما يقتضي العرف، لأنه كان بالغ الدقة في العناية بأمرها، حتى إنه لم يقربها طيلة الأيام السابقة لزواجه منها. كلا.. لم يقربها.. مع أنه كان يعاني السهاد أحياناً في أثناء الليل، من كثرة تفكيره وتساؤله عمن تكون، ومن نار حنينه إليها. لكن أقوى من هذه المشاعر كلها كان الشعور الذي يحمله لها بين جوانحه بأنه سيجعل منها أمّاً لابنه، حتى لقد بدا له أن واجبه إزاء ابنه يقتضي منه أن يكون دقيقاً وحريصاً في كل ما يفعله معها.

كم كانت هذه المرأة تختلف حقاً عن بيربلوسوم! لقد كان يعتقد دائماً -إذا فكر في النساء- أنه يفضل الرقيقات الشاحبات منهن، لأن هذه هي الصورة التي رسخت في مخيلته عن المرأة منذ أيام الصبا. أما الآن فلم يعد يهتم بالأمر، قائلاً لنفسه في وحشية إنه لا يهتم بمن تكون هذه المرأة، أو ما تكون، ما دام سيمتلكها وتلتصق به إلى الأبد عن طريق الابن الذي سينجبانه معاً.

في تلك الأيام، لم يكن أحد يدنو منه لأي أمر من الأمور، فقد أدرك أتباعه الأمناء أن شهوته تملك عليه كل كيانه. لكنهم بعد أن ترامت

شائعات الحرب إلى أسماعهم، أخذوا يتشاورون سرًا فيما بينهم، وبذلوا قصارى جهدهم للإسراع بالزفاف حتى يفرغوا منه، فيروي قائدهم ظمأه إلى المرأة، ويصبح مستعدًا لأن يثوب إلى طبيعته، ثم يقودهم إلى الأمام حين يدعو الداعي.

ومن ثم أعدت ولائم العرس بسرعة تفوق ما كان وانج النمر يأمل فيه، وقامت زوجة حارس السجن بدور الوكيله عن العروس. وفتحت أبواب الأروقة على مصاريعها لجميع الناس الذين اهتموا بالمجيء لمشاهدة الزفاف والاشتراك في الولايم. لكن لم يحضر من رجالات المدينة غير عدد قليل، وعدد أقل من النساء، لشعورهم بالخوف، لم يأت سوى المشردين الذين لا مأوى لهم، والذين لا يملكون شيئًا يخشون أن يفقدوه... دخل هؤلاء إلى الحفل كما يدخل الدهماء إلى إحدى حفلات الزواج، وانكبوا على الطعام في نهم، وتفرسوا ملء أبصارهم في العروس العجيبة. على أنهم، عندما ذهبوا يبحثون عن الحاكم الهرم للمجيء به إلى مقعد الشرف في مثل هذه المناسبة - كأمر وانج النمر - عادوا برسالة من الحاكم يبلغه فيها أنه يأسف أشد الأسف لعدم استطاعته المجيء، لأنه يعاني الإسهال ولا يمكنه النهوض من فراشه.

أما وانج النمر، فقد كان يتحرك في يوم زفافه وكأنه في حلم من الأحلام، فهو لا يكاد يعي شيئًا مما يفعله، سوى أن ساعات النهار كانت تتقدم في بطاء بالغ بالنسبة إليه، حتى إنه لم يعد يدري ماذا يفعل بنفسه. وخيل إليه أن كل نفس يلتقطه يستغرق منه ساعة كاملة، وأن الشمس لن تزحف أبدًا إلى كبد السماء فيبلغ اليوم منتصفه، وعندما زحفت الشمس

خيل إليه أنها ستستقر في مكانها إلى الأبد. لم يستطع أن يفرح ويمرح شأن الرجال في حفلات زفافهم، لأنه لم يعرف المرح طيلة حياته. لذا جلس الآن يطويه الصمت - كعهده دائماً - ولم يكن هناك من يمكن أن يتخذ منه مادة للمزاح. كما أنه ظل طوال ذلك اليوم يحس بظماً شديداً، فأفرط في شرب الخمر، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئاً من الطعام، لأنه كان يشعر بالامتلاء كما لو كان قد التهم وجبة هائلة.

أما في الأروقة حيث أقيمت الولائم، فقد تدفق مئات من الرجال والنساء، وجموع الفقراء، وذوو الأسماك البالية، وكلاب الشوارع، للقصف وتناول الطعام والتقاط العظام المتخلفة. في حين جلس وانج النمر في حجرته الخاصة، يخيم عليه الصمت، وترسم على وجهه شبه ابتسامة وكأنه في حلم. وهكذا مضى النهار في ثاقل حتى هبط الليل في النهاية.

بعد أن قامت النسوة بإعداد العروض للقاء الفراش، مضى إليها في حجرتها، فوجدها هناك. كانت هذه أول امرأة يعرفها في حياته. أجل، لقد كان شيئاً عجباً لم يسمع به أحد، أن رجلاً تجاوز الثلاثين من عمره، يعمل بالجندي، وشارد من بيت أبيه منذ كان في الثامنة عشرة، لم يقرب امرأة قط من قبل. على هذا النحو ختم على قلبه في الماضي.

أما الآن، فقد تدفق الينبوع طليقاً من كل قيد، وما من قوة تستطيع أن تغلقه ثانية. وحين بصر بالمرأة جالسة هناك على الفراش، تلاحت أنفاسه بعنف، فسمت إليه بعينيها عندما سمعت رفيف أنفاسه، وأخذت تتملى فيه.

ثم أقبل عليها، فوجد أنها تعتصم بالصمت، لكنها كانت متقدة العاطفة بوَاحة بالهوى على فراش الزواج، فأحبها حبًا عارمًا منذ هذه الساعة، وتراءى له أنها خالية من كل عيب، لأنه لم يعرف غيرها من النساء في ماضي حياته.

والتفت إليها مرة في منتصف الليل، هامسًا في صوت أجش:
«إني لا أعرف حتى من أنت!».

فأجابته في هدوء: «ما أهمية هذا ما دمت معك هنا؟ لكنني سوف أفضي لك بحقيقتي ذات يوم....».

فترك الأمر يمر عابرًا، مكتفيًا بهذا في تلك اللحظة، إذ لم يكن كلاهما من الطراز العادي، ولم تكن حياتهما تسير على النمط المألوف بين الناس. على أن أتباعه الأمناء لم يتركوه يحظى بالمتعة سوى فترة الليل، ففي فجر اليوم التالي انتظروه خارج الباب حتى رأوه يخرج هادئًا منتعشًا من حجرة زواجه. وقال له الرجل الأشرم، وهو ينحني:

«يا سيدي الأفخم، لم نشأ بالأمس أن نفضي إليك بالأمر لأنه كان يوم الفرح والسرور. فقد ترامت إلينا شائعات من الشمال أن حاكم المقاطعة سمع بأمر استيلائك على الحكم هنا، وأنه يزحف جنوبًا لمقاتلتك».

ثم قال الصقر بدوره: «إني سمعتها من شحاذ كان قادمًا من ذلك الطريق. قال إنه قد مر بعشرة آلاف جندي يزحفون على الطريق جنوبًا للانقضاض علينا».

وأضاف جزار الخنازير إلى ذلك روايته، والكلمات تتعثر على شفتيه

الغليظتين من شدة تعجله في الحديث كما طلب إليه:

«إني.. إني سمعتها أيضًا عندما خرجت إلى السوق لأرى كيف يذبحون خنازيرهم في هذه المدينة، أنبأني بها أحد الجزارين».

على أن وانج النمر كان في غاية الطراوة والاسترخاء، وللمرة الأولى لم يستطع أن يحمل نفسه على التفكير في الحرب، فابتسم ابتسامته الباهتة المقتضبة، وقال:

«دعوهم يأتوا إلينا. إني أستطيع أن أثق برجالي». ثم جلس إلى نضد بجوار إحدى النوافذ ليحتسي قليلًا من الشاي قبل تناول الطعام، وكانوا في رابعة النهار، فومض في ذهنه خاطر على حين فجأة، وهو أن هناك ليلاً يقبل في نهاية كل يوم.. بدا وكأنه الآن يدرك هذه الحقيقة للمرة الأولى في حياته، فكم توالى عليه الليالي الأخرى جوفاء لا معنى لها، عدا هذه الليلة الفريدة!

على أن المرأة سمعت حديث أتباعه الأمانة، وهي واقفة وراء الستار تسترق النظر من خلال فرجة فيه، وتبينت على وجههم أمارات الجزع والقنوط لرؤية قائدهم غارقاً في بعض خواطره الخاصة الممتعة. وعندما نهض وانج النمر، ودلف من الحجرة متجهًا إلى حجرة الطعام، نادى المرأة التابع الأشرم في نبرات واضحة، ثم قالت له:

«اذكر لي كل ما سمعته».

فنفر الرجل أشد النفور من التحدث إلى المرأة في أمر ليس من شأنها، وأخذ يتمتم متظاهراً بأن ليس لديه شيء يقوله، إلى أن قالت له

في لهجة أمرة:

«لا تمثل دور الأبله معي، أنا التي شهدت القتال والدماء والمعركة والانسحاب طيلة هذه السنوات الخمس، منذ شببت عن الطوق! تحدث إليّ بالأمر».

فعرته الدهشة والارتباك أمام عينيها الجسورتين اللتين كانت تصوبهما إلى عينية، ولا تخفضهما خجلاً شأن بقية النساء، لا سيما إذا كنَّ حديثات عهد بالزواج، وينبغي أن يطغى عليهن الخجل والحياء. فمضى يحدثها، كما لو كانت رجلاً، عن الأمر الذي يثير خوفهم جميعاً، مبيناً لها كيف يحدق بهم الخطر لأن الجيش الزاحف لقتالهم يفوقهم عدداً، فضلاً عن أن الكثيرين من رجالهم لم يختبر بعد مدى ولائهم إذا نشبت المعركة. عند ذلك صرفته على عجل، وهي تأمره بأن يدعو وانج النمر للقدوم إليها. فلبى النمر نداءها كما لم يلبّ نداء أي إنسان آخر في يوم من الأيام، وهو يتسم في رقة كما لم يره أحد يتسم من قبل. فجلست على الفراش، وجلس بجوارها، ثم رفع طرف كم ردائها، ومضى يتلمسه بأصابعه. كان يرتبك في وجودها أكثر منها، فظل يغض من بصره وهو يتسم:

لكنها بدأت تتكلم في سرعة خاطفة، بصوتها الواضح الذي يتسم بشيء من الحدة:

«لست بالمرأة التي تقف في سبيلك، إذا كانت هناك معركة يجب أن تخوضها. إنهم يقولون لي إن جيشاً يزحف الآن لقتالك».

فأجابها: «من أنبأك بالأمر؟ سوف لا أزعج نفسي بأي شيء طوال

ثلاثة أيام. فقد منحت نفسي هذه المدة إجازة».

قالت: «لكن ما القول لو أنهم اقتربوا عن كذب في خلال هذه الأيام الثلاثة؟».

قال: «لا يستطيع جيش من الجيوش أن يقطع ألفين من الأميال في ثلاثة أيام».

قالت: وكيف يمكنك معرفة اليوم الذي انطلقوا فيه؟».

قال: «إن أبناء الانقلاب لا يمكن أن تكون قد بلغت حاكم المقاطعة في هذه الفترة الوجيزة».

قالت على عجل: «من الممكن أن تكون قد بلغته!».

كان شيئاً عجيباً أن يستطيع هذان الاثنان -المرأة والرجل- أن يجلسا معاً ويتجاذبا أطراف الحديث حول أمر بعيد عن الحب والهوى، ومع ذلك فقد ظل وانج النمر مشدوداً إليها كما كان في أثناء الليل. وتملكه الدهول لأنه وجد امرأة يمكنها أن تتحدث بهذا الأسلوب، إذ لم يكن قد خبر الحديث مع صنف النساء من قبل، بل لقد استقر في روعه دائماً أنهم مجرد طفلات مليحات تقمصن أجساداً طويلة القامة، وكان من دواعي خشيته منهن أنه يجهل مدار كهن ولا يدري كيف يتحدث إليهن. فقد صيغ كيانه على نحو جعله عاجزاً عن الاندفاع كعامة الجنود إلى لقاء المرأة حتى ولو كانت أجيرة محترفة، وكان الجانب الأكبر من تهيئه لصحبة النساء ينبعث من تهيئه للحديث الذي لا بد أن يدور بينه وبينهن. ورغم ذلك، فما هو ذا الآن جالس يتحدث إلى هذه المرأة في سهولة وانطلاق

كما لو كانت رجلاً، وها هو ذا يصغي إليها حين استطردت قائلة:

«إن رجالك أقل عددًا من جيش المقاطعة. وعندما يجد المحارب أن جيشه أصغر من جيش عدوه. فعليه حينذاك أن يلجأ إلى المكر والحيلة».

فضحك عند ذلك ضحكته الصامتة، وقال بطريقة الخشنة:

«حسنًا، إنني أعلم هذا جيدًا، ولولا ذلك لما كنت الآن زوجتي».

إذ ذاك خفضت عينيها بسرعة وكأنها تسدل قناعًا على شيء يحتمل أن يلوح فيهما، وعضت على طرف شفها السفلى، ثم أجابت قائلة:

«إن قتل رجل لهو أبسط أساليب الحيلة، لكن يجب على المرء أن يوقع به أولاً، ثم يقتله. وهذه الحيلة البسيطة لن تجدي نفعًا الآن».

فرد عليها وانج النمر في كبرياء: «إنني مستعد أن أواجه برجلي ثلاثة أمثال هذا العدد من جنود الدولة. لقد دربتهم وعلمتهم فنون القتال طوال هذا الشتاء، وصلبت عودهم بالمرانة على الملاكمة والعدو والمبارزة بالسيف، وعلى شتى خدع الحرب. وليس فيهم من يهاب الموت. وفضلًا عن ذلك، فكلنا يعرف طبيعة جنود الدولة. إنهم يتحولون دائمًا إلى الجانب الأقوى. وما من شك في أن جنود هذه المقاطعة لا يتقاضون أجورًا تزيد على ما يتقاضاه نظرائهم».

فقالت له في شيء من الضجر، وهي تجذب كم رداها من بين أصابعه:

«لم تدبر بعد خطتك! استمع إليّ.. لقد اختمرت خطة في ذهني في أثناء حديثنا. هناك الحاكم الهرم الذي تحتفظ به تحت الحراسة في

بلاطه، عليك أن تستغله كرهينة بصورة ما».

كان حديثها الآن في غاية الجد والاتزان، حتى إن وانج النمر أعارها أذنًا مصغية، رغم أنه دهش لذلك، لأنه لم يكن بالرجل الذي يتشاور كثيرًا مع الآخرين، متوسمًا في نفسه القدرة على تدبير أي أمر من الأمور بمفرده. غير أنه أصغى إليها، وهي تقول:

«انطلق بجنودك، مصطحبًا معك الحاكم. أرغمه على المضي معك، ولقنه ما ينبغي أن يقوله لكي ينطق بما تأمره به. ثم مره بالذهاب لملاقاة الجنرال الذي يقود جيش المقاطعة، على أن يحف به اثنان من أتباعك الأماناء، ليستمعا إلى حديثه، وهما يشهران سيفيهما على أهبة الاستعداد. فإذا لم يذكر ما أمرته به، فدعهما يغمدا نصلهما في أمعائه، فتكون هذه إشارة بدء المعركة. لكن تأكد أن قلبه لا يزيد في شجاعته عن قلب الدجاجة، لذا، فإنه سيقول حتمًا ما تأمره به. مره بأن يقول للجنرال إن كل شيء قد تم برضاه الكامل، وإن الشائعات التي ذاعت عن العصيان ليس لها من باعث سوى تمرد جنراله السابق، وإنه لولا تدخلك لإنقاذه، لسرقت أختام الدولة، ولفقد حياته ذاتها».

وتراءى لوانج النمر أن هذه حيلة رائعة، فمضى يصغي إليها، وعيناه مشدودتان إلى وجهها. وعندما اتضحت له الخطة بأكملها، نهض واقفًا، وهو يضحك دون أن يند عنه صوت، إذ تذكر من تكون هذه المرأة، ثم خرج لتنفيذ ما حدثته به، وجاءت هي في أعقابها مباشرة، فأمر أحد أتباعه الأماناء بأن يذهب للبحث عن الحاكم الهرم، ويأتي به إلى قاعة العدالة. عند ذلك تملك المرأة نزوة ما، هي أن يذهبها ويجلسا في قاعة العدالة

- هو وهي معاً- ثم يأتيها بالحاكم الهرم للمثول أمامهما، فأبدى وانج النمر موافقته، إذ كان لا بد من إرهاب هذا الرجل العجوز إرهاباً كاملاً. ومن ثم جلسا على المنصة، فاحتل هو المقعد المحلى بالنقوش البارزة، وجلست المرأة بجواره في مقعد آخر.

ولم يلبث الحاكم الهرم أن جاء يترنح بين اثنين من الجنود، بدا مرتعداً وقد التف بردائه كيفما اتفق، وراح يتلفت حوله في أرجاء القاعة، وهو في شبه ذهول، فلم يبصر بوجه واحد يعرفه. كلا، بل إن خدمه الذين كانوا قد عادوا أدراجهم إلى القصر، أشاحوا بوجوههم عنه عندما دلف إلى القاعة، وتذرعوا بشتى المعاذير للانصراف بحجة القيام ببعض المهام الأخرى. لم ير الحاكم سوى وجوه الجنود الذين يدينون بالولاء لوانج النمر، وقد اصطفوا حول جدران القاعة، يحمل كل منهم بندقيته، ثم سما بعينيه وقد فغر فاه، وكانت شفتاه العجوزتان ترتجفان وقد علتها الزرقة، وراح يختلس النظر إلى المنصة، فإذا بوانج النمر جالس هناك مقطب الحاجبين، تلوح عليه سيماء الضراوة والفتك، على حين كانت بجواره امرأة غريبة لم يكن الحاكم الهرم قد رآها أو سمع عنها من قبل، فلم يستطع أن يتكهن من أين جاءت مثل هذه المرأة. هكذا وقف أمامهما راعشاً متهيئاً، مستعداً لمواجهة الموت لأن حياته قد انتهت إلى مثل هذه النهاية التعسة، وهو الرجل المسالم الذي كان في زمانه عالماً من أتباع كونفوشيوس.

ثم صاح فيه وانج النمر بطريقته الخشنة الحادة، مع شيء من الأدب والمجاملة:

«إنك الآن في قبضة يدي، ولا بد أن تدعن لأوامري، إذا أردت أن

تواصل الحياة هنا! سنزحف في الغد لمواجهة جيش المقاطعة، وعليك أن تأتي معنا. وعندما نلتقي بهذا الجيش، يجب أن تمضي أنت أولاً في المقدمة، بصحبة اثنين من أتباعي الأمناء، وتقابل الجنرال القادم لمقاتلتي.. قل له إنك قد اخترتني قائداً لجيشك، وإني قد أنقذتك من التمرد الذي اندلع في قصرك، وإني أمكث هنا بمحض اختيارك. سوف يكون تابعاي الأمناء بجوارك هناك للاستماع إلى كل حديثك، فلئن زل لسانك بكلمة واحدة، فإنها ستكون نهايتك، وآخر كلمة تتفوه بها في حياتك. أما إذا تحدثت حديثاً طيباً حسبما أقوله لك، ففي وسعك حينذاك أن تعود إلى هنا، وتشغل مكانك القديم على هذه المنصة. وسوف أحفظ عليك ماء وجهك، فليس هناك ما يدعو لأن يعرف الناس من صاحب السلطة في هذا القصر، لأنني لا أنوي أن أصبح حاكماً صغير الشأن، بل ولا أريد أن يحل رجل آخر مكانك هنا، ما دمت تنفذ ما أمرك به».

ماذا كان بوسع الرجل الضعيف الهرم أن يفعل عندئذ سوى أن يبذل له الوعد بتنفيذ أوامره؟ فقال وهو يتأوه:

«إن مصيري معلق بطرف سيفك. فليكن لك ما تشاء. إني رجل طاعن في السن، وليس لي من ولد، فما أهمية حياتي بالنسبة إليّ؟».

ثم استدار وانصرف من القاعة، وهو يجرد قدميه، ويثن في أثناء مسيره عائداً إلى رواقه الذي تعيش فيه زوجته العجوز ولا تخرج منه على الإطلاق. وحقيقة لم يكن له من أبناء؛ لأن الطفلين اللذين أنجبهما منها ماتا في المهد.

وبعد، فلا يدري أحد هل كان من الممكن تنفيذ الخطة كما دبرها

وانج النمر أم لا، بيد أن قدره المكتوب ظاهره هذه المرة أيضًا. ففي تلك الآونة كان الربيع في أوجه، وقد عادت البراعم تتفتح على أشجار الصفصاف، وانبثقت الأزهار سريعًا من أشجار الخوخ في شتى أنحاء الأرض الطيبة. وحين خلع الفلاحون عنهم معاطف الشتاء، وراحوا يكدحون في الحقول بظهورهم عارية مرة أخرى، تشيع في قلوبهم الفرحة بالأنسام الندية وبأشعة الشمس اللطيفة الدافئة التي تتدفق على أجسادهم اللزجة المعرقة، حينئذ استيقظ أيضًا ملوك الحرب، وامتلاً الريف بروح القلق التي تشيع عادة في الربيع. استيقظ ملوك الحرب تحذوهم الرغبة في العراك، وتفيض قلوبهم بشهوة الحرب ضد بعضهم بعضًا. ومن ثم زال الصدا عن المشكلات القديمة بينهم، فلمعت من جديد، واستعرت الأحقاد الكامنة من الماضي، واستبد الطموح بكل رجل منهم للاستيلاء على منطقة جديدة يسط عليها نفوذه في فترة الربيع الغض.

وقتئذ كان المنصب الرئيس في حكومة الدولة بين يدي رجل ضعيف متخاذل، وكان كثير من ملوك الحرب يتطلعون في لهفة إلى ذلك المنصب؛ إذ يرون مدى سهولة الاستيلاء عليه. فأخذ الكثيرون منهم يحصون عدد الرجال الذين يقفون عقبة في طريقهم، في حين تكتل بعضهم الآخر، وراحوا يتبادلون الرأي كيف يمكنهم أن يمسكوا بزمام الأمور في الدولة، ويخلعوا ذلك الرجل الجاهل المزعزع الذي ولاه الآخرون في هذا المنصب، وكيف يمكنهم أن يولوا مكانه من يقع عليه اختيارهم لتحقيق مآربهم الخاصة.

إذ ذاك، كان وانج النمر لما يزل واحدًا من أصغر ملوك الحرب شأنًا،

لا يكاد يعرف اسمه في دوائر العظام منهم، إلا عندما يثرثر المحاربون فيما بينهم حين يضمهم جمع أو وليمة ما، فيقول قائل منهم:

«أو ما سمعت بالضابط الذي شق عصا الطاعة على قائده القديم، وبسط سلطانه على هذا الإقليم وذاك؟ يقال إنه من البواسل الأشداء. وهو يُدعى النمر لما يعتريه من نوبات الغضب والضراوة، ولما له من حاجبين أسودين».

هكذا سمع به سيد ملوك الحرب بالمقاطعة التي استقر فيها وانج النمر، كما بلغه أيضًا كيف تم له دحر الفهد، واستحسن منه فعلته هذه. كان هذا الرجل واحدًا من ملوك الحرب العظام في الدولة، ومن الذين يضمرون خلع الحاكم الضعيف إذا وجد إلى ذلك سبيلًا. ولئن عجز عن أن يترفع في المنصب بنفسه، فلا أقل من أن يولي فيه رجله المنشود، كيما تنساب إيرادات الدولة بين يديه.

ومن ثم، ففي أثناء ذلك الربيع، حين شاع القلق في كل مكان، أينعت أزهار غريبة تفتحت عن المطامح. وكانت ثمة نداءات ملصقة على بوابات المدن وعلى جدران البيوت، وفي شتى الأماكن التي يطرقها الناس، نداءات يصدرها ملك الحرب في تلك المقاطعة، يقول فيها إنه لما كان الحاكم قد بلغ من الشر مداه، وأصبح الشعب يرزح تحت وطأة الظلم، فإنه لا يطيق احتمال مثل هذه الجرائم أمام عدالة السماء، وإنه رغم ضعفه وعجز حيلته لا بد أن ينطلق بجيشه ليخلص الشعب، وبعد أن خط هذه النداءات، شرع في إعداد العدة للحرب.

أما من ناحية الناس، فقد كانوا يجهلون أمر مخلصهم هذا، إذ ندر

بينهم من يعرف القراءة والكتابة، لكنهم تدمروا من الضرائب الجديدة التي فرضت على أرضهم ومحصولاتهم وعرباتهم، وعلى المتاجر والبضائع في المدن. على أنهم إذا رفعوا أصواتهم بالتذمر أو الشكوى، فقد كان هناك أشياخ ملك الحرب يصغون إليهم ثم يصيحون فيهم قائلين:

«يا لكم من شعب جاحد، تأبون أن تدفعوا حتى ثمن خلاصكم! من غيركم يجدر به أن يدفع نفقات الجنود الذين يضطلعون بالقتال في سبيلكم، حتى يكفلوا لكم الأمن والطمأنينة؟».

هكذا دفع الناس ما تحتم عليه دفعه من الضرائب -مهما كانوا كارهين- لأنهم إن لم يدفعوا فقد يجر ذلك عليهم إما سخط السيد الذي يحكمهم الآن، وإما غضبة السيد الجديد الذي يحتمل أن يقبل ويغزو مقاطعتهم، ثم يلتهمهم من جديد، كالوحش الكاسر في نشوة انتصاره.

بعد أن عزم ملك الحرب في المقاطعة على شن هذه الحرب، كان متلهفًا لأن يضم إلى صفوفه جميع الضباط والجنرالات الصغار. لذلك فإنه عندما سمع بحركة التمرد التي أقدم عليها وانج النمر، قال لحاكم المقاطعة المدني:

«لا تشدد الوطء على ذلك الجنرال الجديد الصغير الذي يدعى وانج النمر، فقد بلغني أنه رجل قوي غضوب يتسم بالضراوة، وأنا أريد أن ينضوي أمثاله تحت لوائي. إن هذه الأمة بأسرها ستنقسم على نفسها، ربما في هذا الربيع، إن لم يكن في هذا العام، ففي العام المقبل، أو الذي يليه، لأن ملوك الشمال سيعلمون الحرب على ملوك الجنوب. عليك إذن أن تعامل هذا الرجل معاملة لينة».

وعلى الرغم مما يقال من أن ملوك الحرب في أي دولة من الدول ينبغي أن يكونوا خاضعين لسلطة الحكام المدنيين، فإن من الأشياء المعروفة التي ثبتت بالدليل القاطع أن السلطة تذهب دائماً إلى قبضة الرجل المدجج بالسلاح، الرجل الذي يملك معدات القتال. إذ كيف يتسنى لرجل أعزل، وإن كان صاحب الحق الشرعي، أن يناوئ رجل الحرب الذي يشاركه في نفس الإقليم، ولديه جنود تحت إمرته؟

هكذا قبض لوانج النمر أن يظهره في ذلك الربيع. فعندما أقبلت جيوش الدولة زاحفة عليه، خرج على رأس رجاله، وأرسل الحاكم الهرم في المقدمة جالساً في هودجه، على حين كمن كثير من جنوده الأشداء الأقوياء في المناطق القريبة، للهجوم في حالة الخيانة. وحين التقوا بالجيش الزاحف، خرج الحاكم من هودجه، ثم مضى يتعثر في الأتربة المتكاثفة على الطريق الريفي، وهو يرتدي ثيابه الرسمية، ويتوكأ على اثنين من أتباع وانج النمر الأمناء. عند ذلك تقدم الجنرال القادم من قبل الدولة لمقابله، وبعد مراعاة فروض المجاملة، قال له الحاكم الهرم في نبراته المتلعثمة:

«لقد أسأت فهم المسألة يا سيدي. إن وانج النمر هذا ليس من فئة اللصوص، إنما هو ضابطي الخاص، وجنرالي الجديد الشاب الذي يبسط حمايته على قصري، والذي أنقذني من حركة تمرد حدثت بين أفراد حاشيتي ذاتها».

ورغم أن الجنرال لم يحمل هذا القول محمل الصدق - فقد بلغته الحقيقة من جواسيسه - ورغم أن هذا الكلام ما كان لينطلي على أحد، فإنه كان قد تلقى الأوامر من رؤسائه ألا يلحق إساءة بوانج النمر، وبألا

يضيع رجلاً واحداً في مثل هذه المعركة التافهة، في حين أن كل بندقية من البنادق لازمة للحرب الكبرى. لذلك فإنه عندما استمع إلى حديث الحاكم، اكتفى بتعنيفه تعنيفاً هيناً، قائلاً:

«كان ينبغي أن تبعث إلينا برسالة عن هذا الأمر قبل الآن، لأننا قد تجشمتنا نفقات فادحة في إحضار الجنود لمعاقبة من اعتقدنا أنه من المتمردين، لذا سوف توقع عليك غرامة لدفع تكاليف هذه المهمة العقيمة، وهي عشرة آلاف قطعة من الفضة».

لما علم وانج النمر أن هذا هو كل ما في الأمر، غمره شعور بالجزل، وعاد على رأس رجاله، تتوج هامته أكاليل النصر. ثم فرض بدوره ضريبة أكثر من المعتاد على كل صنوف الملح في ذلك الإقليم، بحيث حصل على أكثر من عشرة آلاف قطعة في أقل من ستين يوماً، لأن الإقليم كان غنياً بالملح، حتى إنه يصدره إلى مناطق أخرى، بل وإلى أقطار أخرى أيضاً على حد قول البعض.

بعد انتهاء هذه الأزمة، توطدت سلطة وانج النمر عن أي وقت مضى، مع أنه لم يفقد رجلاً واحداً. وتراءى له أن امرأته جديرة بالإكبار، إذ يرجع إليها الفضل في هذا النصر، فأكبرها لحكمتها.

حتى هذه اللحظة كان لا يزال يجهل من تكون أو ما تكون هذه المرأة، ورغم أن الهوى ظل ملهاته الأولى معها، فقد كان يسائل نفسه أحياناً عن قصة حياتها. ولئن سألها عنها، كانت تراوغه دائماً، قائلة:

«إنها قصة طويلة، سوف أفضي بها إليك ذات يوم في الشتاء، حين

يتعذر اندلاع الحروب. أما الآن فنحن في الربيع، زمن خوض المعارك وتوسيع نطاق نفوذك، لا زمن الأحاديث التافهة».

هكذا كانت تتهرب منه، وهي تتململ في قلق، على حين تلمع عيناها في قسوة وصلابة.

ثم أدرك وانج النمر أن المرأة على حق في قولها، فقد طارت الأنباء في شتى أنحاء البلاد بأن حربًا ضروسًا ستشب بين ملوك الحرب في ذلك الربيع، حربًا لم يسبق لها مثيل طوال عشرة أعوام من الحروب بينهم. وانتاب الناس فرح وقنوط؛ لأنهم لا يعرفون من أي بقعة ستصيبهم نيران الحرب التي ترمى إلى أسماعهم أنها مقبلة هنا أو هناك، ومع ذلك كان عليهم أن يفلحوا أراضهم، فقاموا بفلاحتها، كما ظل التجار يعملون في متاجرهم بالمدن، فالرجال يجب أن يكسبوا رزقهم ليعيشوا ويحصل أطفالهم على الطعام، هكذا مضى الناس في شؤون حياتهم، ولئن ارتفعت أصواتهم بالأنين من الهول القادم، فقد راحوا يؤدون أعمالهم، وهم ينتظرون ليروا مصيرهم.

أما في إقليم وانج النمر، فقد اتجهت إليه أنظار الناس جميعًا، إذ كان يحكمهم عندئذ حكمًا سافرًا وطيد الأركان، وصار من المعروف لديهم أن الضرائب تنساب إلى يديه، ومع أن الحاكم ظل هناك كمظهر لسيادة الدولة، إلا أنه أضحى مجرد صورة عفا عليها الزمن، إذ كان وانج النمر هو الذي يأمر وينهي في شتى الأمور. أجل، بل إنه اعتاد أن يجلس على يمين الحاكم في قاعة العدالة، وأصبح الرجل الهرم يتطلع إليه في طلب المشورة عندما تحين لحظة النطق بالحكم. كما أن المبالغ التي كانت

تدفع عادة للمستشارين في الماضي، أصبحت الآن تتدفق إلى يده وإلى أيدي أتباعه الأثمناء. لكنه ظل وفياً لطبيعته، فلئن أخذ المال من الأغنياء، فإنه كان إذا أقبل عليه أحد الفقراء وعلم بحالته، أتاح له حرية الدفاع عن قضيته، لذا أثنى عليه الكثيرون من طبقة الفقراء. ومهما يكن من أمر، فقد اتجهت إليه أنظار الناس جميعاً في هذا الربيع؛ ليروا ما سيقدم عليه، مدركين أنه إذا خاض غمار الحرب الكبرى، فلا مناص من أن يدفعوا له نفقات الجنود الذين سيحتاج إليهم وثمان شراء البنادق.

أما هو، فقد راح يتدبر الأمر جيداً بمفرده ومع امرأته، ومع أتباعه الأثمناء أيضاً. غير أنه لا يزال في حيرة من أمره بشأن أفضل السبل التي تعود عليه بالخير. فقد أصدر ملك الحرب في المقاطعة نداء إلى جميع الضباط والجنرالات وملوك الحرب من الناشئين الذين يعملون لحسابهم الخاص، قال فيه:

«سيروا ورائي مع رجالكم تحت لوائي، فهذه هي الساعة التي يمكننا فيها جميعاً أن نرتقي درجة أو درجتين من سلم المجد، في خضم الحرب».

بيد أن وانج النمر ظل حائراً، هل يلبي نداءه أم لا؟ إذ لم يكن في وسعه أن يتبين أي الجانبين سيظفر في المعركة. ذلك أنه إذا ألقى باسمه وسماعته مع الجانب الخاسر، فإنه سيعود بنفسه القهقري، وربما حطم نفسه تحطيمًا، نظرًا لأنه لم يرتفع إلا حديثًا. فجعل يتدبر الأمر ويمعن التفكير فيه، كما أطلق جواسيسه عيونًا وآذانًا تكتشف له الجانب الأقوى الذي سيعقد له لواء النصر. وفي أثناء تغييهم قرر أن يتلكأ في خوض

المعركة دون أن ينحاز إلى أي الجانبين، وأن ينتظر حتى تشرف الحرب على نهايتها ويتضح الجانب المنتصر، ثم يسارع بالانضمام إليه، وهكذا يتنسم مع الآخرين ذروة الموجة الأخيرة الصاعدة من موجات الحرب، من غير أن يفقد رجلاً واحداً أو بندقية واحدة، ومن ثم أطلق جواسيسه وظل ينتظر الأنباء.

وكان يتحدث في الأمر إلى زوجته في أثناء الليل، فقد ارتبط جبهما وطموحه بصورة في غاية الغرابة، فبعد أن يروي لهيب ظمئه منها، يرقد بجوارها وقد أخذ راحته، ويتحدث إليها في شؤونه كما لم يتحدث إلى أحد قط طيلة حياته. وكان يصب في أذنها شتى الخطط التي تدور في ذهنه، ثم ينهي حديثه عن أحلامه بهذا القول:

«هذا سأفعله. وعندما تنجبين لي ابناً، فسوف يتبلور فيه معنى كل هذا الكفاح».

ولكنها لم تجبه يوماً على هذا الأمل الذي يعتمل في قلبه. وحين كان يلحف عليها في هذا الشأن، كانت تتململ في قلق وتحذثه في بعض أمور الحياة اليومية، وتردد المرة تلو المرة.

«هل رسمت خططك وأعددتها للمعركة الخيرة الفاصلة؟» وكثيراً ما كانت تقول له: «الخديعة هي أروع فنون الحرب، وخير المعارك هي المعركة الأخيرة التي يكون فيها النصر خاطفاً مؤكداً».

ولم يكن يلحظ مطلقاً أي فتور في مشاعرها، فقد كان هو نفسه ملتهب المشاعر.

هكذا راح ينتظر طوال الربيع، وإن كان الانتظار يثير ثأثرته في الظروف العادية، بل إنه ما كان ليتحملة الآن لولا وجود هذه المرأة، فهي جديدة عليه وفي متناول يده. ثم أقبل الصيف، وحصد القمح، فكانت أصوات مدقات الحنطة تدوي طوال اليوم في شتى أرجاء الوديان، فتخترق أشعة الشمس الساخنة الساكنة. وفي الحقول حيث كانت سنابل القمح قائمة من قبل، نمت أعواد قصب السورغو حتى أصبحت طويلة كثيفة وقد انبثقت منها سبلاتها. وبينما وانج النمر ينتظر الأحداث، اندلعت الحروب في كل مكان، وتكتل جنرالات الجنوب معاً شأنهم في ذلك شأن جنرالات الشمال، على أنه ظل ينتظر. وكان يحدوه أمل كبير في ألا يكتب النصر لقواد الجنوب، إذ كان مما يثير اشمئزازه أن يرتبط مرة أخرى بهؤلاء الأفيام الصغار ذوي الوجوه القاتمة. وقد بلغ من فرط اشمئزازه منهم أنه راح يمعن في التأمل أحياناً ويقول لنفسه عابساً إنه إذا كتب النصر للجنوب، فسوف يذهب للاختفاء في جبال إقليمه فترة من الزمن، و ينتظر بدء جولة جديدة من جولات الحرب.

لكنه لم يركن إلى الخمول الكامل في خلال فترة انتظاره، بل مضى يدرب رجاله في تحمس متجدد، كما وسع نطاق جيشه مرة أخرى، فضم إلى صفوفه عدداً كبيراً من الشبان الأشداء الذين جاءوا إليه، وأناط بالجنود الآخرين القدامى مهمة الإشراف على الجدد، وهكذا تضخم جيشه حتى بلغ عشرة آلاف من الرجال. وللائفاق على هذا الحشد رفع بنسبة ضئيلة الضرائب التي يفرضها على الخمر والملح وعلى التجار الرحّل.

على أن المشكلة الوحيدة التي أقلقته باله في ذلك الحين هي

عدم توافر البنادق لديه، فرأى أنه لا بد أن يقدم على أحد أمرين: إما أن يحصل على البنادق متوسلاً بالمكر والحيلة، وإما أن يقهر أحد الضباط الصغار في المناطق المجاورة ويستولي على بنادقه وذخيرته. ومرد هذا أن الحصول على البنادق كان أمراً شاقاً جداً، لأنها سلع أجنبية تستورد من أقطار خارجية. ولم يكن وانج النمر قد فكر في هذه الناحية حين وقع اختياره على إقليمه في المناطق الداخلية التي لا تطل على البحر، فلم يكن ثمة ميناء ساحلي يخضع لسيطرته، فضلاً عن أن الموانئ كانت تحت الحراسة المشددة بحيث لا يراوده الأمل في تهريب البنادق عن طريقها. أضف إلى ذلك أنه كان يجهل اللغات الأجنبية، بل ولم يكن أحد من المحيطين به يعرف شيئاً فيها، ومن ثم كانت تعوزه الوسيلة للتعامل مع التجار الأجانب، لذا تراءى له أنه لا مناص من خوض معركة صغيرة هنا أو هناك للحصول على البنادق أيّاً كان الأمر، لأن الكثيرين من رجاله كانوا بغير بنادق حينذاك.

وقال هذا لزوجته ذات ليلة، فإذا بها تبدي اهتماماً بالأمر على حين فجأة، وتركز انتباهها فيه، رغم أنها كانت في كثير من الأحيان لا تكثر لحديثه، ولا تأبه به على الإطلاق. أما الآن، فسرعان ما قالت، بعد أن ركزت انتباهها في الموضوع:

«ولكنني أظنك قلت يوماً إن لك أخاً يعمل بالتجارة».

فقال لها في عجب: «لي مثل هذا الأخ بالفعل، ولكنه تاجر غلال لا تاجر بنادق».

فصاحت فيه بطريقتها الضجرة المتعالية: «أجل، غير أنك لا تدرك

شيئاً! إذا كان أخوك تاجراً يتعامل مع سواحل البحر، ففي إمكانه أن يبتاع البنادق ويهربها في داخل بضائعه بوسيلة أو بأخرى. لست أدري السبيل إلى ذلك، ولكن لا بد أن هناك وسيلة ما للقيام به».

فأخذ ينعم الفكر في هذه الخطة هنيهة، ومرة أخرى تراءى له أن هذه المرأة أبرع النساء جميعاً، فرسم خطة للتنفيذ بناء على حديثها. وفي اليوم التالي دعا إليه ابن أخيه المجذور الذي استطالت قامته في العام المنصرم، وكان يحتفظ به دائماً على مقربة منه لقضاء بعض الشؤون الخاصة الصغيرة التي يحتاج إليه لقضائها، فقال له:

«عد إلى أبيك، متظاهراً بأنك إنما تعود إلى موطنك لمجرد الزيارة لا أكثر. ولكن عندما تنفرد به أخبره أنني في حاجة إلى ثلاثة آلاف بندقية، وأن عدم توافرها لدي يقف عقبة كؤوداً في طريقي، فالرجال يزدادون عدداً بين صفوف جيشي، من غير أن يزداد عدد البنادق اللازمة لهم، وهم لن يجدوني نفعاً ما لم يكن كل منهم حاملاً ببندقيته. قل لأبيك إنه تاجر يتعامل مع سواحل البحر، ويمكنه أن يفكر في وسيلة ما لتحقيق هدفي. إنني أرسلك بالذات، لأن الأمر يجب أن يبقى في طي الكتمان، وأنت من لحمي ودمي».

فسعد الفتى بالذهاب إلى موطنه، ووعدته في حماسة بالمحافظة على السر، وقد داخله شعور بالفخر لقيامه بهذه المهمة. ثم عاد وانج النمر ينتظر، ولكنه ظل يقبل مزيداً من الرجال تحت لوائه، غير أنه كان ينتقي جنوده في حرص وعناية، ويختبر كلا منهم ليرى أهو من الذين يهابون الموت أم لا!

انطلق الفتى في طريق متعرج متجهًا إلى مسقط رأسه عبر الريف. وقد خلع عنه حُلة الجندي وارتدى ثياب أبناء الفلاحين، فلم يبد في ذلك الرداء الأزرق الخشن، بوجهه الداكن المجذور، سوى صبي قروي خليق بأن يكون حفيد وانج لانج. وكان يمتطي حماره الأبيض العجوز، متخذًا له سرجًا من معطف ممزق مطوي تحته، وبين الفينة والفينة يلكز الحمار أسفل بطنه بقدميه العاريتين ليحثه على المسير. ولم يدر بخلد أحد ممن رأوه راكبًا الحمار على هذا النحو - وهو بين اليقظة والنوم تحت شمس الصيف اللافحة - أنه يحمل رسالة لجلب ثلاثة آلاف بندقية إلى ذلك الإقليم الوادع المسالم. فإذا لم تأخذه سنة من النوم، فهو ينشد نشيد الحرب والجنود، لأنه كلف بالغناء. وهو إذا فعل هذا توقف بعض الفلاحين عن عملهم في الحقول، والتفتوا إليه في انزعاج، ثم تبعوه بنظرات محملقة، بل إن أحدهم صاح مرة من خلفه:

«عليك اللعنة لأنك تنشد نشيد الحرب، أتبغي جلب الغربان السود لتحوم حولنا ثانية؟».

على أن الفتى كان مرحًا لا يعبأ بشيء، فراح يبصق هنا وهناك على التراب في الطريق؛ ليظهر أنه لا يبالي بهم، وأنه سيستمر في الغناء إذا

رغب في ذلك. والحقيقة أنه لم يكن يعرف أي نشيد آخر، فقد عاش زمنًا طويلًا بين المحاربين المغامرين، وليس من المتوقع أن ينشد الجنود نفس الأغاني التي ينشدها الفلاحون في حقولهم الهادئة الوادعة.

وفي ظهيرة اليوم الثالث وصل إلى بيته، وبينما هو ينزل من فوق حماره عند ملتقى الطريق الجانبي بالطريق الرئيسي، إذا بابن عمه الأكبر يسير هناك متسكعًا في تراخ. وما إن رآه، حتى أخذ يحملق فيه، وتوقف عن تناؤب كان قد شرع فيه، ثم قال له على سبيل التحية:

«حسنًا، ألم تصبح جنرالًا بعد؟».

فرد عليه الفتى المجدور في سرعة ولباقة:

«كلا، ولكنني قد خطوت أولى الدرجات على الأقل!».

قال هذا ساخرًا بعض الشيء من ابن عمه، إذ كان من المعروف للجميع أن وانج مالك الأرض وزوجته طالما أسهبا في الحديث عن أنهما سيخلقان من هذا الابن عالمًا من العلماء، وأنه في الفصل الدراسي التالي سيتقدم للامتحان في كذا وكذا من فنون المعرفة، ومن ثم يصبح من العظماء. بيد أن الفصل الدراسي ولَّى، ثم انقضى العام وأقبل عام آخر، من غير أن يؤدي امتحانًا قط. وقد أدرك الفتى المجدور أن ابن عمه هذا لم يكن في طريقه الآن إلى أي مدرسة، بل إلى أحد مشارب الشاي، فما من شك أنه قد نهض لتوه من الفراش، واهنًا مترهلًا، بعد ليلة قضاها هنا أو هناك. أما ابن مالك الأرض، فقد كان شابًا متأنقًا يستخف بالآخرين، فشمّل ابن عمه نظرة فاحصة، وقال له:

«لعلك جنرال في المرحلة الأولى، إلا أنك لم تضع بعد معطفاً
حريريّاً على ظهرك!».»

ودون أن ينتظر سماع رد منه، مضى في طريقه وهو يتبختر في مشيته،
حتى إن ثيابه الحريرية، ذات اللون الأخضر كلون شجر الصفصاف التي
بدأت تورق، كانت تتمايل أيضاً وتهتز مع خطواته التي تليق بالعظماء. أما
الفتى المجذور، فقد ضحك ضحكة كشفت عن أسنانه، وأخرج لسانه
وراء ظهر ابن عمه، ثم مضى إلى بيته.

وعندما خطا إلى داخل فناء بيته كان كل شيء كعهده به، وكان الوقت
موعد وجبة الغداء، وكان الباب المؤدي إلى البيت مفتوحاً، فرأى أباه
جالساً بمفرده إلى المائدة يتناول الطعام، والأطفال يمرحون هنا وهناك
وهم يأكلون كدأبهم دائماً. في حين وقفت أمه عند الباب، وقد رفعت
الوعاء إلى شفيتها، وراحت تدفع الطعام بالعصي إلى داخل فمها. كانت
تلوك الطعام وهو تثرثر مع امرأة من جيرانها -قدمت لتستعير منها شيئاً
ما- بشأن سمكة مملحة اختطفها القط في الليلة السابقة رغم أنها كانت
معلقة عالية على أحد الأعمدة. فلما رأت ابنها صاحت به قائلة:

«حسناً، لقد عدت في الوقت المناسب لتناول الطعام، فما كان يمكن
أن تختار وقتاً أنسب من هذا!». ثم مضت في ثرثرتها.

فابتسم لها الفتى ابتسامة فاترة، ولم يقل شيئاً سوى أنه هتف باسمها،
ومضى إلى داخل البيت، فأوماً له أبوه في شيء من الدهشة، فهتف الابن
باسمه في خضوع، ثم ذهب وأخذ لنفسه وعاء وزوجاً من العصي، وملاً
وعاءه من الطعام الذي وضع على المائدة. ثم انتحى جانباً وجلس على

حافة المقعد، كما يجب على الأبناء أن يفعلوا إذا ما جلسوا في حضرة من يعلونهم منزلة.

ولما فرغوا من تناول الطعام، صب الأب قليلا من الشاي في وعاء الأرز، لكن في شح وتقتير، إذ كان مقتراً في كل ما يفعله. وأخذ يحتسي الشاي رشفة رشفة في أناة، ثم قل لابنه:

«هل تحمل رسالة ما؟».

فأجاب الابن: «أجل، ولكن لا يمكنني أن أفضي بها هنا».

قال هذا لأن إخوته وأخوانه تجمعوا من حوله وهم يحملقون فيه صامتين، فقد كان في حكم الغرباء بالنسبة إليهم، لذا راحوا ينصتون بشغف إلى كل كلمة يتفوه بها.

عندئذ كانت الأم أيضاً قد أقبلت، لتملأ وعاءها، مرة أخرى، إذ كانت في غاية الشراهة، فهي تظل تأكل فترة طويلة بعد أن يفرغ زوجها من الأكل ويخرج من البيت. وراحت هي أيضاً تتفرس في ولدها، ثم قالت: «قسماً لقد استطالت قامتك بما لا يقل عن عشر بوصات! لكن لم ترتدي معطفاً مهلهلاً كهذا؟ ألم يمنحك عمك أفضل منه؟ ماذا يطعمونك لتنمو هكذا؟ أقسم إنه لحم شهبي وخمر».

فعاد الفتى يتسم ابتسامة فاترة، وقال: «لدي ثياب حسنة، لكني لم أرتدها هذه المرة، كما أننا نتناول لحمًا كل يوم».

ذهل وانج التاجر لهذا القول، فصاح في اهتمام غير مألوف منه:

«عجباً! أيطعم أخي جنوده لحمًا كل يوم؟».

فبادر الصبي قائلاً: «كلا، ولكنه يفعل هذا الآن لأنه يعدهم للحرب، فهو يريد أن يجعل منهم رجالاً ضواري، تتدفق في عروقهم الدماء. غير أنني أتناول اللحم عادة لأنني لا أعيش مع عامة الجنود. وقد أتناول ما يتخلف من عمي وامراته في الأوعية.. أنا وأتباعه الأمناء».

هنا قالت أمه في شغف: «خبرني عن امرأته هذه! لقد كان شيئاً غريباً أنه لم يدعنا لحضور زفافه».

«لقد فعل» قالها وانج التاجر بسرعة، مدرّكاً أن هذا الحديث لن ينتهي إذا بدأ، واستطرد قائلاً: «أجل، لقد دعانا بالفعل، ولكنني قلت إننا لن نذهب، فذهابنا كان سيكلفنا أكداً من الفضة، وربما احتجت لملابس جديدة وهذا وذاك للظهور أمامهم بالمظهر اللائق في حالة ذهابك».

فقالت المرأة في مرح شديد وبصوت عال:

«حسنًا، أيها البخيل الهرم، إنني لا أذهب أبداً إلى أي مكان و...».

غير أن وانج التاجر تنحى وقال لابنه:

«هلم معي، إذ لا يوجد أمان هنا».

ثم نهض واقفاً ونحى أولاده عنه، لكن دون خشونة، وخرج وابنه في إثره.

سار يتقدم ابنه في الطريق حتى بلغا أحد مشارب الشاي الصغيرة التي لا يغشاها كثيراً، حيث اختار نضداً في ركن هادئ هناك، وقد كاد المشرب يكون خاوياً، إذ كانت ساعة لا يقبل فيها كثير من الرواد، فقد باع المزارعون أحمالهم وانصرفوا إلى بيوتهم، ولم يقبل بعد رواد المشرب

من أهل المدينة لتبادل أحاديث ما بعد الظهيرة. وهناك، في هدوء واطمئنان، أدلى ابن وانج التاجر بالرسالة التي يحملها.

وأصغى وانج التاجر إلى حديث ابنه في اهتمام بالغ، دون أن ينبس ببنت شفة، حتى فرغ من الكلام. ولما انتهى من حديثه، لم يبد أي تغيير على ملامح وجهه.

كلا، ففي الوقت الذي كان من الممكن أن تمتلك وانج المالك الدهشة لهذا الأمر، فيدير حدقتي عينيه ويقسم إن من المتعذر تحقيقه، نجد أن وانج التاجر قد أصبح في الخفاء على درجة عظيمة من الثراء بحيث لم يعد يتعذر عليه شيء. ولئن ساوره التردد يومًا، فما كان ذلك إلا ليتبين هل سيعود الأمر عليه بالنفع عند القيام به أم لا. فقد استثمر ماله في شتى الجهات، واقترض منه الناس لقضاء شتى حاجاتهم، بل كانت له أموال في المعابد البوذية، أقرضها للكهنة بضمن ضياع المعابد، ذلك لأن الناس في تلك الأيام لم يكونوا يتصفون بالتقى والورع، كما كان حالهم في الماضي، فكانت النساء فقط -العجائز منهن عادة- هن اللاتي يعبأن بالآلهة، لذا أصبحت المعابد تعاني الفقر، فتخلت عن ضياعها المزدهرة. كما كان وانج التاجر يستثمر أمواله في السفن النهرية والبحرية، وفي السكك الحديدية، بل لقد استغل مبلغًا ضخماً في فتح مآخوور بالمدينة، ولو أنه لم ينزل به في يوم من الأيام. ولم يدر مطلقاً بخلد أخيه الأكبر، حين ذهب للهو في ذلك المآخوور الجديد العظيم الذي افتتح قبل عام أو نحو ذلك، أنه ملك لأخيه. على أنه كان عملاً يعود بالريح الوفير على وانج التاجر، فقد اعتمد فيه على طبيعة البشر.

هكذا كانت أمواله تتدفق في مئات من القنوات الخفية، حتى إنه لو استرد ماله من المدينين على حين غرة، لشقي آلاف من الناس. ومع ذلك لم يتحسن مستوى طعامه كمًّا أو كيفًّا عن ذي قبل، ولم يكن يقامر مثلما يفعل أي رجل غيره يملك من المال ما يفيض عن حاجته للمأكل والملبس، بل ولم يسمح لأولاده بارتداء المعاطف الحريرية، فما كان أحد ليتخيل مدى ثرائه حين يراه أو يلمس أسلوبه في حياته. ومن ثم كان في استطاعته أن يفكر في الثلاثة الآلاف من البنادق الأجنبية، دون أن يعتريه الذهول مثل وانج المالك لو أنه في مكانه. أجل، فلو أن أحدًا رأى هذين الشقيقين معًا في الطريق، لتبادر إلى ذهنه أن وانج المالك هو البالغ الثراء، لما ينفقه من ماله في سفه، ولما يتمتع به من بدانة هائلة، وهو يتدحرج في أرديته المصنوعة من الحرير والأطلس والفراء. كما أن أبناءه كانوا جميعًا يرتدون الثياب الحريرية، عدا الأحذب الصغير الذي يعيش مع بيربلوسوم، فقد شب إلى طور الرجولة الهادئة هناك بجانبها، ليطويه النسيان يومًا بعد يوم.

راح وانج التاجر ينعم الفكر هنيهة، وقد خيم عليه الصمت. ثم قال لابنه في النهاية:

«هل ذكر لك أخي شيئًا عن نوع الضمان الذي سأحصل عليه حين أقرضه مبلغًا جسيمًا كهذا لشراء البنادق؟ لا بد لي من ضمان وطيء، إذ إن شراءها مخالف للقانون».

فاستطرد الفتى قائلاً: «لقد قال، أخبر أخي أنه إذا لم يثق بكلمتي، فعليه أن يستولي على كل الضياع التي أمتلكها، بمثابة ضمان للدين، ريثما

يتسنى لي جمع الإيرادات لسداد ثمن البنادق. لقد وضعت يدي على كل الإيرادات في هذا الإقليم، لكن ليس بوسعي أن أنفق مبلغًا جسيمًا دفعة واحدة، دون أن أسبب عناء لرجالي!».

فقال وانج التاجر، وهو يتأمل في الأمر: «لست أرغب في مزيد من الأرض، فقد كانت هذه السنة عجفاء هنا، وكادت تحدث مجاعة، فأصبحت الأرض بخسة، ولهذا، فكل ما تبقى له من الأرض لن يفي بالغرض، فضلًا عن أن نفقات زفافه قد التهمت مساحة كبيرة من ضياعه».

حينئذ قال الفتى في حماسة، وقد لمع في وجهه بريق عينيه الصغيرتين السوداوين، وبدا عليه الاهتمام البالغ:

«الحق أن عمي رجل في غاية العظمة. يا ليتك ترى كيف يهابه كل إنسان! لكنه مع ذلك طيب القلب، فهو لا يقتل بقصد القتل فحسب. حتى حاكم المقاطعة يهابه ويخشاه، أما هو، فلا يهاب شيئًا. كلا، فمن سواه كان يجرؤ على الزواج من امرأة يدعوها الجميع بالثعلب؟! إنك إذا بعثت إليه بهذه البنادق، فسيكون معناها بالنسبة إليه قوة وسلطانًا أعظم من ذي قبل».

ومع أن كلمات ابنه لم تهز مشاعره هزًّا عنيفًا، فقد كان فيها شيء من الحقيقة، الأمر الذي دفعه إلى التصميم، ذلك أنه مما سيعود عليه بالنفع العظيم أن يكون له أخ من ملوك الحرب العتاة. أجل، فإن نشبت حرب ضروس يومًا ما، كما ترامت الشائعات في تلك السنين، وامتدت إلى هذه المنطقة - فمن يدري أين تتجه الحرب؟ - فقد تغتصب ممتلكاته الهائلة وتنهب نهبًا، إن لم يكن على أيدي جنود الأعداء، فربما على أيدي الفقراء الخارجين على القانون. إذ إن وانج التاجر لم يعد الآن يحتفظ بثروته

كلها في الأرض، بل إن كل ما يملك من ضياع لم يكن شيئاً يذكر بجانب البيوت والمتاجر وعمليات الربا، ومثل هذه الثروة قد تسلب منه في سرعة خاطفة، حين يحصل الناس على حرية السلب والنهب، فيجعلون من الغني فقيراً في أيام معدودات، ذلك إن لم تكن لديه قوة خفية في مكان ما، لتبسط عليه حمايتها وتقدم إليه يد العون، إذ دعت الحاجة على حين غرة في أي وقت من الأوقات.

لذلك فكر في نفسه أن هذه البنادق قد تكون بمثابة حماية له هو أيضاً يوماً ما، وامتد به التأمل في كيفية شرائها وتهريبها إلى داخل البلاد. كان في إمكانه القيام بهذه المهمة، فهو يملك الآن سفينتين صغيرتين تنقلان الأرز إلى أحد الأقطار الخارجية المجاورة. وقد كان تصدير الأرز بهذه الطريقة مخالفاً للقانون، فتحتم عليه أن يقوم به في الخفاء، إلا أنه كان يعود عليه بربح وفير، ينفق منه على الرشوة، فقد كان الحكام متراخين، وإذا ما رفع لهم الثمن، تغاضوا عن سفينتيه الصغيرتين اللتين تعمد أن يحتفظ بهما في حجم صغير، وصبوا جام غضبهم وحماستهم للقانون على السفن الأجنبية أو على بعض السفن الأخرى التي لا تجلب لهم خيراً.

ومن ثم فكر وانج التاجر في سفينتيه اللتين تعودان فارغتين أحياناً من ذلك القطر الخارجي، أو بنصف حمولتيهما فقط من الأقمشة القطنية أو من اللعب الأجنبية، وجال بخاطره أن بوسعه تهريب البنادق الأجنبية بين تلك السلع بمنتهى اليسر. أما إذا قبض عليه، فيمكنه أن يوزع المال هنا وهناك، ويعطي كلا من رباني سفينتيه قدرًا من المال، يغلق به أفواههما، فيجعل من الصمت شيئاً قيماً له ثمنه بالنسبة إلى الجميع. أجل، كان

بوسعه أن يفعل هذا. عندئذ قال لابنه، بعد أن تلفت حوله أولاً ليتأكد أنه لا يوجد أحد بمقربة منهما، زائر أو خادم فضولي، وكان يتحدث من بين أسنانه دون أن يحرك شفتيه، هامساً في صوت لا يكاد يسمع:

«يمكنني نقل البنادق إلى الساحل، بل حتى إلى بقعة معينة تمتد عندها السكك الحديدية إلى أقرب مكان لأخي، ولكن كيف يمكنني نقلها عبر أراض قاحلة، تقطع في أكثر من يوم، وما من سبيل للسفر فيها إلا على الأقدام أو على ظهور الدواب؟».

لم يكن وانج النمر قد ذكر للفتى شيئاً بهذا الصدد، ولذلك لم يكن بوسعه إلا أن يحك رأسه في غباء ويحملق في أبيه قائلاً:

«يجب أن أعود إليه لأسأله عن هذا الأمر».

فقال وانج التاجر: «أخبره أنني أستطيع أن أدس البنادق بين بضائع من نوع آخر تحمل أسماء أخرى، ثم أنقلها إلى نقطة معينة، على أن يحصل عليها بطريقة ما من هناك».

بهذه الرسالة عاد الصبي إلى عمه. رحل في اليوم التالي مباشرة، بعد أن قضى تلك الليلة في بيته، حيث أعدت له أمه صحيفة يحبها، تحوي أرغفة صغيرة من الخبز المدخن بداخلها لحم الخنزير والثوم، صحيفة شهية للغاية. فأكل من هذه الأرغفة حتى امتلأ، أما ما تبقى منها، فقد دفع به في صدر رداءه ليأكله في الطريق. ثم مضى ممتطياً حماره في طريق متعرج عائداً مرة أخرى إلى وانج النمر.

حدث في أثناء الشهر التالي أمر لم يكن وانج النمر بكبريائه وعجرفته، ليؤمن بصدقه لو أنه بلغ مسامعه. فقد سرت حمى الحرب في كل أرجاء ذلك الإقليم عندما تواترت الأنباء أن ملوك الحرب العظام قد أشعلوا نار الحرب، وشطروا البلاد إلى شطرين. في هذه الحمى المستعرة استيقظت في كل مكان النفوس الصغيرة المحبة للحرب، فالرجال الخاملون العاطلون، وأولئك الذين لا يرغبون في العمل، وعشاق المغامرة، والأبناء الذين لا يكونون الحب لآبائهم، والمغامرون الخاسرون في الميسر، وكل إنسان متضجر صغير الشأن، كل هؤلاء اغتنموا الفرصة للظهور والقيام بنوع من الاستعراض.

وفي ذلك الإقليم بالذات حيث أصبح وانج النمر يتولى زمام الحكم باسم الحاكم الهرم، تجمع أولئك المتمردون في عصابات، وأطلقوا على أنفسهم اسم «العمائم الصفراء»، إذ كانوا يرتدون شرائط صفراء اللون حول رؤوسهم، وبدأوا يعملون السلب والنهب في أنحاء الريف. كانوا في البداية يقتربون بعض الجرائم الصغيرة في حذر وتهيب، كأن يأخذوا

عنوة طعام أحد الفلاحين في أثناء مرورهم به، أو يدخلوا «خاناً» ريفياً ليأكلوا وينصرفوا دون دفع الثمن، أو يدفعوا جزءاً فقط من ثمن وجبتهم، ثم يستعرضوا نظراتهم الشرسة ويرفعوا من أصواتهم عالياً معبرين عن رغبتهم في الشجار حتى يخشى صاحب «الخان» حدوث ضجة، فيتلع خسارته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولكن هذه «العمائم الصفراء» ازدادت جرأة وبطشاً كلما تضخمت أعدادها، وبدأوا يتطلعون للحصول على البنادق، لأن بنادقهم لم تكن تعدو ذلك العدد القليل الذي يملكه الجنود الفارون بينهم. هكذا تبادوا في جراتهم على السلب والنهب من عامة الناس، إلا أنهم لم يعتدوا بعد على أي مدينة كبرى، واقتصروا نشاطهم على القرى والكفور الصغيرة. وفي النهاية جاء إلى وانج النمر بعض الفلاحين الذين يتسمون بالشجاعة أكثر من غيرهم، فأفصوا إليه بالأمر، وبينوا له أن اللصوص ازدادوا جرأة، لأنهم لم يجدوا من يكبح جماحهم، فهم يقبلون للسرقة ليلاً، وإن لم يجدوا كل ما يشتهون، قتلوا أهل البيت من الفلاحين وكأن شيئاً لم يحدث. بيد أن وانج النمر كان متردداً في تصديق هذه الرواية، ذلك لأنه عندما بعث بجواسيسه ليستوضحوا الأمر من الفلاحين الآخرين، خشي الضعاف منهم التفوه بالحقيقة، وأنكروا الأمر برمته، ومن ثم لم يحرك وانج النمر ساكناً لفترة من الزمن، استخفافاً منه بالمسألة، لأنه كان يتجه بكل تفكيره حينذاك إلى اختيار اللحظة الملائمة للظهور على مسرح الحرب الكبرى.

غير أن حر الصيف اللافح أقبل في تلك الآونة، وتغلغت جيوش كثيرة صوب الجنوب، فانضم بعض الجنود إلى عصابة اللصوص تحت

تأثير الغواية والإغراء، فازداد اللصوص زيادة هائلة في العدد والجسارة. وفي هذا الفصل من السنة، أصبحت عيدان قصب السورغو سامقة في تلك البقاع، ما جعل منها مخبأ ملائمًا تمامًا للصوص، فتمادوا في جرأتهم، حتى لقد بلغ الموقف حدًا لم يجرؤ معه الناس على السفر عبر الطريق العام إلا في جموع كبيرة.

لا نستطيع الجزم ما إذا كان وانج النمر قد صدق مدى ما وصل إليه الأمر من سوء، لأنه كان إلى حد ما تحت رحمة رجاله، ولا بد له أن يؤمن بآراء جواسيسه وأتباعه الأمناء، الذين كانوا يغالون في إطرائه، ويحملونه على الاعتقاد بأنه لا يوجد من يجرؤ على الوقوف في وجهه. على أنه حدث ذات يوم أن قدم إلى القصر شقيقان من الفلاحين المقيمين في الريف غربًا، يحملان معهما حقيبة من القنب. وأبيا أن تفتح هذه الحقيقة ليرى محتوياتها كائن من كان، وأجابا في حزم وإصرار على كل ما وجه إليهما من أسئلة قائلين:

«هذه الحقيقة للجنرال».

وقد سمح لهما الحراس بالمرور من البوابات اعتقادًا منهم أنهما يحملان هدية إلى وانج النمر، فدلفا إلى قاعة العدالة حيث كان جالسًا، فقد اعتاد أن يقضي هذه الفترة من اليوم هناك. وبعد أن انحنيا أمامه في امتثال، فتحا الحقيبة المصنوعة من القنب دون أن يتفوها بكلمة، ثم أخرجا منها زوجين من الأيدي البشرية، أحدهما يدا امرأة طاعنة في السن، ضامرتان جافتان من الكد والكدح، وقد تشقق جلدهما الداكن وجف تمامًا، أما اليدان الأخريان، فكانتا لرجل هرم، وقد تصلبت راحتهما من

كثرة القبض بهما على المحراث. ورفع الخوان هذه الأيدي من أطرافها المبتورة حيث تجمدت الدماء وأصبحت الآن جافة سوداء. ثم قال الأخ الأكبر، وهو رجل في منتصف العمر، شديد الحماسة والغضب، ذو وجه ربع يوحى بالشرف والأمانة:

«هذه أيدي أبويننا، وهما الآن جثتان هامدتان! فمنذ يومين انقض اللصوص على كفرنا، وحين صرخ أبي العجوز قائلاً إنه لا يملك شيئاً قطعوا يديه، وعندما لعنتهم أمي العجوز في بسالة بتروا يديها أيضاً. وكنا نحن الاثنين في الحقول حينذاك، أما زوجتنا، فقد لاذتا بالفرار وجاءتا إلينا صارختين، فحملنا مذارينا وعدنا راكضين. لكن اللصوص كانوا قد فروا، إذ لم تكن عصابتهم كبيرة العدد، فهي لا تتجاوز ثمانية أو عشرة لصوص، وكان أبوانا طاعنين في السن. ورغم ذلك لم يجرؤ أحد في القرية على مد يد المعونة إليهما، خشية أن يسام العذاب يوماً فيما بعد. يا سيدي إننا نمحك إيرادنا. وندفع لك ضريبة فادحة علاوة على الضريبة التي يجب أن ندفعها للدولة، ندفع على الأرض والملح، وندفع على كل ما نشترى ونبيع، ونحن نفعل هذا لتحميننا من اللصوص. فما الذي ستفعله في هذا الشأن؟».

ثم رفعاً أيدي والديهما الهرمة الضامرة المتصلبة.

غير أن وانج النمر لم يستول عليه الغضب لسماع هذا الحديث الجريء، كما قد يفعل الكثير من الرجال لو أنهم في موقفه. كلا، بل استولت عليه الدهشة عند سماعه القصة، وغضب، لا لأن الفلاحين تجاسروا على الكلام، ولكن لأن مثل هذا الشيء يمكن أن يحدث في

الإقليم الذي يسيطر عليه. فصاح مستدعيًا ضباطه، فقدموا واحدًا بعد الآخر من هنا وهناك، حتى اجتمع حوالي خمسين منهم في القاعة.

ثم التقط بنفسه الأيدي الميتة من حيث كانت ملقاة - لا حول لها ولا قوة - على أرضية القاعة المغطاة بالقرميد، وأخذ يريها لهم جميعًا قائلاً: «هذه أيدي اثنين من الفلاحين الطيبين، نُهبًا وسُلبًا في وضح النهار، في حين كان ابناهما يكدحان في الحقول! من منكم يبادر بالهجوم على هؤلاء اللصوص؟».

فحملق الضباط فيها، واستفزهم المنظر، وثاروا لأن اللصوص تجاسروا على نهب أرض تخصهم، فراحوا يتمتمون فيما بينهم، ويقولون هنا وهناك:

«أندع هذا يستمر في أرض لنا فيها الحق الأول؟»، «أيعظم خطر هؤلاء اللصوص الملاحين في أرضنا؟» وصاحوا: «دعنا ننتقل للهجوم عليهم!».

فالتفت وانج النمر إلى الأخوين قائلاً:

«عودا إلى بيتكما في ثقة واطمئنان. سينطلق هؤلاء الضباط لقتالهم في الغد، وسوف لا يهدأ لي بال حتى أعرف زعيم هؤلاء اللصوص، كي أعامله كما عاملت الفهد!».

عندئذ تكلم الأخ الأصغر، فقال:

«يا سيد الأكرمين، يبدو أن ليس لهم زعيم بعد، فهم يتجولون في عصابات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض، لا يربط بينها سوى الاسم،

وهم يبحثون عن أحد الرجال الأقوياء ليجمع شملهم».

أجابه وانج النمر: «إذا كان ذلك كذلك، فإنه سيسهل علينا أمر تشتيتهم».

قال الأخ الأكبر في صراحة: «ولكنك لن تقضي عليهم قضاء مبرماً». ثم تلبث الأخوان الريفيان، وكأن لديهما مزيداً من القول لا يدریان كيف يفصحان عنه. وأخيراً، بعد أن أحس وانج النمر برهة بالضجر في قرارة نفسه لعدم انصرافهما، أدرك أنهما لا يوليانه ثقتهما، فداخله شيء من الغضب، وقال لهما:

«أتشكان في قوتي، أنا الذي قضيت على الفهد، اللص العاتي في زمانه، الذي جثم على أنفاسكم لأكثر من عشرين عاماً؟».

فتبادل الأخوان النظرات، وابتلع الأخ الأكبر ريقه، ثم استطرد قائلاً في ببطء:

«يا سيد الأكرمين، ليس الأمر كذلك، فقط لدينا شيء نود أن نقوله لك على حدة».

فالتفت وانج النمر إلى ضباطه الذين كانوا لا يزالون واقفين من حوله، وصاح بهم أن ينصرفوا ويعدوا رجالهم. فلما انصرف الجميع ما عدا واحداً أو اثنين ممن يحتفظ بهم دائماً في صحبتته، خر الأخ الأكبر على وجهه، وقرع الأرض برأسه ثلاث مرات ثم قال:

«لا تغضب يا سيد الأكرمين غضباً شديداً، فنحن رجال فقراء، وعندما نسأل المعروف لا يسعنا إلا أن نطلبه فحسب، فنحن لا نملك ما لا

لدفع رشوة نضمن بها المساعدة».

فقال وانج النمر في دهشة:

«ماذا تقول؟ إني لا أنقاضي منكم رشوة إذا سألتهموني مطلباً يمكنني أدواه».

فأجاب الرجل في ذلة وخضوع: «عندما عزمنا على المجيء هنا اليوم، حاول إخواننا القرويون أن يحولوا دون مجيئنا، إذ قالوا إننا إذا أتينا بالجنود إلى قرانا، فقد يكونون أنكى من اللصوص، لأنهم يطلبون الكثير، ونحن قوم فقراء لا بد أن نكدح لنقيم أودنا. إن اللصوص يأتون ثم يمضون، أما الجنود، فإنهم يقيمون في بيوتنا، ويتطلعون إلى بناتنا، ويأكلون ما ندخره للشتاء، دون أن نجرؤ على صدهم لأنهم مدحجون بالسلاح. يا سيد الأكرمين، إذ كان جنودك سيسلكون هذا المسلك عندما يأتون إلينا، فلتبقهم لديك، أما نحن، فسوف نقاسي ما هو محتوم علينا».

ولما كان وانج النمر رجلاً طيب القلب، فقد ثارت ثائرتة حين سمع هذا، فنهض وهتف يدعو ضباطه للحضور مرة أخرى. وما إن قدموا ثانية، كل اثنين أو ثلاثة معاً، حتى صاح فيهم كالرعد، وقد قطب حاجبيه وعبس وجهه:

«إن هذا الإقليم الذي أسيطر عليه من الصغر بحيث يستطيع الجنود الذهاب والعودة في ثلاثة أيام، وهذا ما يجب أن يفعلوه! يجب ألا يتغيب رجل من رجالي أكثر من ثلاثة أيام. ولئن حل أحدهم ببيوت الفلاحين، فسوف أقتله قتلاً. أما إذا تغلبوا على اللصوص وكسروا شوكتهم،

فسأجل لهم العطاء من الفضة والطعام والخمر، ولكن عليكم أن تدركوا أنني لست رئيس عصابة أتزعّم زمرة من اللصوص!« وحملق في ضباطه بنظرة بلغ من شراستها أنهم أسرعوا يبذلون الوعد بتنفيذ أوامره.

هذا ما فعله وانج النمر، ثم صرف الأخوين يحملان وعده بالقضاء على اللصوص، وقد أخذوا معهما أيدي أبويهما بعد أن أعاداهما في وقار وتبجيل إلى الحقيبة المصنوعة من القنب، حتى يتسنى دفن جثتي العجوزين كاملتين بكل أعضائهما، ثم ارتدا إلى قريتهما، وهما يلهجان بالشئاء على وانج النمر.

على أن وانج النمر بعد أن صرف الأخوين، جعل يفكر متأنياً فيما وعد به، فأحس بشيء من الجزع حين تبين إلى أى مدى قد حملته طيبة قلبه، وجلس في حجرته يتدبر الأمر بذهن واع تماماً، فهو لا يريد أن يفقد خيرة رجاله وينادقه في معركة مع اللصوص. وكان يدرك كذلك أنه يوجد حتماً بين صفوف جيشه، مثلما يوجد في كل الجيوش، بعض الخاملين المتكاسلين الذين يتطلعون إلى مكان أكثر ملاءمة لهم، وهؤلاء يمكن إغراؤهم بأن ينضموا إلى اللصوص ويأخذوا بنادقهم معهم. لذلك جلس هناك يتأمل ويفكر في أنه قد تسرع وتأثر أكثر من اللازم بما أتى به الشقيقان من دليل.

وبينما هو جالس هناك أقبل عليه رسول يحمل إليه خطاباً من أخيه وانج التاجر، ففرض الغلاف وأخرج الخطاب وقرأه، فوجد أخاه ينبئه في كلمات مغلفة ملفوفة أن البنادق قد وصلت وستترك في مكان محدد في يوم معين، وأنها خبيئة في زكائب الغلال التي جلبت ليصنع منها الدقيق

في مطاحن الشمال الكبرى.

ظل في حيرة شديدة من أمره كما كان من ذي قبل، لأنه يجب أن يحضر البنادق بطريقة أو بأخرى، على حين أن رجاله قد تفرقوا في أنحاء الريف للهجوم على اللصوص، فمكث هنيهة يلعن ذلك اليوم في قرارة نفسه. وبينما هو جالس دخلت عليه المرأة التي يهيم بها حبًا، وهي تسير في ليونة وتراخ على غير عاداتها، فقد كان إذ ذاك منتصف يوم من أيام الصيف القائظة، ولم تكن ترتدي سوى معطف وسروال من الحرير الأبيض، وقد حلت أزرار ياقة معطفها عند العنق، فظهر جيدها ممتلئًا وفي غاية النعومة وأشد شحوبًا من وجهها.

وعلى الرغم من كل متاعبه، فلم يتمالك نفسه حين رآها، وأخذ بمنظر جيدها الجميل، فنحى متاعبه جانبًا برهة من الزمن، وهفا إلى أن يلمس عنقها الشاحب بأنامله، فانتظر حتى تقترب منه. ولم تلبث أن اقتربت، ثم أتكَأت على المنضدة وقالت له وهي تنظر إلى الخطاب الذي كان لا يزال ممسكًا به:

«هل هناك ما يكدرك حتى تبدو غاضبًا مكفهرًا إلى هذا الحد؟» ثم تريت وضحكت قليلًا ضحكة صغيرة عالية، واستطردت: «أرجو ألا أكون أنا السبب في متاعبك، إذ إنني أخشى أن تصرعني بتلك النظرات السوداء التي تلوح عليك الآن!».

فمد إليها الخطاب دون أن ينبس بكلمة، لكنه ظل يثبت عينيه على جيدها العاري، متأملًا نعومة الشية التي تؤدي إلى صدرها. فقد بلغ به الموقف مع هذه المرأة أنه أصبح يفضي إليها بكل أسرارها في تلك الفترة

الوجيزة من زواجهما. ومن ثم تناولت منه الخطاب وقرأته، فداخله حينئذ شعور بالفخر أنها تعرف القراءة واعتبرها آية في الجمال تفوق ما عداها وهي منحنية برأسها على الخطاب، بينما شفتاها الدقيقتان المحددتا المعالم تتحركان قليلاً في أثناء القراءة. وكان شعرها ناعماً مضمخاً بالزيت، ومعقوصاً عند عنقها في شبكة صغيرة من خيوط حريرية سوداء، وقد تدلى قرط ذهبي من أذنيها.

بعد أن قرأت الخطاب دسته ثانية داخل غلافه، ووضعه على حافة النضد، في حين كان وانج النمر يرقب يديها الرشيقتين السريعتين الدقيقتين، ولم يلبث أن قال:

«لا أدري كيف يتسنى لي الحصول على تلك الزكائب المليئة بالغلال، لا بد أن أحصل عليها بخدعة أو بقوة ما».

فقلت المرأة في نعومة: «ليس هذا الأمر العسير. الخدعة والقوة أمرهما هين. لقد اختمرت في ذهني خطة في أثناء قراءتي للخطاب. فما عليك إلا أن ترسل فرقة من رجالك كما لو كانوا الصوصاً كالذين يتحدث عنهم الناس في هذه الأيام، ودعهم يتظاهروا بسرقة الغلال لحساب أنفسهم. ومن ذا الذي يعلم أنك تمت إليهم بصلة؟».

ما إن قالت هذا حتى ضحك ضحكته المكتومة، إذ تراءى له أنها خطة في غاية الحكمة، وجذبها نحوه لأنه كان منفرداً بها في الحجرة -فعادة ما ينصرف الحراس خارج الباب كلما حضرت المرأة- وأشبع نفسه من لمس يديه الخشتين على جسدها الناعم، ثم قال:

«لم توجد قط امرأة في مثل حكمتك! عندما أجهزت على الفهد في ذاك اليوم، كم أسبغت على نفسي من نعمة بذلك العمل!». .

وبعد أن روى ظمأه منها، خرج من الحجرة واستدعى الصقر إليه وقال له:

«إن البنادق التي تحتاج إليها توجد في مكان يبعد نحو ثلاثين ميلاً من هنا، يلتقي عنده الخطان الحديديان. وهي مخبأة في زكائب الغلال كما لو كانت ستشحن من هناك إلى مطاحن الشمال. خذ معك خمسمائة رجل وتزودوا بالسلاح وارتنوا ثياباً كالتي ترتديها جماعة اللصوص. ثم اذهبوا إلى هناك، واستولوا على تلك الزكائب، متظاهرين بأنكم تنقلونها إلى أحد الأوكار. وعليك أن تستعد بالعربات والحمير في مكان قريب لتنقل الزكائب إلى هنا بما فيها من غلال وكل شيء».

وكان الصقر رجلاً فطناً حاذقاً، يعتمد على فطنته متوسلاً بالمكر والخديعة، في حين يعتمد جزار الخنازير على قبضتيه الهائلتين اللتين كانتا في حجم القدور الفخارية. وكانت مثل هذه المهمة الماكرة تصادف هوى في نفس الصقر، فانحني ممثلاً لوانج النمر، ثم استطرد هذا قائلاً: «عندما تنقل كل البنادق إلى هنا، ثق أنني سأجزل لك العطاء، وسأكافئ كل جندي على قدر عمله».

ولما فرغ من هذا الأمر، عاد إلى حجرته، وكانت المرأة قد انصرفت من هناك، فاستلقى على مقعده ذي المساند المصنوع من الخشب المحفور، وقد نسجت قاعدته من البوص للتهوية، ثم حل منطقته وأزارار

سترته عند العنق، إذ صار اليوم كالسكير من شدة القبط. هنالك جلس في استرخاء يفكر في عنقها والثنيات المؤدية منه إلى صدرها، وهو يعجب أن جسد الإنسان يمكن أن يكون في مثل ليونة جسدها، وأن البشرة يمكن أن تكون على هذا القدر من النعومة.

ولم يلحظ مطلقاً أن خطاب أخيه قد اختفى، فقد أخذته المرأة ودسته في صدر ردائها حيث لن تصل إليه يد، حتى يده.

وبعد أن مضى نصف يوم على رحيل الصقر، أخذ وانج النمر يتنزه وحيداً في نسيم الليل الرطيب قبل أن يدلف إلى حجرته للنوم. كان يتمشى في الفناء بمقربة من بوابة جانبية تفضي إلى شارع صغير لا تطرقه سوى قلة من المارة في النهار فقط. وفي أثناء مسيره سمع صوت «جدجد»، لم يعره انتباهاً في بادئ الأمر، لأنه كان مستغرقاً في أحلامه. على أن «الجدجد» استمر في صريه، حتى بلغ الصوت مسامعه في النهاية، فخطر له أن «الجدجد» لا يظهر عادة في ذلك الوقت من السنة، وبدافع من الفضول العقيم التفت ليرى أين يختبئ. كان الصوت ينبعث من ناحية البوابة، فراح يلقي ببصره نحوها في الظلمة المتكاثفة، وإذا به يتبين شخصاً قابلاً بجوارها لا تكاد تتضح معالمه. فوضع يده على سيفه وخطا إلى الأمام، وهناك في الظلمة المتكاثفة رأى وجه ابن أخيه المجدور، وقد التفت نحوه يعلوه الشحوب. ولم يلبث الفتى أن همس لاهثاً:

«لا تصدر صوتاً يا عماه! لا تخبر زوجتك أنني هنا. بل تعال خارجاً إلى الشارع حينما تتمكن من ذلك، وسأنتظرك عند أول مفترق للطريق. لدي شيء أريد أن أنبئك به، وهو لا يحتمل الانتظار».

إذ ذاك اختفى كالشبح، ولكن وانج النمر ما كان ليبتظر ما دام بمفرده، فمضى في إثر الشبح، وبلغ مكان اللقاء قبله، ثم رأى ابن أخيه مقبلاً يتسلل في الظلام بجوار جدران البيوت، فقال له في دهشة شديدة:

«ماذا ألم بك حتى تأتي متسللاً ككلب مضروب؟».

وهمس الفتى قائلاً: «صه! لقد كلفت بالذهاب إلى مكان بعيد. فلو أن زوجتك رأتني هنا... وهي امرأة بلغ من براعتها أنني لست أدري من أرسلت لمراقبتي.. فقد قالت إنها ستقتلني إذا تفوهت بشيء، وهذه ليست أول مرة تهددني فيها!».

فلما سمع وانج النمر هذا، عجز عن الكلام من شدة ذهوله، ورفع الفتى حتى كاد يعلو به عن الأرض، ثم جذبته في ظلمة أحد الأزقة حيث أمره أن يتكلم، فألصق الفتى فمه بأذن وانج النمر وقال:

«لقد أرسلتني امرأتك بهذا الخطاب إلى شخص ما، لا أعرف من هو، إذ إنني لم أفضه، وسألته إن كنت أعرف القراءة، فقلت لا: كيف يمكنني القراءة وقد نشأت في الريف؟ فأعطتني هذا الخطاب، وأخبرتني أن أسلمه لرجل معين سيقابلني الليلة في مشرب للشاي بالضاحية الشمالية، وقد أعطتني قطعة من الفضة لهذا الغرض».

ثم دس يده في صدر ردائه وأخرج خطاباً، فأخذه وانج النمر في صمته. ومن غير أن ينبس بكلمة أخذ يسير بخطى واسعة عبر الزقاق، متجهاً إلى شارع صغير حيث يفتح رجل حانوتاً صغير منعزلاً لبيع الماء الساخن. وهناك، على ضوء مرتعش ينبعث من مصباح زيتي يتدلى من

مسمار في الحائط، فض الخطاب وقرأه، فتبين في جلاء أن هناك مؤامرة ضده. فهي - امرأته - قد أفضت إلى شخص ما بأمر بنادقه! أجل، أمكنه أن يتبين أنها قد قابلت شخصاً ما، أخبرته بالأمر، كما أصدرت إليه أمراً نهائياً في الخطاب، إذ كتبت تقول:

«عندما تحصلون على البنادق وتجمعونها سوف أحضر إليكم».

عندما قرأ وانج النمر هذا الخطاب، أحس وكأن الأرض التي يقف عليها تميد تحت قدميه، وكأنما السماء قد سقطت عليه لتسحقه. لقد أحب هذه المرأة حباً عارماً من أعماق قلبه، فلم يتخيل مطلقاً أنها يمكن أن تخونه. بل لقد نسي كل تحذير وجهه إليه تابعه الأمين الأشرم، ولم يعد يلحظ قط عينيه المنكستين دائماً في تلك الأيام. إذ كان يحب هذه المرأة إلى حد لم يعد يتحرق شوقاً إلا إلى شيء واحد، هو أن تنجب له ابناً. أجل، فطالما سألها مراراً وتكراراً، وبكل شوق ولهفة في كل مرة، عما إذا كانت قد حملت منه طفلاً. وقد بلغ من حبه لها أنه لم يدر بخلده أنها يمكن أن تصد حبه في أعماق قلبها، بل لقد كان في هذه الساعة بالذات ينتظر الذهاب إلى حبيبة قلبه، ينتظر ظلمة الليل ليحظى بوصولها.

وها هو ذا يتبين الآن أنها لم تحبه قط، واستطاعت أن تتآمر ضده على هذا النحو، في نفس اللحظة التي ينتظر فيها تحول اتجاه الحرب ليخطو خطواته العظمى إلى الأمام.

استطاعت أن تتآمر ضده على هذا النحو، ثم ترقد في سريره طوال الليل وتتصنع الأسف حينما يسألها عما يتعلق بابنه. وفجأة بلغ منه الغضب مبلغاً لم يستطع معه التقاط أنفاسه، واستيقظ في أعماقه الغضب

القديم الأسود، أشد سوادًا من سابق عهده به. وأخذ قلبه يخفق ويزأر مدويًا في أذنيه، وغامت عيناه، وانعقد حاجباه بشدة حتى لقد استولى عليه شعور بالألم.

وكان ابن أخيه قد اقتفى خطاه ووقف في الظلام بجوار الباب. بيد أنه قذف به جانبًا دون أن ينبس بكلمة، فلم يلحظ قط في ثورة غضبه العارمة، أنه قد ألقى بالصبي في قسوة على أحجار الطريق المديبة الحادة.

وعاد إلى جناحه في خطوات فسيحة، تحمله أجنحة الغضب، وفي طريقه إلى هناك استل سيفه من غمده، سيف الفهد الفولاذي القاطع، وأخذ يمسح به على فخذه في أثناء مسيره.

ثم اتجه مباشرة إلى الحجرة حيث كانت ترقد المرأة في فراشها، ولم تكن قد أسدلت الستائر بسبب القيظ. هناك كانت ترقد، وكان البدر في تلك الليلة قد بزغ على جدار الرواق، فسقط ضوءه عليها وهي ترقد عارية في فراشها لترطب جسدها، بينما يداها مبسوطتان، تستقر إحداها مثنية نصف مفتوحة على حافة الفراش.

لكن وانج النمر لم ينتظر، ولم يتريث على الرغم من أنه رأى كم هي جميلة، جميلة كتمثال من المرمر في ضوء القمر، وعلى الرغم من إدراكه من خلال ثورته أن هناك ألمًا في أعماقه أشد وطأة من الموت. في تلك اللحظة تعمد أن يتذكر كيف أنها خدعته، وكان من الممكن أن تخونه. وبدافع من هذه القوة الجياشة، رفع سيفه وأغمده بخفة وإتقان في عنقها مباشرة، الذي كان متجهًا إلى أعلى، على حين كان رأسها مستلقيًا على الوسادة. وثنى السيف مرة واحدة بحدة ثم استله منها ومسحه في غطاء

الفراش الحريري.

لم ينبعث من شفثيها سوى صوت واحد، بيد أن الدماء أخدمته، فلم يع وانج النمر ماذا قالت، ولم تحرك ساكنًا سوى أن ذراعيها وساقها اندفعت إلى أعلى، وجحظت عيناها لحظة أن كان سيفه في عنقها، ثم لفظت النفس الأخير.

غير أن وانج النمر لم يتوقف ليتأمل ما قد فعل. كلا، بل اندفع في خطوات فسيحة إلى الفناء، وصاح برجاله، فأسرعوا إليه راكضين، وألقى إليهم بأوامره، فظة قاطعة تحت تأثير الغضب. وكان لزامًا عليه أن يخف الآن لنجدة الصقر دون أن يتوانى لحظة واحدة، وأن يرى ما إذا كان بوسعه الوصول إلى البنادق قبل أن يصل إليها اللصوص. فأخذ معه كل من تبقى من رجاله عدا مائتين تركهم تحت قيادة تابعه الأشرم، وقاد الآخرين بنفسه إلى الخارج.

وفي أثناء عبور البوابة وقع بصره على الرجل الهرم الذي يقوم بالحراسة هناك، وهو ينهض متائبًا من فراشه، وقد تملكه الدهول من هذه الضجة المفاجئة. فصاح فيه وانج النمر، وهو يمر به ممتطيًا صهوة جواده: «ثمة شيء في حجرتي التي أنام فيها! امض واحمله خارجًا واقذف به في إحدى القنوات أو البرك! تول هذا الأمر قبل عودتي!».

ومضى في طريقه، متشامخًا في كبرياء، وهو يغذي نار غضبه، لكنه أحس في حنايا صدره كأن قلبه يقطر الدماء خفية في مراكز الحيوية من جسده، ومهما استغرق في التأمل وحاول أن يذكر لهيب غضبه، فقد ظل

قلبه يقطر بلا توان، خفية في أعماقه. وأخذ فجأة يئن في قلق، غير أن أحداً لم يسمع أناته التي ضاعت مع الوقع الرتيب لسنابك الخيل على الطريق المترب. بل ولم يكن هو نفسه يعي أنه يئن المرة تلو المرة.

ظل وانج النمر ورجاله يجوبون أرجاء الريف طوال تلك الليلة واليوم التالي بحثاً عن الصقر، وأشعة الشمس تضرب رؤوسهم في قسوة، لأنه كان يوماً سكنت فيه الرياح. ومع ذلك، فقد أبى أن يسمح لرجاله بالراحة، إذ كان يطوي في أعماقه ذلك الغضب الذي لا يمكن أن يهدأ أو يستكين. وقرب المساء، التقى بالصقر على رأس فرقه من الجنود المشاة عند الطريق الرئيس الذي يمتد شمالاً وجنوباً. وفي بادئ الأمر لم يستطع أن يقطع إن كان هؤلاء هم جنوده أم لا، لأن الصقر قد نفذ ما أمر به، فطلب من رجاله أن يرددوا ثيابهم الداخلية البالية، ويلفوا المناشف حول رؤوسهم، فكان على وانج النمر أن ينتظر حتى يقتربوا منه ليتبين من هم.

وتبين له آخر الأمر أنهم رجاله فعلاً، فترجل من على ظهر جواده الأحمر، وجلس تحت إحدى أشجار النخيل التي كانت تنتصب هناك على جانب الطريق، إذ كان الإرهاق النفسي قد نال منه كل منال، فانتظر حتى اقترب منه الصقر. وكلما انتظر ازداد خوفاً من أن تخمد نار غضبه، فراح يحمل نفسه على أن يتذكر كيف خدعته المرأة، وقد طغى عليه ألم وحشي. غير أن السر في ألمه وغضبه كان يكمن في أنه ما زال يحبها رغم موتها، ويتوق إليها في وله ووجد رغم اغتباطه لقتلها.

وقد أضفى عليه هذا الألم الغاضب سمناً في غاية العبوس والفظاظة، فلما أقبل الصقر زمجر في وجهه، وهو لا يكاد يرفع عينيه اللتين كادت

تختفيان تحت حاجبيه، وقال له:

«حسنًا، أقسم إنك لم تحصل على البنادق!».

غير أن الصقر كان يحمل لسانًا طلقًا في وجهه الشاحب الهزيل، وله طبع متحفز في كبرياء، ما جعل منه رجلًا مقدامًا، فأجابه بحدة وحرارة دون أن يجنح إلى كلمات المجاملة على الإطلاق:

«من أدراني أن اللصوص سيحاطون علمًا بأمر البنادق؟ لقد نقلت إليه الأنباء عن طريق جاسوس أو آخر، فذهبوا هناك قبلنا. كيف يتسنى لي تدارك الأمر إذا كان قد بلغهم قبل أن تخبرني به أنت؟» وبينما هو يتحدث ألقى ببندقيته على الأرض وشبك ذراعيه على صدره، وهو يحملق ثائرًا في قائده، ليظهر له أنه لم يغلّب على أمره.

كان وانج النمر ما زال يرى وجه العدالة في موقف الصقر، فنهض متضجرًا من على الحشائش حيث كان جالسًا، ووقف تحت شجرة النخيل متكئًا على ساقها الخشنة المشعثة، ثم حل منطقته وأحكم رباطها حول خصره قبل أن يشرع في الكلام، لكنه في نهاية الأمر قال في سأم وضجر وقد طغت عليه المرارة:

«أظن أن كل بنادقي قد ضاعت إذن. ولزامًا عليّ أن أقاتل اللصوص للحصول عليها. حسنًا، إذا لم يكن من القتال بد، فسوف نقاتلهم». وانتفض في صبر نافذ، ثم بصق على الأرض، وهو يستحث نفسه للعمل، واستطرد قائلاً بلهجة أكثر قوة وعزيمة:

«فلنذهب لنعثر عليهم، ونضيق عليهم الخناق. ولئن سقط نصف

عددكم صرعى في المعركة، فهذه منيتكم، وليس لي في الأمر حيلة! لا بد أن أحصل على بنادقي. وإذا كلفني كل بندقية حياة عشرة رجال أو نحو ذلك، فسوف أجد عشرة غيركم مقابلها، فالبنقدية تساوي هذا الثمن!».

ثم اعتلى ظهر جواده مرة أخرى وقبض على زمامه بعنف عندما أخذ يتراقص جيئةً وذهاباً في ضجر لأنه انتزع من بين الحشائش الغضة هناك، في حين وقف الصقر يرقب الموقف بكآبة، وأخيراً قال:

«إنني أعرف جيداً مكان اللصوص. فهم يتجمعون معاً في الوكر القديم، وأقسم إن البنادق معهم. أما اسم زعيمهم، فلا أعرفه، غير أنهم منهمكون في العمل منذ أيام قلائل حتى الآن، وقد تركوا الريف يعيش في هدوء وسلام في أثناء تجمعهم معاً، وكأني بهم يتأهبون لاختيار زعيم لهم».

كان وانج النمر يعلم تمام العلم من التي كانت ستصبح زعيمة لهم، لكنه لم يقل شيئاً سوى أنه أصدر أمراً لرجاله بالزحف لمهاجمة ذلك الوكر قائلاً:

«سنمضي إلى هناك، ثم تطلقون النيران عليهم، وعندما ينتهي إطلاق النيران، سأتفاوض معهم، وأتيح لكل رجل منهم يأتي ببندقية معه فرصة للانضمام إلى صفوف جيشي. كما أنني سوف أمنحكم قطعة من الفضة مقابل كل بندقية يبصر بها أحدكم فيلتقطها ويأتي بها إليّ». ولما فرغ من قوله، امتطى صهوة جواده مرة أخرى.

وللمرة الثانية مضى. يخترق ممرات الوادي المتعرجة، عبر التلال المنخفضة الواقعة عند سفوح الجبال حتى بلغ الجبل ذا القنتين، يتقدم

رجاله من خلفه في ثيابهم الرثة. وكان الفلاحون في حقولهم يرفعون رؤوسهم ويتطلعون إليهم في عجب، فيصبح الجنود:

«إننا ننطلق لمهاجمة اللصوص!».

فكان بعض الفلاحين يردون عليهم أحيانًا بحرارة قائلين: «إنه لعمل طيب!» بيد أن الكثيرين منهم لم يتفوهوا بشيء، بل راحوا ينظرون في حلق ومرارة إلى الجنود وهم يدوسون بأقدامهم في أرجاء الحقول المزروعة حبوبًا وكرنبًا وبطيخًا، وذلك لاعتقادهم أن الجنود لا يمكن أن يقوموا بأي عمل طيب، فقد ضاقوا بهم ذرعًا.

وللمرة الثانية اعتلى وانج النمر التلال المحيطة بسفوح الجبال، وعند سفح الجبل ذي القنتين حيث يتعرج الطريق إلى أعلى بين الصخور، ترجل وقاد جواده ورائه، فحذا حذوه كل رجاله الذين على ظهور الجياد. لكنه لم يعرهم اهتمامًا، وأخذ يمضي على طول الطريق وكأنه يسير بمفرده، منحنيًا بجسمه نحو الجبل، وهو يفكر في المرأة وكيف أنه أحبها بهذه الصورة الغريبة، وما زال يحبها، حتى لقد كان يبكي في أعماقه، ولا يكاد يرى الطحالب النامية على الدرجات تحت قدميه. ولكنه لم يكن نادمًا على قتلها. كلا، فرغم حبه لها، أدرك من خلال إحدى الزوايا المظلمة في أعماقه أن مثل هذه المرأة التي استطاعت أن تخدعه بكل براعة وهي تتقبل عاطفته الجارفة باسمه مقبلة عليه، مثل هذه المرأة لا يمكن أن تكون صادقة مخلصه إلا في حالة الموت، ثم تتمم قائلاً لنفسه:

«لقد كانت ثعلبًا مهما يكن من أمرها».

ومن ثم مضى يقود رجاله في ثبات إلى أعلى ذلك الجبل، وحينما اقترب من بداية الممر، بعث بالصقر وخمسين رجلاً إلى الأمام ليروا ما الذي في الوكر، وانتظر هو في ظلال مجموعة من أشجار الصنوبر، إذ كانت الشمس تضرب رؤوسهم بأشعتها الملتهبة. ولم تمض ساعة حتى قفل الصقر راجعاً، وقال إنه قد دار حول المكان وقدم التقرير التالي لقائده: «إنهم ليسوا على أهبة الاستعداد، لأنهم يقومون بتشديد الوكر من جديد».

فقال وانج النمر: «هل رأيت أحداً منهم يفوق الآخرين منزلة؟». فأجاب الصقر قائلاً: «كلا، لم أر أحداً. لقد تسللت عن كذب حتى تمكنت من سماع حديثهم. إنهم على جهل شديد، ولا يفقهون شيئاً في فن السرقة، فالمر لا يحرسه أحد، وهم يتعاركون فيما بينهم على البيوت التي لحق بها أقل الخراب».

كانت هذه أنباء سارة، فصاح وانج النمر في رجاله، وركض على رأسهم مرتقياً الممر في سرعة خاطفة، وهو يطلق صيحات هائلة في أثناء عدوه، ثم أمر رجاله بأن يندفعوا إلى داخل الوكر، وأن يقتل كل منهم لصاً على أقل تقدير، ثم يتوقفوا عن إطلاق النار حتى يمكنه التفاوض مع اللصوص.

وهكذا فعلوا، فقد انتحى هو جانباً، واندفع رجاله إلى الداخل، وأطلقوا النيران دورة واحدة، فتساقط اللصوص صرعى هنا وهناك، وهم يتلون ويصرخون في مرارة لحظة الموت أو الاحتضار. وحقيقة أنهم

كانوا غير متأهبين للهجوم، لا يفكرون إلا في تشييد بيوتهم وفي كيفية تدعيم أنفسهم. ولا بد أن ثلاثة أو خمسة آلاف منهم كانوا مجتمعين هناك في ذلك الوكر، وكأنهم جيش من النمل على إحدى الروابي، وهم جميعاً يكدسون الطين لبناء الجدران ويحملون عروق الخشب وأعواد القش لبناء السقوف، ويرسمون الخطط لتحقيق عظمة المستقبل. ولما أخذوا على غرة على هذا النحو، تخلى كل رجل عما كان يفعله وراح يركض هنا وهناك. وقد تبين وانج النمر أنه لا يوجد بينهم من يوجههم، وأنه ليس لهم من زعيم معين. ولأول مرة تسلس شعاع هزيل واه من العزاء إلى قلبه، فقد كان يعلم جيداً من التي كانت ستنظم صفوفهم، وخطر في باله أنه كان لزاماً عليه عاجلاً أو عاجلاً أن يقاتل المرأة التي يحبها، لذا، فمن الخير أنه قضى عليها كما فعل.

وعندما طاف بذهنه هذا الخاطر استيقظ في أعماقه مرة أخرى إيمانه القديم بمصيره، وهتف في رجاله بطريقته المهيبة المتشامخة، أمراً إياهم أن يقفوا في أماكنهم، ثم صاح في اللصوص الذين لم تصبهم طلقات الرصاص قائلاً:

«أنا وانج النمر الذي يحكم هذا الإقليم، وسوف لا أتهاون مع اللصوص، إني لا أخاف القتل ولا أهاب الموت. سوف أقتل كل فرد منكم تسول له نفسه الانضمام إلى الآخرين ضدي! على أيّ أيضاً رجل رحيم، وسوف أفتح طريق الخلاص أمام الرجال الشرفاء منكم. إني عائد الآن إلى ثكناتي في مركز الإقليم. وفي غضون الأيام الثلاثة التالية سوف أقبل بين صفوف جيشي أي رجل منكم يأتي إليّ حاملاً بندقيته، أما إذا أتى ببندقيتين،

فسوف يحصل على منحة من الفضة مقابل البندقية الزائدة التي يحملها».

بعد أن صاح بهذا القول، نادى رجاله في حدة، فهبطوا جميعاً يقعون بينادقهم إلى بداية الممر مرة أخرى، غير أنه عمل على أن يهبط بعض رجاله في الاتجاه الخلفي مصوبين بنادقهم نحو الممر، خشية أن يطلق لص جريء رصاصة أو رصاصتين في اتجاههم. بيد أن الحقيقة هي أن أولئك اللصوص كانوا في غاية الجهل. فقد صادفت مؤامرة المرأة -التي كانت عشيقة الفهد- هوى في نفوسهم، فاندفعوا في لهفة وحماسة لإحضار البنادق، رغم أن قلة منهم هي التي كانت تعرف كيف تمسك بالبندقية، وهذه القلة لم تكن سوى الجنود الفارين من الجيش، وهم ليسوا من الجرأة بحيث يطلقون الرصاص على وانج النمر، لئلا يكون هذا العمل منهم مجرد قتل لشاربي النمر، فيرتد منقضاً عليهم، ويبيدهم عن بكرة أبيهم.

وخيم صمت مطبق على الجبل، فما من صوت ينبعث من الوكر. وبينما وانج النمر يمضي في طريقه، لم يكن هناك سوى حفيف الرياح بين أشجار الصنوبر، وصوت طائر ينادي على إحدى الأشجار. وقاد رجاله هابطاً إلى بداية الممر، ثم عاد بهم مرة ثانية عبر الحقول، وفي أثناء مسيرهم كان الجنود يقولون في جذل للفلاحين هنا وهناك:

«ثلاثة أيام ثم ينقشع اللصوص، بالله علينا!».

فاستولى على بعض الفلاحين شعور بالغبطة والامتنان، غير أن أغلبهم تحفظوا في نظراتهم وكلماتهم، وترثوا ليروا ما سيطلبه منهم وانج النمر، إذ لم يسبق لهم أن سمعوا قط أن أحداً من ملوك الحرب قد

أدى خدمة لأهل الريف دون أن يطالب بالكثير في مقابلها.

وعاد وانج النمر إلى أروقتة الخاصة، حيث أعطى كل واحد من جنوده منحة من العملة الفضية، وأمر بأن يمنح كل منهم خمراً من صنف جيد، بالقدر الذي يبعث في نفسه الراحة دون أن يسكره، كما قدم إليهم بضعة ألوان خاصة من الطعام. وراح ينتظر انقضاء الأيام الثلاثة.

وبدأ اللصوص يقبلون فرادى أو أزواجاً أو في جماعات من خمسة رجال أو ثمانية أو عشرة، هائمين من كل فج إلى تلك المدينة، حاملين بنادقهم معهم. وقلما أتى أحد الرجال ببندقيتين، لأنه إذا ما وضع يده على أكثر من بندقية، أحضر بها صديقاً أصغر منه سنّاً أو أخاً أو أي شخص آخر، إذ كان الكثير من هؤلاء الرجال يعانون حقاً الفاقة والعوز، ولا يجدون من الطعام ما يكفي لسد الرمق، لذا اغتبطوا بالسعي وراء عمل مضمون تحت لواء أحد القادة في أي مكان.

وقد أمر وانج النمر بأن يقبل في صفوف جيشه كل رجل سليم البنية لا يكون طاعناً في السن، أما الذين لم يرغب في قبولهم، فقد أخذ منهم بنادقهم ودفع لهم شيئاً من المال. كما منح الطعام واللباس الحسن لأولئك الرجال الذين قبلهم في جيشه.

ولما انقضت الأيام الثلاثة، أتاح فرصة الرأفة ثلاثة أيام أخرى، ثم ثلاثة أخرى من بعدها، فأقبل الرجال يوماً بعد يوم، حتى غصت بهم الأروقة ومعسكرات الجنود، فاضطر وانج النمر أن يأوي رجاله في بيوت أهل المدينة. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يأتي إليه رب عائلة، شاكياً من أن بيته مكتظ بالجنود، وأن عائلته محشورة في حجرة أو حجرتين. لكن

إذا أقبل أحدهم ورأي وانج النمر أنه صغير السن أو أنه يتقدم بشكواه في زهو وغرور، حينئذ كان يتوعده قائلاً:

«أليس هذا في مقدورك؟ تحمله إذن! أم أنك تفضل أن يوجد بالإقليم لصوص لينهبوك نهباً؟».

أما إذا كان المتظلم شيخاً عجوزاً، أو إذا أقبل عليه ملاطفاً يتحدث برقة، حينئذ كان وانج النمر يلاطفه بالمثل، ويمنحه شيئاً من الفضة أو هدية من نوع ما، ويقول مجاملاً:

«إنها لن تعدو فترة وجيزة، إذ إنني سأزحف إلى ميدان الوغى عما قريب، فسوف لا أظل قانعاً على الدوام بأن تكون مثل هذه المدينة الصغيرة بالمقاطعة عاصمة لي».

ودأب على أن يقول للجميع في كل مكان: «لئن تطلع جندي من جنودي إلى امرأة محرمة عليه، أخبروني بأمره، ولسوف يموت موتاً». يقول هذا وقد تملكته مرارة قاسية ضارية، لأنه لم تعد لديه امرأة خاصة به، ولأن التفكير في اجتماع رجل بامرأة يوغر صدره بطريقة خفية مبهمة. لذلك أسكن جنوده الجدد في أقرب المنازل إلى قصره، وتوعدهم بحرارة إذا هم تجاسروا على مجرد النظر إلى امرأة فاضلة.

على أنه دفع لكل جندي منهم ما قد وعده به. أجل، فبالرغم من أنه كان في ميسيس الحاجة إلى الفضة بعد أن انضم من اللصوص إلى صفوف جيشه أربعة آلاف من الرجال الجدد، فضلاً عن أنه لم يتبق لديه من البنادق سوى ألفين ونيف من الثلاثة الآلاف التي ابتاعها له أخوه، رغم ذلك دفع

لكل رجل أجره كاملاً وجعلهم جميعاً يحسون بالرضا، ولكنه أدرك أن من المحال أن يفعل هذا دوماً، ما لم يفكر في ضريبة جديدة يفرضها على الناس، إذ كان في تلك الآونة يستمد المال من مدخراته الخبيثة، وهذا شيء من الخطر على ملك الحرب أن يقدم عليه، لأنه إذا مُنِيَ بالهزيمة على حين غرة، واضطر للتقهقر إلى مكان ما فترة من الزمن، فلن يجد حينئذ شياً من المال يسد به رمق رجاله. لذلك عكف وانج النمر على التفكير في فرض ضريبة جديدة.

وفي ذلك الحين كان الجواسيس الذين أطلقهم من قبل قد بدءوا في العودة إليه، فقد أشرف الصيف على نهايته. وجاءوا جميعاً بنفس الأنباء، وهي أن جنرالات الجنوب قد ردوا على أعقابهم ثانية، وعقد لواء النصر لقادة الشمال مرة أخرى. وكان وانج النمر أكثر استعداداً لتصديق هذه الأنباء، لأنه في خلال الأسابيع القلائل الأخيرة لم يعان ضغطاً عنيفاً من جانب جنرال المقاطعة، كالذي كان يعانيه من قبل كي يبعث بقواته للقتال من أجله.

ومن ثم سارع وانج النمر، فأرسل ابن أخيه ومعه التابع الأمين الأشرم، يحملان رسالة منه إلى عاصمة المقاطعة. فقد كتب رسالة رقيقة إلى الجنرال يعبر فيها عن أسفه لأنه ظل طويلاً يقيم اللصوص في تلك المنطقة، ولكنه أبدى استعداداه لضم قواته إلى جيش الشمال في وجه قوات الجنوب، كما بعث إليه أيضاً ببعض الهدايا.

بيد أن طالعه آزره بمهارة فائقة مرة أخرى، ذلك أنه في نفس اليوم الذي وصل فيه الاثنان إلى العاصمة يحملان هذه الرسالة، أعلنت الهدنة

واتجه الثوار جنوباً لاستعادة قواهم، في حين منحت جيوش الشمال أياماً يسلبون فيها الغنائم مكافأة لهم على انتصارهم. ومن ثم، فحينما تلقى جنرال المقاطعة رسالة الولاء من وانج النمر، رد عليها بخطاب رقيق يعبر عن قبوله لها. ولكنه ذكر في خطابه أن هذه الحرب قد انتهت بعد أن أقبل الخريف، غير أن حروباً أخرى ستندلع بلا ريب حين يقبل الربيع ثانية، وعلى وانج النمر أن يقف على أهبة الاستعداد لخوض المعركة في ذلك الوقت.

كان هذا هو الرد الذي عاد به الاثنان إلى وانج النمر، فتسلمه راضياً كل الرضا لإدراكه أن اسمه سيغدو بين أسماء الجنرالات المنتصرين، في حين أنه لم يفقد رجلاً واحداً أو بندقية واحدة، واحتفظ بجيشه العظيم كاملاً غير منقوص.



هبت رياح الخريف الصافية قادمة من الغرب، تغشي أرجاء الأرض مرة أخرى، فحصد الفلاحون محصولاتهم. وعاد البدر يختال صاعدًا إلى عليائه، فتهلل الناس بشرًا لاقتراب مهرجان منتصف الخريف، وتهيئوا لتقديم فروض الشكر إلى الآلهة لما أسبغته عليهم من نعم، إذ لم تحدث مجاعة، ولم يشح سوى محصول أو محصولين في تلك الأنحاء، فضلًا عن أن اللصوص قد قمعوا ثانية، ولم يقترب شبح الحرب من الإقليم.

وأخذ وانج النمر يحصي مكاسبه كي يتبين موقفه ومدى ما حققه من نجاح، فوجد أنه أحسن حالًا ذلك العام منه في سابقه. أجل، فقد أصبح تحت إمرته عشرون ألفًا من الجنود يسكنون المدينة وضواحيها، كما أصبح لديه نحو اثني عشر ألف بندقية. وزيادة على ذلك، فقد عرف اسمه وصار من عداد ملوك الحرب، ذلك بأن الحاكم الضعيف المتخاذل الذي ظل باقياً في منصبه بعد انتهاء الحرب، أصدر بياناً يعبر فيه عن شكره وعرفانه لجميع القواد الذين ساعدوه على البقاء عندما حاول جنرالات الجنوب القضاء على حكومته، وكان اسم وانج النمر من بين الآخرين

الذين أزجى إليهم الثناء ومنحهم الألقاب. حقيقة أن اللقب الذي أنعم به عليه لم يكن لقباً رفيعاً - وإن بدا رنينه أطول وأجمل من حقيقته - غير أنه كان لقباً على أي حال، في حين أن وانج النمر لم يخض معركة ما أو يفقد بندقية ما في سبيل الحصول على هذا الشرف.

بقيت أمامه مشكلة واحدة عويصة، هي أنه في أثناء فترة الأعياد والمهرجانات التي يحين فيها وقت الحساب بين الدائنين والمدينين جميعاً، تلقى رسالة من أخيه وانج التاجر يذكره فيها بأنه يجب أن يحصل على ثمن البنادق، لأن الدائنين الآخرين يضيقون عليه الخناق مطالبين بالدفع. حيثئذ استولت على وانج النمر رغبة في العراك، وشرع في الأخذ والرد مع أخيه، فبعث إليه رسولاً يقول له إنه لن يدفع هذه المرة ثمن كل البنادق التي فقدوها، كما قال لأخيه على لسان الرسول:

«كان من الواجب عليك أن تحذر عملاءك من إعطاء البنادق لأول من يأتي في طلبها».

فرد وانج التاجر على هذا قائلاً في تعقل:

«ومن أدراني أن الأشخاص الذين حملوا خطابي كدليل على صدقهم، واستغلوا اسمك كأمانة لتسليم البنادق، لم يكونوا من رجالك؟».

فلم يستطع وانج النمر أن يحير جواباً على هذا القول، ولكن كانت له من قوة جيوشه ما يمكن أن يستخدمه حجة في الجدل، ومن ثم عاد، فرد على أخيه في غضب شديد:

«سوف أدفع نصف الخسارة لا أكثر، وإذا لم توافق على ذلك،

فسوف لا أدفع شيئاً على الإطلاق. لست بحاجة في هذه الأيام لأن أفعل ما لا أرغب في القيام به».

ولما كان وانج التاجر رجلاً حكيماً يعتصم بالفلسفة إن هو فشل في إصلاح أمر من الأمور، فقد وافق حينئذ على عرض أخيه، وتحمل نصف الخسارة بروح طيبة، ففي إمكانه تعويضها برفع الإيجارات وزيادة الفوائد بعض الشيء، في مكان أو اثنين حيث يعلم أن طلبه لن يقابل بالرفض، ولذلك لم ينغص على نفسه بسبب هذه المسألة.

بيد أن وانج النمر لم يكذ يعرف في بادئ الأمر كيف يتسنى له الحصول على المبلغ الذي يتعين عليه سداذه، إذ كان في حاجة إلى مبالغ طائلة للإنفاق على جيشه العرمرم. ورغم أن نهرًا من الفضة كان يجري بين يديه كل شهر، بل كل يوم، فإنه كان يغيض عن آخره. ومن ثم دعا أتباعه الأمناء إلى حجرتة حيث قال لهم على انفراد:

«هل هناك أي دخل في إمكاننا الحصول عليه ولا نحصل عليه الآن؟».

فحكوا رؤوسهم يشحدون قرائحهم، وأخذ كل منهم يتطلع إلى الآخر ويتلفت هنا وهناك بغير أن تتمخض أذهانهم عن فكرة ما. ثم قال له التابع الأشرم:

«إذا فرضنا ضرائب فادحة على الأطعمة والسلع التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية، فقد ينقلبون علينا».

وأدرك وانج النمر أن هذا حق لا مرء فيه، فهذا ما دأب عليه عامة

الناس إذا ضغط عليهم الحاكم أكثر من اللازم، إذ لا بد عندئذ من أن ينقلبوا عليه وإلا ماتوا جوعاً، ومع أن وانج النمر كان حينذاك محصناً تحصيناً قوياً في ذلك الإقليم، إلا أنه لم يكن قد بلغ شأواً بعيداً في العظمة والجبروت بحيث يتغاضى تماماً عن رغبات الناس، ومن ثم كان لزاماً عليه أن يفكر في شيء جديد يفرض عليه الضرائب. وفكر آخر الأمر في صناعة رئيسة بتلك المدينة. وفي ضريبة يمكنه فرضها عليها، ضريبة من قطعة أو قطعتين من العملة النحاسية عن كل دن من الخمر يصنع في ذلك الإقليم.

كانت دنان الخمر في ذلك الإقليم ذائعة الصيت، فهي تصنع من خزف فاخر مدهون باللون الأزرق، وعندما تعبأ الخمر فيها تختم فوهة الدن بأختام من نفس الخزف، ثم تدمغ بعلامة معينة. وكان من المعروف في شتى الأنحاء أن تلك العلامة إنما تدل على خمر جيدة معبأة في دن فاخر. وحين خطرت هذه الفكرة ببال وانج النمر، ضرب على فخذيه وصاح قائلاً:

«إن صناع الخزف يزدادون ثراء عاماً بعد عام، فلم لا نجعلهم يساهمون بضريبة مع الآخرين؟».

فوافق الأتباع الأمناء بالإجماع على هذه الفكرة الرائعة، ومن ثم فرض وانج النمر هذه الضريبة في نفس ذلك اليوم، على أنه فرضها بأسلوب لطيف مهذب، فبعث برسالة إلى أرباب هذه الحرفة يقول فيها إنه قد حمى مصالحهم بحماية مزارع السروغو التي ينمو فيها القصب اللازم لخمورهم، ولو أنه لم يفعل ذلك لما وجدوا خمراً يعبئونها في

دنانهم، وقال إنه في حاجة إلى المال لحماية المزارع، كما أنه يجب أن يطعم جنوده ويزودهم بالسلاح، ويدفع لهم أجورهم. ولكن وراء هذا الأسلوب المهذب كانت تكمن الأسلحة اللامعة البراقة التي تحملها الآلاف المؤلفة من جنوده. ومع أن صناع الخزف اجتمعوا سرًا وقد اعتراهم غضب شديد، وتحدثوا عن مئات الوسائل للتعبير عن سخطهم، وتحدثوا عن التمرد، وعن أشياء أخرى عديدة، فقد أدركوا آخر الأمر أنهم لا يملكون الرضا، لأن وانج النمر كان بوسعه أن يفعل بهم ما يحلو له، فضلًا عن إدراكهم أن هناك من هم أدهى منه وأمرّ بين ملوك الحرب الآخرين.

ومن ثم، أبدوا له رضاهم ما دام ليس من الرضا بد، فأرسل أتباعه الأمناء لتقدير إنتاج الدنان، وبذلك أصبحت مبالغ وفيرة من الفضة تدفع له كل شهر، حتى إنه سدد دينه لوانج التاجر في غضون ثلاثة أشهر أو نحو ذلك. ولما كان صناع الخزف قد اعتادوا دفع هذه الضريبة حينذاك، فقد تركها وانج النمر تنساب بين يديه، وأحجم عن القول بأن الحاجة إليها لم تعد ملحّة كما كانت من قبل. والواقع أنه كان في ميسيس الحاجة إلى كل ما يمكنه الحصول عليه من المال، فما زال أمامه طريق طويل قبل أن يبلغ قمة طموحه، وكان طموحه يؤرق مضجعه، فينهمك في أمور شتى.

ولما تدبر موقفه جيدًا، ورأى أنه من المتعذر عليه أن يأخذ المزيد من أهالي إقليمه ويحتفظ برضاهم عنه في نفس الوقت، صاح في نفسه قائلاً إنه أعظم من أن يقنع بذلك الإقليم الصغير، وإنه في الربيع التالي لا بد أن يتوسع متوغلًا وراء حدوده، فهذا الإقليم من الصغر بحيث إنه

إذا اجتاحتها مجاعة هائلة، كالتى يمكن أن تحل به في أي عام تقسو فيه السماء، فسوف تقضي عليه قضاء مبرماً. ذلك أن طالعه السعيد قد بسط عليه حمايته حتى ذلك الوقت، فلم تحدث بعد مجاعة هائلة منذ جاء إلى هذه المنطقة، اللهم إلا بعض المجاعات الصغيرة في هذا المكان أو ذاك.

ثم اقترب فصل الشتاء حين يتعذر اندلاع الحرب، فأخذ وانج النمر يحصن نفسه في حماسة شديدة، وعمل على أن ينطلق رجاله للتدريب خارجاً كل يوم ما دامت الأمطار والرياح لا تصفع الوجوه في قسوة بالغة، ولا تهطل الثلوج مدراراً. وراح يدرب بنفسه خيرة رجاله وأمهرهم، ثم قام هؤلاء بتدريب الآخرين. واعتاد أن يتحقق من عدد بنادقه بصفة خاصة، فكانت تُحصى كل شهر أمام عينيه، وتطابق عدداً ونوعاً على السجلات التي يحتفظ بها. كما دأب على أن يقول لرجاله إنه إذ فقدت إحدى البنادق المدونة في السجل، فسوف يرمي رجلاً أو اثنين أو ثلاثة بالرصاص ليحتفظ بنسبة عدد البنادق إلى عدد الرجال. ولم يجرؤ أحد على عصيانته، إذ كانوا يهابونه أكثر من أي وقت مضى، منذ عرف الجميع أنه قد قضى حتى على المرأة التي هام بها حباً. ولما كان من الممكن أن يبلغ منه الغضب هذا المبلغ، فقد أصبح الجميع يفرعون من ثورته، ويقفزون هلعاً لمجرد أن يقطب حاجبيه الأسودين.

ثم أقبل الشتاء هابطاً من الشمال القارس البرودة، وأقبلت الأيام القاتمة حين عجز وانج النمر عن الخروج من القصر، بل ولم يستطع أن يحمل رجاله على الانطلاق خارجاً. وها هو ذا أخيراً يواجه الشيخ الذي كان يعلم أنه في انتظاره، والذي كان يعمل دائماً لصده عن نفسه: ذلك هو

شبح الفراغ والوحدة.

وتمنى عندئذ لو أنه كان مثل الرجال الآخرين الذين يتحولون في شغف إلى المقامرة أو شرب الخمر، أو إقامة الولائم، أو الجري وراء النساء، كي يسروا عن أنفسهم عناء المتاعب التي قد يقاسونها. ولكنه لم يكن مثلهم. فقد كان يتناول الطعام البسيط ويفضله على وليمة فاخرة، أما فكرة المرأة، فقد أصبحت تبعث الاشمئزاز في نفسه. وقد حاول مرة أو مرتين أن يلعب الميسر، ولكنه لم يكن يلائم طبعه، إذ لم يكن سريعاً في طرح النرد أو انتهاز الفرصة، وإذا لحقت به الخسارة اعتراه الغضب ومد يده يتحسس سيفه، لذلك كان المقامرون معه يتوجسون شراً حين يرون أنه قد بدأ يعقد حاجبيه، وأن وجهه قد أصبح أكثر جهامة من ذي قبل. فإذا رأوا يده الضخمة تطير إلى مقبض سيفه، سارعوا بإعطائه فرصة الربح في كل جولة. بيد أنه كان يضيق ذرعاً بهذا أيضاً، فيصيح:

«إنها لعبة الأبله، كما كنت أقول عنها دائماً!» ويندفع خارجاً في ثورة عارمة؛ لأنه لم يجد ترويحاً لنفسه أو راحة لقلبه على الإطلاق.

وأسوأ من النهار كان الليل الذي لا بد وأن يقبل عليه، وقد كرهه أكثر من النهار، لأنه أصبح ينام فيه وحيداً، بل ويتحتم عليه أن ينام وحيداً. وكانت هذه الوحدة بالنهار والليل تشق على رجل مثل وانج النمر، فهو يطوي بين حنايا صدره قلباً مثقلاً يفيض بالمرارة، قلباً لم يعرف يوماً ذلك المرح الذي يعرفه بعض الرجال، حتى الذين يكابدون أكثر منه. وكان النوم وحيداً يشق عليه أيضاً لأن له جسداً يفيض بالقوة ويتوق إلى المرأة. ومع ذلك لم يكن ثمة إنسان يمكنه أن يتخذ منه صديقاً وندياً.

فحقيقة أن الحاكم الهرم كان لا يزال مقيمًا في رواق جانبي مع زوجته العجوز التي كانت عندئذ تعاني سكرات الموت من داء السل، وحقيقة أنه كان شيخًا مثقفًا فاضلاً بأسلوبه الخاص، بيد أنه لم يَألف مطلقاً رجلاً من طراز وانج النمر، فكان يمتلكه الخوف منه لدرجة أنه لم يكن يملك في صحبته سوى أن يشبك يديه الهرمتين معاً، ويسارع بالقول كلما تحدث إليه:

«أجل يا صاحب الفخامة.. أجل يا جنرال!».

أما وانج النمر، فقد كان يضيق ذرعاً بهذا الأسلوب بعد فترة وجيزة، فيتجههم في وجه الحاكم الهرم بصورة مخيفة، حتى إن وجه الرجل كان يستحيل إلى لون الطين، وحالما تواتيه الجرأة على مبارحة المكان يهرع هارباً من الحجرة، وهو يجر أذيال أرديته الكالحة فوق جسده العجوز النحيل.

غير أن وانج النمر كان يكبح شعوره بالضجر، لأنه كان رجلاً عادلاً بطبعه ويدرك أن الحاكم الهرم إنما يبذل قصارى جهده لإرضائه. لذا كثيراً ما كان يصرفه سريعاً، قبل أن يصل به الضجر إلى الذروة لثلاث ثورات، فيلحق الأذى بالرجل العجوز، وتندفع يده إلى عمل عنيف من غير قصد.

وكان هناك أيضاً أتباعه الثلاثة الأمناء، وهم ثلاثة من خيرة المحاربين حقاً، فالصقر في الواقع محارب لا يشق له غبار، وخير من ألف جندي من عامة الجنود في براعة حيلته، ولكنه مع ذلك مجرد رجل جاهل لا يعرف سوى التحدث عن أساليب حمل السلاح، وطرق المناوشة بالكلمات، وطرق الرفس بالقدم اليمنى، ثم اليسرى في شكل دائري قبل أن يتمكن

العدو من استعادة قواه، وما شابه ذلك من أساليب المعركة وحيلها. وبعد أن يتحدث عنها المرة تلو المرة، ويروي كيف أنه قد فعل هذا وذاك في معركة أو أخرى خاض غمارها في مكان ما، يكون قد أفرغ كل ما في جعبته، فيضيق وانج النمر به ذرعًا بالرغم من تقديره له في نفس الوقت.

وهناك أيضًا جزار الخنازير، وهو على مقدرة فائقة في استخدام قبضتيه الضخمتين الخفيفتي الحركة، وكذلك جسمه الغليظ الذي يمكنه أن يلقي به على بوابة، فيحطمها تحطيمًا، ولكنه مع ذلك مجرد رفيق متلثم ثقيل الظل لا يؤنس الوحدة في ليلة من ليالي الشتاء. كما كان هناك التابع الأمين الأشرم، وهو خير الرجال وأخلصهم لقائده، وإن لم يكن بالمحارب العظيم، وهو أفضلهم جميعًا حين يبعث به لأداء رسالة ما، غير أن هسيسه أو بصقه في أثناء حديثه، ما كان ليعث على السرور في نفس محدثه. أضف إلى ذلك أن وانج النمر لن ينزل إلى مستوى الحديث مع ابن أخيه الذي ينتمي إلى جيل بعد جيله، بل ولن ينحط به الأمر، فيشارك في ولائم اللهو والقصف مع جنوده؛ لإدراكه أن القائد إذا تصرف على هذا النحو وجعل من نفسه رجلًا عاديًا يعبث بين رجاله ويبدو لهم ضعيفًا تحت وطأة الخمر، فلن يولوه احترامهم أو يذعنوا لأوامره يوم المعركة. والواقع أن وانج النمر كان يحرص على ألا يظهر مطلقًا أمام رجاله ما لم يكن مرتديًا عدته الحربية كاملة ومسلحًا بسيفه القاطع، ذلك السيف الذي كان قد استخدمه بطريقة جعلته الآن يحبه ويمقته في آن واحد. ومع ذلك، فهو سيف ذو نصل حاد بحيث لا يمكن أن يجد له نظيرًا في العالم. وقد اعتاد في وحدته أن يستله من غمده أحيانًا، وينظر إليه وهو مستغرق في

التأمل، يفكر كيف أنه لو انقضى به حتى على سحابة لشطرها إلى شطرين. لقد كان جيد المرأة في نعومة السحب، وهكذا شطره النصل في تلك الليلة.

ولكن حتى لو كان له أصدقاء يؤنسون وحدته بالنهار، فلا بد وأن يقبل الليل في نهاية كل يوم، ولا بد عندئذ أن يجد نفسه وحيداً على الرغم منه، فيرقد وحيداً في فراشه، وليالي الشتاء طويلة مظلمة.

كان عليه أن يرقد وحيداً طيلة تلك الليالي الطويلة المظلمة، وفي بعض الأحيان كان يوقد شمعة مستدقة الطرف، ويقرأ كتبه القديمة التي كان يولع بها في صباه، والتي كانت أول ما حول ذهنه إلى الجندية. يقرأ قصص الممالك الثلاث، وقصص اللصوص الذين عاشوا على حافة البحيرة العظيمة، وما شابه ذلك من قصص البطولة العديدة. على أنه كان من المحال أن يستمر في القراءة إلى الأبد. إذ لا تلبث الشمعة أن تحترق إلى نهايتها، ويشعر بالبرودة تسري في أوصاله، وفي النهاية لا بد أن يرقد وحيداً في ظلمة الليل الحالكة المريب.

إذ ذاك تقبل الساعة التي تراوده فيها ذكرى المرأة التي أحبها، فيفيض قلبه بالحزن عليها، وإن كان يرجئ هذه الساعة كل ليلة. ولكن بالرغم من كل ما يملكه من أسي. لم يكن يتمنى أن تبعث إلى الحياة مرة أخرى، إذ كان يعلم ويقول لنفسه في حزم، إنها ما كانت ستصبح أبداً إنساناً يمكنه أن يوليه ثقته، وإن عذوبة حبه لها إنما تكمن في أنه فتح لها قلبه على مصراعيه. كلا، كان في إمكانه أن يثق فيها ميتة، ولكن لو بقيت على قيد الحياة، وأحبط خططها، ثم صفح عنها، فرغم ذلك كان سيظل دوماً في

خوف من خيانتها. وربما جعله هذا الخوف ينقسم على نفسه، فلا يقبل على هدفه إلا بنصف قلبه، ومن ثم لا يرقى مطلقاً إلى أوج العظمة.

هكذا كان يحدث نفسه في أثناء الليل. غير أنه كان يفكر وقد استولى عليها الألم في أن الفهد الذي كان مجرد رجل جاهل لم يرتفع إلا قليلاً فوق مستوى لصوص عصابته، قد تمكن من الظفر بحب هذه المرأة التي لم تكن بالمرأة السوقية الشائعة، لدرجة أنها تعلقته به رغم موته، بل إنها ظلت ملتصقة بالرجل الميت تصد به حبها للرجل الحي.

ذلك أن وانج النمر لم يستطع أن يصدق أنها لم تُكِنَّ له الحب يوماً. كلا، بل كان حينما تراوده هذه الفكرة يذكر في شوق واشتهاء، المرة بعد المرة، كيف كانت تبوح له بالهوى في شهوة عارمة على نفس ذلك الفراش الذي يرقد عليه الآن. ما كان ليصدق أن مثل هذه الشهوة كانت نابعة من حيث لا يوجد حب. ومن ثم كان يخيم عليه الصفاء، ويعتريه الوهن، ويحس أنه بكل كبريائه ومكانته لا بد وأن يكون بصورة ما أقل رجولة من الفهد الذي قضى عليه، ذلك لأن قبضته الحية على المرأة كانت أضعف من ذكرى الرجل الميت في نفسها. ولم يكن في إمكانه أن يدرك بعقله كنه هذه المشاعر، ولكنه أحس فقط بوجوده أنها لا بد وأن تكون على هذا النحو.

وإذا أحس بنفسه رجلاً أضعف مما كان يتوسم في نفسه، امتدت حياته أمام عينيه طويلة لا معنى لها، وساوره الشك في أنه سيصبح يوماً ما من العظماء. وإذا ما أصبح عظيمًا بالفعل، فما الفائدة إذن؟ إذ ليس له من ولد ينال العظمة من أجله، ومن ثم سوف تموت كل عظمتة بموته، وتؤول

ممتلكاته إلى الآخرين. ولم يكن يحب أخويه أو أبناء أخويه بالقدر الذي يدفعه إلى النضال في ميدان الوغى، مستعيناً بالدهاء والحيلة من أجلهم. لذلك كان يتأوه بينه وبين نفسه، في حجرته التي يخيم عليها الصمت والظلام، ويقول متأوهاً:

«عندما قتلتها، قتلت اثنين، أما الآخر، فهو ذلك الابن الذي كان من المحتمل أن أحصل عليه منها!».

ثم تعود به الذكرى، فيتمثل منظر المرأة وهي جثة هامدة، وجيدها القوي الجميل طعيناً تندفق منه الدماء اللامعة. وحين يتمثلها على هذه الصورة المرة تلو المرة، لا يقوى على تحملها، ويحس فجأة أنه لم يعد يطيق الرقاد على هذا الفراش. كلا، لم يعد يطيقه، برغم أنه قد غسل بالماء ودهن من جديد، وزالت منه بقع الدماء، ووضعت عليه وسادة جديدة، ورغم أن أحداً لم يتحدث إليه يوماً عما جرى هناك، بل ولم يعرف قط أين حملوا جثتها. ومن ثم كان ينهض من فراشه، ويلف عليه ملحفته، ويجلس مبتئساً مرتجفاً على أحد المقاعد، حتى تبزغ خيوط الفجر الواهنة، وتبدو شاحبة تبعث على القشعريرة من خلال شبكة النافذة.

هكذا درجت ليالي الشتاء على هذه الوتيرة الليلة بعد الليلة، حتى صاح في نفسه آخر الأمر: إن هذا لا يمكن أن يستمر، لأن هذه الليالي الحزينة الموحشة كانت تنتقص من رجولته وتمتص منه الطموح. وساوره الخوف على نفسه، إذ لم يعد شيء يروق في عينيه، وأصبح ضجراً بكل من يقترب منه، وكان أشد ما يكون ضجراً بابن أخيه، فيقول عنه في مرارة:

«هذا هو خير من عندي، هذا القرد المجذور الضاحك ابن التاجر.

هذا أقرب ما يكون إلى ابني!».

وفي نهاية الأمر، حينما لاح له أنه سيفقد عقله يقينًا، حدث تحول في روحه، إذ خطر بباله ذات ليلة أن المرأة حتى في موتها كانت تحطمه تحطيمًا أكيدًا، كما كان يمكن أن تفعل به لو أنها بقيت على قيد الحياة ومضت في الطريق الذي رسمته لخيانته. وفجأة شد من عزمه، وبدا وكأنه يتحدث إلى شبحها متحديًا لها حين قال في قرارة نفسه:

«أليس بوسع أي امرأة أن تنجب أبناء، ألسنت أتوق إلى ولد أكثر من توقي إلى مجرد امرأة؟ سوف يكون لي ابن، وسوف أتخذ لنفسني امرأة واثنتين وثلاثًا حتى أنجب ولدًا. لقد كنت دائمًا من الحماقة بحيث أتعلق هكذا بامرأة واحدة، فقد تعلق أولًا بامرأة لم أكن أعرف عنها شيئًا قط أكثر من بضع كلمات متناثرة كالتي قد يقولها رجل لإحدى الإماء في بيت أبيه، وذقت مرارة الألم من أجل تلك المرأة لما يقرب من عشر سنوات. ثم كانت تلك المرأة التي تحتم عليّ قتلها. ألن أتخلص من إسارها أيضًا، أم سأظل أحترق بالألم عشر سنوات أخرى حتى تتقدم بي السنون، فأصبح عاجزًا عن إنجاب ابن حينذاك؟ كلا، سوف أكون كغيري من الرجال، وسوف أرى ما إذا كان بوسعي أن أنطلق حرًا كما يفعل غيري من الرجال، فأأخذ امرأة لنفسني، ثم أعود فأهجرها عندما يحلو لي».

في ذلك اليوم بالذات دعا إليه تابعه الأمين الأشرم في حجرته الخاصة، وقال له:

«إنني في حاجة إلى امرأة، أي امرأة من النوع المذهب، فاذهب وأخبر أخوي أن زوجتي قد ماتت، واطلب منهما أن يبحثا لي عن امرأة؛ لأنني

مشغول بأمر الحروب التي لا بد مقبلة في الربيع، ولا أرغب في أن أحمّد
بأفكاري عن شؤون الحرب».

حينئذ مضى التابع الأشرم مغتبطاً للقيام بهذه المهمة، فقد لمح بعينه
الساهرة شيئاً على الأقل مما يعاينه قائده، فتكهّن بسبب شقائه، واعتقد أن
هذا هو العلاج الناجع.

أما وانج النمر، فلم يسعه سوى الانتظار ليرى ما سيحمّله إليه الزمن،
وما سيفعله أخواه من أجله، وفي أثناء انتظاره حمل نفسه على وضع
حروبه والتفكير في كيفية بسط نفوذه، وتدبر في وسيلة لإرهاق نفسه كي
يستسلم للنوم ليلاً.



قدم التابع الأمين إلى المدينة عبر طرق متعرجة خشية أن يلحظ الناس شفته الشرماء، فيعجبوا لكثرة تردده. ولم يلبث أن أقبل على البيت الكبير حيث يعيش الأخوان وانج. واستقصى حتى علم أن وانج التاجر كان في تلك الساعة، قرب الظهيرة، في إدارة حساباته، فتوجه لتوه إلى هناك، كي يدلي برسالته. كان وانج التاجر جالسًا وقتئذ في القسم الخاص به بإدارة الحسابات، في حجرة صغيرة مظلمة تفضي إلى السوق الرئيسة، وهو يعمل إصبعه في لوحة حاسبة، محصيًا أرباحًا معينة حصل عليها من حمولة قمح على ظهر إحدى السفن. فرفع عينيه وراح يصغي إلى رواية التابع الأمين، وما إن فرغ من سماعها حتى قال مبهورًا، وهو يحملق بعينه الصغيرتين وقد زم شفثيه النحيلتين:

«يمكنني الآن أن أحصل له حتى على الفضة بطريقة أيسر من حصولي له على امرأة. من أين لي أن أعرف السبيل إلى امرأة؟ من نكد الطالع أنه فقد المرأة التي كانت في حوزته».

وكان التابع الأمين يجلس على مقعد منخفض، منتحيًا أحد الأركان،

كي يظهر أنه يعرف قدر نفسه، فأجاب في خنوع قائلاً:

«إن كل ما أسألك إياه، يا أخا سيدي، هو أن تعثر لقائدنا على صنف المرأة التي لا تقلق باله، فتجعله يتدله في حبها. إنه يحمل قلباً غريباً عميقاً، يتعلق بشيء واحد فحسب، حتى يصبح عنده ضرباً من الهوس. فهكذا أحب تلك المرأة التي ماتت ولم يستطع نسيانها بعد. كلا، لم ينسها على الرغم من مرور شهور عديدة على موتها، وليس مثل هذا الوفاء في رجل بالأمر الذي يعود بالخير على صحته».

فسأله وانج التاجر في فضول: «وكيف ماتت؟».

بيد أن التابع الأمين كان في غاية الوفاء والفتنة، فأحجم عن الكلام، وهو على وشك الإجابة، فقد حدثته نفسه أن الرجال عندما يكونون خارج صفوف الجنود ولا دراية لهم بشؤون الحرب، يعترهم الاشمئزاز ولا يطبقون فكرة القتل والموت التي تفرضها الضرورة على الجنود الذين تقتضي حرفتهم أن يقتلوا الأعداء، وأن يذوقوا الموت إذا فشلوا في النجاة بأرواحهم عن طريق الحيلة. ومن ثم أجابه بكل بساطة:

«لقد قضت نحبها من أثر نزيف دموي مفاجئ». فترك وانج التاجر الأمر عند هذا الحد.

ثم صرف التابع الأمين بعد أن أوصى أحد الكتبة أن يصحبه إلى أي «خان» صغير، ويطعمه أرزاً ولحم خنزير. وبعد انصرافهما جلس مستغرقاً في التأمل، وتحدث إلى نفسه قائلاً:

«حسنًا، ها قد حان الوقت الذي يعرف فيه أخي الأكبر أكثر مني.

لئن كان ثمة شيء يعرفه على الإطلاق، فهو النساء. أما أنا فما أعرف من النساء سوى المرأة التي في حوزتي؟».

ونهب من مكانه كي يخرج للبحث عن أخيه وانج المالك، وأخذ من على مسمار في الحائط رداءه الحريري الرمادي اللون الذي كان يرتديه عند الخروج، ولكنه كان يخلعه في دار حساباته ليصونه من البلى. ثم توجه إلى بيت أخيه، وطلب من حارس الباب أن يستفسر عما إذا كان سيده بالبيت في ذلك اليوم. فأراد حارس الباب أن يقوده إلى الداخل، ولكنه أثر الانتظار خارجًا. فدخل الحارس وسأل إحدى الإماء عن سيدها، فأجابت بأنه في إحدى دور الميسر. وعندما سمع وانج التاجر هذا، اتجه إلى ذلك المكان، وهو يتتقى خطواته في خفة القط، على الطريق المغطى بكتل الجليد، فقد هطلت الثلوج في أثناء الليل، وكان النهار من البرودة بحيث ظلت الثلوج مترامية حتى ذلك الحين، ولم يكن هناك سوى ممر صغير في وسط الطريق، شقه الباعة وأولئك الذين يتحتم عليهم الخروج من بيوتهم سعيًا وراء الرزق أو بحثًا عن المتعة مثلما فعل أخوه.

وأقبل على دار الميسر حيث سأل أحد الكتبة عن أخيه، فعلم أنه يوجد من داخل باب معين، فمضى إليه وفتحه، فوجده هناك يلعب الميسر مع بعض أصدقائه في حجرة صغيرة ويشيع فيها الدفء من حجرة فحم. وعندما رأى وانج المالك رأس أخيه يطل من الباب، ابتهج في قرارة نفسه لتعطيله عن اللعب واستدعائه خارجًا، ذلك لأنه لم يكن خارق المهارة في لعب الميسر، إذ تعلمه بعد أن تقدم به العمر. فما كان أبوه، وانج لانج، ليسمح لابن من أبنائه بالمقامرة في دور الميسر بالمدينة،

إذا ترامى هذا إلى سمعه. أما ابن وانج المالك، فكان على قدر عظيم من الحذق والمهارة، لأنه قد مارس الميسر طيلة حياته، بل إن ابنه الثاني كان في إمكانه أن يربح كومة صغيرة من الفضة في أي لون من الميسر يشترك فيه.

ومن ثم، فعندما رأى وانج المالك رأس أخيه يطل من فرجة الباب، نهض عن طيب خاطر وقال مسرعاً لأصدقائه:

«لزاماً عليّ أن أتوقف، إذ إن أخي يحتاج إليّ لأمر ما».

ثم حمل معطفه المصنوع من الفراء الذي كان قد وضعه جانباً في دفء الحجرة. ومضى إلى الخارج حيث كان وانج التاجر ينتظره. ولكنه لم يذكر له أنه قد اغتبط لمجيئه؛ لأنه كان من الكبر بحيث يأبى التحدث عن خسارته في الميسر، ما دام أنه يجدر بالرجل الحاذق الأريب أن يربح دائماً. فلم يزد عن قوله:

«ألديك أمر تريد أن تفضي به إليّ؟».

فأجاب وانج التاجر بطريقته المقتضبة: «دعنا نذهب إلى مكان يمكننا التحدث فيه، إن وجد مثل هذا المكان في هذه الدار».

حينئذ تقدمه وانج المالك إلى أحد الأماكن حيث توجد بعض النضد لاحتساء الشاي، ووقع اختيارهما على منضدة منعزلة قليلاً عن سائر النضد. هناك جلس الشقيقان، وتريث وانج التاجر بينما كان وانج المالك يطلب الشاي ثم الخمر، وحينما جال الوقت بخاطره أمر بإحضار بعض اللحوم وألوان من الطعام، وفي نهاية الأمر انصرف النادل، فشرع وانج

التاجر في الحديث مباشرة:

«إن أخانا الأصغر يرغب في الزواج لأن امرأته قد ماتت، فبعث يطلب منا مساعدته هذه المرة. أعتقد أن هذا أمر يمكنك تدبيره خيرًا مني».

قال وانج التاجر هذا وقد أرخى شفتيه في ابتسامة خفية. بيد أن وانج المالك لم يلحظها، وضحك ضحكة عالية اهتزت معها وجنتاه المتهدلتان، ثم قال:

«حسنًا، إذا كان ثمة شيء أعرفه على الإطلاق، فهو هذه الأمور، إنك محق في قولك، ومع ذلك، فليس من المصلحة ذكر هذه الحقيقة أمام زوجتي».

ثم ضحك وهو ينظر بطرف عينه كشأن الرجال حين يتحدثون في هذه الأمور. لكن وانج التاجر أبى أن يمزح معه، وظل ينتظر. فتيقظ وانج المالك عند ذلك، وقال مستطردًا:

«لقد جاء هذا الأمر في وقت مناسب تمامًا، إذ كنت في الفترة الأخيرة أتصفح وجوه فتيات هذه المدينة بحثًا عن عروس لابني. لذا، فأني أعرف كل الفتيات الملائمات للزواج. ولدي الآن مشروع لعقد خطبة أكبر أبنائي إلى فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، هي ابنة الأخ الأصغر للحاكم، فتاة فاضلة وشريفة للغاية، وقد رأت أم ابني بعض النماذج من تطريزها وشغل يدها. إنها ليست مليحة، ولكنها شريفة جدًّا، والمشكلة الوحيدة هي أن ابني لديه فكرة سخيفة لاختيار زوجته بنفسه، فقد سمع عن هذا الأسلوب الحديث في الجنوب».

«ولكنني أقول له إنه ليس من العرف السائد هنا أن يقدم على مثل هذه الأمور، وفضلاً عن ذلك، ففي وسعه أن يتتقى من النساء الأخريات من تروق في عينيه. أما عن ذلك الأحذب التعس، فأمه تريد أن يكون ثمة كاهن في العائلة، ويلوح لي أنه سيكون شيئاً مؤسفاً لو أننا ضحينا بآبن سليم البنية منتصب القامة في هذه السبيل».

على أن وانج التاجر لم تكن تعنيه كل هذه التصرفات الخاصة بعائلة أخيه، فمن المسلم به أن الأبناء جميعاً لا بد أن يتزوجوا عاجلاً أو آجلاً، وكذا أبناؤه أيضاً. ولكنه ما كان ليضيع وقته سدى في مثل هذه الأمور على اعتبار أنها من مهام النساء، لذا ترك الأمر كله بين يدي زوجته، دون أن يذكر لها شيئاً بهذا الصدد سوى أن الفتيات اللاتي يدخلن بيته يجب أن يكن فاضلات بدينات دائبات على العمل. لذا قاطع أخاه قائلاً في صبر نافذ:

«ولكن هل أي فتاة من اللاتي رأيتهن ملائمة لأخينا؟ وهل آباؤهن على استعداد لأن يبعثوا بهن إلى بيت رجل سبق له الزواج كما هو شأنه؟». ولكن وانج المالك ما كان ليتعجل في مهمة ممتعة كهذه، فأخذ يستعرض في ذاكرته على مهل صور الفتيات، هذه الفتاة وتلك، ويتذكر كل معلوماته مما ترامى إلى سمعه عنهن، ثم قال:

«توجد فتاة ملائمة تماماً، ليست صغيرة في السن أكثر مما ينبغي، أبوها من أهل العلم، وقد أضفى عليها شيئاً من طابع العلماء هي الأخرى؛ إذ ليس له من ولد، وهو في حاجة لأن يلحق معرفته لإنسان ما. إنها ممن يطلق عليهن في هذه الأيام اسم «المرأة الحديثة» شأنها في ذلك شأن

الفتيات المثقفات اللائي لا يقيدن أقدامهن. ولما كانت شاذة من هذه الناحية، فقد تأخر زواجهما، لأن الرجال لم تواتهم الجراءة على اتخاذ مثل هذه المرأة زوجة لأبنائهم، خشية أن تنجم عنها المتاعب في المستقبل. ولكنني سمعت أن هناك كثيرات مثلها في الجنوب. إن الرجال هنا يحارون في فهم شخصيتها لمجرد أن هذه المدينة صغيرة عتيقة بلا ريب. بل إنها تخرج إلى الشارع، وقد رأيتها ذات مرة، تسير محتشمة للغاية دون أن تتلفت حولها، كما أنها مع كل ثقافتها، ليست قبيحة الشكل إلى الحد الذي يبعث على الخوف. ورغم أنها ليست صغيرة جدًا في السن، فإنه من المحال أن تكون قد تجاوزت الخامسة أو السادسة والعشرين من عمرها. هل تعتقد أن أخي ستروق في عينيه مثل هذه المرأة التي تختلف عن سائر النساء؟».

فأجاب وانج التاجر على هذا في تحفظ قائلاً:

«ولكن هل تعتقد أنها ستكون سيدة بيت فالحة ونافعة له؟ إنه يتقن القراءة والكتابة كشأن الكثيرين من الرجال. ولو أنه لم يكن كذلك، لاستطاع أن يكتري أحد المثقفين، كي يقوم له بهذه المهمة. لا أظن أنه في حاجة إلى كل هذه الثقافة في زوجته».

كان وانج المالك وقتئذ منهمكًا في غرف الطعام في وعائه، والنادل يذهب ويجيء مرارًا حاملًا الصحف. فتوقف ممسكًا بملعقته الخزفية معلقة في الهواء، وهي مليئة بالحساء، ثم صاح قائلاً:

«أقسم إن في استطاعته اكتراء خادم أيضًا، أو امرأة لعبوب للفراش. فليس كل ما يمكن أن تؤديه المرأة هو الذي يجعل منها زوجة صالحة».

أهم شيء هو ما إذا كانت تصادف هوى في نفس الرجل أم لا، لا سيما إذا كان الرجل من صنف أخي، لا يجري وراء نساء أخريات. يخيل إليّ أحياناً أنه شيء ممتع يثير الرجل لو أن زوجته استطاعت أن تجلس بجواره وتقرأ له شيئاً من الشعر أو تروي له إحدى قصص الحب، وهو راقد في فراشه حتى يداعب النوم أجفانه».

لكن وانج التاجر لم يستسغ هذا الحديث، وراح يلتقط الطعام في تلذذ من صحفة حمام مطبوخ بالقسطل، وهو يدفع بعصيه في عناية بين العظام، ليلتقط القطعة التي يستطيعها، ولم يلبث أن قال:

«إني أفضل أن تلائم ميولي امرأة حريصة في تدبير شؤون البيت، تنجب الأطفال، ويمكنها أن تدخر النقود».

وعلى حين غرة انتاب وانج المالك الغضب بطريقته العنيدة التي اتصف بها منذ طفولته، واستحال وجهه الضخم الممتلئ إلى حمرة قانية، فأدرك وانج التاجر أنهما لن يتفقا مطلقاً على هذه النقطة. ولم يكن الأمر بذي أهمية في نظره حتى يضيع فيه يومه سدى، فالنساء ما هن إلا نساء، ومن منهن يمكن أن تكون شيئاً آخر، فالواحدة منهن تُرضي مأرب الرجل في النهاية شأنها في ذلك شأن الأخريات، ومن ثم سارع بالقول:

«حسناً، إن أخانا ذاك ليس فقيراً، فدعنا إذن نتقي له زوجتين. عليك أن تختار أنت من تعتقد أنها خير النساء له، فنزوجه لها أولاً. ثم بعد فترة وجيزة نبعث له بالمرأة التي أنتقيها، فإذا راقق إحداهن في عينيه أكثر من الأخرى، فليكن ذلك كذلك. إذ ليست امرأتان بالكثير على رجل في مركزه».

هكذا تراضيا على هذا الحل، واغتبط وانج المالك لأن المرأة التي اختارها ستكون هي الزوجة الأولى. مع أنه حينما تأمل الأمر مليًا، تبين له أنه لم يأخذ أكثر من حقه، فما من رجل يمكنه أن يضاجع زوجتين معًا في ليلة زفافه، وفضلًا عن ذلك، فهو -رغم كل شيء- الأخ الأكبر ورب هذه الأسرة. وبذلك اتفقا على المسألة ثم افترقا كل في سبيله، فمضى وانج المالك مهرولًا لأداء مهمته، وقفل وانج التاجر راجعًا إلى بيته لبحث عن زوجته ويتحدث إليها في الأمر.

عندما وصل إلى بيته كانت زوجته واقفة عند البوابة في الطريق المكسو بالثلوج وقد لفت يديها بمئزرتها لتبعث فيهما الدفء. غير أنها كانت تخرجهما من آن إلى آخر كي تتحسس بهما حويصلات الدجاج الذي يحمله أحد الباعة المتجولين لبيعه هناك. فقد أبخس هطول الثلوج من ثمن هذا الدجاج عن المعتاد لأن الدواجن لم تستطع العثور على طعامها، وكانت المرأة ترغب في أن تضيف دجاجة أو اثنتين إلى حظيرة دواجنها. وحينما اقترب منها وانج التاجر لم ترفع بصرها، بل استمرت ترمق الدجاج، لكنه طلب إليها وهو يمر بها أن تدخل إلى المنزل قائلاً: «حسبك يا امرأة، تعالي هنا».

حينئذ أسرع وانتقت دجاجتين، وبعد شيء من الشجار حول وزنهما في كفتي الميزان الذي علق به البائع الدجاجتين من أرجلهما موثوقة معًا، اتفقت معه على الثمن، ودلفت إلى البيت، حيث دفعت بالدجاجتين تحت أحد المقاعد، ثم جلست على المقعد منتحية ركنًا منه لتستمع إلى ما يرغب زوجها في الإفضاء به إليها، فقال بطريقته الجافة المقتضبة:

«إن أخي الأصغر يرغب في الزواج، إذ إن زوجته قد ماتت فجأة. إنني لا أفقه شيئاً عن النساء، أما أنت فقد كنت تحملقين فيهن طيلة هذين العامين، بحثاً عن زوجات لأبنائنا. ألا توجد واحدة منهن يمكننا أن نبعث بها إلى أخي هناك؟».

فأجابته زوجته على الفور، إذ كانت تنشرح للكلام في هذه الأمور، كالولادة والوفاة والزواج، وتتخذ منها مادة لحديثها دائماً:

«ثمة فتاة ملائمة تماماً كانت تسكن في البيت المجاور لنا في قريتنا. وهي طيبة جداً لدرجة أنني طالما تمنيت لو أنها صغيرة السن بحيث تناسب أكبر أبنائنا. إنها خير الفتيات في لطف سجيتهما، كما أنها مقتصدة للغاية، وليس بها من عيب على الإطلاق سوى أن أسنانها يعلوها السواد منذ طفولتها من جراء سوسة نخرت فيها كما يقال. لذا، فأسنانها تتساقط الآن أحياناً. إنها تخجل من هذا، وتحرص على أن ترخي شفتيها لتخفيهما، فلا يسهل رؤيتهما، ولهذا السبب، فهي مقلة جداً في الحديث، وصوتها خافت للغاية. كما أن أباه ليس بالرجل الفقير، فهو من ملاك الأرض، وسيسعد بمثل هذه الزيجة الطيبة، لا سيما وأنها قد تجاوزت الآن سن الزواج بعض الشيء».

فقال وانح التاجر بجفاف:

«إذا كانت مقلة في الحديث، فهذا شيء له قيمته. عليك أن تولي الأمر اهتمامك، وبعد الزفاف سنبعث بها إليه». ثم ذكر لزوجته بأن من المتفق عليه اختيار زوجتين لأخيه. فصاحت قائلة:

«حسنًا، إنني آسفة من أجله، إذا قدر له أن يأخذ امرأة من اختيار أخيك، فما الذي يعرفه من النساء سوى الفاجرات؟ أما إذا تدخلت زوجته في الأمر، فإني أقسم إنها ستختار له مخلوقة من صنف الراهبات، فقد ترامى إلى سمعي أن عقلها قد اختبل بالكهنة والراهبات في هذه الأيام، حتى إنها تريد من كل أهل البيت أن يظلوا دائمًا صامتين مبتهلين. حسب المرء في اعتقادي أن يذهب إلى المعبد بين الحين والحين، إذا كان ثمة مريض بالحمى أو امرأة عاقر، أو ما شابه ذلك. فأغلب الظن أن الآلهة تشبهنا جميعًا في عزوفنا عن الناس الذين يزعجوننا دائمًا، ولا يكفون عن زيارتنا من أجل أو ذاك!«.

ثم بصقت على الأرض، وحكت مكان البصقة بقدمها، ولما كانت قد نسيت الدجاجتين تحت المقعد، فقد دفعت بقدميها إلى الخلف، فاصطدمت بهما، وانطلقت منهما نقنقة حادة، فنهض وانج التاجر واقفًا، وصاح في صبر نافذ:

«لم أر قط مثل هذا البيت! ألزامًا علينا أن نجد الدجاج في كل مكان؟».

وحينما مدت يديها تحت المقعد في عجلة كي تسحب الدجاجتين خارجًا، وتشرح له كيف أن ثمنهما كان يومئذ أقل من المعتاد، قطع الحديث الذي شرعت فيه قائلاً:

«كُفِّي عن هذا.. كُفِّي، لا بد أن أعود الآن إلى أسواقى. فاهتمي بذلك الأمر، وسنقوم باستدعاء المرأة بعد شهرين أو نحو ذلك. فقد تذكرى جيدًا كل التكاليف، فالقانون لا يقتضي منا أن ندفع نفقات زواج أخينا

مرة أخرى».

هكذا أبرم الأمر، فخطبت الفتاتان، وحررت الوثائق، وسجل وانج التاجر التكاليف بعناية في دفاتر حساباته، وبعد مضي شهر من ذلك اليوم أقبل اليوم المحدد للزفاف.

كان يوم الزفاف قرب نهاية العام المنصرم، وعندما أبلغ به وانج النمر، تأهب للذهاب إلى بيت أخيه ليعقد قرانه ثانية. ومع أنه لم يقبل بوجدانه على هذا الزواج، فقد عزم عليه وتخلّى عن أي فكرة أو تردد يساوره. فأعد العدة مع أتباعه الثلاثة الأمناء الذين ناط بهم مهمة السهر على جيشه بدلاً منه، كما ترك ابن أخيه ليقوم بمهمة الرسول إذا ما نشأت أي متاعب في أثناء غيابه.

بعد أن فرغ من هذا، تظاهر بأنه يطلب من الحاكم الهرم السماح له بالتغيب خمسة أيام للزواج، فضلاً عن ستة أيام أخرى للقيام برحلة الذهاب والعودة، فسارع الحاكم بمنحه الإذن بالرحيل. وحرص وانج النمر على أن يذكر له أنه قد خلف وراءه أتباعه الأمناء، لئلا يراوده أمل غامض في التمرد عليه بصورة ما. حينئذ، وبعد أن ارتدى الملابس التي تأتي في المرتبة الثانية بعد أبهى ثيابه التي أخذها معه في صرة وضعها على سرج جواده، مضى جنوباً إلى مسقط رأسه، مصطحباً معه جماعة صغيرة من الحراس، قوامها خمسون من الرجال المسلحين، لأنه كان من الشجاعة بحيث لم يحط نفسه بمئات الحراس في الداخل والخارج، شأن الكثيرين من ملوك الحرب.

انطلق وانج النمر مخترقاً الريف الذي يجثم عليه الشتاء، وهو يتوقف

ليلاً في بعض النزل الريفية، ثم ينطلق مرة أخرى عبر الطرق المتربة التي تشيع فيها البرودة القارسة. لم تكن بشائر الربيع قد لاحت بعد، وامتدت الأرض أمام عينيه جافة غبراء، بل إن البيوت المشيدة من الطين القاتم المسقوف بالقش الرمادي، بدت وكأنها مجرد جزء من الأرض. حتى الناس الذين صفتهم الرياح والأتربة التي يثيرها شتاء الشمال بدوا غبر الوجوه بنفس لون الأرض. ولم يشعر وانج النمر بأي فرحة تشرق في قلبه طوال هذه الأيام الثلاثة التي قضاها منطلقاً على صهوة جواده صوب موطن أبيه.

وحينما وصل إلى موطنه، اتجه إلى بيت أخيه الأكبر، ما دام سيعقد زواجه هناك. وبعد أن ألقى إليهم بتحية مقتضبة قال فجأة إنه سيقوم قبل زفافه بأداء واجبه، فيذهب لتقديم فروض التبجيل والإجلال أمام قبر أبيه. وقد استصوب الجميع هذا الرأي، لا سيما زوجة وانج المالك، لأنه كان عملاً سديداً يليق بوانج النمر أن يفعله، بعد أن ظل هذه الفترة بعيداً عن موطنه، فلم يشترك في المناسبات الموسمية التي تقدم فيها الأسرة آيات التبجيل إلى موتاه.

بيد أنه، رغم إدراكه لواجبه وأدائه له ما وسعه ذلك، كان من دوافع قيامه به الآن، ذلك الشعور بالقلق والوحشة الذي يعتمل في أعماقه دون أن يدرك له سبباً. فهو لا يطيق أن يجلس خاملاً في بيت أخيه، ولا يطيق فرحة أخيه الجارفة بزفافه المقبل، ويشعر بضيق يحشم على أنفاسه، ولا بد أن يفكر في عذر ما يتذرع به للخروج والانطلاق بعيداً عنهم جميعاً، لأنه لا يحس أن هذا البيت موطنه.

عند ذلك بعث بأحد الجنود لشراء النقود الورقية والبخور، وما إلى ذلك من الأشياء التي تصلح للموتى، ثم انطلق بها إلى خارج المدينة، يتبعه رجاله في أعقاب جواده، حاملين بنادقهم على منابهم. وتسلسل إلى قلبه شعاع باهت هزيل من السلوى حين رأى كيف يحملق فيه الناس على طول الطريق. وبرغم أنه احتفظ بوجهه جامدًا، وتطلع بنظرة ثابتة إلى الأمام، متظاهرًا بأنه لا يرى أو يسمع شيئًا، إلا أنه سمع جنوده وهم يصيحون في خشونة:

«افسحوا الطريق للقائد، افسحوا الطريق لمولانا»، وحين رأى عامة الناس ينكمشون ملتصقين بالجدران، ومندفعين إلى مداخل البيوت، داخله شيء من الراحة؛ لأنه بدا في نظرهم على هذا القدر من العظمة، فشد قامته في أبهة وجلال.

وهكذا أقبل وانج النمر على المقابر الواقعة تحت شجرة النخيل، التي أصبحت الآن معقدة شعناء، برغم أنها كانت غضة ناعمة عندما اختار وانج لانج هذا المكان في بادئ الأمر ليكون مثوى لموتاه، وكانت شجيرات أخرى من النخيل قد انبثقت منها. وبعد أن ترجل عن صهوة جواده، وهو لما يزل على مبعدة من القبور، تعبيرًا عن احترامه، تقدم ويبدأ نحو هذه الأشجار، بينما وقف أحد الجنود ممسكًا بزمام الجواد الأحمر. وسار وانج النمر في تؤدة وجلال، إظهارًا للتبجيل والإكبار، حتى وصل إلى قبر أبيه. وهناك انحنى ثلاث مرات، ثم تقدم الجنود الذين يحملون النقود والبخور، فنسقوها بوضع الجانب الأكبر منها عند قبر وانج لانج، والقدر الذي يليه عند قبر والد وانج لانج، والذي يليه عند قبر شقيق وانج

لأنج، وأقلها عند قبر «أو - لان» التي لم يكن وانج النمر يتذكرها كأم له إلا بصورة باهتة.

إذ ذاك تقدم وانج النمر إلى الأمام ثانية، بطريقته الممتدة المتشامخة، وأشعل البخور والورق، ثم جثا على ركبتيه، وقرع رأسه على الأرض بعدد المرات التي يجدر به أن يقرعها أمام كل قبر. ولما فرغ من هذا، وقف دون حراك مستغرقًا في التأمل، والنيران تشتعل، فتحيل الأوراق المفضضة والمذهبة إلى رماد، والبخور يحترق، فتنبعث منه رائحة زكية نفاذة، تشيع في هواء ذلك اليوم القارس. ولم تكن ثمة شمس ساطعة أو ريح عاصفة، بل كان يومًا قارسًا أغبر، ينذر بسقوط الثلوج. وتصاعدت من البخور حلقات طفيفة من الدخان الدافئ، تبدو جلية في الهواء المشبع بالبرودة. وانتظر الجنود في صمت مطبق، على حين كان قائدهم يناجي أباه كما حلا له. وفي نهاية الأمر استدار وانج النمر مبتعدًا، واتجه نحو جواده، وامتنى صهوته، ومضى عائداً على طول الممر الذي أقبل منه.

ولكنه حينما كان مستغرقًا في التأمل، لم يكن يفكر مطلقًا في أبيه وانج لأنج، بل كان يفكر في نفسه، وكيف أنه حين يوارى التراب هناك، لن يكون ثمة من يأتي إليه ويقدم له فروض الاحترام التي يقدمها الابن لأبيه. وعندما طاف بذهنه هذا الخاطر، بدا له أمرًا طيبًا أنه سيقدم على الزواج، لذا استطاع أن يتحمل قليلًا تلك الوحشة الكامنة في روحه، على أمل إنجاب ابن له.

وكان الممر الذي انطلق فيه وانج النمر يتاخم عتبة البيت المشيد

من الطين، ويمر بحافة جرن الحنطة الذي يقع في الفناء أمام باب البيت. فأيقظت جلبة الجنود الفتى الأحذب الذي كان يعيش هناك مع بيرلوسوم، فخرج يحجل بكل ما أوتي من سرعة، ووقف يحملق فيهم. ولم يكن يعرف وانج النمر على الإطلاق، أو يعرف حتى إن هذا الرجل هو عمه، لذلك لم يفعل شيئاً سوى أنه وقف يحملق هناك على جانب الممر. وبرغم ما بلغه من السن - فقد ناهز السادسة عشرة وأشرف على طور الرجولة - فإنه بدا في وقفته لا يكاد يبلغ طول طفل في السادسة أو السابعة من عمره، وقد برز ظهره مقوساً كالكمة من وراء رأسه. وتملكت وانج النمر الدهشة عند رؤيته، فسأله وهو يشد عنان جواده:

«من أنت الذي تعيش هنا في بيتي المشيد من الطين؟».

حينئذ عرفه الصبي، فقد سمع أن له عمًا من القواد، وكثيرًا ما كان يحلم به، ويسائل نفسه ما شكله يا ترى؟ فصرخ قائلاً في شوق وحنين:

«هل أنت عمي؟».

إذ ذاك تذكره وانج النمر، فقال في بطاء، وهو ما زال يحملق إلى أسفل في وجه الصبي المتطلع إلى أعلى:

«أجل، لقد سمعت أن لأخي صبيًا مثلك. يا للعجب، فنحن جميعًا مشدودو القامة، أقوياء البينة إلى أبعد حد، وكذا كان أبي أيضًا، أشد الكهول قوة، وأصلبهم عودًا، حتى في شيخوخته».

فأجابه الصبي في بساطة - وكأنه قد اعتاد الأمر منذ أمد بعيد - وهو يحملق بشغف في الجنود وفي الجواد الأحمر الشامخ في أثناء حديثه قائلاً:

«لقد أُلقي بي على الأرض في طفولتي». ثم مد يده نحو بندقية وانج النمر ورنّا إلى أعلى بنظرة انبعثت من عينيه الصغيرتين الحزيتين الغائرتين في وجه العجوز الغريب، ثم قال في لهفة:

«لم يسبق لي أن أمسكت بيدي إحدى هذه البنادق الأجنبية، كم أود لو أمسكتها لحظة من الزمن».

وحينما مد يده الصغيرة الجافة المتغضنة وكأنها يد رجل هرم، ناوله وانج النمر بندقيته الخاصة يتلمسها ويتفحصها، بدافع مفاجئ من الإشفاق على هذا الصبي الأعرج التعس. وبينما هو ينتظر حتى يتملى منها الصبي، إذا بشخص يقبل نحو باب البيت، تلك كانت بيرلوسوم. عرفها وانج النمر لأول وهلة، إذ إن سميتها لم يتغير كثيرًا، سوى أنها أصبحت أكثر نحولاً عن ذي قبل، وأن وجهها الذي كان دائم الشحوب بيضاوي الشكل. أصبحت تغطيه غضون كالخيوط الدقيقة، مرسومة بخفة على بشرتها الشاحبة، غير أن شعرها كان ناعماً أسود كسابق عهده. فانحنى وانج النمر لها انحناء عميقة في جفاف شديد، دون أن يترجل من على صهوة جواده، وانحنت بيرلوسوم انحناء صغيرة، وكان من الممكن أن تتحول عنه بسرعة لولا أن وانج النمر ناداها قائلاً:

«أما زالت البلهاء على قيد الحياة وفي صحة جيدة؟».

فأجابت بيرلوسوم بصوتها الرقيق الخافت:

«إنها بخير».

وعاد وانج النمر يسألها:

«هل تنالين حَقَّ كاملاً كل شهر؟».

فأجابته ثانية بنفس الصوت: «أشكرُك، إنني أحصل على حقي كاملاً». وظلت في أثناء الحديث تطرق برأسها، وهي تنظر إلى أرض الجرن المطروق. وما إن أجابته هذه المرة حتى انصرفت في سرعة خاطفة، وتركته يحملق في مدخل الباب الخاوي.

حينئذ قال للصبي فجأة:

«لماذا ترتدي ثوباً كثياب الراهبات؟» إذ إنه لاحظ -دون أن يفكر- أن أردية بيريلوسوم الرمادية اللون متقاطعة عند عنقها، شأن ثياب الراهبات. وأجاب الصبي، وهو لا يكاد يفكر فيما يقوله، لأن قلبه كان يهفو متعلقاً بالبندقية وهو يلمسها بأنامله ويتحسس خشبها:

«عندما تموت البلهاء، ستدخل أحد الأديرة بمقربة من هنا لتتخرط في سلك الراهبات. إنها لا تأكل الآن لحمًا على الإطلاق، وتحفظ كثيرًا من الصلوات عن ظهر قلب. وهي الآن فعلاً راهبة علمانية. ولكنها سوف لا تولي ظهرها للعالم وتقص شعرها قبل أن تموت البلهاء، لأن جدي قد تركها لها لتعنى بأمرها».

حين سمع وانج النمر هذا، ظل صامتًا برهة، وقد استولى عليه شيء من الألم الغامض، وأخيرًا قال للصبي في رثاء:

«وماذا ستفعل حينئذ، أيها القرد الأحب المسكين؟».

فأجابه الصبي: «عندما تدخل الدير، سأصبح كاهنًا في المعبد، إذ ليس بوسعها أن تنتظر موتي أنا الآخر، لأنني صغير السن ولا بد أن يمتد بي

العمر. ولكنني إذا ما أصبحت كاهناً يمكنني أن أحصل على الطعام، وإذا ما حل بي المرض -وأنا أكاد أكون دائم المرض بهذا الذي أحمله على كاهلي- حيثئذ يمكنها أن تأتي لتقوم برعايتي، ما دمنا أقرباء». قال الصبي هذا بدون اكتراث، ثم تغيرت نبرات صوته وكاد ينشج بالبكاء في شيء من الانفعال، وسما بعينه إلى وانج النمر هاتفاً:

«أجل، سأصبح كاهناً، ولكن، أوه، يا ليتني كنت منتصب القامة لأصبح جندياً، ليتك تأخذني يا عماه!».

واتقدت عيناه القائمتان الغائرتان، حتى لقد اهتزت مشاعر وانج النمر، فأجاب في أسى، لأنه كان رجلاً رحيماً في أعماق قلبه:

«كان من الممكن أن آخذك بكل سرور، أيها المخلوق التعس، ولكن بالصورة التي أنت عليها، ماذا يمكنك أن تكون سوى كاهن!».

فبرز رأس الصبي من داخل تجويفه العجيب، ثم قال في صوت رفيع خافت:

«إنني أعلم هذا».

وبغير أن يتفوه بكلمة أخرى، أعاد البندقية إلى وانج النمر، واستدار، ثم ابتعد ظالماً عبر جرن الحنطة. ومضى وانج النمر في طريقه إلى حفل زفافه.

كان هذا الزواج غريباً بالنسبة إلى وانج النمر، إذ لم يكن على أحر من الجمر هذه المرة، وتساوى عنده الليل والنهار. ومر بكل اجراءات الزواج في صمت ولياقة، شأنه في كل شيء يتحتم عليه القيام به، ما لم تستبد به

ثورة الغضب. بدا الآن وكأنما الحب والغضب على السواء قد ابتعدا عن قلبه الهامد إلى الأبد. ولاحت له هيئة العروس في ردائها الأحمر كصور باهتة نائية لا تربطه بها صلة على الإطلاق، كذلك بدا الضيوف أيضًا، وكذا لاحت له هيئة أخويه وزوجاتهما وأطفالهما، وهيئة لوتس المدينة الهائلة وهي تتكئ على كوكو. ومع ذلك تطلع إليها مرة، إذ كانت تلهث وهي تلتقط أنفاسها من شدة ثقلها بما تحمله من شحم ولحم، وقد سمع لفح أنفاسها الكثيفة، حين وقف لينحني لأخويه الكبيرين، ولأولئك الذين تكفلوا بأمر المرأة، وللضيوف، ولكل أولئك الذين تُحتم عليه الرسميات الانحناء لهم.

وعندما بسطت وليمة الزفاف، كان نادرًا ما يتذوق من هذا الصنف أو ذاك. وحين شرع وانج المالك في إلقاء دعاياته - لأنه ينبغي أن يسود المرح حتى في زفاف رجل للمرة الثانية - وحاول أحد الضيوف أن يجاريه في الضحك، لم يلبث المرح أن خفت، ثم تضاعف، حتى طواه الصمت إزاء وجه وانج النمر الصارم الوقور الذي لم ينبس ببنت شفة في وليمة زفافه، سوى أنه عندما جيء بالخمير أسرع برفع طاسه وكأنه ظمآن. لكنه، بعد أن تذوقها، وضع الطاس ثانية، قائلاً في خشونة:

«لو أنني علمت أن الخمر لن تكون أجود من هذه، لأحضرت معي دناً من خمري إقليمي».

وما إن انتهت أيام الزفاف حتى امتطى صهوة جواده الأحمر، ورحل دون أن يلقي نظرة واحدة على العروس ووصيفتها، اللتين أقبلتا من خلفه في عربة تجرها الدواب، مسدلة الستائر. كلا، لقد انطلق بجواده، وكأنه

يمضي وحيداً كما كان عند مقدمه، يتقدم جنوده في أعقابهِ، والعربة تتحرك في تناقل من خلفهم. هكذا جاء بعروسه إلى إقليمه. وفي غضون شهر أو اثنين أو أكثر قليلاً، أقبلت المرأة الثانية في رعاية أبيها، فاستقبلها هي الأخرى، ما دام أن واحدة أو اثنتين سواء بالنسبة له.

حينئذ اقترب العام الجديد، وانقضت مهرجاناته وما إلى ذلك، ثم أقبلت الفترة التي بدأ فيها الربيع يتحرك أولاً في أعماق الأرض، رغم أن بواده لم تكن قد لاحت بعد على أي ورقة من أوراق الأشجار. ومع ذلك كانت ثمة بشائر للربيع، ذلك أن الثلوج إذا ما هطلت في يوم قاتم قارس البرودة، لم تكن تجثم على الأرض، بل تذوب من حرارة الرياح الدافئة المفاجئة، التي كانت تهب من الجنوب في لفحات متقلبة متقطعة، كما أن نبت القمح في الحقول -ولو أنه لم يكن قد نما بعد- كسته خضرة غضة. وفي كل مكان تحرك الفلاحون، وقد نفضوا عنهم خمول الشتاء، وانكبوا على فؤوسهم ومدقاتهم، وزادوا قليلاً من طعام ثيرانهم؛ لكي يعدّوها للعمل. وبدأت بواد الحشائش تنبثق من الأرض على جوانب الطرق. وأخذ الأطفال يطوفون هنا وهناك حاملين مداهم، أو قطعاً مديبة من الخشب والصفيح إذا لم توجد لديهم مدى، كي ينقبوا بها عن العشب الأخضر الغض، ليتخذوا منه طعاماً.

كما تحرك أيضاً ملوك الحرب في ثكنات الشتاء، ومط الجنود أجسامهم الممتلئة بالطعام، فقد ضاقوا ذرعاً بلعب الميسر والعراك والتسكع في أنحاء المدن التي كانوا يتحصنون فيها، ودبت فيهم الحركة، وأخذوا يسألون أنفسهم عما عساه يخبئه لهم القدر في حروب الربيع

المقبلة. وراح كل جندي يحلم قليلاً، يحدوه الأمل في أن يُقتل واحد ممن يعلونه مرتبة حتى يخلو له مكانه.

كذلك كان وانج النمر يحلم بما سيقدم عليه. أجل، لقد كانت في جعبته خطة ما، خطة طيبة، بوسعه الآن أن ينفذها، إذ بدا له أن حبه الذي كان يلح عليه وينخر في ضلوعه قد مات. أما إذا لم يكن قد مات، فهو إذن دفين في أعماقه. وكان كلما أرقته ذكراه، يمضي عامداً إلى إحدى زوجتيه. ولئن توانى جسده، كان يستثيره بالإغراق في شرب الخمر.

ولما كان رجلاً عادلاً للغاية، فإنه لم يبد لأي منهما رعاية تفوق الأخرى، برغم أنهما كانتا مختلفتين تماماً. فإحدهما مثقفة مهذبة، تبعث على الرضا بطريقة بسيطة هادئة، في حين أن الأخرى كانت على شيء من الخشونة، ولكنها مع ذلك امرأة طيبة القلب تتحلى بالفضيلة. وكان أكبر ما يعيها هو أن أسنانها يعلوها السواد، وأن فمها تفوح منه أبخرة كريهة إذا اقترب منها أحد. وكان من حسن حظ وانج النمر أن هاتين المرأتين لم يكن ينشب بينهما العراك. وما من شك أن عدالته قد ساعدت على استتباب السلام بينهما، فقد كان مدققاً في مسلكهن يذهب إلى كل منهما بدورها، والحق أنهما كانتا بالنسبة إليه على قدم المساواة، لا تعينان شيئاً على الإطلاق.

بيد أنه لم يعد الآن بحاجة لأن يرقد وحيداً، ما لم يكن راغباً في الوحدة. ومع ذلك لم يرفع الكلفة مطلقاً مع أي منهما، فكان دائماً يدخل عليهما في تشامخ لتحقيق مأرب معين، دون أن يتجاذب معهما أطراف الحديث، أو ييوح لهما بالهوى، كما كانت الحال بينه وبين المرأة الميتة،

ولم يكن قط يمنحهما جسده منطلقاً دون قيود.

وأحياناً ما كان يمعن الفكر في اختلاف المشاعر التي قد يحسها الرجل نحو النساء، فيحدث نفسه في مرارة بأن المرأة الميتة لم تكن يوماً صريحة حقاً معه. كلا، لم تكن صريحة معه ولا حتى كانت تبدو كالعاهرات في انطلاقها، فقد كانت طوال الوقت تطوي الخطة التي تدبرها ضده في أعماق قلبها. وحين يطوف هذا بخاطره، يعود فيختم قلبه، ويهدئ من ثورة جسده بوصال زوجته. كما كان في قلبه هذا الأمل، هذا النور الذي يضيء الطريق لطموحه: وهو أنه في نهاية الأمر سيحصل يقيناً على ابن له من إحدى الاثنتين. بهذا الأمل راح يغذي أحلام مجده مرة أخرى، وأقسم إنه في نفس هذا العام، وفي هذا الربيع بالذات، سيتقدم إلى الأمام ليخوض غمار حرب عظمى في مكان أو آخر، فيظفر بالنفوذ والسلطان في ربوع واسعة. ولاح له أن النصر قد أصبح الآن ملك يمينه.



وبينما الربيع يتفتح، والأرض الخضراء تفتشرها أشجار الكرز البيضاء، وبراعم الخوخ الوردية المستحبة وكأنها غيوم باهتة، أخذ وانج النمر يتشاور مع أتباعه الأمناء بشأن الحرب. كانوا في انتظار أمرين: أولهما أن يروا كيف ستتجدد الحرب بين ملوك الشمال والجنوب، لأن الهدنة التي عقدوها في العام المنصرم، كانت ضعيفة واهية للغاية، لم تكن سوى هدنة لفترة الشتاء، حين يتعذر خوض المعركة في الرياح والثلوج والأوحال. وفضلاً عن هذا، فإن ملوك الشمال وملوك الجنوب كانوا يختلفون كل الاختلاف في طبيعة تكوينهم. فملوك الشمال يتسمون بضخامة الجسم، وببطء الحركة، والشراسة. في حين أن الآخرين كانوا رجالاً صغار القدود، من ذوي الحيلة، بارعين في المكيدة، ونصب الكمائن. فلم يكن بالأمر اليسير عليهم أن يتفوقوا على هدنة طويلة الأمد وهم على هذا التباين في الطباع، بل حتى في الدم واللغة. أما الأمر الآخر الذي كان ينتظره وانج النمر ومعه أتباعه الأمناء، فهو عودة العدد الكبير من الجواسيس الذين كان قد أطلقهم في مطلع العام، وبينما هم ينتظرون، أخذ وانج النمر يتشاور مع أتباعه الأمناء بشأن الربوع التي يمكنهم أن يضموها إلى ممتلكاتهم، فيوسعوا نطاق إقليمهم.

وراحوا يتبادلون المشورة معاً في الحجرة الكبرى التي يستخدمها وانبج النمر لشؤونه الخاصة. هناك جلسوا، كل حسب منزلته، ثم قال الصقر:

«لا يمكننا أن نتجه شمالاً؛ لأننا ندين بالولاء لملوك الشمال».

وقال جزار الخنازير في صوت جهير، إذ كان من عادته أن يردد كلام الصقر كرجع الصدى بطريقة فظة، لأنه لم يرغب في أن يظنه الرجل أقل حكمة من الصقر، مع أنه لم يكن من السهل عليه أن يفكر في شيء جديد يقوله:

«بل حتى إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنه إقليم فقير مجذب، والخنازير هناك كريهة عجفاء لدرجة أن ذبحها لا يجدي نفعاً. لقد رأيت هذه الخنازير، وأقسم إن ظهورها حادة كالمناجل المقوسة، بل يمكن حصر عدد صغار الخنازير وهي بعد أجنة في بطن أمها. إنها ليست بالبلد الذي يرغب أحد في أن يشن عليه حرباً ليجني من ورائها شيئاً».

بيد أن وانبج النمر قال في تودة:

«رغم ذلك، فلا يمكننا أن نتجه جنوباً، لأننا إذا فعلنا، فسنضرب بني وطني وعشيرة أبي، وليس بوسع المرء أن يفرض الضرائب على أهله كيفما شاء، وهو مرتاح البال».

أما التابع الأشرم، فقد كان مُقلِّلاً في حديثه، لا يتحدث قط حتى يفرغ الآخرون ما في جعبتهم من كلام، فقال الآن بدوره:

«ثمة إقليم، كان موطني في يوم من الأيام، لكنه لا يعينني الآن في

شيء. إنه يقع جنوب شرقي الإقليم، بيننا هنا وبين البحر. إقليم يفيض بالخيرات، يشرف أحد أطرافه على البحر. وهناك مقاطعة بأكملها تمتد على طول ضفة نهر هناك يصب أيضًا في البحر. إنه إقليم خصيب، مليء بالحقول، كما توجد به سلسلة من التلال المنخفضة، ويزخر النهر بالأسماء. وعاصمة الإقليم هي المدينة الكبرى الوحيدة، لكن يوجد عدد كبير من القرى والمدن التي تقام فيها الأسواق. وأهلها مقتصدون ناجحون في عملهم».

استمع وانج النمر إلى هذا، ثم قال:

«أجل، بيد أنه ليس من المحتمل أن يخلو مثل هذا المكان الطيب من أحد ملوك الحرب. فمن هو؟».

فذكر الرجل الأمين اسم رجل كان من زعماء اللصوص في يوم من الأيام، وفي العام المنصرم بالذات غامر هذا الرجل بمصيره مع ملوك الجنوب. ما إن سمع وانج النمر هذا الاسم، حتى قرر على الفور أن يهاجم زعيم اللصوص ذاك، فهو لا يزال يذكر حتى ذلك اليوم مدى كراهته لأهل الجنوب، ويذكر كيف كان أرزهم الطري ولحومهم المتبللة لا طعم لها، وكيف أنه لم يكن عندهم طعام يستطيع المرء أن يعمل فيه أسنانه الحادة ليلوكة بينها. وعادت به الذاكرة إلى سنيّ شبابه البغيضة، فصاح قائلاً:

«إنه المكان الذي أنشده، والرجل الذي أريدته. فهذه الحرب ستوسع نطاق نفوذي، كما سيكون لها وزنها في الحروب العامة أيضًا!».

بهذه السرعة الخاطفة تقرر الأمر، وصاح وانج النمر في أحد الخدم

أن يأتي بالخمير، فشرب الجميع. وأصدر وانج النمر أوامره بأن يتأهب الجنود للتحرك، وأن يزحفوا إلى البقاع الجديدة حالما تعود طليعة الجواسيس، ليدلوا بما ستكون عليه الحرب العظمى في هذا العام. حيثئذ، نهض الأتباع الأمناء ليستأذنوا منه في الانصراف، حتى يضعوا هذه الأوامر موضع التنفيذ، بيد أن الصقر تريث حتى انصرف الآخرون، ثم انحنى وأخذ يهمس في أذن وانج النمر بصوت أجش، وأنفاسه الساخنة تلفح وجنتيه، وقال:

«لابد لنا أن نمنح الجنود الأيام المعتادة لاغتنام الأسلاب بعد المعركة؛ إذ إنهم يغمغمون فيما بينهم، ويتذمرون من أنك تضيق عليهم قبضتك، وأنهم لا يتمتعون بامتيازات تحت لوائك كالتي يمنحها ملوك الحرب الآخرون لجنودهم. سوف لا يقاتلون ما لم يتمكنوا من السلب والنهب».

عندئذ أخذ وانج النمر يقرض الشعر الأسود الخشن الذي كان قد تركه ينمو حول شفتيه في تلك الأيام، ثم قال كارهاً، إذ كان يعلم أن الصقر على حق في رأيه:

«حسنًا، إذن أخبرهم أنهم سيمنحون ثلاثة أيام عندما يعقد لنا لواء النصر. ثلاثة أيام لا أكثر».

فانصرف الصقر وهو راض كل الرضا. في حين ظل وانج النمر جالسًا، وقد استولت عليه الكآبة حينًا، لأنه كان حقًا يمقت هذا السلب من الناس، ومع ذلك، فما الذي يمكنه أن يفعله، نظرًا لأن الجنود لن يخاطروا بأرواحهم في القتال ما لم يحصلوا على هذه المكافأة؟ لذلك، برغم أنه

أبدى موافقته، فقد ظل قلقًا مضطربًا لفترة ما؛ إذ لم يتمالك أن يتمثل في ذهنه صورة العذاب الذي يكابده الناس على أيدي الجنود. وراح يستمطر على نفسه اللعنات؛ لأنه رجل بالغ الرقة بالنسبة إلى الحرفة التي اختارها لنفسه. وأكره نفسه على أن يكون قاسيًا، وحدثته نفسه أنه -على الرغم من كل شيء- لا بد وأن يتحمل الأثرياء معظم الخسارة، ما دام الفقراء لا يملكون شيئًا ذا قيمة، أما الأثرياء، فبوسعهم أن يتحملوا الغرم. بيد أنه أحس بالخجل، لأنه ضعيف إلى هذا الحد، ولم يكن مستعدًا مهما كان الثمن أن يدع أحد رجاله يعلم أنه يقشعر من رؤية الألم، خشية أن يزدريه.

ثم ارتد الجواسيس واحدًا في إثر الآخر، وقدم كل بدوره تقريره إلى قائده.. ذكروا له أن الحرب، وإن تكن لم تندلع بعد، إلا أن ملوك الشمال وملوك الجنوب يتعاونون الأسلحة من البلدان الخارجية، وأن الحرب لا بد مقبلة؛ لأن الجيوش تزداد قوة وعددًا في كل مكان.. عندما سمع وانج النمر هذا، وطد العزم على أن يشرع دون توان في حربه الخاصة. وفي نفس ذلك اليوم، أمر رجاله بأن يحتشدوا في أحد الحقول خارج بوابات المدينة، إذ كان هناك عدد هائل منهم، لا يمكن أن يتجمع داخل المدينة. واتجه إلى هناك على صهوة جواده الأحمر الشامخ، يتبعه حرسه الخاص، وإلى يمينه تقدم ابن أخيه المجذور الذي لم يعد يركب حميرًا، بل أصبح الآن يعتلى جوادًا أصيلًا، بعد أن عهد إليه عمه بأحد المناصب في الإقليم. وكان وانج النمر يشد قامته في تشامخ وكبرياء، وقد تعلق به أبصار رجاله جميعًا يخيم عليهم الصمت. والحقيقة أنه كان محاربًا لا يوجد كثير من أضرابه في العالم، فسمته مهيب قوي، وحاجباه كثيفان

ضاريان، وفوق شفتيه كان الشعر الذي تركه ينمو حديثاً يضيف عليه طابعاً أكبر من سني عمره الأربعين. هكذا ظل أمامهم دون حراك على ظهر جواده، وتركهم يحملقون فيه هنيهة. وعلى حين غرة، رفع صوته عاليًا في صيحة مدوية، وهو يوجه النداء إلى كل رجاله.

«أيها الجنود الأبطال! ستة أيام من باكر، بعدها سوف أزحف في اتجاه الجنوب الشرقي، وسوف نستولي على ذلك الإقليم، إنها أرض غنية، خصبة تتاخم النهر والبحر. سوف أقسم معكم ما أغتمه هناك. عليكم أن تنقسموا إلى قسمين تحت إمرة تابعي الأمنين، فيتقدم الصقر من ناحية الشرق، وجزار الخنازير من الغرب. أما أنا، ومعني خمسة آلاف من خيرة الرجال، فسوف أنتظر ناحية الشمال. وبعد أن تشنوا الهجوم من الجانبين، وتضيّقوا الخناق على المدينة، التي هي مركز الإقليم، سوف أندفع بجنودي، وأقضي على المقاومة الأخيرة وأسحقها سحقاً. يوجد هناك أحد ملوك الحرب، ولكن ما هو إلا لص، وقد سبق أن أظهرتم لي في بسالة كيف يمكنكم أن تتعاملوا مع اللصوص يا رفاقي الطيبين!».

ثم استطرد قائلاً، وإن يكن على مضض، مع أنه قد قسا قلبه ليفوه بهذا القول: «إذا كتب لكم النصر، فستألون حرية السلب في تلك المدينة مدة ثلاثة أيام. ولكن هذه الحرية تنتهي عند فجر اليوم الرابع. ومن لا يستجيب لنداء الأبواق التي سأمّر بإطلاقها حينذاك لتكون نذيراً لكم، فسوف أقتله قتلاً. لست أخشى القتل أو أهاب الموت. هذه أوامري إليكم. اللهم قد بلغت!».

فهتف الرجال وأخذوا يتمللملون في أماكنهم على أحر من الجمر.

وما إن انصرف وانج النمر حتى استبدت بهم اللهفة والجشع والرغبة في الانطلاق. وأخذ كل رجل يفحص أسلحته وينظفها ويشحذها، ويحصي عدد الطلقات التي في جعبته. وفي ذلك الحين، كم من رجل قايض الآخرين للحصول على طلقات الرصاص. فأولئك الذين يملكهم الضعف إزاء شهوة الخمر أو النساء، كانوا يبيعون ما في حوزتهم من طلقات الرصاص، بقدر ما أوتوا من جرأة على ذلك، لتحقيق ما تصبو إليه نفوسهم من شهوات.

وفي فجر اليوم السادس، قاد وانج النمر جيشه الهائل خارج المدينة. ولكن على الرغم من ضخامة هذا الجيش، فقد ترك وراءه ما يقرب من نصفه، ومضى إلى الحاكم الهرم الذي كان ملازمًا فراشه لا يبارحه مطلقاً من شدة ضعفه، وقال له إنه قد ترك الجيش لحمايته وحماية قصره. فشكره الحاكم بطريقته الواهنة المجاملة، وإن كان يعلم جيداً أن هذا الجيش إنما ترك هناك بمثابة حرس لمراقبته. وكان التابع الأشرم على رأس ذلك الجيش، فكان موقفه عسيراً، لأن الجنود تدمروا لتركهم بالمدينة، حتى لقد اضطر وانج النمر أن يعدهم بمنحة إضافية من الفضة إن هم أحسنوا عملهم وسهروا على الحراسة بإخلاص، كما وعدهم بأن تكون الحرب المقبلة من نصيبهم، وبذلك أحسوا بشيء من الرضا، أو على الأقل أصبحوا أقل تضجراً من ذي قبل.

ومن ثم انطلق وانج النمر على رأس جيشه، وعمل على أن يذاع بين أهل المدينة أنه منطلق من أجلهم ليشن الحرب ثانية على عدو معتد قادم من الجنوب. فأحس الناس بالخوف، وتلهفوا على إرضائه، فأهدته طائفة

التجار مبلغاً من المال، وسار عدد كبير من أهل المدينة في أعقاب الجيش حين مغادرته المدينة في ذاك اليوم، وانتظروا حتى رفع لواء وانج النمر عاليًا أمام أعينهم، وقدمت إليه القرايين من الخنازير الذبيحة والبخور كي يؤازر حسن الطالع هذه الحرب.

وبعد ذلك، مضى وانج النمر في طريقه قدمًا، يحدوه الجدد والحماسة. ولشن هذه الحرب، لم يصطحب رجاله وأسلحتهم فحسب، بل لقد حمل معه أيضًا كمية وفيرة من الفضة، لأنه كان قائدًا من المهارة بحيث لا يخوض غمار المعركة على الفور، بل يتفاوض مع العدو أولاً، ويتنظر ليرى كيف يمكن استغلال الفضة في تحقيق هدفه. فلو أن الفضة لم تجد نفعًا في بداية الأمر، فهي على أقل تقدير قد تحققت شيئًا في النهاية، عن طريق رشوة أحد الشخصيات الهامة؛ كي يفتح له بوابات المدينة.

إذ ذاك كان منتصف الربيع، وقد نمت أعواد القمح إلى ما يقرب من قدمين ارتفاعًا، وأصبحت يانعة للحصاد، تفتersh أميالًا شاسعة في تلك المنطقة من الريف. فجال وانج النمر ببصره في أرجاء تلك الأرض الخضراء، وهو منطلق على صهوة جواده، فداخله شعور بالزهو لجمالها وخصوبتها، فهي أرضه التي يسط عليها نفوذه وأحس نحوها بالحب كشأن أي ملك يحب مملكته. ولكنه كان فطنًا حكيماً، فرغم أنه راح يتملى من جمالها، فإنه ظل أيضًا يشحذ ذهنه بحثًا عن منطقة جديدة يفرض عليها ضريبة ما؛ لأنه يجب أن ينفق على جيشه العرمرم، ويزيد ذخيرته من المال في نفس الوقت.

هكذا خرج من إقليمه. وبعد أن توغل جنوبًا حتى أقبل على أحراش

من أشجار الرمان حيث رأى أغصانها المعقدة الغبراء وقد انبثقت منها وريقاتها الجديدة المتوهجة اللون، التي تنمو متأخرة في الربيع بعد أن تورق كل الأشجار الأخرى، حينذاك أدرك أنه في ربوع الأرض الجديدة التي ينشدها. وتلفت من حوله هنا وهناك، ليتبين نوع هذه الأرض، فإذا به يري في كل مكان حقولاً خصبة مثمرة، ودواب تظهر عليها آثار الغذاء الجيد، وأطفالاً ممتلئين مكتنزين، فأثلج كل ذلك صدره. ولكن في أثناء مروره على رأس رجاله، كان الفلاحون في تلك الأرض يتطلعون إليهم بوجوه متجهمة. كما أن النساء اللائي كن قبل لحظة يتجاذبن أطراف الحديث ويتصاحكن معاً بالقليل والقال، خيم عليهن الصمت، وعلا وجوههن الشحوب، وهن يحملقن في الجنود. وكم من أم حجبت عيني طفلها بيدها حتى لا يرى منظرهم. أما إذا انطلقت أناشيد الحرب من حناجر الجنود، كما كانوا يفعلون مراراً في أثناء زحفهم، حينئذ كان الرجال في حقولهم يصبون عليهم اللعنات؛ لأن أصواتهم تمزق السكون على هذا النحو. حتى الكلاب كانت تندفع في شراسة إلى خارج القرى تريد أن تعقر أولئك الغرباء، ولكنها حين ترى ذلك الحشد الهائل، يصيها الفزع، فتكشمش متراجعة وهي تطوي ذيولها تحت بطونها. وبين الفينة والفينة، كان أحد الثيران يفزع من الضجة التي يثيرها مرور هذا الحشد من الرجال، فيفلت من مربطه ويلوذ بالفرار بأقصى سرعة ممكنة. أما إذا كان مشدوداً إلى المحراث، فقد يحدث أحياناً أن ينطلق جأراً وراءه المحراث بما فيه، والفلاح الحارث في إثره، إذ ذاك يقهقه الجنود بصوت عال، في حين أن وانج النمر كان إذا رآه، يتوقف عن المسير في لطف، ريثما يسيطر

الرجل على دابته.

كذلك خيم الصمت والذهول على الناس في المدن والكفور عندما أقبل الجنود يشقون طريقهم عبر البوابات وهم يصيحون ويضحكون ويتهافتون على الشاي والخمر والخبز واللحم. وتجهمت وجوه أصحاب الحوانيت من وراء مناخذ الخدمة؛ لأنهم كانوا يخشون ضياع بضائعهم دون مقابل، حتى إن بعضاً منهم أغلقوا الأبواب الخشبية على حوانيتهم المفتوحة كما لو كان الليل قد أرخى سدوله. بيد أن وانج النمر كان قد بادر بإصدار أوامره إلى رجاله بألا يغتصبوا شيئاً دون دفع الثمن. ووزع عليهم المال لشراء ما يحتاجون إليه من طعام وشراب. ومع ذلك، فقد كان يدرك جيداً أن خير القادة لا يمكن أن يسيطر تماماً على هذه الآلاف المؤلفة من الجنود المتمردين على القانون.

وبرغم أنه قال لضباطه إنه سيعتبرهم مسؤولين عما يحدث، فقد كان يعلم أن شروطاً لا يستهان بها سوف تقترب يقيناً. فلم يسعه إلا أن يصيح فيهم قائلاً: «إذا بلغني شيء، فسوف أقتلكم قتلاً».. واعتمد على أن رجاله سيكبحون جماح أنفسهم بعض الشيء، كما أنه حاول من جانبه أن يتغاضى عن بعض جرائمهم. على أنه دبر هذه الخطة للسيطرة على رجاله إلى حد ما، فعندما كانوا يقبلون على إحدى المدن كان يأمرهم بالبقاء في إحدى الضواحي خارجها، ويمضي هو أولاً إلى المدينة وبصحبه حوالي مائة من الرجال، ثم يبحث عن أكثر التجار ثراء في تلك المدينة. وحين يعثر عليه يأمره بأن يجمع التجار الآخرين، بينما ينتظر هو في حانوت ذلك التاجر الثري. وحينما يمثل جميع التجار أمامه في خوف وتأدب

بالغ، يعتمد هو إلى الأدب والمجاملة أيضًا، فيقول لهم:

«لا تخشوا أن أكون متعسفًا معكم، فأخذ أكثر مما ينبغي أن أخذه. حقًا إن عندي آلافًا كثيرة من الرجال في الضواحي، ولكنكم إذا أعطيتُموني قدرًا معقولًا من المال أنفق منه على جيشي في أثناء الزحف، فسوف أقودهم إلى الأمام، ولا نمكث هنا إلا هذه الليلة».

حينئذ، يقدم إليه التجار - وهم شاحبون جزعون - المتحدث باسمهم الذي يقع اختيارهم عليه، فينطق متلعثمًا بمبلغ ما. بيد أن وانج النمر كان يدرك جيدًا أن هذا أقل مبلغ يمكنهم تحديده له، فيبتسم في فتور، ولكنه يقطب حاجبيه في أثناء ابتسامته ويقول:

«إنني أرى الحوانيت الفاخرة التي تملكونها: حوانيت الزيوت وأسواق الغلال والحرير والأقمشة، وأرى كيف يتمتع قومكم بالمأكول والملبس الحسن، وكيف تبدو شوارعكم معبدة جميلة. أتدعون أن مدينتكم صغيرة فقيرة إلى هذا الحد؟ عار عليكم أن تذكروا هذا المبلغ التافه!».

وهكذا، كان يحملهم على رفع المبلغ بأسلوب مهذب لطيف، دون أن يتوعدهم قط في غلظة وخشونة كما يفعل بعض ملوك الحرب، أو يصيح فيهم مهددًا بإطلاق العنان لجنوده في المدينة إن لم يحصل منهم على المبالغ الطائلة. كلا، فما كان وانج النمر يلجأ إلا إلى الوسائل العادلة، إذ كان يردد دائمًا أن أولئك التجار من حقهم أن يعيشوا، ولا ينبغي مطالبتهم بأكثر من القدر المعقول الذي يمكنهم دفعه. وكان أسلوبه المجامل المهذب يؤدي في نهاية الأمر إلى حصوله على المبلغ

الذي يطلبه، فينتهج التجار لأنهم تخلصوا منه ومن حشوده بهذه السهولة. على هذا النحو، زحف وانج النمر برجاله في اتجاه الجنوب الشرقي، حيث يقع البحر، وكلما توقف في إحدى المدن كان يحصل من التجار على مبلغ من المال، ثم يمضي في طريقه عند الفجر، فينتهج الناس لرحيله. أما في الكفور الفقيرة أو القرى الصغيرة، فلم يكن ليطلب شيئاً من الناس، اللهم إلا النزر اليسير من الطعام، أقل ما يمكن أن يأخذه منهم. ظل وانج النمر يقود رجاله سبعة أيام وسبع ليال. وفي نهاية تلك الأيام، كان قد أصاب شيئاً من الثراء من المبالغ التي حصل عليها، فأصبح رجاله يحصلون على الطعام الجيد، ويتمتعون بروح معنوية عالية، ويفيضون بالأمل. وفي نهاية تلك الأيام السبعة لم يبق أمامه سوى مسيرة يوم واحد، ثم يبلغ المدينة التي عوّل على اتخاذها عاصمة لهذا الإقليم بأسره، فانطلق بجواده إلى قمة أحد التلال المنخفضة، حيث أمكنه أن يلقي نظرة عليها. وهناك كانت تبدو تلك المدينة كالكنز النفيس، تحيط بها أسوارها، وسط الحقول الخضراء، فقفز قلبه في جنبات صدره حين رآها على هذا القدر من الجمال والروعة تحت قبة السماء المشرقة. وهناك كان النهر -الذي سمع عنه- يتدفق أيضاً، وكانت البوابة الجنوبية للمدينة تلامس حافته، فبدت تلك المدينة لناظريه وكأنها جوهرة معلقة في سلسلة من الفضة. ومن ثم بعث برسله إلى هناك على جناح السرعة، معلناً لملك الحرب الذي يسيطر على المدينة أنه - وانج النمر - قد أقبل قادماً من الشمال، ليخلص الناس من شرور اللص، فإذا لم ينسحب هذا في هدوء وسلام على أن يتقاضى مبلغاً محدداً من المال، حينئذ سيضطر

وانج النمر إلى الزحف لمهاجمة المدينة على رأس عشرات الألوف المؤلفة من جنوده البواسل المدججين بالسلاح.

وكان ملك الحرب في تلك البقاع، لصًا هرمًا يتسم بالجرأة الفائقة، رجلاً بلغ من سواد لونه وقبح صورته أن الناس سموه باسم الإله الأسود المخيف الذي ينتصب في الأبهاء الأمامية للمعابد بمثابة حارس لها، ومن ثم كان ملك الحرب هذا يدعي «ليو الإله حارس البوابة». وعندما سمع ذلك الرجل الرسالة الجريئة التي بعث بها وانج النمر، تملكته ثورة عارمة، وراح يهدر بالغضب هنيهة قبل أن يتمكن من أن يحير جوابًا، وحين تمكن من ذلك، أجاب قائلاً:

«عودوا أدراجكم، وقولوا لسيدكم أن يقاتلني إذا رغب في ذلك. فمن ذا الذي يخشاه؟ لم يسبق لي أن سمعت عن هذا الجرو الذي يُسمي نفسه وانج النمر!..».

فارتد الرسل عن ذلك، ورددوا هذا القول بحذافيره على مسامع وانج النمر، فاعتراه بدوره غضب عاتٍ، وأحس بالإهانة في أعماقه؛ لأن ملك الحرب قد قال إنه لم يسمع باسمه قط، وتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان أقل شأنًا مما كان يتوسم في نفسه. أما في الظاهر، فقد راح يصر على أسنانه التي بدت وسط لحيته السوداء، ودعا رجاله للزحف على المدينة في نفس ذلك اليوم، ثم ضربوا خيامهم حولها. على أن البوابات كانت موصدة في وجوههم، ومن ثم لم يتمكنوا من دخولها، فأمر وانج النمر جنوده بأن يعسكروا هناك حتى الفجر، وأمر بأن يضرب صف من الخيام حول الخندق المحيط بالمدينة كي يتمكن رجاله من مراقبة الموقف،

ليتينوا ماذا يفعل الأعداء ويحملوا إليه الأنباء.

وبكر بالنهوض عند الفجر، ثم أيقظ حرسه، ودعا إليه رجاله بإطلاق الأبواق وقرع الطبول، فلما التأم شملهم أصدر إليهم أوامره بأن يكونوا على أهبة الاستعداد لخوض المعركة حين يوجه إليهم النداء، حتى ولو اقتضى الأمر أن ينتظروا شهراً أو شهرين. عندئذ اتجه وبصحبه حرسه إلى أحد التلال التي تقع شرقي المدينة حيث يوجد معبد صيني عتيق، ثم اعتلى التل متجهاً إلى داخل المعبد، وترك رجاله عند السفح للحراسة ولإرهاب العدد القليل من الكهنة العجائز الذين كانوا يقيمون في أحد المعابد هناك. ومن ذلك الموقع تبين أنها ليست بالمدينة الضخمة، فقد لا يزيد عدد سكانها عن خمسين ألف نسمة أو نحو ذلك، إلا أن بيوتها كانت متينة البنيان، لها سقوف شيدت من القرميد الداكن اللون، يعلو بعضها بعضاً كالقشور على ظهور الأسماك. ثم هبط من على التل وقفل راجعاً إلى رجاله، وقادهم عبر الخندق المحيط بالمدينة، ولكن بينما هم يعبرونه إذ بسيل من طلقات الرصاص ينهمر عليهم من ناحية أسوار المدينة العالية، فسارعوا بالانسحاب.

لم يسع وانج النمر إلا أن ينتظر في مواقعه، وأخذ يتبادل المشورة مع ضباطه، فأشاروا عليه بضرب حصار حول المدينة لأن الحصار أضمن من خوض المعركة، ما دام الناس يجب أن يحصلوا على الطعام. وتراءى لوانج النمر أن هذه خطة سديدة، فما من شك أن رجاله سوف يبيدون عن بكرة أبيهم لو أنه شن هجوماً على المدينة في تلك الآونة، إذ كانت البوابات في غاية المنعة والقوة، فقد شدت قوائمها الخشبية الضخمة

بعضها إلى بعض بالواح من الحديد، حتى لقد حار كيف يتسنى له التغلب عليها. وفضلاً عن ذلك، فإن هم سهروا على حراسة البوابات الموصدة بحيث لا يتسرب الطعام إلى داخل المدينة على مر الأيام، فإن الأعداء لا بد وأن يصيبهم الضعف بعد مضي شهر أو شهرين، فيستسلموا له. في حين أنه لو قاتلهم الآن، فسيكونون من القوة وحسن التغذية بحيث يصعب الجزم إلى أي جانب ستتحول كفة النصر. تواردت هذه الأفكار على خاطره، فترأى له أن من الأفضل أن ينتظر ريثما يتمكن من شن المعركة وهو واثق من النصر.

ومن ثم أمر جنوده بالسهر على حراسة أسوار تلك المدينة بأكملها، وأن يقفوا على بعد كاف منها حتى لا تبلغهم طلقات الرصاص، بل تسقط في الخندق دون أن تلحق بهم الأذى. فأحاط الجنود بالأسوار إحاطة السوار بالمعصم، فلم يتمكن أحد من دخول المدينة أو الخروج منها. وكان الجنود يحصلون على الطعام من نتاج الأرض في المناطق المحيطة، يأكلون الدجاج والخضراوات والفاكهة أو الحبوب التي عند الفلاحين. وما داموا يدفعون شيئاً من المال في مقابل ما يأخذونه، فإن الفلاحين لم ينضموا إلى أعدائهم، وعاش الجيش في رغد شامل.

وأقبل الصيف في موسمه، والأرض طيبة مثمرة، والموسم رخاء، إذ كان ذلك العام معتدلاً في تلك البقاع، لا هو بالجاف ولا بالمطير. على حين ترامت الشائعات بأن الأمطار لم تسقط غرباً في المنطقة الواقعة وراء الجبال، وربما حلت بها المجاعة. وعندما سمع وانج النمر هذا حدثه نفسه بأن طالعه الحسن يؤازره مرة أخرى، إذ يدخر له هذا الخير الوفير هنالك.

مضى شهر وأيام، ووانج النمر ما زال ينتظر يومًا بعد يوم في خيمته، دون أن يخرج أحد من داخل تلك المدينة الموصدة. وانتظر عشرين يومًا أخرى، حتى عيل صبره هو ورجاله، ولكن العدو ظل صامدًا في بسالة، وما زال الرصاص ينهمر من ناحية أسوار المدينة كلما تحرك الجنود عبر الخندق. فعجب وانج النمر لذلك أشد العجب، وقال في ثورة غضبه:

«ماذا تبقى لديهم من طعام حتى إن أحدهم ما زال يقوى على حمل سلاحه؟».

أما الصقر الذي كان يقف على مقربة منه، فقد بصق إعجابًا بهذا العدو القوي الباسل، ولم يلبث أن قال بعد أن مسح فمه بيده:

«لا بد وأنهم الآن قد أكلوا الكلاب والقطط والدواب على مختلف أنواعها، بل وحتى الجرذان التي يمكنهم اصطيادها في بيوتهم».

ومرت الأيام ترى على هذا النحو دون أن تظهر أي إشارة من المدينة المحاصرة حتى انقضى الشهر الثاني من الصيف. وبينما كان وانج النمر خارجًا ذات صباح، كعادته كل يوم، ليرى ما إذا كان هناك أدنى تغير في الموقف، رأى علمًا أبيض يرفرف فوق البوابة الشمالية التي كان يعسكر قبالتها. فأمر أحد رجاله في سرعة بالغة وانفعال شديد أن يرفع علمًا أبيض كذلك، وتهلل جدًا لاعتقاده أنها النهاية:

وفتحت فرجة صغيرة في البوابة الشمالية، لا تسمح إلا بمرور رجل واحد، ولم تلبث أن أغلقت ثانية، وسمعوا صرير المزالج الحديدية. وراح وانج النمر يرقب الموقف مبهورًا من الجانب الآخر من الخندق

حيث يقع معسكره، فرأى شاباً يسير نحوه وئيداً، حاملاً علماً أبيض على سارية من الخيزران. إذ ذاك نادى رجاله آمراً إياهم أن يصطفوا أمامه، واتخذ مكانه خلفهم مباشرة، وظلوا ينتظرون الشاب حتى دنا منهم، وعندما بلغ مكاناً يمكن سماع صوته منه صاح قائلاً:

«لقد أتيت لأنحدث إليكم بشأن إقرار السلام. سوف ندفع لكم مبلغاً من المال ونعطيك كل ما نملك، إذا ذهبتم عنا في هدوء وسلام».

فضحك وانج النمر ضحكته المكتومة، وأجاب ساخراً:

«أتحسبون أنني قد قطعت كل هذه المسافة البعيدة للحصول على المال فحسب؟ بوسعي أن أحصل على المال في أقاليمي. كلا، فإنه لزام على ملك الحرب في هذه المدينة أن يستسلم لي؛ لأنني في حاجة إلى هذه المدينة وإلى هذا الإقليم، ولسوف يصبح جزءاً من ممتلكاتي».

عند ذلك اتكأ الشاب على السارية التي يحملها، وتطلع إلى وانج النمر، وقد لاحت في عينيه نظرة تنذر بالموت، ثم قال متوسلاً:

«فلتكن رحيماً وتنسحب برجالك!» وخر جاثياً على وجهه أمامه.

بيد أن وانج النمر أحس بالغضب يتسلل إلى قلبه - كما هي حاله دائماً حين يعارضه أحد - واستفزه الحديث، فهتف قائلاً:

«لن أرحل من هنا حتى تصبح هذه الأرض ملكاً لي!».

فنهض الشاب وأمال رأسه إلى الخلف في كبرياء، وقال:

«امكث إذن، واقض حياتك هنا، فنحن نقوى على احتمال الموقف!»

ثم استدار متجهاً إلى البوابة دون أن ينبس بكلمة أخرى.

حينئذ شعر وانج النمر بغضبه الأسود القديم يجيش في أعماقه، وقال لنفسه إنه لما يبعث على الدهشة أن يرسل إليه عدوه اللدود مثل هذا الرسول المجرد من الذوق الذي لم يقم حتى بأداء أي فرض من فروض الأدب والمجاملة. وفكر في نفسه أن هذا أوقح شاب وقع عليه بصره طيلة حياته. وكلما أمعن في التفكير ازداد به الغضب، وعلى حين غرة تملكته ثورة عارمة قبل أن يعي كنهها في وضوح، فنادى أحد جنوده قائلاً:

«ارفع بندقيتك وأطلق الرصاص على هذا الشاب!».

فأذعن الجندي للأمر، وصوب إليه الرصاص في إحكام، حتى إن الشاب تهاوى على وجهه فوق الجسر الضيق الذي يمتد عبر الخندق، وسقط علمه في الماء، فطفت السارية الخشبية على غير هدى فوق سطح مياه الخندق، وتلطح العلم الأبيض بالأوحوال العالقة في المجرى. إذ ذاك أمر وانج النمر رجاله بأن يهرعوا إلى الأمام ويأتوا إليه بالشاب، ففعلوا ذلك وهم يركضون في سرعة خاطفة، خشية أن تطلق عليهم رصاصة من أعلى الأسوار، ولكن لم تنطلق رصاصة واحدة نحوهم، فدخل وانج النمر شيء من العجب، وسأل نفسه عن معنى هذا المسلك من العدو. غير أنه ازداد عجباً حين رأى الشاب يرقد أمامه جثة هامدة، وقد استحال لونه سريعاً إلى صفرة الموت، إذ تبين أن هذا الشاب لم يتصور جوعاً على الإطلاق. كلا، لم يتصور جوعاً، فقد أمر وانج النمر بأن تنزع عنه ملابسه ليلقي نظرة على جسده. وهنالك رقد الشاب عارياً أمامه، فرأى أنه لم يكن بدينًا، ولكنه مع ذلك على قدر كبير من الامتلاء، حتى كان من الجلي أنه قد تناول شيئاً من الطعام.

فذهل وانج النمر بعض الشيء لرؤيته على هذه الحال، وثبط ذلك من عزمه في تلك اللحظة، فصاح قائلاً:

«إن كان هذا الشاب على هذه الحال من الامتلاء، فماذا لديهم من طعام حتى يظلوا صامدين أمامي بهذه القوة؟» وأخذ يسب ويلعن ثم قال: «حسنًا، في إمكاني أنا كذلك أن أفني حياتي في هذه المعركة بمثل ما في وسعهم أن يفعلوا!».

ولأنه أصبح فريسة الغضب منذ ذلك اليوم، فقد أمر جنوده بأن يطلقوا لأنفسهم العنان، وأن يأخذوا راحتهم في السلب والنهب. ومن ثم، حين كان يراهم ينهبون الطعام أو السلع من الأهالي في ضواحي تلك المدينة، أو من الفلاحين هنا وهناك، لم يعد يوقفهم عند حدهم كما كان يفعل من قبل. وحين كان أحد الفلاحين يأتي إليه شاكيًا، أو يأتي أحدهم ويقسم إن جنديًا من جنوده قد انتهك حرمة بيت من البيوت الخاصة، واقترب ما لا يليق به، كان وانج النمر يقول له غاضبًا:

«إنكم ملاعين أيها القوم. أغلب ظني أنكم تهربون الطعام إلى داخل هذه المدينة. وإلا فكيف تسنى لهم أن يحصلوا على الغذاء طيلة هذه المدة؟».

غير أن الفلاحين كانوا يقسمون له إنهم لم يفعلوا ذلك. وكم من مرة قال له بعضهم بطريقة مؤثرة:

«هل يعني في شيء من يكون السيد الذي يحكمنا؟ أتחסبنا نحن الحب لهذا اللص العجوز الذي جعلنا نكاد نتضور جوعًا تحت وطأة

الضرائب التي يفرضها علينا؟ سيدي، لو أنك فقط عاملتنا بالرأفة، ومنعت رجالك عن الشر والأذى، لسعدنا بأن تترع في مكانه».

بيد أن وانج النمر كان يزداد فظاظة كلما درج الصيف، فراح يلعن القيط ويلعن أسراب الذباب الهائلة التي توالدت فوق أكوام القاذورات التي كان لا بد أن تتراكم من قضاء حشود الجنود لحاجتهم، ويلعن أسراب البعوض التي كانت تنطلق من مياه الخندق الراكدة الآسنة، وفي صبر نافذ جعل يفكر في المدينة التي يوجد بها قصره، والتي تنتظره فيها زوجته. كل هذا غير من طبيعته، فلم يعد نفس الإنسان الطيب الشفيق الذي كانه في الماضي، وترك رجاله يتمادون في التمرد على النظام والقانون.

وذات ليلة قمراء لافحة الحر في تلك الآونة التي اشتد فيها القيط، كان وانج النمر -وقد جفاه النوم- يتنزه خارج خيمته سعيًا وراء النسمات الندية. كان يتمشى بمفرده، لا يصحبه سوى حارسه الخاص الذي راح يسير جيئة وذهابًا، وهو يتشاءب ويكاد النعاس يستولي عليه. كان وانج النمر يحملق كعادته في أسوار المدينة التي انتصبت عاليًا قائمة تحت ضوء القمر، فبدت له عاتية لا تقهر. وبينما هو يحرق فيها استبد به الغضب مرة أخرى -والواقع أن غضبه لم يكن يخمد أبدًا في تلك الأيام- فأقسم لنفسه في مرارة شديدة أن يشقى كل رجل وكل امرأة، بل وكل طفل في تلك المدينة، مقابل ما لقيه من متاعب في هذه الحرب. وإذا به في تلك اللحظة يرى بقعة تتحرك فوق الأسوار السوداء، بقعة أشد منها قتامة تحرك عليها إلى أسفل. فأخذ يحملق فيها وقد تسمر في مكانه. لم يصدق عينيه في بادئ الأمر، ولكن كلما طال وقوفه وهو يحملق فيها، استطاع أن يرى شيئًا صغيرًا مظلمًا يتحرك وكأنه

حيوان الكابوريا بين أغصان الكروم والشجيرات الجافة التي تتعلق بتلك الأسوار العتيقة. وفي نهاية الأمر تبين أنه رجل. أجل، فقد وصل الرجل إلى أسفل الأسوار، ثم هبط، ولم يلبث أن ظهر في ضوء القمر، ورأى وانج النمر أنه يلوح بقطعة من النسيج الأبيض.

حينئذ أمر وانج النمر أحد رجاله بأن يذهب لملاقاته حاملاً علماً أبيض مثله، كما أمره أن يجيء له بالرجل، ثم وقف ينتظر هناك وهو يسدد بصره في جهد ليرى من يكون هذا الرجل. وعندما جيء له بالرجل، ألقى بنفسه تحت قدميه وقرع الأرض برأسه ضارِعاً في طلب الرحمة. غير أن وانج النمر هتف قائلاً:

«أوقفوه على قدميه ودعوني أراه!».

فتقدم جنديان ورفعوا الرجل، فأخذ وانج النمر يحملق فيه. وبينما هو يتفرس فيه بلغ منه الغضب مبلغاً أحس معه بغصة في حلقه، لأن هذا الرجل كذلك لم يكن بعد يتضور جوعاً. كلا، كان حقاً شاحباً قاتم اللون ضامر العود، ولكنه لم يكن يتضور جوعاً. فصاح وانج النمر هادراً:

«هل أتيت لتسلم المدينة؟»

فأجاب الرجل: «كلا، إن الزعيم لم يسلم المدينة بعد، فما زالت لديه كميات من الطعام، ونحن الذين نلتف من حوله يقدم إلينا بعض الطعام كل يوم. حقاً إن الناس لا يجدون ما يسد الرمق، ولكن يمكننا أن نتركهم على هذه الحال. وفي استطاعتنا أن نصمد فترة أخرى من الزمن، إذ يحدونا الأمل في الحصول على معونة من الجنوب، فقد تمكنا من تهريب رجل

عبر الأسوار للذهاب إلى هناك في طلبها».

إذ ذاك، تملك وانج النمر شعور عميق بالخطر، فقال في ارتياب وهو يكبح جماح غضبه بقدر ما يستطيع:

«لم أتيت إذن إن لم يكن للتسليم؟».

فقال الرجل في كآبة: «لم آت إلا من أجل نفسي. فالقائد الذي أعمل تحت إمرته قد أساء معاملتي للغاية. أجل، فهو لا يعدو كونه مخلوقاً فظاً كريهاً، ضارياً جاهلاً، في حين أنني رجل من سلالة نبيلة. فقد كان والذي من العلماء، لذا اعتدت الأسلوب المهذب في المعاملة. أما هذا القائد فقد ألحق بي الخزي والعار أمام جنودي. بوسع المرء أن يغتفر الكثير للناس، ولكنه لا يمكن أن يغتفر أبداً ما يلحق به من عار. إنها لإهانة بليغة، لا بالنسب إليّ فحسب، بل بالنسبة إلى أسلافي الذين أمثلهم أنا في هذا الجيل. أما أسلافه - إن كان يعرف له أسلافاً على الإطلاق - فهم كالذين كان أسلافي يتخذونهم عبيداً لهم».

فسأله وانج النمر، وقد استبدت به الدهشة في قرارة نفسه لهذا التحول:

«ولكن كيف أمكنه أن يلحق بك هذا العار؟».

فأجاب الرجل في انفعال تكتنفه الكآبة:

«لقد حط من قدري ساخرًا من الطريقة التي أمسك بها بندقيتي. وهي أعظم ما أجيده من فنون الحرب، ففي إمكانني أن أسقط ما أصوب إليه بندقيتي دون أن أخطئ الهدف مطلقاً».

حينئذ بزغ شعاع من النور في ذهن وانج النمر، إذ كان يعلم حق العلم أن السخرية والاستخفاف يمكن أن يولدا في قلب المرء أمرّ مشاعر البغض والكراهية، حتى ضد الصديق، وأن المرء لا يدخر وسعاً في سبيل الانتقام إذا لحق به العار، لا سيما إذا كان كهذا الرجل، متعالياً في كبرياء، كما هو باد من هيئته. وقال له في صراحة:

«خبرني، ما هو الثمن الذي تنشده؟».

إذا ذاك تلفت الرجل من حوله، فإذا بجنود الحرس الخاص يتسمعون إليه، وقد فغروا أفواههم، فانحنى وهمس قائلاً:

«دعني أدخل خيمتك حيث يمكنني أن أفصح القول».

فاستدار وانج النمر عند ذلك وسار في خطى فسيحة إلى داخل خيمته، ثم أمر بإحضار الرجل إلى هناك، ولم يبق معه من الجنود أكثر من خمسة أو ستة أو نحو ذلك لحمايته من خطر الخيانة التي يحتمل أن يقدم عليها هذا الرجل. ولكن لم يكن ثمة خيانة في قلبه، لم يكن يحمل سوى الرغبة في الانتقام. هذا ما اكتشفه وانج النمر. إذ قال الرجل:

«لقد فاض بي البغض والغضب لدرجة أنني مستعد أن أعود فأعتلي الأسوار إلى الجانب الآخر لأفتح لكم البوابة. ولا أسألك إلا شيئاً واحداً فحسب، هو أن تقبلني تحت لوائك، ومعى العدد القليل من الرجال الذين يتبعونني ولا أحمل لهم بغضاً، وأن تبسط علينا حمايتك، خشية أن يبحث عني ذلك اللص ويقتلني إن لم يلق مصرعه، فهو عدو لدود».

غير أن وانج النمر ما كان ليقبل منه هذا المعونة السخية دون أن يمنحه

أَجْرًا أو مكافأة أكثر من هذا، ومن ثم قال مسددًا بصره بحدة إلى الرجل، وهو واقف أمامه بين الجنديين اللذين كانا يمسان به:

«إنك لرجل بمعنى الكلمة؛ لأنك لم تتحمل الإهانة، فما من رجل شريف يتحملها، وإنه ليسعدني أن أضُم إلى صفوفِي رجلًا في مثل شجاعتك وقوتك. عد إذن إلى المدينة، وأخبر رفاقك وجميع الجنود بأنني سوف أضُمهم تحت لوائي. سوف أضُم كل الذين يسلمون أنفسهم وبنادقهم إليّ، ولن يقتل واحد منهم. أما أنت، فسوف تصبح ضابطًا في جيشي، وسوف أُنحك مائتي قطعة من الفضة، وخمس قطع لكل رجل تأتي به معك حاملًا بندقيته».

عندئذ أشرق وجه الرجل المتقلص، وصاح في حرارة:

«إنك القائد الذي كنت أبحث عنه طيلة حياتي. سوف أفتح لك البوابة يقينًا حالما تعتلي الشمس كبد السماء في نفس هذا اليوم الذي يبنغ فجره الآن!».

ثم استدار الرجل فجأة وعاد أدراجه. فنهض وانج النمر وخرج من خيمته، وأخذ يرقب الرجل وهو يتسلق أسوار المدينة في خفة ومهارة، وهو يتشبث كالقرد بالجذور والأشجار الملتوية، ولم يلبث أن اختفى وراء الأسوار.

في ذلك الوقت كانت الشمس قد أشرقت وكأنها إطار من نحاس يمتد على حافة الحقول. فأمر وانج النمر بإيقاظ رجاله، ولكن في هدوء من غير أدنى جلبة، لئلا يشعر العدو بالهرج والمرج، فيرتاب في أنهم يدبرون

خطة جديدة للهجوم، ولكن الكثير من الجنود كان قد بلغهم بالفعل أن رجلاً قد خرج من المدينة المحاصرة، فنهضوا في الليل، وأعدوا عدتهم دون أن يوقدوا المشاعل على الإطلاق. والواقع أن ضوء القمر كان ساطعاً في تلك الليلة بحيث بدا أشبه بالشمس الباهتة، فاستطاعوا على ضوئه أن يتيقنوا الكثير من الأشياء كزناد البندقية وثقوب رباط الحذاء. وعندما اكتمل شروق الشمس كان كل جندي قد اتخذ مكانه، فأعطى وانج النمر أوامره بأن يمنح كل منهم بعض اللحم وجرعة وفيرة من الخمر لتبعث الدفء والبسالة في قلبه. وهكذا بعد أن نعم الجنود بالغذاء والراحة وقفوا ينتظرون قرع الطبول للزحف إلى الأمام.

وبينما الشمس تصعد مكتملة إلى كبد السماء، وتسلبت أشعتها الساخنة على السهل الذي تقع فيه المدينة، أطلق وانج النمر صيحة من مكانه، فتجمع جنوده في ستة صفوف ممتدة طبقاً للأوامر التي صدرت إليهم من قبل. وما إن سمعوا صيحة قائدهم حتى صاحوا جميعاً مثله، فسرت الصيحة كالصدى بين صفوفهم. وبينما هم يطلقون الصيحات، رفعوا أسلحتهم بين أيديهم، يحمل كل منهم بندقية ومدية، وانطلقوا جميعاً راكضين إلى الأمام، فعبر بعضهم الخندق عن طريق الجسر، في حين ركض الكثير منهم عبر المياه الضحلة في الخندق، ثم تسلقوا الضفة الأخرى والمياه تقطر من ثيابهم. وصعدوا على أسوار المدينة متكئين حول البوابة الشمالية. على أن الضباط لم يدعوا وانج النمر يقف بمقربة من مقدمة الجيش، لأنهم حتى هذه اللحظة الأخيرة ما كانوا ليعرفوا عن يقين إن كان الرجل سيصدقهم الوعد أم سيقدم على خيانتهم. ومع ذلك

فقد كان وانج النمر واثقاً من الرجل لإدراكه أن الانتقام هو المظهر القاطع للكرامية.

هكذا ظلوا ينتظرون، وما من صوت ينبعث من تلك المدينة، وما من صوت طلقات يدوي من أعلى الأسوار. وبينما كانت الشمس تعتلي مكانها في كبد السماء وقف وانج النمر متصلباً يرقب الموقف، فرأى أن البوابة الحديدية الضخمة تهتز بعض الشيء، ورأى رجلاً منحنيًا يختلس النظر منها، ثم ظهرت فرجة صغيرة تسلك منها الضوء، في أعلى البوابة. فأطلق صيحة واحدة، اندفع الجنود إلى الأمام على إثرها وهو معهم، وراحوا يضغطون على البوابة حتى فتحت على مصراعيها، فتدفقوا إلى شوارع تلك المدينة كال مياه حين تطلق من أحد الخزانات. وبذلك انتهى الحصار.

لم يترث وانج النمر لحظة واحدة، بل أمر الرجال أن يتجهوا به على الفور إلى القصر الذي يقيم فيه الزعيم اللص، وأخذ يصيح برجاله في صوت كالزئير أنه لم يطلق لهم بعد حرية السلب والنهب، بل ولن يطلقها لهم حتى يعثر على الزعيم العجوز. ولما كانوا في عجلة من أمرهم لتحقيق شهواتهم، فقد هرعوا متجهين به إلى ذلك القصر في سرعة خاطفة، وهم يسألون عن مكانه في طريقهم إليه، ويلقون القبض دون شفقة أو رحمة على أي رجل يبصرون به وقد ظهرت عليه علامات الخوف. ولكن ما إن دلف وانج النمر إلى أروقة ذلك القصر بين دوي الطبول والأبواق، حتى وجده خائياً على عروشه، فقد لاذ الزعيم اللص بالفرار. ولا يدري أحد كيف علم بأمر الخيانة، فبينما كان رجال وانج النمر يتدفقون إلى المدينة

من البوابة الشمالية كان اللص الهرم والمخلصون له من أتباعه يولون الأدبار من البوابة الجنوبية هاربين عبر الريف. وعندما سمع وانج النمر هذه الأنباء من الجنود الذين لم يهربوا معه، اندفع متجهاً نحو سور المدينة الجنوبي، وألقى ببصره خارجه، فلم يستطع رؤية شيء سوى سحابة من الغبار تحلق فوق الأفق البعيد. وحار بين أمرين: أيقفني أثرهم أم لا! ولكن خطر بباله في تلك اللحظة أنه قد نال ما كان يصبو إليه، ألا وهو المدينة، مفتاح ذلك الإقليم. فماذا يعنيه من أمر لص وقليل من أتباعه؟

ومن ثم هبط من فوق السور وقفل عائداً إلى القصر المهجور، وهناك أقبل عليه جنود العدو الكثيرون الذين تخلفوا بالمدينة، ليقدّموا إليه فروض الطاعة ويلتمسوا منه الحماية. وقد سر لرؤية أعدادهم الغفيرة حين أقبلوا عليه بالعشرات وهو جالس في القاعة الرئيسة، أهزل وأنحف رجال رأتهم عيناه طيلة حياته، اللهم إلا في سنوات المجاعة. ولكنهم كانوا يحملون أسلحتهم، وعندما جثوا أمامه وقد مدوا أيديهم إظهاراً لخضوعهم، قبلهم وانج النمر في صفوف جيشه، وأمر بأن يطعم كل رجل قدر طاقته، وأن يمنح خمس قطع من الفضة. ولكن عندما دلف الرجل الذي خان الزعيم اللص، على رأس جماعته، أعطاه وانج النمر المائتي قطعة من الفضة التي كان قد وعده بها، بل وسلمها له بيده، كما أمر بإحضار حلة ضابط وأعطاهها له. وهكذا لم ينس وانج النمر ما قام به الرجل من أجله، فأجزل له المكافأة وضمه إلى صفوف جيشه.

وما إن فرغ وانج النمر من كل هذا، حتى أدرك أنه قد حان الوقت الذي لا بد أن ينجز فيه وعده لرجاله، إذ إنه كبح جماحهم أطول مدة

ممكنة، ولم يعد من الممكن السيطرة عليهم أكثر من ذلك. فأمر بأن تطلق لهم الحرية. فعل هذا على حين كان يتمنى ألا تضطره إليه الظروف. فمن عجب أنه الآن وقد حصل على بغيته، تلاشت من نفسه مشاعر الغضب على أهل المدينة، ونفر من أن يسبب لهم الشقاء. ومع ذلك، فقد كان لزامًا عليه أن يحفظ الوعد الذي بذله لرجاله. وعندما أطلق لهم حرية السلب والنهب لمدة ثلاثة أيام، اعتكف في القصر، وأوصد البوابات، وظل هناك وحيدًا إلا من حرسه الخاص. بل حتى هؤلاء المائة أو نحو ذلك من الرجال كانوا على أحر من الجمر، وطالبوا بدورهم في اغتنام الأسلاب، فاضطر وانج النمر آخر الأمر أن يطلق سراحهم، ويستدعي آخرين ليحلوا محلهم. وحين دخل عليهم هؤلاء الآخرون وعيونهم مضرجة بالحمرة وتفيض بالشهوة، ووجوههم محمرة قانية اللون، إلى حد أنه لم يكن بوسعهم إخماد لهيب نظراتهم الوحشية، حوّل وانج النمر عينيه بعيدًا عنهم محاولاً أن يصرف تفكيره عما يحدث في تلك المدينة. وحينما فاض الفضول بابن أخيه الذي كان يحتفظ به دائمًا إلى جواره، فرغب في الخروج من القصر لمشاهدة ما هو جدير بالمشاهدة، انفجر فيه وانج النمر، وقد داخله السرور لأنه وجد شخصًا يمكنه أن يصب عليه جام غضبه عن حق، وزأر فيه قائلاً:

«أينطلق من هو من دمي للسلب والنهب شأن هؤلاء الأجلاف من السوق؟».

ولم يدع الفتى يغرب عن ناظره، فظل يشغله في أموره الخاصة، كإحضار هذا أو ذاك من ألوان الطعام والشراب، أو تغيير ثيابه. وحينما

كانت بعض الصرخات الواهنة تتسرب من الشوارع إلى داخل أروقة القصر الموصدة بإحكام، كان وانج النمر يزداد استبدادًا وغضبًا في معاملته لابن أخيه، حتى إن الفتى ظل يتصبب عرقًا من غضب عمه، دون أن يجرؤ على الرد بكلمة واحدة.

والحق أن وانج النمر لم يكن ليقوى على القسوة ما لم يركبه الغضب، وإنها بلا ريب لناحية ضعف في أحد ملوك الحرب أن يتعذر عليه إزهاق الأرواح إلا في ثورة غضبه، في حين أن الموت هو وسيلته إلى المجد، وكان يدرك أن نقطة الضعف فيه هي أنه لا يقوى على القتل في قسوة أو استهتار، أو لأي سبب كان. واعتبره ضعفًا منه أنه لم يستطع الاحتفاظ بغضبه على أهل المدينة. وحدثته نفسه أنه كان من الجدير به أن يظل كارهاً لهم لأنهم كانوا في غاية التبلد والعناد، ولم يفكروا في وسيلة ما لفتح البوابات له. ومع ذلك، فعندما أتى جنوده يسألونه الطعام في خجل، صاح بهم، وقد تنازعت مشاعر الثورة والألم.

«عجبًا! أيتحتم عليّ إطعامكم حتى في الوقت الذي تعملون فيه السلب والنهي؟»

فأجابوا على ذلك قائلين:

«لا توجد حفنة من الغلال في هذه المدينة بأسرها، وليس بوسعنا أن نأكل الذهب والفضة والحريز. فهذه هي الأشياء التي نعثر عليها، ولكننا لا نجد الطعام لأن الفلاحين ما زالوا يخشون الدخول بمحصولاتهم إلى المدينة.»

فتألم وانج النمر، وظهرت عليه علائم الكآبة، لإدراكه صدق ما يقولون، فلم يسعه إلا أن يأمر بإطعامهم، على أنه فعل هذا وهو يصيح في أشد نبرات صوته خشونة وفظاظة. ولكنه ذات مرة سمع جنديًا وقفًا مفتول العضلات يصيح قائلاً في خشونة:

«أجل، إن كل الفتيات هنا من النخافة بحيث يشبهن الدجاج الذي تنف ريشه وليس بهن من متعة على الإطلاق!».

حينئذ شعر وانج النمر أنه لم يعد يطيق حياته، فانصرف وحيداً إلى إحدى الحجرات حيث جلس يتأوه هنيهة قبل أن يتمكن من أن يقسي قلبه مرة أخرى. بيد أنه استطاع أن يقسي قلبه بالفعل مرة أخرى. وراح يفكر في أراضيه البهية الطيبة، ويفكر كيف أنه قد وسع نطاق نفوذه، وأنه في هذه الحرب قد ضاعف البلاد التي تخضع لسلطانه. وقال في نفسه إن الحرب هي حرفته ووسيلته إلى العظمة. وكان أجمل ما فكر فيه آخر الأمر هو زوجته، وكيف أنه بلا ريب سينجب ابناً من إحداهما، فصاح في نفسه:

«أليس بوسعي من أجل ذلك الابن أن أتحمل شقاء الآخرين بعض الشيء لثلاثة أيام قلائل؟».

وهكذا ظل يقسي قلبه طيلة الأيام الثلاثة، وحافظ على وعده للجنود. غير أنه في فجر اليوم الرابع نهض مبكراً من نومه القلق، وأمر بإعطاء الإشارات وإطلاق الأبواق في كل مكان بمثابة إنذار لجميع جنوده بأن فترة النهب والسلب قد انتهت، ويتحتم عليهم العودة إلى قيادته. فلم

يجرؤ أحد على عصيانه، لأنه نهض في ذلك الصباح وقد بدت عليه
سيماء الشراسة أكثر من عادته، ولاحت في عينيه نظرات سوداء، بينما
كان حاجباه الأسودان يندفعان تارة إلى أعلى وتارة إلى أسفل فوق عينيه.
كلا، لم يجرؤ أحد على عصيانه عدا جندي واحد. فبينما كان وانج
النمر يخطو بخطى واسعة إلى خارج بوابة القصر التي كانت قد أوصدت
بإحكام طيلة هذه الأيام الثلاثة، إذا به يسمع صوت صراخ واهن ينبعث من
أحد الأزقة المجاورة. ولما كان شديد الحساسية من ناحية الزقاق شاهد
أحد جنوده في طريق عودته إلى الثكنات وقد رأى امرأة عجوزاً تمر هناك
وفي إصبعها خاتم ذهبي رفيع - شيء ضئيل صغير القيمة - إذ لم تكن
المرأة سوى إحدى الزوجات العاملات، ولا يمكنها أن تملك شيئاً ثميناً
له قيمته. ولكن الجندي استبدت به رغبة مفاجئة في الحصول على هذه
القطعة الأخيرة من الذهب، فلوى يد المرأة العجوز، فصرخت فيه وهي
تولول:

«لقد ظل في إصبعي أكثر من ثلاثين عاماً، فكيف يمكنني أن أخلعه
الآن؟».

وكان الجندي في عجلة من أمره لأن الأبواق كانت تدوي، حتى إن
وانج النمر رآه بعيني رأسه يستل مديته ويتر إصبع المرأة العجوز تماماً،
فسالت دماؤها الشحيحة في خيط شاحب واهن. حينئذ أطلق وانج النمر
لعنة مدوية في صوت كالزئير، ولم يكن الجندي قد رآه من شدة عجلته،
فوثب عليه واستل سيفه الحاد القاطع، ثم أغمدته في جسده مباشرة. أجل،
لقد فعل هذا مع أنه كان أحد رجاله، فقد اندلع لهيب الغضب في أعماقه

حين رأى هذه المخلوقة التعسة الجائعة تلقى هذه المعاملة أمام عينيه. وتهاوى الجندي على الأرض بغير أن يتأوه، وتدفق منه سيل فياض من الدماء القانية. أما المرأة العجوز، فقد انتابها الفزع لهذه الضراوة، ولو أنها من أجل إنقاذها، فلقت بقية الإصبع المبتورة الأليمة في مئزرتها القديمة البالية، وجرت تختبئ في مكان ما، ولم يرها وانج النمر من بعد.

ثم مسح سيفه بستره الجندي، وتحول مبتعداً عنه لئلا يساوره الندم على فعلته. فما كان الندم ليجدي نفعاً، ما دام الرجل قد أصبح جثة هامدة. لم يترث إلا ليأمر أحد حراسه بأن يأخذ بندقية الرجل الميت.

وراح يطوف في أرجاء المدينة، فاستولت عليه الدهشة بصورة تفوق الحد، إذ رأى ذلك العدد القليل من سكان المدينة التعساء، ورأى كيف خرجوا متسللين إلى منافذ بيوتهم، وجلسوا هامدين على الأرائك الخشبية أمام عتباتها، وقد بلغ من شدة ضعفهم أنهم عجزوا عن رفع رؤوسهم للتطلع إليه، حين مرّ بهم في خطى فسيحة تحت شمس الخريف الساطعة، ومن خلفه حرسه يقفون بأسلحتهم البراقة اللامعة. كان أهل المدينة جالسين هناك، وكأنهم الموتى، وقد خيم عليهم الخمود والتبدل، فداخل قلب وانج النمر شعور غريب بالخجل والدهشة، حتى إنه لم يتوقف للتحديث إلى أحد منهم، بل تشامخ برأسه عالياً، متظاهراً بأنه لا يرى الناس، إنما يرى الحوانيت فقط. كانت هذه الحوانيت مليئة بالكثير من البضائع التي لم ير لها مثيلاً من قبل، حيث إن هذه المدينة كانت تشرف على النهر في اتجاه الجنوب، وذلك النهر يصب في البحر، لذا فقد كان من الممكن نقل هذه البضائع إلى المدينة. أجل، رأى وانج

النمر كثيراً من السلع الأجنبية العجيبة التي لم يرها من قبل، ولكنها كانت الآن ملقاة في إهمال، وقد علاها التراب، وكأن أحداً لم يأت لشرائها منذ أمد بعيد.

على أنه لم ير شيئين في هذه المدينة. لم ير طعاماً معروضاً للبيع في أي مكان، وكانت السوق خاوية يخيم عليها السكون، ولم يكن ثمة باعة متجولون في الشوارع كالذين يبعثون الحياة والحركة في أي قرية أو مدينة. كما أن عينيه لم تقعا على أطفال صغار في الطرقات. ولم يلحظ في بادئ الأمر مدى الهدوء الذي يسود الشوارع، ولما لحظ هذه الظاهرة، ساءل نفسه عن سبب هذه الهدوء، فخطر له أنه يفتقد ضجيج الأطفال وضحكاتهم التي يمتلئ بها كل بيت في الأوقات العادية، كما شعر أنه يفتقد انطلاقهم، وركضهم في الطرقات. وعلى حين فجأة أحس أنه لم يعد يقوى على التطلع إلى تلك الوجوه الهزيلة القاتمة الكثيبة لهؤلاء الرجال والنساء الذين بقوا على قيد الحياة. فقال لنفسه إنه لم يفعل بهم أكثر مما قد يفعله أي ملك آخر من ملوك الحرب، وإن هذا لا يمكن أن يعد جريمة في نظره، ما دامت لا توجد وسيلة أخرى يستطيع أن يرقى بها إلى علياء المجد.

ولكنه كان في الحقيقة رجلاً رحيم القلب بصورة تتنافى مع حرفة الحرب، فاستدار ومضى عائداً إلى أرواقه لأنه لم يستطع أن يتحمل رؤية هذه المدينة التي أصبحت الآن ملك يديه. واستولت عليه الكآبة والغضب، فأخذ يصب الشتائم واللعنات على جنوده ويزأر فيهم أن يتنحوا عن طريقه، إذ لم يعد يطيق مطلقاً صوت ضحكاتهم العالية الراضية

أو منظر عيونهم اللامعة المشبعة باللذة. وكانت تتملكه ثورة عارمة حين يقع بصره على تلك الخواتم الذهبية التي يضعونها في أصابعهم وتلك الساعات الأجنبية التي تتدلى من ثيابهم وما شابه ذلك من الأشياء العديدة التي اغتصبوها من أهل المدينة. أجل، بل لقد رأى أيضًا خواتم ذهبية في أصابع تابعيه الأمينين: خاتمًا من الذهب في يد الصقر الصلبة الخشنة، وآخر مرصعًا بحجر اليشم في إبهام جزار الخنازير، وهو إبهام بلغ من خشونته وضخامته أن الخاتم انحشر في منتصفه فوق المفصل، وأبى أن يتحرك إلى أبعد من ذلك، على أن جزار الخنازير ظل يلبسه في إصبعه على هذا الوضع. وعندما رأى وانج النمر هذا كله، شعر أنه منفصل وبعيد كل البعد عن هؤلاء الرجال. وأخذ يتمتم لنفسه أنهم رجال منحطون أشبه بالوحوش، وأحس بالوحشية تسري إلى أعماق كيانه، فمضى واعتكف وحيدًا في حجرته، وقد طغى عليه الكدر والغضب، فراح يهدر لأنفه الأسباب إذا ما اقترب منه أحد.

ولكنه بعد أن ظل معتكفًا على هذه الحال يومًا أو يومين، ولمس جنوده مدى ثورته، فتملكهم الخوف منه، واعتصموا بشيء من الهدوء، عاد يقسو على قلبه مرة أخرى، وحدثته نفسه بأن هذه هي أساليب الحرب، وأنه قد اختار لنفسه هذا السبيل في الحياة، وأن السماء قد قيضت له هذا المصير، وأنه يجب أن ينجز ما قد شرع فيه. ومن ثم نهض واغتسل، فقد ظل طيلة هذه الأيام الثلاث معتكفًا في حجرته بغير أن يغتسل أو يحلق شعر وجهه من شدة غضبه، وارتدى ثيابه في نشاط، ثم بعث برسول إلى حاكم المدينة يأمره بالمجيء ليسلم نفسه إليه. ودلف إلى قاعة الاستقبال

بالقصر حيث جلس ينتظر مقدم الرجل.

ولم تكد تمضي ساعة أو ساعتان حتى جاء الحاكم بكل ما وسعه من سرعة، ودلف إلى القاعة متكئاً على اثنين من الرجال، وقد ظهر عليه شحوب شديد كالموتى. على أنه انحنى لوانج النمر وراح ينتظر. فرأى وانج النمر من نظراته الرقيقة المهذبة ما ينم على أنه رجل مثقف ينحدر من أصل طيب. لذلك نهض واقفاً وانحنى يرد له التحية، وأشار إليه أن يتخذ له مقعداً. كما جلس هو أيضاً في مقعده، ولم يملك إلا أن يحملق في هذا الحاكم، إذ كان لون وجهه ويديه في غاية الغرابة والبشاعة. كانوا في لون الكبد بعد تحفيفها يوماً أو يومين، كما كان الرجل ضامر العود لدرجة أنه يمكن القول بأن جلده كان ملتصقاً بعظامه.

وفجأة صاح وانج النمر وهو غارق في دهشته:

«عجباً! هل كنت أيضاً تتضور جوعاً؟».

أجابه الرجل في بساطة:

«نعم، ما دام شعبي كان كذلك يتضور جوعاً، وهي ليست المرة الأولى».

فقال وانج النمر:

«ولكن الرجل الذي أرسلوه إلى خارج المدينة لطلب الهدنة في المرة الأولى كانت تبدو عليه آثار الغذاء الجيد».

أجاب الحاكم قائلاً:

«أجل، ولكنهم كانوا يطعمونه منذ البداية خصيصاً لهذا الغرض؛ كي

يظهروا لكم أنه قد تبقى لديهم كمية من الطعام، وأن بوسعهن الصمود أمامكم فترة أخرى، إذا ما رفضتم عقد الهدنة».

لم يسع وانج النمر عند ذلك إلا أن يعجب بمثل هذه الحيلة الرائعة، فصاح في عجب معبراً عن إعجابه بها:

«ولكن الضابط الذي خرج إلينا كانت تبدو عليه أيضاً آثار التغذية الجيدة!».

فأجاب الحاكم في بساطة:

«لقد كانوا يطعمون الجنود على خير وجه، ويمنحونهم خير ما يملكون من طعام حتى النهاية. أما الناس، فكانوا يتضورون جوعاً حتى مات المئات منهم. فضعاف البنية والطاعنون في السن والأطفال الصغار قد ماتوا عن آخرهم».

فندت عن وانج النمر تنهيدة وقال:

«هذا صحيح، لم أر أطفالاً صغاراً في أي مكان»

وظل برهة يحملق في الحاكم، ثم أكره نفسه على أن يقول له ما يتحتم عليه قوله:

«عليك أن تسلم نفسك لي الآن، فقد أصبحت صاحب الحق في أن أتربع مكان ملك الحرب الآخر، حاكماً عليكم وعلى هذا الإقليم بأسره الذي كان يبسط عليه نفوذه. إني حاكمكم الآن، وهأنذا أضُم هذا الإقليم إلى ممتلكاتي في الشمال. سوف يرد إليّ الدخل منذ الآن، وسوف أطلبكم بكمية معينة من المال علاوة على نسبة من الإيرادات كل شهر».

فاه بهذا القول ثم أعقبه بوضع عبارات للمجاملة، إذ لم يكن مجرداً من الأدب. وأجابه الحاكم في صوته الضعيف الأجوف، وهو يحرك شفثيه الجافتين فوق أسنانه التي بدت كبيرة بيضاء بصورة لا تتلاءم مع فمه المرتخي:

«إننا في قبضة يدك. امنحنا فقط شهراً أو اثنين لنستعيد قوانا».

ثم تريت برهة واستطرد قائلاً في مرارة شديدة:

«هل يعيننا في شيء من الذي يحكمنا ما دمنا ننعم بالسلام ونتابع شؤون حياتنا، ونكسب رزقنا ونطعم أطفالنا؟ وأقسم لك إني وشعبي مستعدون عن طيب خاطر أن ندفع لك المال حقاً وعدلاً لو أنك فقط كنت على جانب كبير من القوة بحيث تصد عنا ملوك الحرب الآخرين، وتدعنا نعيش آمنين في هذا الجيل».

هذا كل ما كان وانج النمر يحرض على معرفته، على أن قلبه الرحيم تعذب لسماع صوت الرجل الضعيف المتهدج، فصاح في جنوده قائلاً:

«أحضروا الطعام والخمر ليأكل هو ورجاله!».

وبعد أن أشرف على تنفيذ هذا الأمر، دعا إليه أتباعه الأمناء، وأصدر إليهم أمراً آخر:

«انطلقوا الآن إلى أرجاء الريف مصطحبين معكم بعض الجنود، وأرغموا الفلاحين على المجيء إلى المدينة حاملين غلالهم ونتاج حقولهم كي يتمكن الناس من شرائها ليأكلوا ويستعيدوا قواهم ثانية بعد هذه الحرب المريعة».

هكذا أظهر عدالته إزاء أهل المدينة جميعاً وشكر له الحاكم صنيعة، فتأثر وانج النمر لعرفانه بالجميل. ولما جيء بالطعام، لمس وانج النمر مدى أدب هذا الحاكم ونبل أصله ونشأته، فعلى الرغم من أنه كان يتضور جوعاً بالصورة التي كان عليها، وعيناه تلمعان اشتهاً للطعام الذي وضع أمامه على المائدة، فقد تمالك نفسه وتمهل في أناة وقد شبك يديه الراعشتين معاً حتى فرغ من عبارات الأدب والمجاملة التي يجمل بالضيف أن يقولها لمضيفه، وجلس وانج النمر في مقعد المضيف. ثم انكب الرجل التعس على الطعام، بيد أنه حاول أن يكبح جماح نفسه، فأخذت وانج النمر الشفقة به، فاستأذن منه آخر الأمر متدريجاً بأن لديه بعض الأمور التي يتعين عليه الذهاب لقضائها. وانصرف تاركاً الرجل يأكل بمفرده، لأن أفراد حاشيته كانوا يتناولون الطعام على حدة. وبعد ذلك سمع وانج النمر رجاله يقولون في عجب إنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى غسل الصحاف والأوعية لأن الرجال الذين كانوا يتضورون جوعاً قد لعقوها حتى نظفوها تماماً.

وأحس وانج النمر بأعذب مشاعر البهجة تعتمل في نفسه حين رأى أسواق تلك المدينة وقد امتلأت بالسلع مرة أخرى، ورأى الأطلعة وقد بدأت تملأ سلال الباعة على جوانب الطرقات وعلى مناضد البيع. وتراءى له يوماً بعد يوم أن الرجال والنساء قد أصبحوا أكثر امتلاءً، وأن اللون الأزرق القاتم قد تلاشى من وجوههم، وأنهم قد استعادوا لونهم المشرق الصافي، لون الصحة والعافية. وقضى الشتاء بأكمله في تلك المدينة ينظم عملية تحصيل الإيرادات، ويصوغ الأمور من جديد.

وغمرت الفرحة قلبه حين بدأ الأطفال يولدون ثانية، وعادت النساء إلى إرضاع صغارهن، حتى لقد هزت رؤية الأطفال بعض المشاعر الكامنة في أعماق قلبه، مشاعر لم يدرك من كنهها شيئاً، غير أنه طغت عليه رغبة جارفة في الرجوع إلى دياره. ولأول مرة راح يسائل نفسه بشأن امرأته. ومن ثم أضمر العودة لبيته في نهاية ذلك العام.

وبعد أن فرغ وانج النمر من حصار المدينة، جاء إليه الجواسيس الذين كان يحتفظ بهم في مناطق أخرى، وأنبأوه أن حرباً ضروساً قد نشبت بين الشمال والجنوب، ثم جاءوا إليه ثانية يقولون إن قوات الشمال قد عقد لها لواء النصر في تلك الحرب مرة أخرى. حينئذ سارع وانج النمر وأرسل زمرة من رجاله يحملون الهدايا من الفضة والحرير إلى جنرال المقاطعة، كما خط له رسالة خاصة. هذه الرسالة كتبها بنفسه، إذ كان على شيء من الزهو بثقافته، نظراً لندرة المثقفين بين ملوك الحرب، ثم دمغها بختمه الأحمر الضخم الذي كان عنده الآن بعد أن أصبح من العظماء. وذكر له في هذه الرسالة أنه قد شن حرباً على أحد جنرالات الجنوب، وألحق به الهزيمة، ثم استولى لقوات الشمال على ذلك الإقليم الذي يمتد بحذاء النهر.

فرد عليه جنرال المقاطعة بخطاب رائع، يلهج فيه بالثناء عليه لما أحرزه من نجاح، ويمنحه لقباً جديداً رفيعاً. ولم يطلب منه سوى أن يرسل إليه مبلغاً معيناً من المال كل عام من أجل جيش المقاطعة، فوعده وانج النمر بذلك، لإدراكه أنه لم يصبح بعد من القوة بحيث يملك الرفض. وهكذا وطد أقدامه في الدولة.

وبينما كان العام يقترب من نهايته، راح ينعم النظر في موقفه، فتبين له أن مناطق نفوذه قد امتدت إلى أكثر من الضعف، وباستثناء المناطق الجبلية الجرداء كانت أراضيهِ خصبة طيبة، تنتج كميات وفيرة من الحنطة والأرز فضلاً عن الملح وزيت الفول السوداني والسمسم والفول. وعلاوة على ذلك، فقد أصبح لديه منفذاً إلى البحر، وغدا في إمكانه أن يستورد كل ما يحتاج إليه، وأن يتحرر من سيطرة أخيه وانج التاجر عندما يرغب في الحصول على بنادق لجيشه.

ذلك أنه كان متلهفاً أشد التلهف للحصول على البنادق الأجنبية الضخمة، وقد استولت عليه هذه الرغبة بصفة خاصة حين عثر من بين الأشياء التي خلفها زعيم العصاة العجوز على بندقيتين هائلتين في غاية الغرابة لم ير لهما مثيلاً من قبل. كانتا مصنوعتين من حديد بالغ الصلابة، وليس بهما من فجوات أو ثقوب على الإطلاق، بل كانتا ناعمتي الملمس بصورة تدل على أن الذي صاغهما بهذا الشكل لا بد وأنه حداد بارع. وكانت هاتان البندقيتان من ثقل الوزن بحيث يتحتم على أكثر من عشرين رجلاً أن يبذلوا قصارى جهدهم لזحزحتهما من على الأرض، وكان وانج النمر شديد الفضول بشأن هاتين البندقيتين، يتوق لمعرفة كيفية إطلاقهما، على أن أحداً لم يعرف السبيل إلى ذلك، بل وتعدر العثور على طلاقات تصلح لهما، ولكن عثر آخر الأمر على كرتين من الحديد مخبأتين في مخزن قديم، فخطر لوانج النمر أن هاتين الكرتين إنما تستعملان لإطلاق البندقيتين الهائلتين، فطغى عليه شعور بالسرور، وأمر بنقل إحداهما خارجاً إلى رحبة تقع قبالة معبد عتيق، تمتد خلفه مساحة من الأرض

الخراب. وفي بادئ الأمر، لم يتقدم أحد لتجربة البندقية، ولكن وانج النمر عرض مكافأة ضخمة من الفضة، وإذا بالضابط الذي سلم إليه المدينة يتقدم للقيام بالمهمة؛ لأنه كان يطمع في الحصول على المكافأة ويأمل في نيل الخطوة لدى القائد، فضلاً عن أنه قد شهد إطلاق هذه البنادق ذات مرة. فأعد كل شيء، وثبت شعلة في نهاية عود طويل بمهارة فائقة، ثم أضرم النار في البندقية من على مبعده. وما إن رآوا الدخان يتصاعد منها حتى ركض الجميع مبتعدين عنها، وراحوا ينتظرون، ولم تلبث البندقية أن قذفت بشحنتها الهائلة، فزلزلت الأرض، وتعالى دويها إلى عنان السماء، وهي تطلق حمماً من اللهب والدخان، حتى إن وانج النمر نفسه ترنح في مكانه، وتوقف قلبه لحظة من الخوف. وعندما انتهى الأمر، تطلع الجميع إلى المكان، فإذا بالمعبد العتيق وقد تحول إلى كومة من التراب. إذ ذاك ضحك وانج النمر ضحكته المكتومة، واستبدت به النشوة لمشاهدة مثل هذه اللعبة المثيرة، ومثل هذا السلاح الحربي الرائع، وصاح قائلاً:

«لو أنني كنت أملك بندقية كهذه لما ضربت حصاراً حول المدينة، لأنني كنت قد نسفت بوابات المدينة!».

«لكن لِمَ لم يصوب زعيمكم العجوز هذه البندقية علينا؟».

فرد الضابط على هذا قائلاً:

«لم تخطر لنا فكرة استعمالها. فقد اغتصب اللص هاتين البندينيتين من أحد ملوك الحرب الآخرين الذي كنت أعمل معه يوماً ما. وجيء بهما إلى هنا، ولكنهما لم يطلقا قط، ولم نكن نعرف أن هذه الكرات مخبأة هنا، بل ولم يدر بخلدنا مطلقاً أن هذه البنادق من أسلحة الحرب، فقد ظلت

طويلاً قائمة هنا عند مدخل القصر».

بيد أن وانج النمر احتفظ بهاتين البندقيتين الهائلتين وكأنهما كنز ثمين جدًّا، وأضمر شراء مزيد من الكرات لهما، كما أمر بإحضارهما ووضعهما حيث يمكنه أن يتمتع برؤيتهما دائماً.

وعندما أحصى كل ما حققه في هذه الحملة، داخله رضاء تام عن نفسه، وتأهب للعودة إلى موطنه، وخلف وراءه جيشاً ضخماً في تلك المدينة تحت قيادة رجاله القدامى، أما الرجال الجدد والضابط الجديد قد اصطحبهم معه عند عودته. وبعد شيء من التأمل والتدبر، ترك القيادة العليا بتلك المدينة في أيدي اثنين ممن يوليهم ثقته. لذلك خلف وراءه الصقر، وخلف وراءه ابن أخيه الذي أصبح الآن شاباً يافعاً، ليس بطويل القامة، ولكنه متين البنيان عريض المنكبين، وليس بدميم الطلعة إذا تغاضينا عن وجهه المجذور الذي سيظل هكذا مشوهاً حتى بعد أن يوارى التراب في شيخوخته. وتراءى لوانج النمر أنهما اثنان ملائمان يمكنه تركهما بالمدينة، لأن الشاب كان أصغر من أن يتولى القيادة بمفرده، أما الصقر، فلا يمكن أن يولييه ثقته كاملة. لذلك عين الاثنين معاً في هذا المنصب، وقال للشاب على حدة:

«لئن ساورك الظن أنه يفكر في الإقدام على خيانة ما، ابعث إليّ برسول على جناح السرعة بالليل أو بالنهار».

فقطع الشاب على نفسه العهد، وعيناه تلمعان بالفرح؛ لأنه قد رقي إلى هذا المنصب الرفيع وترك للعمل مستقلاً في المدينة. بذلك استطاع وانج النمر أن يمضي مطمئناً، لأن المرء يمكنه أن يضع ثقته في أولئك

الذين من دمه. إذ ذاك بعد أن أنجز كل شيء على خير وجه وأمن الموقف من شتى نواحيه، عاد إلى موطنه تتوج هامته أكاليل النصر.

أما أهل تلك المدينة، فقد عكفوا في عزم وثبات على إعادة تشييد ما لحق به الدمار. وعادوا يملأون متاجرهم بالسلع، وشرعوا في تشغيل أنوالهم لصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية، وبدءوا في البيع والشراء، دون أن يتحدثوا قط إلا عن هذا البعث الجديد، فما فات قد ولى وانتهى أمره، ويد السماء هي التي تخط المقادير للناس أجمعين.



غذ وانج النمر السير حثيثاً في رحلة العودة إلى وطنه، متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق من استتباب الهدوء والسلام بين صفوف جيشه كما كان عند رحيله. وقد خيل إليه في الواقع أن هذا هو السبب الرئيس في عجلته، لأنه لم يدرك أن هذه العجلة إنما يرجع إلى سبب أعمق من هذا، وهو أنه يريد أن يتبين ما إذا كان قد أنجب ولدًا أم لا. فقد ظل زهاء عشرة أشهر من السنة بعيداً عن بيته. ورغم أنه في تلك الأثناء تلقى خطابين من زوجته المثقفة، فإنها كانت تلتزم فيهما حدود الأدب البالغ والاحترام الشديد، حتى إن رقعة كل خطاب منهما كانت تفيض بعبارات الاحترام والتبجيل، دون أن تزيد عليها سوى القليل، الذي لا يعدو قولها إن كل شيء على ما يرام.

ولكنه ما إن خطا منتصرًا إلى داخل قصره حتى رأى في لمحة خاطفة أن السماء ما زالت تشملله برعايتها، وأن طالعه السعيد ما زال يظاها. فهناك في الفناء المشمس، حيث كانت شمس الجنوب تسطع بأشعتها الدافئة وما من نسمة ريح، كانت زوجته جالستين وقد حملت كل منهما طفلًا، يرتدي ثيابًا قرمزية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وتغطي رأسه

الصغير المهتز قلنسوة قرمزية. وقد طرزت الزوجة الجاهلة صفًا من صور صغيرة مذهبة للإله بوذا في قلنسوة طفلها، أما الزوجة المثقفة، فإنها من فرط ثقافتها لم تكن تؤمن بهذه التعاويذ لجلب الحظ، ومن ثم طرزت قلنسوة طفلها بالورود. وفيما عدا هذا، لم يكن ثمة اختلاف في مظهر الطفلين. نظر وانج النمر إليهما وهو يطرف بعينه في ذهول، إذ لم يدر بخلده من قبل أنه سينجب اثنين معًا. وقال في تلعثم:

«عجبًا! عجبًا!».

حينئذ، نهضت الزوجة المثقفة التي كانت سريعة البديهة، رشيقة في حديثها، فهي تتحدث دائمًا بأسلوب طلي معسول، تطعمه ببعض العبارات التي تنم عن الثقافة، أو بأبيات من الشعر الكلاسيكي القديم، وهي تكشف في حديثها عن أسنانها البيضاء اللامعة. نهضت هذه الزوجة ثم قالت وهي تبسم:

«هذان هما الطفلان اللذان أنجبناهما لك في أثناء غيابك، وهما قويان سليمان من قمة الرأس إلى أخمص القدمين». ورفعت مولودها إلى وانج النمر لكي يراه.

ولكن الزوجة الأخرى ما كانت لتحجم عن القول بأنها قد أنجبت ولدًا، في حين أن الزوجة المثقفة قد أنجبت بنتًا، ومن ثم نهضت هي الأخرى وسارعت بالحديث، مع أنها لم تكن تتحدث إلا نادرًا بسبب أسنانها المسودة والفجوات التي خلت من الأسنان في فمها، أما الآن فقد زمت شفيتها وقالت:

«مولودي أنا هو الابن، يا مولاي، أما الأخرى فهي بنت».

بيد أن وانج النمر لم ينبس ببنت شفة. والحقيقة أنه لم يقو على الكلام في هذه اللحظة لأنه لم يكن قد استوعب بعد كل المشاعر التي تحيط بامتلاك شيء خلقه بنفسه على هذه الصورة. وقف هنيهة يحملق صامتاً في هذين المخلوقين الدقيقين اللذين كان يبدو عليهما أنهما لا يريانه على الإطلاق. كلا، فقد كانا ينظران إليه في هدوء ووداعة كما لو كان شيئاً ثابتاً في ذلك المكان كأى شجرة من الأشجار أو جزء من الحائط. وكانت عيونهما تطرف وترمش من ضوء الشمس. ثم عطس الولد بصوت مرتفع لا يتناسب مع حجمه، حتى إن وانج النمر زادت دهشته لهذه العصفة التي انبعثت من مثل هذا الشيء الصغير. أما الطفلة، فلم تفعل شيئاً سوى أنها فغرت فاهما كما تفعل الهرة الصغيرة، وتثاءبت ملء شديها، في حين راح أبوها يتفرس فيها. على أنه لم يلمس هذين الطفلين، إذ لم يسبق له من قبل أن حمل طفلاً بين ذراعيه، بل ولم يعرف ماذا يقول لهاتين المرأتين في مثل هذه المناسبة، نظراً لأن كل أحاديثه تدور دائماً حول شؤون الحرب. ومن ثم لم يسعه إلا أن يبتسم في شيء من الثبات، بينما أخذ رفاقه يهتفون فرحاً وإعجاباً بالابن الذي أنجبه قائدهم، وحين بلغت هذه الصيحات مسامعه، تمتم قائلاً من شدة نشوته:

«حسناً، أحسب أن النساء سيتولين ترييتهما!».

ومضى مسرعاً إلى جناحه الخاص، فقد طغى عليه الفرح حتى إنه لم يعد يحس بهدوء البال.

وهناك اغتسل وتناول طعامه، ثم استبدل بملابس الحرب الخشنة

رداء حريريًا ذا لون أزرق قاتم. وعندما فرغ من كل هذا كان قد حل المساء، فجلس بجوار مجمرة الفحم، إذ أقبل الليل يلفه السكون وتغشاه البرودة القارسة من أثر الصقيع. هنالك جلس وحيدًا، واستغرق في تأمل ما توالى عليه من أحداث، فترأى له أن القدر يخصه برعايته في كل خطوة يخطوها، يخصه برعايته لدرجة أنه لم يعد ثمة شيء يتعذر عليه بلوغه. فالآن وقد صار له ابن، أصبح لطموحه معنى، وأصبح كل ما يفعله إنما يفعله لهدف معين. وبينما هذه الخواطر تطوف بذهنه أحس بقلبه يتضخم في حنايا صدره، ونسي كل ما عاناه يومًا من وحدة وأسى، وصاح على حين غرة وسط سكون الحجرة قائلاً لنفسه:

«سوف أخلق من ابني هذا محاربًا بمعنى الكلمة!».

ثم نهض من مكانه وضرب بيده على فخذه في نشوة.

ثم أخذ يذرع الحجرة بخطوات فسيحة فترة من الزمن، وهو يتسم دون أن يعي، ويفكر كم هو شيء يبعث على الراحة أن يكون له ابن من صلبه، وكيف أنه لم يعد بحاجة لأن يعتمد على أبناء أخويه، ما دام له ابن يخلد حياته من بعده، ويوسع مناطق نفوذه عن طريق الحرب. ثم خطرت له فكرة أخرى، وهي أن له ابنة كذلك، فقضى فترة وجيزة يسائل نفسه عما سيفعله بها. إذ ذاك كان واقفًا بجوار شبكة النافذة، يداعب شعر لحيته بأنامله، فراح يفكر في ابنته بتحفظ لأنها أنثى مهما يكن من أمرها، ثم قال لنفسه آخر الأمر في شيء من الشك:

«أعتقد أن في إمكاني أن أزوجه لأحد المحاربين الأشداء عندما يحين الأوان، هذا هو كل ما يمكنني أن أفعله من أجلها».

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، رأى وانج النمر هدفًا جديدًا يتمثل في هاتين المرأتين اللتين في حوزته، فقد تخيل أنهما سينجبان له مزيدًا من الأبناء، أبناء شرعيين يكونون له الولاء ولا يقدمون يومًا على خيانتته كما يحتمل أن يخونه الآخرون ممن لا تجري دماؤه في عروقهم. ولم يعد يستخدم هاتين المرأتين كوسيلة لتحرير قلبه وجسده من إसार الأسي، فقد تحرر قلبه منذ اللحظة الأولى لرؤية ابنه، أما جسده، فقد أضحى ينبوع الأمل في إنجاب الأبناء الذين سيصبحون جنودًا يركن إليهم لمساندته والوقوف بجانبه عندما تدب فيه الشيخوخة والوهن. لذلك راح يتردد على زوجته بانتظام، دون أن يميز واحدة عن الأخرى، رغم كل المحاولات الرقيقة التي كانت تبذلها كلتاها في الخفاء لنيل الحظوة لديه. وكانت كل منهما، بأسلوبها الخاص، تبعث في نفسه الرضا الكامل، إذ لم يكن ينشد منهما سوى شيء واحد على حد سواء، ولم يكن يطمع في أن تمنحه إحداها شيئًا أكثر من الأخرى. فالآن وقد صار له ابن من صلبه، لم يعد حبه لامرأة يؤرق مضجعه.

هكذا انقضى الشتاء وهو مفعم بالرضا. ثم أقبلت مهرجانات العام الجديد وانقضت بدورها، فأقام بهذه المناسبة أفراحًا تفوق المعتاد لأنه كان عامًا يفيض بالخير، كما كافأ رجاله جميعًا بمنحهم الخمر واللحوم فضلًا عن منحة من الفضة. بل إنه أهدى كلاً منهم بعض الأشياء الصغيرة التي يتوقون إليها: قليلًا من الأطباق أو منشفة أو زوجًا من الجوارب وما شابه ذلك من الأشياء البسيطة. كذلك أعطى منحة خاصة لزوجتيه، وشاع الفرح والمرح في شتى أرجاء القصر في أثناء فترة المهرجانات.

لم يحدث سوى شيء واحد مؤسف، وقد وقع بعد انقضاء يوم العيد، فلم يكدر صفو الأفراح. ذلك أن الحاكم الهرم قضى نحبه في أثناء نومه ذات ليلة. ولم يعرف أحد ما إذا كان قد أفرط في تعاطي الأفيون لأنه كان ينام نومًا ثقیلاً، أم أن البرد القارس قد قضى عليه في أثناء نومه الثقيل تحت تأثير المخدر. وقد أبلغ وانج النمر بالحدث، فأمر بأن يعد نعلش فاخر، وأن تؤدي كل فروض الواجب لذلك الشيخ الوديع الدمث. على أنه في اليوم التالي مباشرة بعد أن فرغوا من كل شيء، وتم إعداد النعلش لإرساله إلى مسقط رأسه - إذ إن الحاكم لم يكن من أبناء هذه المقاطعة - أقبل أحد الرجال مرة أخرى لينبئ وانج النمر أن زوجة الحاكم العجوز قد تعاطت ما تبقى من أفيون زوجها، ومن ثم لحقت به بمحض إرادتها. ولم يأس عليها أحد لأنها كانت امرأة طاعنة في السن تعاني المرض ولا تبارح أروقتها على الإطلاق، حتى إن وانج النمر لم يرها في يوم من الأيام طيلة حياته. فأمر بإعداد نعلش آخر لها، وعندما أعد كل شيء بعث بهما مع ثلاثة من الخدم لنقلهما إلى مدينتهما في المقاطعة المجاورة. ثم أرسل تقريراً عن الحادث في صيغة مناسبة إلى عليية الحكام الذين يجب أن يعلموا بالأمر. لهذا الغرض أرسل تابعه الأشرم الأمين حاملاً الرسالة ومعه بعض الجنود، وقال له على حدة قبل رحيله:

«ثمة أشياء لا تقال إلا من الفم للأذن، ولذلك لم أخطها في رسالتي. ولكن إذا واثت الفرصة، فعليك أن تبين لهم أنه يجب أن يؤخذ رأيي في اختيار الرجل الذي سيتولى منصب الحاكم المدني هنا».

فأوماً التابع الأمين برأسه ممثلاً، وأحس وانج النمر بالرضا، غير أنه

في مثل هذه الأزمنة المضطربة، لم يكن يخشى القდوم العاجل لأي حاكم من الحكام، فبوسعه أن يحكم الإقليم بنفسه على خير وجه. ومن ثم غاب الأمر عن باله، واستولى لزوجتيه على الأروقة الداخلية التي كان يسكنها الحاكم، وسرعان ما نسي تمامًا أن أحدًا عداه هو وعائلته قد عاش فيها يومًا ما.

ثم اقترب الربيع ثانية، وقرر وانج النمر أن يعود إلى بيت أبيه لقضاء يوم العيد مع أخويه، ما دام قد حالفه الحظ في كل خطوة خطاها ذلك العام، وجاءته تقارير طيبة عن سير الأمور في إقليمه الجديد، وتدفقت الفضة إلى يديه بانتظام من منابع دخله العديدة، فأصبح جنوده يتسلمون مرتباتهم ويحسون بالرضا، ويلهجون بالثناء عليه. وكانت هذه الزيارة لبيت أبيه عملًا مناسبًا يليق بأفراد البيوتات الكبيرة، لا سيما وأن ذلك هو الموسم الذي يجدر فيه بالآباء أن يرمموا قبور آبائهم. وفضلًا عن ذلك، فما زالت هناك بعض الحسابات البسيطة يريد أن ينجزها مع أخيه الثاني، فقد أصبح الآن مستعدًا للتحرر من ربة الدين، ويرغب في التحرر منه. لذلك أرسل بعض جنوده لينبئوا أخويه الكبيرين - بكل أدب ومجاملة - أنه زوجته وطفليه وخدمهم سينزلون ضيوفًا عليهما في يوم العيد. فرد أخواه، وانج المالك ووانج التاجر، على هذه الرسالة بعبارات مهذبة للغاية للترحيب بمقدمه.

ولما أعد كل شيء للرحيل، امتطى وانج النمر جواده الأحمر الشامخ وانطلق على رأس حرسه. ولكن تحتم عليهم هذه المرة أن يتقدموا بجيادهم في تودة، إذ كان بصحبته المراتان والوصيفات في عربات

تجرها البغال. وكان وانح النمر يتقدم بجواده في بطاء، مزهواً بأنه يفعل ذلك من أجل أسرته. فقد أحس وهو يتقدم هكذا على رأس موكبه الذي يضم زوجته وطفليه أنه يتخذ مكانه بين الأجيال. ولم يسبق من قبل أن بدت له أرضه على هذا القدر من البهاء والرخاء مثلما بدت لعينيه في ذلك الوقت الذي ينبثق فيه الربيع، فتغطي البراعم أشجار الصفصاف وتفتح أزهار أشجار الخوخ. وحين رأى اللون الأخضر الباهت يغطي أنحاء الأرض، ورأى أشجار الخوخ في الوديان وعلى جوانب التلال، ورأى الأرض الندية بلونها البني القاتم تصافح شمس الربيع، قفزت ذكرى أبيه إلى مخيلته على حين فجأة، وتذكر كيف كان يحب في كل ربيع أن يقطع غصناً من أشجار الصفصاف وغصناً من أشجار الخوخ المزدهرة، ويحملهما في يده أو يعلقهما على باب البيت المشيد من الطين. وإذا راح يفكر في أبيه وفي ولده، شعر بأنه قد أخذ مكانه في موكب الحياة الطويل، وأنه لم يعد منفصلاً عنه، ولم يعد وحيداً كما كان في يوم من الأيام. ولأول مرة في حياته اغتفر لأبيه من أعماقه ذلك المسلك الذي أثار غضبه العميق في صباه. ولكنه لم يع أنه قد صفح عنه، لم يع شيئاً سوى أن الشعور بالمرارة الذي ترسب في أعماقه منذ غضبة صباه قد تسلل من نفسه وتلاشى في الهواء كأنما تذروه ريح طيبة، وإذا بالسلام يغمر نفسه آخر الأمر.

هكذا أقبل على بيت أبيه تتوج هامته أكاليل النصر، أقبل لا كأصغر الأبناء أو الإخوة، بل كرجل له كيانه الخاص الذي استحقه عن جدارة بما حققه من أمجاد، وبذلك الابن الذي أنجبه. وقد لمس الجميع أعماله

المجيدة، فقابله أخواه في ترحاب بالغ كما لو كان ضيفاً رفيع الشأن، وتبارت زوجتهما في طلاقة اللسان وسرعة الخاطر، كلٌ تريد أن تتفوق على الأخرى في ترحيبها بهم.

والحقيقة أن السيدة زوجة وانج المالك وزوجة وانج التاجر قد نشبت بينهما معركة من قبل؛ لأن كلاً منهما تريد أن تستضيف وانج النمر وعائلته في بيتها. فالسيدة تعتبر نزولهم في بيت زوجها أمراً مسلماً به ومن حقها دون منازع، ذلك لأنها الآن، وقد ذاعت شهرة وانج النمر، أحست بأنه سيكون شرفاً لها أن تستضيفه في بيتها، فقالت لزوجها:

«هذا هو الوضع اللائق، فنحن الذين اخترنا له زوجته، سيدة لطيفة المعشر لها ثقافتها العالية، ومن المحال أن يظلها سقف واحد من زوجة أخيك التي تنضح جهلاً. دعها تستضيف الزوجة الأخرى الأقل شأنًا إذا رغبت في ذلك، أما نحن، فيجب أن نستضيف أخاك وزوجته هنا، فمن الجائز أن يأسر قلبه أحد أبنائنا، وربما استطاع أن يسدي إلينا خدمة عظيمة تعود علينا بالخير العميم. وهو على أقل تقدير لن يتعرض هنا لتلميحات زوجة أخيك وأهوائها».

أما زوجة وانج التاجر، فقد رفضت رفضاً باتاً أن تتخلى عن رغبتها ودأبت على أن تقول لزوجها في حاجة:

«كيف يتسنى لامرأة أخيك أن تطعم مثل هذا العدد الكبير وهي لم تعتد سوى إطعام الراهبات والكهنة بما يأكلونه من خضراوات لا تغني ولا تشبع من جوع؟».

واستعرت نيران الغضب حتى نشبت معركة سافرة بين هاتين المرأتين حول هذه المسألة. وحين رأى الزوجان المعركة الدائرة، وسمعا الأحاديث الصاخبة التي كانت تزداد صخباً كلما اقترب يوم المهرجان، وتبيننا أنه من المتعذر الوصول إلى قرار حاسم في الموضوع، وأن كلا من الزوجتين تأبى التخلي عن موقفها قيد أنملة بدافع الكبرياء، حينذاك تقابلا معاً في مكان اللقاء المعهود بمشرب الشاي، لأن العداء بين زوجتيهما قد وُحِّد بينهما بصورة لم يسبق لها نظير. وهناك أخذتا يتبادلان المشورة، فقال وانج التاجر الذي كان قد رسم خطته قبل المقابلة:

«فليكن الأمر حسب قولك، ولكن ما رأيك لو أننا أنزلنا أخانا وحاشيته في ذلك الرواق الذي خلا بعد موت أبينا؟ حقيقة أنه يخص محظيته لوتس، ولكنها الآن طاعنة في السن ولا تستخدمه على الإطلاق منذ أن أقلعت عن لعب الميسر. وإذا ما أنزلناهم هناك، يمكننا حينذاك أن نقسم النفقات بيننا، ونتخذ من هذا ذريعة نقنع بها زوجتي، وهكذا يستتب السلام مرة أخرى».

وكان من الممكن في سالف الأيام أن تتملك أخاه الأكبر الرغبة في انتهاج وسيلة أخرى يتمخض عنها ذهنه دون مساعدة من أحد. غير أنه كان كلما تقدم في السن وتضخم بطنه بهذه الصورة الموهلة، يجنح إلى الخمول الشديد، ويستولي عليه النعاس معظم يومه، ولا يدخر وسعاً في أن يجنب نفسه العناء والمتاعب. لذلك تراءى له أن هذه خطة رائعة. ومع أنه كان يرغب في نبيل الخطوة لدى أخيه الأصغر صاحب القوة والنفوذ، إلا أنه لم يعد يحرص كثيراً على أن يأخذ منه شيئاً يتفوق به على شقيقه

الثاني. كما أنه في تلك الفترة التي تزايدت فيها بلادته، لم يعد يحب الزائرين كشأنه في الماضي، بل أصبح يسعده الآن ألا ينزل في بيته أولئك الضيوف الذين يتحتم عليه مجاملتهم بمناسبة وبغير مناسبة، فيجشم نفسه العناء. لذلك وافق على الفكرة عن طيب خاطر، ثم عاد كل منهما إلى بيته، وأفضى إلى زوجته بالخطبة التي انعقد عليها الرأي، فكانت الحل السعيد الذي رضي عنه الجميع، لأن أحداً لم يتنازل عن موقفه كلية. وأضمر كل من الأخوين بينه وبين نفسه أن يبدو أمام القادمين كما لو كان هو الشخص المسؤول عن راحتهم. ومع ذلك، فقد اغتبط كلاهما لأن التكاليف الباهظة التي ستنفق على الخمر والولائم وعلى العطايا التي سينفج بها الخدم رجالاً كانوا أم نساء، سوف تقسم مضافة بينهما. وكانت هذه الناحية بالذات سبباً وجيهاً اقتنع به الجميع.

إذا ذاك نظفت وزينت تلك الأروقة العتيقة التي كان وانج لانج يقطنها في السنين الأخيرة من منتصف عمره. وحقيقة أن لوتس لم تعد تغشاها مطلقاً، على أن الوصيفات كن يجلسن هناك أحياناً، وهذا كل ما هنالك. ذلك أن لوتس كانت عندئذ قد بلغت من العمر أرذله وأصبحت في غاية الضخامة، وكانت كوكو هي الوحيدة التي تؤنس وحدتها -بغض النظر عن إمائها الأخريات- فقد غشيت عينيها غاشية كلما تقدمت بها السن، حتى إنها آخر الأمر لم تعد قادرة على الرؤية الكافية لطرح الررد في لعب الميسر، أو لتمييز الأرقام في أي لعبة من ألعاب الحظ التي كانت مولعة بها. أما صديقاتها العجائز اللاتي اعتدن التردد عليها، فقد انتقلن إلى العالم الآخر واحدة بعد الأخرى، أو أصبحن طريحات الفراش تحت

وطأة المرض. فلم تبق على قيد الحياة سوى لوتس التي ظلت تعيش بمفردها مع أولئك الذين يقومون على خدمتها.

وقد دأبت على معاملة إماءها في قسوة مريرة، وكلما وهن منها البصر ازداد لسانها حدة وقسوة، حتى صار لزاماً على الأخوين أن يدفعوا أجوراً باهظة للوصيفات، وإلا لما تحملن سلاطة لسانها. أما الإماء اللاتي كن يشتريهن بالثمن ولا يملكن حق مبارحة البيت إذا رغبن في ذلك، فقد آثرت اثنتان منهن الانتحار عن أن تتحملا المزيد من قسوة لوتس، فابتلعت إحداهما قرطها الزجاجي الرخيص، في حين شنقت الأخرى نفسها على عمود من الخشب في المطبخ الذي كانت تعمل فيه. إذ إن لوتس لم تكتف بأن تسلط لسانها عليهن في خشونة وفظاظة، صائحة بالفاظ بذيئة لا تقوى الوصيفات على تحمل سماعها، بل إنها كانت أيضاً تقررصهن في قسوة ووحشية. فأصابعها المكتنزة العجائز التي لم تعد تجدي نفعا رغم احتفاظها بجمالها العجيب، والتي ظلت ناعمة جميلة بعد أن ذوت كل نواحي الجمال الأخرى من هذه المرأة، هذه الأصابع العجائز ما زال في إمكانها أن تقرص شابة من الإماء في ذراعها حتى يحتبس الدم قائماً تحت الجلد.

على أن هذا لم يكن يشفي غليلها في بعض الأحيان، فكانت تخرج قطع الفحم المتقدمة من فوهة غليونها وتضغطها على أجسادهن الرقيقة الغضة. ولم تسلم من هذه المعاملة سوى كوكو، فقد كانت تخشاه، وتعتمد عليها في كل أمرها.

ذلك أن كوكو ظلت كعهدها دوماً. فعلى الرغم من أنها كانت تزداد

نحولاً وذبولاً وجفافاً في شيخوختها - فقد أصبحت طاعنة في السن هي الأخرى - فإنها ما زالت تتمتع بقوة فياضة في جسدها الهرم، تكاد تكون نفس قوتها في صدر شبابها. كما ظلت عيناها حادتين ولسانها سليطاً ووجهها متورداً، وإن كسته الغضون. وظلت جشعة كسابق عهدها، فهي وإن كانت تحمي سيدتها من سرقات الخادومات الأخريات، إلا أنها دأبت هي نفسها على السرقة منها بكل ما أوتيت من جرأة، فالآن، وقد غشيت عيني لوتس هذه الغشاوة، كانت كوكو تسلب منها ما يحلو لها وتملاً خزانتها الخاصة بهذه الأسلاب. وكانت لوتس، لتقدمها في السن، تنسى مقتنياتها من المجوهرات وأردية الفراء والأطلس والحرير، لذلك خفي عنها ما تسلبه كوكو منها، ولئن تذكرت شيئاً بمحض المصادفة وصاحت في طلبه على حين غرة، كانت كوكو حينذاك تصرف انتباهها عنه إن ودت إلى ذلك سبيلاً. أما إذا ركب لوتس رأيها، ولم يغب الأمر عن بالها، فإن كوكو كانت تمضي وتحضر ذلك الشيء من صناديقها وتعطيه لها. ولكن لوتس بعد أن تتحسس بأصابعها مرة أو مرتين تعود فتنسأه، وتأخذ كوكو ثانية وتحفظ به في خزانتها.

وما كانت إحدى الإماء أو الخادومات تجرؤ على الشكوى من كوكو، فقد كانت هي السيدة الحقيقة في ذلك البيت، بل إن الأخوين كانا يخضعان لرغباتها؛ لإدراكهما أنه من المتعذر العثور على أخرى لتحل مكانها، فلم يتجاسرا على إغضاها. ومن ثم، عندما كانت كوكو تدّعي أن لوتس قد أعطتها هذا أو ذاك، تلوذ الخادومات بالصمت، إذ يدركن جيداً أنهن إذا رفعن أصواتهن بالشكوى، فإن كوكو من القسوة والشر بحيث

يمكنها أن تدس لهن السم في وعاء الطعام دون أن تكتثر بالأمر. فقد كانت تتباهى أحياناً بمهارتها الفائقة في دس السم كي تدخل الرعب إلى قلوبهن. أما لوتس، فقد أصبحت تعتمد عليها اعتماداً كاملاً كلما تلاشى نور بصرها. كما أنها بسبب بدانتها المفرطة لم تعد تمشي على الإطلاق إلا عندما تتحرك من فراشها إلى مقعدها الكبير المصنوع من الخشب الأسود المحلى بالنقوش البارزة، حيث كانت تجلس حيناً بعد الظهر، ثم تعود إلى فراشها مرة أخرى. وحتى حينذاك كانت لا بد أن تتوكأ على أربع أو أكثر من الإماء، لأن قدميها الصغيرتين الجميلتين اللتين كانت مبعث زهو وانج لانج ومنتعته في يوم من الأيام، قد أصبحتا الآن مجرد زائدتين ترزحان تحت ثقل جسدها الهائل الذي كان ممشوقاً كغصن البان، والذي كان وانج لانج يهيم به حباً في الأيام الخوالي.

و ذات يوم سمعت لوتس هرجاً ومرجاً في الأروقة المجاورة لها، ولما استفسرت عن الأمر، علمت أن وانج النمر قادم مع زوجته وطفليه كي يقضي أيام العيد في البيت، ويتعبد مع أخويه أمام قبر أبيهم، فثارت نائرتها حينذاك، وقالت:

«لا يمكنني أن أتحمّل أطفالاً هنا! لقد كنت أبغض الأطفال دائماً!».

وكان هذا صحيحاً، فقد كانت امرأة عاقراً، تحس دائماً بنوع من الكراهية الغريبة نحو الأطفال الصغار، لا سيما بعد أن تخطت فترة الخصوبة من حياتها. وفي أثناء صياحها كان وانج المالك قد دلف إلى حجرتها مع أخيه، فأخذ يهدئ من نائرتها قائلاً:

«كلا، كلا، سوف نفتح البوابة الأخرى حتى لا يكون ثمة ما يدعو لأن

يقترب أخي منك على الإطلاق».

فعادت تصيح بطريقتها المشاكسة كسابق عهدها:

«لا أذكر من يكون هذا بين أبناء رجلي العجوز! أهو الفتى الذي اعتاد أن يحملق في تلك الأمة الشاحبة التي كنت أقتنيها في يوم من الأيام، ثم ولى هاربًا حينما اتخذها رجلي العجوز الأحمق محظية له؟».

إذ ذاك أخذ الأخوان يتبادلان النظرات في ذهول، فقد استولت عليهما الدهشة لسماع هذه القصة التي لم تترام إلى سمعهما من قبل. ولما كانت لوتس في شيخوختها تغالي في البذاءة وسلاطة اللسان، وتعتمد إلى الحديث عن حياتها الأولى في أيام شبابها، ما حدا بالأخوين إلى منع أبنائهما من الاقتراب منها لأنها لم تعد تميز بين الحديث المهذب والحديث البذيء، ولأن كل ذكريات ماضيها كثيرًا ما كانت تطفو كالفقايع على سطح شفيتها، لذلك كله أسرع وانج التاجر يقول:

«لا نعرف شيئًا عن هذا. إن أخانا أصبح الآن أحد ملوك الحرب الذائعي الصيت، ولن يطيق مثل هذا الكلام الذي يחדش شرفه وكرامته».

غير أن لوتس عندما سمعت هذا ضحكت عاليًا وبصقت على الأرض المغطاة بالقرميد، وصاحت:

«أوه! لشد ما أنتم مزهوّون بالشرف معشر الرجال! أما نحن النساء، فإننا نعرف جيدًا من أي مادة رخيصة يصاغ شرفكم».

وأرهفت أذنيها لتسمع كوكو حين تضحك مثلها، ثم صاحت:

«أليس كذلك يا كوكو؟».

ولم تكن هذه تبعد عنها قط، فأطلقت ضحكاتها الحادة الرفيعة التي تشبه نقنقة الدجاج، إذ سرها أن ترى ارتباك هذين الكهلين اللذين تظهر عليهما سيماء الوقار والشعور بالأهمية كل بطريقته الخاصة. أما الأخوان، فقد سارعا بالخروج من الحجرة لتوجيه الخدم في شتى المهام التي يجب القيام بها.

وكان كل شيء مُعدًّا حين أقبل وانج النمر مع أهل بيته، فأقام في تلك الأيام بالرواق الذي كان يقطنه أبوه من قبل. أما الآن، فقد أصبح هذا الرواق خاليًا له، خاليًا من جميع الناس عدا هو وابنه، حتى لقد كان بوسعه أن ينسى أن أحداً عداهما قد عاش فيه يومًا.

ثم أقبل مهرجان الربيع على هذه الأسرة وقد التأم شملها، فنحى الجميع أحقادهم الشخصية جانبًا هذه المرة، حتى إن زوجتي الأخوين الكبيرين كانتا تعاملان إحداهما الأخرى بأسلوب رسمي يلتزم حدود الأدب، إذا اجتمعتا معًا بين أفراد الأسرة. وتم أداء كل الفروض حسب الترتيب اللائق طبقًا للطريقة التي يجب أن تؤدي بها إذ كانت هناك واجبات معينة على أبناء وانج لانج أن يؤديوها لأبيهم في هذه المناسبة.

وتصادف أن جاء يوم ذكرى ميلاد وانج لانج قبل المهرجان بيومين، فقد بلغ التسعين في ذلك اليوم أينما كانت روحه، فعزم أبنائه على القيام بواجبهم البنوي كاملاً، ما داموا قد اجتمعوا معًا، وكان وانج النمر على أتم استعداد لأداء الواجب؛ لأن غضبه على أبيه قد تلاشى من تلقاء نفسه بعد أن صار له ابن من صلبه، فكان مستعدًا، بل متلهفًا لأن يتخذ مكانه في موكب الآباء والأبناء.

وبناء على ذلك، دعا أبناء وانج لانج عددًا كبيرًا من الضيوف في يوم ذكرى ميلاده. وأعدت وليمة فاخرة كالتي كان من الممكن أن تقام لو أن أباهم كان على قيد الحياة بينهم. وساد الفرح والسرور، وتبدلت التهاني، وقدمت جميع ألوان الطعام التي تليق بأعياد الميلاد. كما أحضروا لوحة وانج لانج، وانحنوا أمامها، وقدموا إليه فروض الإجلال والإكبار في ذكرى ميلاده.

وفي نفس ذلك اليوم، اكترى وانج المالك بعض الكهنة، ولم يبخل عليهم بالمال، وأسهم جميع الأبناء بنصيبهم في النفقات، فراح الكهنة يرتلون ترانيمهم كي تنعم روح وانج لانج بالراحة والبهجة في أروقة السعادة التي تهيم فيها. كما زينوا القاعة برموزهم وشارتهم المقدسة، وامتلأت أرجاء البيت طيلة نصف يوم بأصواتهم المترنمة التي كانت ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى، وبالأصوات الغليظة الرتيبة التي تصدرها طرقات العصي على طبولهم الخشبية.

كل هذا فعله أبناء وانج لانج لإحياء ذكراه. وفضلًا عن ذلك، فقد ذهبوا ومعهم زوجاتهم وأبنائهم إلى البقعة التي توجد فيها مقابر آبائهم. وحرص الأبناء على أن تكون القبور جميعًا مستوية ناعمة، وأن تهال عليها أكوام عالية من تراب جديد ونُسّق كل قبر في شكل هرمي، ثم وضعت على قمته قطعة من الطين، ثبتت تحتها شرائط طويلة من الورق الأبيض قصت بمهارة فائقة، فكانت تلك القصاصات ترفرف مع نسيم الربيع العذب في ذلك اليوم. وانحنى أبناء وانج لانج أمام قبر أبيهم حتى لمست رؤوسهم الأرض، وشرعوا في حرق البخور، ثم جاءوا بأبنائهم للانحناء أيضًا. وكان

وانج النمر أكثر الجميع زهواً حينما أخذ ابنه الجميل وحنى رأسه الصغير أمام القبر، فأحس أنه قد ارتبط بآبائه وأخويه عن طريق هذا الطفل: ابنه.

وفي طريق عودتهم إلى البيت رأوا الأبناء، حيثما وجدت قبور الآباء والأجداد في شتى أنحاء الريف، يؤدون واجبهم مثلما فعلوا هم من أجل وانج لانج في ذلك اليوم؛ لأنه كان يوماً من أيام الذكرى. فاهتزت مشاعر وانج المالك أكثر من المعتاد، فقال:

«ليتنا نواظب على أداء هذا الواجب أكثر مما اعتدنا أن نفعل في السنوات الماضية، إذ لم يعد أمامنا سوى عشر سنوات أخرى، ثم يبلغ أبونا المائة، فيبعث حينذاك من جديد، ويتقمص جسداً آخر في هذا العالم، ومن ثم لا يمكننا الاحتفال بعيد ميلاده، لأنه سيولد من جديد، ويصبح مجهولاً لدينا».

فقال وانج النمر، وقد بدا عليه وقار الأبوة:

«أجل، يجب علينا أن نفعل هذا من أجله كما نأمل أن يفعل أبنائنا من أجلنا عندما نستقر في المكان الذي يقيم فيه الآن».

ثم اتجهوا إلى البيت، يخيم عليهم الصمت والوقار، وقد داخل كل منهم شعور يفوق المعتاد بالصلة العائلية التي تربطه بالآخرين.

وبعد أن فرغوا من أداء هذه الواجبات، أقبلوا جميعاً على أفراح المهرجان. وعندما أشرف يوم المهرجان على المساء كان الهواء دفيئاً لطيفاً على غير ما كان متوقعاً، وظهر وجه القمر صغيراً مكتملاً في كبد السماء، وقد بدا صافياً شاحباً في لون الكهرمان. وفي تلك الليلة، اجتمع

الجميع في الرواق الذي تسكنه لوتس، ذلك لأنها في هذا اليوم اعترتها نوبة من الشجن على حين غرة، وقالت:

«إني امرأة عجوز وحيدة، وهم لا يقتربون مني قط أو يعتبروني واحدة من أهل هذا البيت على الإطلاق!».

وأخذت تئن وتذرف الدمع ثخيناً من عينيها العجوزين الكفيفتين، فمضت كوكو وأنبات الإخوة بالأمر، فأذعنوا لها؛ لأن قلوبهم في هذا اليوم كانت على غير العادة تفيض رقة وحناناً نحو أبيهم وكل من يمتون له بصلة، لذلك بدلاً من إقامة الوليمة في أروقة وانج المالك، حيث كانت زوجته ستجمع أفراد العائلة، ذهبوا إلى رواق لوتس. كان الرواق فسيحاً جميلاً، تنتصب أشجار الرمان المستوردة من الجنوب في أحد أركانه، وفي وسطه بركة صغيرة مثمرة الجوانب ينعكس على صفحتها ضوء القمر الصغير الوليد. هنالك أكل الجميع الفطائر، وشربوا الخمر مترعة، وكان الأطفال يمرحون في ضوء القمر، ويركضون هنا وهناك مختبئين في الظلال أو خارجها، ثم يهرعون ليخطفوا الفطائر أو يرتشفوا شيئاً من الخمر. أكل الجميع ملء بطونهم مما لذ وطاب من الأطعمة المدخنة والفطائر التي جرت العادة على صنعها في مثل هذا المهرجان، كان بعضها محشواً بلحم الخنزير المقطع شرائح رقيقة، والبعض الآخر محشواً بالسكر المعقود، ولذيذاً جداً. وكانت هناك كميات هائلة من الطعام حتى إن الإماء التهمن منه ما طاب لهن، واستطاع الخدم أن يأخذوا منه خلسة، ويأكلوا وراء الأبواب، أو عندما كانوا يخرجون متظاهرين بإحضار مزيد من الخمر. ولم يشعر أحد بما اختلسوه، أما إذا لحظتهم

عيون سيداتهم الحادة، فما كان ليتفوهن بشيء هذه المرة على الأقل، حتى لا يشوه التعنيف جمال الليلة.

وبينما هم يأكلون ويشربون أخذ أكبر أبناء وانج المالك -وهو موسيقار بارع- يعزف على الناي، في حين راح أخوه الثاني -وهو صبي ذو أنامل دقيقة رشيقة- يعزف في خفة على أوتار قيثارة بعودين دقيقين من الغاب. عزف الشقيقان معًا بعض الأغاني القديمة التي تشيد بالربيع، كما أنشدا أغنية أو اثنتين عن صبية ماتت تشكو وجدها للقمر. وعندما كانا يعزفان معًا بهذه المهارة، طغى على أمهما شعور بالزهو، فراحت تكيل لهما المديح، وصاحت بصوت جهير، حالما فرغا من إحدى الأغنيات: «اعزفا شيئاً آخر، يا ولديّ، فما أروع أن تعزفا هكذا في ضوء القمر الوليد!».

وكانت فخورًا بنظراتهما الرقيقة الجميلة.

أما زوجة وانج التاجر التي تلقى أبنائها تعليمًا بسيطًا، ولم يفقهوا شيئًا في عزف الموسيقى، فقد أخذت تتشاءب وتثرثر بصوت عال مع هذه وتلك من الحاضرات، ولكن معظم حديثها كان موجهاً إلى الزوجة التي انتقتها لوانج النمر. وجهت جل اهتمامها إلى هذه الزوجة متعمدة إظهار تجاهلها للزوجة المثقفة. ولم تكن تلقي ولو نظرة خاطفة على ابنة وانج النمر، في حين أنها لم تكف لحظة عن شم الطفل الذكر وحك أنفها بوجهه، حتى لقد يظن المرء أن الفضل يعود إليها أولاً وأخيراً في أن الطفل كان ولدًا.

ومع أنه لم يدر حديث سافر بين السلفتين في أثناء الحفل إلا أن زوجة وانج المالك ظلت تسدد نظرات ملؤها الاشمئزاز إلى سلفتها، وكانت هذه تلمح تلك النظرات كلها وتجدد لذة في التظاهر بأنها لم تلمحها على الإطلاق. ولكن لم يبد على أحد أنه قد لاحظ شيئاً مما يدور بينهما. ولم يلبث وانج المالك أن تنبه من خموله، وأصدر أوامره للخدم بإحضار الموائد إلى داخل الأروقة لإقامة وليمة الليلة، فنفذوا أوامره ثم انكب الجميع على الطعام الحقيقي، وأخذ الخدم يحضرون صنوف الطعام الشهية واحداً بعد الآخر، إذ كان وانج المالك قد أعد هذه الوليمة وتفوق على نفسه في إعدادها. كانت هناك ألوان من الطعام لم يسمع بها وانج التاجر أو وانج النمر من قبل، مثل لسان البط المطهو بالتوابل، وأرجل البط المطبوخة مع جلدها الأسود الشهي بعد نزعها منها، فضلاً عن صنوف أخرى متعددة من مثل هذا الطعام اللذيذ الذي يسهل له اللعاب.

ولم يتفوق أحد من بين كل أولئك الذين أكلوا وشربوا بشراهة في تلك الليلة على لوتس في شراحتها للطعام والشراب، وكان يستبد بها المرح كلما تمادت في الأكل. كانت تجلس على مقعد ضخم محلى بالنقوش البارزة وإلى جوارها إحدى الإماء لتضع لها في وعائها شيئاً من كل صنف من صنوف الطعام، على أن لوتس كانت تفضل أحياناً أن تغرف الطعام بنفسها، إذ ذاك كانت الأمة توجه يدها إلى الصحفة، فتغمس فيها ملعقتها الخزفية، ثم ترفعها في لهفة إلى فمها العجوز المرتعش وترشف منها بصوت مسموع. وقد أكلت من اللحوم ومن كل شيء، إذ كانت لا تزال تتمتع بأسنانها كلها قوية سليمة.

وكانت كلما ازداد بها المرح تمسك عن الأكل بين الحين والحين
تروي بعض القصص السوقية الفاجرة، فيغرق الشباب في الضحك بقدر
ما وسعهم من جرأة، غير أنهم لم يتجاسروا على التماذي في الضحك
أمام الكبار. أما هي، فكانت ترهف أذنيها لتسمع ضحكاتهم المتفجرة
والمكتومة، فيشجعها ذلك على رواية قصص أخرى، حتى وانج المالك
لم يكد يستطيع الاحتفاظ بطابع الوقار على وجهه، لولا أن زوجته كانت
تجلس هنالك جامدة صامته، فكان ينظر إليها ويتسم بالوقار. أما زوجة
وانج التاجر المتوردة، فقد كانت تهقه بصوت مرتفع وتزداد قهقهتها
ارتفاعاً كلما رأت أن سلفتها تأبى الضحك على الإطلاق. بل إن زوجة
وانج المالك الثانية كانت تعض على شفيتها لتكتم الضحك، ومع أنها
أبت أن تضحك -مجاراة لسيدتها- فإنها لم تتمالك أن تحجب وجهها
بكمها وتبتسم من خلفه.

على أن لوتس كلما أرهفت أذنيها وسمعت ضحكات الرجال كانت
تتمادى في إباحيتها حتى أصبح من الضروري إسكانها درءاً للعار. لذا
ثابر الأخوان الكبيران على تزويدها بالخمير حتى يغلبها النعاس، ومما زاد
من مثابرتهم على ذلك أنهما كانا يخشيان أن تتفوه بقول بذيء فاحش
عن وانج النمر، فتثير غضبه، وكانا يخشيان ثورة غضبه أشد الخشية.
كما أنهما -بسبب لسانها السليط- لم يلحا على بيرلوسوم في حضور
الوليمة العائلية، فعندما بعثت بالرد مع رسولهما إليها معذرة بأنها لا
تستطيع التخلي عنهما أمانة في عنقها، تركاها وشأنها، إذ تراءى لهما
أن من الأفضل عدم إثارة ذكريات الماضي في نفس لوتس.

هكذا انقضت الليلة في مرح وسرور، وأقبل منتصف الليل، واختال القمر صاعداً إلى كبد السماء، وظهرت بعض الغيوم الرقيقة تغشي صفحته، فبدت وكأنها تؤرجحه هنا وهناك. وراح الأطفال الصغار في سبات عميق على صدور أمهاتهم، فقد سعى أصغر الأبناء من كل عائلة إلى ثدي أمه حتى استولى عليه النعاس من زمن، عدا أصغر أبناء وانج المالك التي كانت إذ ذاك فتاة متعالية ممشوقة القد في الثالثة عشرة من عمرها، تبدو عليها علائم الجد والوقار، بعد أن عقدت خطبتها منذ أمد ليس بالبعيد. أما الزوجة الثانية لوانج المالك، فكانت أمّاً رءوماً تحمل طفلين بين ذراعيها، أحدهما طفل تجاوز عامه الأول، والآخر حديث الولادة لا يزيد عمره عن شهر إلا بقليل، لأن وانج المالك كان لا يزال يميل إليها ويسعى إلى وصالها. أما زوجتا وانج النمر، فقد كانت كل منهما تحمل طفلها، وكان ابنه الصغير غارقاً في النوم وقد ألقى رأسه على ذراع أمه وضوء القمر يغمر وجهه، فكان وانج النمر كثيراً ما يتطلع إلى وجهه الصغير النائم.

غير أن مظاهر الفرح والمرح أخذت تتضاءل بعد منتصف الليل، وبدأ أبناء وانج المالك يتسللون خارجاً واحداً في إثر الآخر، لينعموا بملذات أخرى في انتظارهم، فقد سئموا الجلوس طويلاً في حضرة الكبار. ومن ثم انطلقوا خارجاً في غير اكتراث، في حين كان الابن الثاني لوانج التاجر يلاحظهم بنظرات ملؤها الشوق والرغبة، بيد أنه لم يتجاسر على الذهاب معهم لخوفه من أبيه. كما أن الخدم نال منهم الإعياء وباتوا يتوقون إلى الراحة، فانسحبوا خارجاً وتكأوا على الأبواب هنا وهناك، وهم يتشاءبون

ملء أشداقهم ويتمتعون فيما بينهم:

«إن أطفالهم يستيقظون عند الفجر وعلينا أن نقوم بخدمتهم، على حين يقصف الكبار حتى منتصف الليل، ولزأماً علينا أن نسهر على خدمتهم أيضاً! ألن يتركونا ننعم بالنوم لحظة؟».

وتفرق الجمع آخر الأمر، بعد أن أخذ الشراب من وانج المالك، فنادت زوجته خدمه ليتوكأ عليهم ويذهب إلى فراشه. بل إن وانج النمر نفسه أشرف على السكر كما لم يفعل من قبل، ولكنه استطاع رغم ذلك أن يمشي على قدميه إلى رواقه. أما وانج التاجر، فكان هو الوحيد الذي ظل هادئاً مهنئاً كدأبه دائماً، ولم يكذب يظهر على ملامح وجهه الأصفر المتغضن أي تغيير على الإطلاق، بل إن وجهه لم يتورد من أثر الخمر لأنه كان ممن يزدادون شحوباً وهدوءاً كلما أفرط في الشراب.

على أنه من بين جميع الحاضرين لم يأكل أو يشرب أحد مثلما فعلت لوتس، فقد أفرطت في الطعام والشراب أكثر من اللازم. رغم أنها تقدمت في السن وناهزت الثامنة والتسعين من عمرها. وإذا بها في الهزيع الأخير من الليل تشرع في الأنين ولا تجد إلى الراحة سبيلاً. والظاهر أن الخمر التي عبت منها عباً قد تصاعدت إلى رأسها وسرت حرارتها في جسدها حتى اندلعت فيه نيران الحمى، كما أن اللحوم والأطعمة الدسمة التي التهمتتها في الوليمة ثقلت كالحجر على معدتها، فراحت تقلب رأسها على الوسادة في قلق شديد، وتنادي طالبة هذا الشيء أو ذاك، غير أن شيئاً لم يخفف عنها الألم. وفجأة أطلقت صرخة غريبة مبحوحة، فهرعت كوكو إليها، وحينما سمعت لوتس كوكو تدعوها باسمها، تمتمت بشيء

ما وهي تحملق بعينيهما الغائمتين، واختلجت ذراعاها وساقاها ثم همدت حركتها فجأة. واصطبغ وجهها الهرم المكتنز بلون أحمر قائم وقد تصلب جسدها، وراحت تلتقط أنفاسها في شهقات متقطعة سريعة، وارتفع صوتها عاليًا حتى سمع في الرواق المجاور. وكان من الممكن أن يسمع وانج النمر صوت شهقاتها، لولا أن الشراب قد أخذ منه شيئًا، فكان غارقًا في نوم عميق أكثر من المعتاد.

أما زوجته المثقفة التي كان نومها خفيفًا في العادة، فقد سمعت صرخة لوتس، فنهضت من فراشها، ودلفت إلى رواقها، إذ كان لها شيء من الدراية البسيطة بالعقاقير القديمة استمدتها من أبيها الطبيب. وحين ولجت الحجرة، أزاحت الستار جانبًا، فسقط شعاع مطلع الفجر على وجه لوتس الذي كان يبعث على الفرع، إذ ذاك صرحت المرأة المثقفة في ذهول:

«ستكون نهاية السيدة العجوز إن لم نستطع تطهير معدتها من اللحوم والخمر!».

وطلب بعض الماء الساخن وشراب الزنجبيل، كما طلبت كل ما تعرفه عن عقاقير، وراحت تجربها جميعًا على لوتس. غير أنها لم تجدها نفعًا، لأن لوتس لم تعد الآن تسمع ما يوجه إليها من نداءات وتوسلات لتناول الدواء، ولأن أسنانها قد أوصدت فمها تمامًا، حتى إنهم عندما عمدوا إلى فتح شفتيها الداكنتين بقوة، وجدوا أن أسنانها ملتحمة بعضها ببعض تمامًا. وكان أغرب ما في الأمر أن أسنانها ما زالت قوية ناصعة سليمة في جسد هرم كجسدها، وقد كلفتها هذه الأسنان حياتها، فلو

كانوا عثروا فيها على ثغرة ما، أو على فجوة في مكان إحداهما لاستطاعوا أن يصبوا من خلالها الدواء بطريقة أو بأخرى، أو لاستطاعت كوكو أن تملأ به فمها وتنفضه بشفتيها في فم لوتس. غير أن أسنانها الكاملة السليمة ظلت متلاحمة في قوة وإحكام.

وطوال نصف اليوم التالي ظلت لوتس تلتقط أنفاسها لاهثة، تنبعت منها حشجة الموت، ثم فجأة لفظت آخر أنفاسها، بغير أن تعي لحظة أن هذه هي نهايتها، فتلاشت من وجهها الحمرة القانية، واستحالت إلى شحوب أشبه بالشمع القديم في صفرته. وهكذا اختتم الموت فترة اللهو والمرح.

عند ذلك تولى الأخوان الكبيران إعداد نعش لها، غير أنهما اضطرا إلى تركها راقدة في فراشها زهاء يوم بأكمله لأنه كان لا بد من أن يصنع لها نعش في ضعف الحجم العادي، إذ لم يكن ثمة نعش جاهز يتسع لها. وفي انتظار تشييع الجنازة، دأبت كوكو في صدق وإخلاص على ندب هذه المخلوقة التي سهرت على خدمتها طوال تلك السنين. أجل، لقد كانت تنديها بإخلاص، وإن راحت تسعى هنا وهناك لتجمع ما وسعها من متعلقاتها. مضت تفتح هذا الصندوق وذاك، وتستولي على كل شيء له قيمة، ثم أخذت تهرب أسلابها المدخرة إلى خارج البيت عن طريق بوابة خلفية متوارية عن الأنظار، حتى لقد دهش الخدم عندما وضعوا لوتس في نعشها آخر الأمر لأنهم لم يكادوا يعثرون لديها على معطف لائق تدفن فيه، وساءلوا أنفسهم عما عساها فعلته بالفضة الوفيرة التي آلت إليها كأرملة وانج لانج، نظرًا إلى أنها لم تكن تقامر بها في أخريات

حياتها. ومع كل السرقات التي اقترفتها كوكو، فقد ظلت تندب لوتس، وتكفكف بضع قطرات هزيلة من الدموع، وهي وإن كانت قطرات معدودات إلا أنها الدموع الوحيدة التي ذرفت كوكو حزناً على كائن من كان طيلة حياتها. ولما ملئ النعش بالجير -لأن لوتس سرعان ما فاحت منها رائحة العفن- وأحكم عليه الغطاء، وحمل على الأعناق إلى خارج البوابة في طريقه إلى المعبد الذي سيستقر فيه حتى يقع الاختيار على يوم لدفن الجثة، سارت كوكو وراءه تهرول بقدميها الهرمتين حتى لا يغيب عن ناظريها، وتبعت النعش إلى أن وضع بالحجرة الخالية في المعبد بين نعوش أخرى كثيرة كانت تقبع هناك من قبل. إذ ذاك استدارت كوكو مبتعدة، واتجهت إلى بيت خاص بها في مكان ما، ولم تعد ثانية إلى بيت عائلة وانج. هنالك ظلت تندب لوتس بإخلاص، أو قل بكل ما وسعها من إخلاص.

أحس وانج النمر بالملل والسأم من أخويه وأبنائهما قبل انقضاء الأيام العشرة المحددة للزيارة، فقد ولت الساعة التي شعروا فيها جميعاً بالرباط العائلي الوثيق يشدهم بعضهم إلى بعض في يوم المهرجان. على أنه أمضى الأيام الباقية يرقب أبناء أخويه في غدوهم ومجيئهم، كلما زار هذا البيت أو ذاك بين الفينة والفينة. تراءى له أن هؤلاء الأبناء ما هم إلا مخلوقات ضعيفة نعسة لا يرتجى منها خير كبير. فالابنان الصغيران لوانج التاجر لم يكن لهما هدف أسمى من العمل في كتابة الحاسبات، ولم يكن لهما من طموح سوى التسكع وراء منضدة البيع والضحك والثرثرة مع غيرهم من الكتبة، ذلك إذا لم يكن أبوهما على مقربة منهما، فيراهما على

هذه الحال. وحتى أصغر أبنائه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره كان يتمرّس على كتابة الحسابات في أحد متاجر أبيه، ويقضي كل لحظة يجرّو على اختلاسها في أثناء العمل في لعبة القذف بالبنسات على قارعة الطريق، مع الصبية الصغار الذين كانوا يتجمعون في انتظاره أمام باب المتجر. ونظرًا لأنه ابن صاحب المتجر، لم يكن أحد يجرّو على الوشاية به أو الامتناع عن إعطائه حفنة من البنسات إذا ما صرخ طالبًا الحصول عليها من صندوق النقود، وإن كان الجميع يراقبون بعيون حادة يقظة ليتبينوا ما إذا كان وانج التاجر قادمًا حتى يتسنى للصبي أن يهرع عائداً إلى مكانه في أثناء مرور أبيه. ورأى وانج النمر أن أخاه هذا غارق في جمع المال حتى إنه لا يرى أبنائه على الإطلاق، ولا يجول بخاطره أنهم يوماً ما سيبعثون في شغف ذلك المال الذي تهافت على جمعه، وأنهم يتحملون عملهم في كتابة الحسابات إلى أن توافيه المنية ويتركهم أحراراً في حياتهم، فلا يكون ثمة ما يدعوهم للعمل حينذاك.

كذلك رأى وانج النمر طبيعة أبناء أخيه الأكبر، كم هم متحذلقون يغالون في التألق، فهم يصرون على ألا يلامس أجسادهم شيء سوى الثياب الناعمة الفاخرة، من حرير لين يرطب الجسم في الصيف إلى فراء ناعم يبعث على الدفء في الشتاء. ولم يكن أحد منهم يقبل على الطعام في شهية كشأن الشباب، بل كانوا يتلكأون في تناول طعامهم، ويتأفنون من هذا الصنف لشدة حلاوته، أو يتذمرون من ذاك لشدة ملوحته ومرارته، ويدفعون بالصحاف بعيداً عنهم واحدة بعد الأخرى، فتظل الإماء يهرولن هنا وهناك في سبيل إرضاء أهوائهم.

كل هذا رآه وانج النمر بعينه، فداخله شعور بالغضب لأنهم على هذه الحال. وذات ليلة كان يتمشى وحيداً في الرواق الذي كان يسكنه أبوه، فسمع صوت ضحكة ماجنة تصدر عن امرأة ما. وإذا بطفلة صغيرة هي ابنة أحد الخدم تندفع على حين غرة راكضة عبر بوابة رواقه المستديرة. وكانت الطفلة مبهورة مرتاعة، وما إن لمحت وانج النمر حتى حنت جسمها لتفلت من أمامه بسرعة، غير أنه أمسك بذراعها الصغيرة وصاح فيها:

«من هي المرأة التي تضحك؟».

فتراجعت الطفلة منكشمة، وقد استبد بها الفزع حين رأت بريق عينيه، ولكنه أحكم قبضته عليها، ولم تستطع أن تتملص منه، فخفضت عينيهما وقالت في تلثم:

«لقد أخذ السيد الصغير أختي على انفراد».

فسألها وانج النمر عابساً في صرامة:

«أين؟».

فأشارت الطفلة إلى حجرة خالية في مؤخرة الرواق المجاور كانت لوتس تستعملها كمخزن للغلال، أما الآن، فقد كانت خالية وموصدة بمشبك كبير في غير إحكام. عند ذلك تخلص عن ذراع الطفلة، فركضت هاربة كالأرنب، أما هو، فاتجه في خطى واسعة نحو ذلك المكان الذي أشارت إليه، فوجد أن المشبك يفسح فرجة متسعة تقارب القدم بين مصراعي الباب، وأن هذه الفرجة تسمح بمرور جسم صغير نحيل بسهولة من خلالها. وهنالك وقف يتسمع في ظلام الليل، فترامت إليه ضحكة

المرأة، ضحكة مكتومة ماجة، كما سمع صوتاً يهمس بكلمات لم يتمكن من تمييزها، ولكنه سمعها تنبعث حارة لاهثة من حنجرة الرجل. فاستيقظ فيه شعوره القديم بالاشمئزاز من شهوة الجنس، وكاد يطرق الباب، لولا أنه كبج جماح نفسه، وأخذ يفكر في ازدراء:

«ما شأني أنا إن كان مثل هذا الفسق ما زال يحدث في نفس هذا البيت؟».

وقفل راجعاً إلى رواقه يجتاحه شعور بالسأم والاشمئزاز، غير أن قوة غريبة بثت في نفسه شعوراً بالقلق حتى وهو يحس بالاشمئزاز، فراح يتجول في أنحاء الفناء، وبينما هو ينتظر هناك بزغ القمر متأخراً عن موعده. ولم يلبث أن رأى أمة شابة تخرج من تلك الحجرة الخالية، متسللة من بين مصراعي الباب المشبوكين، وهي تسوي شعرها بيدها. كما رآها تبسم في ضوء القمر، ثم تلقي نظرات خاطفة حولها وتمضي على عجل عبر الرواق الخاوي المغطى بالقرميد الذي كانت لوتس تسكنه في سالف الأيام، دون أن يند صوت عن حذائها المصنوع من النسيج. ولم تتوقف في أثناء مسيرها سوى مرة واحدة تحت إحدى أشجار الرمان لتحكم رباط حزامها المحلول.

طيلة هذه الفترة ظل وانج النمر واقفاً هناك بغير حراك، وقلبه يخفق خففاً عنيماً في نوع من النفور، اختلط فيه النفور ببعض المشاعر العذبة، وبعد برهة رأى شاباً يقبل متسكعاً، كما لو كان قد خرج من حجرته ليتمتع بمشهد الليل ولا شيء سوى الليل. عند ذلك صاح وانج النمر فجأة:

«من هناك؟».

فأجابه صوت لطيف فيه رخاوة ونعومة:

«إنه أنا يا عماه!».

ورأى وانج النمر أن الشاب هو حقاً أكبر أبناء أخيه الأكبر، فأحس بمشاعر الاشمئزاز تجيش في قلبه. وكان من الممكن أن ينقض على الشاب، فقد كان يقول لنفسه دائماً إنه يكره الفجور كراهية مريرة، وإنه أشد ما يكون مقتاً له حين يتمثل فيمن هم من دمه، لذلك لم يكن بوسعه أن يطيقه حينذاك. ولكنه أمسك جنبه بيديه في عنف ليكبج ثورته، إذ كان يدرك جيداً أن المرء لا يستطيع أن يقتل ابن أخيه، كما كان يدرك جيداً طبيعة الغضب في نفسه، وأنه إذا أطلق لها العنان، فلن يكون في إمكانه أن يوقفها عند الحد الذي يريده. ومن ثم لم يسعه إلا أن ينفث الهواء من أنفه في حدة، ثم استدار يتلمس طريقه إلى داخل حجرته، وهو يزمجر قائلاً لنفسه:

«لا بد لي أن أبتعد عن هذه الأروقة التي يعيش فيها أخواي، أحدهما بخيل مقتر والآخر فاجر داعر! لا أستطيع أن أتنفس هذا الهواء المسموم، فأنا رجل أعيش في سماء الحرية والمعركة، ولا يمكنني أن أطوي الثورة والغضب بين حنايا صدري، مثلما يتحتم على الرجال الذين يعيشون هكذا مع النساء في الأروقة!».

وأحس فجأة برغبة غريبة أنه في حاجة إلى قتل إنسان ما وإراقة الدماء لسبب ما، حتى يتسنى له أن يحرر قلبه من ذلك العبء الذي يثقله دون أن يدرك كنهه.

ولكي يهدئ من ثأثرته، اتجه بأفكاره عامداً إلى ابنه الصغير، فتسلل إلى الحجرة التي ينام فيه الطفل على فراش أمه، وأخذ يطل عليه. وكانت المرأة نائمة نومًا ثقیلاً كشأن القرويات، وكان فمها فاغراً تنبعث منه أنفاس كريهة، حتى إن وانج النمر وهو ينحني على ابنه الصغير لم يتمالك أن يغطي أنفه بيديه. أما الطفل، فكان نائمًا في هدوء وسكينة، وحين تطلع وانج النمر إلى وجهه الهادئ الذي بدا عليه الوقار في أثناء نومه، أقسم لنفسه إن ابنه لن يكون كأى طفل من أولئك الصبية أبناء أخويه. كلا، فهذا الصبي يجب أن يتمرس على الصلابة منذ فجر شبابه، وأن ينشئه تنشئة حازمة ليصبح جنديًا عظيمًا، ويجب أن يدرب على شتى فنون الحرب ليخلق منه رجلاً.

وفي اليوم التالي مباشرة، اصطحب وانج النمر زوجته وطفليه وكل من قدموا معه، وتبادلوا عبارات الوداع مع أقربائهم، بعد أن اشتركوا في وليمة معهم. ولكن على الرغم من وليمة الوداع، فقد تراءى لوانج النمر أن هذه الزيارة لبنت أبيه - مهما يكن من أمرها - جعلته يبتعد عن أخويه أكثر من ذي قبل. فعندما رأى أخاه الأكبر يستولي عليه النعاس ويخيم عليه الهدوء والبلادة وهو غائص في لحمه المتهدل، ورأى أن عينيه المظلمتين الثقيلتين لا تضيئان مطلقاً إلا لأعمال الفجور، وعندما رأى أخاه الثاني وقد ازداد وجهه نحولاً، وازداد الغموض في عينيه كلما تقدمت به السنون، عندما رأى هذا كله بدا له أنهما أشبه برجال أصابهم العمى والصمم والبكم، لأنهما لا يعرفان نفسيهما ولا يعرفان ماذا فعلا بأبنائهما.

بيد أنه لم يتفوه ببنت شفة. بل جلس يحملق صامتاً، وراح ينعم الفكر

في ابنه وفي الرجل الذي سيخلقه منه، فداخله شعور عميق بالزهو.

هكذا افترقوا. وكان الوداع مفعماً بالود والمجاملة في ظاهره، فانحنوا انحناءات عميقة لبعضهم البعض، وخرج الأخوان الكبيران إلى الشارع ومعهما زوجاتهما وخدمهما وخادماتهما، يرددون جميعاً مئات الأمنيات الطيبة. على أن وانج النمر قال في نفسه إنه لن يعود إلى بيت أبيه في القريب.

وفي فرحة غامرة عاد إلى أراضيه، فبدت لعينيه وكأنها أروع أرض وقع عليها بصره، وأن أهلها هم خير الناس وأصلبهم عوداً، وأن بيته هو موطنه الأصلي. واستقبله رجاله جميعاً بالترحاب البالغ، وأطلقوا الألعاب النارية ابتهاجاً بمقدمه. وما إن قفز من على صهوة جواده الأحمر حتى شاعت في كل مكان ابتسامات الترحيب به، وهرع نحو عشرين من الجنود الذين كانوا يتسكعون هنا وهناك في الأفنية، ليمسكوا بعنان جواده حين أطاح به جانباً، ما بعث السرور في نفسه.

وكلما تقدم الربيع مقترباً من طلائع الصيف في شتى الأنحاء، عكف وانج النمر على تنظيم رجاله من جديد، وعاد إلى تدريبهم يوماً بعد يوم، كما أطلق جواسيسه مرة أخرى، وأرسل بعض رجاله ليروا كيف تسير الأمور في أراضيه التي استولى عليها حديثاً، كذلك بعث بأتباعه الأمناء إلى مختلف البقاع ليأتوا له بالإيرادات، ومعهم حرس مدجج بالسلاح الكامل ليحضروا له الأموال سالمة، لأنها كانت في تلك الأيام أضخم بكثير من أن يحملها رجل واحد في زكية على كاهله، كما كان يحدث في الماضي.

أما في الأمسيات بعد انتهاء النهار، فقد كان يجلس وحيداً في رواقه، يحيط به ليل الربيع الدافئ. وفي تلك الأوقات التي تستبد فيها النزوات بكثير من الرجال، فتهفو قلوبهم إلى حب جديد فوق ما خبروه في حياتهم، نجد وانج النمر وقد هفا قلبه إلى ابنه. لذلك كان يأمر بإحضاره إليه دائماً، رغم أنه لم يكن يعرف كيف يداعب أي طفل حتى ولو كان ابنه. واعتاد أن يأمر المربية بالجلوس أمامه حيث يمكنه أن يرى الطفل، ثم يجلس الساعات الطوال يتفرس في كل حركة من حركاته، وفي كل لمحة عابرة تومض في وجهه. ولما تعلم طفله المشي لم يكذب يتمالك نفسه من شدة الفرح، فكان عندما ينفرد به في الليل، وما من عين تراه في الأروقة، يمسك بطرف الحزام الذي تلفه المربية حول وسط الطفل، ويدور به حول المكان المرة تلو المرة، بينما الغلام يلهث ويترنح في الحزام الذي ينعقد حول خصره.

ولو أن أحداً سأل وانج النمر عما يجول بخاطره وهو يحملق في وجه ابنه، لانتابته الحيرة لأنه كان يجهل كنه مشاعره. كان يحس فقط بأن أحلام القوة والمجد تجيش في أعماقه، وعندما تفيض به هذه الأحلام، كان يفكر أحياناً كيف أن أي رجل يمكنه في تلك الآونة أن يعتلي ذروة النفوذ والمكانة إذا توافرت له القوة والبأس، واستطاع أن يرهب الرجال الآخرين. ذلك لأنه لم يكن ثمة إمبراطور أو أسرة تتولى زمام الملك في تلك الأيام، فكان في استطاعة أي شخص أن يناضل ويصوغ الأحداث حسب إرادته إن رغب في ذلك. وحينما كانت هذه المشاعر تعتمل في أعماق وانج النمر، كان يتمتم من بين ثنايا لحيته:

«وأنا ذلك الرجل!».

وقد تمخض حادث غريب عن ذلك الحب الجارف الذي كان يكنه لابنه. ذلك أن زوجته المثقفة حينما سمعت أنهم يأتون له بابه كل يوم، ألبست ابنتها ثياباً جديدة زاهية ذات يوم، ودخلت بها عليه يانعة متوردة، وقد أحاطت معصمي الطفلة بسوارين صغيرين من الفضة، وربطت شعرها الأسود بشرائط وردية اللون من القطن المغزول. وعلى هذا النحو فرضت الطفلة على أبيها كي تلفت نظره إليها. وعندما ظهرت عليه علائم الارتباك ولفت بصره عنها، وهو لا يدري ماذا ينبغي أن يقول لها، قالت الأم في نبرات صوتها اللطيفة:

«إن ابنتنا الصغيرة هذه تتوق أيضاً إلى اهتمامك، كما أنها لا تقل قيد أنملة عن ابنك في الصحة والجمال».

فبهت وانج النمر بعض الشيء إزاء شجاعة هذه المرأة، ذلك لأنه لم يدرك طبيعتها قط، ولم يعرفها إلا في ظلام الليل عندما يجيء دورها، ومن ثم لم يسمعه إلا أن يتمتم قائلاً على سبيل المجاملة:

«إنها جميلة جداً يليق بالبنات».

ولكن أم الطفلة لم تكتف بهذا القول، إذ إنه لم يلتفت إلى ابنتها على الإطلاق، فأخذت تواصل إلحاحها عليه قائلة:

«كلا يا زوجي، انظر إليها على الأقل، فهي ليست كسائر الأطفال. لقد بدأت تمشي قبل الغلام بثلاثة أشهر، وهي تتكلم الآن كما لو كانت في الرابعة من عمرها، لا في الثانية، بل أقل. لقد جئت لأسألك أن تسدي

إليّ صنيعًا، هو أن تنقفها هي الأخرى، وأن تمنحها نصيبها من نعمك كما تفعل مع ابنك».

إذ ذاك قال وانج النمر في ذهول:

«كيف يمكنني أن أخلق جنديًا من بنت؟».

فقالت الأم بأسلوبها اللطيف الذي يتسم بالثبات:

«إن لم تصبح جنديًا، دعها إذن تتعلم بعض الفنون في إحدى المدارس، فهناك كثيرات يتلقين العلم في هذه الأيام يا زوجي».

وعلى حين غرة تنبه أنها تخاطبه بذلك الاسم: «يا زوجي» كما لم تفعل امرأة من قبل، وأنها لم تخاطبه قائلة: «يا مولاي» كشأن النساء الأخريات. فتملكته الحيرة والارتباك، وتحت وطأة ارتبাকে راح ينظر إلى الطفلة، إذ لم يكن قادرًا عندئذ على التفكير في شيء يقوله. وإذا به يرى أنها حقيقة طفلة جذابة جدًا، جسمها ممتلئ مكتنز، وفمها دقيق وردي يفتر عن بسمات رقيقة، وعيناها واسعتان سوداوان، ويدها مكتنزتان، وأظافرها مكتملة لا عيب فيها. وقد استرعت هذه الأظافر نظره لأن أمها كانت قد طلعتها بالطلاء الأحمر، كعادة النساء أحيانًا في تجميل الأطفال الذين يحملن لهم حبًا عميقًا. وكانت قدما الطفلة محبوكتين في حذاء صغير وردي اللون مصنوع من الحرير، وأمها تمسك بهما معًا بإحدى يديها، وتحيط بالأخرى خصر الطفلة، وهي تقفز صاعدة هابطة بين يديها. ولما رأت الأم أن زوجها ينظر إلى الطفلة قالت في لهجة رقيقة:

«لن أقيد قدميها. ولنرسلها إلى المدرسة لنخلق منها امرأة كالمثقفات

اللائي يوجدن هنا وهناك في هذه الأيام».

فصاح وانج النمر في دهشة:

«ولكن من الذي يتزوج فتاة من هذا الطراز؟».

فأجابته الأم بهدوء:

«أعتقد أن مثل هذه الفتاة يمكنها أن تتزوج من يروق في عينيها».

فجعل يتدبر الأمر قليلاً وهو يتطلع إلى هذه المرأة. لم يكن قد تطلع إليها يوماً من قبل، مكتفياً بأنها تحقق له مأربه، أما الآن وهو ينظر إليها، فقد رأى لأول مرة أن لها وجهاً مليحاً رزيناً، وأن لها أسلوباً يجعلها تبدو متماسكة وقادرة على تنفيذ رغباتها. وعندما نظر إليها لم تهبه، بل بادلته النظرات دون أن تضحك في حياء متكلف، أو ترخي شفيتها، كما كان من الممكن أن تفعل الزوجة الأخرى. وفكر في نفسه في شيء من العجب:

«إن هذه المرأة أبرع مما كنت أظن، لم أتبين حقيقتها جيداً من قبل».

ثم قال بصوت مسموع في لهجة لطيفة مهذبة، وهو ينهض في أثناء كلامه:

«عندما يحين الأوان لن أعترض على رغبتك، إذا تراءى لي أنها فكرة

سديدة».

ومن عجب أن هذه المرأة التي كانت تتمالك نفسها دائماً وتعيش قانعة راضية حتى هذه اللحظة، ظهرت عليها علائم التأثر بصورة غريبة حين رأت هذه الملاطفة التي لم تعهداها في الرجل من قبل، فبدأت حمرة شاحبة تتصاعد إلى وجنتيها، وتطلعت إليه في حرارة دون أن تتفوه بكلمة،

بينما الحنين يتسلل إلى عينيها. ولكنه عندما رأى هذا التغيير يطرأ عليها، أحس بأن نفوره القديم من النساء يجيش في قلبه، فانعقد لسانه وأشاح بوجهه عنها، وأخذ يتمتم قائلاً إنه قد نسي شيئاً لا بد أن يقوم به في تلك الساعة، ثم سارع بالانصراف وقد اهتز كيانه؛ إذ لم يحس بالميل إليها حينما تطلعت إليه على هذا النحو.

وقد أثمر حديث هذه الساعة، فلم يكن يصرف الطفلة بعيداً عنه، إذا أرسلتها أمها مع إحدى الإماء في الوقت الذي يطلب فيه ابنه، فيأتي إليه الاثنان معاً. وقد خشي في بادئ الأمر أن تعود الأم إلى زيارته، فتعتاد الحديث معه، ولكنه عندما رأى أنها لم تفعل، سمح بأن تبقى الطفلة معه حيناً من الزمن. واعتاد أن يحملق فيها، لأن طبيعة جنسها كأنثى كانت تحرك في نفسه مشاعر الخجل منها، مع أنها لم تكن سوى طفلة تتعثر هنا وهناك. على أنها كانت طفلة جذابة، وكثيراً ما كان يراقب حركاتها ويضحك في صمت من تقلبات أهوائها وكلماتها المتكسرة. وعلى حين كان ابنه مكنتز الجسم يبدو عليه الجدد ولا يميل إلى الضحك، كانت هذه الطفلة ضئيلة القد سريعة الحركة مفعمة بالمرح، تسعى عيناها دائماً إلى عيني أبيها. كما كانت تسيء معاملة أخيها إذا لم تكن تحت مراقبة أحد، وتختطف منه ما يكون في يده بسرعتها الخاطفة. ورويداً ورويداً أخذ وانج النمر يوليها اهتمامه بأسلوبه الخاص -دون أن يعي- وأصبح يميزها من بين الأطفال الآخرين إذا ما أبصر بإحدى الإماء ممسكة بها عند البوابة، وهي واقفة بين جمع من الناس لترقب الحركة الجارية في الشارع. بل

إنه كان يتوقف عن المسير أحياناً ليلمس يدها ويتأملها حين تصوب إليه وميض عينيها في بسملة حلوة.

وعندما يدلف إلى بيته بعد أن يرى هذه البسملة على وجهه يخامرهُ شعور بالرضا، ويحس أنه لم يعد وحيداً آخر الأمر، ولكنه أصبح رجلاً بين آل بيته من نساء وأطفال.



كان وانج النمر يضع دائماً نصب عينيه أنه يجب أن يوسع نطاق نفوذه ومكانته من أجل مستقبل ابنه. فدأب على التحدث إلى نفسه في هذا الأمر وتدبير الخطط لتنفيذه، وراح يفكر في منطقة يتسلل منها إلى المعركة ويظفر بالنصر في نهاية إحدى الحروب العامة، ويتأمل كيف يمكنه أن يتوغل جنوبي النهر الذي يجري في إقليمه، ويستولي على مقاطعة أو مقاطعتين من المقاطعات المجاورة في إحدى سني المجاعة عندما يعاني الناس أشد العناء من وطأة القحط أو الفيضان. ولكن تصادف أن مرت بضع سنوات دون أن تندلع حرب كبرى من الحروب العامة. في حين توالى على مقعد الحكومة المركزية بعض الحكام الضعاف المتخاذلين واحداً بعد الآخر. ومع أن السلام لم يستتب تماماً في تلك الأثناء، إلا أنه لم تستعر نيران الحرب على نطاق واسع في شتى أنحاء البلاد، ولم يكن مثل هذا الوقت بالفرصة الملائمة التي يستطيع أحد ملوك الحرب أن يغتتمها للظهور على مسرح الأحداث في جراءة سافرة.

ومن ناحية أخرى تراءى لوانج النمر أنه لا يستطيع أن يقبل بكل جوارحه على تحقيق مطامعه لتوسيع نطاق نفوذه وسلطانه كما كان يفعل

في الماضي، فقد كان عليه الآن أن يدبر مستقبل ابنه ويشمله برعايته، فضلاً عن تدبير مطالب جنوده وشؤون الحكم في إقليمه، إذ لم يفد حاكم جديد ليشغل مكان الحاكم الهرم بعد موته. وقد أرسل له مرة أو مرتين اسم المرشح لتولي المنصب، غير أنه كان يسارع برفضه دائماً، لأنه وجد من الأفضل له أن يبقى هناك بمفرده. بل إنه الآن وقد تجاوز ابنه مرحلة الطفولة، وبدأ يدخل في طور الصبا، كان يفكر أحياناً في أنه لو استطاع مماطلة الدولة بضعة أعوام أخرى، فسيكون من الخير له أن يتولى بنفسه منصب الحاكم في الإقليم عندما يبلغ من السن مبلغاً يعجز معه عن خوض المعارك، ويكون ابنه قادراً حينذاك على قيادة الجيش بدلاً منه، بيد أنه أخفى هذه الخطة في ثنايا صدره؛ لأن الإفصاح عنها كان سابقاً لأوانه، فالواقع أن الغلام لم يكن عندئذ قد تجاوز السادسة من عمره. على أن وانج النمر كان يتعجل نموه إلى طور الرجولة، حتى لقد خيل إليه في بعض الأحيان أن السنين لا تمر على الإطلاق، على حين أنها كانت تنقضي سريعاً في ظروف أخرى. وحينما كان ينظر إلى ابنه لم يكن يراه غلاماً صغيراً على حقيقته، وإنما يرى فيه الشاب اليافع، المحارب الشاب الذي يتمنى أن يكونه، لهذا كان يحمل الغلام ما لا يطيق في نواح عدة، دون أن يعي أنه يفعل ذلك.

أبعده عن أمه وعن أروقة النساء، وأتى به ليعيش معه في أروقه الخاصة، وهو لم يعد السادسة من عمره. وقد فعل هذا حتى لا يشب الغلام رخواً من أثر تدليل النساء وأساليهن وأحاديثهن، على أن بعض السبب في ذلك إنما يرجع إلى رغبته المتعجلة في أن يصحبه الصبي

دائمًا. وفي بادئ الأمر أحس بالهيبة والضياع مع أبيه، فكان يهيم على وجهه هنا وهناك، وقد لاحت في عينيه نظرة مرتاعة. وعندما كان وانج النمر يبذل مجهودًا طاغيًا ويمد يده ليجذب الصبي إليه، يقف هذا متصلبًا منكشًا وهو لا يكاد يطيق أباه، فيحس وانج النمر بالرعب الذي يملك الصبي ويهفو قلبه إليه، ولكنه مع ذلك يلزم الصمت لأنه لا يعرف ماذا يقول له، ثم لا يسعه إلا أن يخلي سبيله. ولقد كان يستهدف في بادئ الأمر أن يفصل حياة الصبي فصلًا تامًا عن حياة أمه أو أي امرأة أخرى، إذ لم يكن لديه من يقوم بخدمته سوى الجند، ولكنه سرعان ما تبين أن مثل هذا الانفصال الكامل فوق ما يحتمله ذلك القلب الصغير، قلب الطفل. عن أن الصبي لم يتذمر على الإطلاق، فقد كان غلامًا رزينًا يجنح إلى الصمت ويتحمل الواجبات الملقاة على عاتقه في صبر وأناة، بيد أن الجدل لم يكن يعرف إلى قلبه سبيلًا. وكان يجلس إلى جوار أبيه حينما يدعوه إلى ذلك، ويقف في خضوع وامتنال حالما يدلف أبوه إلى الحجرة التي يجلس فيها. وكان يقرأ كتبه مع معلمه العجوز الذي دأب على المجيء كل يوم كي يلقنه العلم، ولكنه ما كان ليتحدث قط أكثر مما تحتمة الضرورة.

و ذات ليلة أخذ وانج النمر يراقبه وهو يتناول وجبة العشاء، ولما أحس الصبي أن أباه يسدد إليه عينيه حتى رأسه حتى كاد يلامس وعاءه متظاهراً بأنه يأكل، على حين أنه لم يقو على ازدراد الطعام. حينئذ اجتاح وانج النمر شعور بالغضب، لأنه في الواقع قد فعل كل ما استطاع أن يفكر فيه من أجل ابنه هذا، حتى إنه في ذلك اليوم بالذات اصطحبه معه ليستعرض جيوشه، وأجلسه أمامه على سرج جواده، وتضخم قلبه من النشوة عندما

هتف رجاله للقائد الصغير كما كانوا يسمونه. وقد ابتسم الصبي عندئذ ابتسامة باهتة وأشاح بوجهه عنهم حتى أرغمه أبوه على النظر إليهم قائلاً: «ارفع رأسك عاليًا، إنهم رجالك.. جنودك، يا بني. سوف تقودهم إلى حومة الوغى يومًا ما».

فرفع الصبي رأسه قليلًا تحت هذا الضغط من أبيه، غير أن وجنيته توهجت بالحمرة القانية. ولما انحنى عليه وانج النمر، تبين أنه لم يكن يتطلع إلى الجنود على الإطلاق، وإنما كان يلقي ببصره بعيدًا إلى الحقول الواقعة وراء أرض العرض العسكري. وعندما سأله عما يلفت نظره هناك رفع إصبعه وأشار إلى غلام صغير عار لوحته أشعة الشمس، كان مستلقيًا على ظهر حيوان من جاموس الماء في الحقل المجاور، وهو يحملق مبهورًا في عرض الجنود الرائع، ثم قال الصبي:

«كم أتمنى أن أكون ذلك الغلام وأستلقي على ظهر الجاموسة!».

فامتعض وانج النمر لهذه الأمنية السوقية الحقيرة وقال في جهامة:

«حسنًا، أظن أنه جدير بابني أن يتمنى شيئًا أرفع من أن يصبح راعيًا للبقر!».

ثم أمر الصبي في خشونة أن يلتفت إلى الجنود ليرى كيف يسرون ويدورون في خطى عسكرية، وكيف يرفعون بنادقهم استعدادًا للهجوم، فامثل الغلام لأوامر أبيه، ولم يعد ينظر إلى الراعي الصغير.

غير أن وانج النمر ظل طوال اليوم نهبًا للقلق والانزعاج بسبب هذه الأمنية التي عبر عنها ابنه. لذلك راح الآن يتطلع إلى الغلام وهو يتناول

وجبة العشاء، فرآه يحني رأسه أكثر فأكثر، ورأى أنه لا يستطيع ازدراد الطعام لأنه كان يبكي. فذعر وانج النمر خيفة أن يكون ابنه يعاني بعض الألم، فنهض لتوه واتجه إليه، ثم أمسك بيده هاتفاً:

«هل تحس بالحمى أو بمرض ما؟».

ولكنه وجد أن يده الصغيرة باردة يندبها العرق. أما الغلام، فقد هز رأسه، وظل فترة طويلة يأبى أن يرد بشيء على أبيه مهما شدد الضغط عليه. وفي النهاية صاح أبوه ينادي تابعه الأمين الأشرم لكي يعينه على ابنه. ولما جاء الرجل كان وانج النمر يتمزق قلقاً وذعرًا، مع شيء من الغضب، لأن الغلام قد ركب مركب العناد إلى هذا الحد، حتى إنه صاح بالرجل قائلاً:

«خذ هذا الأحمق الصغير خارجاً وحاول أن تعرف ماذا ألم به!».

إذ ذاك كان الصبي ينشج بالبكاء مستيئساً، وقد اعتمد رأسه على ذراعيه ليحجب وجهه عن أبيه في أثناء بكائه، على حين كان وانج النمر جالساً في مكانه، يخامرهُ شعور بالغضب ويكاد يبكي هو نفسه، وقد ارتسم القلق والانفعال على قسّمات وجهه، وراح يشد شعر لحيته. وما لبث التابع الأمين أن حمل الغلام بين ذراعيه وخرج به إلى مكان ما، في حين ظل وانج النمر ينتظر هنيهة وقد استولى عليه العذاب، دون أن يصحب معه الصبي. صاح به وانج النمر في صوت كالزئير:

«تكلم وصارحني بكل شيء!».

فأجابه الرجل في شبه تردد:

«ليس به من علة على الإطلاق. فهو يعزف عن الطعام لمجرد أنه يعاني من الوحدة، إذ لم يسبق له أن عاش بمفرده بعيداً عن الأطفال، كما أنه يحن إلى أمه وأخواته».

فقال وانج النمر وهو يشد شعر لحيته في عنف، ويتلوى في مقعده ويكاد يفقد صوابه:

«ولكنه لا يستطيع في هذه السن أن يضيع وقته سدى في اللعب والتسكع مع النساء».

قال الرجل في هدوء، إذ كان يعرف طبع سيده ولا يخشاه:

«كلا، غير أنه من الممكن أن تسمح له بالعودة أحياناً ليرى أمه، أو تسمح لأخته بالمجيء هنا على فترات متباعدة لتلعب معه، فما زال كلاهما مجرد طفلين، وبهذه الوسيلة نخفف عن الطفل عذاب الفراق، وإلا أصابته العلة».

فظل وانج النمر صامتاً هنيئاً، تضيئه غيرة قاتلة لم يسبق له أن كابدها منذ عاد إليه طيف المرأة التي قضى عليها، ليسومه عذاب الغيرة من اللص القليل، لأنه استولى على حبها، ففضلته عليه. أما غيرته الآن، فكانت تنبثق من شعوره بأن ابنه لا يحبه بكل جوارحه ويحس بالحنين إلى آخرين غيره. وكان مبعث شقائه أن هذا الابن هو موطن فخره وبهجته، على حين أن ابنه لا يقنع بهذا الحب الجارف، بل ولا يقدره حق قدره، فيهدف قلبه إلى امرأة، رغم الحب العاتي الذي يحيطه به أبوه. فقال لنفسه في عنف إنه يمقت النساء جميعاً، ثم انتفض من مقعده في انفعال شديد وصاح في

تابعه الأمين قائلاً:

«دعه يذهب إذن، ما دام أنه مخلوق ضعيف رخو بهذا الشكل! ماذا يعينني مما يفعله، إذا كان بعد هذا كله سيصبح ابنًا على شاكلة أبناء أخوي؟».

غير أن التابع الأمين أجابه في رقة:

«يا قائدي، لقد غاب عن بالك أنه مجرد طفل صغير».

فعاد وانج النمر يجلس ثانية، وأخذ يئن هنيهة ثم قال:

«حسنًا، ألم أقل لك دعه يذهب؟».

منذ ذلك اليوم، اعتاد الصبي أن يذهب إلى رواق أمه مرة كل خمسة أيام أو نحو ذلك. وكلما ذهب لرؤيتها، كان أبوه يجلس في انتظاره، وهو يقرض شعر لحيته في كمد، إلى أن يعود الصبي، فيستجوبه بمختلف الوسائل عما رآه وسمعه هناك، ويقول له:

«ماذا كانوا يفعلون هناك؟».

فكان الصبي يجيبه دائمًا، في شبه دعر من الشغف الذي يطل من عيني أبيه:

«لا شيء يا أبتاه».

غير أن وانج النمر كان يصصر على سؤاله ويصيح:

«هل كن يلعبن الميسر، أم يحكن الثياب، أم ماذا؟ إن النساء لا يجلسن عاطلات دون أن يفعلن شيئًا ما لم يكن مشغولات بالثرثرة، وهذا

أيضاً شيء جدير بالذكر».

فيعتقد الغلام حاجبيه، ويستجمع أفكاره، ثم يجيبه إجابة دقيقة في بطاء وعناء:

«كانت أُمي تقص لأصغر شقيقتي معطفاً صغيراً من نسيج أحمر منقوش موشى بالورد. وكانت أختي الكبرى التي أمها ليست أُمي، جالسة تقرأ كتاباً لتظهر مهارتها في القراءة. إني أحبها أكثر من شقيقتي الأخريات، لأنها تفهمني حينما أتحدث إليها ولا تضحك بغير سبب مثلما يفعلن. إن لها عينيْن واسعتين جدًّا، وشعرها يصل إلى أسفل خصرها، عندما تجدله في ضفيرة. ولكنها لا تطيل القراءة أبدًا لأنها ضجرة تحب الكلام».

وكان هذا القول يبعث السرور في قلب وانج النمر، فيقول لابنه مبتهجًا:

«هذا هو شأن النساء جميعًا، يقبلن على الثثرة حول لا شيء على الإطلاق!»

كانت أغرب نواحي الغيرة تلك التي استبدت بقلب وانج النمر، فقد ظلت تبعده رويدًا عن الآخرين من أهل بيته، حتى أصبح تردده على كلتا زوجتيه لا يزداد إلا ندرة. وقد بدا في الواقع على مر السنين أن هذا الغلام سيكون ابنه الوحيد، لأن زوجته المثقفة لم تنجب من الأطفال غير تلك الابنة، في حين أن الزوجة الباهلة أنجبت بنتين في سنوات متباعدة. وقد بلغ به الأمر في النهاية أنه لم يعد يتردد مطلقًا على أروقة زوجتيه، سواء أكان ذلك لفتور في مشاعره إزاء النساء، أو لأنه اكتفى بحبه لابنه. على

أن بعض السبب في هذا إنما يرجع إلى نوع من الخجل الغريب فيه، ذلك أنه بعد أن جاء ابنه لينام معه في حجرته أصبح يخجل بسببه من أن ينهض ويخرج لوصال امرأة بالليل. بل إنه على توالي السنين لم يملأ أروقه باللهو والقصف والنساء كشأن كثير من ملوك الحرب عندما يظفرون بالقوة والشراء. وكان يصب ذخيرته من المال في شراء البنادق -مزيد من البنادق والجنود- عدا كمية معينة من الفضة كان يضعها جانباً، ويثابر على زيادتها بانتظام كي يواجه بها الزمن عندما تلم به نائبة من النائبات. وظل يحيا حياة جافة بسيطة لا يؤنس وحدته سوى ولده.

غير أنه كان يسمح لأكبر بناته بالمجيء أحياناً لتلعب مع ابنه -أخيها- فكانت هي الأنثى الوحيدة التي تغشى رواقهما. وقد أتت بها أمها إلى هناك مرة أو مرتين، ولبت مع زوجها برهة أو نحو ذلك، فكان وجودها يبعث في نفسه شعوراً بالقلق، زاد منه إحساسه بأن هذه المرأة تؤنبه في صمت لسبب ما، بل وتصبو إلى شيء منه، وأنها تعاني فقدان شيء لم يدرك كنهه. لذلك كان ينهض من مكانه ويمضي خارجاً، مبرراً انصرافه ببعض كلمات مهذبة للمعاملة. والظاهر أن زوجته لم تعد ترجو منه شيئاً في آخر الأمر، فكفت عن المجيء، ولم يعد يراها مطلقاً، وأصبحت إحدى الإماء هي التي تحضر الطفلة لتلعب مع أخيها في الأوقات النادرة التي كانت تأتي فيها.

بل إن الطفلة أيضاً كفت عن المجيء في غضون عام أو عامين، وبعثت الأم برسالة إلى زوجها قالت فيها إنها قد ألحقت ابنتها بإحدى المدارس لتتلقى العلم، فابتهج وانج النمر لهذا النبأ؛ لأن ابنته كانت

تتردد على الأروقة الخشنة التي يعيش فيها، وتسبب له ضيقاً شديداً لأنها اعتادت أن ترتدي معطفاً زاهي اللون، وتدس في شعرها زهرة حمراء من أزهار الرمان، أو زهرة بيضاء من أزهار الياسمين التي يفوح منها أريج العطر، وكان أحب شيء إلى قلبها هو أن تجمل ضفيريها بغصن من زهور القاسيا التي لم يكن وانج النمر يطيقها لأن رائحتها عطرة ونفاذة للغاية، وهو ينفر من مثل هذه الرائحة. فضلاً عن أنها كانت تغالي في المرح وتجنح إلى العناد وتحب السيطرة، وتتوافر فيها جميع الصفات التي يكرهها في المرأة. ولشد ما كان يمقت ذلك الوميض الضاحك الذي يلوح في عيني ابنه، وتلك الابتسامات التي ترسم على شفثيه عندما تقبل أخته، فهي الوحيدة التي كان بوسعها أن تدفعه إلى المرح والجري واللعب في أنحاء الرواق.

وكان وانج النمر يحس عندئذ أن قلبه قد أحكم وصاده على ابنه وأغلق في وجه ابنته، حتى إن ذلك الشعور الباهت الذي أحسه نحوها في طفولتها قد تلاشى الآن بعد أن أصبحت فتاة هيفاء تظهر عليها بوادر الأنوثة. لذلك اغتبط عندما أعدت أمها العدة لإرسالها إلى المدرسة، ومنحها الفضة في سخاء دون أن يثير ذلك حفيظته على الإطلاق؛ لأنه أصبح الآن يمتلك ابنه خالصاً له وحده.

وقبل أن يقع ابنه فريسة الشعور بالوحدة مرة أخرى، سارع يملأ حياته بشتى المهام، وقال له:

«يا بني، إننا رجال، أنا وأنت، فيجب أن تكف الآن عن الذهاب إلى رواق أمك عدا في المناسبات حين يكون من اللائق بك أن تقدم لها

فروض الاحترام. فما أسهل أن يضيع المرء حياته مع النساء، حتى مع أمه وأخته، فما هن إلا نساء يتصفن بالجهل والغباء. إني أود أن تتعلم الآن شتى أنواع الفنون العسكرية قديمها وحديثها. فأتباعي الأمناء بوسعهم أن يعلموك كل ما تحتاج إليه من دراية بفنون الحرب القديمة... جزار الخنازير يعلمك كيف تستخدم قبضة يدك وترفس بالقدم، والأشرم يعلمك كيف تحسن استعمال السيف والرمح، أما فيما يتعلق بالأساليب الحديثة التي سمعت عنها، ولكني لم أخبرها قط، فقد بعثت برسالة إلى الإقليم الساحلي واكتريت لك مدرباً جديداً تلقى فنون الحرب في البلاد الأجنبية، فهو يعرف كل أنواع الأسلحة وأساليب الحرب في الخارج. سيدربك أنت أولاً ثم يدرّب جيشنا في الوقت الذي يتسع له بعد ذلك».

فلم يحر الصبي جواباً، بل وقف يتلقى كلمات أبيه وقد أطبق عليه الصمت كعادته عندما يتحدث إليه. ولما تطلع وانج النمر إلى وجهه في حنان، لم يتبين من قسماته شيئاً ينم عن مشاعره، فظل برهة ينتظر منه الرد، على أن الصبي لم يتفوه إلا بقوله:

«أُتسمح لي بمغادرة الحجرة إن رغبت في ذلك؟».

فأوماً له أبوه برأسه وهو يتنهد دون أن يدرك لماذا تنهد، بل ودون أن يعي أنه تنهد.

هكذا راح وانج النمر يعلم ابنه ويسدي إليه النصيحة، وعمل على أن تملأ كل ساعة في حياة الصبي - عدا ساعات الأكل والنوم - بنوع أو آخر من أنواع العلم والمعرفة. فكان يحمل الصبي على النهوض مبكراً كي يتدرب على حيل الحرب مع الأتباع الأمناء، ويعد أن يفرغ من ذلك

ويتناول الوجبة الأولى يقضي فترة الصباح مع كتبه، وبعد تناول الوجبة الثانية يصحبه المدرب الشاب الجديد في فترة ما بعد الظهر ليدربه على مختلف الفنون العسكرية.

كان هذا المدرب الجديد شاباً لم ير وانج النمر له مثيلاً من قبل. فهو يرتدي ثياباً عسكرية أوروبية، ويضع منظاراً على أنفه، وله قامة مشدودة في غاية الرشاقة. كما له دراية بالعدو والقفز والمبارزة، ويعرف كيف يطلق شتى أسلحة الحرب الأجنبية. فبعضها كان يحتويه في يده، ثم يقذفه بعيداً، فتندلع منه ألسنة النيران، والبعض الآخر كان يطلقه كالبندقية بوضع إصبعه على الزناد، فضلاً عن كثير من الأنواع الأخرى. وقد اعتاد وانج النمر أن يجلس على كثر بينما ابنه يتلقن كل أساليب الحرب هذه. ومع أنه ما كان ليصرح بهذه الحقيقة، فقد تعلم هو نفسه الكثير مما لم يره أو يسمع به مطلقاً من قبل، وخطر في باله حينذاك أنه كان تافهاً حين كان يزهو كل هذا الزهو بهاتين البندقيتين الأجنبيةتين العتيقتين، وهما كل ما كان يملكه من المدافع الضخمة. أجل، فقد تبين له أنه لا يفقه إلا القليل حتى في فنون الحرب، ما دامت هناك أشياء يجهلها أكثر مما كان يتخيل يوماً. لذلك دأب على الجلوس مع مدرب ابنه الجديد إلى ساعات متأخرة من الليل، يتجاذب معه أطراف الحديث، ويعرف منه شتى أساليب القتل البارة، كالموت الذي ينقض على الرجال من الجوّ، والموت الذي يكمن في أعماق البحر، ثم يطفو إلى السطح ليقتضي على الأرواح، والموت الذي ينطلق في الفضاء لأميال متعددة أبعد من مدى البصر، ثم يهبط منقذاً على العدو. وكان وانج النمر يستمع إلى هذا الحديث وهو

في شدة الدهشة ثم يقول:

«يخيل إليّ أن الناس في الأقطار الخارجية يتمتعون بمهارة فائقة في فنون القتل، ولم أكن أعرف هذا عنهم».

وبدأ يتدبر الأمر من شتى نواحيه، ثم قال للمدرب ذات يوم:

«إنني أملك تحت يدي إقليماً خصيباً غنياً بالخيرات، ولا تصيينا في العادة مجاعة شاملة أكثر من مرة في كل عشرة أو خمسة عشر عاماً، لهذا تجمع لدي شيء من الفضة المدخرة. وقد اتضح لي الآن أنني كنت راضياً عن حال رجالي أكثر مما ينبغي، كما اتضح لي أيضاً أنه إذا كان ابني سيتعلم كل أساليب الحرب الحديثة، فلا بد له من جيش مدرب يحذق هذه الأساليب أيضاً. لذلك استقر رأيي على شراء الآلات التي تستخدم اليوم في الحرب بالأقطار الخارجية، وعليك أن تدرب رجالي على استعمالها وتشكل منهم جيشاً يليق بابني حينما يتولى قيادته من بعدي».

فابتسم الشاب ابتسامته السريعة الخاطفة، وأبدى استعداده الكامل للقيام بالمهمة، وقال:

«لقد حاولت أن أدرب رجالك، ولكن الحقيقة العارية بغير مجاملة، هي أنهم قوم في غاية الخشونة والفوضى، قانعون كل القناعة بالحصول على الطعام والشراب. فإذا اشتريت بعض الأسلحة الحديثة وحددت لهم ساعات معينة للطوابير والتدريب كل يوم، فسوف أرى حينذاك أمن الممكن أن أشكل منهم جيشاً منظماً».

فامتعض وانج النمر في قرارة نفسه لسماع هذه الحقيقة العارية من

المجاملة، فقد أفنى أيامًا عديدة من حياته في تدريب رجاله، لذا قال له في لهجة جافة:

«عليك أن تعلم ابني أولاً».

قال المدرب الشاب:

«سأتولى تعليمه حتى يبلغ الخامسة عشرة. وعندئذ إذا سمحت لي أن أبذل النصيحة لرجل في رفعة مكانتك، لقلت إنه يحسن إرساله إلى إحدى المدارس الحربية في الجنوب».

فقال وانج النمر في دهشة:

«عجبًا، أمن الممكن أن يتعلم الرجال فنون الحرب في المدرسة؟».

أجاب المدرب الشاب:

«توجد مثل هذه المدرسة، والرجال الذين يتخرجون فيها يعينون على الفور ضباطًا في جيش الدولة».

فتشامخ وانج النمر برأسه في تعال وكبرياء وقال:

«إن ابني ليس بحاجة لأن يذهب ويسعى للحصول على وظيفة ضابط صغير في جيش الدولة، وكأنه لا يملك جيشًا خاصًا به».

وبعد برهة استطرد قائلاً:

«وفضلاً عن ذلك، فإني أشك أن الجنوب يمكن أن يؤتي خيرًا من أي نوع كان، فقد كنت أعمل تحت إمرة جنرال من الجنوب في صدر شبابي، وكان مخلوقًا خاملاً تستبد به الشهوة، أما جنوده فكانوا أشبه بصغار القردة».

فابتسم المدرب واستأذن في الانصراف، إذ لاحظ استياء وانج النمر من حديثه، وظل وانج النمر جالسًا يفكر في ابنه، فترأى له أنه قد فعل يقينًا كل شيء في طاقته من أجل الصبي. وراح ينقب في زوايا قلبه ليستعيد ذكريات شبابه، فتذكر أنه في يوم من الأيام كان يتوق لأن يكون له جواد خاص به. وإذا به في اليوم التالي مباشرة يشتري لابنه جوادًا صغيرًا أسود اللون، جوادًا قويًا أصيلًا ينحدر من سهول منغوليا، اشتراه من تاجر يعرفه من تجار الجياد.

ثم قدمه إلى الغلام، ودعاه خارجًا ليرى الهدية التي اشتراها له. هنالك في الفناء كان الجواد الأسود الصغير واقفًا، وعلى ظهره سرج أحمر من جلد جديد، ولجام أحمر مرصع بأزرار من النحاس الأصفر. أما السائس الذي كان يمسك بعنانه، والذي أصبح عمله الوحيد منذ ذلك اليوم هو أن يقوم على العناية به، فقد كان يحمل في يده سوطًا جديدًا من الجلد الأحمر المجدول. وأخذ وانج النمر يحدث نفسه في زهو بأنه هو نفسه كان يحلم بامتلاك مثل هذا الجواد في صباه، ويعتقد أنه من الروعة بحيث لا يمكن أن يوجد نظيره على وجه الأرض. لذلك راح الآن يتطلع إلى ابنه في لهفة كي يستوعب النشوة التي لا بد أن تغزو عيني الغلام وتلوح في ابتسامته.

على أن الصبي لم يخرج عن وقاره مطلقًا، بل نظر إلى الجواد وقال في هدوء كدأبه دومًا:

«شكرًا لك يا أبتاه».

فانتظر وانج النمر برهة. ولكن لم يظهر وميض من البريق في عيني

الغلام، ولم يقفز إلى الأمام ليمسك باللجام أو يجرب السرج، بل بدا وكأنه في انتظار الإذن له بالانصراف.

حينئذ استدار وانج النمر مبتعداً وقد استبدت به خيبة أمل ضارية، ولم يلبث أن دلف إلى حجرته وأغلق الباب عليه، ثم جلس معتمداً رأسه بين يديه، تملكه مشاعر الحنان على ابنه، يخالطها غضب ومرارة عميقة تنبعث من الحب الذي لا يجد صدى في قلب الحبيب. ولكنه بعد أن استسلم للأسى حيناً، عاد فتجلد كعاداته في الماضي، قائلاً لنفسه في عناد: «ما الذي يبتغيه أكثر من هذا؟ إن لديه كل ما كنت أحلم به عندما كنت في سنه، بل وأكثر مما كنت أحلم به. أجل، ما كنت أضن بشيء في سبيل الحصول على معلم بارع كمعلمه، وعلى بندقية أجنبية رائعة كالتي يمتلكها. وما هو ذا الآن يمتلك جواداً صغيراً لامعاً أسود اللون، له سرج ولجام أحمر، وكذلك سوط أحمر ذو مقبض فضي!».

هكذا راح يواسي نفسه، ولم يلبث أن أصدر أوامره إلى معلم الصبي بألا يدخر جهداً في سبيل تعليم ابنه، وبألا يبالى بفترات الوهن التي قد تتاب الصبي، إذ إنها عادة ما تتاب جميع الصبية في طور النمو، ولا تستدعي الاهتمام.

على أنه استيقظ في ظلمة الليل وقد استولى عليه القلق، فسمع أنفاس ابنه الهادئة تتردد في الحجرة، وفاض صدره بمشاعر الحنان المعذب، فجعل يفكر في نفسه المرة بعد المرة قائلاً:

«لا بد أن أبذل مزيداً من الجهد في سبيله. لا بد أن أفكر في شيء آخر

يمكنني أن أفعله من أجله!».

هكذا ظل وانج النمر يفني سنّي عمره في رعاية ابنه، حتى لقد كان من الممكن أن تأخذه الشيخوخة على غرة وهو مستغرق على هذا النحو، لو لم يقع حادث معين هز كيانه، فخرج به عن دائرة ذلك الوله المتطرف، واستفز مشاعره، فدفعه إلى الحرب مرة أخرى كما خط له القدر.

ذات يوم من أيام الربيع، وقد ناهز ابنه العاشرة -إذ إنه أصبح الآن يقيس الزمن بعمر ابنه- كان جالسًا مع الغلام في ظلال شجرة مزدهرة من أشجار الرمان، وقد وقف الصبي يتأمل منتشياً الوريقات المتوهجة كاللهب التي انبثقت حديثاً من الشجرة، وإذا به يصيح على حين فجأة: «أقسم إن هذه الوريقات المتوهجة لهي أجمل في نظري من الزهرة اليبانة!».

وبينما كان وانج النمر يسدد إليها بصره مدققاً ليتبين ما يشاهده ابنه إن وسعه ذلك، ترمى إلى سمعه صوت هرج ومرج ينبع من البوابات، وإذا بأحد الخدم يقبل عليه راكضاً ليعلن مقدم شخص ما.

ولم تكد الكلمات تخرج من فم الخادم حتى رأى وانج النمر ابن أخيه المجذور يدخل عليه مترنحًا ظالماً من سرعة عدوه بجواده. وكان شاحب اللون زائغ العينين يبدو عليه الإعياء من عناء السفر ليل نهار، وقد استقرت ذرات التراب في بشراته الغائرة، فأصبح منظره يبعث على العجب الشديد. فلم يسع وانج النمر إلا أن يتفرس فيه، إذ إن الكلمات تواتيه عادة في بطاء ما لم تتملكه ثورة الغضب، ولم يلبث الفتى أن قال وهو يلهث:

«لقد جئت على أجنحة حصان طائر، أصل الليل بالنهار، لأنبئك أن الصقر يتآمر لشق عصا الطاعة عليك، وقد ادّعى أن جيشك ملك يده، واتخذ من نفس المدينة التي حاصرتها قاعدة له، كما أنه متحالف مع زعيم اللصوص العجوز الذي ظل يتحرق إلى الانتقام منك طيلة هذه السنين. وقد كنت أعلم أن الصقر يمسك عن دفع الإيرادات هذه الشهور الأخيرة، وتوجست شراً من هذا العمل. لكنني آثرت أن انتظر حتى أتيقن من الأمر خشية أن أثير انزعاجاً كاذباً يسيء إلى الصقر، فيقتلني خفية بطريقة أو بأخرى».

تساقطت كل هذه الكلمات من فم الفتى، بينما كان وانج النمر يحدق فيه بعينه العميقتين، وقد بدت عيناه في هذه اللحظة وكأنهما تغوران في جبهته كلما أسدل عليهما حاجبيه الأسودين في عنف بالغ. وأحس بأن ثورته المتقدمة العاتية تجيش في أعماقه لتسارع إلى نجدته، فزأر قائلاً:

«ذلك الكلب اللص اللعين.. أنا الذي رفعته من جندي عادي حقير. إنه مدين لي بكل شيء، وها هو ذا ينقلب عليّ كالكلب المتوحش!».

وإذ أحس بثورة المحارب العارمة تجيش وتغلي في صدره لحظة بعد لحظة، غاب ابنه عن باله، وخطا بخطى فسيحة متجهاً إلى الأروقة الخارجية التي يقطنها ضباطه وأتباعه الأمناء وبعض جنوده. وزأر أمراً بأن يستعد خمسة آلاف رجل للزحف وراءه قبيل الظهر، ثم صاح في طلب جنوده وسيفه الدقيق القاطع. وإذا بهذه الأروقة التي سادها الهدوء والسلام طوال الربيع، تغلي الآن كالمرجل في شتى أنحائها حتى إن الأطفال والإماء أخذوا يختلسون النظر من أروقة الحريم وقد ظهرت

على وجوههم علائم الرعب، إذ أفزعتهم كل هذه الصيحات المدوية عن الحرب والأسلحة، بل إن الجياد نفسها تهيجت من الضجة، فراحت تقعى وتقفز وتقعقع بحوافرها على بلاط الأبنية:

ولما رأى وانج النمر أن كل شيء يسير على قدم وساق تنفيذاً لأوامره، التفت إلى الرسول المنهك قائلاً:

«امض الآن لتأكل وتشرب وتنعم بقسط من الراحة. لقد أديت واجبك خير أداء. لذلك سوف أرفع من شأنك عاليًا. إنني أعلم حق العلم أن كثيرًا من الشباب كانوا من الممكن أن ينضموا إلى المتمردين؛ لأن الرغبة في التمرد تكمن دائمًا في قلوب الشباب، غير أنك لم تنس رباط الدم، فوقفت إلى جانبي. ثق أنني سوف أرفعك عاليًا».

حينئذ تلفت الفتى شرقًا وغربًا ثم قال هامسًا:

«أجل، ولكنني أناشدك أن تقتل الصقر يا عماه. إنه سيرتاب في الأمر عندما يراك قادمًا، فقد تذرعت بأني مريض ويجب أن أعود إلى أمي حينًا من الزمن».

فوعده وانج النمر في صوت نائر هادر، وصاح قائلاً:

«لست بحاجة لأن ترجوني، فلسوف أصقل سيفي على جسده!».

فانصرف الفتى وهو راض كل الرضا.

ثم خرج وانج النمر على رأس رجاله، وهو يحثهم على الزحف الدائم المضني الذي يستغرق ثلاثة أيام للوصول إلى الإقليم الجديد. خرج على رأس رجاله القدامى الموثوق بهم، وقد خلف وراءه في أرض

الوطن الجنود الذين انضموا إلى صفوفه من المدينة المحاصرة، وكذلك الضابط الذي غدر بزعيم اللصوص، خشية أن يقدموا على خيانتة هو أيضاً بدوره. وقد وعد الجنود الأشداء المخلصين الذين ساروا وراءه بأنهم سوف يأخذون الآن دورهم في السلب والنهب بالمدينة إذا هم أظهروا بسالة في القتال من أجله، كما وعدهم كذلك بمنحة إضافية قيمتها راتب شهر من الفضة، لذلك أقبلوا على الزحف بقلوب راضية وأقدام متوثبة.

وقد قاموا بهذا الزحف خير قيام، حتى إن الصقر أخذ على غرة، عندما سمع أن وانج النمر قد أطبق عليه، قبل أن تكون لديه فكرة على الإطلاق عن هذه النكبة التي حلت به. فالصقر كان يجهل في الحقيقة مدى دهاء الفتى - ابن أخ وانج النمر - ومدى براعته في الحيلة والمكيدة، لأن ذلك الفتى كان يفيض بالمرح ويتمتع بلسان ناعم معسول، ولأن وجهه المجذور كان يخيم عليه في الظاهر طابع الجهل، إلا فيما يتعلق بالمداعبات والمزاح الثقيل مع الجنود، بحيث اعتقد الصقر أن كل ما يدبره قد خفي عن عينيه. لذلك اغتبط أشد الغبطة حينما ادّعى الفتى أنه يعاني من ألم في كبده، ويجب أن يعود إلى أمه في موطنه. وأضمر عندئذ أن يصدر نداءاته داعياً إلى التمرد، فيكتشف أي الرجال يدينون له بالولاء، ثم يعدم الآخرين. كما أنه وعد الرجال الذين سيشترون معه في التمرد بأن يطلق لهم حرية السلب والنهب في المدينة.

وبناء على ذلك، حصن الصقر نفسه في تلك الأيام، وأمر بإحضار المؤن من الطعام إلى داخل المدينة، إذ كان يعرف طبيعة وانج النمر حق المعرفة، ويدرك أنه لن يقف مكتوف الأيدي ويستسلم للأمر الواقع. أما

أهل المدينة الذين لا حول لهم ولا قوة فقد أخذوا، في رعب شديد، يتأهبون لمواجهة الحصار مرة أخرى، حتى إنه في نفس اليوم الذي اخترق فيه وانج النمر بوابة المدينة، رأى عشرات من الفلاحين قادمين بأحمال من الوقود معلقة على أعمدة خشبية يرفعونها على مناكبهم، كما شاهد أيضًا حميرًا وبغلاً تقبل على المدينة وقد كدست على ظهورها زكائب الغلال، ورجالاً يحملون على رؤوسهم سلالاً مملوءة بدجاج يرفع صوته بالصياح، أو يسوقون أمامهم قطعاناً من الماشية، أو يحملون خنازير مشدودة إلى أعمدة خشبية، وهي تخور في هياج لشعورها بأنها محمولة، على طول الطريق، وقد تدلت رؤوسها إلى أسفل وأرجلها إلى أعلى. حين رأى وانج النمر كل هذا، راح يصر على أسنانه من الغيظ، لإدراكه أنه لو لم يحط علمًا بالمؤامرة في الوقت المناسب لتجشم عناء حصار في غاية المشقة، لأن كل هذه المؤونة كانت ستخزن في المدينة. فضلاً عن أن الصقر كان عدوًّا أعظم خطرًا بكثير من زعيم اللصوص الهرم الذي كان يعوزه الذكاء، فهو رجل أريب واسع الحيلة وفي غاية الضراوة، كما أن لديه من أسلحة الحرب هذين المدفعين الأجبيين، وكان بوسعه أن ينصبهما فوق أسوار المدينة ويسلط نيرانهما على الجيش المحاصر. وعندما فكر وانج النمر في كل هذه الكوارث التي استطاع أن يتفادها في اللحظة الأخيرة، ازدادت ثورة غضبه حتى احمرت عيناه وراح يعض على شفتيه ويقرض شعر لحيته. فترك غضبه ينطلق عميقاً جياشاً على هواه، وأخذ يحث جواده على العدو، صائحاً في رجاله بأنهم يجب أن يتجهوا مباشرة إلى القصر الذي يعسكر فيه الصقر.

عندئذ كان البعض قد هرع لينبئ الصقر بأنه قد قُضي عليه قضاء مبرماً، لأن وانج النمر قد أطبق عليه بالفعل، فأحس الصقر باليأس يهبط عليه من السماء. ولم يتريث إلا لحظة ليفكر هل كان من الأفضل أن يواجه الموقف في صفاقة متوسلاً بالخديعة، أم يولي الأدبار عن طريق ممر سري. ولم يراوده وميض من الأمل في أن رجاله ستواتيهم الجرأة على الوقوف إلى جانبه بعد أن دخل وانج النمر المدينة على رأس هذا الجيش العرمرم. ومن ثم أدرك أنه يقف وحيداً. غير أن لحظة التردد هذه أوردته موارد التهلكة. فقد أقبل وانج النمر في هذه اللحظة يقتحم بوابات القصر راكضاً على ظهر جواده، وهو يصيح أمراً بإلقاء القبض على الصقر مهما كان الثمن، والحفاظ عليه حتى يقتله بيده. ولم يلبث أن هبط من على سرج جواده وهو يطلق هذه الصيحات، في حين كان رجاله يتدفقون كالسيل في أنحاء الأروقة.

ولما تبين الصقر أن نهايته قد حانت، جرى مسرعاً وتوارى عن الأنظار... جرى واختبأ في كومة من الأعشاب بأحد المطابخ على الرغم من أنه كان يتسم بالبسالة. ولكن أي أمل يراوده في النجاة إزاء هذه الحشود الهائلة التي تدفقت للبحث عنه وقد تحولت إلى وحوش كاسرة تحفزها الرغبة في الحصول على المكافأة الموعودة؟ بل ولم يكن ثمة أمل يرتجيه من أتباعه أكثر من أنه إذا وقع أحدهم على مخبئه، فلا يفشي سره. لذلك ظل ينتظر بين الأعشاب، على أنه رغم اختبائه لم تعثره رجفة الخوف، فقد كان رجلاً شجاعاً ثابت الجنان.

كان العثور عليه أمراً لا مناص منه، لأن الجنود هرعوا يبحثون عنه في

كل مكان، تحدوهم اللهفة إلى القبض عليه للمطالبة بالمكافأة، فضلاً عن أن البوابات الأمامية والخلفية وبوابة النجاة الصغيرة كانت جميعها تحت الحراسة المشددة، أما أسوار القصر، فقد كانت شاهقة الارتفاع بحيث يتعذر الفرار منها. ومن ثم عثرت عليه حفنة من الجنود في المطبخ، حين رأوا طرف معطفه الأزرق بين الأعشاب، فهرعوا إلى الخارج وصفقوا الباب وراءهم، ثم صاحوا ينادون الآخرين. فأقبل نحو خمسين رجلاً راكضين، وتسלّلوا إلى الداخل في حذر، إذ كانوا يجهلون ما يحتمل أن يكون مع الصقر من سلاح، ولو أنه كان في الواقع أعزل من السلاح، عدا خنجر دقيق قصير لا يجدي نفعاً في وجه هذا العدد من الرجال، ذلك لأنه حين تلقى نبأ الهجوم كان يتناول وجبة الصباح، فهرع خارجاً وهو شارد مشّت الذهن. ولم يلبث الجنود أن انقضوا متكومين عليه، ثم كتفوا ساعديه كي يشلوا حركته وساقوه إلى قائدهم. فسار الصقر بينهم والقش عالق بشعره وملابسه، وقد خيمت عليه الكآبة، وبدت الوحشية في عينيه. هكذا قادوه إلى حين كان وانج النمر جالساً ينتظره في القاعة الكبرى، وقد استل سيفه اللامع الذي بدا وكأنه ثعبان فضي دقيق يمتد فوق ركبته. فأخذ ينظر إلى الصقر شزراً، بعينيه الغائرتين تحت حاجبيه الأسودين، ولم يلبث أن قال له في خشونة:

«هكذا تحولت إلى خائن يعمل ضدي، أنا الذي رفعتك من جندي عادي وضع، وأسبغت عليك كل ما تتمتع به الآن!».

فأجاب الصقر مبتسماً، دون أن يرفع عينيه لحظة عن السيف اللامع الذي كان يستقر على ركبتي وانج النمر:

«لقد تعلمت منك كيف أتمرد على قائدي، ومن تكون أنت سوى ابن شارد من أبيه، ومن الذي رفع من شأنك سوى الجنرال الهرم؟».

وعندما سمع وانج النمر هذه الإجابة الوقحة لم يستطع أن يتحملها، فصاح في حشد الجنود الذين تجمعوا من حولهما لمشاهدة كل ما وسعهم مشاهدته:

«كنت أظن أنني سأغمد سيفي فيه! ولكنها ميتة أشرف مما يستحق! خذوه وقطعوا جسده إلى شرائح كما يعامل المجرمون وأهل الشر الذين لا يستحقون الحياة، وكما يعامل الأبناء الجاحدون لأبائهم والخونة لبلادهم!».

على أن الصقر إذ رأى أن نهايته قد حانت، اجتذب خنجره القصير الدقيق من صدر ردائه قبل أن يتمكن أحد من منعه، وأغمدته في أحشائه حيث ثناه ثنية عنيفة، وتركه هناك بارزاً من بطنه، ثم ظل واقفاً لحظة يترنح محتضراً. وبينما هو يعاني سكرات الموت، نظر إلى وانج النمر وقال له بطريقته الجافة المستهترة:

«إني لا أهاب الموت! فما هي إلا عشرون سنة أخرى وتبعث روحي من جديد في جسد آخر لأكون بطلاً مرة أخرى!» وما لبث أن تهاوى على الأرض والخنجر لا يزال مغمداً في أحشائه.

وبينما كان وانج النمر يحرق ذاهلاً فيما وقع أمام عينيه وهو لم يكذب يلتقط أنفاسه، أحس بأن غضبه ينحسر عنه. ومع أن الصقر قد خدعه وحرمه من لذة الانتقام، فإنه رغم غضبه الجارف شعر بالحسرة والندم

لأنه فقد رجلاً بأسلاً كهذا المتمرد. فخيم عليه الصمت هنيهة، ثم قال آخر الأمر في صوت خفيض:

«عليكم أيها الجنود الواقفون عن يميني وعن يساري، أن تحملوا جثته خارجاً وتواروها التراب في مكان ما، فقد كان وحيداً لا أهل له. ولا أعرف إن كان له أب أو ابن أو موطن أم لا». وبعد برهة استطرد قائلاً: «كنت أعلم أنه رجل شجاع، ولكنني لم أكن أعلم أنه على هذا القدر من الشجاعة. ضعوه في نعش جيد».

واستمر جالساً هنيهة يخامره شعور بالحزن والأسى، ما جعل قلبه يرق بمشاعر الحنان. حتى إنه منع رجاله لفترة من الزمن من القيام بعمليات السلب والنهب التي كان قد وعدهم بها. وبينما هو مستغرق في أساه، أقبل تجار المدينة يتوسلون في طلب مقابلته. وعندما سمح له بالمشول بين يديه ليتبين بغيتهم، دخلوا عليه وهم يحملون كميات ضخمة من الفضة، وتضرعوا إليه في تأدب بالغ ألا يطلق لرجاله حرية السلب في المدينة، قائلين إن الناس يستبد بهم الرعب والهلع. ولما كان رقيق المشاعر في تلك الآونة، فقد أخذ منهم الفضة ووعد بإعطائها لرجاله عوضاً عن السلب والنهب في المدينة، فأبدى التجار امتنانهم، وانصرفوا يلهجون بالثناء على ذلك الملك الرحيم من ملوك الحرب.

غير أن وانج النمر تجشم الكثير من العناء في التهدة من نائرة جنوده، لأنهم لم يتخلوا عن نظراتهم العابسة المتجهة إلا بعد أن دفع لكل منهم مبلغاً كبيراً من المال، وأمر بإقامة الولائم وتقديم الخمر لهم، بل إنهم لم يثوبوا إلى طبيعتهم ويكفوا عن صب لعناتهم التي تعبر عن خيبة الأمل إلا

بعد أن ناشدهم الولاء له ووعد بمنحهم فرصة السلب عندما تندلع حرب أخرى في المستقبل. والواقع أنه اضطر إلى أن يبعث برسله إلى التجار مرتين، طالباً منهم أن يدفعوا المزيد من الفضة، حتى أحس رجاله بالرضا واستتب الموقف.

حينئذ أعد وانج النمر عدته للعودة إلى موطنه، لأنه كان يتحرق شوقاً إلى ابنه، فقد رحل على عجلة من أمره، حتى إنه لم يكدر يخطر بباله أن يدبر خطة العمل التي يجب أن ينتجها الغلام في فترة غيابه. وعند عودته خلف وراءه هذه المرة تابعه الأمين الأشرم ومعه جنوده كي يتولى حكم المدينة إلى حين يتمكن ابن أخيه من العودة إليها. أما أتباع الصقر، فقد قادهم وراءه عند عودته، تاركاً في مكانهم بعض جنوده القدامى الموثوق بهم الذين أتى بهم عند قدومه. ومن باب الحيلة أخذ معه المدفعين الأجنيين؛ لأنه اكتشف أن الصقر كان قد كلف أحد الحدادين في المدينة بصنع كرات لهما، وكانت لديه أيضاً كميات من البارود لإطلاق النار منهما. لذلك أخذهما وانج النمر معه حتى لا يكون ثمة ما يدعوه للخوف يوماً من أن تسلط عليه نيرانهما في المستقبل.

وبينما كان يخترق شوارع المدينة في طريق عودته، أخذ الناس يتطلعون إليه ويرمقونه بنظرات تنم عن الكراهية، فقد فرض ضريبة جديدة على كل بيت بالمدينة لتعويض المبالغ الفادحة التي احتاج إليها لمكافأة جنوده، وتغطية النفقات التي تجشمها في هذه الحملة. غير أنه تجاهل هذه النظرات وشد من عزم نفسه، إذ طاف بذهنه أنه كان من الجدير بهؤلاء الناس أن يدفعوا ثمن سلامتهم عن طيب خاطر، فلو أنه لم يأت

إلى المدينة ويخلصهم من هذه الكارثة، لذا قوا العذاب المرير على أيدي الصقر وأتباعه. ذلك أن الصقر كان رجلاً قاسياً لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه، ولا تعنيه في شيء حياة الرجال أو النساء، فقد أَلَفَ الحروب منذ حدثته. والحق أن وانج النمر شعر بأن هؤلاء الناس قد ظلموه ظلماً فادحاً، وهو الذي تجشم عناء الزحف الشاق طيلة هذه الأيام من أجلهم، بل إنهم لم يدركوا أنه قد أنقذهم من نكبة ما. لذا فكر في نفسه مكتئباً:

«إنهم جاحدون مهما فعل المرء في سبيلهم. كما أنني رقيق القلب أكثر مما ينبغي».

هكذا راح يبث القسوة في قلبه بهذه الخواطر، فلم يعد يولي عامة الشعب من عطفه ما كان يوليه لهم في الماضي. وضغط على قلبه أكثر من ذي قبل، فلم يتخذ له تابعاً أميناً بدلاً من الصقر، قائلاً لنفسه في وحشة وكآبة إنه لا يستطيع أن يثق في كائن من كان ما لم يكن من لحمه ودمه. وكلما ضيق الخناق على قلبه ازداد اعتماده على ابنه الحبيب. وفي أثناء عودته أخذ يواسي نفسه قائلاً:

«عندي ابني. إنه الوحيد الذي لن يخذلني يوماً».

ثم راح يستحث جواده ويغذ السير مسرعاً، يحدوه الشوق والحنين إلى رؤية ولده.

أما ابن أخيه، فقد انتظر حتى بلغه أن الصقر قد لقي مصرعه، ففاض قلبه بالفرح والمرح لهذه الأنباء، ورحل إلى موطنه لقضاء بضعة أيام. وهناك مضى يحدث الجميع عما أظهره من ضروب البسالة والدهاء،

ويروي لهم كيف أنه كان من المهارة بحيث انتصر على الصقر، رغم أن هذا كان محارباً في غاية البراعة والفتن، فضلاً عن أنه قد بلغ من العمر ما يجعله ينتمي إلى جيل غير جيله. هكذا راح يتباهى بكائه في كل مكان، أما في البيت، فقد التف إخوته من حوله؛ يصغون إلى حديثه وهم في أشد حالات البهجة، وصاحت أمه قائلة:

«عندما كان هذا الابن مجرد طفل رضيع. كنت أعلم أنه ليس كسائر الأطفال لأنه كان يمتص ثديي بكل قوة وشراهة!».

أما وانج التاجر، فقد جلس ينصت إليه، وقد علق على وجهه ابتسامته الشابة. ومع أنه كان فخوراً بابنه، فقد أبى أن يثني عليه، بل قال له:

«بالرغم من ذلك، فمن الخير ألا يغيب عن بال المرء أن الفرار هو أفضل السبل الستة والثلاثين للخلاص من المآزق». واستطرد قائلاً: «إن حيلة بارعة لهي خير من سلاح قاطع».

فقد كانت الحيلة التي لجأ إليها ابنه هي أكثر ما أثلج صدره في الأمر. ولكن عندما ذهب الشاب المجذور إلى رواق وانج المالك، حيث قدم فروض الاحترام لعمه وزوجته، وسرد عليهما قصة بطولته، أحس وانج المالك بشعور غريب من الغيرة يعتمل في نفسه. أحس بالغيرة من أجل ابنه الذي فارق الحياة، ومن أجل هذين الابنين الآخرين، فقد كانت تتنبه بعض الهواجس المبهمة من أن هناك عيباً ما في كيانهما، مع إعجابه بأسلوبهما المتكبر المتشامخ وهيئتهما التي تليق بالعظماء. لذلك فإنه رغم ظهوره بمظهر الأدب والمجاملة في أثناء سرد ابن أخيه المجذور

لقصته، إلا أنه لم يعره سوى أذن واحدة. فبينما كان الشاب يتحدث عن بطولته بطريقته المليئة بالحماسة، ظل الرجل الهرم طوال الوقت ينادي في طلب الشاي وفي طلب غليونه، أو يصيح قائلاً إنه أصبح يحس بالقشعريرة بعد أن غربت الشمس، ويريد أن يلبس رداء الربيع الخفيف المصنوع من الفراء. أما زوجته، فقد أومأت برأسها لابن أخي زوجها أصغر إيماءة ممكنة تقتضيها آداب السلوك، ثم تشاغلت عنه بالتطريز متظاهرة بالانهماك فيه، فراحت تطابق هذه القطعة من الحرير على مثيلتها في النموذج، ودأبت على التثاؤب بصوت مسموع في أثناء الحديث، ومضت تسأل زوجها عن بعض شؤون البيت أو عن مستأجري الأرض التي بقيت لهم، وفي نهاية الأمر لاحظ الفتى أنها قد ضاقت به ذرعاً، فتوقف عن سرد قصته وانصرف مندفعاً بعض الشيء. وقبل أن يتعد سمع السيدة ترفع صوتها قائلة:

«إني سعيدة بأن أحداً من أبنائنا لا يعمل بالجندية! إنها حياة حقيرة وضيعة تضفي على الشاب طابعاً خشناً وسوقياً للغاية».

فأجاب وانج المالك في فتور:

«حقاً.. أعتقد أنني سأذهب إلى مشرب الشاي لأقضي بعض الوقت».

ولم يدرك الفتى أن هذين الزوجين إنما يفكران في ابنهما الصغير الذي رحل عن الحياة، لذلك ظل يحس بالمرارة في قلبه حتى بلغ بوابة البيت. وإذا بزوجة وانج المالك الثانية تقف هناك، وهي تحمل أصغر أطفالها بين ذراعيها. وكانت هذه المرأة قد استمعت إلى رواية الفتى، ثم تسللت خارجه قبله وانتظرت عند البوابة، وقالت له في

شغف واهتمام:

«ولكنها في نظري قصة رائعة تدل على بسالة نادرة».

فارتاح قلب الفتى، وعاد أدراجه إلى أمه.

أمضى ثلاثين يومًا في بيته لأن أمه انتهزت هذه الفرصة لتعقد قرانه على خطيبته التي كانت قد اختارتها له قبل بضع سنوات مضت. كانت هذه الفتاة ابنة رجل من الجيران يعمل في نسج الحرير، غير أنه لم يكن نسّاجًا عاديًا فقيرًا من الأجراء. كلا، بل كانت له أنواله الخاصة، وعنده عشرون من الصبية يعملون في مصنعه الذي كان ينتج أثوابًا من الأطلس المتعدد الألوان والحرير الموشى بالأزهار. فكانت تدر عليه الربح الوفير، لندرة العاملين في هذه الحرفة بالمدينة. وكانت الفتاة كذلك ماهرة في هذا العمل، حتى لقد كان بوسعها، إذا ظل الربيع قارس البرودة، أن تحتضن بيض دود القز إلى جسدها الدافئ حتى تفقس منه الديدان، وكانت تعرف أيضًا كيف تغذي الديدان -بالطريقة الملائمة لنموها- على أوراق التوت التي يجمعها الصبية، وتعرف كذلك كيف تقتل خيوط الحرير من الشرائق. كانت الفتاة تتمتع بكل هذه المهارة التي كانت نادرة الوجود في تلك المدينة؛ لأن عائلة النساج لم تستوطن هذه المنطقة قادمة من بقاع أخرى إلا في الجيل الماضي. والحقيقة أن خطيبها الشاب ما كان سيجني نفعًا من وراء مهارتها، ومع ذلك، فقد اعتقدت أمه أنه شيء جدير بالاعتبار بالنسبة إلى الفتاة أن تكون لديها هذه المعرفة؛ لأنها جعلتها مقتصدة مدبرة ودائبة الحركة في حياتها.

أما الشاب، فلم تكن تعنيه كثيرًا قدرة الفتاة على العمل، بل كان

سعيدًا بالزواج في حد ذاته، لأنه ناهز الرابعة والعشرين من عمره، وكثيرًا ما كانت تؤرقه شهواته. وقد راقه من الفتاة أنها حسنة الهندام متوسطة الجمال لا تبدو عليها حدة الطبع، وكان في هذا الكفاية بالنسبة إليه.

بعد انتهاء الزفاف، وقد مر على خير ما يرام، ولكن دون مغالاة في المظاهر، عاد وبصحبه زوجته إلى المدينة التي كان وانج النمر قد عينه حاكمًا عليها.



كلما انتزع الربيع نفسه من براثن الشتاء الطويل عامًا بعد عام كان وانج النمر يحس بطموحه يتحرك في أعماقه، فيتطلع إلى خوض حروب عظمى، وكلما أقبل الربيع كان يتلفت من حوله إلى الأقاليم المحيطة به ليرى ماذا يستطيع أن يفعله لتوسيع نطاق نفوذه. وكان يطلق جواسيسه ليتبينوا اتجاه الحروب العامة في تلك السنة، ويروا كيف يتسنى له أن يكيف غزواته الخاصة طبقاً لاتجاه الحرب الكبرى. وكانت نفسه تحدثه بالانتظار حتى يعود الجواسيس ويشيع الدفء، وتقبل الساعة التي يحس فيها بأن القدر يناده، فيلبي النداء. ولكن الحقيقة هي أنه قد تجاوز مرحلة الشباب وأصبح الآن قانعاً راضياً بعد أن أنجب ابنه، فلم يعد يتتابه ذلك الشعور القديم بالقلق الذي كان يدفعه إلى الانطلاق وخوض الحرب. وكان يقول لنفسه في كل ربيع إنه يجب أن ينطلق قدماً في سبيل ولده لينجز ما قد شرع فيه إبان حياته. غير أنه في كل ربيع كان يظهر له في الأفق سبب قوي مباشر يدعوه إلى إرجاء غزواته إلى السنة التالية. هذا، فضلاً عن أنه لم تنشب أي حروب عظمى أو فردية طيلة السنين التي اجتاز فيها ابنه مرحلة الشباب. إذ لم يكن هناك في شتى أنحاء البلاد بأسرها سوى الكثير

من ملوك الحرب الصغار، يسيطر كل منهم على دائرة نفوذه الصغيرة، دون أن يظهر على مسرح الأحداث رجل عظيم ليسودهم جميعاً. ولهذا السبب أيضاً، كان وانج النمر يحس بأن من السلامة له أن ينتظر عامًا آخر، ثم يقبل العام الجديد، وينقضي ربيع، فيؤجل الأمر إلى السنة التالية. وكان يؤمن دائماً عن يقين راسخ بأنه عندما تدق الساعة التي كتبت له في لوح القدر، فسوف ينطلق إلى الأمام ليحرز النصر في أي معركة يختارها.

ثم حدث ذات ربيع، وقد ناهز ابنه الثالثة عشرة من عمره، أن جاء لوانج النمر رسول من عند أخويه ليبلغه رسالة خطيرة مؤداها أن أكبر أبناء وانج المالك قد أُلقي به في سجن المدينة ببلدته. لذلك بعث الشقيقان الرسول يلتمسان من أخيهما وانج النمر أن يتوسط في بلاط المقاطعة لإطلاق سراح الشاب. عندما سمع وانج النمر هذه الرواية، تراءى له أنها فرصة رائعة ليختبر مدى قوته في مركز المقاطعة ومبلغ نفوذه عند جنرال تلك المقاطعة. ومن ثم، أرجأ عامًا آخر تلك الحرب التي كان يفكر في شنها، وأخذ على عاتقه أن يقوم بالمهمة التي طلبها منه أخواه، على أنه حين اضطلع بالمهمة لم يكن مجردًا من بعض الشعور بالزهو لأن أخويه الكبيرين يتوسلان إليه في طلب العون وهو الشقيق الأصغر، كما أنه لم يكن مجردًا من بعض الشعور بالازدراء نحوهما لأن من الممكن أن يلقي بأحد أبنائهما في السجن، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث لابنه الطيب في يوم من الأيام.

وإليك تفصيلات القصة التي أدت إلى الزج بأكثر أبناء وانج المالك في غياهب السجن، فقد حدث الأمر على الوجه التالي:

كان ابن وانج المالك قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره دون أن يتزوج، أو حتى يخطب إحدى الفتيات. ويرجع هذا المسلك البالغ الغرابة إلى أنه قد التحق في صدر شبابه لمدة عام أو عامين بإحدى المدارس الحديثة في المدينة، حيث تعلم الكثير من الأشياء، ومن بين الأشياء التي تعلمها هناك تلك الفكرة القائلة بأن زواج الشاب من الفتاة التي يختارها له أبواه إن هو إلا عبودية دنيئة مخجلة لعادة عتيقة بالية، وبأنه ينبغي لكل شاب أن يختار بنفسه فتاته للزواج منها، على أن تكون فتاة سبق له رؤيتها والتحدث إليها حتى يمكن أن يحس نحوها بعاطفة الحب. لذلك فإنه عندما مضى وانج المالك يتفحص وجوه كل الفتيات الصالحات للزواج بالمدينة حتى يستقر رأيه على إحداهن لتكون زوجة لأكبر أبنائه، رفع هذا الابن راية العصيان في هذا الشأن وراح يرتمي هنا وهناك، وهو يطم شفتيه قائلاً إنه سيختار زوجته بنفسه.

في بادئ الأمر ثارت ثائرة وانج المالك وزوجته لهذه الفكرة المذهلة، وللمرة الأولى اتفق الاثنان على رأي واحد، فصاحت السيدة بابنها في غضب:

«كيف يتسنى لك أن ترى عن كثب فتاة مهيبة بحيث يمكنك أن تتحدث إليها وتعرف إن كنت تحبها أم لا؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يختار لك زوجتك مثل والديك اللذين صاغا كيائك ويعرفان كل اتجاهات تفكيرك وطبيعتك؟».

أما الشاب، فقد اجتاحه غضب جارف، وأفعمته الرغبة في الجدل، فراح يشمر أكمامه الحريرية المتهدلة من على يديه الناعمتين البضاوين.

ويرمي شعره الأسود إلى الخلف من على جبهته الشاحبة، وصاح بدوره قائلاً:

«لا أنت ولا أبي تفقهان شيئاً سوى التقاليد العتيقة التي عفى عليها الزمن. إنكما لا تعلمان أن كل أبناء الأثرياء المثقفين في الجنوب يمنحون أبناءهم حرية اختيار الزوجات لأنفسهم!» وعندما رأى أباه وأمه يتبادلان النظرات، ورأى أباه يمسح جبهته بكفه وأمه تزم شفيتها، عاد فصاح:

«حسناً إذن، اعقدوا خطبتي، ولسوف أترك البيت ولا أراكما ثانية على الإطلاق!».

فانتاب الوالدين رعب شديد يفوق الحد، وسارع وانج المالك يقول:

«ولكن قل لنا من هي الفتاة التي تحبها، وسوف نرى أفي الإمكان تدبير الأمر أم لا».

والحقيقة أن الشاب لم يكن قد رأى بعد فتاة أحلامه التي يمكن أن يحبها بهدف الزواج، فالنساء اللائي عرفهن في حياته كن جميعاً من الصنف الذي يسهل شراؤه بالثمن، ولكنه لم يشأ أن يصرح لأبويه بأنه ليس ثمة فتاة معينة رآها ويكن لها الحب، لذا اكتفى بمط شفتيه المتوردتين وهو يحدق عابساً في أظافر يديه الجميلة. ولكن ظهرت على وجهه علامات العنف والعناد حتى إن أبويه في هذه المرة، وفي كل مرة أخرى طرقا فيها هذا الموضوع، كانا يضطران إلى تهدئة خاطره آخر الأمر بقولهما المرة تلو المرة: «حسناً، دعنا من هذه المسألة الآن!». والواقع أن وانج المالك اضطر مرتين إلى التراجع في عقد اتفاق زواج ابنه من إحدى

الفتيات بعد شروعه في التفاوض بشأنها؛ لأن الفتى كان عندما يبلغه الأمر يقسم بأنه سيشنق نفسه على عمود خشبي مثلما فعل أخوه، فكان هذا التهديد يثير الفزع في قلب أبيه وأمه، فيخضعان لرغبته في كل مرة.

ومع ذلك، فكلما مضت الأيام ازدادت لهفة وانج المالك وزوجته على رؤية ابنهما متزوجًا، لأنه كان أكبر أبنائهما ووريثهما الأول، ولا بد أن يكون أبنائهما في المرتبة الأولى بين أحفادهما. كما كان وانج المالك يعلم حق العلم أن الشاب يتردد على هذا المشرب وذاك ويضع زهرة شبابه هنا وهناك. وعلى حين كان يدرك أن هذا هو حال كل المترفين من الشباب الذين ليسوا بحاجة إلى الكد والكدح للحصول على المأكل والملبس، إلا أنه كان كلما تقدمت به السن من طور القوة والحيوية إلى فترة الشيخوخة الهادئة، يستبد به القلق على ابنه هذا. فقد كان يخشى هو وزوجته أنه إذا لم يتزوج ابنهما سريعًا، فقد يأتي لهما ذات يوم وبرفقته فتاة متسكعة من فتيات المشارب لتكون زوجته، ومثل هذه الفتاة قد تصلح لأن يتخذ منها محظية، ولكن من العار أن تكون زوجة له. أما إذا أعربا للشباب عن مخاوفهما، فقد كان يتحدث إليهما في لهجة قاسية قائلاً إن الشبان والشابات قد تحرروا في هذا العصر الحديث من سيطرة آبائهم، وإن الرجال والنساء يتمتعون بالحرية والمساواة، وما إلى ذلك من الحماقات. فلا يسع الوالدان حينذاك إلا أن يلوذا بالصمت، لأن لسان الشاب كان من السلطة والطلاقة بحيث لم يكن ثمة جدوى من الرد عليه. وقد تعلمنا من بادئ الأمر أن يلزما الصمت حينما يصب عليهما عباراته النارية التي تعبر عن السخط والتبرم، بينما تقدح عيناه بالشرر وهو ينقل بصره بين الزوجين

الهرمين، وفي كل لحظة يطيح بشعره الطويل إلى الخلف، ويملس عليه بيده الناعمة البيضاء. وذات يوم بعد أن دارت هذه الأحاديث وانصرف الشاب، لأنه كان شديد الضجر ولا يطيق المكوث في البيت طويلاً، رمت السيدة زوجها بنظرة ملؤها اللوم، وقالت له:

«لقد علمته كل هذه الأمور بأساليبك الفاجرة الداعرة. لقد تعلم من أبيه أن يشبع شهواته مع أولئك الفتيات بائعات الهوى بدلاً من النساء الشريفات الفاضلات».

وفي أثناء حديثها رفعت كمها إلى عينيها، وراحت تمسح به إحداهما فالأخرى، وهي تحس أنها مضطهدة في ذلك البيت. أما وانج المالك، فقد انتابه حينذاك ذعر شديد لإدراكه أن هذه البداية الهادئة قد تؤدي إلى عاصفة عاتية في النهاية؛ لأن السيدة كانت كلما تقدمت بها السنون تزداد صلاحاً وتقى وتتمادى في حدة طبعها. لذلك سارع بالنهوض ليخرج من الحجرة، وهو يقول لها بلهجة في غاية الرقة والوداعة:

«إنك تعلمين أنني الآن -وأنا أخطو إلى الشيخوخة- لا أتردد على المشارب كما كنت أفعل في الماضي، وأحاول أن أستمع دائماً إلى مشورتك. فإذا كانت لديك وسيلة ما للخلاص من هذه المتاعب، فإني أعدك باتباع ما تشيرين به».

والحقيقة أن هذه السيدة لم يكن بوسعها الآن أن تفكر في أي وسيلة تسوس بها هذا الابن الهائج المائج، لذا كان لا بد لها من أن تنفس عن نفسها بطريقة أو بأخرى. فعجل زوجها بالخروج من البيت على جناح السرعة عندما رأى أن طبعها الحاد قد بدأ يستيقظ في أعماقها. وبينما هو

يجتاز رواقه، رأى زوجته الأخرى ترضع أحد أطفالها في ضوء الشمس، فقال لها متعجبًا:

«ادخلي وأحضري شيئًا لسيدتك، لأنها تزداد غضبًا. خذي لها قدرًا من الشاي، أو أحد كتب الصلاة، أو أي شيء آخر وأثني عليها قائلة إن كاهنًا أو آخر قد قال هذا أو ذاك عنها، أو ما شابه ذلك!». »

فنهضت المرأة طائعة، ثم مضت إلى الداخل وهي تحتضن طفلها بذراعها. وبينما هو يذلف إلى الطريق ويفكر إلى أين يتجه، بارك تلك الساعة التي رأى فيها امرأته الثانية، لأنه لو كان قد بقي وحيدًا مع زوجته الأولى لكان هذا من أكثر المصائب شرًا بالنسبة إليه. أما هذه المرأة الثانية، فقد كانت على مر السنين تزداد رقة ووداعة حتى عن ذي قبل، فكان محدودًا للغاية من هذه الناحية، لأن اجتماع امرأتين مع سيد واحد يؤدي في غالبية الأحيان إلى العراك بينهما، ما يخلق حياة صاخبة في أرجاء البيت، لا سيما إذا كانت إحداهما أو كلتاها تحب سيدها.

على أن امرأته الثانية كانت تدخل الراحة إلى قلبه بكثير من الوسائل البسيطة، وتؤدي له المهام التي يأبى الخدم القيام بها. ذلك أن الخدم صاروا يدركون مَنْ صاحبة السلطة في بيت وانج المالك، فكان إذا زأر مناديًا على أحدهم، رجلًا كان أو امرأة، يرد عليه صائحًا: «أوه، نعم، نعم!»، ولكنه يتلصق في المجيء أو لا يأتي بالمرة، أما إذا جنح وانج المالك إلى الغضب والعراك، فإن الخادم يعتذر له قائلًا: «لقد أمرتني سيدتي بكذا وكذا». وهكذا يسكت سيده.

على حين أن زوجته الثانية دأبت على خدمته في الخفاء، فكانت هي

التي تواسيه وتدخل الراحة إلى قلبه. وعندما كان يعود منهكاً منحرف المزاج من ضياعه المكدودات، كانت تحرص على أن يجد الشاي ساخناً في إبريقه، أو أن يجد في انتظاره بطيخة مثلجة في البئر إذا كانوا في فصل الصيف. وكانت تجلس إلى جواره، وتروح له في أثناء تناوله الطعام، وتأتي له بالماء ليغسل قدميه، كما تحضر له جورباً وحذاء جديدين. وكان هو بدوره يصب في أذنها كل آلامه وأحقادها، وأهمها شكواه من مستأجري أرضه، فاعتاد أن يسرد عليها كل قصصه المريرة معهم ويقول لها:

«أجل، لقد حدث اليوم أن أم المستأجر بالناحية الغربية، تلك المرأة الشمطاء ذات الأسنان المحطمة، سكبت بعض الماء في سلة الغلال بينما كان الخولي يزنها. يا له من أحمق! أو لعله وغد لئيم يدفعون له الثمن ليغمض عينيه، ولكنني رأيت بعيني رأس كيف قفزت كفة الميزان!«.

فكانت ترد عليه مهدئة من روعه: «لست أعتقد أنهم يخدعونك كثيراً، فأنت ماهر أريب، بل إنك أبرع وأحكم رجل عرفته في حياتي».

كذلك كان يصب في أذنها شعوره بالمرارة من ابنه المتمرد، فكانت في هذه أيضاً تهدئ من ثأرته. لذلك فإنه الآن وهو سائر في الطريق أضمر في نفسه أن يذكر لها كيف عنفته زوجته في قسوة، وراح يتمعن في عذوبة ردها عليه، وكيف أنها ستقول له كما قالت مراراً:

«أنت خير الرجال في نظري، ولست أطمع فيمن هو أفضل منك. بالله عليّ إن سيدتي لا تعرف طبيعة صنف الرجال، ولا تدرك أنك أفضلهم جميعاً!» أجل، فإن وانج المالك تحت وطأة ضيقه بزوجه

وابنه، وتحت وطأة المتاعب التي تجلبها له قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها ولا يجروء على بيعها كلية، كان يتعلق كالطفل بزوجته الثانية، ويفكر في قرارة نفسه أنها المرأة الوحيدة التي بعثت في قلبه الراحة من بين جميع النساء اللاتي سعى وراءهن في حياته، ويقول لنفسه عن حق: «إنها الإنسان الوحيد الذي يفهمني على حقيقتي من بين كل من أعولهم في بيتي!».

وفي ذلك اليوم كان قلبه يفيض بالمرارة نحو ابنه بصفة خاصة لأنه قد أضاف عبئًا جديدًا إلى الأعباء التي تثقل كاهل أبيه.

وبينما كان وانج المالك يسير في الطرقات يومئذ وهو مستغرق في هذه الخواطر، كان ابنه في طريقه إلى بيت أحد الأصدقاء، حيث تصادف بطريقة في غاية الغرابة أن قابل الفتاة التي يمكن أن تحوز إعجابه.

كان هذا الصديق الذي يسعى إليه الشاب هو ابن رئيس الشرطة في تلك المدينة، وقد دأب على أن يلعب معه الميسر مفضلاً إياه على جميع أصدقائه الآخرين، ذلك لأن المقامرة كانت مخالفة للقانون الجديد الذي صدر بمنع الميسر، وكان في إمكان ابن رئيس الشرطة أن يفلت من العقاب ومعه أصدقاؤه إذا نشأت بعض المتاعب، حيث إن أباه رجل له مكانته في المدينة. وفي ذلك اليوم خطر لابن وانج المالك أن يلعب الميسر حيناً ليزيح الغضب عن قلبه ويسري عن نفسه عناء المتاعب التي يسببها له أبواه، ومن ثم توجه إلى بيت صديقه.

وعندما فتح الباب، أعلن اسمه للخادم، ثم جلس ينتظر في قاعة الاستقبال، وهو يمعن في التأمل، وقد ضاق ذرعاً بكل متاعبه. وإذا بأحد

الأبواب الداخلية يفتح على حين غرة، وتدلف منه شابة فاتنة بمفردها، ولو أنها كانت فتاة عادية كسائر الفتيات ورأت شاباً جالساً هناك بمفرده لغطت وجهها بكمها واستدارت راجعة من حيث جاءت بكل ما وسعها من سرعة. ولكنها لم تفعل، بل نظرت بكل هدوء إلى ابن وانج المالك. سددت إليه نظرة بطيئة ملء عينيها، ولكن في غير دلال، ودون أن يساورها الخجل على الإطلاق، حتى إن الشاب كان هو الذي خفض بصره أولاً عندما صافحت عينية هذه النظرة الهادئة المباشرة. وقد تبين من سمتها -كما هو باد لكل ذي عينين- أنها على كل جرأتها فتاة محترمة فاضلة، وأنها من بنات العصر الحديث. فقد كان شعرها الأسود قصيراً حول رأسها، ولم تكن قدماها مقيدتين، كما كانت ترتدي رداء طويلاً منبسطاً كالذي ترتديه الفتيات العصريات، وكان الرداء من حرير ناعم في لون زغب أفراخ الإوز، إذ كان عندئذ أواخر الربيع.

والحقيقة أن ابن وانج المالك، على كل أحاديثه المتعالية المتعاضمة، لم تتح له سوى فرص ضئيلة جداً لمقابلة هذا النوع من الفتيات الذي كان يرغب في الزواج منه. ذلك لأن الأيام التي لم يكن يقضيها في المقامرة أو القصف أو اللهو هنا أو هناك، كان يقضيها في قراءة قصص الحب والغرام، ولم يكن يميل إلى قراءة الروايات القديمة، بل كان أشد ما يكون شغفاً بقراءة القصص الحديثة التي تتحدث عن حرية الحب بين الرجل والمرأة، وكان يحلم دائماً بالفتيات اللاتي ينحدرن من أصل طيب، ولسن من أهل الخلاعة والفجور، ومع ذلك لا يعتريهن الخجل والهيبة أمام الرجال، بل يسلكن مسلك الرجال مع الرجال، مع احتفاظهن بأنوثتهن.

كان ينشد فتاة من هذا النوع، على أنه لم يتعرف على إحداهن، لأن مثل هذه الحرية كانت توجد على صفحات الكتب أكثر من وجودها في عالم الحقيقة. أما الآن، فقد تراءى له أن هذه هي حقًا الفتاة التي ينشدها، فما إن رأى نظرتها الجسور الهادئة حتى استعر لهيب الحب في قلبه، إذ إن قلبه المفتوح كان أشبه بالنار المعدة للاشتعال، وفي انتظار الشعلة التي توقدها، فيستعر لهيبها.

في تلك اللحظة الخاطفة أحب هذه الفتاة حبًا عارمًا حتى لقد طغى عليه الذهول. ومع أنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة ومضت الفتاة في طريقها، إلا أنه ظل يجلس ذاهلاً في مكانه. وما كاد صديقه يدلف إلى القاعة حتى سأله لاهثًا، وقد جف لعابه، وقلبه يخفق خفقًا عنيفًا، وكأنه يكاد ينفجر بين حنايا صدره:

«من تكون السيدة التي مرت الآن؟».

فقال صديقه في غير احتفال:

«إنها شقيقتي التي تدرس في مدرسة أجنبية بإحدى المدن الساحلية، وقد عادت إلى البيت لقضاء عطلة الربيع».

فلم يتمالك ابن وانج المالك أن يمضي في السؤال عنها وهو يتلعثم قائلاً:

«أليست متزوجة إذن؟».

فضحك أخوها وقال: «كلا، إنها أشد الفتيات عنادًا، فهي دائمة العراك مع والدي بهذا الصدد، لأنها تأبى قبول أي رجل يختارونه لها!».

لم يكد ابن وانج المالك يسمع هذا القول حتى أحس وكأن كاسًا من الخمر قد رفعت إلى شفتيه الظامئتين، فلم يتفوه بكلمة أخرى ومضى للمقامرة. غير أنه ظل شارد الفكر في أثناء اللعب لأنه أحس بأن لهيب الحب يلتهم شغاف قلبه، وأن النار تتقد في أعماقه. ولم يلبث أن استأذن من صديقه وأسرع إلى بيته ثم اتجه إلى حجرته الخاصة حيث أغلق بابها عليه. هنالك وهو جالس بمفرده استولى عليه شعور بأن جميع الروابط تشده إلى هذه الفتاة، وراح يتمتم بينه وبين نفسه بأنه من العار أن تقاسي هذا أيضًا مثله من أبويها، وقال لنفسه إنه لن يصل إليها إلا بالأساليب المتحررة التي يعمد إليها الرجال والنساء في هذه الأزمنة التي تسودها الحرية. كلا، لن يتدخل أحد بينهما، لا أبأؤهما ولا حتى أخوها الذي كان صديقه. وفي عجلة محمومة أخرج الكتب التي قرأها وشرع في دراستها ليتبين نوع الخطابات التي يدبجها أبطال الحب لمحجوباتهم المتحررات المنطلقات، ثم كتب لها خطابًا على نفس النمط.

أجل، لقد كتب خطابًا لتلك الفتاة، ووقع عليه باسمه. استهله بكل العبارات المهذبة اللائقة، ولكنه ذكر لها أيضًا أن روحه متحررة من القيود، وأنه قد تبين تحرر روحها مثله، لذلك أصبحت في نظره بمثابة ضوء الشمس ولون زهرة الفاونيا وأنغام الناي ذاتها، فقد اختطف قلبه من صدره في لمح البصر. وبعد أن دبج هذا الخطاب، بعث به إليها مع خادمه الخاص، وظل ينتظر في البيت كالمحموم، حتى إن أبويه حارًا ما الذي ألم به. ولما عاد الخادم أدراجه قائلاً إنه سيتلقى الرد فيما بعد، لم يسع الشاب إلا أن ينتظر على مضض، على أنه ضاق ذرعًا بهذا الانتظار،

وكره أهل بيته جميعاً، فراح يصفع إخوته وأخواته الصغار دون رحمة إذا اقتربوا منه، ودأب على التذمر والشكوى من الخدم، حتى إن محظية أبيه الرقيقة السمحة صاحت به ذات مرة: «إنك تسلك مسلك الكلاب المسعورة!» وجذبت أطفالها بعيداً عن متناول يده.

ولكن بعد ثلاثة أيام أقبل رسول يحمل رد الفتاة، فاخطفه منه الشاب، الذي كان قد أمضى أيامه متسكعاً أمام البوابة في انتظاره، ثم انطلق مسرعاً إلى حجرته، وبلغ من شدة عجلته في فض الغلاف أن الخطاب تمزق منه. فوضع القطعتين الممزقتين معاً، وتمكن من تفسير كلماته. لقد أجادت الفتاة التعبير بريشتها في جرأة وكياسة، فبعد أن خطت بعض عبارات المجاملة، ثم بضع كلمات في تبرير جرأتها، قالت له: «إن روعي متحررة مثلك، ولن أقبل أن يُكرهني أبوي على شيء ما».

هكذا عبرت في أسلوب رقيق عن إثارها إياه، فكاد الشاب يجن من الفرح.

وعلى هذا النحو بدأت قصة الحب، على أن الاثنين لم يقنعا بالخطابات العديدة التي تبادلها، بل كان لابد أن يلتقيا بطريقة أو بأخرى، فتم اللقاء بينهما بالفعل مرة أو مرتين عند البوابة الجانبية لبيت الفتاة. وقد استولى عليهما الخوف، غير أن أحداً منهما لم يرغب في إظهار خوفه للآخر. وفي حمى هذه المقابلات الخاطفة، والخطابات العديدة المتبادلة جيئةً وذهاباً، ودفع الرشوة للخدم، وإخفاء الأسماء في الخطابات، كان لهيب الحب يزداد ضراماً يوماً بعد يوم. وما دام لم يسبق لرجل أو فتاة الاستغناء عن مأرب ما يتلفهان للحصول عليه، كذلك لم

يكن هذان الحبيبان قادرين على الانتظار الآن. وفي اللقاء الثالث بينهما قال لها الشاب في حرارة ملتهبة:

«لا يمكنني الانتظار، ولا بد أن أتزوجك، لذلك سوف أتحدث إلى أبي في الأمر».

فأجابه الفتاة في إصرار شديد: «وأنا أيضًا سأخبر أبي بأني سوف أتجرع السم إن لم أتزوجك».

وهكذا أخبر كل منهما أبويه. وعلى حين كان وانج المالك في غاية السعادة لأن ابنه قد صادف هواه في فتاة من هذا البيت الكبير، فعكف في التو على ترتيب إجراءات الزواج، نجد أن والد الفتاة قد ركب مركب العناد، وأبى أن يقبل هذا الشاب زوجًا لابنته. كلا، فقد كان من عمله كرئيس للشرطة أن يطلق عيونه في كل مكان، ومن ثم كان يعرف عن هذا الشاب أشياء لا يعرفها غيره، فصاح بابنته قائلاً:

«عجبًا، أتزوجين هذا المتأنق العاقل الذي يمضي وقته متسكعًا في شتى دور المتعة؟».

وأصدر أوامره إلى خدمه بأن تغلق الأبواب على ابنته في جناحها الخاص حتى تعود إلى مدرستها. وحينما دخلت عليه الفتاة مندفة في ثورة عارمة لتتحدث معه وتتوسل إليه أن يوافق على الزواج، أبى أن يعيرها أي اهتمام على الإطلاق. فلقد كان رجلًا يتسم بالهدوء الشديد، وبينما كانت هي تدلل على رأيها راح هو يقرأ كتابًا ويدندن ببعض الأنغام، وعندما طغى عليها الغضب وتفهت بألفاظ لا يليق بفتاة أن تتفوه بها،

تحول إليها مهاجمًا وقال:

«لقد كنت أدرك دائمًا أن من الجدير بي أن أبقى في هذا البيت ولا أبعث بك إلى المدرسة. إن التعليم في المدارس هو الذي يفسد الفتيات في هذه الأيام. ولو أنني ملكت الرجوع في الأمر من بدايته، لاحتفظت بك في البيت مهذبة جاهلة مثل أمك، ولزوجتك من رجل فاضل في سن مبكرة. أجل، ولسوف أفعل هذا الآن!» وقد زار فيها على حين غرة حتى إنها تلعثمت وداخلها الخوف منه.

حينئذ أخذ هذان الشابان يتبادلان خطابات يائسة في غاية الروعة، وأصاب الخدم ثراء من الرشوة، وهم يهرعون جيئة وذهابًا بين البيتين، على أن الشاب كان يذوي من الأسى في بيته، ولم يعد يخرج للهو أو المقامرة كسابق عهده، ورأى والداه ما أصابه من ذبول، فحارًا ماذا يفعلان في أمره!

وأرسل وانج المالك رشوة في الخفاء -بطريقة ملتوية- إلى رئيس الشرطة. على أن هذا الرجل، وإن كان مستعدًا لقبول الرشوة في العادة، إلا أنه لم يكن مستعدًا لقبولها هذه المرة، ومن ثم، فقد فقدوا الأمل، ودهمهم اليأس جميعًا. أما الشاب فقد عزف عن الطعام وراح يتحدث عن شنق نفسه، فتشنت فكر وانج المالك تمامًا من جرائه.

وذاوات أمسية بينما الشاب يتمشى بمقربة من خلفية البيت الذي تعيش فيه حبيبته، إذا به يرى بوابة النجاة الصغيرة تنفرج وتتسلل منها الخادمة التي تحمل إليه خطابات الفتاة، ثم أومأت إليه أن يأتي إلى البيت. فتقدم في هيئة واضطراب. ولكنه كان مدفوعًا بنداء قلبه. وعندما بلغه، رأى

حبيبته تقف هناك في الفناء الصغير إلى جوار البوابة، وقد ظهرت عليها
علائم العناد والإصرار الشديد، وهي مفعمة بالخطط. على أنهما الآن
وقد وقفا وجهًا لوجه لم تواتهما الكلمات في سهولة ويسر، كما تناسب
العبارات على الورق. والحقيقة أن الشاب كان خائفًا أشد الخوف لثلا
يكتشف أمر وجوده في هذا المكان الذي يجب ألا يوجد فيه بأي حال
من الأحوال. أما الفتاة، فكانت صلبة الرأي عنيدة، وبحكم ثقافتها كانت
مصرّة على تحقيق رغبتها، فقالت له:

«سوف لا أعبأ بأولئك العجائز. فلنهرب معًا إلى مكان ما، وعندما
يكتشفون أمر هروبنا سيسمحون لنا بالزواج درءًا للعار. إنني أعلم أن أبي
يحبني؛ لأنني ابنته الوحيدة وأمي ميتة، كما أنك أكبر أبناء أبيك».

ولكن قبل أن يتمكن الشاب من أن يباريها في تحمسها، ظهر رئيس
الشرطة على حين غرة عند باب البيت المفضي إلى الفناء، ذلك أن أحد
الخدم كان يحقد على وصيفة الفتاة، فوشى بها انتقامًا منها، وصاح رئيس
الشرطة في أتباعه:

«أوثقوه وألقوا به في السجن لأنه قد سلب شرف ابنتي!».

وكان من نكد الطالع بالنسبة إلى الشاب أن يكون والد حبيبته رئيسًا
للشرطة ويملك أن يلقي بأي شخص في السجن كما يروق له، لأن أي رجل
آخر ما كان ليملك هذه السلطة، وكان لا بد له أن يدفع رشوة من المال كي
يزج بالشاب في السجن. على حين أنه بكلمة من رئيس الشرطة جر أتباعه
الشاب خارجًا، فأخذت الفتاة تصرخ وتعلق بذراعه، وهي تصيح قائلة
إنها لن تتزوج غيره، وإنها ستبتلع خواتمها لتقضي على حياتها.

بيد أن أباه، ذلك الرجل العجوز الهادئ، التفت إلى الخادمت
وقال:

«انتبهن لها جيداً. أما إذا تُركت بمفردها وحدث أنها نفذت ما تقوله،
فسوف أُلقي بكن في السجن على اعتباركن المسؤولات عن موتها».

ثم انصرف وكأنه لا يسمع صوت أناتها أو صرخاتها. ولم تجرؤ
الخادمت على تركها بمفردها خوفاً على أنفسهن، فلم يسع الفتاة إلا أن
تستمر في الحياة.

أما رئيس الشرطة، فقد بعث برسالة إلى وانج المالك ينبئه فيها بأن
ابنه في السجن لأنه حاول الاعتداء على شرف ابنته، وبعد أن بعث بهذه
الرسالة جلس ينتظر الرد في قاعته، عندئذ أصبح أهل بيت الشاب في أشد
حالات الحيرة والاضطراب، وتششت فكر وانج المالك تماماً، لم يدر ماذا
هو فاعل. وعلى الفور جمع كل ما كان معه من الفضة وأرسل رشوة طيبة
إلى رئيس الشرطة. ثم جاهد لارتداء أبهى حلله، وذهب بنفسه إليه ليقدم
اعتذاره. بيد أن ذلك الرجل لم يكن راغباً في تسوية الأمر بهذه السهولة،
لذلك بعث برسالة إلى حارس البوابة يقول فيها إنه متوَعك من شدة القلق
والانزعاج، ولا يستطيع مقابلة أحد. وعندما حُملت إليه الرشوة أعادها
ثانية قائلاً إن وانج المالك قد أساء فهم أخلاقه؛ لأنه ليس الرجل الذي
يمكن إغراؤه بهذه الوسيلة.

فعاد وانج المالك إلى بيته وهو يئن من الألم، فقد أدرك أن الرشوة
كانت أقل مما ينبغي، وأنه يجب أن يطلب العون من أخيه، لأن الفضة
كانت شحيحة جداً معه في تلك الآونة، إذ جاءت هذه الأزمة قبل حصاد

القمح مباشرة. فضلاً عن شقائه لأن ابنه ملقى في السجن، ولا بد أن يرسل له الطعام والفراش حتى لا يقاسي العذاب هناك. وبعد أن بعث إليه بهذه المطالب في سجنه، وأرسل في طلب أخيه وانج التاجر، جلس ينتظر في حجرته الخاصة. أما زوجته، فقد نسيت كل مقتضيات العرف ودخلت في غمرة حزنها إلى حجرته حيث كان جالساً يعتمد رأسه على يديه، وأخذت تشهد هذا الإله وذاك على كل الآلام التي تكابدها في هذا البيت.

وبالرغم من كل صيحاتها وتعنيفها له، فإنه هذه المرة ظل جالساً دون أن تتحرك فيه مشاعر الخوف منها، إذ إن الخوف قد نال منه في الأعماق، لأن ابنه تحت رحمة رئيس الشرطة. أما أخوه وانج التاجر، فقد دخل عليه رابط الجأش على وجهه طابع الهدوء والملق وكأنه يجهل الخطب، مع أن القصة كانت تطير إلى كل مكان بسرعة البرق. ولما كانت قصة مثيرة بذئثة، فقد سمع بها الخدم جميعاً، وسمعت بها زوجة التاجر، وروت له كل شيء، بل وأكثر من كل شيء، وظلت تردد المرة تلو المرة وهي في قمة المتعة:

«كنت أعلم جيداً أن أبناء تلك المرأة لا يمكن أن يأتوا خيراً، فأبوهم أيضاً على هذه الحال من الاستسلام لشهواته».

أما الآن، فقد جلس وانج التاجر ينصت إلى القصة كما رواها والدا الشاب، وقد حاولا بطبيعة الحال أن يهونا من جريمته إلى أبعد حد. في حين اتخذ وانج التاجر طابع القضاة، وتظاهر أنه يسلم جداً ببراءة الشاب، وأنه إنما يفكر فقط في وسيلة مأكرة لإطلاق سراحه. على أنه كان يدرك حق الإدراك أن أخاه الأكبر يريد أن يقترض منه مبلغاً جسيماً

من المال، فأخذ يفكر تفكيراً عميقاً في وسيلة يتفادى بها هذا القرض. ولم يلبث أن قال بعد أن تمت رواية القصة، وكانت السيدة تذرف الدمع مدراراً في نهايتها:

«حقيقة إن الفضة لها فائدة جمة عند التعامل مع الموظفين في أي مكان، غير أن هناك شيئاً واحداً أفضل منها، ألا وهو قوة السلاح. فقبل أن ننفق كل ما نملك من مال، دعنا نلتمس من أخينا -وهو الآن قائد رفيع الشأن- أن يبذل جهده ويستخدم نفوذه في بلاط المقاطعة، كي يحصل على مرسوم تصدره الهيئات العليا إلى حاكم مدينتنا هنا، فيأمر رئيس الشرطة بإطلاق سراح ابنك. وعندئذ يمكننا أن نستغل شيئاً من الفضة هنا وهناك، فتساعد على تحقيق الغاية».

فترأى لهم جميعاً أنها فكرة سديدة مدهشة، وعجب وانج المالك أنها لم تخطر بباله من قبل، وفي نفس ذلك اليوم، وفي نفس تلك الساعة بعث برسوله إلى وانج النمر، وهكذا بلغت القصة.

وفضلاً عن أن الواجب كان يقتضي من وانج النمر مساعدة أخويه، فقد رأى أيضاً أنها فرصة رائعة لاختبار مدة قوته ونفوذه. ومن ثم دبج خطاباً مناسباً في لهجة متواضعة إلى جنرال المقاطعة، وأعد له الهدايا، ثم أرسلها إليه مع تابعه الأمين يرافقه أحد الحراس حرصاً على سلامتها من خطر اللصوص. وعندما تسلم ذلك الجنرال الهدايا وقرأ الخطاب، أخذ ينعم الفكر هنيهة، فترأى له أنها وسيلة نافعة يشد بها وانج النمر إليه في حالة الحرب، ذلك أنه إذا أسدى هذا الجميل، فسوف يشعر أنه مدين له. كما بدا له أنها أيضاً وسيلة لا تكلفه الكثير للحصول على تأييده

بإطلاق سراح شاب من السجن، ولم يعبأ مثقال ذرة بموظف صغير الشأن كرئيس الشرطة في إحدى المدن. وعلى ذلك أرسل لوانج النمر الوعد الذي طلبه، ثم تحدث إلى حاكم تلك المقاطعة في الأمر، فأصدر الحاكم مرسومًا إلى حاكم الإقليم الذي أصدر بدوره مرسومًا إلى حاكم المدينة التي يقطنها آل وانج.

عندئذ أظهر وانج التاجر من ضروب المهارة والدهاء ما تفوق به على نفسه في أي وقت مضى، فتتبع كل خطوة في الموضوع بدفع كميات كافية من الفضة حتى يشعر كل رجل تناول المسألة أنه قد حصل على مكافأته، ولكنه رغم ذلك لم يغال في الدفع إلى الحد الذي قد يوقظ روح الجشع في نفس أحدهم، فيحاول أن يستشف مصدر هذا المال الوفير. ولم يلبث رئيس الشرطة أن تسلم بدوره الأمر بالإفراج عن الشاب. وقد حرص وانج التاجر ووانج المالك أشد الحرص على ترقب تلك اللحظة التي يصل فيها الأمر، لإدراكهما أن الرجل لن يتحمل أن يلحق به الخزي أمام الناس، لذلك، فحينما علما أنه قد تسلم الأمر، ذهبا وقدمًا له رشوة طيبة مع كثير من الاعتذارات، وتوسلا إليه أن يطلق سراح الشاب إكرامًا لهما، متظاهرين بأنهما لا يعلمان شيئًا عما صدر من السلطات العليا. كلا، بل قدما له انحناءات الطاعة والاحترام، وناشدها الرحمة على أنه رجل الرحمة، وأخيرًا قبل النقود في تعاظم وبغير اكتراث كمن يمتن عليهما بفضلها. ولم يلبث أن أمر بإطلاق سراح الشاب، ثم وجه إليه اللوم والتقريع وردّه إلى بيته.

عندئذ أقام الشقيقان وليمة فاخرة تكريمًا لرئيس الشرطة، وعلى هذا

النحو انتهت المشكلة، فقد استعاد الشاب حريته، على أن حبه فتر بعض الشيء بعد أن ذاق مرارة السجن.

أما تلك الفتاة، فقد ازدادت عنادًا عنها في أي وقت مضى، وعادت تثير ضجة لأبيها من جديد. وكان أبوها أكثر استعدادًا لقبول الفكرة هذه المرة، بعد أن أدرك مدى نفوذ أسرة وانج، وعرف أن أحد الإخوة الثلاثة من ملوك الحرب العتاة، وأن وانج التاجر يمتلك أموالًا طائلة. ومن ثم أرسل وسيطًا إلى وانج المالك يقول له:

«دعنا نزوج هذين الشابين وندعم أواصر صداقتنا الجديدة».

ومن ثم وضع الأمر موضع التنفيذ، وعقدت الخطبة، وتم الزفاف في أول يوم وقعوا عليه ينيى بحسن الطالع من بعد، فغمرت السعادة والراحة قلبي وانج المالك وزوجته. أما العريس، فرغم أنه كان ذاهلاً شيئاً ما لهذا التحول المفاجئ، فقد أحس ببعض حماسه القديمة تعود إلى قلبه، فكان راضياً كل الرضا، كما أن الفتاة أفعمتها نشوة النصر.

أما بالنسبة إلى وانج النمر، فلم يكن الأمر برمته ذا أهمية عظيمة إلا من هذه الناحية: إنه عرف قدر نفسه كرجل من ذوي النفوذ في تلك المقاطعة، كما أدرك أن الجنرال يعتبره واحداً من ملوك الحرب الذين يرغب في الاستئثار بتأييدهم له، فتضخم قلبه زهوًا. وعندما انتهت هذه المسألة، كان فصل الربيع قد تحول إلى بشائر الصيف، فقال لنفسه إنه ما دام قد انشغل إلى هذا الحد وفات الأوان في ذلك العام، فمن الأفضل أن يرجئ مشروع الحرب التي عقد عليها العزم إلى العام التالي. ومما هون عليه أمر تأجيل الحرب أنه قد أصبح واثقاً من مكانته، وهونه عليه

أكثر أن جواسيسه بدأوا يعودون إليه في بداية ذلك الصيف قائلين إنه قد ترامت الشائعات عن اندلاع حرب ما بعيداً في الجنوب، غير أنهم لم يعرفوا بعد طبيعة هذه الحرب أو ما اسم قائدها. وعندما سمع وانج النمر هذه الأنباء، أدرك تمامًا قيمة جيشه بالنسبة إلى جنرال المقاطعة، وأدرك كذلك السر في سعي الجنرال للاحتفاظ بتأييده له. ومن ثم ظل ينتظر مقدم الربيع التالي ليرى ماذا سيتمخض عنه.

وراح يقضي أيامه مع ابنه كدأبه دومًا. كان الصبي يقبل على واجباته ويتحول عنها في جد ووقار، بينما كانت متعة أبيه أن يرقبه بطريقته الصامتة.

وكثيرًا ما كان يتفرس في ابنه، ويحب أن يطيل النظر إلى وجهه الذي يجمع بين طابع الطفولة والشباب، وفي عديد من المرات، عندما كان يتفحص وجه ابنه وهو منكب على كتاب أو عمل ما، كانت تستولي على انتباهه بعض الملامح المألوفة الغريبة في وجنتي الصبي العريضتين العاليتين، أو في فمه الصارم. إذ لم يكن فمه جميلًا، بل كان في غاية الصرامة والثبات، بحيث لا يتلاءم مع سن هذا الغلام الصغير.

وخطر له ذات ليلة أن ابنه قد أخذ ملامحه عن جدته، أم وانج النمر. أجل، لقد تبين أنها نفس ملامح أمه، وإن كان لا يذكر لها صورة واضحة في مخيلته إلا وهي على فراش الموت، في حين أن وجه الصبي المتورد كان يختلف تمام الاختلاف عن وجهها الشاحب المحتضر. ولكن أعمق من أي صورة واضحة تمثلت في ذاكرته كان ذلك الشعور الذي حدثه بأن

ابنه يتحرك بنفس طريقة أمه البطيئة الصامته، وأن طابع الوقار الذي كانت تتسم به يبدو الآن على شفطي ابنه ويلوح في عينيه. وعندما أحس وانج النمر بهذا الشيء المألوف المبهم في سمات ابنه، ازدادت مشاعر قلبه دفئاً، وازداد حباً لابنه عمقاً على عمقه، بل ولسبب ما لم يدرك كنهه شعر أنه قد ارتبط به برباط أوثق من ذي قبل.



كان ابن وانج النمر صبيًا من ذلك الطراز الذي يخلص في أداء كل واجب يناط به ويقوم بكل ما يكلف به من أعمال. وقد تمرس على تأدية فنون الحرب وإتقان الأوضاع التي يرسمها له مدرّبوه، كما أصبح فارسًا ماهرًا إلى حد بعيد، إن لم يكن قد بلغ حد المهارة التي بلغها وانج النمر. ولكن الصبي كان يقوم بكل هذه الأعمال وكأنه لا يجد متعة في أي منها، بل وكأنه يرغم نفسه على أداء كل شيء كمهمة ملقاة على عاتقه. وحينما سأل وانج النمر المدرّب عن حال ابنه، أجابه في تردد:

«لا أستطيع القول بأنه لا يحسن عملًا، لأنه يحسن أداء كل شيء إلى حد معين، وينفذ ما يؤمر به بحذافيره، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من هذا الحد مطلقًا، وكأنني به لا يضع عصارة قلبه فيما يعمل».

أثارت هذه الإجابة كثيرًا من الضيق في نفس وانج النمر، فقد تراءى له من قبل أن ابنه لا يقوى على الثورة العاتية، فهو لا يغضب أبدًا، ولا يعزف عن شيء، أو يرغب في شيء. كل ما هنالك أنه ينصرف إلى أداء ما يسند إليه من أعمال في جد وأناة. وكان وانج النمر يدرك أن هذه ليست

شيمة المحارب. كلا، فالمحارب يجب أن يكون ذا روح عالية، غضوبًا، صلب الرأي، سريع الانفعال. لذلك خامره شعور بالأسى، وساءل نفسه كيف يتسنى له أن يغير من طبيعة ابنه.

وذاث يوم كان يجلس في الفناء على مقربة من الصبي، يرقبه وهو يصوب مسدسه نحو هدف من الأهداف بناء على توجيهات مدربه. ورغم أن الصبي كان يقف في هدوء، ويرفع ساعده بسرعة، دون أن يتردد في الضغط على الزناد حين تصدر إليه الإشارة بذلك، فقد بدا لوانج النمر أن ابنه يتحامل على نفسه، وأن النظرة التي تلوح على وجهه الأملس توحى بأنه يأخذ نفسه بالشدة حتى يستطيع أداء الواجب المفروض عليه، مع أنه يملكه أشد المقت. حيثنذ ناداه وقال له:

«يا بني، فلتضع عصارة قلبك فيما تعمله، إذا كنت تريد أن تدخل السرور على نفسي!».

فنظر الصبي بسرعة إلى والده، والمسدس لا يزال في يده يتصاعد الدخان من فوهته، وتسلفت نظرة غريبة إلى عينيه، ثم انفجرت شفتاه وكأنه يهم بالكلام. ولكن وانج النمر كان جالسًا هناك، لا يمكن لوجهه أن يحمل طابع الرقة حتى ولو أراد له ذلك، فحاجباه كثيفان أسودان، وفمه الغائر في لحيته السوداء الخشنة يحمل سيماء العبوس والجفاء حتى ولو لم يرد له أن يبدو كذلك. فعاد الصبي يشيح بوجهه عنه، وتنهد قليلًا ثم قال بطريقته المتأنية:

«سمعاً وطاعة يا أبتاه».

فنظر وانج النمر إلى ولده وقد استولى عليه ألم مبهم، لأنه كان رقيق القلب رغم نظراته القاسية الجامدة، غير أنه لم يكن يعرف كيف يعبر عن خلجات قلبه. ولم يلبث أن تنهد ومضى يراقب ابنه في صمت حتى انتهى الدرس. عندئذ تطلع إليه الصبي في تردد وارتياب قائلاً:

«هل لي أن أنصرف الآن يا أبتاه؟».

فخطر في بال وانج النمر أن ولده هذا كثيرًا ما كان يذهب بمفرده إلى مكان ما ويتسلل بعيدًا دون أن يعلم وجهته، وإن كان يعلم يقينًا أن الحارس الذي عينه لملازمته يتبعه حيثما ذهب ما في ذلك من شك. غير أنه نظر إلى ولده في ذلك اليوم، وهو يسائل نفسه: هل يذهب الصبي إلى أماكن لا يجدر به أن يغشاها؟ وتراءى له أن ابنه لم يعد طفلًا، ثم انتابه شعور مفاجئ بالغيرة عليه، فسأله محاولاً جهده أن يضفي على صوته طابع الرقة:

«ولكن أين تذهب يا ولدي؟».

فتردد الغلام وطأطأ رأسه، ثم قال آخر الأمر في شيء من الوجل: «إنني لا أذهب إلى مكان معين يا أبتى، ولكني أحب أن أذهب خارج أسوار المدينة وأتنزه بين المزارع برهة من الزمن».

ولو كان الصبي قد قال إنه يتردد على مكان من أماكن الدعارة لما بهت وانج النمر إلى هذه الدرجة، فقال مذهولاً:

«وماذا يمكن أن يكون هناك مما يصلح لجندي أن يراه؟».

فظل الغلام يغض من بصره وهو يعبث بأصابعه في حزامه الجلدي

الصغير، ولم يلبث أن قال في صوت خفيض، بطريقته المتأنية المعهودة:
«لا شيء». ولكن مما يبعث الطمأنينة والسرور في نفسي أن أرى
أشجار الفاكهة وقد تفتحت أزهارها، كما أنني أحب أن أتحدث إلى
بعض الفلاحين من حينٍ لآخر، وأستمع إلى الطريقة التي يزرعون بها
أرضهم».

إذ ذاك استبدت الدهشة بوانح النمر، ولم يدر ماذا هو فاعل مع ولده
هذا، فغمغم بينه وبين نفسه بأنه أمام ابن غريب بالنسبة لملك من ملوك
الحرب كان يكره منذ حدائته تلك الأساليب التي ينتهجها الفلاحون في
زراعة أرضهم، فصاح فجأة في غضب تجاوز الحد الذي كان يرمي إليه،
إذ إنه شعر على نحو ما بخيبة أمل لم يدرك لها سبباً:

«افعل ما يحلو لك إذن، فما شأني بما تفعله؟».

وظل جالساً في كدر فترة من الزمن، لأن ولده قد أفلت منه وانطلق
بعيداً في سرعة خاطفة، وكأنه عصفور أُطلق من إساره.

ظل جالساً يمعن في التأمل وقد تملكه الألم، وإن خفي عليه سر ذلك
الأسى الذي يحز في قلبه إلى هذه الدرجة. وشعر أخيراً بالضجر، فشد من
عزمه بعض الشيء، وقال لنفسه إنه يجب أن يرضى عن هذا الابن، فهو
ليس بالغلام الخليع، فضلاً عن أنه يصدع للأوامر التي تصدر إليه. وهكذا
عاد، فنحى الأمر من ذهنه مرة أخرى.

تواترت خلال هذه السنوات العديدة، شائعات عن سخط عظيم
أوشك أن يأخذ طابع الحرب في بعض الأنحاء، وقد عاد جواسيس

وانج النمر يحملون إليه أنباء تفيد بأن بعض الشبان والشابات في مدارس الجنوب يأخذون أهبتهم للحرب، وأن بعض العامة من الكادحين في الأرض قد هياؤا أنفسهم للحرب أيضًا. وهذه الأمور لم يسبق أن سمع بها أحد في يوم من الأيام، فهذه هي حرفة ملوك الحرب وليس لعامة الشعب أي شأن بها. على أن وانج النمر حينما سأل جواسيسه في دهشة عن السبب الذي من أجله تطاحن هؤلاء الناس، وعن القضية التي يقاتلون في سبيلها، لم يحيروا جوابًا. فقال بينه وبين نفسه إن أحد المدرسين لا بد قد ارتكب خطأ ما في مدرسة أو أخرى، أما في حالة عامة الناس فلا بد أن أحد الحكام قد بلغ من النذالة مبلغًا لم يستطع معه الناس أن يحتملوا مزيدًا من شره، ولذلك ثاروا لكي يقضوا عليه ويضعوا حدًا لما عجزوا عن احتماله.

غير أن وانج النمر لم يشن حربًا من حروبه حتى يتاح له على الأقل أن يتبين طابع الحرب الجديدة، وكيف يستطيع أن يعد نفسه لها. كلا، بل ظل يدخر إيراداته ويبتاع ما يرغب فيه من عتاد الحرب. كما أنه لم يعد بحاجة إلى أن يطلب المعونة من أخيه وانج التاجر، لأنه أصبح يمتلك ميناء خاصًا عند مصب النهر، حيث يستأجر السفن ويهرب الأسلحة الخاصة به من الأقطار الأخرى في سهولة ويسر. ولئن بلغ هذا الأمر مسامع عليّة الحكام فقد كانوا يلتزمون الصمت؛ لأنهم يعلمون أنه قائد موال لهم، وأن كل بندقية يمتلكها ستستخدم لصالحهم في المعركة التي لا بد أن تنشب يومًا ما، حيث إن السلام لا يمكن أن يدوم إلى الأبد في أي بقعة من البقاع. وفي أثناء انتظاره راح يدعم نفسه بهذه الوسائل، حتى شب ولده

وناهز الرابعة عشرة من عمره.

وقد آزره حسن الطالع من نواح عدة طيلة خمسة عشر عامًا ونيف ظل خلالها ملكًا عظيمًا من ملوك الحرب. وأهم ناحية حالفه فيها الحظ هي أنه لم تحدث مجاعة كبيرة شاملة في أقاليمه. حقًا لقد حدثت مجاعات صغيرة في منطقة أو أخرى، إذ ليس من ذلك بد في ظل أقدار قاسية، ولكن لم تحدث مجاعة شاملة في كل أقاليمه مجتمعة. وعندما كان الناس يتضورون جوعًا في إحدى المناطق، لم يكن في حاجة إلى أن يشدد عليهم الوطء، بل كان في إمكانه أن يرفع من قيمة الضرائب التي يفرضها في منطقة أخرى لا يتضور فيها الناس من الجوع، أو في القليل لا يعانون منه بمثل هذه القسوة. وكان يسره أن يسلك هذا المسلك، لأنه رجل يتسم بالعدالة ولا يرضيه أن يسلب ذلك النزر اليسير الذي يمتلكه أناس مشرفون على الموت، كما يفعل بعض ملوك الحرب. وقد شكر له الناس هذا الصنيع وسبّحوا بحمده، وقال الكثيرون في أنحاء أقاليمه:

«لقد رأينا بين ملوك الحرب من هم أسوأ من النمر بكثير، وحيث إنه لا مناص من وجود مثل هؤلاء الملوك، فمن حسن الطالع أن يحكمنا هذا الرجل الذي يفرض علينا الضرائب للإنفاق على جنوده لا أكثر، فهو لا يهوى القصف والنساء وما شابه ذلك، مما يولع به غالبية أضرابه من ملوك الحرب».

والواقع أن وانج النمر كان حريصًا على أن يكون عادلاً في معاملته لعامة الناس ما وسعه العدل. وحتى ذلك الحين لم يكن قد وفد حاكم آخر ليحل محل الحاكم الهرم في ذلك القصر، فرغم أنه قد تم تعيين شخص ما

في هذا المنصب، فإنه عندما سمع عن مدى ضراوة وانج النمر، توانى في المجيء زاعمًا أن أباه قد تقدمت به السن، وأن عليه أن ينتظر حتى يقضي الرجل العجوز نحبه ليواريه التراب قبل مجيئه. ومن ثم دأب وانج النمر على إقامة عدالته في القصر إلى أن يقبل هذا الحاكم الجديد، فكان يستمع إلى قضايا الناس الذين يمثلون بين يديه، وطالما دافع عن كثير من الفقراء في وجه الأثرياء أو المرابين. والحقيقة أن وانج النمر لم يكن بحاجة إلى أن يخشى سطوة أي ثري من الأثرياء، ولم يكن يتردد في أن يزج برجل غني في السجن ما لم يقيم بدفع ما يحكم به عليه، حتى أصبح ملاك الأرض والمرابون ومن على شاكلتهم في تلك المدينة يمتقون من أعماق قلوبهم، ويبدلون قصارى جهدهم لتجنب المثل في قضية أمامه. ولكن وانج النمر لم يكن يأبه قط بكرائتهم له، فهو رجل قوي الجانب، وليس ثمة ما يدعوه إلى أن يخشى شيئًا. فضلًا عن أنه كان يدفع مرتبات جنوده بانتظام ويجزل لهم العطاء، ولئن كان يقسو أحيانًا على الجنود الذين يرتكبون أخطاء جسيمة، فإنه مع ذلك كان يدفع لهم مرتباتهم الشهرية، وهو أمر يعجز عنه كثير من ملوك الحرب الذين يتحتم عليهم الاعتماد على السلب والنهب حتى يضمنوا التفاف أتباعهم حولهم. أما وانج النمر، فلم يكن يضطر للالتجاء إلى الحرب في سبيل إعالة رجاله، بل كان في إمكانه أن يؤجل بعض حروبه إذا ما رغب في ذلك، فقد أصبح الآن مركزه في تلك الأقاليم وطيدًا قويًا بين الأهليين وبين رجاله على حد سواء.

ولكن مهما أحسن الناس في تدعيم أنفسهم، فإن عليهم دائمًا أن يحسبوا حساب الحظ العاثر. وكانت هذه هي الحال مع وانج النمر، ففي

غضون السنة الرابعة عشرة من عمر ولده، حينما كان يعد العدة لإرساله إلى مدرسة الحرب في العام التالي، حدثت مجاعة شديدة في ربوع الأقاليم الخاضعة له، وانتشرت هذه المجاعة من جزء إلى آخر انتشار الوباء الذريع.

حدث أن سقطت أمطار الربيع المعتادة في أوانها، ولكن عندما حان وقت توقفها عن الهطول، لم تتوقف الأمطار، بل استمرت تهطل يومًا بعد يوم، وأُسبوعًا بعد أسبوع، ولم تنقطع حتى في فصل الصيف، لدرجة أن أعواد القمح النامية تهشمت في حقولها وغمرها الماء، وتحولت كل هذه الحقول النضرة إلى برك من الماء المختلط بالطين. أما النهر الصغير الذي لم يكن بطبيعته سوى مجرى مائي هادئ، فقد اندفع يزار ويتدفق هادرًا، حتى اجتاحت ضفتيه وفاض على الجانبين، ثم اندفع نحو السدود التي أقيمت في الداخل وصدع جدرانها، ومن ثم أخذ يجتاح مجراه ويصب كل ما فيه من طمي في البحر، حتى إن المياه الخضراء الصافية استحال لونها إلى لون قاتم لمسافة عدة أميال. أما الناس، فقد عاشوا في منازلهم بادئ الأمر يقيمون مناظدهم وأسرتهم فوق ألواح من الخشب بعيدًا عن الماء. ولكن حينما ارتفعت المياه حتى بلغت سقوف منازلهم، وحينما تهشمت الجدران المبنية من الطين، التجأوا إلى القوارب والبراميل، وتشبثوا بالسدود والروابي التي كانت لا تزال قائمة فوق الماء، أو لجأوا إلى تسلق الأشجار والتعلق بها. ولم يكن الناس وحدهم في هذا المضمار، ولكن الحيوانات الضارية وأفاعي الحقول حذت حذوهم، فقد تسلقت هذه الثعابين الأشجار زرافات وتدلت فوق الأغصان كأعقاد

الزينة، وزايلها شعورها بالخوف من بني الإنسان، فجاءت متسلقة زاحفة لكي تعيش بين ظهرانيهم، حتى إن الرجال لم يعودوا يعلمون أي الخطرين أجل وأعظم: خطر المياه أم خطر الأفاعي الزاحفة؟! وكلما مرت الأيام ولم تهبط المياه، جدّ فزع ثالث هو الفزع من المجاعة.

كانت هذه كارثة أليمة يعز على نفس وانج النمر أن تتحملها، إذ لم يكن له بها سابق عهد. كما أنه كان أسوأ حالاً من كثير من الرجال، لأنه على حين كان هؤلاء لا يعولون إلا أسرهم فحسب، كان هو يعول حشدًا حاشدًا من الجنود الذين يعتمدون عليه، جميعهم من الجهلاء الذين تحضرهم الشكوى، ولا يقنعون إلا إذا أحسن إطعامهم وأجزل لهم العطاء، ولا يظلون على ولائهم إلا إذا أعطاهم ما يعتبرونه حقًا لهم. وفي تلك الآونة لم يعد الدخل يرد إليه كاملاً من هذه المنطقة أو تلك في الأقاليم التي تخضع لسيطرته. وأخيرًا عندما استمرت الأمطار تهطل طوال الصيف، وأتي الخريف دون أن تحصد أي محاصيل من الأرض، إذا به قرب حلول الشتاء في ذلك العام لا يتلقى أي دخل على الإطلاق، اللهم إلا الإيرادات التي يدرها تهريب الأفيون إلى تلك الأنحاء، وحتى ذلك الربح قد انكمش للغاية، إذ لم يعد في قدرة الناس شراء الأفيون، ولهذا نقل المهربون بضائعهم إلى مناطق أخرى بصفة مؤقتة. بل لقد توقف أيضًا تحصيل الإيرادات التي يدرها الملح لأن المياه اكتسحت آبار الملح، كما أن صناع الخزف أقبلوا عن صناعة دنان الخمر، إذ لم تصنع خمور جديدة في ذلك العام.

صار وانج النمر يعاني كربًا شديدًا، فلأول مرة في حياته كملك من

ملوك الحرب وحاكم على كثير من الأقاليم، يعجز في آخر شهور تلك السنة عن دفع مرتبات رجاله. وعندما لمس الكارثة التي حلت به، شعر بأنه يجب أن ينقذ نفسه متوسلاً إلى ذلك بالقوة وحدها، ولم يجرؤ على أن يبدي بادرة من عطف خشية أن يحملها أتباعه على محمل الضعف في نفسه. لذا دعا إليه ضباطه وصاح فيهم، وكأنهم قد ارتكبوا إثماً من الآثام، وكما لو كان يبدي سخطه عليهم:

«لقد أطعتمكم معشر رجالي طيلة هذه الشهور حين كان غيركم يتضور جوعاً، فضلاً عن أنكم كنتم تتقاضون أجوركم. أما الآن، فسوف تتقاضون أجوركم طعاماً فقط، فقد نفدت مني الفضة، ولن يرد الدخل من الأقاليم حتى تنقضي هذه الأيام العصيبة. كلا، بل إنه في غضون شهر أو نحو ذلك، لن تبقى لديّ فضة تكفي حتى لإطعامكم، وسوف يتحتم عليّ حينذاك أن أقترض مبلغاً جسيماً من مكان ما، كيلا تتضوروا جوعاً، وكيلا أتضور أنا وولدي جوعاً معكم».

بينما كان وانج النمر يتحدث إليهم بهذه اللهجة حرص على أن يضفي على وجهه طابع القسوة والشدة، وهو يحملق فيهم بعينيه الغائرتين تحت حاجبيه، ويشد شعر لحيته في غضب، ولكنه كان يختلس النظر ليتبين أثر حديثه في ضباطه، فرأى علائم التمرد على وجوه البعض منهم. وبعد أن انصرفوا في صمت، عاد إليه الرجال الذين يحتفظ بهم دائماً كجواسيس يبتهم من حوله، وقال له أحدهم:

«يقول الضباط إنهم لن يخوضوا غمار حرب من الحروب حتى تدفع حقوقهم».

بعد أن سمع وانج النمر جاسوسه يهمس في أذنه بهذه الكلمات، ظل هنيهة جالسًا في القاعة، وقد خيمت عليه الكآبة، وهو يفكر في نفوس الرجال ومدى جحودهم، ويتأمل كيف أنه أحسن إطعام رجاله كالمتعاد طول هذه الشهور العجاف التي كان الناس فيه يتضورون جوعًا ثم يلقون حتفهم، ومع ذلك، فهؤلاء الرجال لا يكونون له الحب. وكان قد راودته نفسه مرة أو مرتين من قبل في أن يسحب بعض الفضة من ذخيرته الخاصة التي كان يحتفظ بها خشية أن يصبح في ميسس الحاجة إليها إذا ما لحقته الهزيمة واضطر إلى التقهقر في حرب من الحروب، أما الآن، فقد أقسم أن يدع رجاله يتضورون جوعًا ولا يحرم نفسه وولده من هذه الفضة في سبيل أي واحد منهم.

استمرت المجاعة، وظلت المياه تغمر كل مكان في هذه المنطقة، ومات الناس من الجوع. ولما كان من المتعذر العثور على أرض جافة يوارون فيها التراب، فقد ألقيت أجسادهم في الماء حيث ظلت طافية. كما كانت هناك جثث أطفال عديدة، فقد انتاب اليأس بعض الرجال وهم يستمعون إلى الصراخ المتواصل الذي يندّ عن أطفال جياع لا يدركون السر في عدم إعطائهم الطعام، فعمد بعض الآباء في ظلام الليل واليأس إلى إلقاء أطفالهم في الماء. وقد لجأ البعض إلى هذا بدافع الشفقة على أطفالهم، إذ تراءى لهم أنها ميتة أسرع وأخف وطأة من غيرها، على حين لجأ إليها البعض الآخر بسبب قلة المؤونة التي تبقت لديهم من الطعام، وأبوا أن يقتسموها مع كائن من كان. بل إنه إذا بقي فردان من عائلة واحدة على قيد الحياة كان هذان يدبران المكائد بعضهما إلى بعض في الخفاء

حتى يُكتب البقاء للأقوى.

وحينما حل العام الجديد لم يتذكر أحد أنه موسم المهرجانات، ولم يمنح وانج النمر رجاله إلا نصف الكمية المعتادة من الطعام، ولم يتناول هو نفسه لحمًا في بيته، بل اكتفى بحصيد القمح وما شابه ذلك من الأطعمة البسيطة. وذات يوم بينما هو جالس في حجرته الخاصة يفكر في الضائقة التي حلت به ويتعجب أن يكون هذا مآل حظه الطيب، مثل بين يديه رجل من رجال حرسه كان يقف أمام بابه ليل نهار وقال له:

«هناك ستة رجال من جنود جيشك يودون رؤيتك بالنيابة عن جميع الآخرين. إن لديهم شيئاً يودون الإفضاء به إليك». فأفاق وانج النمر من همومه وصعد في الرجل بنظرة حادة، ثم سأله:

«هل هؤلاء الرجال مسلحون؟».

فأجابه الحارس: «لم أرهم مدججين بالسلاح، ولكن مَنْ ذا الذي يعرف ما يمكنه قلب أي إنسان؟».

وكان ابن وانج النمر جالساً إلى مكتبه الصغير في الحجرة، منكباً على كتاب يطالعه بجد واهتمام. فنظر وانج النمر إلى الصبي، وفكر في أن يأمره بمغادرة الحجرة. وإذا بالغلام يهب واقفاً في تلك اللحظة وكأنه يتأهب للخروج. على أن أباه حينما رآه على أتم الاستعداد للانصراف، قسا قلبه على حين فجأة، وفكر بينه وبين نفسه أن ولده يجب أن يتعلم كيف يتعامل مع الرجال المتمردين الضواري، ولذا صاح فيه:

«ابق مكانك!» فجلس الصبي في بطة، وكأنه لا يدري كيف يتصرف

حيال هذا الأمر.

أما وانج النمر، فقد التفت إلى الحارس قائلاً: «نبه على جميع الحراس بالدخول والوقوف من حولي، وليحضروا معهم بنادقهم على أهبة الاستعداد كما لو كانوا سيشنون هجوماً، ثم أدخل الرجال الستة!».

ثم جلس في كرسي قديم ضخم ذي مساند كان خاصاً بالحاكم في يوم من الأيام، وقد أُلقي على ظهر الكرسي جلد نمر ليعث على الدفء. ولم يلبث حراسه أن دلفوا إلى الحجرة ووقفوا عن يمينه وعن يساره، بينما كان هو جالساً يمر بيده على لحيته.

ودخل الرجال الستة. كانوا شباناً أقوياء أشداء، تسهل إثارة مشاعرهم ويتسمون بالجرأة كشأن الشباب. وقد مثلوا بين يدي قائدهم في تأدب بالغ حين رأوه جالساً في كرسيه، وحراسه ملتفون من حوله، تتألق فوهات بنادقهم حول رأسه. ثم انحنى الشخص الذي اختاروه ليتحدث بلسانهم الانحناء اللائقة وقال:

«أيها القائد البالغ الرحمة، لقد اختارنا رفقاؤنا للمثول بين يديك كي نسألك أن تزيدنا كمية ضئيلة من الطعام. فالواقع أننا لا نصيب شيئاً من الطعام. إننا لا نتحدث الآن عن المرتبات، ولا نطالب بمتأخرات رواتبنا في الوقت الحالي، لأننا نرى أنها أيام عصيبة. ولكننا لا نأكل، فنزداد هزلاً يوماً بعد يوم، مع أننا جنود كل بضاعتنا تنحصر في أجسادنا. إننا لا نتناول إلا رغيفاً صغيراً من الخبز كل يوم. لهذا جئنا إليكم، لنعرض الأمر على عدالتكم».

كان وانج النمر يدرك طبيعة هؤلاء الرجال الجهلاء، ويدرك أنه لا بد من إرهابهم، وإلا فلن يذعنوا لأوامره كقائد لهم. فأخذ يمر بيده على لحيته وهو يتميز غيظًا، وراح يستفز الغضب الكامن في أعماق صدره، ويتذكر كل ما أسبغه من عطف على رجاله، وكيف أنه كان شغوفًا بهم في ميدان الحرب، وكيف كان يحيد عن إرادته حين يدعهم يستولون على نصيبهم من الأسلاب عقب كل حصار يقومون به، وكيف كان يدفع لهم مرتباتهم على الدوام ويهتم بحسن هندامهم، وكيف أنه هو نفسه رجل فاضل غير مفرط في شهواته أو رغباته مثل كثير غيره من الرجال. وبينما هو يفكر في هذا كله، شعر بأن غضبه قد بدأ يضطرم في صدره لأن رجاله هؤلاء لم يقووا على احتمال الصعاب معه، في حين أنها إرادة السماء لا نتيجة خطأ من جانبه. وكلما طافت بذهنه هذه الخواطر، ازدادت ثورته اشتعالًا، وحاول أن يستزيد منها. وما إن شعر بأن شيئًا أشبه ما يكون بالغضب يجيش في أعماقه حتى سارع باستخدام فورة غضبه قبل أن يخبو أوارها، فقد أدرك ما يجب عليه أن يفعله، ومن ثم زأر فيهم قائلاً:

«هل جئتم إلى هنا لكي تقلموا أظافر النمر؟ هل أدعكم تموتون جوعاً؟ هل تركتكم في وقت من الأوقات تتضورون من الجوع؟ لقد أعددت خططي لمواجهة الموقف، ومن المنتظر وصول المؤونة من بعض البلاد الأجنبية بين لحظة وأخرى. ولكن لا، إنكم متمردون، تأبون أن تولوني ثقتكم!» ثم جمع كل طاقة غضبه وصاح في حراسه صيحة هائلة: «أجهزوا على هؤلاء المتمردين الستة».

فانكب أولئك الشبان الستة على وجوههم يلتمسون منه أن يبقى على

حياتهم، غير أن وانج النمر لم يجرؤ على أن يعفو عنهم. كلا، فإنه من أجل ابنه، ومن أجل نفسه وأهل بيته، ومن أجل أهل تلك المنطقة من الريف، الذين سيتحول جنوده إلى سلبهم ونهبهم إذا فقد سيطرته عليهم، من أجل هؤلاء جميعاً لم يتجاسر على العفو عن أولئك الرجال، ولا أن يطلق العنان لرحمته في هذه اللحظة، ولذلك صاح:

«أطلقوا النار، أيها الرجال، ذات اليمين وذات الشمال!» فأطلق الحراس بنادقهم، وامتلأت الحجرة الواسعة بالزئير والدخان، وحينما انقشعت سحب الدخان كان أولئك الشبان الستة يرقدون جثثاً هامدة.

ولم يلبث وانج النمر أن هبّ واقفاً، ثم أصدر أمره قائلاً: «أعيدوهم في التو واللحظة إلى الذين بعثوا بهم، وأخبروهم بأن هذا هو ردي عليهم!».

ولكن قبل أن يتمكن الحراس من الانحناء لرفع جثث الشبان، حدث شيء غريب. ذلك أن ابن وانج النمر -الذي كان بطبيعته غلاماً جاداً رزيناً لا يلقي بالاً في العادة إلى ما يجري حوله من أحداث- اندفع في حالة ذهول عنيف لم يرها أبوه من قبل، ثم انحنى على أحد الشبان وحملق فيه، ومضى يتنقل من شاب إلى آخر، يتحسس أجسادهم هنا وهناك في سرعة خاطفة، وهو يتفرس فيهم بعيون واسعة زائغة، محملاً في أشلائهم المتناثرة، ثم صاح في أبيه، وهو ينتصب لمواجهته، دون أن يعي ما يفعله: «لقد قتلتهم.. لقد قتلتهم.. لقد ماتوا جميعاً! إنني أعرف هذا الشخص.. لقد كان صديقي».

وسدد إلى عيني أبيه نظرة تنم عن اليأس المرير لدرجة أن شعوراً غريباً بالخوف استولى فجأة على وانج النمر من أثر تلك النظرة التي لاحت في

عيني ولده، فأطرق برأسه، ثم قال لكي يبرر فعلته: «لقد كنت مضطراً إلى هذا العمل، وإلا كان من المحتمل أن يتزعموا الآخرين ويشوروا ضدي، فيقضوا علينا جميعاً».

ولكن الغلام تمتم والكلمات تختنق في حلقه: «إنه لم يطلب سوى الخبز». وفجأة تقلص وجه الغلام ونشج بالبكاء، ثم اندفع خارج الحجرة، وأبوه يلاحقه بنظرات ذاهلة.

أما الحراس، فقد انصرفوا إلى أعمالهم. وحينما أصبح وانج النمر وحيداً مرة أخرى، صرف الحارسين اللذين كانا يلازمانه ليل نهار، ثم جلس بمفرده معتمداً رأسه بين يديه لمدة ساعة أو ساعتين، وهو يئن ويتمنى لو أنه لم يضطر إلى قتل هؤلاء الشبان. ولما لم يعد يطيق مزيداً من الألم والأسى أصدر أمره بإحضار ابنه. فجاء الغلام بعد برهة وهو يسير في خطوات متثاقلة، مطرق الرأس، يتجنب النظر إلى أبيه. ودعاه وانج النمر إلى أن يقترب منه، فلما أصبح على مقربة من أبيه أمسك هذا بيده الصغيرة القوية، وأخذ يداعبها قليلاً كما لم يفعل من قبل، ثم قال في صوت خفيض: «لقد فعلت كل هذا من أجلك».

بيد أن الغلام لم يحر جواباً على الإطلاق. بل تحامل على نفسه وتحمل ما أبداه أبوه نحوه من حب في صمت وجفاء، فتنهد وانج النمر وأخلى سبيله؛ لأنه لم يكن يدري ماذا يقول لولده، ولا كيف السبيل لأن يجعله يدرك مقدار الحب الذي يكنه له. فأحس بألم دفين يمزق شغاف قلبه، وتراءى له أنه أكثر الرجال شعوراً بالوحدة والوحشة في هذا العالم بأسره، وظل يعاني هذا الشعور يوماً أو يومين. ثم عاد بدوره يتحامل على

نفسه ويصرف هذا الأمر عن ذهنه، فقد حار ماذا يفعل حيال هذا الصبي، على أنه أضمر في نفسه أن يعمل شيئاً من أجله لكي يسري عنه. أجل، سوف يتناح له ساعة مصنوعة في الخارج أو بندقية جديدة، أو شيئاً من هذا القبيل لكي يسترد حب الغلام له. وهكذا شد من عزمه واستطاع أن يبيت في قلبه شيئاً من الراحة.

على أن مجيء هؤلاء الرجال الستة الذين أوفدهم الجيش إليه قد أظهر له في جلاء مدى الضائقة الشديدة التي ابتلاه بها الزمان؛ لأنه تبين له أن من الضروري أن يجد طعاماً لجيشه إذا أراد أن يحتفظ بولائه. لقد زعم كذباً من قبل أنه قد جلب مؤونة لجنوده من بعض البلاد الأجنبية، أما الآن، فقد أدرك أنه يتحتم عليه أن ينطلق هنا أو هناك ليأتي لهم بالطعام. ومرة أخرى عاد يفكر في أخيه وانج التاجر، قائلاً لنفسه إن الإخوة يجب أن يساند بعضهم بعضاً في مثل هذه الأزمات، وإنه سيذهب لكي يري ما آلت إليه الأحوال في بيت أبيه، ويتبين مدى المساعدة التي يمكنه أن يحصل عليها هناك.

وعلى ذلك أذاع بين صفوف جنوده أنه ذاهب للبحث عن الطعام والفضة من أجلهم، وعدهم بالرغد وسعة العيش، فشاع الفرح والرجاء بينهم جميعاً، وتجدد في نفوسهم شيء من الأمل والولاء له. ثم وقع اختياره على عدد من الحراس الأشداء وكلفهم بالسهر على بيته، كما أصدر أوامره إلى حرسه الخاص بأن يعدوا العدة للرحيل. وفي اليوم الذي حدده للشروع في الرحلة أمر بإحضار بعض القوارب النهرية، وتأهب هو وابنه وجنوده وخيولهم لكي يعبروا المياه في هذه القوارب حتى يصلوا إلى تلك الأجزاء من الطريق التي كانت السدود لا تزال قائمة فيها، ومن

هناك يمتطون خيولهم متجهين صوب المدينة التي يقيم فيها شقيقاه.

أخذت جيادهم تخطو ببطء فوق هذه السدود الضيقة، إذ إن المياه كانت تغمر كلا الجانبين على شكل بحر هائل مترامي الأطراف، وكانت السدود تكتظ بكتل بشرية مترامية. ولم يكن الناس وحدهم في هذا المكان، بل كانت الجرذان والأفاعي وغيرها من الحيوانات البرية تكافح من أجل اقتسام هذا الحيز مع الناس، فقد نسيت هذه المخلوقات البرية مخاوفها وحاولت بكل ما تملك من قوة واهنة أن تستولي على حيز لنفسها. كانت بوادر الحياة التي تبدو على هؤلاء الناس لا تعدو نوبات الغضب القصيرة المدى التي تتناوب حينما تتراحم عليهم الأفاعي والوحوش، فيوجهون إليها ضربات ملؤها الحقد والغيط. على أنهم أحياناً، ولأمد طويل، كانوا لا يجشمون أنفسهم عناء هذا الصراع مع الحيوانات، بل يتركون الأفاعي تزحف وتتلولى أينما شاءت، وهم جالسون مستغرقون في ذولهم.

شق وانج النمر طريقه وسط هذه الكتل البشرية، وكان في حاجة إلى حرسه المدجج بالسلاح وإلى بنادقه لحمايته، وإلا انقضض عليه هؤلاء الناس. ومع ذلك، فكثيراً ما كان ينهض رجل أو امرأة من هنا أو هناك ويتشبث بساقي جواد وانج النمر في صمت ويأس، يخالطهما ويمض أخير من الأمل. وكان وانج النمر من الرقة بمكان في معاملته لهم، فكان يلوي عنان جواده ويتحاشى أن يطأهم بحوافر الخيل. كلا، بل كان ينتظر حتى يقبل أحد حرسه، فيجذب المخلوق البائس ويلقي به على الأرض مرة ثانية، ثم يواصل وانج النمر مسيره دون أن يلتفت ورائه. وفي بعض الأحيان كان الرجل يقبع في مكان حيث ألقي به، وفي أحيان أخرى يعوي

كالكلاب المتوحشة، ثم يلقي بنفسه في الماء، فيضع حدًا لحياته وشقائه. وعلى طول الطريق كان الغلام يتقدم على جواده إلى جوار أبيه، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، كما أن أباه لم يجاذبه أطراف الحديث، فبينهما الجفوة التي خلفتها حادثة الرجال الستة الذين قضى عليهم، لذا كان وانج النمر يخشى أن يسأل ابنه شيئًا. أما الغلام، فقد ظل مطرقًا برأسه، اللهم إلا بين الفينة والفينة حين كان يبدو عليه أنه يختلس النظر إلى الناس الذين يتصورون من الجوع. وحينئذ كانت ترسم على وجهه نظرة تنم عن الرعب الشديد، حتى إن وانج النمر لم يستطع أن يتحملها، فقال له آخر الأمر:

«إن هؤلاء الناس ليسوا إلا من السوق الذين ألفوا هذه المجاعات مرة كل بضع سنوات أو نحو ذلك. وثمة عشرات الآلاف من أمثالهم، حتى إن أحدًا لا يفتقد من يموت منهم في غضون سنوات قلائل، فهم ينبتون مرة أخرى مثل محصول الأرز الجديد».

فقال الغلام فجأة، وقد تغير صوته، فصار مثل صوت فرخ صغير، وانبعث من فمه أشبه ما يكون بالصراخ، إذ فاضت به مشاعره وطفى عليه الخوف خشية أن يبكي أمام أبيه:

«ومع ذلك، فإني أعتقد أنه يعز عليهم أن يموتوا كما يعز ذلك على الحكام وأمثالنا من الناس». وكان يحاول في أثناء كلامه أن يحتفظ بفمه ثابتًا في عزم وصلابة، ولكن الواقع أن المشاهد التي وقع عليها بصره كانت تبعث على الأسى، فلم يتمالك أن ترتجف شفاته مهما حاول أن يسيطر عليهما.

وأراد وانج النمر أن يقول كلمة تهدئ من خاطر ولده، ولكنه كان مذهولاً لما قاله الابن، إذ لم يخطر على باله من قبل أن هؤلاء السوقة يقاسون الألم مثلما يمكن أن يقاسيه هو، فقد خلق الله الناس طبقات، ولا يمكن لأحد منهم أن يحتل مكان الآخر. كما أن ما قاله ابنه لم يصادف هوى كبيراً في نفسه، إذ إنه قول رقيق جداً بالنسبة لملك من ملوك الحرب؛ لا يجدر به أن يسكب عصارة قلبه إشفاقاً على أي إنسان تصادف أنه يعاني المتاعب والآلام. ولذلك لم يستطع وانج النمر أن يفكر في كلمة يهدئ بها من روع ابنه، ففي الحقيقة أنه لم يكن من الممكن في هذه الأيام أن يحصل كائن على كفايته من الطعام، اللهم إلا الغربان التي كانت تحوم وتدور ببطء مرات ومرات في دورات فسيحة فوق المياه. لذا لم يزد وانج النمر عن قوله:

«إننا جميعاً سواء أمام مشيئة السماء القاسية».

بعد ذلك ترك وانج النمر ابنه وشأنه، فإنه وقد أدرك نوع الأفكار التي تطوف في ذهن الصبي، لم يعد يسأله عن شيء على الإطلاق.



طالما تمنى وانج النمر في أثناء تلك الرحلة لو أنه استطاع أن يترك ابنه في البيت. ولكن الواقع أنه لم يجرؤ على هذا العمل، لثلا يكون بين رجاله بعض الأشخاص الناقمين عليه في قرارة أنفسهم بسبب مقتل الرجال الستة، فيقضوا على ابنه. وبقدر ما كان يخشى عليه من الموت، كان يخشى أيضًا أن يصطحبه معه إلى أروقة أخويه، فقد ساوره الخوف من أن تسري إليه تلك الرخاوة التي ينعم بها الشباب، أو ذلك الحب الرخيص للمال الذي يتميز به التجار هناك.

لذلك أصدر أوامره إلى مدرب ابنه الذي كان قد اصطحبه معه أيضًا، وإلى تابعه الأمين الأشرم، بألا يدعا سيدهما الصغير يغيب عن أنظارهما على الإطلاق، وإلى جانب هذين الرجلين أمر عشرة من جنوده المدربين المحنكين بأن يلازموا ولده ليل نهار، كما أخبر ولده بأن عليه أن يطالع كتبه كما كان يفعل تمامًا في البيت. ولكنه لم يجرؤ على أن يقول لولده: «يا بني، إياك والذهاب إلى حيث توجد النساء» لأنه لم يكن يدري ما إذا كانت مثل هذه الأمور قد خطرت على بال الصبي أم لم تخطر بعد

بباله؟ ذلك أنه طوال هذه الأعوام التي كان الغلام يعيش فيها مع أبيه في أروقته، لم تكن ثمة نساء على الإطلاق سواء من الخادومات أو الإماء أو المحظيات، فلم يعرف من النساء قاطبة سوى أمه وأخواته، كما أن أباه في الأعوام الأخيرة لم يكن يدعه يمضي بمفرده في تلك الزيارات النادرة التي يقوم بها لأمه أداء لواجبه نحوها، بل كان يأمر حارسًا بالذهاب معه إلى هناك. وكان وانج النمر يلجأ إلى هذه الأساليب كي يقوي ولده ويحصنه، إذ كانت غيرته عليه تفوق غيرة الرجال الآخرين على من تعشقه قلوبهم من النساء.

على أنه رغم المخاوف التي كان يشعر بها بينه وبين نفسه، أحس ببعض المشاعر العذبة لحظة أن أقبل على بوابات بيت أخيه معتليًا صهوة جواده وولده ممتطيًا حصانه بجانبه. ولنذكر هنا أن وانج النمر كان يستهويه أن يطلب من الحائكين الذين يعدون له ملابسهم أن يعدوا ملابس ابنه بحيث تطابق ثيابه تمامًا، فكان الصبي يرتدي كأبيه سترة من نسيج مستورد من الخارج، محلاة بأزرار مطلية بالذهب، كما يضع على كتفيه شارات مموهة بالذهب، ويرتدي على رأسه قلنسوة تميزها علامة معينة شبيهة بالقلنسوة التي يضعها أبوه على رأسه. وكان وانج النمر في عيد ميلاد ابنه الرابع عشر قد أرسل أحد رجاله إلى بلاد المغول، فابتاع جوادين متشابهين، إلا أن أحدهما كان أصغر قليلًا من الآخر، وكلاهما متين البنية ذو لون أسمر يميل إلى الاحمرار، أما عيناها، فيضآوان مستديرتان، وهكذا، حتى خيولهما كانت متشابهة. وكان وانج النمر يستمع إلى الناس في الطريق حين يصيحون وهم واقفون يحملقون في الجنود في

أثناء مرورهم: «انظروا إلى ملك الحرب العجوز وملك الحرب الصغير،
إنهما متشابهان كما تتشابه الستتان الأماميتان في فم الإنسان!» فكان لهذه
الكلمات وقع أعذب الأنغام في أذنه.

وهكذا وصل وانج النمر وولده راكبين إلى بوابة وانج المالك، ونزل
الصبي في خفة من على ظهر حصانه كما فعل أبوه، ثم أمسك مقبض سيفه
بيده مثلما فعل أبوه، وسار في وقار واتزان إلى جانبه، دون أن يعي أنه يقلد
أبيه في كل أمره. أما وانج النمر، فإنه بعد أن استقبل في بيت أخويه، وجاء
أخواه وأبنائهما لتحيته واحدًا تلو الآخر عندما علموا نبأ وصوله، راح
يتلفت من حوله إليهم جميعًا وهو يرتشف نظرات الإعجاب التي كانوا
يصوبونها لولده كما يرتشف الرجل الظمآن خمرة. ودأب طيلة الأيام التي
قضاها في ذلك البيت على أن يراقب أبناء أخويه في شغف ولهفة -دون
وعي منه- تحدوه رغبة جائعة في التأكد من أن ابنه يفضلهم إلى حد بعيد،
رغبة جائعة في الشعور بالطمأنينة على ابنه الوحيد.

ولم يعدم وانج النمر أن يجد أشياء كثيرة تبعث الطمأنينة في نفسه.
فأكبر أبناء وانج المالك قد عقد زواجه، وإن كان لم ينجب أطفالاً حتى
ذلك الحين، وكان يعيش هو زوجته في نفس البيت الذي يسكنه وانج
المالك مع زوجته. كان هذا الابن الأكبر قد اكتسب شيئاً من سمات أبيه،
فقد استدارت كرشه قليلاً، وبدأت طبقة سميكة من الشحم تكسو جسده
الجميل. على أنه كان يحمل في عينيه نظرة تنم عن الضجر والملالة،
والحقيقة أنه كان يعاني شيئاً يبعث على الضجر، ذلك أن زوجته لم تكن
لترضى بأن تعيش في وئام مع أمه سيدة البيت، بل كانت سليطة في التعبير

عن مبادئها الحديثة، فكثيرًا ما كانت تصيح في زوجها عندما تختلي به ويحاول أن يسدي إليها النصح:

«عجبًا! هل أصبح خادمًا لهذه المرأة الشمطاء المتعجرفة؟ ألا تعلم أننا معشر الشابات قد تحررنا في هذه الأيام ولم نعد نخدم حمواتنا كسابق العهد؟».

كما أن هذه المرأة الشابة لم تكن تهاب سيدة البيت على الإطلاق، حينما قالت لها السيدة بعظمتها المعهودة: «عندما كنت صغيرة السن كنت أقوم بخدمة أم زوجي كما يقتضي الواجب، واعتدت أن أقدم لها الشاي في الصباح وأنحني أمامها كما علمني أهلي»، هزت زوجة ابنها شعرها القصير إلى الوراء، ودقت الأرض بقدميها الطليقتين الجميلتين، ثم قالت في قحة:

«ولكن النساء اليوم لا ينحنين أمام كائن من كان».

كثيرًا ما أنهكت هذه المشاحنات الزوج الشاب، ولم يكن في إمكانه أن يسري عن نفسه بمزاولة أساليبه القديمة في اللهو؛ لأن زوجته كانت تراقبه مراقبة شديدة، وتصر على أن تعرف كل مكان يقصده من أماكن اللهو، حتى لقد بلغ من جرأتها أنها لم تكن تخشى أن تسير وراءه في الشارع صائحة بأعلى صوتها أنها ستذهب معه، وأن النساء لا يمكنهن رهنات المنازل في هذه الأيام، وأنهن أصبحن على قدم المساواة مع الرجال. وكان هذا الحديث من جانبها يلفت أنظار المارة في الطريق، ما حدا بالزوج الشاب إلى الإقلاع عن ملامهه القديمة درءًا للفضيحة، لأنه كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن زوجته من الجرأة بحيث يمكن أن تتبعه إلى

أي مكان يقصده. ذلك أن هذه الزوجة الشابة استبدت بها الغيرة العمياء لدرجة أنها صممت على أن تحطم كل عادة أو نزعة طبيعية في زوجها، فلم يكن يتجاسر على مجرد النظر إلى أمة مليحة، ولم تكن تسمح له بالاقتراب من المواخير بصحبة أحد أصدقائه، دون أن يجد في انتظاره عند عودته صراخًا وعويلًا يحيل البيت جحيماً. وقد شكاهمه إلى أحد أصدقائه ذات مرة، فنصحه قائلاً:

«فلتهدها بأنك سوف تتخذ لك محظية، فإن مثل هذا الأمر يشعر أي امرأة بالذلة والمهانة!».»

ولكن حينما حاول الشاب أن يتخذ له محظية لم تشعر امرأته بالذلة على الإطلاق، بل صاحت في وجهه وعيناها المستديرتان تقدحان شرراً: «إننا معشر النساء لن نسمح بمثل هذه الأشياء في هذا العصر الحديث».

وقبل أن يدرك ما هي مقدمة عليه، إذا بها تمد يديها الصغيرتين، وتنقض عليه ثم تنشب أظافرها في خديه وكأنها قطعة صغيرة، فتركت عليهما آثار أربعة خدوش غائرة حمراء اللون لامعة. وقد عرف الجميع في جلاء ووضوح كيف حدثت له هذه الإصابة، فلم يستطع أن يتحرك من بيته طوال خمسة أيام أو أكثر مخافة الخزي والعار. كما أنه لم يجرؤ على إهانته علانية، فقد كان أخوها صديقه، فضلاً عن أن أباه رئيس الشرطة، وهو رجل له نفوذه وسلطته في المدينة.

ومع ذلك كله كان يشعر نحوها بالحب إذا ما جن الليل، فقد كانت

تميل نحوه في دلال وعدوبة، وتلاطفه في رفق، وتبدو عليها بواذر الندم، حتى إنه كان يشعر نحوها حينذاك بعاطفة جارفة، ومن ثم يلين للاستماع إلى حديثها.

وكان جل حديثها في مثل هذه الأوقات يدور حول وجوب مطالبته لأبيه بمبلغ معين من المال، لكي يتمكن من مغادرة هذا البيت، والذهاب إلى ميناء من الموانئ الواقعة على الساحل، حيث يعيشان هناك على الطراز الحديث، بين الشباب العصري الذي على شاكلتهم. وكانت حينئذ تمد ذراعيها الجميلتين وتحتضنه، وتأخذ في مداهنته والتملق إليه، أو تنقلب غاضبة وتأخذ في النحيب، أو تعتكف في فراشها وترفض أن تنهض أو تتناول طعامها حتى يعدها بتنفيذ رغبتها، وهكذا ظلت هذه الزوجة تضني زوجها بشتى الطرق حتى بذل لها الوعد آخر الأمر. ولكنه حينما توجه إلى أبيه كما وعدها، وحينما سمع وانج المالك حديث ابنه، تطلع إليه في ثاقل بعينه اللتين نالت منهما الشيخوخة، ثم قال:

«أنى لي بمثل هذا المبلغ الذي تطلبه؟ كلا، لا يمكنني تدبيره».

وبعد برهة بدا فيها غارقاً في ذلك الاسترخاء المتبلد الذي أصبح يقضي فيه معظم أيامه الآن، استطرد قائلاً: «يجب على الرجل أن يحتمل النساء، فحتى خيرهن مولعات بالشغب والشجار. كلهن على هذه الحال، سواء في ذلك المتعلمات أو الجاهلات، بل إن المتعلمات منهن أسوأ من الأخريات لأنهن لا يهبن شيئاً. لقد كنت أقول لنفسي دائماً لم لا أدع النساء يتحكمن في البيت، وأبحث أنا عن الهدوء، والسكينة في مكان آخر. وهذا ما يجب أن تفعله أنت أيضاً».

ولكن الزوجة الشابة ما كانت لتدع الأمر يحسم بهذه البساطة، فأجبرت زوجها على الذهاب مرات ومرات إلى أبيه، وأخيراً ضعف وانج المالك أمام مشيئتها صوناً للسلام في البيت، ووعد بأنه سوف يدبر الأمر بطريقة أو بأخرى، وإن كان يعلم حق العلم أن السبيل الوحيد أمامه هو أن يبيع معظم ما تبقى له من الأرض. أما الزوجة الشابة، فما إن تلقت هذا الكلام الذي يشبه الوعد حتى راحت تثرثر عن رحيلها وترسم شتى الخطط، وتتحدث حديثاً متصلاً عن وسائل المتعة الكثيرة التي تزرع بها تلك المدينة الساحلية، وعن الملابس الأنيقة التي ترتديها النساء هناك، وكيف أنه من الضروري أن تبتاع لنفسها ثوباً جديداً ومعطفاً من الفراء، لأن كل ملابسها التي تملكها الآن قد أصبحت أسماً بالية لا تتناسب إلا مع مكان ريفي كتلك المدينة التي يقيمون فيها، حتى إنها استطاعت بكل هذه الأحاديث أن تحرك بعض الشغف والشوق في زوجها لرؤية كل هذه الأعاجيب التي دأبت على الحديث عنها.

أما أصغر أبناء وانج المالك قد كان شاباً يافعاً، يسير على منوال أخيه، ولا يهتم إلا بشيء واحد، هو ألا يتفوق عليه أخوه الأكبر في شيء. وكان يشعر في قرارة نفسه بإعجاب شديد نحو زوجة أخيه، وقد عقد العزم بينه وبين نفسه على أن يثير عاصفة في البيت بعد رحيل أخيه الأكبر، لكي يقتفي خطاه ويرى تلك المدينة التي تعيش فيها سيدات جميلات عصريات كزوجة أخيه. ولكنه كان من الحكمة بحيث لم يذكر أي شيء عن خطته حتى يرحل أخوه، واكتفى بالتسكع في أرجاء البيت والمدينة في انتظار اللحظة المناسبة، وقد داخله شعور بالازدراء نحو كل ما يملك

أو يقع عليه بصره، بعد أن عرف مدى روعة تلك المدينة الساحلية، وكيف أنها غاصة بالأشياء الحديثة والناس العصريين المترفين الذين يحذقون شتى الأساليب الأجنبية. وبلغ به الأمر أنه راح ينظر في ازدراء إلى ابن وانج النمر ما لو كان يستخف به في قرارة نفسه، وقد لمح وانج النمر هذه النظرة في عيني الشاب، فشعر بالكراهية نحوه بسببها.

أما في بيت وانج التاجر، فقد كان يبدو على الشبان في الظاهر أنهم أكثر تواضعاً من أبناء وانج المالك، فحينما كانوا يعودون من متاجرهم إلى البيت في المساء كانوا يجلسون على أطراف مقاعدهم ويحملقون في عمهم وابنه، فكان وانج النمر يشعر بسرور خفي حين يرى تلك النظرات التي يصوبها هؤلاء التجار الصغار نحو ولده، كما كان يلحظ أيضاً كيف أنهم يحملقون في الغلام وفي السيف الصغير المموه بالذهب الذي يمتشقه، والذي كان يخلعه من آنٍ لآخر ويمسك به فوق ركبتيه لكي ينظر إليه الأطفال الصغار ويلمسوه بأصابعهم.

في مثل هذه الأوقات كان وانج النمر يشعر بالبهجة تغمر قلبه من شدة إعجابه بولده، فينسى اللحظات التي كان الصبي يعامله فيها بفتور. كان يتهج حينما يرى ابنه يقف منتصباً في عزم كما لقنه مدربه، ويؤدي التحية له أو لعمه حينما يقبل عليه، ثم يجلس ثانية بطريقة مهذبة للغاية، بعد أن يتخذ الكبار مجالسهم. وكان وانج النمر يمسح بيده على لحيته، ويطغى عليه حب جارف نحو ولده، ويدخله فرح لم يشعر بمثله طيلة حياته، حين يرى أن ابنه أطول قامته بالنسبة إلى سَنِّه من هؤلاء الكتبة أبناء أخيه، وأن ابنه أصلب منهم عوداً، وأنه معتدل القامة سليم البنية على عكس أبناء

عمه بأجسامهم المترهلة وقاماتهم المنحنية ووجوههم الشاحبة.

وكان وانج النمر يكلاً ابنه بعين الرعاية طيلة هذه الأيام التي قضاها في بيت أخويه. فعندما كان الفتى يجلس إلى جواره في الولائم، كان يشرف بنفسه على كمية الخمر التي يشربها ابنه، فلا يسمح للخدم أن يصبوا الخمر في كأسه أكثر من ثلاث مرات. وإذا ما ناداه أبناء عمه لكي يأتي إليهم ويلهوا معاً هنا أو هناك، كان وانج النمر يرسل معه مدربه وتابعه الأمين الأشرم وعشرة من الجنود القدامى كي يصحبوه في كل مكان يقصده. بل إنه دأب في كل ليلة على أن ينتحل بعض المعاذير للذهاب إلى حجرة ابنه، ولا يستريح له بال حتى يمضي بنفسه ويطمئن أنه قد أوى إلى فراشه، وأن أحداً لا يصحبه سوى الحارس الذي يسهر على حراسته أمام الباب.

في بيت أبيه حيث لا يزال أخواه يعيشان في رغد ورفاهية، كانت الحياة تجري في يسر وكأن المجاعة لا تجتاح البلاد، وكأن المياه لا تغرق المزارع، وكأن الناس لا يموتون جوعاً في كل مكان. على أن وانج المالك وأخاه التاجر كانا يعلمان تمام العلم كل ما يجري خارج بيتهما الذي يسوده الرخاء. وحينما أفضى وانج النمر إليهما بأمر الضائقة التي حلت به، وبالهدف من مجيئه، ثم أنهى حديثه قائلاً:

«إن في إنقاذي من الخطر المحقق بي مصلحة لكما، لأن في قوتي أماناً لكما أيضاً من الخطر». أدرك الشقيقان حق الإدراك أنه محق في قوله. ذلك أنه خارج هذه المدينة أيضاً كان هناك أناس يتضورون جوعاً، والكثير منهم يكونون البغضاء لهذين الأخوين. فهم يكرهون وانج المالك لأنه ما زال يمتلك أرضاً، ولا بد للكادين فيها أن يقتصموا معه الثمرة

المريرة التي ينتزعونها من باطن الأرض بشق النفس، على حين أنه لا يكدر معهم على الإطلاق. وكثيراً ما بدا لهم وهم منكبون على حقولهم في البرد والقيظ، تلفحهم الشمس وتهطل عليهم الأمطار، أن الأرض وثمارها ملك لهم. وكم كان يشق عليهم حين يحل وقت الحصاد أن يجدوا أنفسهم ملزمين بإعطاء نصف المحصول لرجل قضى وقته قابلاً في بيته بالمدينة يترقب وصول المحصول، ويشق عليهم كذلك أنه يحصل على نصيبه حتى في وقت المجاعة.

والحقيقة أن وانج الأكبر لم يكن مالكا لين الجانب في أثناء تلك السنوات التي امتلك فيها الأرض، وفي أثناء بيعه للأرض كذلك. كلا، فعلى الرغم من ضعفه ورخاوته، كان في إمكانه أن يتشاجر مع الفلاحين ويصب عليهم اللعنات. وكانت كراهته للأرض تجد متنفساً لها في هؤلاء الناس الذين يفلحون الأرض من أجله. ولم يكن بغضه لهم بسبب الأرض فحسب، بل لأن المال كان يعوزه في كثير من الأحيان لسد مطالب بيته واحتياجاته الخاصة. وكان يضاعف من سخطه عليهم اعتقاده أن مستأجري أرضه يمنعون عنه عامدين ما يستحقه من ريع الأرض التي ورثها عن أبيه. وقد وصل الحال بمستأجريه أنهم كانوا يشيخون بوجوههم عنه متجهين بها إلى السماء حينما يلمحونه قادماً، ويغمغمون: «لا بد أن تمطر السماء ما دامت الشياطين قد أطلقت من عقالها!».

وكثيراً ما كانوا يسبونه قائلين: «إنك لم تأخذ عن أبيك طبيعته السمحة، لأن كان رجلاً رحيماً حتى عندما أصبح من الأثرياء في شيخوخته، ولم يغب عن باله أنه كدح في الماضي كما نكدح الآن، ولم

يحدث مطلقاً أنه شدد علينا الوطء من أجل الإيجار، أو طلب منا حبوباً في سني القحط. ولكنك لم تعان الشقاء في حياتك على الإطلاق، ولم تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبك في يوم من الأيام!«.

هنالك سادت هذه الكراهية، وتجلت في هذه السنة العجفاء، إذ كان بعض الناس يقدون إلى بيت الأخوين في أثناء الليل، والبوابات الضخمة موصدة، فيطرقونها، ثم يرقدون على الدرج وهم يئنون:

«إننا نموت جوعاً بينما لديكم أرز تأكلونه وتصنعون منه الخمر!» على حين يصيح آخرون وهم يسرون في الشوارع أمام بوابات البيت، يصيحون حتى في وضح النهار: «آه، لو تسنى لنا أن نقتل هؤلاء الأغنياء ونستولي على ما سلبوه منا!».

لم يلق الشقيقان بالآ في بادئ الأمر، ولكنهما اضطرا في النهاية إلى اكتراء بضعة جنود من المدينة لكي يحرسوا البوابة ويبعدوا عنها كل من ليس له شأن هناك. والحقيقة أن كثيراً من الأغنياء في هذه المدينة، وفي أنحاء الريف، قد سلبوا ونهبوا في أواخر ذلك العام، إذ إن اللصوص بدأوا في الظهور، في أعداد كبيرة يحفزها اليأس كما هي الحال دائماً في الأزمنة العصيبة. ومع ذلك كان ابنا وانج لانج في مأمن من الخطر، لأن رئيس الشرطة وقائد جنود المدينة قد زوج ابنته لأحد أفراد هذا البيت، ولأن وانج النمر كان ملكاً من ملوك الحرب في أحد الأقاليم القريبة. ولهذا لم يتجاسر الناس حتى ذلك الحين على أن يفعلوا شيئاً أكثر من الأنين وصب اللعنات.

كما أن الناس لم يعملوا السلب والنهب في المنزل المشيد من الطين

الذي تمتلكه هذه الأسرة التي يبغضونها. لا، بل ظل قائماً على رأيته التي تنحسر عنها المياه في بطن، وظلت بيرلوسوم تعيش فيه آمنة طوال الشتاء القارس البرودة، بصحبة طفلها الأحدب والبلهاء. ذلك لأن الناس عرفوا عنها الرحمة في تلك الآونة، وعرفوا أيضاً أنها قد توسلت إلى أهل بيت وانج أن يعطوها بعض المؤونة المختزنة لديهم، ثم قصد بابها الكثيرون من الجائعين في قواربهم الصغيرة وبراميلهم، فكانت تمنحهم الطعام. وذات مرة ذهب إليها وانج التاجر وقال لها: «في مثل هذه الأوقات العvisية التي يحف بها الخطر يجب عليك أن تأتي معنا إلى المدينة وتعيشي في البيت الكبير».

فأجابته بيرلوسوم في هدوئها المعهود:

«كلا، لا أستطيع، فإنني لست خائفة، كما أن هناك أناساً يعتمدون عليّ لا يمكنني التخلي عنهم».

ولكن كلما توغل الشتاء واشتد زمهريره كان يتتابها الخوف في بعض الأحيان، لأن بعض الرجال أصبحوا مستيئسين من أثر الجوع وتحت وطأة رياح الشتاء القارصة التي كانت تهب على المياه المتجمدة، حيث ما زالوا يعيشون في القوارب أو يتعلقون بقمم الأشجار ما وسعهم الجهد، فكان هؤلاء الرجال يستبد بهم الغضب لأن بيرلوسوم ما فتئت تطعم البلهاء والأحدب، ويغمغمون في مواجهتها، وعطاياها ما زالت في أيديهم:

«ألا تزالين تطعمين هذين في الوقت الذي يموت فيه من الجوع رجال أشداء يعولون طفلاً أو طفلين؟».

والواقع أن هذه الغمغات ازدادت ارتفاعاً حتى أصبحت صباحاً يتردد في كثير من الأحيان، حتى إن بيرلوسوم بدأت تُسائل نفسها عما إذا كان ينبغي لها أن تصطحب هذين الاثنين إلى المدينة خشية أن يقتلها أحدهما في وقت من الأوقات لما يستنفدانه من الطعام، وهي أضعف من أن تحميها من الموت. وما كادت هذه الفكرة تراودها حتى ماتت البلهاء المسكينة بالسرعة الخاطفة التي يختطف بها المنون أرواح أمثالها من النعساء، وكانت عندئذ قد تجاوزت الثانية والخمسين من عمرها، على أنها رغم ذلك كانت لا تزال طفلة كعهدا دائماً. فقد تناولت طعامها ذات يوم وأخذت تلهو كعادتها بقطعة النسيج الخاصة بها، ثم خرجت من البيت ومضت تتجول بعيداً عن البوابة حتى وصلت إلى الماء دون أن تعي أنه ماء، بل حسبته أرضاً يابسة، فجلست عليها حينئذ كعادتها، وجرت بيرلوسوم وراءها، ولكن البلهاء كانت قد ابتلت وأخذت تنتفض تحت وقع الماء المتجمد. وهكذا أصيبت بقشعريرة البرد، رغم كل الرعاية التي أحاطتها بها بيرلوسوم. وإذا بها في مدى ساعات قلائل تلقى نحبها بنفس البساطة التي عاشت بها، دون أن تكون لها مشيئة في أي أمر من أمورها.

حينئذ بعثت بيرلوسوم برسول إلى المدينة يطلب من وانج المالك إحضار نعش لها. ولما كان وانج النمر ما زال مقيماً هناك، فقد حضر الإخوة الثلاثة معاً، كما أحضر وانج النمر ابنه معه كذلك. وظلوا جميعاً هناك حتى أشرفوا على وضع المخلوقة النعسة في نعشها، حيث رقدت عاقلة وقوراً لأول مرة في حياتها، في هيبة لم يصفها عليها إلا الموت وحده. وقد حزنّت عليها بيرلوسوم حزناً صادقاً، غير أنها وجدت بعض

السلوى في أن ترى طفلتها تبدو عليها سيماء الوقار، فتمتت بطريقتها الهادئة:

«لقد أبرأها الموت، وجعل منها آخر الأمر إنسانة حكيمة عاقلة، لقد أصبحت الآن مثل أي واحد منا تمامًا».

ولكن الإخوة لم يقيموا لها حفل جناز، نظرًا لما كانت عليه في حياتها، فترك وانج النمر ابنه في البيت المشيد من الطين، على حين ذهب هو مع أخويه في القارب تصحبهم بيربلوسوم مع زوجة المستأجر وأحد الفلاحين، واتجهوا إلى الراية الأخرى حيث توجد مقابر الأسرة، وهناك واروا البلهاء التراب في بقعة منخفضة، وإن كانت داخل سياج المقابر المبني من الطين.

بعد أن انتهت جميع إجراءات الدفن، وارتدوا إلى البيت المشيد من الطين، وتأهبوا للعودة إلى المدينة، نظر وانج النمر إلى بيربلوسوم وتحدث إليها لأول مرة منذ حضوره، قائلاً بطريقته الهادئة الفاترة:

«والآن ماذا تنوين عمله أيتها السيدة؟».

فرفعت بيربلوسوم وجهها إليه، متعلقة بأهداب الشجاعة لأول مرة في حياتها، بعد أن عرفت أن المشيب قد وخط شعرها، وأن وجهها لم يعد غضًا ناعمًا، ثم ما لبثت أن قالت:

«لقد قلت منذ زمن طويل إنني سوف أذهب إلى الدير القريب منا حينما تموت طفلي هذه. والراهبات هناك على استعداد لقبولي، فقد عشت على مقربة منهن طيلة هذه الأعوام الكثيرة، وقطعت على نفسي

عهودًا كثيرة من قبل. إن الراهبات يعرفني معرفة وثيقة، وسوف أكون في غاية السعادة هناك».

ثم التفتت إلى وانج المالك، وقالت: «لقد أعددت أنت وزوجتك خطتكما فيما يتعلق بولدك هذا، وسوف أظل على رعايتي له لأن معبده قريب من معبدي، وقد بلغت سنًا أصلح فيها لأن أكون أمًا له. فإذا ما مرض أو انتابته الحمى - كما هو دأبه في معظم الأحيان - يمكنني حينذاك أن أذهب إليه. ولما كان الكهنة والراهبات يتعبدون معًا في الصباح وفي المساء، فسوف يكون في استطاعتي رؤيته مرتين كل يوم، حتى ولو لم يتسن لنا أن يُحدث أحدنا الآخر».

حيثُ أخذ الإخوة الثلاثة ينظرون إلى الفتى الأحذب وقد تعلق ببيربلوسوم، لأنه أصبح الآن يحس بالضياع بعد موت البلهاء التي طالما تولى رعايتها مع بيربلوسوم. ومع أنه بلغ مبلغ الرجال، إلا أنه ابتسم في ألم ومرارة تحت وقع نظراتهم. فاهتزت مشاعر وانج النمر بعض الشيء، لأن ولده كان واقفًا إلى جواره بقامته الفارهة وبنيتة القوية، تبدو عليه أمارات الدهشة لكل ما يراه، في حين أنه لم يكن يعلم عنه شيئًا من قبل. فقال وانج النمر في عطف بالغ حينما رأى ولده يتسم في وجه الأحذب: «أتمنى لك حظًا طيبًا أيها الغلام المسكين، ولو كنت سليمًا معافي، لما ترددت في أخذك معي عن طيب خاطر كما أخذت ابن عمك، ولسهرت على مصلحتك كما سهرت على مصلحته. ولكن والحال هكذا. فإنني سوف أضيف بعض المال من عندي إلى مصروفاتك في المعبد وإلى مصروفاتك أنت يا سيدتي، فإن المال يفسح الطريق للمرء

دائمًا، ولا أعدو الحق حين أقول إن نفس القول ينطبق على المعابد كما ينطبق على غيرها من الأماكن».

ولكن بيربلوسوم أجابت في هدوء وبلهجة قاطعة:

«لن آخذ شيئًا لنفسي، ولست في حاجة إلى ذلك، لأن الراهبات يعرفنني وأنا أعرفهن حق المعرفة، وكل ما تملكه يميني سيكون ملكًا لهن أيضًا حين أذهب، فأدلي بدلوي معهن. أما بالنسبة للغلام، فسوف أقبل شيئًا من أجله لأنه سيكون عونًا له».

كانت ترمي إلى أن يكون هذا القول عتابًا رقيقًا موجهاً إلى وانج المالك؛ لأن المبلغ الذي منحه لابنه حين اختار له هذه السبيل في حياته كان مبلغًا أقل مما ينبغي. ولكن حتى إذا كان وانج المالك قد أخذ هذا القول على محمل العتاب، فإنه لم تظهر عليه أي أمارات تنم عن ذلك، ولم يفعل شيئًا سوى أنه جلس في انتظار أخويه؛ لأنه كان على بدانة هائلة، فشعر بأن من الظلم له أن يظل واقفًا. وكان وانج النمر لا يزال يتفرس في وجه الفتى الأحذب، ثم استرسل في قوله:

«أما زلت تفضل الذهاب إلى المعبد على الذهاب إلى أي مكان آخر؟».

فرفع الفتى بصره عن قوام ابن عمه الفارع الذي كان يحملق فيه مشدوهاً، ثم أطرق برأسه ونظر إلى جسمه المشوه القميء، وقال في بطء:

«أجل، لا مناص من ذلك ما دمت على هذه الحال».

ثم قال بعد لحظة في كآبة شديدة: «قد تخفي ثياب الكهنوت حذبي».

وعاد يحول عينيه ثانية إلى ابن عمه، ثم بدا فجأة وكأنه لا يستطيع أن
يحتمل النظر إليه أكثر من ذلك، ولا حتى إلى سيفه المموه بالذهب، إذ إنه
أشاح ببصره عنه، ثم استدار على عقبيه وخرج يظلع مسرعاً من الحجرة.
وفي تلك الليلة، بعد أن عاد وانج النمر إلى بيت أخويه، ذهب ليطمئن
على ابنه في فراشه، فوجد الصبي مستيقظاً تبدو عليه الלהفة، وما إن رأى
أباه حتى سأله:

«هل كان ذلك البيت ملكاً لجدي كذلك يا أبتاه؟».

فأجابه وانج النمر في دهشة:

«أجل، لقد عشت فيه صبيّاً حتى أسس جدك هذا البيت في المدينة
ونقلنا جميعاً إليه»

فتطلع الصبي من فراشه، ورأسه يعتمد على يديه المشبوكتين تحته،
ثم نظر في لهفة إلى أبيه قائلاً في حماسة:

«إنني أحب ذلك البيت. ليتني أقيم في بيت مشيد وسط الحقول كهذا
البيت المبني من الطين، فهو في غاية الهدوء، كما أن هناك أيضاً الأشجار
والشيران!».

على أن وانج النمر أجابه في ضجر لم يدرك كنهه، رغم إدراكه أن ابنه
لم يقل كلاماً خبيثاً مقدعاً على أي حال:

«إنك لا تفقه ما تقول. إنني أعلم أكثر منك؛ لأنني عشت هناك أيام
صباي، فوجدتها حياة تتسم بالجهل، حياة مقية للغاية، حتى إنني كنت
أتمنى في كل ساعة أن أولي منها فراراً!».

ولكن الصبي قال في عناد غريب:

«أشعر بأنني سوف أحب هذه الحياة، إنني أعلم أنني سوف أحبها».

نطق الابن بهذه الكلمات المعدودات في حماسة بالغة، لدرجة أن وانج النمر أحس في قرارة نفسه بشيء من الغضب المبهم، فنهض لتوه وانصرف من الحجرة. أما الغلام، فقد أطبق جفنيه ورأى في أحلامه تلك الليلة أن البيت المشيد من الطين قد أصبح بيته، وأنه يعيش هناك وسط الحقول.

أما بيربلوسوم، فقد قصدت إلى ذلك الدير، في حين ذهب ابن وانج المالك إلى معبده، وهكذا خلا البيت القديم المشيد من الطين من الأشخاص الثلاثة الذين عاشوا فيه طيلة هذه السنين الكثيرة. ولم يعد أحد من أسرة وانج لانج يقيم هناك في أرضه، فلم يبق في البيت سوى المستأجر العجوز وزوجته اللذين كانا يعيشان بمفردهما. وفي بعض الأحيان كانت المرأة العجوز تأخذ رأسًا من الكرنب الذابل تكون قد أخفته في الأرض بعيدًا عن الأنظار، أو تأخذ قليلًا من الطعام تكون قد ادخرته، ثم تلفه في منديل وتذهب به إلى الدير لكي تعطيه لبيربلوسوم، إذ إن هذه المرأة كانت طيلة سني خدمتها في البيت تشعر بالحب العميق نحو هذه السيدة الرقيقة الوديدة. أجل، حتى في هذه الأوقات العصبية، كانت المرأة العجوز تأخذ ما يتوافر لديها من أشياء تافهة، ثم تنتظر عند البوابة حتى تحضر إليها بيربلوسوم، مرتدية الثياب الرمادية اللون التي ترتديها الراهبات، وحينئذ تهمس العجوز في أذنها:

«لقد أحضرت لك بيضة دجاجة طازجة وضعتها الدجاجة الوحيدة

التي أمتلكها، خذوها فهي لك».

ثم تدس يدها في صدرها، وتخرج بيضة صغيرة تخفيها في يدها، وتمدها إلى يد بيربلوسوم محاولة أن تدسها فيها، هامسة في أذنها بلهجة إغراء:

«تناولي هذه البيضة يا سيدتي. إني أقسم لك إن هناك كثيرًا من الراهبات لا يترددن في أن يتناولنها رغم كل العهود التي قطعنها على أنفسهن. لقد رأيت كثيرًا من الكهنة يتناولون اللحم ويشربون الخمر. انتحي جانبًا هنا حيث لن يراك أحد، وكليها طازجة، فإن وجهك شاحب جدًّا».

ولكن بيربلوسوم تعزف عنها، فهي قد قطعت على نفسها عهدًا صادقة، وتهز رأسها الحليق في قلنسوتها الرمادية اللون، وتبعد يد العجوز في رفق قائلة:

«كلا، يجب أن تتناولوها أنت، لأنه حتى إذا كان من المباح لي أن أكلها، فإنك أشد حاجة إليها مني؛ إذ إنني أتناول من الطعام ما يكفي حاجتي. وحتى إذا لم أكن أصيب شيئًا من الطعام، فلن أستطيع أن أتناول البيضة لأنني قد أصبحت راهبة».

ومع ذلك لم تكن المرأة العجوز تقتنع بهذا القول، فتضع البيضة بالقوة في صدر رداء بيربلوسوم حيث يتقاطع الرداء عند عنقها كشأن الراهبات، ثم تسرع في برميلها وتدفعه في الماء بعيدًا عن الباب، حتى لا تتمكن بيربلوسوم من اللحاق بها، ثم تبعد وعلى وجهها ابتسامة راضية.

ولكن بيرلوسوم أعطت البيضة في غضون نصف الساعة التالية إلى امرأة تعسة تتضور جوعاً، جاءت تزحف من الماء عند بوابة الدير. كانت هذه أمّاً تضم طفلاً صغيراً جائعاً إلى قطعة ضامرة من الجلد كانت في يوم من الأيام ثدياً ممتلئاً مستديرًا. وقد أشارت المرأة إلى ثديها وهي تستجدي بيرلوسوم التي أقبلت عندما سمعت نداءها الواهن:

«انظري إلى ثديي». لقد كانا مستديرين وممتلئين في وقت من الأوقات، وكان هذا الطفل مكتنزاً كأنه أحد الآلهة». وراحت تتفرس في المخلوق الصغير الذي كان يحتضر وهو ما زال يلصق شفثيه بثديها الخاوي. حينئذ أخرجت بيرلوسوم البيضة من صدرها وأعطتها للمرأة وهي تشعر بالغبطة لأن في حوزتها مثل هذا الشيء الثمين، ويمكنها أن تهبه للآخرين.

هكذا راحت بيرلوسوم تقضي حياتها في هدوء وسلام منذ ذلك الحين، ولم يعد وانج النمر يراها على الإطلاق.

كان وانج التاجر قادراً -إذا شاء- على أن يعين وانج النمر في تلك السنة المليئة بالأزمات؛ لأنه كان يختزن في الواقع كميات هائلة من الغلال، وإذا كانت المجاعة قد جلبت الفاقة للآخرين، فقد جلبت له ولأمثاله ثروات طائلة؛ إذ إنه حينما تبين ما ستمخض عنه الأيام بدأ يختزن كميات هائلة من الغلال في صوامعه. وبالرغم من أنه يبيع بعض هذه الغلال بين الحين والحين للأغنياء الذين كان في استطاعتهم اتباعها بالأثمان الفاحشة التي يحددها، فإنه راح أيضاً يبتاع كميات من الدقيق والأرز من بعض الأقاليم الأخرى، بل لقد كان يرسل وكلاءه إلى الأقطار

الأجنبية المتاخمة لشراء هذه السلع، وهكذا اكتظت مخازنه بالمؤونة.

أصبح وانج التاجر يمتلك وقتئذ من الفضة أكثر مما كان يمتلكه في أي وقت مضى، فكلما فاضت غلاله على منزل هذا الغني أو على تلك السوق ارتدت إليه قيمتها فضة، وقد أتخم في تلك السنة بكل هذه الفضة لدرجة أنه أصبح في حيرة من أمره لا يدري ماذا يمكن أن يفعل بها لكي يحتفظ بها في مأمن من الخطر. ولما كانت مهنته التجارة، فإنه لم يرغب في الحصول على مزيد من الأرض، ومع ذلك، فلم يكن هناك ضمان يستطيع الناس أن يقدموه إليه إذا اقترضوا منه بعض المال في هذا الوقت العصيب سوى أرضهم التي أغرقتها المياه. ولذلك جازف بأن يقرضهم الأموال بالربا في مقابل أن يرهنوا لديه كميات كبيرة من المحصولات المقبلة. ومثل هذه الرهون كانت كفيلة بأن تجعل جميع محاصيل تلك المنطقة بأسرها تتدفق على مخازنه حينما تنحسر المياه عن الأراضي مرة أخرى. ومع ذلك لم يكن أحد يعرف تمامًا مدى ثراء هذا الرجل، لأنه كان يبخل حتى على أبنائه بالمال الذي يحتاجون إليه للإنفاق على أنفسهم، ويدعي الفقر أمام كل ولد من أولاده، ويستبقهم في وظائفهم ككتبة للحسابات في متاجره وأسواقه، حتى إنه لم يبق واحد من بين أبنائه جميعًا - اللهم إلا الابن الأكبر الذي أعطاه لأخيه وانج النمر - لا يتطلع إلى اليوم الذي يموت فيه أبوه، حتى يتسنى له أن يتخلى عن متجره وأسواقه، وينفق بعض المال في اللهو وشراء الثياب الأنيقة التي يحرمهم منها أبوهم في الوقت الحاضر.

ولم يكن أبناء وانج التاجر الأشخاص الوحيدين الذين ييغضون

ما هم فيه من ذل وعبودية، بل كان يشاركهم في هذا المضمار بعض الفلاحين من أبناء تلك المنطقة من الريف، ومن بينهم ذلك المزارع ذي الأسنان النائثة كالرف الذي كان قد ابتاع مساحة كبيرة من أراضي وانج لانج بعد موته، فقد أثر هذا الرجل -بعد أن غاصت معظم الأرض تحت الماء- أن يعاني الضيق والمسغبة، وأن يري أطفاله يشرفون على الموت جوعاً عن أن يقترض مالا من وانج التاجر، ثم أخذ ينتظر انحسار المياه عن أرضه، ولكنه في أثناء فترة الانتظار أخذ أطفاله ومضى إلى مدينة من مدن الجنوب، مفضلاً هذا النوع من الحياة على أن يتيح لوانج التاجر فرصة الاستيلاء على أرضه.

ولكن وانج التاجر كان يتوسم في نفسه العدالة إلى حد بعيد، إذ كان يقول لنفسه ولكل من يقصده كي يقترض منه بعض المال، إن الناس يجب ألا يتوقعوا أن يقترضوا مالا أو يبتاعوا قمحا في وقت القحط بأسعار لا تزيد عن الأسعار العادية، وإلا، فأين الربح الذي يستطيع أن يجنيه رجل حرفته التجارة؟ ومن ثم لم يكن وانج التاجر يفعل شيئا سوى ما كان يعتبره عدلاً من وجهة نظره.

على أنه كان رجلاً على جانب كبير من الحنكة والفتنة، وكان يعلم أن الرجال لا يقيمون وزناً للعدالة في مثل هذه الأزمنة العصيبة، ويعلم أيضاً أن الناس يمقتونه من أعماق قلوبهم، ومن ثم أدرك أن وانج النمر يمكن أن يجديه نفعاً على اعتباره ملكاً من ملوك الحرب. لذلك تحامل على نفسه ووعد بإعطائه كميات هائلة من الغلال، كما أقرضه مبلغاً كبيراً من المال بفائدة بسيطة لا تعدو عشرين في المائة أو نحو ذلك على كل

قطعة من الفضة. وحينما كانا ييرمان الصفقة في مشرب الشاي ذات يوم، ندت عن وانج المالك، الذي كان يجلس إلى جوارهما، آهة عميقة، ثم قال:

«كنت أتمنى، أيها الأخ الصغير، أن أكون ثريًا مثل أخي التاجر هذا، ولكن في الواقع أنني ازداد فقرًا كل عام، وليس لديّ عمل يدر عليّ ربحًا كما يدر عليه عمله، ولا أمتلك إلا بعض المال الذي أقرضته لبعض الأشخاص، وقطعة صغيرة من الأرض هي كل ما تبقى لي من ضياع أبي. ولكنني أشعر أنه من الخير لنا جميعًا أن بيننا رجلًا ثريًا».

فلم يتمالك وانج التاجر أن يتسم ابتسامة تقطر حنقًا ومرارة، ولم يلبث أن قال في صراحة، إذ كانت تعوزه طلاوة اللسان ولباقة الحديث في معاملة الناس:

«إذا كان قد تسنى لي أن أمتلك القليل من المال، فما ذلك إلا لأنني أكدح وأكد في عملي، ولأنني أحرص على أن يعمل أولادي في متاجري، ولا أسمح لهم بارتداء الحرير، كما أنني لا أمتلك إلا امرأة واحدة».

لكن وانج المالك -ولو أنه قد فقد الكثير من حدة طبعه في الأعوام الأخيرة- ما كان ليطلق مثل هذا الحديث الصريح، لأنه أدرك أن أخاه إنما يقصد لومه لأنه قد باع جزءًا كبيرًا من الأرض التي تبقت له كي يتيح لولديه فرصة السفر إلى المدن الساحلية نزولًا على رغبتهما، فجلس برهة يرغي ويزبد في قرارة نفسه، ثم قال آخر الأمر بصوت مرتفع وكأنه يستفز نفسه:

«حسنًا، ولكنني أعتقد أنه من واجب الأب أن يطعم أبنائه، كما أنني أعتز بأولادي إلى حد كبير بحيث أضن بشبابهم الناضر أن يضيعوه أمام منضدة البيع في أحد المتاجر. وإذا كان عليّ أن أكرم أحفاد أبي، فهل أدعهم يتضورون جوعًا؟ أظن أن من واجبي أن أطعم أولادي. ولكن لعلني أجهل واجبي إذا كنت أعاملهم كما يعامل أبناء الملوك!».

ولم يستطع وانج المالك أن يزيد على هذا القول، لأنه في تلك الأعوام كان يعاني دائمًا نوبات السعال الحادة، وقد أخذ السعال يخرج في حشرجة من صدره في هذه اللحظة حتى زلزل كيانه. فلم يسعه إلا أن يمكث برهة صامتًا منتفخ الأوداج يستشيط غضبًا، وقد غارت عيناه في خديه المكتظين بالشحم وبدأ الدم يتصاعد ويبدأ في رقبتة الغليظة. أما وانج التاجر، فقد تسللت ابتسامة خفيفة إلى خديه النحيلين المجعدين، إذ إنه أدرك أن أخاه قد أخذ حديثه على محمل التقريع، فلم يعد ثمة ما يدعو لأن يقول أكثر مما قال.

بعد أن أبرمت الصفقة، وتم الاتفاق بينهما، أراد وانج التاجر أن يسجلها كتابة، وحينئذ صاح وانج النمر:

«عجبًا! ألسنا إخوة؟».

فقال وانج التاجر، كما لو كان يبدي اعتذاره:

«إنما ذلك من أجل ذاكراتي، فقد أصبحت ذاكرتي ضعيفة للغاية في هذه الأيام!».

على أنه مد الفرشاة إلى وانج النمر كي يجبره على أن يتناولها منه

ويمهر الوثيقة بأمضائه. ثم قال والابتسامة ما زالت مرتسمة على شفتيه:
«هل معك خاتمك أيضًا؟».

فصار لزامًا على وانج النمر أن يخرج الخاتم الذي يضعه في منطقته ويحمل اسمه محفورًا على قطعة من الحجر، وأن يختم اسمه على الوثيقة، قبل أن يتناولها وانج التاجر ويطويها، ثم يضعها بعناية في كيسه الذي يعلقه في حزامه. ومع أن وانج النمر قد حصل على بغيته، فقد خامره شعور بالغضب وهو يراقب أخاه، وأقسم بينه وبين نفسه ليوسعن رقعة أراضيه بطريقة أو بأخرى، وتمنى لو أنه لم يدع هذه السنوات تضيع هباء، مما اضطره إلى الاعتماد على هذا الأخ مرة ثانية.

وهكذا أنقذ وانج النمر رجاله بصفة مؤقتة، فطلب من ابنه أن يتأهب للرحيل، وأمر حراسه بأن يتجمعوا استعدادًا للعودة إلى ديارهم. كان فصل الربيع قد بات وشيكًا، وأخذت الأراضي تجف بسرعة، وأصبح الرجال في كل مكان متلهفين للحصول على بذور جديدة لكي ينثروها في حقولهم، ولم يعد الرجال في أي مكان يذكرون محنة الشتاء أو الناس الذين لقوا حتفهم، بل راحوا يتطلعون إلى مقبل الربيع وقد عاودهم نور الأمل.

كما تطلع وانج النمر أيضًا إلى آمال جديدة، وأخبر أخويه بعزمه على الرحيل، فأقاما وليمة لتوديعه قبل رحيله، وما إن انتهت الوليمة حتى قصد ذلك المكان الذي تحفظ فيه لوحات أسلافه حيث حرق بعض البخور. كان ابنه واقفًا بجواره وهو يحرق البخور، وبينما كان دخان البخور الكثيف ذو الرائحة الذكية يتعرج صاعدًا في الهواء، انحنى وانج النمر

تبعيلاً لأبيه وأجداده، وطلب من ولده أن ينحني كذلك. وحينما شاهد وانج النمر ابنه وهو ينحني بقوامه البديع، شعر بالفخر الشديد يملأ كيانه، وبداله وكأن أرواح أولئك الموتى قد تجمعت على مقربة منهما لكي تنعم النظر في هذا الغلام الرائع الذي انحدر من سلالتهم، وأحس بأنه قد أدى ما يقتضيه الواجب نحو أسرته.

بعد أن فرغ من مهمته واحترق البخور حتى أصبح رماداً في القمقم، امتطى جواده، كما امتطى ابنه جواده كذلك، وقفلا عائدين مع الحرس إلى إقليمهم بطريق البر.



في ربيع ذلك العام الذ بلغ فيه ابن وانج النمر الخامسة عشرة من عمره، جاء المدرب الذي كان قد عينه لتدريب ابنه، فقال له وهو يسير بمفرده في الفناء ذات يوم.

«سيدي القائد، لقد لقنت القائد الصغير، ابنك، كل ما أستطيع أن ألقنه له من دروس بمفردي، وهو في حاجة الآن إلى أن يذهب إلى مدرسة من المدارس الحربية حيث يكون له رفاق يؤدي معهم الطوابير ويتمرس معهم على فنون الحرب».

ورغم إدراك وانج النمر أن هذا اليوم لا بد آت، فقد بدا له في هذه اللحظة وكأن عشرات السنين قد مرت كلمح البصر، فأرسل في طلب ابنه ليوافيه في ذلك الفناء، ثم أحس فجأة بالإنهاك والشيخوخة يسريان في أوصاله، فجلس على مقعد من الحجارة تحت شجرة من أشجار الدفران ينتظر حضور ولده. وحينما أقبل الغلام من البوابة المستديرة التي تفصل الأروقة بعضها عن بعض، وهو يسير في خطواته الثابتة المتتدة نوعاً ما، تطلع إليه أبوه بنظرة جديدة. لقد كان الغلام فارع الطول حقاً، فقامته تكاد

تطول قامات الرجال، وقسمات وجهه قد ارتسمت عليها سيماء الخشونة والصرامة، وهو يطبق شفثيه في عزم وإحكام. كان وجهه ينم عن الرجولة أكثر مما ينم عن الطفولة. وبينما وانج النمر يتطلع إلى ولده الوحيد، تذكر في شيء من العجب أنه كان في يوم من الأيام يتعجل نمو ابنه على أحر من الجمر لكي يبلغ مبلغ الرجال، بل لقد خيل إليه ذات مرة أن فترة طفولته لم تنته أبداً. على حين أن ولده بدا له الآن وكأنه قد قفز لتوه من طور الطفولة إلى طور الرجولة. حينئذ تنهد وانج النمر وقال يحدث نفسه:

«كم كنت أود لو لم تكن هذه المدرسة في الجنوب. كنت أتمنى ألا يضطر إلى الذهاب وسط هؤلاء الأحداث الجنوبيين لكي يتلقى العلم!». ثم قال في صوت مسموع للمدرب الذي كان واقفاً يجذب بضع شعيرات تركها تنمو على شفثه العليا: «وهل أنت على يقين بأن من الخير له أن يذهب إلى تلك المدرسة؟».

فهز المعلم رأسه علامة الإيجاب، فمضى وانج النمر ينعم النظر في ابنه وقد استولى عليه الألم، وأخيراً سأل الغلام: «وأنت يا بني، هل لك رغبة في الذهاب؟».

كان من النادر جداً أن يسأل ابنه عن رغباته، لأنه يعلم تمام العلم ما يبتغيه هو لابنه، أما الآن، فقد راح يمني نفسه بأمل واه في أنه إذا رفض الصبي الذهاب إلى تلك المدرسة استطاع هو أن يتعلل بهذه الرفض. ولكن الغلام رفع رأسه على عجل، إذ كان حينئذ يتطلع إلى مجموعة من أزهار الزنبق قد أينعت تحت شجرة من أشجار الدفران، ولم يلبث أن قال:

«إذا كان من الممكن أن أذهب إلى مدرسة أخرى، فإن هذا يطيّب لي كثيراً».

على أن هذه الإجابة لم ترض وانج النمر على الإطلاق، فقطب ما بين حاجبيه، ثم أخذ يجذب شعر لحيته، وهو يقول في عصبية:

«أي مدرسة إذن يمكنك أن تلتحق بها سوى مدرسة حربية؟ وأي فائدة تعود عليك من ذلك الحشو الذي تكتظ به الكتب ما دمت ستصبح ملكاً من ملوك الحرب؟».

فأجاب الصبي متهيباً في صوت خافت: «لقد سمعت أنه توجد في هذه الأيام مدارس يستطيع فيها الطلبة أن يتعلموا كيف يفلحون الأرض وما شابه ذلك مما يتعلق بزراعة الأرض».

ولكن وانج النمر انتابه الدهول لهذه الحماسة، فهو لم يسمع قط عن مثل هذه المدرسة، ومن ثم زأر على حين فجأة:

«إن صح وجود مثل هذه المدارس، فهذه هي الحماسة بعينها! حسناً والله، إذن فلا بد أن يتعلم كل فلاح كيف يحرق الأرض ويذر الحب ويجني المحصول في هذه الأيام! حسناً، إنني أذكر جيداً أن أبي كان يردد دائماً أن المرء ليس في حاجة إلى أن يتعلم الفلاحة، فما عليه لمعرفة إلا أن يرقب ما يفعله جاره!» ثم قال في غلظة وجفاء: «ولكن ما علاقة هذا بك أو بي؟ إننا ملوك حرب، فإما أن نذهب إلى مدرسة من مدارس الحرب أو لا نذهب إلى مدارس على الإطلاق، بل تبقى هنا وتتولى قيادة الجيش من بعدي».

فندّت عن الابن زفرة، وتراجع منكمشاً بعض الشيء كما هي عادته حينما يزار أبوه، ثم قال بلهجة هادئة وفي صبر عجيب:

«سأذهب إذن إلى مدرسة الحرب».

ومع ذلك كان ثمة شيء في هذا الصبر ظل يثير نائرة وانج النمر، فأخذ يحملق في ولده، ويجذب شعر فوديه، وهو يود لو أن الغلام جاهر بمكنون صدره، وإن كان يعلم أنه سيستشيط غضباً إذا طرق سمعه ما يكنه ابنه في قلبه، وأخيراً صاح قائلاً:

«فلتعد نفسك؛ لأنك سترحل في الغدا!».

حينئذ أدى الغلام له التحية كما تعلمها، واستدار على عقبه، ثم خرج دون أن ينبس بكلمة أخرى.

عندما أرخى الليل سدوله وأصبح وانج النمر وحيداً في غرفته، بدأ يفكر في سفر ابنه بعيداً عنه، فتملكه نوع من القزع لما قد يصيب ابنه في تلك البقاع حيث يتصف الناس بالمكر والخديعة، ولم يلبث أن نادى حارسه وأمره بأن يدعو إليه تابعه الأمين الأشرم.

وحينما أقبل الرجل استدار وانج النمر لينظر إلى وجهه القبيح الذي يحمل سيماء الإخلاص والوفاء، ثم قال له في لهجة أقرب إلى التوسل، لا كما يتحدث السيد إلى خادمه:

«ذلك الابن، ابني الوحيد، ذاهب غداً إلى مدرسة من مدارس الحرب. وحتى إذا ذهب معه مدربه، فأنتى لي أن أعلم ما تخفيه سريرة ذلك الرجل الذي قضى سنوات عديدة في البلاد الأجنبية! إن عينيه تختفيان خلف

منظاره، وشفتيه تحتجبان خلف شعيرات شاربه، ويخيل إليّ أنه من الغرباء عني حينما أفكر في أن ولدي سيضطر إلى الاعتماد عليه اعتمادًا كاملاً. ستذهب أنت مع ابني؛ لأنني أعرفك ولا أعرف أحدًا غيرك كما أعرفك، فقد عاشرتني أيام كنت وحيدًا رقيق الحال، وبقيت على عهدك لي، فكنت في تلك الأيام كما أنت الآن بعد أن قويت شوكتي وازداد ثرائي. إن ولدي هو خير ما تملكه يميني، وقد عينتك لكي ترعاه نيابة عني».

إذ ذاك حدث شيء عجيب، فما كاد وانج النمر يفرغ من هذا القول حتى قال التابع الأشرم في جراءة، وقد بلغ من حمسه أن كلماته كانت تحدث صفيراً وهي تنساب من خلال أسنانه:

«اسمح لي يا قائدي ألا أطيعك في هذا الأمر بالذات، لأنني عازم على البقاء إلى جانبك. وإذا كان من المحتمل أن يرحل القائد الصغير، فإنني سوف اختار خمسين رجلاً من الرجال المحنكين الأشداء المخلصين، وسوف ألقنهم واجبههم نحوه، ولكنني سوف أبقى حيث تبقى أنت. إنك لا تعلم مدى حاجتك إلى رجل مخلص يبقى بجانبك، إذ إن في مثل جيشك الهائل هذا لا بد أن توجد دائماً حالات من السخط والفساد، فهذا رجل حانق، وذاك رجل يتحدث عن وجود قائد أفضل من القائد الحالي. كما أن هناك شائعات خطيرة تتواتر في الوقت الحالي عن أن حرباً جديدة ذات طابع غريب قد بدأ يتطاير شررها من الجنوب».

فأجاب وانج النمر على هذا القول في عناد:

«إنك تقدر نفسك أكثر من قدرها، أليس لديّ جزار الخنازير يبقى بجانبني؟».

فبدت على وجه التابع الأشرم أمارات الازدراء الشديد، وانقلبت
سحته بصورة مخيفة من شدة انفعاله وهو يقول:

«ذلك.. ذلك الأحمق! أجل، إنه لا يصلح إلا لاصطياد الذباب من
الهواء. وحقيقة أنك إذا عينت له شخصًا بالذات ليضربه، وحددت له
بالضبط الوقت الذي يجب أن يضربه فيه، ففي إمكانه حينذاك أن يكيل
له ضربة بقبضته الضخمة. أما فيما عدا ذلك، فهو ليس من الفطنة بحيث
يمكنه أن يرى شيئًا حتى يبصره أحد بمكانه!».

ولم يتزحزج الرجل عن موقفه على الإطلاق، فمضى وانج النمر
يأمره، صابرًا على عصيانه كما لم يصبر قط على مثل هذا الرفض من أي
إنسان آخر، وأخيرًا أخذ الرجل يردد المرة تلو المرة:

«حسنًا، إنني لأستطيع أن أغمد سيفي في جسدي. حسنًا.. إذن، ها
هما سيفي ورقبتي معًا».

فلم يسع وانج النمر في النهاية إلا أن يستسلم لمشية الرجل، ولما
أحس هذا أن قائده قد أذعن لرغبته طغى عليه شعور عميق بالفرح، رغم
أنه كان قبل لحظة مكتئبًا يتحدث عن الانتحار. ثم أسرع الرجل في نفس
تلك الليلة واختار خمسين جنديًا، أيقظهم من سباتهم، وأخرجهم في
صفوف متراصة، وراح يصب عليهم اللعنات، وهم واقفون في الفناء،
يتشاءبون ذاهلين تحت وطأة النوم، ويرتجفون من أثر هواء الربيع البارد.
ثم صاح فيهم من خلال شفته الشرماء:

«إذا مس القائد الصغير أي سوء حتى ولو مجرد ألم يصيب إحدى

أسنانه، فسوف يقع اللوم على عاتقكم وموتًا تموتون. إن كل عملكم ينحصر في أن تصحبوه أينما ولى وجهه، وتلتفوا من حوله لحراسته! عليكم أن ترقدوا حول فراشه في أثناء الليل، وألا تثقوا بأي إنسان أو تسمعوا إلى كلام كائن من كان في أثناء النهار، كلا، بل ولا إلى كلامه هو. أما إذا ركب رأسه وقال لكم إنه لن يقبل وجودكم معه وإنكم تثقلون عليه، فعليكم أن تجيبوه بقولكم: «إننا نأتمر بأمر أبيك القائد الكبير الذي يدفع لنا مرتباتنا ولا نطيع إلا أوامره فحسب. أجل، إن عليكم أن تحموه حتى من نفسه».

وراح يمطر الرجال الخمسين بوابل من اللعنات المنتقاة حتى يدخل الرعب إلى نفوسهم، ويجعلهم يدركون مدى خطورة الواجب المناط بهم، ثم قال لهم آخر الأمر: «أما إذا أحستهم عملكم، فسوف تنالون مكافأة سخية؛ إذ ليس ثمة من هو أكرم قلبًا من قائدنا الكبير، وسوف أتحدث إليه شخصيًا بهذا الشأن نيابة عنكم».

فقطعوا على أنفسهم العهد في صيحات مدوية كالزئير، إذ كانوا يعلمون أن هذا التابع الأمين أقرب إلى قلب قائدهم من أي رجل آخر اللهم إلا ولده. والحقيقة أنهم شعروا أيضًا بسرور بالغ لأنهم سيذهبون إلى بقاع أجنبية ويرون ما لم تقع عليه عيونهم من قبل.

حينما أقبل الصباح نهض وانج النمر من فراشه دون أن تغمض له عين في تلك الليلة، ثم سمح لابنه بالرحيل، وقطع معه شوطًا من الطريق، لأنه لم يحتمل أن يفارقه. ومع ذلك لم يكن هذا المسير مع ولده سوى مهلة وجيزة وتسويق قصير لما لا بد آت، ولذلك ما لبث أن جذب عنان

حصانه بعد أن ركب بجانب ولده برهة من الزمن، وقال له بغتة:

«يا بني، لقد قيل من قديم الزمان إنه بالرغم من أن الصديق قد يقطع مع صديقه ثلاثة آلاف من الأميال، فإن الفراق لا بد آت، وهكذا يجب أن تكون الحال بيني وبينك. وداعاً!».»

ثم شد قامته في صلابة وهو جالس على صهوة جواده، وتقبل مظاهر الامتثال والخشوع من ابنه، وراح يرقب الصبي وهو يعتلي السرج مرة ثانية، ثم يتبعد عنه في صحبة مدربه ورجاله الخمسين، وعندئذ لوى عنان جواده وعاد إلى بيته الخاوي، دون أن يلتفت وراءه ليلقي نظرة أخرى على ولده.

وأطلق العنان للأسى طيلة ثلاثة أيام، لم يستطع خلالها أن يدبر شأنًا من الشؤون أو يفكر في أمر من الأمور، حتى عاد آخر الرسل الذين كان قد بعث بهم مع ابنه لكي يقدموا إليه التقارير عن حالته. وكان يفدون كل بضع ساعات من أماكن مختلفة على طول الطريق، ويقدم كل منهم تقريره الخاص. قال أحدهم:

«إنه يتمتع بصحة جيدة ويبدو عليه المرح أكثر من المعتاد، وقد ترجل عن حصانه مرتين، وخطأ في حقل من الحقول حيث وجد أحد الفلاحين، فوقف يجاذبه أطراف الحديث».»

فسأله وانج النمر في دهشة:

«وماذا يمكن أن يكون لديه من القول لمثل هذا الفلاح!».»

فأجاب الرجل وهو يتذكر ما حدث بأمانة: «سأله عن البذور التي

يزرعها، ثم مضى يتفحص هذه البذور، كما نظر إلى الثور ليرى كيف يشد إلى المحراث، ومع أن رجاله ضحكوا وهم يرقبونه في هذه الحال، إلا أنه لم يلق إليهم بالاً وأخذ يحملق بشدة في الثور والطريقة التي يربطه الفلاح بها».

حينئذ تملك وانج النمر الحيرة، ثم قال للرسول:

«لست أدري لماذا يهتم ملك من ملوك الحرب بالطريقة التي يربط بها الثور، أو بأنواع البذور التي ينثرها الفلاح». ثم تريت قليلاً قبل أن يقول في ضجر: «أليس لديك مزيد من القول؟».

فأخذ الرجل يفكر هنيهة، ولم يلبث أن أجاب: «لقد توقف في أثناء الليل في خان على الطريق، والتهم في شهية بعض الخبز واللحم شيئاً من الأرز الطري والسمك، ولم يشرب سوى قدح صغير من الخمر، وعندئذ تركته وعدت أدراجي لأحمل إليكم هذه الأنباء».

وهكذا أقبل الرسل واحداً بعد الآخر يحملون إليه الأنباء بشأن ما فعله ابنه، وما تناوله من طعام وشراب، وظلوا يتوافدون للإدلاء بالتقارير حتى ذلك اليوم الذي وصل فيه الغلام إلى المكان الذي بدأ منه رحلته بالقارب في النهر لكي يصل إلى البحر. وحينئذ لم يسع وانج النمر إلا أن ينتظر وصول خطاب من ابنه، إذ لم يعد في إمكان الرجال أن يتبعوا أنباءه إلى أبعد من ذلك.

لم يكن وانج النمر يدري أفي استطاعته أن يتحمل ذلك القلق الذي كان يعانيه لغياب ابنه عنه أم يعجز عن ذلك! لولا أن حدث أمران حوَّلا

انتباهه وشغلاه عما يفكر فيه. كان أول هذين الأمرين هو أن جواسيسه عادوا يحملون إليه أنباء غريبة عن الجنوب وقالوا له:

«لقد ترامى إلى أسماعنا أن حرباً جد غريبة يستعر لهيها في الجنوب. إنها حرب من نوع الانقلابات والثورات، وليست حرباً عادية بين ملوك الحرب».

فأجاب وانج النمر في لهجة لا تخلو من الازدراء؛ إذ كان مكتئباً غاية الاكتئاب في هذه الأيام:

«ليس هذا بالأمر الجديد على الإطلاق. فحينما كنت في صدر شبابي سمعت عن حرب ثورية كهذه، ومن ثم ذهبت للاشتراك فيها، معتقداً أنني بهذا أؤدي عملاً شريفاً نبيلًا. ومع ذلك، فلم تكن سوى حرب عادية مهما كان أمرها، فقد اتحد ملوك الحرب ردحاً من الزمن في وجه الأسرة المالكة، على أنهم بعد أن وفقوا في مهمتهم وخلعوا الجالس على العرش عادوا يتناحرون ويعمل كل واحد منهم لحسابه الخاص».

بيد أن الجواسيس عادوا جميعاً يحملون نفس القصة، وقالوا:

«كلا، بل إنها نوع جديد من أنواع الحروب يطلقون عليه: حرب الشعب، حرب في سبيل عامة الشعب».

فأجاب وانج النمر في صوت عال، وهو يرفع حاجبيه الأسودين متعجباً لهؤلاء الجواسيس الحمقى:

«وكيف يتأتى لعامة الشعب أن يشنوا حرباً؟ هل لديهم بنادق يستخدمونها، أو أنهم يشنون الحرب مستخدمين العصي والهراتات

والمذاري والمناجل؟!» وصوب نظرة نارية إلى جواسيسه جعلتهم يتخاذلون، فأخذوا يسعلون ويتبادلون النظرات، وأخيرًا قال أحدهم في ذلة ومسكنة:

«ولكننا لا ننقل سوى ما سمعناه فحسب».

فعفا عنهم وانج النمر في عظمة وجلال، قائلاً لهم:

«حقًا ما تقولون، فهذا هو واجبكم، ولكنكم لم تسمعوا إلا محض هراء». ثم أذن لهم بالانصراف، غير أن ما قاله هؤلاء الجواسيس لم يغرب تمامًا عن ذهنه، فقال في نفسه إنه يجدر به أن يتابع هذه الحرب ليرى حقيقة كنهها.

ولكنه قبل أن يستطيع التفكير مليًا في الأمر، برز في أنحاء أقاليمه أمر آخر ألح عليه وطرده من ذهنه ما عداه من أفكار.

اقترب الصيف. وحيث إنه لا يوجد شيء أكثر تقلبًا من هذه السماء التي تظلنا، فقد كان صيفًا جميلًا اختلط فيه هطول الأمطار بظهور الشمس، وانحسرت المياه عن الأرض، فتركها متفتحة تفيض بالخصب. وأينما وقع الرجال على شيء من البذور لم يكن عليهم سوى أن يلقوا بها في هذه الأرض الدافئة النابضة التي تتبخر مياهها من حرارة الشمس. وكان أن تفجرت الحياة من الأرض، وبشر المحصول بوفرة في الطعام، وبالخير العميم.

بيد أنه في أثناء انتظار المحصول كان الكثير من الرجال يعانون الجوع، فانتشر اللصوص مرة أخرى في أقاليم وانج النمر بصورة أسوأ

مما كانت عليه في الماضي. أجل، حتى في ربوع أقاليمه، حيث كان يكفل الطعام لجيشه العرمرم ويدفع المرتبات لجنوده، كان هناك رجال بلغ بهم اليأس أنهم تجاسروا على أن يكونوا عصابات من اللصوص ويتحدوا سلطته. وحينما كان يطلق جنوده لمطاردتهم لا يعثرون لهم على أثر، وكأنهم عصابات من الأشباح. إذ كان جواسيسه يهرعون إليه قائلين: «أغار اللصوص بالأمس على ناحية في الشمال وأضرمو النار في قرية آل تشنج» أو يقولون له: «هاجمت عصابة من اللصوص جماعة من التجار منذ ثلاثة أيام، وقتلوهم على بكرة أبيهم، ثم استولوا على بضائعهم من الأفيون والأقمشة الحريرية».

فاجتاح وانج النمر غضب جارف حين بلغه أمر هذا الخروج عن القانون، وكان أشد ما يكون غضباً لأن الإيرادات التي يحصلها من التجار كانت تسلب منه على هذا النحو، تلك الإيرادات التي كان في مسيس الحاجة إليها لكي تخلصه من ربة أخيه وانج التاجر. وبلغ منه الغضب مبلغاً أحس معه برغبته في قتل أي إنسان كائناً من كان. حينئذ هب واقفاً في الفناء، وصاح يأمر ضباطه بأن يوزعوا جنودهم في أنحاء تلك المنطقة بأسرها، ووعد بإعطاء مكافأة قيمتها قطعة من الفضة مقابل كل رأس يأتون له به من رؤوس اللصوص.

ومع ذلك، فحينما اندفع جنوده للقبض على اللصوص، يحفزهم إغراء المكافأة، لم يعثروا لهم على أثر. والحقيقة أن عدداً كبيراً من هؤلاء اللصوص كانوا جماعة من الفلاحين البسطاء، لا يخرجون من أوكارهم إلا إذا اطمأنوا أن أحداً لا يقتفي أثرهم. أما إذا رأوا أن الجنود يطاردونهم،

فإنهم يتظاهرون بالانهماك في حفر الحقول وعزقها، ويقصون على مسامع الجنود قصصًا مؤسفة عما قاسوه من عذاب على يد هذه العصابة أو تلك، ويتحدثون إليهم عن شتى العصابات الأخرى عدا عصابتهم، فهم لا يذكرون عنها شيئًا على الإطلاق. ولئن سمعوا أحد الناس يقص أنباءها، تلفتوا حولهم في بلاهة وقالوا إنهم لم يصادفوا قط مثل هذه العصابة، بل لم يسمعوها بهذا الاسم على الإطلاق. ولكن لما كان وانج النمر قد وعد جنوده بتلك المكافأة، ولما كان الكثيرون منهم يتسمون بالجشع، فقد راحوا يقتلون أي رجل يتمكنون من قتله، ويحضرون رأسه إلى وانج النمر على زعم أنه رأس أحد اللصوص. ولم يكن أحد ليستطيع أن يناقضهم فيما يزعمون، فكانوا بهذه الوسيلة يستولون على المكافأة المنشودة. وهكذا قتلوا كثيرًا من الرجال الأبرياء، دون أن يتجاسر أحد على التذمر أو الشكوى؛ لأن الناس كانوا يعلمون أن وانج النمر قد أطلق جنوده في سبيل غاية شريفة مشروعة. أضف إلى ذلك أنهم إذا قدموا شكواهم إليه فقد يغضبون جنديًا من الجنود، ويلفتون نظره إلى الشاكي، فيستقر في ذهنه أن هذا الشاكي له رأس يمكن إطاحته كذلك.

وفي يوم من أيام منتصف الصيف، حينما استطالت أعواد قصب السورغو حتى بلغت ارتفاعًا يطول قامات الرجال، انتشر اللصوص في كل مكان وكأنهم شعلة من نار اندلعت فجأة، فاستبد الغضب بوانج النمر لدرجة أنه هبَّ ذات يوم، وقاد الجيش بنفسه لمقاتلة اللصوص، رغم أنه لم يخرج هكذا على رأس جنوده منذ أيام وسنين كثيرة. فقد بلغه ذات يوم أن عصابة معينة قليلة العدد تكمن في إحدى القرى، وكان جواسيسه

قد راقبوا أفراد هذه العصابة حتى تبينوا أنهم يعملون في الفلاحة في أثناء النهار ويعملون السلب والنهب في أثناء الليل. والظاهر أن الأراضي التي يمتلكها هؤلاء القرويون كانت أراضي وطيدة للغاية، كما أن قريتهم كانت تقع في واد غائر فسيح، بحيث لم يتمكن أولئك الفلاحون من زراعة أراضيهم بنفس السرعة التي زرع بها الآخرون أرضهم، ولهذا، فإنهم لم يصيبوا شيئاً من الطعام مثل غيرهم من الناس الذين لم يتضوروا جوعاً في الشتاء والربيع.

عندما بلغت وانج النمر هذه المعلومات عن مدى شرور هؤلاء اللصوص، وكيف أنهم يسطون على القرى الأخرى ليلاً، ويسلبون الطعام من سكانها، ويقتلون كل من يقاوم عدوانهم، جاش الغضب في أعماقه، فذهب بنفسه مع رجاله إلى تلك القرية، وأمرهم بأن يحاصروها دون أن يتركوا منفذاً يهرب منه أي إنسان. ثم ركض مع بعض الجنود الآخرين إلى داخل القرية على ظهور جيادهم، وقبضوا على كل سكانها من الرجال، فبلغ عددهم مائة وثلاثة وسبعين رجلاً، شباباً وشيوخاً. وبعد أن قبضوا عليهم وأوثقوهم جميعاً بعضهم مع بعض بالحبال، أمر وانج النمر رجاله أن يأتوا بهم إلى جرن فسيح من أجران الحنطة يقع قبالة بيت شيخ القرية، حيث أخذ ينظر شزراً إلى وجود هؤلاء التعساء من فوق صهوة جواده. كان بعض الرجال يكون ويرتجفون فرقاً، وقد استحالت وجوه البعض الآخر إلى لون الطين، في حين أن بعضهم وقف متجهماً غير هيّاب ولا وَجَل، فقد عرفت قلوبهم مرارة اليأس من قبل. ولم يبق هادئاً سوى الشيوخ الذين استسلموا للمصير المحتوم، فقد بلغوا من العمر أزدله،

وبات كل منهم يترقب الموت من لحظة إلى أخرى.

غير أن وانج النمر حينما رأى أنهم قد أصبحوا جميعاً تحت رحمته، أحس برغبته الجامحة في القتل تنفتر في أعماقه، فلم يعد الآن قادراً على القتل بنفس العزم الذي اعتاد أن يقتل به في الماضي. كلا، لقد وهنت قوته -دون أن يحس أحد- منذ قتل الرجال الستة ولمح نظرة الرعب التي لاحت في عيني ابنه. ولكي يستر من ضعفه في هذه اللحظة، قطب ما بين حاجبيه وزم شفتيه، ثم زار في هؤلاء الناس:

«إن كل رجل منكم يستحق الموت. ألم تعرفوا عني طيلة هذه الأعوام أنني لا أقبل أن يعيث اللصوص في أرضي؟ ومع ذلك، فإنني رجل رحيم. سأضع في اعتباري آباءكم المسنين وأطفالكم الصغار، ولن أقضي عليكم هذه المرة. كلا، سوف أدخر الموت للمرة القادمة التي تجرؤون فيها على عصيان أوامري وتعاودون السلب والنهب». ثم نادى رجاله الذين كانوا يحيطون بأهل القرية وقال لهم: «استلوا مداكم الحادة من أحزمتكم وأصلموا آذانهم فقط، كإنذار لهم يذكرهم بما قلته اليوم لهم!».

فتقدم جنوده وشحذوا مداهم على نعال أحذيتهم، ثم قطعوا آذان اللصوص وألقوها في كومة على الأرض أمام وانج النمر الذي نظر إلى اللصوص، وقد سالت دماء كل واحد منهم في خطين انسابا على خديه، ولم يلبث أن قال:

«فليجعلوا من آذانكم هذه تذكارة لكم!».

ثم لوى عنان حصانه وركض به بعيداً عن هذا المكان. وفي أثناء

مسيره حدثته نفسه بأنه ربما كان من الأجدر به أن يقتل هؤلاء اللصوص
ويقضي عليهم قضاء مبرماً لكي يطهر إقليمه من شرهم؛ لأن في قتلهم
عبرة للآخرين، كما حدثته نفسه بأن من المحتمل أنه قد أصبح ضعيفاً
ورحيماً أكثر من اللازم بعد أن تقدمت به السن. على أنه أخذ يث الراحة
في قلبه بقوله:

«لقد أبقيت على هذه الأرواح من أجل ولدي، وسوف أقص عليه
يوماً كيف أنني لم أستبح دم مائة وثلاثة وسبعين رجلاً إكراماً له، وبذلك
أبعث السرور في نفسه».



هكذا راح وانج النمر يقضي تلك الشهور التي تركه فيها ابنه فريسة الفراغ والوحدة في بيته. بعد أن قمع اللصوص في أقاليمه مرة أخرى، وظهرت المحاصيل، فساعدته على ذلك لأن الأهالي حصلوا على الطعام، انطلق في فصل الخريف الذي لا تشوبه برودة الرياح القارسة أو حرارة الشمس القائظة، مصطحبًا معه ما يقرب من نصف جيشه، ومضى يجوب في شتى أنحاء أراضيه، قائلاً لنفسه إنه يجب أن يتأكد من أن كل شيء في الإقليم معد لاستقبال ابنه عند عودته. فقد أضمر أن يتخلى له بعد عودته عن قيادة جيشه الضخم في تلك البقاع، ولا يحتفظ لنفسه إلا بعدد قليل من الحرس. ذلك أنه حينذاك سيكون قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، في حين أن ابنه سيكون قد بلغ العشرين ودخل في طور الرجولة. كانت هذه الأحلام تراوده وهو يجوب في أنحاء ممتلكاته معتليًا صهوة جواده. كما راح بعين الخيال يتمثل حفيده يوم يتجول مثله في هذا الإقليم، أما بعين الواقع، فقد مضى يرقب الأهالي ويتفحص الأرض ويفكر في كمية الإيرادات ويتأمل بشائر الحصاد الطيب. فالآن

وقد انقشعت المجاعة، بدأت الأرض تنبت نباتًا حسنًا مرة أخرى، وإن كانت الأرض والناس ما زالوا يحملون آثار هذين العاملين من المجاعة، فالأرض لم تغل بعد المحصولات الوفيرة، والكثير من الناس ما زالت حدودهم غائرة من أثر الجوع. كما أنه لم تعد هناك سوى قلة نادرة من الأطفال والشيوخ. غير أن الحياة بدأت تدب من جديد، وكان مما يبعث على الراحة في قلب وانج النمر أن يرى كثيرًا من النساء الحوامل مرة أخرى. وقال في نفسه وهو يمعن في التأمل:

«لعل من الخير أن السماء قد أرسلت تلك المجاعة لكي أعود فأرى الطريق الذي رسمه لي القدر، فقد ركنت إلى الدعة والراحة أكثر مما ينبغي طيلة هذه السنوات الأخيرة، وقنعت بما لدي أكثر من اللازم. فمن المحتمل أن تكون هذه المجاعة قد أرسلتها السماء لكي تحفزني إلى تحقيق أمجاد أعظم مما حققته حتى الآن، ومعني هذا الابن الذي أنجبته ليرث كل أعمالني ومكاسبني من بعدي».

فرغم أن وانج النمر كان أكثر حكمة من أبيه العجوز في زمانه، فلم يكن يؤمن بوجود إله يتحكم في الأرض، إلا أنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالقدر والسماء، ويعتقد أن كل ما يحدث له -سواء في الحياة أو الموت- ليس وليد المصادفة على الإطلاق، بل إن كل تجارب الحياة والموت تتسم بالعدالة ومكتوبة في لوح القدر وآتية من لدن السماء.

وذات يوم في الشهر التاسع من تلك السنة المنصرمة، امتطى وانج النمر صهوة جواده وانطلق على رأس جنوده الذين ساروا وراءه مفعمين بالبهجة والسرور. فراح الناس في كل مكان يقدمون إليه فروض التحية

بطريقة أو بأخرى، إذ كانوا يعرفونه رجلاً عاتياً قوى الشكيمة، حكمهم حكماً عادلاً هذه السنين الطويلة. كانوا عند رؤيته يعلقون البسمات على وجوههم، وإذا ما توقف في مدينة من المدن أو قرية من القرى أقام له شيوخ هذه المدينة أو تلك القرية الولائم الباذخة. لم يقصر في مجاملته سوى الفلاحين من العامة الذين كانوا كثيراً ما يدبرون ظهورهم للطريق حينما يلمحون جنوده قادمين، ثم يستحثون العمل في الحقول حتى يمر الجنود، فيبصقوا ويبصقوا لكي ينفّسوا عن مكنون حقدهم. ومع ذلك، فإذا ما سأل جندي من الجنود أحد هؤلاء الفلاحين في شراسة عن السبب الذي يدفعه إلى البصق، ترسم على وجه الفلاح نظرة بريئة بلهاء، ثم يجيب:

«بسبب هذا الغبار الكثيف الذي دخل فمي متطائراً من تحت سنابك الخيل التي مرت من هنا».

على أن وانج النمر لم يكن في حاجة إلى أن يلقي بالاً إلى كائن من كان، سواء في الريف أو الحضر.

وفي أثناء ترحاله أقبل على تلك المدينة التي كان قد ضرب عليها حصاراً في الماضي، وظل ابن أخيه المجدور يحكمها نيابة عنه طيلة هذه السنوات الكثيرة. على أنه قبل وصوله بعث ببعض الرسل أمامه كي يعلنوا عن مقدمه، وراح يلقي نظرات ثاقبة ذات اليمن وذات الشمال ليتبين ما صار إليه حال هذه المدينة تحت حكم ابن أخيه.

لم يعد هذا الشاب حدثاً صغير السن، إنما أصبح الآن رجلاً، وقد أنجب ولداً أو اثنين من زوجته ابنة نساج الحرير. وما إن سمع هذا

الشاب أن عمه قد أقبل، بل إنه قد وصل إلى بوابات المدينة، حتى انتابه زعر شديد. فالواقع أنه قد عاش سنين طويلة ينعم بالهدوء والسلام في هذه المدينة حتى كاد ينسى أنه من رجال الحرب. كان دائم المرح، لين الجانب، ولعاً بالملذات والطرائف المبتكرة. وكان سعيداً بحياته هناك، لأنه كان يتمتع باحترام الناس لما له من سلطة ونفوذ، ولأنه ما من عمل جسيم يقوم به اللهم إلا جمع الإيرادات، فلا غرو أن اكتنز جسمه بالشحم. بل لقد نضا عنه ثوب الجندية في هذه الأعوام الأخيرة وارتدى بدلاً منه ثياباً فضفاضة، فكان يبدو فيها وكأنه تاجر من الأثرياء. والحقيقة أنه كان على علاقة طيبة للغاية مع تجار المدينة، فكان يحصل منهم على بعض الأرباح البسيطة عندما يدفعون له الضرائب كي يرسلها بدوره إلى وانج النمر، فضلاً عن أنه كان أحياناً يستغل اسم عمه لفرض ضريبة بسيطة على إحدى السلع الجديدة لحسابه الخاص. أما إذا عرف التجار حقيقة الأمر، فإنهم لا يوجهون إليه اللوم، نظرًا لأن هذا هو ما يمكن أن يفعله أي واحد منهم لو قدر له أن يكون في مكانه. هكذا أحب التجار ذلك الفتى المجدور، وكانوا يقدمون له الهدايا في بعض الأحيان؛ لإدراكهم أن في وسعه أن يبلغ عمه ما يروق له من التقارير، فيلحق بهم الأذى.

هكذا عاش ابن أخي وانج النمر هذه الحياة المرحّة البهيجة، وكان سعيداً مع زوجته؛ لأنه لم يكن مفرط الشهوة، لا يستهويه فراش غير فراشه، إلا في تلك الليالي المعدودات حينما يقيم أحد أصدقائه وليمة باذخة أكثر من المعتاد، ويستأجر بعض الفتيات الجميلات طرفاً من

الليل، إمعاناً في إكرام ضيوفه. وكان يُدعى دائماً إلى مثل تلك الولائم نظراً لمركزه في المدينة، ومن أجل شخصه أيضاً، إذ كان مهرجاً حاضراً البديهة لاذع اللسان يستطيع أن يشيع البهجة في نفوس الرجال، لا سيما إذا كانت الخمر قد لعبت برؤوسهم.

وما كاد الشاب يعلم بقدوم عمه حتى هرع إلى زوجته يطلب منها أن تبحث له عن ملابس العسكرية عليها تجدها في صندوق أو آخر من الصناديق التي ألقت بها فيها. ثم جمع جنوده الذين كانوا بدورهم ينعمون بالحياة الرغدة اللينة، ويعملون كخدمه الخاص أكثر مما يعملون كجنود في الجيش. وبينما كان يدس ساقيه السمينتين في الثياب العسكرية، راح يسائل نفسه في عجب: كيف كان يطيق يوماً ارتداء هذا الزي الضيق الخشن؟ ولما كان بطنه قد ازداد عما كان عليه في صباه، فإن ثيابه انفرجت في هذا الموضع، ما دعاه إلى أن يلف حزاماً عريضاً حول وسطه لكي يخفي هذا البروز. وبعد أن ارتدى ثيابه كيفما اتفق، وجمع جنوده بطريقة أو بأخرى، أخذوا جميعاً يتربعون وصول وانج النمر.

في بضعة أيام قلائل أدرك وانج النمر كل ما جرى في هذه المدينة، وأدرك مغزى الولائم الفخمة التي أقامها له التجار والحاكم أيضاً، كما رأى في جلاء أن ابن أخيه يتصبب عرقاً في ثيابه العسكرية. وذات يوم هدأت فيه الرياح وتوهجت أشعة الشمس حارة ملتهبة، خلع ابن أخيه سترته تحت وطأة القيظ، فابتسم عمه في فتور بينه وبين نفسه حين رأى ثيابه منفرجة عن بطنه أسفل حزامه الذي لم يكن قد أحكم رباطه. وقال في نفسه:

«إنني سعيد لأن ولدي له خلق النبلاء، وليس على شاكلة ابن أخي هذا الذي لا يصلح إلا للتجارة رغم كل شيء».

لذلك عامل ابن أخيه في غير احتفال، ولم يغال في الثناء عليه، بل قال له في فتور:

«إن جنودك الذين تقودهم نيابة عني قد نسوا كيف يمسون بالبنادق. ولا شك أنهم في حاجة إلى خوض الحرب مرة أخرى. لم لا تخرج على رأسهم في الربيع القادم وتدريبهم على الحرب؟».

فتلثم ابن أخيه وتصبب العرق من جبينه؛ لأن الحقيقة أنه رغم شجاعته وقدرته على أن يكون جندياً بارعاً، إذ نسجت حياته على هذا المنوال، لم يكن بالرجل الذي يصلح لأن ينطلق إلى الحرب على رأس الجنود ويجعلهم يخشون بأسه، فضلاً عن أنه قد استمر ذلك النوع من الحياة الذي أصبح يحياه الآن.

وحينما لمح وانج النمر الاضطراب بادياً على وجهه، ضحك ضحكته الصامتة وأطبق فجأة على مقبض سيفه، ثم صاح قائلاً:

«حسنًا يا ابن أخي، ما دمت تعيش في رغد، وما دامت المدينة تنعم بهذا الرخاء، فإننا نستطيع بلا ريب أن نرفع من قيمة الضرائب التي تفرضها هنا. إنني أنفق نفقات باهظة على ابني في الجنوب، كما أنني أفكر من أجله في توسيع رقعة نفوذي في أثناء غيابه. عليك إذن أن تضحي بعض الشيء، وتضاعف لي الضرائب في هذا الإقليم».

وكان ابن أخيه قد عقد اتفاقاً سريعاً مع التجار مؤداه أنه إذا فكر عمه في

زيادة الضرائب، فسوف يتعلل له بفقر الأهالي وسوء الحال. فإذا توصل إلى إقناع عمه بعدم رفعها، استحق مبلغاً سخياً من المال مكافأة له على ذلك. ومن ثم بدأ ينفذ الاتفاق، فأخذ يقنع عمه في لهجة استعطاف، لكن وانج النمر لم يهتز لهذه التأوهات على الإطلاق، ثم صاح به آخر الأمر في عنف وخشونة:

«إني أعلم ما آلت إليه الأحوال هنا، وأعلم أن هناك أساليب للتآمر ضدي تختلف عن الأسلوب الذي انتهجه الصقر، ولكنني أطبق نفس العلاج في جميع الحالات».

فأبلغ ابن الأخ بالأمر، وقد علت وجهه الحسرة والأسى؛ لأنه فقد مبلغاً وفيراً من الفضة، فأرسل التجار مظلمة إلى النمر يقولون فيها:

«إن ضريبتك ليست هي الضريبة الوحيدة التي تفرض علينا. فهناك ضريبة المدينة وضريبة الدولة، كما أن قيمة ضريبتك أعلى من أي ضريبة أخرى، ولذا لا يكاد أي عمل من الأعمال يدر علينا شيئاً من الربح».

فأدرك وانج النمر أن الوقت قد حان لأنه يشهر سيفه. فقال لهم في غلظة، بعد أن استنفد الكلمات الرقيقة: «أجل، ولكن القوة في يدي، وسوف أنتزع منكم بالقوة ما لم تعطوني إياه حين طلبته في لهجة مهذبة رقيقة».

استطاع وانج النمر بهذا الأسلوب أن يؤدب ابن أخيه ويلزمه مكانه مرة أخرى، كما استطاع أيضاً بهذا الأسلوب أن يحكم قبضته على تلك المدينة وعلى أقاليمه جميعاً.

حينما استتب الأمر عاد وانج النمر إلى دياره وأخذ يترقب نهاية الشتاء، وقد انهمك في هذه الأثناء في إطلاق جواسيسه إلى كل فج، وفي إعداد خططه، إذ كان يمني النفس بانتصارات باهرة في الربيع، ويحلم بأنه قد يستطيع، حتى في هذه السن، أن يستولي على المقاطعة برمتها من أجل ابنه.

أجل، لقد ظل وانج النمر يعيش في هذا الحلم طيلة ذلك الشتاء المديد. غير أنه لم يعان في حياته من الوحدة كما عانى في ذلك الشتاء، حتى لقد بلغ من شدة شعوره بالوحشة أنه راح يتردد على رواق حريمه بين الفينة والفينة لأنه كاد يفقد صوابه. ولكن لم يكن ثمة شيء يسري عنه هناك، إذ إن زوجته الجاهلة كانت تعيش في الرواق بمفردها مع بناتها، ولم يكن لديه ما يقوله لهن، لذلك لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يجلس وحيداً مهموماً، لا يكاد يشعر بأن له زوجة أو بنات. وكان يسأل نفسه في بعض الأحيان عن زوجته المتعلمة، ولكنها لم تعد مطلقاً إلى البيت طوال هذه السنين الطويلة، بل ظلت تعيش على مقربة من ابنتها التي كانت تتلقى العلم في إحدى المدارس. وقد أرسلت إليه ذات مرة صورة لها مع هذه الشابة، فراح يتفرس فيها هنيهة؛ كانت الفتاة مليحة، ذات وجه جريء صغير، وهي تتطلع من الصورة في جسارة، وقد بدت عيناها السوداوان اللتان تطل منهما الجراءة تحت شعرها القصير، غير أنه لم يشعر أنها تنتمي إليه؛ إذ كان يعلم جيداً أنها من أولئك الفتيات العصريات اللاتي يتسمن بالمرح والثثرة، واللاتي ينعقد لسانه أمامهن. ثم أخذ يتطلع إلى صورة زوجته المثقفة التي لم يعرفها قط حق المعرفة.

كلا، لم يعرفها ولا حتى في تلك الأيام حينما كان يتردد عليها في ظلام الليل. تطلع إلى صورتها أكثر مما تطلع إلى صورة ابنتها، وتطلعت إليه بدورها من الصورة، فعاوده ذلك الشعور بالحرج الذي اعتاد أن يتتابه في حضورها. إذ بدت وكأنها تريد الإفضاء إليه بشيء لا يود سماعه منها، وكأنها تبغي منه مطلبًا لا ينبغي أن يحققه لها. حينئذ أخذ يتمتم في نفسه، وهو ينحي الصورة عن ناظره:

«ليس في حياة الرجل متسع لكل هذه الأشياء. لقد كنت دائمًا مشغولًا بشتى المهام. ولم يكن لديّ وقت أضيعه مع النساء».

هكذا راح يشد من عزمه قليلًا. وعدّها فضيلة في نفسه أنه لم يقرب حتى زوجته طوال سنوات كثيرة، ولم يشعر نحوهما بالحب قط.

وكانت أحلك الساعات بالنسبة إليه هي تلك الساعات التي يقضيها وحيدًا في أثناء الليل بجانب مجمرته. كما في إمكانه في أثناء النهار أن يشغل نفسه بطريقة ما، ولكن ها هي ذي الليالي تعود مرة أخرى، فتجثم على صدره بظلامها وكآبتها كما كانت في الماضي. في هذه الليالي كان الشك يتسرب إلى نفسه، إذ يشعر أن الشيخوخة قد دبّت في أوصاله، فيشك في قدرته على إحراز أي نصر باهر جديد حتى في فصل الربيع. وفي هذه الليالي كان يبتسم في ألم ومرارة، وهو يتأمل قطع الفحم المتوهجة في المجمرة، ويقرض شعر لحيته، قائلاً لنفسه في أسى:

«ربما كان من المحال أن يحقق المرء كل ما يعقد عليه العزم». وبعد هنيهة يعود إلى التفكير ويقول: «أغلب ظني أن الرجل عندما ينجب ولدًا، فإنه في إبان حياته يرسم له خططًا تكفي لثلاثة أجيال مقبلة».

في تلك الآونة اعتاد التابع الأمين الأشرم العجوز أن يسهر على راحة سيده الكهل. وحينما رأى أنه يطيل التفكير متأملًا جمرات الفحم في أثناء الليل، ولا يبدي اهتمامًا بجنوده في أثناء النهار حتى لقد أصبح يترك لهم الحبل على الغارب، دخل عليه دون أن يكتر من الكلام، وهو يحمل بين يديه إبريقًا من الخمر الجيدة الساخنة مع قليل من الأطعمة المملحة التي تفتح الشهية للشراب. وأخذ يغري سيده بشتى الوسائل أن يروح عن نفسه. فلم يلبث وانج النمر بعد هنيهة أن خرج من انطوائه وشرب قليلًا من الخمر، ثم تجرع المزيد حتى انتعش قلبه واستطاع النوم أن يجد إلى جفنيه سبيلًا. وكلما تجرع الخمر على هذا النحو، كان يفكر في نفسه قبل أن يستسلم للنوم:

«حسنًا، عندي ولدي، وهو يستطيع أن يحقق ما عجزت عن تحقيقه إبان حياتي».

وفي ذلك الشتاء أقبل وانج النمر -دون وعي منه- على احتساء الخمر أكثر من أي وقت مضى، ما أدخل الراحة والطمأنينة على نفس التابع الأمين العجوز الذي كان يحبه حبًّا جمًّا. وعندما كان وانج النمر ينحي وعاء الخمر جانبًا في بعض الأحيان، كان الرجل العجوز يغريه بالشراب في حماسة قائلًا:

«اشرب يا سيدي القائد، لأن كل رجل يجب أن يركن إلى بعض المتعة ويدخل شيئًا من السرور على نفسه عندما تتقدم به السن، ولكنك تقسو على نفسك كثيرًا».

حينئذ كان وانج النمر يقبل على الشراب لكي يدخل السرور على

نفس تابعه الأمين، ويظهر له أنه يكن له التقدير. ومن ثم كان في إمكانه أن يستسلم للنوم، حتى في ذلك الشتاء الذي قاسى فيه مرارة الوحدة، لأنه وجد راحة لقلبه من هذا السبيل. وكان إذا احتسى الخمر، يداخله إيمان حار بولده، وتتلاشى من ذهنه فكرة وجود أي خلاف بينهما، وفي هذه الأيام لم يدر بخلده قط أن أحلام ولده قد تكون مختلفة عن أحلامه، فأصبح يعيش على أمل قدوم الربيع.

وذات ليلة قبل حلول الربيع كان وانج النمر جالسًا في حجرته، وقد شعر بالدفع وكاد النعاس يتسلل إلى عينيه، بينما استقر إبريق الخمر باردًا على نضد صغير في متناول يده، بعد أن خلع سيفه ووضع أمامه إلى جوار إبريق الخمر.

وفجأة ترامت إلى سمعه وسط السكون العميق الذي يخيم على ليالي الشتاء جلبة جياذ ووقع أقدام جنود يهرعون إلى الداخل ويتوقفون في الفناء. فهب شبه واقف من مقعده معتمدًا على المسندين، وهو لا يدري جنود من هؤلاء الذين أقبلوا عليه، فأخذ يسائل نفسه: هل هو في حلم أم في يقظة؟ ولكنه قبل أن يبدي حركة أخرى، دخل عليه أحد الرجال راكضًا وهو يصيح فرحًا:

«القائد الصغير، ابنك، قد حضر!».

كان وانج النمر قد أفرط في الشراب تلك الليلة بسبب برودة الجو، ولم يستطع أن يثوب إلى رشده مرة واحدة، فأخذ يمسح فمه بيده ويتمتم: «لقد خيل إليّ في أحلامي أن القادم هو عدو من أعدائي».

ثم نهض واقفاً وهو يغالب النعاس، وخرج إلى الفناء من البوابة الكبيرة. كان وهج المشاعل التي يحملها عدد كبير من الرجال قد بدد ظلمة الليل، فلمح وانج النمر ابنه وسط هذا الضياء. كان الشاب قد ترجل عن جواده ووقف هناك ينتظر، فما إن رأى أباه مقبلاً حتى انحنى له، على أنه وهو ينحني حدجه بنظرة غريبة مشوبة بشيء من العداء. وعرت وانج النمر رجفة تحت وطأة البرد، فشد معطفه على جسمه، ثم تردد قليلاً قبل أن يسأل ولده، وقد استبدت به الدهشة:

«أين مدربك؟ وماذا أتى بك إلى هنا، يا بني؟».

فأجاب الشاب، وهو لا يكاد يحرك شفثيه:

«لقد تخاصمنا، فتركته وعدت».

حينئذ أفاق وانج النمر قليلاً من ذهوله، وأدرك أن ثمة بعض المتاعب التي لا ينبغي أن تناقش أمام كل هؤلاء الجنود الذين احتشدوا من حولهم، فهم متحفزون دائماً للاستماع إلى قصص المشاجرات. ومن ثم دار على عقبه ودعا ابنه أن يتبعه.

دلف الاثنان إلى حجرة وانج النمر الخاصة، ثم أمر النمر بأن يخرج الجميع من الحجرة، وظل هو وحيداً مع ابنه، ولكنه لم يجلس حينذاك، كلا، بل ظل واقفاً وابنه كذلك. وراح يشمل ابنه بنظرة فاحصة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكأن بصره لم يقع على هذا الشاب -ابنه- طيلة حياته. وأخيراً قال له في ببطء:

«ما هذا الرداء الغريب الذي ترتديه؟».

فرغ الابن رأسه وأجاب بطريقته الهادئة العنيدة:

«إنه الرداء الذي يميز جيش الثورة الجديد». ثم أخذ يرطب شفثيه بلسانه وهو واقف ينتظر أمام أبيه.

في تلك اللحظة أدرك وانج النمر ما قام به ابنه وطبيعة الدور الذي يقوم به الآن، كما أدرك أن هذه هي الثياب التي يرتديها أفراد جيش الجنوب في هذه الحرب الجديدة التي تواترت عنها الشائعات، فصاح على الفور:

«إن هذا هو جيش عدوي!».

وتهاوى فجأة على المقعد، فقد احتبست أنفاسه في حلقة حتى كاد يختنق. جلس هنالك وهو يحس بأن ثورة غضبه القديم الفتاك تجيش في أعماقه كما لم يحس بها منذ قضى على الرجال الستة. وإذا به يقبض على سيفه الدقيق القاطع، ويرفعه من مكانه، وهو يصيح كسابق عهده في صوت كالزئير:

«إنك عدوي؛ ينبغي أن أقتلك، يا بني».

ثم طفق يلهث في صعوبة، فقد كان غضبه هذه المرة من نوع غريب، وقد انبثق من أعماقه في سرعة خاطفة وبصورة غريبة، حتى إنه أحس بالمرض ينتابه فجأة، فراح يزدرد ريقه المرة تلو المرة دون أن يعي.

على أن الشاب لم يجفل الآن كما اعتاد أن يفعل في طفولته. كلا، بل وقف هادئاً يبدو عليه الإصرار، ثم رفع يديه وفتح سترته، وكشف عن صدره الأملس في مواجهة أبيه، وما لبث أن قال في صوت يقطر مرارة دفينية: «إنني أعلم أنك تود قتلي. إن القتل هو علاجك الوحيد العتيق الذي

لا تمتلك غيره». وظل يحدج وجه أبيه بنظرات ثابتة، ثم استطرد يقول دون أن تبدو عليه بادرة من الانفعال: «هيا، اقتلني». ووقف ينتظر متأهبًا للموت، وقد بدا وجهه صارمًا واضحًا على ضوء الشموع.

ولكن وانج النمر لم يجرؤ على قتل ولده. كلا، لم يجرؤ على قتله، رغم أنه كان يعلم أن من حقه أن يقتله، ورغم أنه كان يعلم أن أي رجل قد يقتل ابنه إذا أقدم على خيانتة، فهذا أمر يعده الناس ضربًا من ضروب العدل. رغم ذلك لم يجرؤ على الإقدام على هذا العمل. وأحس بأنه كبج فورة غضبه عندما بلغت ذروتها، فبدأت ثورته تغيض منه، وألقى بسيفه على أرضية الحجرة المغطاة بالقرميد، ثم تمتم وهو يغطي فمه بيده لكي يخفي شفتيه:

«إني ضعيف للغاية. لقد كنت دائمًا في غاية الضعف. مهما يكن من أمر، فإنني من الوهن بحيث لا أصلح لأن أكون ملكًا من ملوك الحرب». حينما رأى الشاب أباه جالسًا، وقد غطى فمه هكذا بيده، وسيفه ملقى على الأرض، غطى صدره المكشوف، ثم قال بطريقة هادئة متزنة كمن يجادل رجلًا طاعنًا في السن:

«أبتاه، أعتقد أنك لا تدرك الأمر. ما من أحد منكم معشر العجائز يفهم الأمر على حقيقته. إنكم لا تنظرون إلى أمتنا كوحدة واحدة، أو تدركون إلى أي مدى وصلت من الضعف والمهانة».

وهنا ضحك وانج النمر. اغتصب تلك الضحكة الصامتة التي تميزه، ثم أخذ يقهقه في صوت مرتفع، وصاح دون أن يرفع يده من على فمه:

«أتظن أن مثل هذا الحديث لم يُطرق من قبل؟ حينما كنت شاباً..
إنكم معشر الشباب تحسبون أنكم الأشخاص الوحيدون».

وعاد يغتصب تلك الضحكة الشاذة الغريبة التي لم يألف ابنه سماعها
تصدر منه بهذا الصوت المرتفع طيلة حياته. غير أن هذه الضحكة استفزته
كما لو كان قد شعر بوخز سلاح غريب، فأثارت في نفسه غضباً لم يألفه
فيه أبوه من قبل، وإذا به يصيح على حين فجأة:

«إننا نختلف أحداً عن الآخر! أتدري ماذا يطلقون عليك؟ إنك
متمرد.. زعيم عصابة من اللصوص. وإذا تسنى لرفاقي أن يعرفوك لسموك
خائناً. ولكنهم لا يعرفون حتى اسمك. فما أنت إلا ملك صغير من ملوك
الحرب في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم».

هكذا تكلم ابن وانج النمر، بعد أن لزم الصبر طيلة حياته. وظل
ينظر إلى أبيه في غضب، ولكنه خجل من نفسه في تلك اللحظة، فالتزم
الصمت، وأخذت حمرة قانية تتصاعد إلى رقبته، ثم غص من بصره، وبدأ
يفك حزامه الجلدي في بطء وتركه يسقط على الأرض، فصدرت عن
الرصاصات قرعة عند اصطدامها بالبلاط. وأطبق عليه الصمت، فلم
يتفوه بكلمة أخرى.

أما وانج النمر، فلم يحر جواباً. بل جلس صامتاً في مقعده لا يبدي
حراكاً، وما زالت يده تحجب فمه. لقد وجدت كلمات ابنه هذه سبيلاً
إلى عقله، فأحس بأن قوة ما قد بدأت تتلاشى من كيانه إلى الأبد. وسمع
صدى هذه الكلمات يتردد في قلبه.. أجل، إنه ليس إلا ملكاً تافهاً من
ملوك الحرب. أجل، ملكاً صغير الشأن في مدينة صغيرة بأحد الأقاليم.

ولم يلبث أن غمغم في وهن، ويده تغطي فمه كأنها عادة متأصلة فيه:
«ولكنني لم أكن زعيم عصابة من اللصوص في يوم من الأيام».
شعر ابنه في هذه اللحظة بخجل حقيقي يعتره، فأجابه مسرعاً:
«كلا. كلا. كلا!».

ثم قال كما لو كان يحاول تغطية خجله:

«ينبغي أن أخبرك يا أبتاه بأن من الضروري أن أختبئ بعيداً عندما يتجه جيشي ظافراً إلى الشمال. لقد دربني معلمي على خير وجه، طيلة هذه السنوات الطويلة، وكان يعلق عليّ الآمال. كما أنه كان قائدي في جيش الثورة، لذلك، فإنه لن يغتفر لي بسهولة أنني قد اخترتك أنت يا أبتاه». هنا خفت صوت الشاب، وتطلع إلى أبيه في لمحة تنطوي على حنان خفي في أعماقه.

ولكن وانج النمر لم يحر جواباً، بل ظل جالساً وكأن شيئاً لم يطرق سمعه، في حين مضى الشاب في حديثه وهو يتطلع إلى أبيه بين الحين والحين، كما لو كان يلتمس منه مطلباً.

«هنالك ذلك البيت المشيد من الطين يمكنني أن أختبئ فيه. أستطيع أن أمضي إلى هناك. وإذا ما توجهوا للبحث عني وعثروا عليّ، فقد يظنونني فلاحاً من السوق، لا ابن ملك من ملوك الحرب». وهنا بدت على وجه الشاب ابتسامة طفيفة وكأنه يأمل في إغراء أبيه على إجابة مطلبه متوسلاً بهذا المزاح الخفيف.

بيد أن وانج النمر ظل صامتاً، ولم يدرك مغزى كلمات ابنه حين

قال: «اخترتك أنت، يا أبتاه» كلا، لقد ظل وانج النمر جالسًا لا يبدي حراكًا وقد خيمت عليه مرارة العمر كله. أفاق في تلك اللحظة من أحلامه وكأنه رجل خرج فجأة من بين ضباب كثيف ظل يسير في ظلماته أمدًا طويلًا، ونظر إلى ولده، فرأى فيه رجلًا لم يعرفه قط. أجل، لقد رسم لهذا الابن صورة في أحلامه، وحاول أن يصوغه كما تمثله تمامًا في الأحلام، وها هو ذا ابنه يقف أمامه، ولكنه لا يعرفه: فلاح من السوق! وبينما هو ينعم النظر في ولده، أحس بأن شعوره القديم بالعجز يزحف عليه مرة أخرى. إنه نفس العجز المريض الذي اعتاد أن يحس به أيام صباه عندما كان حبيسًا في ذلك البيت المشيد من الطين. وشعر عندئذ كأنما أبوه، ذلك الشيخ الراقد في الأرض، قد مد يده الدنيوية من قبره ووضعها على ابنه. ثم عاد ينظر بطرف عينه إلى ذلك الابن، ذلك الابن الذي انبثق من صلبه، وغمغم من وراء يده، كأنما يخاطب نفسه:

«ليس ابنًا لملك من ملوك الحرب».

ثم بدا له فجأة أنه ما من شيء - حتى يده - يمكن أن يوقف من رعشة شفثيه... لا مفر من البكاء. وكان من المؤكد أنه سيبكي في هذه اللحظة، لولا أن فتح الباب ودلف تابعه الأمين الأشرم، يحمل في يده إبريقًا مليئًا بالخمير الساخنة تفوح منها رائحة ذكية ويتصاعد منها البخار.

ونظر هذا التابع الأمين العجوز إلى سيده كعادته حين يدخل حجرته، فرأى منه ما جعله يهرع إليه بأقصى ما وسعه من سرعة، ويصب له الخمر الساخنة في القدح الذي كان فارغًا فوق النضد.

وأخيراً رفع وانج النمريده من على فمه، ومدّها في لهفة يتناول قدح
الخمّر، ثم رفعه إلى شفّتيه وأخذ يعب منه عبّاً. كانت الخمّر جيّدة..
ساخنة جيّدة للغاية؟ فعاد يمد يده بالقدح وهو يقول في همس:
«مزيّداً من الخمّر».

وأبى أن يبكي مهما يكن الأمر.

